مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآنِ الكريمِ بحسبِ ترتيبِ النُّزُولِ
وِفْقَ منهجِ كتابِ «قواعدِ التدبُّرِ الأمثلِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ»

المجلَّد الثَّاني عشر

تفسيرُ السُّوَرِ التَّاليةِ:
سبأ/ ٥٨ والزمر/ ٥٩ وغافر/ ٦٠
وفُصِّلت/ ٦١ والشورى/ ٦٢ والزخرف/ ٦٣

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

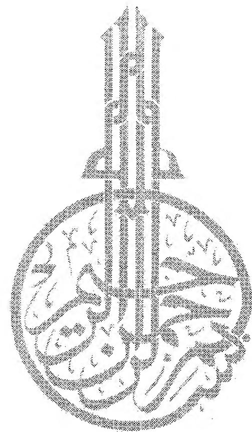

معارج التفكر

ودقائق التدبر

١٢

دار القلم
دمشق
أسسها: محمد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سورة «سَبَأْ»

٣٤ مصحف ٥٨ نزول

وهي سورة مكيّة

وقيل: إلّا الآية (٦) منها

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ

---

٣ - • قرأ نَافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: [عَالِمُ الْغَيْبِ] برفع «عالم» علىٰ أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو.

وقرأها حمزة، والكسائي: [عَلَّامِ الْغَيْبِ] بصيغة مُبالغة لـ«عالم» مَعِ الجرّ، علىٰ أنّه صفة لـ«رَبِّي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾ بجرّ «عَالِم» علىٰ أنه صفة لـ«ربي».

والرَّفعُ والجرّ وجهان عربيان جائزان. وفي صيغة «عَلَّام» توكيد دَلَالَةٍ علىٰ أَنَّ عِلْمَ اللهِ بالِغٌ الغاية.

٣ - • قَرأ الكِسَائي: [لَا يَعْزِبُ] بكَسْرِ الزاي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ بضم الزّاي.

والقراءتان لغتان عَربيتان.

سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا

٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو: [مُعَجِّزِينَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾.
وبين القراءتين تَكامل في أداء المعنىٰ المراد كما سيأتي إن شاء الله بَيَانُهُ.

٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وحفص، ويَعْقُوبُ: [**لَهُم عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**] برفع «أليمٌ» علىٰ أنَّهُ صِفَةٌ لـ«عَذَابٌ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ**] بجَرّ «أليمٍ» علىٰ أنه صِفَةٌ لـ«رِجْزٍ».
ومؤدّىٰ القراءتين واحد، وهما من التَّفَنُّنِ في حركة الإعراب.

٦ ـ • قرأ قُنبل، ورُويس: [**إِلَىٰ سِرَاطٍ**] بالسّين. وقرأها خَلَفٌ عَنْ حمزة بإشمام الصاد زاياً. وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**إِلَىٰ صِرَاطٍ**﴾ بالصّاد الخالِصَة.

٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**إِنْ يَشَأْ يَخسِفْ بِهُمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ**].
وقرأها أبو عمرو، ويَعقوب: [**إِنْ نَشَأْ نَخسِف بِهِم الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**إِن نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ**﴾ بيْنَ الْحَدِيث بضمير الغائب، والحديث بضمير المتكلّم العظيم تفنُّن في التعبير.

٩ ـ • قرأ حفصٌ: ﴿**كِسَفاً**﴾.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**كِسْفاً**] وهُمَا لُغَتَان.

دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ

١٢ ـ • قرأ شعبة: [**الرِّيحُ**] بالرفع، والإفراد.
وقرأها أبو جعفر: [**الرِّيَاحَ**] بالجمع والنَّصْب.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**الرِّيحَ**﴾ بالإفراد والنصب.
والمؤدّىٰ واحد.

١٣ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو: [**كَالْجَوَابِي**] بإثبات الياء في الوصل.
وكذلك قرأها ابنُ كثير، ويَعْقُوب، في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**كَالْجَوَابِ**﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف.

١٣ ـ • أسكن ياء المتكلم في: [**عِبَادِي الشَّكُورُ**] حمزة وصلاً ووقفاً.
وفتحها باقي القراء العشرة وَصْلاً وأسْكَنُوهَا وقفاً.

١٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**مِنْسَاتَهُ**] بإبدال الهمزة ألفاً ليّنة.
وقرأها ابْنُ ذكْوان: [**مِنْسَأْتَهُ**] بِهَمْزَةٍ سَاكنة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**مِنسَأَتَهُ**﴾ بهمزةٍ مَفتُوحة.
ووقف حمزة بالتسهيل فقط.
وهـٰذه القراءات لَهَا وجوه في نطق الكلمة. **المنسأة**: الْعَصَا.

١٤ ـ • قرأ رُوَيْس: [**تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ**]: أي: كُشف للناس أنّ الجنّ لَا يَعْلَمُونَ الغيب.
وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ: ﴿**تبَيَّنَتِ الْجِنُّ**﴾ أي: أَنَّهُمْ لو كانوا يَعْلَمُون الغيب=

أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا

= لَعَلِمُوا أَنَّ سُلَيْمَانَ كانَ مَيّتاً طوال المدّة الّتِي كان فيها مُتوكّئاً علىٰ العصا قبل أن تأكلها الأرضة فتنكسر، ولما لَبِثُوا في الْعَذَابِ المهين.

١٥ ـ • قرأ البزّي، وأبو عمرو: [لِسَبَأَ] جرّاً بالفتحة علىٰ أنه ممنوع من الصرف.
وقَرَأَهَا قنبل: [لِسَبَأْ] بإسْكَانِ الهمْزَة، حكايَةً للنطق الدارج.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لِسَبَإٍ﴾ بالجرّ والتنوين علىٰ أنّه مَصْرُوف.

١٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ بالإفراد وفَتْح الكاف.
وقرأها الكِسَائي، وخلف: [مَسْكِنِهِمْ] بالإفراد وكَسْرِ الكاف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [مَسَاكِنِهِم] بالجمع، إذ كَانَتْ لهم مَساكِنُ مُتعَدِّدَةٌ في قُرَىٰ، وعليه يُحْمَلُ الإفراد، إذ هو مضاف إلىٰ ضميرهم.

١٦ ـ • قرأ نَافع، وابن كثير: [أُكْلٍ خَمْطٍ] بإسْكان الكاف، وجرّ اللام مع التنوين.
وقرأها أبو عمرو، ويعقوب: [أُكُلِ خَمْطٍ] بضم الكاف وجَرّ اللّام دون تنوين، وهو علىٰ الإضافة.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بضم الكاف وجرّ اللّام مع التنوين.
والمؤدّىٰ في القراءات واحد.

١٧ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وشعبة، وأبو جعفر: [وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الكَفُورُ].
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ

١٩ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام: [رَبَّنَا بَعِّدْ].
وقَرَأَها يَعْقوب: [رَبُّنَا بَاعَدَ] وهـٰذه القراءة دلَّتْ علىٰ أنّ الله استجابَ دُعَاءَهم.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾. بعِّدْ، وبَاعِدْ، لغتان.

٢٠ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿صَدَّقَ﴾ بِتَشْدِيد الدّال.
وقرأها باقي القراء العشرة: [صَدَقَ] بفتح الدال دُون تشديد.

٢٢ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادْعُوا] بِكَسْرِ اللام.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ادْعُوا] بضم اللّام مَراعاةً لضم العين.

٢٢ ـ • قرأ يعقُوب: [فِيهُمَا] بضم الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِيهِمَا﴾ بكَسْر الهاء. وهما لغتان.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو، وحَمْزَة، والكسائي، وخلف: [أُذِنَ لَهُ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَذِنَ لَه] بالبناء للمعلوم، أي: أَذِنَ اللهُ له.
قراءة «أُذِنَ لَهُ» هي علىٰ مَعْنَىٰ: أُذِنَ لَهُ من اللهِ عزّ وجلّ.
فمؤدّىٰ القراءتين واحد.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ

---

٢٣ ـ • قرأ ابن عامر، ويعقوب: [فَزَّعَ] بالبناء للمعلوم، والفاعل هو الله عزّ وجلّ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلِهِ. وهي علىٰ معنىٰ:
فَزَّعَ اللهُ عزّ وجلّ.
فمؤدّىٰ القراءتين واحد.

ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ

---

٣٧ ـ • قرأ رُوَيس: [جَزاءً الضِّعْفِ] مع كَسْرِ التنوين في الوصل لالْتِقاءِ السَّاكنين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿جَزاءُ الضِّعْفِ﴾ بالرَّفع والإضافة.

٣٧ ـ • قرأ حمزة: [فِي الْغُرْفَةِ] بالإفراد.
وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ بالجمع.
والمؤدَّىٰ واحِد لأنّ المراد بالغرفة الجنس.

٣٨ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو: [مُعَجِّزِينَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾.

٤٠ ـ • قرأ حفص، ويعقوب: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ﴾: بياء المضارعة في الفعلين.
=

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهُم جميعاً ثم نَقُولُ] بضمير المتكلّم العظيم.

٤٥ ـ • قرأ يَعْقُوب: [نَكِيرِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وكذلِكَ قرأها وَرْش في الوصل فقط.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿نَكِيرِ﴾ بحذف ياء المتكلم لفظاً وهي مقدَّرة ذهْناً.

٤٦ ـ • قرأ رُوَيس في الوصل: [ثُمَّ تَّفكَّرُوا].

وقرأها باقي القراء العشرة في الوصل والوقف ﴿ثُمَّ تتفكَّرُوا﴾.

٤٧ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وٱبن عامر، وحفص، وأَبُو جَعْفَر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا﴾ =

عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

= بفتح ياء المتكلم. وأَسْكَنَها باقي القراء العشرة.

٤٨ ـ • قرأ شعبة، وحمزة: [الغِيُوبِ] بكَسْر الغين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بِضَمّ الْغَيْنِ.
القراءتان لُغَتانِ عَرَبيتان للكلمة.

٥٠ ـ • قَرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ﴿رَبِّيَ إِنَّهُ﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: بإسْكان ياء التكلم.

٥٢ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [التَّنَآؤُشُ] بالهمزة بَعْدَ الأَلف.
وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: ﴿التَّنَاوُشُ﴾ بالواو بعد الألف.
ويقف حمزة بالتسهيل مع المدّ والقصر.

٥٤ ـ • قرأ ابْن عامر، والكِسَائي، ورُوَيْس: بإشْمَام ضَمِّ الحاء من: ﴿وَحِيلَ﴾ الكَسْر.
وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَحِيلَ﴾ بالكَسْرَة الخالِصَة.

(٢)
موضوع سُورَة «سَبأ»

ظهَرَ لي أنَّ موضوعَ سُورَةِ «سَبأ» يَدُور حَوْلَ مُتابَعةِ مُعَالَجَةِ فِئةٍ مِنَ المشركين المعانِدِين، الّذِين لَمْ يَصِلُوا إلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّة، تُجاهَ مَوَاقِفِهِم الَّتِي كَانُوا عَلَيْها إبَّانَ نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَة، والأقوالِ المكَرَّرَةِ والمتَجَدِّدَة الَّتي كانُوا يَقُولُونَها في هٰذِهِ المرحَلَةِ، بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ، وحَدِيثِهِ عَنِ الْبَعْثِ وَيَوْم الدين، وبِشَأْنِ إصْرارِهِمْ علَىٰ عِبَادَةِ آلِهتِهِمْ، مِنْ دُونِ الله، مُتَذَرِّعِينَ بأنَّها تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهم، وَبَشَأْنِ تَرْدِيدِهم مقُولَتَهُمْ للرَّسُول ﷺ: متَّىٰ يَكُون تَحْقِيقُ مَا أَنْذَرْتَنَا بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبّك، وبِشَأْنِ إعْلَانِهم الصَّرِيحِ بِأَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا بهٰذا القرآن وَلَا بالكُتُبِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلىٰ الرُّسُلِ السَّابقين، وبِشَأْنِ اعْتِزَازِهِمْ بأمْوَالِهِمْ وَبِمَا أُتْرِفُوا فِيه، إذْ هُمْ مُتَّفَوِّقُونَ بِهِ عَلىٰ الَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعُوا الرَّسُول.

واشْتَمَلَتْ مُعَالَجَتُهُمْ في السُّورَةِ علىٰ عِدَّةِ عناصِرَ عِلَاجيّة، أَهَمُّها مَا يلي:

(١) الإقناع الفكريُّ ببيَانَاتٍ مُلَائماتٍ لِموَاقِفِهِمْ.

(٢) تَرغيب الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ بِمَغْفِرَةٍ ورزقٍ كريمٍ يَوْمَ الدّين.

(٣) مجادَلَتُهُمْ والتَّوجيهُ لمجادَلَتهمْ بالَّتِي هي أَحْسَنُ، ولنُصْحِهِمْ بأنْ يَتَأَمَّلُوا وَيَتَفَكَّرُوا مَثْنَىٰ وفُرَادىٰ، مُتَجَرِّدِينَ مِنْ سَوابقِ المؤثّرات، ومِنْ هَيْمَنَةِ جَمَاعَاتِهِمْ الضَاغِطَةِ عليهم، لِيَكُونَ تَفْكِيرهُمْ أَكْثَر صِحَّةً وسَلَامَة، وأَرْجَىٰ لإدْرَاك الْحقّ.

(٤) عَرْضُ أَمْثِلَةٍ مِنْ قِصَصِ الأولِينَ تَكْشِفُ سُنَّةَ اللهِ في عباده، رغبةً في أَنْ يَتَّعِظُوا بها.

(٥) الترهيب من عذابِ اللهِ المعَجَّلِ والمؤجّلِ، مع تقديم بَعْضِ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يوم الدّين.

وقَدْ جاءت هٰـذهِ المعالجات بأسْلُوبٍ تَرَاوُحيٍّ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ، والأخْذِ مِنْها عِنْدَ كُلِّ مِفْصَلٍ مَا يُلَائِمه، لَا بأسْلُوبِ التزامِ البيانِ حول عُنْصُرٍ واحِدِ حتَّىٰ آخِرِ ما يُرَادُ بَيَانُهُ مِنْهُ في السورة، مع التَّنْويع في الأسَاليب.

(٣)
دُروس سورة «سبأ»

هـٰذه السورةُ تشتمل علىٰ (١١) درساً فيما بَدَا لِي بَعْدَ تَأَمُّلٍ وإعَادَةِ نظر وتَفَكّر:

الدرس الأول: الآيتان (١) و(٢).

وفي هـٰذا الدَّرْسِ بيان أنَّ الحمْدَ كُلَّهُ لله في الدُّنيا، وأنَّهُ هُو الّذِي لَهُ مِلْكُ كلّ ما في السَّمَاواتِ والأرض مِنْ ذي حياةٍ وغير ذي حياة.

وبيانُ أنَّ لَهُ وحْدَهُ الحمْدَ كُلَّهُ في الآخِرَة، وأنَّه هو الحكيم الخبير.

وبيان إحَاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ حَرَكَاتِ المَوْجُوداتِ الكُبْرىٰ والصُّغْرَىٰ، في الأرضِ وفي السَّمَاء.

وهـٰذا الدَّرْس بمَثَابَةِ مُقَدِّمَةٍ مِنْ عَنَاصِرِ القَاعِدَةِ الإيمانية، للدُّخول في أصْلِ الموضوع الّذي تَدُور حَوْلَهُ آيَاتُ السُّورَةِ، والذي سبَقَ بيانُهُ في الفقرة (٢).

الدرس الثاني: الآيات من (٣ ـ ٩).

وفيه عَرْضُ مقالَتَيْن من مقالَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إبَّانَ تَنْزِيلِ سورة «سبأ».

المقالة الأولىٰ: قولُهُمْ: لَا تَأْتينا السَّاعَةُ، وهي ساعة البعث.

المقالة الثانية: شتيمتهم للرَّسُولِ محمّد ﷺ أَمَامَ جماهيرهم للصّدِّ

عن الإيمان بِهِ، فزعُموا أنَّهُ كاذِبٌ يَفْتَرِي علىٰ الله، أو مجنون، فَهُو يقولُ كَلاماً عجيباً لَا يُسْتَسَاغ عَقْلاً، فيزْعُمُ أنَّ النَّاس إذا ماتُوا وتفرَّقَتْ ذرَّاتُ أجْسَادِهِمْ في الأرض، سَوْفَ يَخلقُهُمُ اللهُ خلْقاً جَدِيداً، ويُحْيِيهم حياةً أُخْرَىٰ ليحَاسِبَهُمْ، ولِيُجَازِيَهُمْ علىٰ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ فِي الحياة الأُولَىٰ.

وجاء فيه عَقب بيانِ كُلِّ مَقَالَةٍ مِنْهُما مَا يُلائِمُها مِنْ عِلَاج.

الدَّرْس الثالث: الآيات من (١٠ ـ ١٤).

وفيه عرضُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنْ قِصَّةِ دَاوُدَ وابْنِهِ سُلَيْمَانَ عليهما السَّلَامُ، لإشعار الرَّسُول ﷺ والَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أَنَّ من الْيَسِيرِ عَلىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَهَبَ رَسُولَهُ محمّداً مِثْلَمَا وَهَبَ دَاود وسُلَيْمَانَ وأفْضَل، وإِذْ لَمْ يَفْعَلْ فاعْلَمُوا أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ في هٰذه الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ المبْعُوثُ لِتبلِيغها والقيامِ بوظائِفِ رِسَالَتِهِ فيها كَمَا اخْتَارَ اللهُ لَهُ وهُوَ وَاقِعُهُ الَّذِي هُوَ عَلَيْه.

وهٰذا المَعْنَىٰ يَفْهَمُه فُطَنَاءُ المشركين أيضاً.

الدَّرس الرابع: الآيات من (١٥ ـ ٢١).

وفيه عَرْضُ مُوجزٍ عَنْ قوم «سَبأ» وهم سامِيون، من الْعَرَبِ العاربة، ولَيْسُوا مِنْ سَلَالَة «إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام». سُمُّوا باسْمِ جَدِّهِمْ «سَبَأ» وإليه تَنْتَسِبُ قَبَائِلُ الْيَمَن.

وفي هٰذا المُوجزِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ سَلَبَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ ورِزْقٍ وافر، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ بأنْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِم، إذْ شَقَّ لَهُمُ الرَّدْمَ الَّذِي جَعلُوهُ سَدّاً في مَأْرِب، يَحْجُزُ وَرَاءَه ماءً كثيراً، يَسْقُون مِنْهُ مَزَارِعَهُمْ وبَسَاتينهم، فانْدَفَعَ الماء سَيْلاً مُدَمّراً، فأتْلَفَ مزارِعَهُم وَأَغْرَقَ بُيُوتهم، فَتَفَرَّقُوا في الْبِلاد، وَمَزَّقَهُم اللهُ أَشْتَاتاً.

وفي هـٰذا العَرْضِ إنْذارٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ بأنَّ اللهَ قَدْ يَجْزِيهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِسَلْبِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَمْوَالٍ يُفَاخِرُونَ بها.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٢ ـ ٢٧).

وفيه تَعْلِيمُ حِوَارٍ إقْناعِيٍّ وجَدَلِيٍّ للرَّسُولِ ولكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أمَّتِهِ، يُوجِّهُ للمشركين بِشَأْنِ آلِهَتِهِمْ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُون اللهِ عزّ وجلّ.

الدرس السادس: الآيات من (٢٨ ـ ٣٠).

وفيه خِطَابٌ للرَّسُولِ ﷺ بأنَّهُ رسُولٌ للنَّاسِ كَافَّةً، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافِرين.

وفيه عَرْضُ مَقُولَةِ الْكَافِرِينَ الّتي يُكَرِّرُونها سَائِلين: مَتىٰ يكُونُ قيام السَّاعَةِ، ومَتىٰ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ محمّد من عذابٍ مُعَجّلٍ، مع بيان الرَّدِّ الذي يَنْبَغِي أنْ يُرَدَّ بِهِ عَلَىٰ مُمَاحَكَتِهِمُ الجدليَّةِ التي يُكَرِّرُونها.

الدرس السابع: الآيات من (٣١ ـ ٣٣).

وفيه بَيَانُ مقُولَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْعِنَادِيَّةِ التَيْئِيسيَّة مِنْ إيمانهم: «لَا نُؤْمِنُ بهـٰذا القرآنِ وَلَا بالكُتُبِ السَّابقة له».

وجاءتْ مُعَالَجَتُهُمْ بِشَأْنِ هـٰذِهِ المقولَةِ بعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إذْ يَكُونُون مَوْقُوفِين عِنْدَ رَبِّهِمْ يُحَاسِبُهم مع بَيَانِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الأَتْبَاعِ وَبَيْنَ الّذِينَ كَانُوا كُبَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيا مِنْ تَخاصُمٍ، إذْ كانُوا يأْمُرُونَهُمْ بِأَنْ يَكْفُرُوا بالله، وبِأَنْ يَجْعَلُوا لَهُ شُرَكاءَ أَنْداداً.

الدرس الثامن: الآيات من (٣٤ ـ ٣٩).

وفيه إشعارٌ بأنَّ حَالَ مُتْرَفي قُرَيشٍ، الّذِينَ كَفَروا بِرِسَالَةِ رَسُولِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَفَاخِرِين ومُعْتَزِّينَ بأمْوالهم وأولادهم، مُشابهٌ لأحْوَالِ مُتْرَفي أهْلِ الْقُرَىٰ الذين كَفرُوا مِنْ قَبْلِهم، إذْ قَالَوُا لمّا أعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بِمَا أُرْسِلَ

بِهِ رُسُلُ رَبّهم: نَحْنُ أَكْثَرُ مِن المؤمنينَ أمْوالاً وَأَولَاداً، وَإِذْ قَدْ فَضَّلَنا اللهُ بهـٰذا فَمَا نَحْنُ بِمُعَذّبين، إِنْ صَحَّ أَنَّهُ ستَكُونُ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ بَعْدَ هـٰذِهِ الحياة.

وفيه تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ مُحمّد ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أمّتِهِ، مفاتيحَ الإقْنَاعِ الّذي يَكْشِفُ لَهُمْ خَطَأَهُمْ في تَصوُّرِهِم، وهو أَيْضاً بَيَانٌ مِنَ اللهِ لهم. وفيه أيضاً تَعْلِيمُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ الرَّسُولُ والدَّاعي إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، لِلْمُسْلمينَ المُؤْمِنِين، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ مُتَفَاضِلِينَ في الأَرْزَاقِ.

الدرس التاسع: الآيات من (٤٠ ـ ٤٢).

وفيه بيانٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، يُقَدِّمُ فِيهِ للمشركين الّذِينَ يتوهّمُونَ أنَّ قُرَنَاءَهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الجنّ مَلَائكة، مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ يوم القيامة، يَسْأَلُ الله فِيهِ الْمَلَائِكَةَ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟ فيتبرَّؤُون مِنْهُمْ ويَقُولُونَ: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾.

وفي آخر هـٰذا المشهد بَيَانُ ما يقولُهُ اللهُ لِلْمُشْرِكينَ وآلِهَتِهِمْ، ومَا يَقُولُهُ للذّينَ ظَلَمُوا إِذْ يقول لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ولا يَخْفَىٰ مَا فِي هـٰذا الْعَرْضِ مِنْ عِلَاجٍ فَعَّالٍ مُؤَثِّرٍ في قُلُوب الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتعدَادٌ مَا للاستجابة لِلْحَقّ، لم تُطْمَسْ بصائرهم باتباعهم أهواءهم وشهواتهم وَمَطالِبِهِمْ مِن الحياة الدُّنيا العَاجلة.

الدرس العاشر: الآيات من (٤٣ ـ ٥٠).

وفيه بَيَانُ مَقَالَةِ الّذِينَ كَفَرُوا بشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آياتٍ بَيّنَاتٍ من القرآن المجيد، إِذْ يتهمُونَهُ بأنَّ غَرَضَهُ انْتزاعُ الزّعَامَةِ، بِصَدِّ النَّاسِ عمَّا كان يَعْبُدُ آبَاؤهم، وَبأنَّه يَفْتَري القرآنَ من عِنْدَه، ويَنْسُبُهُ إِلىٰ الله، وَبأنَّ مَا فِي القرآن مِنْ تَأْثِير عَلَىٰ سَامِعِيه هُوَ مِنْ قَبِيل السِّحر. وَيَزْعُمُونَ

أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ مَا آتاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها، وما أَرْسَلَ إلَيْهِمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ مِنْ نَذِير، جَاحِدِينَ رِسَالَة إسْمَاعِيلَ وإبراهيمَ عَلَيْهِما السَّلام، وما أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِما مِن تعليماتٍ دِينيَّة، وجاحِدِينَ التَّوْرَاةَ والإنْجِيْلَ، وقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلّ صَحِيحٍ بَلَغَهُمْ عَنْ أيّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ الله.

وفيه تَعْلِيقٌ رَبَّانِيٌّ عَلَىٰ هـٰذا الموقف مِنْ مَواقِفِهم، وتَعْلِيمٌ لِلرَّسُول ﷺ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَهُ لهم مُعَالَجَةً لهـٰذا الموقف.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٥١ ـ ٥٤) آخر السورة.

وفيه بيانُ مَشْهَدٍ مِن مَشَاهد الكافِرِينَ يَوْم الْقِيَامَةِ، إِذْ يَقُومُونَ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ فَزِعِينَ مِمّا هُمْ صَائِرُونَ إلَيْهِ مِنْ عَذَابِ رَبّهم، ويَجِدُونَ أنهم يُؤْخَذُونَ مِنْ أَمْكِنَةٍ قَرِيبة مِنْهُمْ، تَأْخُذُهُمُ الْمَلاَئِكَةُ المحيطَةُ بهم إلَىٰ حَيْثُ تُقَامُ لَهُمْ مُحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، ويُحَاوِلُونَ أنْ يَتَخَلَّصُوا بِإعْلَانِ إيمانِهِمْ، لٰكِنَّهُمْ عاجزون عَنْ أنْ يَصِلُوا إلَىٰ شيءٍ يحقّقُ لَهُمْ نَجاتَهُمْ، وَيَكُونُ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إبلٍ ظِمَاءٍ تَمُدُّ أعْنَاقَها إلَىٰ مَاءٍ يَبْعدُ عَنْها مِقْدَارَ مَدِّ بَصَرِها، ويُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، ثُمَّ يَلْقَوْنَ عَذَابَهم الَّذِي يَقْضِي بهِ عَلَيْهِم رَبُّهُم علىٰ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ في رِحْلَةِ امتحانِهِم في الحياة الدُّنيا.

(٤)
التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (سَبأ) الآيتان الأولىٰ والثانية

قال اللهُ عَزَّ وجلّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

تمهيد:

هاتان الآيتان هُمَا بمَثَابَةِ مُقَدّمَةٍ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَة الإيمانِيَّةِ، للدُّخُول في أَصْلِ الْمَوْضُوعِ الّذِي تَدُور عَلَيْهِ آيات السورة، وهو مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ فِئَةٍ مِنَ المشركين تُجَاهَ مَوَاقِفِهم الّتي كَانُوا عَلَيْهَا إبَّان نُزُول السُّورَة، والأَقْوَالِ المكَرَّرَةِ والمتجدِّدَةِ الّتي كانُوا يَقُولُونَها فِي هٰذه المرحَلَةِ، ممَّا يَتَنَاقَضُ مَعَ أصُولِ الدِّينِ وحِكْمَةِ اللهِ في تَصَارِيفه.

التدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾:

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أَيْ: كُلُّ الثَّنَاءِ الَّذِي يُدْرِكُهُ الْعِلْمُ الشَّامِلُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شيءٍ، هُوَ ممَّا اخْتَصَّتْ بِهِ ذَاتُ اللهِ وَصِفَاتُه، وَهُوَ يَشْمَلُ الثَّنَاءَ علىٰ اتِّصَافِهِ بِكُلّ صِفَاتِ الكمالِ الَّتي تَلِيقُ بِذَاتِهِ الْعَلِيَّة، وَتَنَزُّهَهُ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النَّقْصِ الّتِي لَا تَلِيقُ به، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

«ال» في لفظ «الحمد» للاستِغْراقِ، و«اللّام» في «لله» للاختصاص.

• ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أَي: الَّذِي كُلُّ مَا فِي السَّمَاواتِ وكُلُّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ ذَواتٍ وَقُوىٰ وصِفَاتٍ، أَحْيَاءٍ وغَيْرِ أَحْيَاءٍ، هِيَ مِلْكُهُ، لأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ خَلَقَهَا بأَمْرِ التَّكْوين، فَلَا أَحَدَ يُشَارِكُهُ فِي مِلْكِ شَيْءٍ مِنْها، إذْ لَمْ يُشَارِكْهُ في خَلْق شيءٍ مِنْهَا أحدٌ، وَكُلُّ مَا يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ مُشَارِكٌ للهِ في شيءٍ من الوُجُودِ كُلِّه هو خَلْقُهُ، وَهُوَ مِلْكُهُ.

أَطْلِقَ لفظ «مَا» عَلَىٰ غير ذَوِي الْعِلْم وَعَلَىٰ ذَوِي العلم، مِنْ بَاب التَّغْلِيب، لأَنَّ المَخْلُوقاتِ الّتِي لَمْ تُوهَبْ أَدَوات الْعِلْمِ والْمَعْرِفَة أَكْثَرُ في الوجود مِنَ الّتي وُهِبَتْ أَدَوَاتِ العلم والمعرفة.

السَّماوات: كُلُّ الْكَائِنَاتِ الْمَوْجُودَة في الكَون، حَوْل الأرضِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ عزّ وجلّ بِخَصَائِصِها لِسَكَنِ الإِنْسِ والجنّ.

• ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾: دَلَّ هـٰذا البيانُ علىٰ أنَّ المرادَ بعبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في صَدْرِ الآية هو «الْحَمْدُ للهِ في الأُولىٰ الَّذِي لَهُ فيها كُلُّ مَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْض». وهُوَ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا سَيَكُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ شيءٍ هُوَ خَلْقُهُ وَهُوَ مِلْكُهُ أيضاً، فالْحَمْدُ في الآخِرَةِ كُلُّهُ لَهُ أيضاً.

• ﴿..وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾: الحكِيمُ الخبيرُ اسْمَانِ جليلانَ عَظِيمانِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

الحكيم: هُو الذي يضَعُ الأَشياء في مَواضِعها الملائمة لها، ويخْتَارُ أَفْضَلَ الأَشياء وَأَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَها فِي الأُمُور المخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج.

وهو من الصِّيَغ الدالَّةِ علَىٰ الكمالِ في الحِكْمَة، ومن المَسلّم به أَنَّ الكمالَ بالنسبة إلىٰ اللهِ عزّ وجلّ لا تُحيطُ بِهِ تَصَوُّرَاتُ المخْلُوقَاتِ، إِذْ هي تُدْرِكُ منهُ عَلىٰ مَقَادِيرِ إِدْرَاكَاتِها، وتُطْلِقُ الباقي في أبْعَادِ عَالَمِ الغيب.

الخبير: العالم بالشَّيْءِ أو بالأَمْرِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسَةٍ، ومِنَ المعلوم أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ حَتَّىٰ أصْغَرِ صَغِيرٍ فيهِ، فَلَهُ الْخِبْرَةُ التَّامَّةُ بِكُلِّ شيء، إِذْ هُوَ مَعْلُومٌ لَهُ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وصُنْعٌ من صَنِيعِهِ.

ومن حِكْمَته جلَّ جلالُهُ أَنَّهُ سَيُجَازِي العصاةَ بِعَدْلِهِ، ويُثيب المطيعينَ بفضله، وهو خبير بِأَعْمَالِ عباده.

■ قول اللهِ تَعَالىٰ:

• ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ التَّعْبِيرِ عَنْ شُمُولِ عِلْمِهِ وإحَاطَتِهِ بِكُلِ كَبِيرٍ وصَغِيرٍ في الوُجُودِ حتَّىٰ أصْغَرِ أجْزاءِ الذَّرَّةِ الّذِي لا تُدْرِكُ الْخَلائِقُ حُدودَه، لِبُلُوغِهِ الغايَةَ في الصِّغر.

• ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَشْمَلُ المياهَ، والأحْيَاءَ الكُبْرَىٰ والصُّغْرَىٰ حتَّىٰ «البكْتِرْيَاتِ» وَمَا هُو أصْغَرُ مِنها، وَيَشْمَلُ الأَشِعَّةَ والحرارة وأجزاءَهما حَتَّىٰ أَصْغَرِ جُزْءٍ، ويَشْمَلُ الْقُوىٰ المخْتَلِفة، ومِنْهَا الجاذِبِيَّة حَتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ مِنْها، وَإذا كَانَ يَعْلَمُ الْوَالِجَ وَحَرَكَتَهُ فَهُو يَعْلَمُ المولُوجَ فِيهِ بَدَاهَةً.

• ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: أي: ومَا يَخرجُ مِنَ الأَرْضِ، وهُو يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ، وَمِنْهُ النباتَاتُ علىٰ اختلاف أفرادِها، وَأجناسِها وأنواعها، وأصْنافها، ومقادِيرها، وَمِنْهُ يَنَابِيعُ المياه حتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ من الماءِ، ومِنْهُ المعادِنُ والصُّخُورُ والأَتْرِبَةُ والرِّمال، وَمِنْهُ الأَحْيَاءُ مَهْمَا صَغُرَتْ، ومِنْهُ الْحَرَارَةُ وَقُوىٰ الجَاذِبِيَّةُ، إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ تَكْتَشِفْهُ الْعُلُومُ الإنْسَانِيَّةُ بَعْدُ.

• ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: وَيَعْلَمُ جَلَّ جَلالُهُ كُلَّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ مِنْ أشياءَ وأحياء وَقُوىً، حَتَّىٰ أصْغَرِ صَغِير يَنْزِلُ منها، وَهُو يَشْمَلُ الأَمْطَارَ، والشُّهُبَ، وأشِعَّةَ الشَّمْسِ، والأَنْوَار، وَيَشْمَلُ الجاذِبياتِ، وغَيْرَها مِمَّا لَمْ يَتَوصَّلْ إلَيْهِ بَعْدُ عِلْمُ النَّاس.

• ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾: أي: وَيَعْلَمُ كُلَّ مَا يَعْرُج في السَّمَاءِ صَاعِداً مِن الأَرْضِ، أَوْ مِنْ إحْدَىٰ السَّمَاوَاتِ إلىٰ مَا فَوْقها، حَتَّىٰ آخرِ بُعْدٍ مِنْ أَبْعَادِ السَّمَاوَات الَّتِي يُقَدِّرُ الْفَلَكِيُّون بَعْضَ أبعادها بِمِلْيَارَاتِ السَّنَواتِ الضَّوْئِيّة.

• ﴿..وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾: خَتَمَ اللهُ هـٰذِهِ الآيَة بـاسْـمَيْـنِ عَظِيمَيْن جَلِيلَيْن مِنْ أَسْمَائِهِ الحُسْنى، فِيهِمَا إطْمَاعٌ لِلمُذْنِبِينَ والعُصَاةِ مَهْمَا بَلَغَتْ مَعَاصِيهِمْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوهُ ويَتُوبُوا إليه، حتَّىٰ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَيَتُوبَ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِهِ وإِحْسَانه وَعَظِيم رَحْمَتِه.

• ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وهو يَدُلُّ علىٰ رَحْمَةِ اللهِ العظيمة الواسِعَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

لفظ «الرَّحيم» صِفَةٌ مُشبَّهَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، وهو مبني عَلَىٰ وَزْنِ «فَعِيل» الّذِي هو مِنْ صِيَغِ المبالغة.

والرَّحْمَةُ بالنسبة إلىٰ اللهِ عزّ وجلّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّة عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، ومِنْ آثارِهَا الإنْعَامُ والإكْرَام، والْعَفْوُ والْغُفْرَان.

• ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسنىٰ، وهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَسْتُرُ ذُنُوبَ عِبَادِهِ إذا اسْتَغْفَرُوا وَتَابُوا إِلَيْهِ، وَيَلْزَمُ مِنْ سَتْرِهَا أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ مُحَاسَبَتِهِمْ ومُؤَاخَذَتِهِمْ عليها.

مَعْنَىٰ الْغَفْرِ في اللُّغَةِ السَّتْرُ، يُقَالُ لغةً: «غَفَرَ، يَغْفِرُ، غَفْراً، وَغُفْرَاناً، ومَغْفِرَةً، الشَّيْءَ» أي: سَتَرَهُ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُروس سورة (سبأ).

والحمد لله علىٰ معونته ومَدَدِه وتَوْفيقه وفتحه.

(٥)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دروس سورة (سبأ)
الآيات من (٣ ـ ٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

القراءات:

(٣) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ورُويس: **[عَالِمُ الْغَيْبِ]** برَفع «عالم» علىٰ أَنَّهُ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو.

وقرأها حمزة، والكسائي: **[عَلَّامِ الْغَيْبِ]** بصيغَةِ مُبالغةٍ لـ«عالم» مع الجرّ علىٰ أنّه صفةٌ لـ«ربّي».

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: **﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾** بجرِّ «عالم» علىٰ أنَّهُ صفة لـ«ربّي».

الرفع والجرّ وجهان عربيان جائزان، وفي صيغة «عَلَّام» توكيد الدَّلالَةِ عَلَىٰ أنَّ عِلْمَ اللهِ بالغُ الغاية، إذْ هو يُحيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

(٣) • قرأ الكِسَائي: **[لَا يَعْزِبُ]** بكَسْر الزاي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿لَا يَعْزُبُ﴾** بضمّ الزّاي.

والقراءتان لغتان عَرَبيَّتَان.

(٥) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو: **[مُعَجِّزِينَ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿مُعَاجِزِينَ﴾**.

وبَيْنَ القِرَاءَتَيْنَ تكامُلٌ في أَداءِ المعنىٰ المراد «مُعَجِّز» أي: مُثَبِّط، ومُعَوّق. و«مُعَاجِزٌ» أي: مُفْلِتٌ هَارِبٌ لَا يُدْرَك.

(٥) • قرأ ابن كثير، وحفص، ويعقوب: [**لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيْمٌ**] برفع «أليم» علىٰ أنه صفةٌ لـ«عَذَابٌ».

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: [**لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ**] بِجَرِّ «أليم» علىٰ أَنَّه صفة لـ«رِجْزٍ».

ومؤدّىٰ القراءتَيْن واحد، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في حَرَكَةِ الإعْرَاب.

(٦) • قرأ قُنْبل، ورُوَيس: [**إِلَىٰ سِرَاطٍ**] بالسّين بَدَل الصاد. وقرأها خلف عَنْ حَمْزَة بإشْمَامِ الصّادِ زاياً. وقرأها بَاقي القرَّاءِ العشرة بالصَّادِ الخالِصَة: ﴿**إِلَىٰ صِرَاطٍ**﴾.

(٩) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَفٌ: [**إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ**] بالياء في الأفعال الثلاثة، والضمير يعود علىٰ الله عزّ وجل.

وَقَرَأَهَا باقي الْقُرَّاءِ العشرة بِضَمِير المتكلّم العظيم، بالنُّون في الأفعال الثلاثة: ﴿**إِن نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ**﴾ إلَّا أَنَّ أبا عمْرو، ويعقوبَ يَكْسِرَان مِيمَ «بِهِمِ».

بَيْنَ الحديثِ بضَمِيرِ الغائب، والحديث بضمير المتكلم العظيم تَفَنُّنٌ في التعبير، مَعَ مَا في ضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم مِنْ تَرْبِيَةِ المهابَةِ في قُلُوبِ مَنْ تُؤَثِّرُ فيهِمُ عَظَمَةُ المتحدّثِ وسُلْطَانُهُ وَقُدْرَتُهُ علىٰ مَا يَشاء.

(٩) • قرأ حَفْصٌ [**كِسَفاً**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**كِسْفاً**] والقراءتانِ لُغَتَان عَرَبيّتان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدّرْسِ عَرْضُ مَقَالَتَيْنِ مِنْ مَقَالَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِبَّان تنزيل هـٰذه السورة:

المقالة الأولىٰ: قَوْلُهُمْ: لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، وهِيَ سَاعَةُ البعث، وهـٰذه مَقَالَةٌ ادِّعائِيَّةٌ غَيْرُ مُقْتَرِنَةٍ بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْها.

المقالة الثانية: شَتِيْمَةُ ذَوي المكانَةِ فيهم الرَّسُولَ ﷺ أمَام جماهيرِهم للصَّدِّ عَنِ الإيمان به.

فزَعَمُوا أنَّهُ كاذِبٌ يَفْتَرِي علىٰ اللهِ، أو هو مجنون، إذْ هو يقول كلاماً عجيباً غرِيباً لَا يُسْتَسَاغ عَقْلاً، فَيَزْعُمُ أَنَّ النَّاسَ إذَا مَاتُوا وتَفَرَّقَتْ ذَرَّاتُ أجْسَادِهِمْ في الأَرْضِ، سَوْفَ يَخْلُقُهُمُ اللهُ خَلْقاً جَدِيداً، ويُحْيِيهِمْ حَيَاةً أُخْرَىٰ ليُحَاسِبَهُمْ، وليُجَازِيَهُمْ عَلَىٰ مَا كَانُوا في الحياةِ الأُولَىٰ يَعْمَلُونَ.

وجاء في هـٰذا الدَّرْسِ عَقِبَ بَيانِ كُلِّ مَقَالَةٍ مِنْهما مَا يُلائِمُها مِنْ عِلَاج.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ... ﴿٣﴾﴾:

الْمُرَادُ بالسَّاعَةِ هُنَا السَّاعَةُ الَّتِي يَكُونُ فيها الْبَعْثُ لِيَوْمِ الدِّين، ومُلَاقَاةِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويُلاحَظُ في هـٰذِهِ المقالَةِ أنَّها نَفْيٌ لِحَقِيقَةٍ جَاءَ بَيَانُها في كُلِّ رِسَالَاتِ اللهِ للنَّاسِ، ويَدُلُّ بُرْهَانُ الْعَقْلِ الَّذِي يَسْتَنِدُ إلىٰ حِكْمَةِ الْخَالِقِ، وتَنَزُّهِهِ عَنِ الْعَبَثِ، وقُدْرَتِهِ الَّتِي يَخْلُقُ بها مَا يَشَاءُ، وعَلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شيءٍ، ومِنْهُ أعْمَالُ الْعِبَادِ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضع الامْتِحان.

ونفيُ الّذين كَفَرُوا هُنَا لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ يُعْذَرُونَ به، بَلْ قَالُوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

مَا قِيمةُ النَّفْي الذي لَا دَلِيلَ يقْتَرِنُ به، تُجاهُ الإِثْبَاتِ الَّذِي يَقْتَرِنُ بِحجج تُرجِّحُهُ، بَلْ بِبراهِين تَجْعَلُهُ حَقّاً مَقْطُوعاً بِهِ. ولَا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ ما؟!

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مُعَلِّماً مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَىٰ نُفَاةِ السَّاعَةِ بغير دَلِيل:

• ﴿..قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾:

سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ الأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تُثْبِتُ الْبَعْثَ ويَوْمَ الدِّينِ، بَعْد ظُرُوف الحياة الدنيا كُلِّها، وتَرُدُّ علىٰ تَعَجُّب المنكرينَ، وعَلَىٰ شُبُهَاتِهِمْ بِشَأْنِ الْبَعْث، وقد جاء هٰذا في عِدَّةِ سُوَرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُهَا.

وَفِي مُوَاجَهَةِ إِصْرَارِ المنْكِرِينَ علىٰ النَّفْي الْمُجَرَّدِ، اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ مُقَابَلَتَهُمْ بإِسْقَاطِ مَقُولَتِهِمُ البَاطِلَةِ، وَتَأْكِيدِ ضِدِّها بِالْقَسَم بالرَّبِّ المَهيْمِنِ بِصِفَات رُبِيَّتِهِ عَلَىٰ عِبَادِه، فجاءَ في التَّعليم: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

﴿بَلَىٰ﴾: أَيْ: مَقُولَتُكُمْ كَاذِبَةٌ، مَرْفُوضَةٌ وسَاقِطَة، فَلَيْسَ الْحَقُّ والْوَاقِعُ مَا تَدَّعُون، بَل الْحَقُّ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ حَتْماً هُوَ نَقِيضُهُ، وَأُقْسِمُ لَكُمْ بِرَبِّي الَّذِي هُو رَبُّكُـمْ وَرَبُّ كُـلِّ شَيْءٍ في الْكَـائِنَـاتِ سِوَاه ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّين، الَّذِي سَوْفَ تُلاقُونَ فِيهِ مُحَاسَبَتَكُمْ، وفَصْلَ قضاء اللهِ فِيكُمْ، وجزاءَكُمْ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

وَلَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّ أَعْمَالَكُمْ خَافِيَةٌ عَلَىٰ رَبِّكُمْ، بَلْ هِيَ مَعْلُومَة لَهُ صِغَارُهَا وَكِبَارُها، سِرُّهَا وَعَلَنُهَا، بَاطِنُها وَظَاهِرُها.

كَيْفَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا كَسَبْتُمْ وَمَا تَكْسِبُونَ مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ في الجوارح، وَبَاطِنَةٍ في السَّرَائِرِ، وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ كُلِّه لَا يَبْعُدُ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ وَلَا في الأَرْض، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَرَّةٍ ولا

أَكْبَرَ مِنْ ذَرَّةٍ، ولَا شيءَ مِنْ كُلِّ ذلك إلا هو مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ مَعَ عِلْمِ اللهِ الدَّائِمِ بِهِ.

• ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: أي: عَالِم كُلِّ مَا هُوَ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ إلىٰ غَيْرِهِ، أَمَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ شهِيدٌ، عَلِيمٌ به عِلْمَ حُضُورٍ وشُهُودٍ، فَلَا شَيْء هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْه.

وفي القِرَاءَة الأخرىٰ: [عَالِمُ الْغَيْب] بالرَّفع.

• ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: أي: لَا يَبْعُدُ عَنْه، ولَا يَخْفَىٰ عَلَيْه.

• ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: مِثْقَالُ الشّيْءِ مِثْلُهُ في وَزْنِه. ومَهْمَا يَكُن المرادُ بالذَّرَّةِ فقد جَاءَ في التَّعْلِيم: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ فالأَصْغَرُ يَصِلُ إلَىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ غَيْرِ قَابلٍ لِلْقِسْمَةِ عَقْلاً، والأَكْبَرُ يَصِلُ إلى أَكْبَرِ كَائِنٍ فِي الكَوْن.

• ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: اسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ من اللَّفظ يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ، والتَّقْدِيرُ الذي أَرَاهُ: ولَا شيءَ مِمَّا هُوَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أو أصْغَرُ مِنْها أوْ أكْبَرُ إلَّا هُو مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبِينٍ، هو وَاضِحٌ ظاهِرٌ، وَيُبَيِّنُ دَلَالَةَ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِيهِ بَيَاناً وَاضِحاً.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً التَّعْلِيمِ الدَّعَوِيّ الجدليّ:

• ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [مُعَجِّزِينَ]: أَيْ: وَبَعْدَ أن تَرُدَّ أَيُّها الدَّاعِي إلىٰ اللهِ علىٰ الَّذين قَالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ بِقَولكَ لَهُم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبَعْدَ أَنْ تَصِفَ اللهَ عزّ وجلّ بأنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، أَقْنِعْهُمْ بإقناعٍ هَادِئٍ بأنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ تَحْقِيقُ الْجَزَاءِ الّذي

تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الخالِقِ الْعَلِيم الْقَدِير الحكيم، الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويَخْتَارُ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عَقْلاً بِمُقْتَضىٰ حِكْمَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ بصفاتِهِمُ الّتِي هم عَلَيْها عَبَثاً وَبَاطِلاً، وَهـٰذا الجزاء الرَّبَّاني يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمَيْن:

القسم الأول: الجزاءُ بالثوابِ، فضلاً مِنَ الرَّبِّ الجليل الوهّاب.

القسم الثاني: الجزاءُ بالْعِقَابِ، عَدْلاً مِنْ الرَّبِّ الْحَكَمِ الْعَدْلِ.

وَجاء في التَّعْلِيمِ الرَّبَّاني، الّذي يُعْطِي الدَّاعِيَ إلَىٰ اللهِ مَفَاتِيحَ هـٰذا الإقْنَاعِ الْعَقْلِيّ الهادِئ، المسْتَنِدِ إلَىٰ البياناتِ الرَّبَّانِيَّة، مَا يَلِي:

- ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ. . ﴿٤﴾﴾:

الجزاء: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنَ الثّواب والْعِقَابِ، ولهذَا جَاءَ في أوَّلِ الْبَيانِ ليشْمَلَ مَا سَيَأتي في النَّصِّ مِنْ حَدِيث عَنِ الثواب والعقاب.

وَالجزاءُ بالثَّوَابِ خاصٌّ بالّذِينَ آمَنُوا بِما كَلَّفَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا به فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وَعَبَّرُوا عَنْ صِحَّةِ إيمَانِهِمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُؤَدُّوا شَيْئاً مِمَّا أمَرَ اللهُ عزّ وجلّ بِفِعْلِهِ طَاعَةً لَهُ، وَبِأَنْ يَتْرُكُوا شَيْئاً مِمَّا نَهَىٰ اللهُ عن فِعْلِهِ طاعَةً لَهُ، وَبأنْ يَمُوتُوا وَهُمْ عَلَىٰ إيمانٍ صَحِيحٍ.

- ﴿. . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾:

أي: أولَئِكَ رَفِيعُو المكانَةِ عِنْدَ رَبِّهِم لَهُمْ ثوابَان:

الثوابُ الأَوَّل: أنْ يَغفِرَ اللهُ لهم سوابِقَ ذُنُوبِهِمْ، فَيَسْتُرَهَا وَيتجاوَزَ عَنْ مُحَاسَبَتِهِمْ وَمُجَازَاتِهِمْ عليها.

الثواب الثاني: رِزْقٌ كَرِيمٌ يَنالُونَهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وهـٰذا الرِّزْقُ قَدْ سَبَقَ في نجومِ التَّنزيلِ بَيانُ بَعْضِ تفصيلاتٍ له.

هـٰذا الذي جاء في هـٰذا التعليم الرَّبّانيّ، مِفْتَاحٌ للترغيب بأنْواعِ

الثَّوَاب الَّذِي أعَدَّهُ الله لِلَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات في جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين، والَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الموزَّعَةُ في القرآن المجيد.

الكَرِيمُ: هُوَ الْمَحْمودُ بالصِّفَاتِ الرفِيعَةِ النَّفِيسَةِ بالنسبةِ إلىٰ جِنْسِهِ ونَوْعِهِ وصِنْفِهِ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ... ۝٥﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**مُعَجِّزِينَ**].

السَّعْي: العَمَل بِهِمّةٍ ونَشَاطٍ، وهو فَوْقَ الْعَمَلِ الْهَادِئ المعتاد.

أي: والَّذِينَ سَعَوْا مُجْتَهِدِينَ فِي الصَّدِّ عَنْ آيَاتِنَا الكَوْنِيَّةِ والْبَيَانِيَّة، وفي مُحَاولَةِ الإقْنَاعِ بأَنَّ آيَاتِنَا الكونيَّةِ ظَوَاهِرُ طبيعيَّةٌ، لَا آثَار خالِقٍ عَلِيم حَكيم، وفي مُحَاوَلَةِ الإقْنَاعِ بأنَّ آيَاتنا الْبَيَانِيَّة المنزَّلَة مُفْتَرَيَاتٌ، وَأَنَّها وَضْعٌ بَشَرِيٌّ وَلَيْسَتْ تَنْزِيلاً رَبَّانِيّاً.

وَأَصْحَابُ هـٰذا السَّعْي قِسْمَانِ:

الْقِسْمُ الأول: **الْمُعَاجِزُونَ**: وهم الذين يتوهَّمُونَ أَنَّهُمْ قادِرُونَ علىٰ الإفْلاتِ والْهَرَبِ مِنْ قَبْضَتِنَا الَّتي نَأْخُذُهُمْ بها إلَىٰ الْعَذَابِ الأَلِيمِ الْمُعَدِّ للكافرين.

يُقَالُ لُغَةً: «عَاجَزَ فُلَانٌ» أي: ذَهَبَ فارّاً هَارِباً فَلَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ، ولَمْ يُقْدَرْ عَلَيْه.

الْقِسْمُ الثَّاني: **الْمُعَجِّزُونَ**: وهم الَّذِينَ يَسْعَونَ بِوَسَائِلِهِم الإعْلَامِيَّةِ، وزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ، أَنْ يُثَبِّطُوا النَّاسَ ويُعَوِّقُوهم عَنِ الإيمانِ باللهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ رُسُلُ اللهِ، تَضْلِيلاً عَنِ الحقِّ، وإغْرَاءً وَإِغْوَاءً.

يُقَالُ لُغَةً: «عَجَّزَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: ثَبَّطَهُ وَعَوَّقَه.

فالقراءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ في آدَاءِ الْمَعْنَىٰ المراد.

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [أَلِيم]: في هـٰذا التعليم مِفْتَاحٌ للتَّرْهِيبِ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيمِ، الَّذِي اعْتَدَهُ اللهُ الْحَكَمُ الْعَدْل، لِلْكَافِرِينَ الَّذِين يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ الإفْلَاتِ مِنْ عَذَاب اللهِ، وللكافِرِين الْمُضلِّين الذينَ يَصُدُّونَ الناسَ عَنْ الإيمانِ باللهِ وباليوم الآخِر، وَعَنْ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الْبُعَدَاءُ في اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النار.

• ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾: أي: أُعْتِدَ لَهُمْ عَذَابٌ يُعَاقَبُون به.

• ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾: **الرِّجْزُ**: الأشياءُ الرَّبَّانِيَّةُ الّتِي يُعَذِّبُ اللهُ بها مُسْتَحِقي الْعَذَاب، وَمِنْهَا الأَمْرَاضُ الْفَتَّاكَةُ، والآفَاتُ، وحَامِلَاتُ السُّمُومِ للنَّاسِ مِنْ أَشْيَاءَ وأَحْيَاء.

روىٰ مسلم مِنْ حَدِيث أسَامَة بن زَيْدٍ، وسَعْد بن مَالِك، وَخُزَاعَةَ بْنِ ثابت، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ هذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

• ﴿أَلِيمٌ﴾: أي: مُؤْلِمٌ مُوجِعٌ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ التَّعْلِيم الدّعْوِيّ الْجَدَلِيّ مُبَيِّناً لِرَسُولِهِ، أنَّ من صِفَاتِ أُولي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد.

• ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾:

لمَّا كَانَ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَىٰ رَسُولِهِ هُوَ الْحَقَّ، وَأَنَّ مَا يُنَاقِضُهُ باطل، ولَمَّا كَانَ مَا يُرْشِدُ إليهِ من سُلُوكٍ هُوَ سُلُوكُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم الْمُوصِلِ إِلىٰ السَّعَادَة، كَانَ مِمَّا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ النُّفُوسَ، أَنَّ مَنْ آتاهُمُ الْعِلْمَ بِحَقَائِقِ مَا

أنْزَلَ إلَىٰ رَسُولِهِ لَا بُدَّ أنْ يَرَوْا بأَدَوَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة أَنَّ مَا أُنْزِلَ إلَيْهِ هُوَ الْحَقّ، وَيَهْدِي إلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الْعَزِيزِ الحميد.

وَلَكِنْ هَلْ كُلُّ النَّاسِ يَسْتَخْدِمُونَ أَدَوَاتِهِم الْفِكْرِيَّةَ لِاسْتِبْصَارِ أنَّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ هُوَ الحقّ، وَيَهْدِي إلَىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم.

وَهَلْ كُلُّ منْ يَرَىٰ هـٰذِهِ الرُّؤيَةَ السَّلِيمَةَ، يَكُونُ مِنَ المؤمنين بالْحَقّ وبصراط اللهِ المسْتَقِيم، دُونَ أَنْ تَصْرِفَهُ صَوَارِفُ مِنْ أهوائِهِ وَشَهَواتِهِ. وَمَطَالِبِ نَفْسِهِ مِنَ الْحَيَاة الدُّنيا، هُنَا تَقَعُ عَقَبَةُ أكْثر الْكَافِرين الّذِينَ يَصدِفُونَ عَنْ آياتِ الله، مُنْذُ عَصْرِ التنزيل حتىٰ آخر حياة الناس في الأرض، إنّ الّذينَ لَا يَرَوْنَ هـٰذِهِ الرُّؤيَة يُعَطِّلُونَ أدواتِهم الفكريَّة عمَّا خُلِقَتْ له، فَهُمْ سَيُحَاسَبُونَ علَىٰ تَعْطِيلِها مَعُ وُجُودِ المنَبِّهات والمذكِّراتِ، والمبشّراتِ، والمنذِرات.

وَإِنَّ الَّذِينَ يَرَوْنَ هـٰذِهِ الرُّؤيَةَ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يَسْلُكُونَ صِرَاط اللهِ الْمُسْتَقِيمَ، أعْظَمُ جُرْماً وَإثماً، وأكْثَرُ هُوِيّاً إلىٰ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النار، ويَغْضَبُ اللهُ عَلَيْهِمْ غَضَباً شَدِيداً.

• ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾:

جَاءَ في آخِرِ البيانِ الذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هـٰذِهِ الآيَة ذِكْرُ «الْعَزِيز الْحَمِيدِ» مِنْ أسْمَاءِ اللهِ عزّ وجلّ، للإيْمَاءِ إلَىٰ أَنَّهُ بِعِزَّتِهِ يُعَاقِبُ مُسْتَحقّي الْعِقَاب، وبكونِهِ حَمِيداً يُثبتُ بِفَضْلِهِ مَنْ وَعَدَهُمْ بالثوابِ، وَهم الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الغالِبَةِ.

الْحَمِيدُ: أي: الَّذِي يَحْمَدُ عِبَادَهُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالحات، والَّذِي هُوَ مَحْمُودٌ يُسَبِّحُ بِحَمده كُلُّ شيء.

وَحَمْدُهُ لِلْمُؤْمِنينَ يَقْتَرِنُ بفُيُوضَاتِ إنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِمْ، في جَنَّاتِ النعيم فَضْلاً مِنْهُ وَجُوداً.

هٰذا مَا ظَهَرَ لي في فَهْمِ هٰذه الآيَةِ واللهُ أعْلَم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشَأنِ أَئِمَّةِ الضَّلَالِ الَّذِين يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الإيمانِ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ:

● ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾:

جَاءَ في هَاتين الآيَتيْنِ بَيَانُ مَقَالَةٍ دِعَائِيَّةٍ قَالَهَا مُضَلِّلُون مِنَ الّذِين كَفَروا، بغَرَضِ صَدِّ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ عن الاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، لِئَلَّا يَتَزَايَدَ المؤمنون المسْلِمُونَ في مَكَّة، فِي هٰذِهِ المرحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ مَسِيرَة الرَّسُولِ الدَّعَوِيةِ، لأَنَّهُمْ إذَا كَثُرَتْ أعْدَادُهُمْ وَزَادت علىٰ أعْدَادِ المشركين، أسْقَطُوا ذَوِي السُّلْطَانِ وذوي الْجَاهِ والْقُوَّةِ عَنْ مَكَانَاتِهِم، وصَارَتِ الْقُوَّةُ والمكانَةُ الْعُظْمَىٰ للرَّسُولِ ﷺ فيها.

ومَقَالَةُ هَؤُلَاءِ الدِّعَائِيَّةُ، لَيْسَ فيها إلّا تَرْدِيدُ عِبَارَةِ التَّعَجُّب والاسْتِغْرَابِ مِنْ إحْيَاءِ الموْتَىٰ، بَعْدَ أَنْ صَارَتْ أجْسَادُهُمْ فانِيَةً مُخْتَلِطَةً بِتُرَابِ الأَرْضِ، وَقَدْ قَدَّمُوا هٰذا التَّرْدِيدَ بِصِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ فيها مُبَالَغَةٌ في عَرْضِ صُورَةِ فَنَاءِ الأَجساد.

لَقَدْ كانت مَقَالَةُ قَائِلِهم إِبَّانَ نُزول سورة (يس/ ٤١ نزول):

﴿...مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾؟ بصِيغَةِ التَّسَاؤل.

ثُمَّ صَارُوا يَقُولونَ إبَّانَ نُزُول سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول):

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾.

ثُمَّ صَارَ دُعَاتُهُمْ إِلَىٰ الضَّلَالِ، يَعْرِضُونَ هٰذِهِ المقالَةَ بأُسْلُوبٍ فِيهِ مَزِيدُ خِدَاعٍ دِعَائِيٍّ، إبَّانَ نُزُول سورة (سبإ/٥٨ نزول) قائلين في تَضْلِيلِهِمْ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إليهم قَوْلاً مَقْرُوناً بالسُّخْرِيَةِ والاستِهْزَاء:

• ﴿. .هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ. . . ﴿٨﴾﴾:

• ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أَيْ: جُزِّئْتُمْ وَفُرِّقْتُمْ غَايَةَ التَّجْزِئَةِ والتَّفْرِيقِ في تُرَابِ الأَرْضِ. «**مُمَزَّق**»، مَصْدَرٌ مِيميٌّ للتَّمْزِيق.

يُقَالُ لُغَةً: «مَزَّقَ الشَّيْءَ، تَمْزِيقاً، ومُمَزَّقاً» أَيْ: بالَغَ فِي تَجْزِئَتِهِ وَتَفْرِيقِ بَعْضِهِ عَنْ بَعْضٍ.

﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أَيْ: كُلَّ تَمْزِيقٍ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ فِيه، والمعنىٰ: إذَا مُزِّقْتُمْ تَمْزِيقاً كُلَّ تَمْزِيقٍ، لَا بَعْضَ تَمْزِيقٍ. فلَفْظ «كُلَّ» نائب عن مَفْعُول مُطْلَق.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي: إنَّكُمْ لتُخْلَقُونَ خَلْقاً جَدِيداً، تَكُونُ لَكُمْ فِيهِ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ بَعْدَ الْمَوْت والْفَنَاء.

إِنَّ مَضْمُونَ عبارتِهِم الجديدَةِ، المفَخَّمَةِ المنْفُوخَةِ بأسْلُوبٍ إعْلَامِيّ، لَا يَخْتَلِفُ عَنْ مَضْمُون قَوْلِهِمُ السَّابق، فَلَا شيءَ فيه يَسْتَدْعي مُنَاظَرَةً فِكْرِيَّة، ولا يَتضَمَّن شُبْهَةً جَدِيدةً تَتطَلَّبُ بياناً إقْنَاعِيّاً يُزِيلُهَا ويَكْشِفُ الْحَقّ بِجَلاء، وقَدْ سَبَقَ فِي نجوم التَّنْزِيلِ البيانُ الإقْنَاعِيُّ المقرونُ بالْبُرْهَان.

ولِلإِشْعَارِ بأنّ مَقُولتهم القائِمَةَ علىٰ مُجَرَّدِ التَّعَجُّب والاسْتِغْرَاب، مَقُولَةٌ صَارَتْ مَقْبُولَةً لَدَىٰ المستمعِين إليهم، بَنَوْا عَلَيها قَوْلَهُمْ في شتيمَة الرَّسُول ﷺ:

• ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: **الجِنَّةُ**: الْجُنُون.

أي: إنَّ هـٰذا القولَ العجيب الغريب المستنكر لا يَقُولُهُ إلَّا أحَدُ اثْنَيْنِ: مَنْ يَفْتَرِي علَىٰ اللهِ كذِباً، وَمَنْ بِهِ جُنُونٌ، فإمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ سَوِيَّ الْفِكْرِ إلَّا أنَّهُ يَكْذِبُ عَلَىٰ اللهِ كذِباً افْتِرَائِيّاً يَخْتَلِقُهُ اخْتِلَاقاً مِنْ عِنْدِه، وَإِمَّا أنْ يَكُونَ قَدْ أصَابَهُ الجُنُونُ، فَهُوَ يَقُولُ أقوالاً لَا تَقْبَلُهَا الْعُقُول.

وَبِما أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِجَدِيدٍ بشأْنِ قَضِيَّةِ الْبَعْثِ، واقْتَصَرَتْ مَقَالَتُهُمْ عَلَىٰ تَرْدِيدِ مَا سَبَقَ دَفْعُهُ بالْبُرْهَانِ العقلي.

وبالنَّظَرِ إلَىٰ مَا أضافُوه مِنْ شتِيمَةٍ للرَّسُول، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في العِلَاجِ بَيَانُ أَنَّهُمْ فِي مُحِيط مِنَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ عَنْ مَوَاقِعِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، فَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ في التَّنْزِيلِ الْعِلَاجيّ مُبَيِّناً ومُنْذِراً:

﴿. . .بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾:

■ وَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ مُنْذِراً بِعَذَابٍ يَكُونُ بِهِ هَلَاكُهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الآخِرَة:

• ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

في هـٰذا البَيانِ نَظَرَاتُ غَضَبٍ مِنْ إصْرَارِهم عَلَىٰ كُفْرِهِم الْعِنَادِيّ، الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ شُبْهَةٌ تُعْطِيهِمْ عُذْراً بِنِسْبَةِ وَاحِدٍ في المئة، بَلْ هُم يَتَّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدَهُمُ الْعَمْيَاءَ، اسْتِكْباراً عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقّ.

• ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾: أي: أنْطَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ وَبَصَائِرُهُمْ فَلَمْ يَرَوْا بأعْيُنِهِمْ وَلَا بعُقُولِهِمْ.

• ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾: أي: نَاظِرِينَ إلَىٰ مَا خَلَقَهُ اللهُ فِي كَوْنِه، مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِمْ بَعْضُهُ

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَبَعْضُهُ خَلْفَهُمْ، فَمِنْ مَوَاقِعِ أَقْدَامِهِمْ إلىٰ جِهَةِ امْتِدَادِ بَصَرِهِمْ شَطْرَ الأَرْضِ وشَطْرَ السَّمَاء، هو وَاقِع بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَيُقَابِلُهُ مِنَ الْجِهَةِ الأُخْرَىٰ هُو وَاقِعٌ خَلْفَهم، وجَاءَتِ العبارَةُ فِيها تَفْصِيلٌ وإطْنَابٌ، لإيْضَاحِ الصُّورَةِ وَالإرْعَاب.

• ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

أي: إِنَّنَا نَحْنُ الّذِينَ خَلَقْنَا الأَرْضَ والسَّمَاوات، وَنَحْنُ نُمْسِكُهُمَا بِتَجَدُّدٍ لِئَلَّا تَزُولَا، فإنْ نَشَأْ إهْلاكَهُمْ مَعَ تَعْذِيبِهِمْ بِأَنْ نَخْسِفَ بهِمُ الأَرْضَ، أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ قِطَعاً مِنَ السَّمَاءِ، مِنْ كَوْكَبٍ جَزَّأناه وَبَثْثَنَاهُ في الْفَضَاءِ فَوْقَ غِلَافِ الأَرْضِ الغَازيّ، فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، فَلَا يَسْتَطِيعونَ هَرَباً وَلَا نَجاةً.

• ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾: أيْ نُغَوِّرْ مِنْ تَحْتِهِمُ الأَرْض فَنَدْفِنُهُمْ فِيهَا غَائِرين.

• ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: أو إنْ نَشَأْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ قِطَعاً مُهْلِكَةً لَهُمْ مِنَ السَّمَاء، فَنَدْفِنُهُمْ تَحْتَهَا.

الكِسَفُ و**الكِسْفُ**: القِطَعُ مِنْ أيّ شيء، واحِدَتُها: «كِسْفَة».

• ﴿.. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾:

أي: إنَّ في ذَلِكَ الَّذي هُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ والَّذي هُوَ خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، لَعَلامَةً عَظِيمَةً دَالَّةً عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُهَيْمِنِ الْحَكِيم الْقَدِيرِ الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَخْسِفَ الأَرْضَ بِمَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يُسْقِطَ قِطعاً مُهْلِكَةً مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ.

إلَّا أنَّ الّذِي يُدْرِكُ هٰذِهِ الآيَةَ وَيَهْتَدِي بِها، كُلّ عَبْدٍ لَدَيْهِ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ يَرْجِعَ إلىٰ رَبِّهِ، مُؤْمِناً بِهِ مُطِيعاً مُسْلِماً.

• ﴿مُّنِيبٍ﴾: أيْ: ذو رُجُوع إلَىٰ اللهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ بِقَلْبِهِ، ونَفْسِهِ، وفِكْره. وَيُعْتَبَرُ الْكَافِرُ الَّذِي يَهْتَدِي بآيَاتِ اللهِ رَاجعاً إلَىٰ اللهِ، لأَنَّهُ مَفْطُورٌ مُنْذُ وِلَادَتِهِ عَلَىٰ الإيمَانِ والإسلام، وَكُفْرُهُ حَدَثٌ طَارِئٌ عَلَىٰ فِطْرَتِه، فإذَا آمَنَ بَعْدَ ذلِكَ كَانَ إيمانُهُ إنَابَةً وَرُجُوعاً.

لفظ «مُنيب» اسم فاعل من «أناب» وهو بمَنْزِلَةِ الفِعْلِ المضارع، يَدُلُّ عَلَىٰ الْحَالِ والاسْتِقْبَال.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (سبأ).

والحمد لله علىٰ معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقهِ، وفَتْحِه.

(٦)
التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُروس سورة (سَبَأْ) الآيات من (١٠ ـ ١٤)

قال اللهُ عَزَّ وجلّ:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

(١٢) • قرأ شُعْبَة: [**الرِّيحُ**] بالإفراد والرَّفع علىٰ أنَّه مبتدأ مُتَأَخّر.

وقرأَهَا أبو جعفر: [**الرِّيَاحَ**] بالجمع والنصب، أي: وهبنا لِسُلَيْمَانَ الرّياحَ، مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاق.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**الرّيحَ**﴾ بالإفراد والنَّصْب.

(١٣) • قرأ وَرْشٌ، وأبُو عَمْرو: [**كَالْجَوَابي**] بإثبات الياءِ في الوصل.

وكذلِكَ قرأها ٱبن كثير، ويَعْقُوب، في الْوَصْلِ والوقف.

وقرأها باقي القرّاءِ الْعَشَرَة: [**كَالْجَوَابِ**] بحذف الياء في الوصلِ والوقف. وهـٰذا الحذف مِنَ التخفيف في العربيّة.

(١٣) • أسْكَنَ يَاءَ المتكلّم فِي: ﴿**مِّنْ عِبَادِي الشَّكُورُ**﴾ حمْزَةُ وصلاً ووقفاً.

وفتح هـٰذه الياء بَاقي القراءِ العشرة: ﴿**مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾.

(١٤) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأَبُو جَعْفر: [**مِنْسَاتَهُ**] بإبْدَالِ الهمْزَة ألِفاً ليّنة.

وقرأها ابْنُ ذَكْوَان: [**مِنْسَأْتَهُ**] بهَمْزَةٍ سَاكِنَة.

وقرأها بَاقي القرّاءِ الْعَشَرَة: ﴿**مِنسَأَتَهُ**﴾ بهمزةٍ مَفْتُوحَة.

ووقَفَ حمزة بالتسهيل.

وهـٰذِهِ القراءات وُجُوهٌ في نُطْقِ الكلمة.

الْمِنْسَأَة: الْعَصا.

(١٤) • قرأ رُوَيْس: [**تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ**]: أي: كُشِفَ لِلنّاسِ أنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْب.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿**تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ**﴾.

فبَيْن القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

تمهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرضُ لَقَطاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنْ قِصَّةِ دَاوُدَ وابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِما السَّلَامُ، لإشْعَارِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه إبَّانَ التَّنْزِيلِ، أنَّ مِنَ الْيَسِيرِ علىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنْ يَهَبَ رَسُولَهُ محمّداً مِثْلَمَا وَهَبَ دَاوُد وسليمان وأفْضَل. وَإِذْ لَمْ يَفْعَلْ فَاعْلَمُوا أنَّ حِكْمَةَ اللهِ في هـٰذِهِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ الْمَبْعُوث لِتَبْلِيغِها وَالقِيَام بوظائف رِسَالَتِهِ فيها كما اخْتَارَ اللهُ له، وهو وَاقِعُهُ الّذِي هُو عليه.

وهـٰذا المعنَىٰ يَفْهَمُهُ فُطَنَاءُ المشركين، ويَعْرِفُونَ أَنَّ اللهَ اخْتَارَ لِرَسُولِهِمْ أَنْ لَا يَكُونَ مَلِكاً، وَلَا صَاحِبَ ثَرَاءٍ وَاسِعٍ وسُلطانٍ في قَوْمِهِ بِقُوىً غيبيَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالىٰ بشأن دَاوُد عليه السّلام:

• ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

في هـٰذا النصّ بَيَانُ أَنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ آتَىٰ دَاوُدَ مِنْهُ فَضْلاً، أي: أعْطَاهُ عَطَاءً زَائِداً خَصَّهُ بِهِ، ومِنْ هـٰذا الْفَضْلِ تَسْبِيحُ الْجِبَالِ، وَحَشْرُ الطَّيْرِ وَتَسْبِيحُها مَعَهُ، وإلانةُ الْحَدِيد له ففيه عِدَّة قَضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الأُولىٰ: أنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَمَرَ الجِبَالَ بِأَنْ تُسَبِّحَ مَعَهُ، وَبَيَانُ هـٰذِهِ الْقَضِيَّة بَيَانٌ لِبَعْضِ عَنَاصِرِ الْعَقِيدَةِ الإيمانيَّة، إذْ كُلُّ ظَاهِرَةٍ جَبْرِيَّةٍ في الكَوْنِ إنَّما تُوجَدُ بأمْرِ التَّكْوينِ الرَّبَّانيّ، وَكَذَلِك كُلُّ حَدَثٍ في الْوُجُودِ إنَّما يَكُونُ بِخَلْقِه.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: أَنَّ تَسْبِيحَ الجِبَالِ مَعَهُ قَدْ كَانَ صَدًا تَسْبِيحِ دَاودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَدَا تَرْنيماته.

دلَّ علىٰ هَاتَيْنِ القضيتين قولُ اللهِ عزّ وجلّ في هـٰذا النّصّ:

- ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: أي: يَا جِبَالُ رَجِّعِي التَّسْبِيحَ مَعَهُ.

أَوّبِي: أي: رَجّعِي، يُقَالُ لغة: «أَوَّبَ، يُؤوِّبُ» أي: رَجَّعَ الصَّوْت. وهـٰذا الأَمْرُ لِلْجِبَالِ هو مِنْ قَبِيلِ الأَمْرِ التَّكْوِيني الْجَبْري.

وهـٰذِهِ الجملة بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَضۡلًاۖ﴾ فهي في مَحَلِّ نَصْبٍ، والمعْنَىٰ: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا تَرْجِيعَ الجِبَالِ بأمْرِنا صَدَا صَوْتِه الشّجِيِّ النَّدِيّ في تَسَابيحِهِ، قَائِلِينَ لَها: يَا جِبَالُ أوّبي مَعَهُ. والطَّيْرَ وإلَانَة الحديد.

القضيَّة الثّالِثَة: أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ آتاهُ ممَّا فضّلَهُ به، أَنْ جَعلَ جَماعَةً مِنْ أَصْنَافِ الطَّيرِ تُحْشَرُ إلَيْهِ، وَتُرَجِّعُ مَعَهُ صَوْتَهُ في التَّسَابِيحِ والتَّرَانِيم، دَلَّ علىٰ هـٰذه القضية قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾.

هـٰذه اللّقطةُ معْطُوفَةٌ بِالنَّصْبِ علىٰ مَحَلِّ الْبَدَلِ السَّابِق الذي هو جُمْلَةُ ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

والاقتصار علىٰ ذكر الطير معطوفاً بالنَّصْبِ يَدُلُّنا عَلَىٰ أَنَّ الأَمْرَيْنِ مُتَمَاثِلَان، أي: آتيناهُ فَضْلَ تَرْجِيع الجبالِ مَعَهُ بأمْرِنا، إذْ آتَيْنَاهُ صَوْتاً عَالياً نَدِيّاً، وَفَضْلَ تَرْجيع الطّيْرِ مَعَهُ، وَهِي جماعَةُ الطَّيْرِ الّتِي تُحْشَرُ له، إذْ آتَيْنَاهُ صَوْتاً حَسَناً تَطْربُ مِنْه بَعْضُ أصْنَافِ الطُّيُور، فَتُرجِّعُ مَعَهُ بَعْضَ تَرْنِيمَاتِهِ وَتسبيحاته.

- ﴿... وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرۡ فِى ٱلسَّرۡدِۖ... ﴿١١﴾﴾:

• ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: أي: وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ لَيِّناً في يَدَيْهِ، قَالُوا: فَكَانَ كالْعَجِينِ، أو الشَّمْعِ في يَدَيْهِ وقْتَ الْعَمَلِ به، ثُمَّ يَعُودُ الْحَدِيدُ إلَىٰ صَلَابَتِه.

أقول: هلِ المرادُ بإلَانَةِ الْحديدِ لَهُ تَغْيِيرَ خَصَائِصِ الْحَدِيدِ الصُّلْبَةِ لَهُ حَال عَمَلِهِ فيه، أمْ إعْطَاؤهُ الْقُوَّةَ الْجَسَدِيَّة العظيمة الَّتِي يُلَيِّنُ بِها الْحَدِيد، أَمْ إعْطَاؤهُ طَاقَةً إشْعَاعِيَّةً تَنْطَلِقُ مِنْ جَسَدِهِ لَهَا خُصُوصيَّةُ إلَانَةِ الْحَدِيد؟؟.

إنَّنَا لَا نَمْلِكُ دَلِيلاً يُحَدِّدُ وَاحِداً مِنْها، ولَعَلَّ آخِرَهَا مَعَ قُوَّتِهِ الْجَسَدِيَّةِ الْمَعْرُوفَة هِي المرادة، إذْ هِي الأَقْرَبُ لِمَا نَعْرِفُ مِنْ تَجَارِبِ الْعُلُوم، وخَصَائِصِ الطَّاقَاتِ الإشْعَاعِيَّةِ، واللهُ أَعْلَم.

وإذْ ألَانَ اللهُ عزّ وجلّ لِدَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَدِيدَ، أَمَرَهُ بأن يَسْتَخْدِمَ ذَلِكَ في صِنَاعَةِ الدُّرُوعِ الواقِيَةِ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ والرِّمَاح والنِّبَالِ وغَيْرِها فِي الْحَرْبِ.

ونُلَاحِظُ في أَمْرِ اللهِ عزّ وجلّ دَاوُد بِصِنَاعَةِ الدُّرُوع، أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ شَاءَ التَّوْجِيه لِلْوِقَايَةِ مِنْ شُرُور الْقِتَالِ، إذْ لَمْ يَأْمُرْ دَاوُدَ بِصِنَاعَةِ السُّيوف والرِّمَاح والنبال ونحوها، والسَّبَبُ في هـٰذا عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَنَّنُونَ فِي صِنَاعَةِ أدَوَاتِ القِتَالِ بِرَغْبَةِ التَّسَلُّط، والعُلُوّ في الأَرْضِ، واللهُ عزّ وجلّ جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ الَّتِي فيها أَنْوَاعُ السَّعَادَاتِ كُلّها، لِلَّذِين لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ ولا فَسَاداً.

أَمَّا أمْرُ اللهِ عزّ وجلّ في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ يُعِدُّوا مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ قُوَّةٍ، فالْغَايَةُ مِنْهُ الحمايَةُ والإرهابُ الْمَعْنَوِيُّ، لَا أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً لِلْعُلُوّ في الأَرْضِ، ولِمُمَارَسَةِ الْفَسَادِ والإفْسَاد في الأرْض.

والدُّرُوعُ الَّتِي عَلَّمَ اللهُ دَاوُد عليه السَّلامُ ابْتِكَارَهَا وَصِنَاعَتَها هِيَ دُرُوع الزَّرَدِ، الَّتِي تُلْبَسُ كالثِّيَاب، وقَدْ كَانَتِ الدُّرُوع قَبْلَهُ صَفَائِحَ مِنْ حَدِيدٍ.

• ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: أَنِ اعْمَلْ يَا دَاود دُرُوعاً سَابِغَاتٍ.

جاءَ في الْعِبَارةِ الاسْتِغْنَاءُ بالصِّفَةِ عَنِ الموصُوفِ، وَشَاعَتْ كَلِمَةُ «سَابِغَاتٍ» للدَّلَالَة علىٰ الدُّرُوع التَّامَّات.

سَابِغَاتٌ: أي: تَامَّاتٌ كَامِلَاتٌ سَاتِرَاتٌ لِمَقَاتِلِ الْمُقَاتِل.

السُّبُوغُ: هُو في اللُّغَةِ التَّمَامُ والكمال، يُقَالُ لغةً: «شَيْءٌ سَابِغٌ» أيْ: كامِلٌ وافٍ، ويُقَالُ: «سَبغَ الثَّوْبُ يَسْبُغُ سُبُوغاً» أي: طَالَ إلَىٰ الأَرْضِ واتَّسَعَ، ويقال: «أَسْبَغَ الثَّوْبَ يُسْبِغُهُ» أي: جَعَلَهُ طَوِيلاً واسِعاً.

وإسْباغُ الْوُضُوء: إِتْمَامُهُ وإكْمَالُهُ وإعْطَاؤُهُ حقَّهُ، مَعَ زِيَادَةٍ تُحققُ فِعْلَ المطْلُوب.

• ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: أي: وأَحْكِمْ مَقَادِيرَ حَلَقِ الدِّرْع، وَمَقَادِيرَ الثُّقُوب، عِنْدَ مَوَاطِنِ اتِّصَالِهَا بِبَعْضِها، ومَقَادِيرَ مَسَامِيرِ الرَّبْطِ بَيْنَها، حَتَّىٰ تُؤَدِّي الْغَرَضَ مِنْهَا أَدَاءً حَسَناً، وأَحْكِمْ تَفْصِيلَهَا عَلَىٰ مَقَادِيرِ أَجْسَادِ لَابِسِيهَا، حتَّىٰ تَكُونَ وَافِيَةَ الْوِقَايَةِ، تَامَّةَ الصَّنْعَة.

السَّرْدُ: إتْبَاعُ الشَّيْءِ بِشَيْءٍ نَظِيره، حَتَّىٰ يَكُونَ الْكُلُّ مُؤَلَّفاً مِنْ وَحَدَاتٍ مُتَّسِقَاتٍ مُتَتَابِعَاتٍ مُتَمَاثِلات.

ويُطْلق لفظ «السَّرْدِ» علىٰ الدُّرُوع، وَعلَىٰ الْحَلَقِ، وعلَىٰ الثَّقْب، يُقَالُ لغة: «سَرَدَ الشَّيْءَ، وَسَرَّدَهُ، وأَسْرَدَهُ» أي: ثَقَبه.

وَالسِّرادُ، والمِسْرَدُ: المِثْقَب. **والْمَسْرُودَة**: الدِّرْعُ المثْقُوبَة. ويُقَالُ لِصَانِعِ ذَلِكَ: «سَرَّاد» و«زَرَّاد» بإبدالِ السِّينِ زَاياً.

و«أَنْ» في عبارَة: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تَفْسِيرِيَّة، والمفَسَّرُ مَطْوِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ في اللَّفظِ، يَكْشِفُهُ التَّدَبُّر، والتَّقْدِير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وَأَوْصَيْنَاه ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ فَأَبَانَ الله عزّ وجلّ لِدَاود عليه السلام الْغَايَةَ مِنْ إلَانَةِ الْحَدِيدِ لَهُ.

■ قول الله تعالىٰ:

● ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾:

كَانَ الكَلَامُ يَحْكي مَا وَجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ لِدَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام، وَجَاءَت هٰذِهِ الْعِبَارَةُ مُوَجَّهَةً لِجَماعَةٍ لَا لِفَرْد.

وباسْتِطَاعَتنا أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هٰذا الإجْرَاءِ أَنَّ الأَعْمَالَ الصِّنَاعِيَّة تَحْتَاجُ إِلىٰ رَئيسٍ مُعَلِّم مُحْكِمٍ لِلصَّنْعَةِ وَمُشْرِفٍ عَلَيْهَا، وَتَحْتَاجُ إِلَىٰ مُعَاوِنينَ يُسَاعِدُونَهُ في الْعَمَلِ، ويَتَدَرَّبُونَ عِنْدَهُ وبإشْرَافِهِ، لِتَوْفير الإنْتَاجِ وَإتْقَانِ الصُّنْع.

ففي هٰذِهِ العبارَةِ تَوْجِيهٌ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَعَهُ، أَنْ يَتَعَاوَنُوا فيما بَيْنَهُمْ تَعَاوُناً تكامُلِياً، وتوجيهٌ لإتْقَانِ الْعَمَل، فالْعَمَلُ الصَّالِحُ في الصِّنَاعَاتِ هُوَ الْعَمَلُ المتْقَنُ.

وَفي هٰذا التَّوْجِيهِ إشَارَةٌ إِلىٰ أَنَّهُ يَنْبَغي لِمَنْ يَبْتَكِرُ، أَوْ يُلْهَمُ، أَوْ يُعَلَّمُ صَنْعَةً مِنَ الصِّنَاعَاتِ النَّافِعَاتِ، أَنْ يَجْعَلَ تَحْتَ يَدَيْهِ مَنْ يَتَعَلَّمُهَا، لِتَكُونَ مِيراثاً حَضَارِيّاً بَشَرِيّاً، تَتَقَدَّمُ بِهِ وَتَرْتَقِي الْحَضَارَةُ الإنْسَانِيَّةُ وَوَسَائِلُها.

أَمَّا مَنْ يَحْتَكِرُ سِرّ صِنَاعَتِهِ لِنَفْسِهِ، فَلَا يَجْعَلُ تَحْتَ يَدَيْهِ وإشْرَافِهِ مَنْ يَتَعَلَّمُهَا، فإنَّ صِنَاعَتَهُ الرّاقِيَةَ وَمَهارَتَهُ تَمُوتُ بمَوْتِهِ، ثُمَّ يَحْتَاجُ الْمُجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ أَنْ تَمُرَّ أَزْمَانٌ طَوِيلَةٌ حَتَّىٰ يَظْهَرَ في النّاسِ نظيرُه، فيَتَعَلَّمَ النَّاسُ مِنْه، إِذَا أَذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يَقْتَبِسُوا مِنْهُ مَا وَهَبَهُ الله.

● ﴿. . إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾: هٰذِهِ العِبارَةُ تَدُلُّ باللُّزُوم الفكريّ علَىٰ وَعْدِ اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ صَالِحاً في الصِّنَاعَاتِ بالثّواب علَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبالْعِقَابِ عَلَىٰ الْعَمَلِ السّيِءِ، فَإِذَا كانوا مِنْ أَهْلِ الإيمَانِ وابْتِغَاءِ مَرْضَاة الله، أَثَابَ اللهُ الّذِين يَعْمَلُونَ صَالحاً مِنْهُمْ ثَواباً آخَرَ أَعْظَمَ يَوْمَ الدِّين، فَوْقَ مَا يَمْنَحُهُمْ مِنْ ثوابٍ مُعَجَّل.

واقْتَبَسَ النَّاسُ مِنْ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ صِنَاعَةَ دُرُوع الزَّرد، وانْتَشَرَتْ بَعْدَه.

وَأَقُول هُنَا: إِنَّ نُصُوصاً قُرْآنِيَّة مُتَعَدِّدَةً تَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ أُصُول كَثِيرٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ الْبَشَرِيَّة، قَدْ كانَتْ علَىٰ أَيْدِي بَعْضِ أنبياء اللهِ وَرُسُلِهِ، بأمْرٍ مِنَ اللهِ وَتَعْلِيم، وَاقْتَبَسَها النَّاسُ عَنْهُمْ فيما بعد، ثُمَّ طَوَّرَ النَّاسُ فيها وأضَافُوا ضِمْنَ سُلَّمِ الارْتِقَاءِ الحضارِيّ التراكميّ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاود عَلَيْهِما السَّلَام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

في هٰذا النصّ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ آتىٰ سُلَيْمَانَ مِنْ فَضْلِهِ ثَلَاثَ مِنَنٍ امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِ، وَخَصَّهُ بها دُونَ سائِرِ الأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِين، وهي:

(١) تَسْخِيرُ الرِّيح له.

(٢) إِسَالَةُ عَيْنِ النُّحَاسِ له.

(٣) إِكْرَاهُ بَعْضِ الْجِنِّ لِلْعَمَلِ بِأَمْرِه، فإِنْ عَصَاهُ عَاصٍ مِنْهُمْ ذَاقَ مقداراً مَا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ علىٰ مِقْدَارِ مَعْصِيَتِه.

فالْمِنَّةُ الأُولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا في النصّ قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ... ﴿١٢﴾﴾: وفي القراءة الأخرىٰ: **[الرِّيَاحَ]**.

أي: وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ، وقد سَبَقَ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) بَيَانُ أَنَّها تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب، أي: تَجْرِي لَيِّنَةً حَيْثُ قَصَدَ وأراد، فقال تعالىٰ فيها: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنَّ الرّيح العاصِفَةَ قَدْ سُخِّرَتْ لَهُ أيضاً، فقالَ تَعَالَىٰ فيها:

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ وفي قراءة أبي جعفر: [**الرِّياح**].

سُلَيْمان: اسم عبريٌّ معناه «رَجُلُ سَلَام» قالوا: وكان عَهْدُهُ عَهْدَ سَلَامٍ وأمْنٍ في مملكته.

فكانَ لِسُلَيْمانَ علىٰ الرِّيحِ وَالرِّيَاحِ سُلْطَانُ أَمْرٍ ونهيٍ بِتَسْخِيرِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ أمّا «الرِّيحُ» بالإفرَادِ فَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ كُلَّ أنواعِها، وَدَلَّ علَىٰ الأَنْواعِ الْجَمْعُ في قِرَاءَة «الرِّيَاح».

ويَظْهَرُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَجْرِيَ بأمْرِهِ رُخاءً في الأحْوَالِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ فيها رُخاءً، ويأمُرُها أنْ تَجْرِيَ عَاصِفَةً في الأَحْوَالِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ فيها عَاصِفَةً شَدِيدَة.

وَهـٰذه من المنَنِ الّتي اخْتَصَّ اللهُ بِهَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَلَمْ يُؤْتِهَا لِغَيْرِه من أنبيائِهِ ورُسُلِهِ.

وَمَا جاء في وَصْفِ الرِّيح بأنَّ غُدُوَّهَا شَهْرٌ وَأَنَّ رَوَاحَهَا شَهْرٌ، فأذْكُرُ فيه أوَّلاً مَعْنَىٰ الْغُدُوّ، ومعنَىٰ الرَّواحِ في اللُّغَة:

الْغُدُوُّ: الذَّهَابُ في وقْتِ الْغُدْوَةِ، وهو مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْسِ.

والرَّواحُ: السَّيْرُ في العشيّ، وهو في الْغَالِبِ مِنْ وقْتِ الْعَصْرِ إلىٰ الغروب.

والمعتاد أَنْ الْغُدُوَّ ذهَاباً مِنَ المنازِلِ إلَىٰ المقاصِدِ في السَّفَرِ أو الحضر، وأنْ يَكُونَ الرَّواحُ عَوْداً إلَىٰ المنازِلِ للسُّكُون والرَّاحَة.

أمّا تَسْخير الرّيح لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السّلام الّتي غُدُوُّها شَهْرٌ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، فالظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّ سُرْعَتَهَا في الْوَقتِ الّتي يَكُونُ فِيهِ غُدُوُّها، تَجْتَازُ بِهَا مِقْدَارَ مَا تَجْتَازُهُ قَافِلَةُ الْمُسَافِرِينَ في شَهْرٍ كامل. وأَنَّ سُرْعَتَها في الْوَقْتَ الَّذي يَكُونُ فيه رَواحُها، تَجْتَازُ بِهَا مِقْدَارَ مَا تَجْتَازُهُ قَافِلَة الْمُسَافِرين فِي شَهْرٍ كامل.

ونَقَلَ المفسّرُون عن الحسَنِ البصري: أَنَّهُ كَانَ يَغْدُو عَلَىٰ بِسَاطِهِ مَسَافَة شَهْرٍ كامِلٍ للمُسْرِع، ويَرُوحُ عَائِداً إِلَىٰ قَصْرِهِ مَسافَةَ شَهْر.

ولَمْ أَجِدْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ هٰذِهِ الْعَطِيَّة مِنْ عَطَاءَاتِ اللهِ لِسُلَيْمَانَ، علَىٰ مَا رُوي عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْري، وشاعَتْ علىٰ أَلْسِنَة العامّة.

وتأَوَّلَ بَعْضُ المفسِّرينَ تَسْخِيرَ الرّيح لِسُلَيْمَانَ، بِأَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُها لِتَسْيِير سُفُنِهِ في أَسْفَارِهَا ذَاهِبَةً مَسِيرَة شَهْرٍ في الْبَحْر، وعَائِدَةً مَسِيرَة شَهْرٍ، وأَرَىٰ أَنَّ هٰذا خُرُوجٌ عَنْ ظاهِرِ دَلاَلَة النَّصّ.

وَتَرْكُ النَّصِّ القرآنيّ عَلَىٰ عُمُومِهِ، دُونَ تَحْدِيدِ صُوَرٍ خَاصَّةٍ مِنْ صُوَرِ هٰذا التَّسْخير، هُوَ مِنَ التَّدَبُّر الأَمْثَلِ لِكِتَابِ الله، فالرِّيَاحُ في سُنَّةِ اللهِ التَّكْوِينيَّة لَهَا وَظائِفُ كَثِيرَةٌ جدّاً، وَقَدْ فَضَّلَ اللهُ عزّ وجلّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام، بِأَنْ جعَلَهَا مُسَخَّرَةً لَهُ في حُدُودِ مَمْلَكَتِه الَّتي كَانَتْ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُ أَهْلُ الْكِتَاب مِنَ الْفُرَاتِ إِلَىٰ النّيل، فإذا شاءَهَا رُخَاءً أَمرَهَا فَجعَلَهَا اللهُ لَهُ رُخاءً، وَإِذَا شَاءَها عَاصِفَةً قَوِيَّةً أَمرَهَا فَجعَلَها اللهُ لَهُ عَاصِفَة، واللهُ أَعْلَمُ بالصُّوَرِ التَّفْصِيلِيَّة.

والمنَّةُ الثانية: دَلَّ عليها في النّصّ قَوْلُ اللهِ تَعالىٰ: ﴿.. وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ.. ﴿١٢﴾﴾:

الْقِطْر: هُوَ في اللُّغَةِ النُّحاسُ الذَّائب، والْحَدِيدُ الذَّائب.

جَاءَ في كُتُب التفسير أَنَّ اللهَ أَسَالَ لسُلَيْمان عيناً مِنَ الأَرْضِ تُخْرِجُ النُّحاسَ الذَّائب، أخذاً مِنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ القرآني.

ولَمْ يأتِ عِنْدَ أَهْلِ الكتابِ ذِكْرٌ لِهٰذِهِ الْعَيْنِ الَّتِي أَسَالَهَا اللهُ لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكِنْ جاء في «قاموس الكتاب المقدس» أنَّ التَّنْقِيبَ أَظْهَرَ في «عصيون جابر» مَسابِكَ للنُّحَاسِ تَرْجِعُ إِلَىٰ عَصْرِ سُلَيْمان.

فالْمُرَجَّحُ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ عَلَّمَهُ أنْ يَتَّخِذَ لِلنُّحَاسِ مَسابِكَ، ذَاتَ أفْرَان عَالِيَةِ الحرارة، يَذُوبُ في «بُوتَقَاتٍ» كبيرَة، وَيُصَبُّ الذَّائب في مَجَارِي كالسَّوَاقي، لِيُصَبَّ في الْقَوالِبِ المصْنوعَةِ لَهُ، حتَّىٰ يَبْرُدَ علَىٰ أَشْكَالِهَا، وَلَعَلَّ هٰذا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً قَبْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ مِنَ الْعَطَاءَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي وَهَبَها اللهُ لَهُ.

وَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الآمِرَ لِعُمَّالِهِ من الإِنْسِ والْجِنّ، وأَنْ يَكُونَ المعَلِّمَ والْمُرْشد، دُون أَنْ يَكُونَ المباشرَ لِلأَعْمَالِ بِنَفْسه، واللهُ أَعْلَم.

المنَّةُ الثالثَة: دَلَّ عَلَيْها في النّصّ قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

وَجَاءَ في سورة (ص/٣٨ نزول) قَوْلُ الله عزّ وجلّ مُبَيّناً لقْطَةً ممَّا سَخَّرَ اللهُ لِسُلَيمانَ عليه السلام:

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

وجاء في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأنِ بَعْضِ مَا سَخَّرَ اللهُ عزّ وجلّ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السّلام:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

هـٰذِهِ النُّصُوص الثَّلَاثَة مُتكامِلَاتُ الدَّلَالَاتِ فِيما بَيْنَها.

مِنَ الْمَعْلُومِ فِي النُّصُوصِ الدينيَّةِ أَنَّ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجِنّ، لأَنَّ إمَامَهُمْ وَأَوَّلَهُمْ «إبليس» قد ذَكَرَ اللهُ بِشَأْنِهِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ بِذَلِكَ شَيْطاناً.

فلا مانع مِنْ أَنْ يَكُونَ الّذِينَ سَخَّرَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ لِسُلَيْمَان مِنَ الجنِّ هُمْ مِنْ شياطِين الْجِنّ، أَوْ مُعْظَمُهُمْ هُمْ مِنْ شياطين الجنّ.

ودَلَّتْ هـٰذِهِ النُّصُوص عَلَىٰ أَنّ المسَخّرِينَ لَهُ مِنَ الْجِنّ كانُوا عِدَّة فِئَاتٍ:

(١) فِئَةٌ تَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، أي: تَحْتَ مُرَاقَبَتِهِ وسُلْطَانِهِ المباشر، ومَنْ يَزِغْ مِنْ هؤلَاءِ (أي: يمِلْ) عَنْ تَنْفِيذ أَمْرِ اللهِ لَهُ بطَاعَةِ سُلَيْمَان، يُذِقْهُ عَنْ طَرِيق بَعْضِ مَلَائِكَتِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ بَعْضَ عَذَابٍ مِنْ نَوْعِ عَذَابِ السَّعير، وهي النَّارُ الْمُحْرِقَة.

وهؤلاءِ يَعْمَلُونَ لِسُلَيْمان مَا يَشَاءُ أَنْ يَعْمَلُوه، ومِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ مَا يلي:

(١) **المحَارِيب**: جمع مفرده «مِحْراب» وهو صَدْرُ البيت، وأكْرَمُ مَوْضِعٍ فيه، وأَرْفَعُ بَيْتٍ في الدَّار، وأَرْفَعُ مَكَانٍ في المسْجد، ويُطْلَقُ علىٰ الْقَلْعَةِ وَالحِصْن.

ومَحَارِيبُ بني إسْرَائيل هي مَسَاجِدُهُمُ الَّتي كانُوا يَجْلِسُونَ فيها.

(٢) **التَّمَاثِيل**: جمع مفردهُ «تِمْثَال» وهُو الصُّورَةُ ذَاتُ الْجِسْمِ المماثِلِ لِصُورَةِ جِسْمٍ من الأَجْسَام، ذي حَيَاةٍ أَوْ غَيْرِ ذي حَيَاةٍ.

وجَاءَ في الإصحاح العاشر مِنَ سِفْر الْمُلوكِ الأول عند الإسْرَائيليين: «١٨ وعَمِلَ الْمَلِكُ (أي: سليمان) كُرْسِيّاً عَظيماً مِنْ عَاجٍ، وغَشَّاهُ بِذَهَبٍ إبْريزٍ ١٩ وَلِلْكُرْسِيّ سِتُّ دَرَجَاتٍ. ولِلْكُرْسِي رَأسٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ وَرَائِهِ وَيَدَانِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ عَلَىٰ مَكَانِ الْجُلُوس وَأَسَدَانِ وَاقِفَانِ بِجَانِبِ الْيَدَينِ، واثْنَا عَشَرَ أَسَداً واقِفَةً هُنَاكَ علَىٰ الدَّرَجَاتِ السِّتّ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ. لَمْ يُعْمَلْ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ الْمَمَالِكِ».

إنَّهُ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ التَّمَاثِيلَ الْمُجَسَّمَةَ لِلأَحْيَاءِ، قد كَانَتْ مُحَرَّمَةً فِي الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابقة، وَقَدْ جَاءَ تَحْرِيمُهَا في الرِّسَالَةِ الخاتِمَة سَدّاً للذَّرَائِعِ، حتَّىٰ لَا تُعْبَدَ الأَوْثَانُ من دُون اللهِ عزّ وجلّ.

(٣) **الجفانُ الّتِي تُشْبِهُ الجوابي**: «**الجِفَانُ**»: جَمْعُ «**جَفْنَة**» وهِيَ الْقَصْعَةُ الّتِي يُوضَعُ فيها الطَّعَامُ لِلآكِلين. «**الْجَوَابِي**» جَمْعُ «**جَابِيَة**» وهي حَفِيرَةٌ في الأَرْضِ كالْحَوْضِ، وقيل: هي الْحَوْضُ الكبير الذي يَجْبِي الْمَاءَ أيْ: يَجْمَعُهُ، ويُتَّخَذُ لِشُرْبِ الإبل.

فهي قِصَاعٌ كَبِيرَةٌ تُشْبِهُ حِيَاضَ الإبلِ، وَفي هـٰذا الْوَصْفِ كِنَايَةٌ عَنْ كَثْرَةِ الآكِلِينَ مِن قِصَاعِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام.

(٤) **الْقُدُورُ الرَّاسِيَات**: **الْقُدُور**: جمع مفردهُ: «الْقِدْرُ» وهيَ إنَاءٌ يُطْبَخُ فِيهِ الطَّعَام، ويُصْنَعُ مِنْها صغيرات، ومتوسِّطَات، وَكَبِيراتٌ جدّاً تُوضَعُ عَلَىٰ مَوْقِدِهَا دَواماً فَلَا تُنْزلُ عَنْه بَلْ يُغْرَفُ مِنْهَا بالْمَغَارِف. **الرَّاسِيَات**: أي: الثابتات، فَدَلَّ هـٰذا الوصْفَ عَلَىٰ أَنَّها كَبِيرَاتٌ جِدّاً مِنْ بَيْنِ الْقُدُور، فَقَدْ تَتَّسِعُ لِطَهْوِ لَحْم أَكْثَرَ مِنْ جَمَلٍ وأَكْثَرَ مِنْ ثَوْر، فيُبْقِيها النَّاسُ ثَابِتَةً علىٰ مَوْقِدٍ يُصْنَعُ لَهَا مُلَائِمٍ لِحَجْمِها.

وأتْبَعَ اللهُ عزّ وجلّ ذِكْرَ هـٰذِهِ الأَشْيَاء الّتي يَعْمَلُها الْجِنُّ المسخَّرُونَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام، بِذِكْرِ قَوْلِهِ الَّذِي خاطَبَ بِهِ آلَ دَاودَ عليه السلام:

• ﴿... ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ...﴾: أَيْ: اعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحاً، لأَجْلِ شُكْرِ اللهِ بالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَىٰ مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ كثيرة.

وأَتْبَعَ اللهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ العبارة الّتي خَاطَبَ بما يَتَضَمَّنُ مَعْنَاها آلَ دَاود بِقَولِهِ:

• ﴿... وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾: **الشَّكُور**: صيغة مبالغة لاسْم الفاعل «شَاكِر». **والشَّكُورُ**: هو الَّذي يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ بِمَحَابِهِ مِنْ عِبادِهِ، فَوْقَ أداء الواجِبَات، وتَرْكِ الْمُحَرَّمَات، إذْ يَجْتَهِدُ بأداءِ نَوافِلِ العباداتِ ارْتِقَاءً في دَرَجَات مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، فَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

ولهٰذا قَالَ الرسُولُ ﷺ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ حينَ سَأَلُوه عَنْ سَبَبِ كَثْرَةِ إِجْهَادِهِ نَفْسهُ بِنَوَافِلِ عِبادَاتِهِ لِربّه، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تأخر: «أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً».

إِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ شَاكِرُونَ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، ولَكِنْ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ «الشَّكُور».

وَجَاءَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ مِنَّةِ اللهِ علىٰ سُلَيْمَانَ بِتَسْخِير الْجِنّ له، قول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (ص/٣٨ نزول):

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾: أَيْ: وجَعَلَ اللهُ سُلَيْمَانَ مُسَلَّطاً علىٰ مَنْ سَخَّرَهُمْ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِين، فَهُوَ يُكَلِّفُ الْقَادِرِينَ مِنْهُمْ عَلَىٰ البناء أَنْ يَبْنُوا لَهُ مَا يأْمُرُهُمْ بِبِنَائِه مِنْ مَبَانٍ وحُصُونٍ وقُصُورٍ وقِلَاعٍ، ويُكَلّفُ الْقَادِرِين مِنْهُمْ عَلَىٰ الْغَوْصِ فِي البِحَارِ أَنْ يَغُوصُوا، لِيَسْتَخْرِجُوا لَهُ مَا يَجِدُونَ فيها مِنْ لُؤْلُؤٍ وغَيْرِهِ مِنْ نَفَائس.

وَمَنْ يَعْصِهِ مِنْهُمْ يَأْمُرُ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ بِأَنْ يَشُدُّوهُمْ بالسَّلاسِلِ والأَغْلَالِ، دَلَّ علىٰ هٰذا قول الله تعالىٰ فيها:

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: مَشْدُودِينَ فُرَادَىٰ أَوْ مُقْتَرِنينَ في السَّلاسِلِ، والأَغْلال الْمُلَائِمَةِ لِطَبَائِعهم.

وجاء بالنِّسْبَةِ إلىٰ هٰذِهِ المنَّةِ أَيْضاً قَوْلُ اللهِ تعالىٰ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وَكُنَّا لِتَسْخِيرِهِمْ لَهُ حَافِظِينَ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزِيغ عَنْ أَمْرِهِ مِنْهُمْ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِير، وهو ما جاء بيانُه في سورة (سَبَأْ) التي نَتَدَبَّرُ آياتها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَشْهَداً مِنْ أَحْدَاثِ مَوْتِ سُلَيْمانَ عليه السلام:

• ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾:

• ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾: أَيْ: فَحِينَ أَمْضَيْنَا قَضَاءَنَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ إِذْ جَاءَ أَجَلُهُ المقَدَّرُ لِانْتِهَاءِ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ.

• ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾:

دَابَّةُ الأَرْض: هِي الأَرَضة، دُوَيْبَةٌ تَأْكُلُ الْخَشَبَ ونَحْوَه، أو هي دُودَةٌ تَأْكُلُ الخشبَ ونَحْوَه، وتُعْرَفُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الأَحْيَاءِ باسْم: «النَّمْل الأَبيض» وَهُوَ يأْكُلُ الأَخْشَابَ في المبانِي ويُتْلِفُهَا، ويُعَالَجُ بِمُبيدَاتٍ حَشَرِيَّةٍ قَوِيَّةِ التَّأْثِير.

مِنْسَأَته: **المِنْسَأَة**: بِكَسْرِ الميم وفَتْحِهَا هي الْعَصَا الْعَظِيمةُ، قيلَ: هِيَ كَلِمَةٌ دَاخِلَةٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ من لُغَةِ الْحَبَشَةِ.

جاء في قِصّةِ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِكَايَاتٌ لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ تَجْعَلُهَا ذَاتَ قِيمَةٍ خَبَرِيَّة، فَمِنَ الْخَيْرِ عَدَمُ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا.

وَمِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ خَلَواتٌ مَعَ رَبِّهِ، فإِذَا دَخَلَ مَكانَهُ الْخَاصَّ الَّذِي يَخْلُو به لَمْ يَجْرُؤْ أحدٌ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ، لِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ هَيْبَةٍ عَظِيْمَةٍ في القُلُوب. وكَانَ لَهُ كُرْسِيٌّ في خَلْوَتِهِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَيَتَوكَّأُ فِيهِ علَىٰ عَصَاهُ، وَاضِعاً رَأْسَهُ عَلَيْها يَذْكُرُ اللهَ وَيُسَبِّحُ وَيَتْلُو مِنْ آيَاتِ اللهِ فيما أَنْزَلَ عَلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، وَكَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْجُلُوسِ الطَّوِيلِ مَعْرُوفَةٌ لَدَىٰ الْجَمِيع، وَرُبَّما كَانُوا يَرَوْنَهُ مِنْ بَعْضِ النَّوَافِذِ إِذَا مَرُّوا مِنْ جِهَتِها جَالِساً عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ مُمْسِكاً عَصَاهُ وَوَاضِعاً رَأْسَهُ عَلَىٰ أَعْلَاهَا، وهُمْ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةً دَائِمَةً، وإِنَّما تَكُونُ نَظَراتُهُمْ لَمَحَاتٍ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ تَرَكَ مَجْلِسَهُ لِحَاجَاتِهِ ثُمَّ عَاد، وشَاءَ اللهُ عزّ وجلّ أَنْ يُعَمِّيَ عَنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ وَاقِعَ حَاله.

وقَبَضَ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ في أوائل خَلْوَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ جالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيّهِ مُمْسِكاً بِعَصَاهُ، وَوَاضِعاً جبينه عَلَىٰ أَعْلَاهَا، وَشَاءَ اللهُ أَنْ يَحْفَظَهُ وَهُوَ عَلَىٰ هـٰذا الْوَضع مُدَّةً طَوِيلَةً يُدْرِكُ بِها الْجِنُّ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ الْقَرِيبَ مِنْهُمْ، وَيُدْرِكُ بها الإنْسُ الَّذِينَ كانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ شَيْئاً مِنَ الْغَيْبِ، أَنَّ الْجِنَّ لا يَعْلَمُونَ شيئاً مما هو غيب عن حواسهم، فهم لم يعلموا مَوْتَ سُلَيْمانَ وَهُوَ فِي خَلْوَتِهِ دَاخِلَ قَصْرِه، وَهُمْ يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ لَهُمْ بأَعْمَالٍ شَاقَّةٍ فيهَا تَعْذِيبٌ لَهُمْ وَإِهَانَةٌ، كَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ خَلْوَته.

وأَرْسَلَ اللهُ الأَرَضَة تأكُلُ مِنْ عَصَاه لِتَضْعُفَ عَنْ حَمْلِ مَا تحمل مِن رأسه وجَسَدِهِ فتنكسر.

وَلَمَّا انْتَهَتِ المدَّةُ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُعَمّي فيها عَنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَ سُلَيْمانَ مِنَ الإِنْسِ والْجِنِّ واقِعَ حَالِ مَوْتِهِ، كَانَتِ الأَرَضَةُ قد انْتَهَتْ مِنْ وَظِيفَتِها الَّتِي أَرْسَلَهَا اللهُ لَهَا، فانْكَسَرَتِ الْعَصَا، فَخَرَّ سُلَيْمانُ عَلَىٰ الأَرْضِ.

ولَمَحَ مُنَاظِرُو وَضْعِهِ أَحْيَاناً، أَنَّهُ خَرَّ عَلَىٰ الأَرْضِ خُرُورَ الموتىٰ، فَدَخَلَ خَاصَّتُهُ، وَأَعْيَانُ قَصْرِهِ إِلَىٰ خَلْوَتِهِ فَوَجَدُوهُ مَيِّتاً.

عِنْدَئِذٍ: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾: أي: مَا لَبِثُوا يُنَفِّذُونَ الأَعْمَالَ الَّتِي كَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِتَنْفِيذِها قَبْلَ مَوْتِهِ، وَكَانُوا يَرْهَبُونَ سَطْوَتَهُ، وَمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ عَلَيهم.

وَدَلَّتْ القراءة الأُخْرَىٰ [تُبُيِّنَتِ] عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَ الّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ في الْجِنِّ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ شيئاً مِنَ الْغَيْبِ، قَدْ تَبَيَّنُوا أَنَّ اعْتِقَادَهُمْ فِي الْجِنِّ كَانَ اعْتِقَاداً باطِلاً، وظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً مِنَ الْغَيْبِ الْخَارِجِ عَنْ إِدْرَاكَاتِهِم الحسّيّة.

لَبِثُوا: أي: أقامُوا. **المُهِين**: أي: الْمُذِلّ المخزي.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (سبأ).

والْحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وَتوفِيقهِ وفَتحِهِ.

(٧)
التدبّر التحليلي للدَّرْس الرابع من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (١٥ ـ ٢١)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ

وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

القراءات:

(١٥) • قرأ الْبَزِّي، وأبو عمرو: **[لِسَبأَ]** جرّاً بالفتحة عَلَىٰ أَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِن الصَّرْف، باعتبار أَنَّهُ عَلَمٌ واسْمٌ للقبيلة.

وقرأها قنبُل: **[لِسَبَأْ]** بإسْكانِ الهمزة حِكَايَةً للنُّطْقِ الدارج.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**لِسَبَإٍ**﴾ بالجرّ والتّنْوين، مُراعَاةً لأَنَّ اللّفظ اسْمٌ عَلَمٌ لِلْجدّ الأعْلَىٰ.

(١٥) • قرأ حفص، وحمزة: ﴿**مَسْكَنِهِمْ**﴾ بالإفراد وفَتْح الكاف.

وقرأها الكسائي، وخلف: **[مَسْكِنِهِمْ]** بالإفراد وكسْرِ الكافَ، وهو لُغَة مِمَّا سُمِعَ علىٰ غير القياسِ، إِذِ القياسُ «مَسْكَن».

وقَرَأَهَا بَاقي الْقُرّاء العَشَرةِ: **[مَسَاكِنِهِمْ]** بالجمع، إذْ كَانت لهم مَسَاكِنُ مُتَعَدِّدَةٌ فِي قُرَىٰ. وعَلَيْهِ يُحْمَلُ الإفراد، إذْ هو مُضَافٌ إِلَىٰ ضَمِيرِهِمْ.

(١٦) • قَرَأَ نَافِعُ، وابْنُ كثير: **[أُكْلِ خَمْطٍ]** بإسْكانِ الكاف، وجَرِّ اللّام مَع التَّنْوين.

وقرأهَا أَبُو عَمْرو، ويَعْقُوبُ: **[أُكُلِ خَمْطٍ]** بِضَمِ الْكَافِ، وجَرّ اللَّامِ دُونَ تَنْوِينٍ علىٰ أَنَّهُ مُضَاف.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بِضَمّ الكاف، وجرّ اللّامِ مَعَ التَّنْوِين.

ومؤدَّىٰ هـٰذه القراءاتِ واحد. الأُكْلُ والأُكُلُ لغتان بمعنىٰ الثمر.

(١٧) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْن عامر، وَشعبة، وأبو جعفر: [وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الكَفُورُ] أي: في أحكام الله القائمة علىٰ العدل.

وقرأهَا بَاقي الْقُرّاء الْعَشرة: ﴿وَهَلْ نُجَازِيَ إِلَّا الكَفُورَ﴾ بضمير المتكلّم الْعَظِيم.

(١٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وهِشَامٌ: [رَبَّنَا بَعِّدْ].

وقرأها يَعْقُوبُ: [رَبُّنَا بَاعَدَ] وهـٰذه القراءة تدلُّ علىٰ أن الله عزّ وجلّ اسْتَجابَ دُعَاءَهم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ لفظتَا «بَعِّدْ، وبَاعِدْ» لغتان عَرَبيّتان.

(٢٠) • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائِي، وخلَف: ﴿صَدَّقَ﴾ بِتَشْدِيد الدّال وفتحها، بِمَعْنَىٰ حَقّقَ إبْلِيسُ باسْتِجَابتهم لإغراءاتِه ظَنَّهُ فيهم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [صَدَقَ] بفتح الدّال دون تَشْدِيد، بمعنىٰ صَدَق إِبْلِيسُ بِظَنِّهِ أَنَّهُمْ سَيَسْتَجِيبُون لإِغْرَاءاته وإغواءَاته. ونَصْبُ «ظَنَّهُ» علىٰ هـٰذِهِ القراءة هو علَىٰ نَزْعِ الخافِض.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدّرْس عَرْضٌ مُوجَزٌ عَنْ قَوْمِ «سَبَأْ» وهم سامِيّونَ مِنَ العَرَبِ العاربَة، ولَيْسُوا مِنْ سُلَالَة «إِسْمَاعيل بن إبراهيم عليهما السلام».

وفي هٰذا الموجز بيانُ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ قَدْ سَلَبَهُمْ مَا كانُوا فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَرِزْقٍ وافِرٍ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ بأنْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ، إذْ شَقَّ الرَّدْمَ الَّذِي جَعلُوهُ سَدّاً في «مَأْرِب» يحْجُزُ وَرَاءَهُ مَاءً كَثيراً، يَسْقُونَ مِنْهُ مَزَارِعَهُم وَبَسَاتِينَهُمْ، فانْدَفَعَ الْمَاءُ سَيْلاً مُدَمِّراً، فأتْلَفَ مَزَارِعَهُمْ، وأغْرَقَ بُيُوتَهُمْ، فَتَفَرَّقُوا في الْبِلَادِ، وَمَزَّقَهُمُ اللهُ أَشْتَاتاً.

وفي هٰذا الْعَرْض الموجَزِ إنْذَارٌ لِكُفَّارِ قُرَيشٍ بأنَّ اللهَ عزّ وجلّ قَدْ يَجْزِيهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِسَلْبِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ وأمْوَالٍ يُفَاخِرُونَ بِها، وَيرَوْنَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ بها مِنَ الرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ ومِنَ الَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، إذْ كَانَ هَؤُلَاءِ حِينَئِذٍ فُقَرَاءَ ضُعَفَاء، وفيه إنذارٌ لِكُلِّ أمْثَالِهِمْ حتَّىٰ آخِر النَّاسِ في الأرض.

موجز مُختارٌ مِنْ قِصَّة «سَبَأ» عِنْدَ المؤرِّخين:

«سَبَأٌ» قَوْمٌ مِنَ العَرَب العاربة، يُنْسَبُونَ إلىٰ جَدِّهِمْ الَّذِي اشْتَهَرَ باسْمِ «سَبَأ» وكانَ أَوَّلَ مُلُوكهم، واسْمُهُ علىٰ مَا يَذْكُرُونَ «عَبْدُ شَمْس بن يَشْجب بن يَعْرُب بن قَحْطَانَ» ويقال: إنّه أوَّلُ مَنْ لَبِسَ تَاجاً في الْعَرَب، تَقْلِيداً لِمُلُوكِ الْفُرْسِ، ويُلَقَّبُ الْمَلِكُ مِنْهُم بلَفْظِ «تُبَّع» ومنهم الملكةُ «بلْقِيس» التي كانت ملكة عليهم في عهد سُلَيمان عليه السلام.

وقومُ «سبأ» يَجْمَعُونَ عشرة قبائل، سِتَّةٌ مِنْهم يمانيون، وأرْبَعَةٌ مِنْهُمْ شَامِيّون.

فالْيَمَانِيُّونَ مِنْهم هم: «مَذحج، وكِنْدة، والأَزْد، والأشْعَرِيُّون، وَأَنْمار، وحِمْيَر».

والشّامِيُّونَ منهم هُمْ: «لَخْم، وجذام، وَعَامِلَة، وغَسَّان».

وكانت قبائِلُ «سبأ» في اليمن في نِعْمَةٍ عظيمة، وأرْزَاقٍ دَارَّةٍ، وثمارٍ وزُرُوعٍ كثيرة.

وكانُوا أهْلَ اسْتِقَامَةٍ وسَدَادٍ، وحِكْمَةٍ ورَشاد.

ثُمّ تَحَوَّلُوا إلَىٰ الشَّرّ والإثم والفسادِ والإفساد.

فسَلَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ ما كانوا فيه مِنْ رَفاهِيَةٍ ونِعَمٍ وافِرَةٍ، وحَيَاةٍ سَعِيدة، إلىٰ ضَنْكٍ وقِلَّةٍ وَمُكابَدَةٍ وَشظَفٍ مِنَ العيش.

كانَ لَهُمْ في «مأرِب» مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ سَدٌّ بَيْنَ جبَلَيْنِ، أنْشَأَهُ أَجْدَادُهُمْ، وقَدْ حَجَرُوا وَرَاءَ هـٰذا السَّدِّ مِيَاهاً كَثِيرَة مِنَ الْعُيُونِ والأَمْطَار، وأتْقَنُوا بِحَسَبِ مُسْتَواهُمُ الحضاريّ طُرُق الانْتِفاع بها لِسَقْي مزارِعِهِمْ وَبَسَاتينهم ولسائر حَاجاتهم من الماء.

قيلَ: إنَّ اتِّسَاعَ مُسَطَّح الماء وَرَاءَ السّدّ يَبْلُغُ نَحْو فَرْسَخٍ في فَرْسخ، **الفرسخ**: ثَلَاثَةُ أميال، ويُقَدَّرُ الميل بنحو (١٦٠٩م طولاً).

وكانَ لِسَبأ جنَّتان، مُتَقَابِلَتَان مُمْتَدَّتَان، وكانت مَساكِنُهُمْ وقُرَاهُمْ بَيْنَهما، وَفي كُلِّ جَنَّةٍ مِنْهُما بَسَاتِينُ وَحَدَائِقُ كَثِيرَةٌ وَمَزَارِعُ مُتَعَدِّدَة.

قالُوا: وقَدْ مَنَحَ اللهُ عزّ وجلّ أَرْضَهُمْ وبِلَادَهُمْ مُنَاخاً طَيِّباً، وَهَوَاءً نَقِيّاً.

فَلَمَّا فَسَدُوا سَلَّطَ اللهُ عزّ وجلّ علىٰ سَدِّهِمْ عَوامِلَ هَدْم، فانْهَدَمَ وتَدَفّقَ الماءُ الحبيسُ وَرَاءَهُ عَلَيْهِمْ سَيْلاً شَدِيداً عَرِماً لَا يُطَاقُ صَدُّه ولَا مُقَاومَتُه، فأغْرَقَ دِيارَهُمْ وَمَزَارِعَهُمْ وَبَسَاتِينَهُمْ، وأَتْلَفَ أرْزَاقَهُمْ، وجَعَلَ بَدَلَ جنَّتيهم النّفيسَتَيْنِ، جَنّتَيْنِ ذَوَاتَي أَشْجَارٍ رَديئة سَيِّئَةِ الثَّمر، إلّا قَلِيلاً مِنْ أشجار السِّدْر.

وانْتَقَلَ مَنِ انْتَقَلَ مِنْ سَبأ إلَىٰ مَوَاطِنَ شَتّىٰ، وقَالُوا إنّ الأوْسَ والخَزْرَجَ في المدينة مِنَ السّبئِيّينَ الّذينَ هَاجَرُوا من اليمن إلىٰ المدينة (يَثْرِب قَبْلَ هِجْرَة الرَّسُولِ ﷺ إليها).

وكان من المناسب بَعْدَ عَرضٍ لَقَطَاتٍ مِنْ قصّة سُليمان المنْعَم عليه الشاكر، أن يأتي في البيان عَرْضٌ لِقِصَّةِ «سبأ» الّذِين أنعم اللهُ عليهم فَكَفَرُوا فَسَلَبَهُمُ اللهُ وافر النِّعْمَة، وفي هٰذا موعظة للمعاندين إبّانَ التنزيل، ولأَمْثالهم من بَعْدِهم.

التدبر التحليلي:

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: **[في مَسَاكِنِهِمْ]** بالجمع، والمؤدَّىٰ واحدٌ، فالْمُرَادُ الْبِلَادُ والْقُرَىٰ الّتِي كانُوا يَسْكُنُونها، هِيَ في مُجْمَلِهَا: «مَسْكَنٌ» وأفرادُها: «مَساكن».

أي: يُؤَكّدُ اللهُ لَكُمْ أيُّها المصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ، أَيُّها المشْرِكُونَ في مَكَّةَ إبّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ «بلام القسم و«قَدْ» الّتي للتَّحْقيق» أَنَّ قَوْمَ سَبَأَ كَانَ لَهُمْ في مَسْكَنَهِمْ آيَةٌ مِن آيَاتِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهم، الَّتِي يَجِبُ عليهمْ أَنْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ عَلَيْها، بالإيمَانِ الصَّحِيح الخالي مِنَ الشِّرْكِ، وبالإسْلَام لَهُ وَطَاعَتِهِ في أوَامِرِهِ وفي نواهيه.

هٰذِهِ الآيَةُ هِيَ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ بِتَوْفيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ وعِنَايَتِهِ، جَنَّتَيْنِ عَنْ يَمِينِ مَسَاكِنِهِمْ وعَنْ شمَالِها، فَالْمَاشِي في الطَرِيق الْمُمْتَدِّ مِنْ أَوَّلِ مَساكِنِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِهَا ذهَاباً أَوْ إياباً يَجِدُ بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ وَمَزَارع جَمِيلَةَ المنْظَرِ، وافِرَةَ الثَّمَرَاتِ، كَثِيرةَ الْعَطاءِ مِنَ الأَرْزَاقِ لِلْقَوْمِ وأَنْعَامِهِمْ وَدَوابِّهم.

وكانَتْ هَاتَانِ الجنَّتَانِ تُسْقَيَانِ مِنَ المِيَاهِ المخزونَة وَرَاءَ سَدِّ مأْرب، إِذْ أَلْهَمَ اللهُ السَّبَئِيِّين وَوَفَّقَهُمْ أَنْ يُحْسِنُوا الاسْتِفَادَة مِنَ المِيَاهِ، وَتَوْزِيعِها بالسَّوَاقي والْمَجَارِي تَوْزِيعاً بمَقَادِيرَ مُنَاسِبة.

«جَنَّتَانِ» بَدَلٌ من «آيَة».

وكانَتْ حَالَتُهُمْ قَبْلَ أَنْ يُجازِيَهُمُ اللهُ بِسَلْبِ وافِرِ نِعَمه عليهم تُشْبِهُ حَالَتَكُمْ أَيُّهَا المشرِكُونَ، فأَنْتُمْ فِي مَكَّةَ في قَرْيَةٍ آمِنَةٍ مَطْمَئِنَّةٍ يَأْتِيها رِزْقُهَا رَغداً مِنْ كُلِّ مَكَان، فَلاَ تُسَبِّبُوا لأَنْفُسِكُمْ بالكُفرِ بما جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّكُمْ أَنْ يُنْزِل الله بِكُمْ نَظِيرَ مَا أنزَل بِقَوْمِ «سَبأ».

● ﴿.. كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾:

دَلَّ هٰذا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَرْسَل إلَيْهِمْ مَنْ يَعِظُهُمْ، ويأمُرُهُمْ بِأنْ يَشْكُرُوا لِرَبِّهِمْ، ولاَ يَكْفُرُوه، وَيُذَكِّرُهم بأَنَّهُ هُوَ الّذِي جَعَلَ لَهُمْ بَلْدَةً طَيّبَةً وافِرَةَ الْعَطَاءِ مِنَ الأَرْزَاقِ، حَسَنَة المُنَاخ والهواء، نَقِيَّةً مِنَ الأَوْباء. ويُطْمِعُهُمْ بأَنَّ اللهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ لَهُمْ إذا آمَنُوا بِهِ إيماناً صَحِيحاً خالِياً من الشِّرْكيَّاتِ، وأسْلَمُوا لَهُ وَأَطَاعُوا، بِفِعْلِ الواجِباتِ، وتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ.

ولاَ بُدَّ أَنْ تَقْتَرِنَ هٰذِهِ الموعظَةُ بالتَّرْغيب تَبْشيراً، وبالتَّرْهِيبِ إنْذاراً.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾: **الطَّيِّبُ**: ضِدُّ الخبيث، والطَّيّبُ مِنَ الأرض مَا كَانَ منها خَصِيباً حَسَنَ الإنْبَاتِ. والطيبُ مِنَ الشجر هو الذي يُؤْتي أكُلَهُ جيّداً بإذْنِ رَبِّهِ. والطّيِّبُ مِنَ الْبَلْدَاتِ مَا كَانَ خالِياً مِنَ الأَوْبِئَةِ، جَيّدَ الْهَوَاءِ، معْتَدِلَ دَرجَاتِ الْحَرارَةِ. والمعنىٰ: هٰذِهِ بَلْدَتُكُمْ بَلْدَةٌ طيّبَةٌ.

■ قوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

● ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾: أيْ: فَلَمْ يَسْتَجيبُوا لِمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ دَاعِيهِمْ إلَىٰ اللهِ، المنْذِرُ لَهُمْ بِعِقَابِهِ. **الإعْراضُ**: وَسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَارِ.

• ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾: جاء في تفسير الْعَرِمِ عِدَّةُ وجوه، أَحْسَنُهَا فيما أرَىٰ أَنَّ «الْعَرِمَ» اسم للسَّدِّ في اللُّغَةِ، قَالَ الْمُبَرِّد: «الْعَرِمُ: كُلُّ شَيْءٍ حَاجِزٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ» ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمَاءَ الكَثِيرَ الْمخزُونَ وَرَاءَ السَّدِّ إِذَا انْهَدَمَ السَّدُّ تَدَفَّقَ سَيْلاً شَدِيداً لَا يُطَاقُ صَدُّهُ، ولَا يَسْتَطِيعُ الناسُ مُقَاوَمَتَهُ، فَلَا وَسِيلَةَ لَهُمْ إِلَّا الْهَرَبُ، وَتَرْكُ كُلّ شيء.

ومِنْها نَدْرِكُ اختِيَارَ كَلِمَةِ «الْعَرِم» مِنْ أَسْمَاءِ السَّدِّ، لِمَا فيها لُغَةً مِنْ مَعْنَىٰ الشِّدَّةِ أَيْضاً، يُقَالُ لُغَة: «عَرَمَ فُلَانٌ يَعْرُمَ عَرْماً» أي: اشْتَدَّ، وخَبُثَ، وكَانَ شِرِّيراً. وكَذَلِكَ «عَرِمَ، يَعْرَمُ، عَرَماً، فَهُوَ عَرِمٌ» أي: صَارَ شَدِيداً شَرِساً. وعَلَىٰ هـٰذا يُمْكِنُ أَنْ تُفْهَمَ العبارة علىٰ الوجْهِ التالي: فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَاءِ الشَّدِيدِ الْعَنِيفِ المتَدَفِّقِ بالْوَحْل، فَمِنْ مَعَانِي «عَرِمَ الشَّيْءُ» كانَ فِيهِ سَوَادٌ مختَلِطٌ بِبَيَاضٍ.

وبَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ، وَاتْلَفَ مَزَارِعَهُمْ، وَدَمَّرَ مَسَاكِنَهُمْ، وَأَهْلَكَ كثيراً مِنْ بَهائِمِهم، هَاجَرَ مِنْهُمْ مَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ مَنَازِل شَتَّىٰ، وبقي مَنْ بقي مِنْهُمْ عَلَىٰ شَظَفٍ، يُرَمِّمُونَ وَيَسْتَصْلِحُونَ عَلَىٰ مَقَادِير طَاقَاتِهِمْ، وكانَ حَالُهُمْ كَمَا وصَفَ اللهُ عزّ وجلَّ:

• ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾:

• ﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾ وفي القراءة الأُخرَىٰ: **[أُكُلِ خمْطٍ]: الأُكُلُ.**

والأُكُلُ: الثَّمَرُ الَّذِي يُؤْكَلُ مِنَ الشّجر. **والْخَمْطُ**: يأتي بمعنَىٰ: الْحَمْلِ الْقَلِيل مِنْ كُلّ شجر. ويَأْتِي بمعْنَىٰ الْمُرّ مِنْ كُلّ شيءٍ، وكُلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طَعْماً مِنْ مَرَارَة. ويُطْلَقُ علَىٰ صِنْفٍ مِنْ شَجَرِ الأَرَاك لَهُ ثَمَرٌ يُؤْكَلُ. قَالَ المبرِّد: كُلُّ شيءٍ تَغَيَّرَ إِلَىٰ مَا لَا يُشْتَهَىٰ يُقَالُ لَهُ: خَمْط.

هـٰذِهِ المعاني كلُّها صَالِحَةٌ لأَنْ تُفَسَّرَ بِها الْعِبَارةُ هُنَا.

فقراءَةُ: ﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾ تُفَسَّرُ بِثَمَرٍ مُرٍّ، أو فيه مَرَارَةٌ غَيْرُ مُحَبَّبَةٍ لَا

تُشْتَهَىٰ. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ قَلِيلِ الْحَمْل. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الأَرَاكِ. وكُلُّ هـٰذِهِ صَالِحَةٌ لأَنْ تُفْهَمَ معاً مِنْ هـٰذِهِ العبارة.

وقِراءَةُ [**أُكُلِ خَمْطٍ**] بإضافَةِ لفْظِ «أُكُل» إلىٰ لفظ «خَمْط» تُفَسَّرُ بِثَمرِ شَجَرٍ قَلِيلِ الْحَمْلِ. وَتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرِ أَراكٍ. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ ذِي مَرَارة. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ تَغَيَّرَ إلىٰ مَا لَا يُشْتَهَىٰ.

وكُلُّ هـٰذِهِ المعاني أيْضاً صَالِحَةٌ لأَنْ تُفَسَّرَ بِها هـٰذِهِ الْقِرَاءة.

دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَىٰ معْنَيَيْهِ فَأَكْثَرَ من مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَيْهِ مُعْظَم الأئِمَّةِ المجتَهِدينَ، ومِنْهم «مالِكٌ، والشَّافِعيُّ، وأحْمَدُ» رَحِمَهُمُ اللهُ ورَضي عنهم، وهو الملائِمُ لِمَا يُفْهَمُ من كثيرٍ مِنَ الكلمات القرآنية ذَوَاتِ المعاني المتعدّدة.

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ أَرَاضِيَ الجنَّتَيْنِ قَدْ تَلِفَتْ فِيها الأَشْجَارُ ذَواتُ الثَّمَرِ النَّفِيسِ المحَبَّبِ للنَّاس، وبقِي فيها وَتَكاثَرتِ الأَشْجَارُ الَّتِي تَنْبُتُ في الفيافي القاحِلَةُ، ذَوات الثمر المرِّ، أو الطَّعْمِ غَيْرِ المستَحَبِّ للناس.

• ﴿وَأَثْلٍ﴾: **الأَثْلُ**: شَجَرٌ عظيم مِنْ شَجَرِ الْعِضَاه، مِنَ الْفَصِيلَةِ الطَّرْفَاوِيَّة، طَوِيلٌ مُسْتَقِيمٌ يُعَمِّر، وهُو جَيِّدُ الخشب، كثير الأغْصَانِ مُتَعَقِّدُها، دَقيق الورق، واحِدَتُهُ: «أَثْلَة».

• ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: أَيْ: وَشيءٍ قَليلٍ مِنْ شَجَرِ السِّدْر.

السِّدْرُ: شجَرٌ مَعْرُوفٌ في الجزيرة الْعَرَبية، ولَهُ ثَمرٌ يُقَالُ له: النَّبِقُ، يَنْبُتُ في الجبال والرَّمْل. ويُسْتَنْبَتُ فيكُونُ أعْظَمَ وَرَقاً وثمراً، وأَقَلّ شَوْكاً، ولَا يَنْثُرُ وَرَقَهُ، وهو من الأشجار المعمِّرَة، الّتي تُقِيمُ نَحْوَ مائةِ عام. ولَهُ فَوائِدُ وخَصَائِصُ عِلَاجِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، يَعْرِفُها الّذِينَ يُمَارِسُونَ الْعِلَاجَ الطبّيَّ بِالنَّباتَات.

• ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾:

أي: ذَلِكَ الْجَزَاءَ الّذِي بَيّنَّاهُ في الآيَة السَّابِقَةِ جَزَيْنَا قَوْمَ سَبأ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ كُفْراً هُو مِنَ الْكُفْرِ الموغِلِ في الخِسَّة. وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا المستوىٰ المنحطِّ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في الآيةِ: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ الاستفهام يُرَادُ بِه في هـٰذِهِ الْجُمْلَةِ النَّفْي، أي: وَنَحْنُ مِنْ سُنَّتِنَا في عِبادِنا أَنَّنا لَا نُجازِي في هـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِثْلَ هـٰذا الجزاءِ الّذِي أَنْزَلْنَاهُ بِقَوْم سَبأ، إلَّا مَنْ كَانَ كَفُوراً، فَدَلَّ هـٰذا علىٰ أنّ هؤُلاءِ الْقَوْم قَدْ وَصَلَ مُعْظَمُهُمْ إِلَىٰ دَرَكَةِ مَنْ هُو كَفُورٌ.

الكَفُور: صيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْم الْفَاعِلِ «كافر» أيْ: مَنْ كانَ مُوغِلاً في ظُلُماتِ الكُفْرِ، مُعَانِداً مُجْرِماً جَاحِداً لِلْحَقِّ وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ البَطَرِ الّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ قَوْمُ سَبأْ مِنْ دُونِ الْكُفْر:

• ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾:

قيلَ: كان للسَّبَئيّينَ رِحْلَاتٌ تجارِيَّةٌ إِلَىٰ قُرىٰ بلاد الشَّام، يَحْمِلُونَ فيها مِنْ مَأْرِبَ مِنْ مُنْتَجاتِهِم الزراعيَّة وغيرها في قَوافل لِبَيْعِهَا في قُرىٰ بِلَادِ الشَّامِ، وَيَجْلُبُونَ مِنْ بِلَادِ الشَّام مَا يَحْتَاجُ قَوْمُهُمْ إِلَيْهِ.

فقُرَىٰ بِلَادِ الشَّام هِيَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها، ولَمَّا كَانَتْ رِحْلَاتُهُمْ كثيرةً، في قَوافِلَ مُتَعَدِّدَةٍ، كانَ مِنْ مَصْلَحَةِ سُكّانِ البِلَادِ الّتِي تَقَعُ قريبة مِنْ طَرِيقِهِمْ، أَنْ يُقِيمُوا مَرَاكِزَ ظَاهِرَةً لِقَوافِلِهِمْ ولَوْ كَانَتْ عَلَىٰ شَكْلِ قُرىً صَغِيرَةٍ، لِحَطِّ رِحَالِهِمْ عِنْدَها بُغْيَةَ الاسْتِرَاحَةِ والتَزَوُّدِ، وَيَسْتَفِيدُ أَهْلُ

هـٰذه الْقُرَىٰ الظَّاهِرَةِ مِن قوافِلِ السَّبَئِيّينِ أمْوالاً، ويَشْتَرُونَ مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَحْمِلُونَ مِنْ بِلادِهِم في تجاراتِهم، فَمِنْ شَأْنِ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْمُسَافِرُونَ بِكَثْرَةٍ، أَنْ يُنْشِيءَ السُّكَّانُ الْقَرِيبونَ عِنْدَ كُلِّ مَكانٍ تَنْزِلُ عِنْدَهُ الْقَوَافِلَ مَبانِيَ لاسْتِرَاحَةِ أَهْلِهَا، وَتَزْوِيدِهم بالْمَاءِ والْغِذَاءِ الَّذِي يَطْلُبُونه.

وَقَدْ أَبْطَرَتْ هـٰذِهِ النِّعْمَةُ السَّبَئِيّين، ولعَلَّ السَّبَبَ رَغْبَتُهُمْ في أَنْ تَكُونَ مَنَازِلُهُمْ عِنْدَ حِلِّهِمْ خَاصَّةً بِهِمْ، لَا يُشَارِكُهُمْ فيها أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْبِلَادِ الَّتِي تَقَعُ في طَرِيقِهِمْ، إذْ لَهُمْ في حِلِّهِمْ أَعْمَالٌ خَاصَّةٌ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ وهُمْ يُمَارِسُونها، فقالُوا رَبَّنا: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وَبَعْدَ أَنْ بَاعَدَ اللهُ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بارْتِكَابِ الْمَعَاصِي والجرائم، ورُبّما كَانُوا يَنْحَرِفُون إذَا اقْتَرَبُوا مِن بَعْضِ الْقُرَىٰ الظَّاهِرَةِ عَنِ الطَّرِيق، ويَحِلُّونَ في أَرْضٍ بَعِيدَةٍ عَنْها، ثُمَّ يَعُودُونَ إلىٰ طَرِيقهم.

فَعَاقَبَهُمُ الله فَجعَلَهُمْ أَحَادِيثَ تُرْوَىٰ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً ذَاتَ شَأْنٍ بَيْنَ الأُمَمِ، وشَتَّتَهُمْ في بُلْدانٍ كثيرةٍ، ومَزَّقَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

• ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً . . ﴿١٨﴾﴾:

إنَّ اللهَ عزّ وجلَّ يُلْهِمُ الْبَشَرَ في ظُرُوفِهِم المخْتَلِفَةِ مَا يُحَقِّقُونَ بِهِ مِنَافِعَهُمْ، فَمَا يَحْصُلُ فِي الوَاقِعِ مِنْ أَعْمَالِهِم هُوَ مِنْ جَعْلِهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ لأَنَّهُ الْمُلْهِمُ، وخَالِقُ قُدْرَاتِ النَّاس، وَخَالِقُ مَا يَصْنَعُون، فَهُو الّذِي جعَلَ بَيْنَ السّبَئِيّين الْمُسَافِرِينَ مِنْ مَأْرِب، وبَيْنَ الْقُرَىٰ الّتي بَارَكَ فيها، وهِيَ قُرَىٰ بلاد الشَّام، قُرىً ظاهِرَةً عِنْدَ الْمَنَازِلِ الَّتِي تَحِلُّ فيها قَوَافِلُهُمْ فِي نِهَايَةِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فيما أَرَىٰ.

• ﴿ . . وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ . . ﴾: أي: وَجَعَلْنَا سَيْرَهُمْ في الأَرْض الفاصِلَة بَيْنَ الْقُرَىٰ الظَّاهِرَة مُقَدَّراً بِحَسَبِ مُعْتَادِ الْقَوافِلِ المسافِرَة في حِلِّهَا وَتَرْحَالِها، الملائمَيْن لحَاجَاتِها من الاسْتِرَاحَةِ والتَّزَوُّدِ والْمَسِير.

• ﴿.. سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾: أي: قال الله عزّ وجلّ بأمرِ التَّكْوين عِنايَةً بهم هـٰذا القول، وهـٰذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ إنْسَانِيٍّ مَقْرُونٌ بأمْرِ التكوين الرَّبَّاني.

فكانُوا يسيرونَ بِقَوافِلِهِمْ غُدُوّاً ويَحِلُّونَ، وَبَعْدَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا هُمْ وإبلُهُمْ وَدَوابُّهم، ويَنَالُوا مَا يكْفِيهم مِنَ الغذاء والماء، يَرْحَلُونَ فَيَسِيرون عَشِيّاً.

وجَعَلَهُمُ الله في رِحْلَاتِهِمْ هـٰذِهِ آمِنِينَ.

• ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا..﴾: دَعَوْا رَبَّهُمْ وَهُمْ عُصَاةٌ لَهُ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَنَازِلَ يَنْزِلُونَ فيها مُنْفَرِدِينَ، دُونَ أَنْ يُرَاقِبَهُمْ فيها أَهْلُ البِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْ هـٰذِهِ المنازل.

وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِم كما طَلَبُوا.

• ﴿.. وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ..﴾: أَيْ: وَصَارُوا يَرْتَكِبُونَ الْمَعَاصِيَ والآثامَ وَالْجَرَائِم وَيَظْلِمُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ، لأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَها لِعِقَاب اللهِ علىٰ مَا يَكْتَسِبُون.

• ﴿.. فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ..﴾: أي: فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً مَشْهُودَةَ الْقُوَّةِ والْمَكَانَةِ، أَصْحَابَ سِيَادَةٍ بَيْنَ الأُمَمِ، عزَلْنَاهُمْ عَنْ مَكَانَتِهِمْ، وَسَلَبْنَاهُمْ قُوَّتَهُمْ، وَسَلَّطْنَا عَلَيْهُمْ مَنْ غَلَبَهُمْ وصَارَ حَاكِماً عَلَيْهِمْ في بِلَادِهِمْ، وَصَارَ مَجْدُهُمُ السَّابِقُ أَحَادِيثَ يُتَحَدَّثُ بِهَا فِي الْمَجَالِسِ، وَقِصَصاً تُرْوَىٰ عَنْ أُمَّةٍ كانَتْ فِي الْيَمَنِ ذاتَ شَأْنٍ وَمَجْدٍ وَقُوَّة.

• ﴿.. وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ..﴾: أي: وجَزّأنَاهُمْ غَايَةَ التَّجْزِئَةِ في مُخْتَلِفِ الأَمَاكِنِ والْقُرَىٰ والمنازِل، لفظ «كُلّ» نائب عَنْ مَفْعُول مُطْلَق، **والمعنىٰ**: ومَزَّقْنَاهُمْ تَمْزِيقاً كُلَّ تَمْزِيقٍ.

وسبَقَ وَافي التحليلِ في تدبُّرِ الآيةِ (٧) من هـٰذِهِ السُّورة.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾:

أي: إنَّ في ذَلِكَ الَّذي كَانَ مِنَ السَّبَئِيِّينَ، والَّذِي كَانَ مِنْ تَصارِيفنا الحكيمة فيهم، ومُتَابعَتِنَا لَهُمْ بالْعِقَابِ الَّذِي سَبقَ ذِكْرُه، لَعَلَامَاتٍ عَلَىٰ سُنَّةِ اللهِ في عبادِه الموْضُوعينَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، يَسْتَفِيدُ مِنْهَا وينْتَفِعُ بها كُلُّ صَبَّارٍ مَعَ تَتَابُع الزَّمَنِ عَلَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، كثير الشُّكْرِ للهِ بِالتَّقَرُّب إلَيْهِ بِمَحَابِّهِ مِنْ نَوافِلِ العباداتِ والْقُرُبَات، فَهُوَ بذلِكَ مُرَشَّحٌ لأَنْ يكون مِنَ الأَبْرَارِ فالمحسنين.

صَبَّار: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْم الْفَاعِلِ «**صَابِر**» أي: هو كَثِيرُ الصَّبْرِ علىٰ ابْتِلَاءَاتِ اللهِ لَهُ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ وبالْمَكَارِهِ.

شَكُور: صيغة مبالَغَةٍ لاسم الفاعل «**شاكر**» أي: هو كثير الشُّكْرِ لله بالتَّقَرُّبِ إلَيْهِ بالنَّوَافِلِ مِنَ الْعِبَادَات.

أمَّا مَنْ هو غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لأنْ يَكُونَ صَبَّاراً شَكُوراً، فإنَّهُ يَسْتَمْتِعُ بأخبَارِ الأَوَّلِينَ وَقِصَصِهِمْ، ولَا يَنْتَفِعُ بِمَا فيها مِن آياتٍ دَالَّاتٍ علىٰ سُنَنِ اللهِ في عِبادِه، بَلْ يَبْقَىٰ غارِقاً في مَعَاصِيهِ، كافراً بنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، ودَوَافِعُهُ الضَّعِيفَةُ للاسْتِقَامَةِ والتَّخلِّي عمَّا هُوَ فيهِ من مَتَاع الحياة الدُّنيا وَلَذَّاتِها، تَكُونُ بَارِدَةً سَاكِنَةً مسْتَرخيةً لَا تَنْشَطُ لِفِعْلِ خَيْرٍ مِنْ مَرَاضِي الله عزّ وجلّ.

■ قول الله تعَالَىٰ مُتابعاً الحديثَ عَنْ قَوْمِ «سَبأ»:

• ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾. وفي القراءة الأُخرىٰ: [صَدَقَ] بفتح الدّال دون تَشْدِيد.

جاء في سَوَابِق نُجُوم التَّنْزِيلِ، أَرْبَعةُ نُصوصٍ بِشَأْن إبليسَ عَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ بَعْدَ مُحاكَمَةِ اللهِ لَهُ، والْحكم عَلَيْهِ بالطَّرْدِ، لأَنَّهُ عَصَىٰ رَبَّهُ بِعَدَمِ السُّجُودِ لآدَمَ مع السَّاجِدِينَ مِنَ الملائكة، وكَانَ هُوَ مَشْمُولاً بأمْرِ السّجود، وبِإصْرَارِه علَىٰ عِنَادِهِ وَاسْتِكْبَارِه عَنْ طَاعَة رَبّه بالسُّجُودِ لآدم، وفي هٰـذه النُّصُوص الأرْبَعَة بَيَانُ الكَيْدِ الَّذِي عزمَ إبْلِيسُ أَنْ يَكِيدَهُ لآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بإغْوَائِهِم وإغْرَائِهم لِصَدهم عَن صِرَاط الله الْمُسْتَقِيم أو إخراج سَالِكِيه مِنْهُمْ، ورَأىٰ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ، إلَّا عَبَادَ اللهِ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ الْمُخْلَصِينَ، وهؤلاءِ في ذُرِّيَةِ آدمَ قَلِيلُون، وكَانَ هٰـذا مِنْهُ ظَنّاً مَبْنِيّاً عَلَىٰ مَا عَلِمَ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَان وضَعْفِ إرادتِهِ أمَامَ شَهَوَاتِهِ وَأَهَوائِهِ وغَرَائِزِه ومطالِبِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

ـ فجاء في سورة (ص/ ٣٨ نزول) بِشَأْنِ ما عزمَ عَلَيْهِ مِنْ كَيْدٍ لِذُرّيَةِ آدم.

قول اللهِ عزّ وجل:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وفي القراءة الأخرىٰ: [**المخلِصين**] بكسر اللام.

ـ وجاء في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ـ وجاء في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول):

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

ـ وجاء في سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وفي القراءة الأخرىٰ: [**المخْلِصِينَ**] بكسر اللام.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذِهِ النُّصُوصِ في مَوَاضِعِهَا مِنْ سُوَرِها.

ولمَّا كَانَ أكْثَرُ السَّبَئِيّينَ مِنَ الَّذِين اتَّبَعُوا إبْلِيس وَجُنُودَهُ، مُتَأَثِّرِين بوسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ وإغْرَاءَاتِهِ وإغْوَاءَاتِهِ، كَانُوا مِن الَّذِينَ حَقَّق فِيهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ إذْ قالَ لِرَبِّهِ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ وَنَحْوَ هٰذا فِي النُّصُوصِ الأُخْرَىٰ.

إنَّ هٰذا لَمْ يَكُنْ مِنْ إبْلِيسَ عِلْماً بِالْغَيْبِ، إنَّما كَانَ ظَنّاً مُسْتَنِداً إلَىٰ مَا عَلِمَ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ، وَقِيَاساً عَلَى خِبْرَتِهِ بواقِعِ حَالِ الْجِنِّ الْمخلُوقِينَ قَبْلَ الإنْسِ، والْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء. ولَكِنَّ ظَنَّ إبْلِيسَ قَدْ تَحَقَّقَ في الواقِعِ التَّجْرِيبي، فَأَكْثَرُ النَّاسِ غَيْرُ شَاكِرِين.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عزَّ وجَلَّ هٰذا الْوَاقِع الإنْسَانِيّ في نُصُوصٍ كثيرة، مِنْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ في سُورَة (يوسف/٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وَهٰذا مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ عِلْمٌ بِالْغَيْبِ، وهُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ أغْرَاهُمْ إبليسُ وَخدَعَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاتَّبَعُوهُ إلَّا فَرِيقاً مِنَ المؤمِنِينَ، فحَقَّقَ باتِّبَاعِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنْهُمْ ظَنَّهُ، أي: رأىٰ فِي الواقِعِ أنَّ ظَنَّهُ قَدْ تَحقَّقَ، ولَمْ يَكُنْ ظَنّاً تَوَهُّمِياً لا يُؤَيِّدُهُ الْوَاقِع.

وأَمَّا الْفَرِيقُ الآخَرُ مِنَ المؤمِنِينَ، فَقَدِ اتَّبَعُوهُ بالْمَعَاصِي مِنْ دُونِ الْكُفْرِ، وقَدْ تَكُونُ مِن الكَبَائِرِ.

وَأَمَّا علَىٰ القراءة الأخْرَىٰ: [**وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ**] فَلَفْظَة

[ظَنَّهُ] مَنْصُوبَةٌ بِنَزْعِ الخافض، والتقدير: ولَقَدْ صَدَقَ إِبْلِيسُ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ سَيُؤَثِّرُ عَلَيْهِمْ بإغراءَاته وإِغْوَاءَاته.

• ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ... ﴿٢١﴾﴾: أَيْ: وحِينَ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ السَّبَئِيِّينَ، لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ أيِّ سُلْطَانٍ يُلْغِي إرَادَاتِهِمْ ذَوَاتِ الْحُرِّيَّةِ الْكَامِلَةِ، وَإِنَّما اتَّبَعُوهُ طَاعَةً لأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ورَغَبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهُمْ أَحْرَارُ الإِرَادَاتِ، ولَمْ يَكُنْ لإِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ إِلَّا أَنْ دَعَاهُمْ بِأَسْلُوبِ الْوَسْوَسَةِ والتَّسْوِيلِ، فاسْتَجَابُوا له.

وَيَتَسَاءَلُ بَعْضُ أَهْلِ الْفِكْرِ: مَا الْحِكْمَةُ مِنْ تَمْكِينِ اللهِ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ مِنَ الشَّيَاطِينَ، أَنْ يَقُومُوا بِهَٰذِهِ الْوَسَاوِسِ والتَسْوِيلاتِ والإِغْرَاءَاتِ والإِغْوَاءَاتِ، الَّتِي لَا يَكُونُ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَىٰ إرادَاتِ النَّاسِ يُلْغِي حُرِّيَّاتها، وجَواباً علَىٰ هَٰذا التَّسَاؤُلِ الْمطوِيّ الْمُدْرَكِ فِي الذِّهْنِ، جَاءَ قولُ اللهِ عَزَّ وجَلّ:

• ﴿... إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ.. ﴿٢١﴾﴾:

أي: وَمَا مَكَّنَّا إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ مِنْ هَٰذِهِ الأَعْمَالِ الإِغْوَائِيَّةِ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِن بالآخِرَةِ ونَمِيزَهُ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا في شَكٍّ، أو مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الشَّكِّ، كالإِنْكارِ الْكَامِلِ.

الاسْتِثْنَاءُ مِن مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ يُدْرَكُ مَعَ إِدْراك التَّسَاؤُلِ الآنِفِ بَيَانُه.

وفِعْلُ «نَعْلَم» ضُمِّنَ مَعْنَىٰ فِعْلِ «نَميز» فجاء «مِمَّنْ هُو مِنْها في شكّ» ملائماً له أي: لِنَعْلَمَ المؤمِنَ فَنمِيزَهُ من الشَّاكِّ والكافر.

واسْتُغْنِي بالأَدْنَىٰ بِعِبَارَةِ «فِي شَكٍّ» عَنِ التَّصْرِيح بالأَشَدِّ وهُوَ الإِنكار.

• ﴿.. وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾﴾:

الحفيظ: مِنْ أسْماء الله الحسنىٰ، وهو علىٰ وزْنِ «فعيل» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «حافظ» أي: عظيمُ الحفظ.

الحِفْظُ: صَوْنُ الشَّيْءِ مِنَ الزَّوَالِ والاخْتِلَال في أيِّ أَمْرٍ مِنْ أمُوره.

ويَدْخُلُ فِي مَعْنَىٰ الْحِفْظِ، الْعِلْمُ بما هُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ الصِّيَانَةِ عِلْماً لَا تَتِمُّ الصِّيَانَةُ إلَّا به، وَتَدْخُلُ فِيهِ أَيْضاً الْمُرَاقَبَةُ الدَّائِمَةُ لَه.

فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ حَفِيظٌ بِسُلْطَانِهِ وَهَيْمَنَتِهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ في الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا المخْلُوقَةِ لَهُ، مِنْ أنْ يَخْرُجَ شيءٌ مِنْهَا مَهْمَا دَقَّ، عَمَّا قَدَّرَ لَهُ وَقَضَىٰ فِي خُطَّةِ وُجُودِهِ، مُتَابِعاً الزَّمَنَ مَعَ أصْغَرِ وَحَدَاتِهِ. ومُحِيطٌ بكُلِّ شَيْءٍ ظاهِرٍ وبَاطِنٍ مَادِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ عِلْماً. وَمُرَاقِبٌ دَوَاماً لِكُلِّ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُه.

ومِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مُرَاقِبٌ دَواماً لِعِبَادِهِ المكلَّفِينَ الموْضُوعِينَ فِي الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فلا تُوجَدُ حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ، ولَا خَاطِرَةٌ، وَلَا نِيَّةٌ، وَلَا إحْسَاسٌ، ولَا شُعُورٌ بِلَذَّةٍ أوْ أَلَم، أَوْ سُرُورٍ أوْ حُزْنٍ، إلَّا مَشْمُولٌ بمراقَبَتِه مَعَ تَوَالِي أصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ ـ جَلَّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مَعَ حِفْظِهِ مِنْ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ خُطَّةِ وُجُودِه الْمُقَدَّرَةِ الْمَقْضِيَّةِ له، بِتَأْثِيرٍ مِنْ ذَاتِ الشَّيْءِ، أَوْ بِتَأْثِيرِ كَائِنٍ آخَرَ فِيهِ إلَّا بإذْنِ اللهِ أَوْ بِأَمْرِه.

هـٰذا هُو اسْمُ اللهِ «الْحَفِيظُ» بِحَسَبِ مَقَادِيرِ فَهْمِنَا لأَسْمَاء اللهِ الْحُسْنَىٰ وصِفَاتِه الْعُلَا.

وجَاءَ التَّنْبِيهُ علىٰ هـٰذا الاسْم مُلَائماً لِكَوْنِهِ تَعَالَىٰ قَدْ مَكَّنَ إبْلِيسَ وجُنُودَه مِنْ إغواءِ النَّاسِ لِيَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنَ بالآخِرَةِ بإرَادَتِهِ الْحُرَّة، وَيميزَهُ مِنَ الشَّاكِّ أو الْكَافِرِ بها.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من دُروس سورة (سبأ).

والْحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس مِنْ دُروس سورة (سبأ)
الآيات من (٢٢ ـ ٢٧)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ عَاصم، وحمزة، ويَعْقُوب: ﴿**قُلِ ٱدْعُوا**﴾ بِكَسْرِ اللَّام.

وقرأهَا بَاقِي القراء العشرة: [**قُلُ ادْعُوا**] بِضَمِّ اللَّام مُرَاعَاةً لِضَمِّ الْعَيْن.

(٢٢) • قَرأ يَعْقُوب: [**فِيهُمَا**] بِضَمّ الْهَاءِ، وهو لغة.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ: ﴿**فِيهِمَا**﴾ بِكَسْرِ الهاء وهو لغة.

(٢٣) • قرأ أبو عمْرو، وحمزة، والكِسَائي، وَخَلَف: [**أُذِنَ لَهُ**] بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، أي: أُذِنَ لَهُ من اللهِ عزَّ وجلّ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**أَذِنَ لَهُ**﴾ بالبناء للْمَعْلُوم، أي: أذِنَ اللهُ له.

فَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ وَاحِد، وهُمَا مِنَ التفنُّنِ في التعبير.

(٢٣) • قرأ ٱبن عامر، ويعقوب: [فَزَّعَ] بالبناء لِلْمَعْلُوم، والفاعل هو اللهُ عزّ وجل.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله. وهِيَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: فَزَّعَ اللهُ عَزّ وجلّ.

فَمُؤَدَّىٰ القراءَتين وَاحد، وهما من التفَنُّنِ في التعبير.

تَمْهيد:

في هـٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ حِوارٍ إقْنَاعِيٍّ وجَدَلِيٍّ لِلرَّسُولِ وَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، يُوَجَّهُ لِلْمُشْرِكِين بِشَأْنِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ عزّ وجلّ.

التّدَبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته فِي تَعْلِيمِ حِوارِي دَعَوِيٍّ يُوجَّهُ لِلْمُشْرِكِين:

• ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿ٱدْعُواْ﴾: اسْأَلُوا لِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ لَكُمْ، أَوْ كَشْفِ ضُرٍّ أو سُوءٍ عَنْكُمْ.

• ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: الَّذين جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وهُمْ مِنْ دُونِهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، خَاضِعُونَ لِتَصَارِيفهِ، فجَعَلْتُموهم كَذِباً وزوراً وافْتِرَاءً شُرَكَاءَ للهِ في إلَهيَّتِهِ وفي بَعْضِ رُبُوبِيَّتِهِ.

الزَّعْم: ادِّعَاءٌ دُونَ بَيِّنَةٍ، وادّعَاءٌ كاذب، وظَنٌّ تَوَهُّمِيٌّ ضعيف.

• ﴿..لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ..﴾: أي: حالَةَ كَوْنِ آلِهَتِكُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَةٍ في الكَوْنِ كُلِّهِ، وكُلُّ شَيْءٍ في الكَوْنِ إمَّا أَنْ يَكُونَ في السَّمَاءِ أَوْ فِي الأَرْض، وإِذْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّصَرُّفَ في شيءٍ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، لأَنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فَهُوَ مَمْلُوكٌ له، وهُوَ وَحْدَهُ الّذِي يَتَصرَّفُ فِيهِ عَلَىٰ مَا يَشاء.

مِثْقَالُ الشيْءِ: مِثْلُهُ فِي وَزْنه.

الذَّرَّة: أصْغَرُ جُزْءٍ في عُنْصُرٍ ما، ويُطْلَقُ لفْظُ الذَّرُّ علىٰ صغار النَّمْلِ، وعلىٰ ما يُرَىٰ في شُعَاعِ الشَّمْسِ الدَّاخِلِ مِنَ النافِذَة.

• ﴿..وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ..﴾: أي: ومَا لآلِهَتِكُمْ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، مِنْ مُشَارَكَةٍ لِلرَّبِّ الخالقِ الْمَالِكِ في خَلْقِ شيءٍ مِنهما، ولَا في امْتِلَاكِ شَيْءٍ مِنْهُما، ولَا في التَّصَرُّفِ بِشَيْءٍ مِنهما، فَلَيْسَ لَهُم مُجْتَمِعِينَ وَلَا مُنْفَرِدِينَ مُشَارَكَةٌ له فِي إِلَٰهِيَّته.

الشِّرْك: النَّصِيبُ، يقالُ لغة: «شَرِكَ فُلَانٌ فُلَاناً في كذا شِرْكاً، وَشَرِكَةً، وشِرْكَةً» أي: كانَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا نَصِيبٌ مِنْهُ، فَهُوَ «شَرِيك».

• ﴿..وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: ومَا للهِ مِنْ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ مُعِينٍ لَهُ فِي شَيءٍ مِن تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِه.

الظَّهِيرُ: هُوَ في اللُّغَةِ الْمُعِين.

«مِنْ» فِي عِبَارَةِ: [**مِنْ شِرْكٍ**] وفِي عِبَارَةِ: [**مِنْ ظَهِيرٍ**] زيدَتْ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ، وَالتَّنْصِيصِ عَلَيه.

• ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أي: إلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ بِأَنْ يَشْفَعَ كالملائكة، والرُّسُلِ.

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ**]: أي: إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ مِنَ اللهِ بأنْ يَشْفَعَ، وتَحمِلُ أَيْضاً مَعْنَىٰ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ مِنَ اللهِ بِأَنْ يُشْفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ المعاصِي.

وقد سَبَقَ فِي نُجُوم التنزيل بَيَانُ أَنَّ الْكَافِرِينَ والْمُجْرِمِين وَمِنْهُمُ المشْرِكُونَ، لَا يَأْذَنُ اللهُ لأَحَدٍ مِنَ الشَّافِعِينَ بِأَنْ يَشْفَعَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي رَفْعِ عَذَابِ جهَنَّمَ عَنْه.

أيْ: فَلَا تَطْمَعُوا بأنْ تَشْفَعَ لَكُمْ آلِهَتُكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، ولَا شَافِع غَيْرُهُمْ ولَوْ كانَ أفْضَلَ رُسُلِ اللهِ أَوْ أَفْضَلَ مَلَائِكتِه.

وقَدْ سَبَقَ بَيَانٌ مُوسَّعُ عَنِ الشَّفَاعَةِ في القرآن والسنة، في الملحق الثاني مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سُورَة (طه/ ٤٥ نزول)[1].

● ﴿..حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ..﴾: أي: حَتَّىٰ إذَا أُزِيلَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِ بَعْضِ عُصَاةِ المؤمِنِين، الَّذِينَ تَسْتَدْعِي مَعَاصِيهِمْ أَنْ يُجازَوا بالْعَدْلِ، لَكِنْ شَمِلَتْهُمْ رَحْمَةُ اللهِ فَأَذِنَ للشُّفَعَاءِ بِأَنْ يَشْفَعُوا لهم.

﴿فُزِّعَ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: [فَزَّعَ]. أي: أَزَالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ الْفَزَعَ وهُوَ الخوفُ عَنْ قُلُوبِهِم، التضعيف هُنَا في الفِعْلِ للإزَالة، نظير: «قَشَّرَ الْعُودَ» أي: أزال قِشْرَه، وهـٰذا أحَدُ المعاني التي يَدُلُّ عليها تضعيف عَيْنِ الفعل.

● ﴿..قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ..﴾؟ أي: قَالَ الَّذِينَ أزالَ اللهُ الْفَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وهُمْ يَرْجُون أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بأَنْ يَشْفَعَ لَهُمُ الشَّافِعُونَ مِنَ الملائِكَةِ، ومِنَ الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ هـٰذا السُّؤَالُ مُوَجَّهاً للملائِكَةِ.

---

(١) انظر الصفحات من (٣٩٢ ـ ٤٢٠) من المجلد الثامن «ملحق حول الشفاعَةِ يوم الدّين وأنواعها».

أي: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ هَلْ أَذِنَ لَكُمْ بِأَنْ تَشْفَعُوا لَنَا؟.

مَاذَا: أي: مَا الَّذِي قَالَهُ رَبُّكُمْ، جاءت «ذَا» هنا بعد الاستفهام اسْمَ مَوْصُولٍ بمَعْنَىٰ «الذي».

• ﴿. . قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ. .﴾: أي: قال الملائكةُ المطلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا: قَالَ رَبُّنَا الْقَوْلَ الحقَّ الثَّابِتَ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ أَنْ يَأْذَنَ لَنَا بِأَنْ نَشْفَعَ لَكُمْ، لِعِلْمِهِ بِمَا كَانَ في قُلُوبِكُمْ مِنْ خَيْرٍ في رِحْلَةِ ابتلائكُمْ.

• ﴿. . وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾: أيْ: وأَثْنَوْا علىٰ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ، هُمَا اسْمَان من أسمائِهِ الْحسْنَىٰ.

الْعَلِيّ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء اللهِ الْحُسَنَىٰ، أي: الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَعْلُو عَلَيْهِ وَلَا يُدانِيهِ شَيْءٌ في عُلُوِّه، وهو مِنْ مَقَامِ عُلُوِّه، يَمْنَحُ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمتِه مَا يَشاء، ويَحْجُبُ عَمَّنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ مَا يَشاء.

«العليّ» علىٰ وزن «فَعِيل» صيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفَاعل «عالٍ» أي: لَهُ كَمَالُ الْعُلُوِّ وكُلُّ غَايَاتِه.

الكبير: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، أي: الْكَامِلُ في كِبَرِهِ، الَّذِي لَا شَيْءَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ لَهُ مِثْلُ وَصْفِهِ بِالْكِبَر.

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ يُعْطِي الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ مَفَاتِيحَ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ، يُوَجَّهُ لِلْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ شِرْكِهِمْ، وَمَوَاقِفِهِم الْمُعَادِيَة لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة:

• ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿يَفْتَحُ﴾: أي: يَقْضِي وَيَحْكُم. الْفَتْحُ بَيْنَ الْفَرِيقين، أو بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ هُوَ فَصْلُ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمَا، وقَضَاءُ اللهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بالحقّ.

في هٰذِهِ الآياتِ الأربَعِ، بَيَانُ مَفَاتِيحِ خَمْسِ جَوْلَاتِ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ بَيْنَ الداعي إلىٰ اللهِ وبَيْنَ المشركين بِشَأْنِ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ:

الْجَوْلَةُ الأُولَىٰ: مِفْتَاحُها مَعَ تَوْجِيه الدَّاعي إلىٰ اللهِ مَا يقولُهُ في خَاتِمَتِها: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ..﴾:

يَبْدأ الْحِوَارُ بأنْ يُلْقِيَ علىٰ المشْرِكِينَ السُّؤَال التالي:

الداعي إلىٰ الله: مِنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؟

المشركون: بما أَنَّ المشْرِكِينَ لَمْ يَكُونوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لآلِهَتِهِمْ سُلْطاناً في السَّمَاء، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: اللهُ هُو الذّي يَرْزُقُنَا مِنَ السَّمَاوَاتِ.

الداعي إلىٰ الله: وَهَلْ تَرْزُقُكُمْ آلِهَتُكُمْ مِنَ الأَرْضِ؟.

المشركون: يقولُ قَائِلُهُمْ: نَعَمْ.

الداعي إلَىٰ الله: يُقَدِّمُ هُنَا الْبَراهِينَ الْعِلْمِيَّةَ بِأَنَّ أَرْزَاقَ الأَرْض كُلَّهَا مِنْ خيرات اللهِ الّتي تأتي مِنَ السَّمَاءِ، ضِيَاءً وحَرَارَةً ونُوراً وأمْطاراً، وتَصارِيفَ.

المشركون: إمَّا أَنْ يُجَادِلَ مُجَادِلُهُمْ بالْبَاطِلِ الَّذي لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، فيَسْقُطَ في الصِّرَاعِ الْفِكْرِيّ، ويَظْهَرَ أَنَّهُ مُراوِغٌ مُمَاحِكٌ غَوْغَائِيّ، وَإِمَّا أَنْ يَسْكُتَ مُفْحماً.

الداعي إلىٰ الله: هُنَا يَجِدُ فرْصَتَهُ لأَنْ يَقُولَ: اللهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، ويُقِيمُ الأَدِلَّةَ الْعِلْمِيَّةَ علَىٰ هٰذا، وَيَكْشِفُ أَنَّ آلِهَةَ الْمُشْرِكِينَ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَارِيفِ الكَوْنِ وَأَحْدَاثِه كُلِّها، ومِنْهَا أَرْزَاقُ الْعِبَادِ.

الْجَوْلَةُ الثَّانِيَة: مِفْتَاحُهَا: ﴿...وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

الدّاعِي إلىٰ الله: يَقُولُ للمُشْرِكين: نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ عَلَىٰ طَرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْن.

- نَحْنُ نَقُول: لَا رَبَّ في الْوُجُودِ كُلِّه إلَّا الله، فَلا إِلَهَ إلَّا هُو.
- وأَنْتُم تَقُولُونَ: للهِ شُرَكَاءُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَهُ شُرَكاءُ في إِلَٰهِيَّتِهِ.

هٰذَانِ قَوْلَانِ مُتَناقِضَانِ تَمَاماً، ولَا بُدَّ عَقْلاً مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا حَقّاً، وَالآخَرُ بَاطِلاً ظَاهِر الْبُطْلَانِ، لأَنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ معاً وَلَا يَرْتَفِعَانِ معاً، في شيءٍ واحد.

- فإمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ عَلَىٰ هُدًىٰ، وأَنْتُمْ في ضَلَالٍ مُبين.
- وإمَّا أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ عَلَىٰ هُدىً، ونَحْنُ فِي ضَلَالٍ مُبين.

فَقَدِّمُوا مَا لَدَيْكُمْ مِنْ أَدِلَّةٍ لإِثْبَاتِ مَا تَدَّعُون، وَنَحْنُ نُقَدِّمُ ما لَدَيْنَا مِنْ بَرَاهِينَ لإِثْبَاتِ مَا نُؤْمِنُ بِهِ.

وَهُنَا تَأْخُذُ الْمُنَاظَرَةُ جِدِّيَّتَهَا، فإِذَا بَدَأَ الْمُتَحَدِّثُ عَن المشْرِكِين بِتَقْدِيم أَدِلَّتِهِ، كَانَ لَدَىٰ الدّاعِي إِلَىٰ اللهِ حقائِقُ كثِيرَةٌ لإِسْقَاطِهَا وَبَيَانِ بُطْلَانِها. وإِذَا كَانَ الدَّاعي هُو البادِئَ بِتَقْدِيم براهِينِهِ لَمْ يَجِدِ المشْرِكُ مَا يَسْتَطِيعُ بِهِ إِسْقَاطَهَا، أو التَّشْكِيكَ فيها، إلَّا غَوْغَائِيَّاتٍ وَأَكَاذِيبَ يَفْتَرِيهَا، وهُنَا تَظْهَرُ خَيْبَتُهُ، ويَنْكَشِفُ إِصْرَارُهُ عَلَىٰ الْبَاطِل، والْتِزَامُهُ بِمَا يُرْضِي أَهْوَاءَهُ وَشَهَواتِهِ وَنَزَعَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَتقَالِيدَهُ الْعَمْياء.

وإِذَا اسْتَبْصَرَ واهْتَدَىٰ إِلَىٰ الحَقِّ وأَعْلَنَ قَبُولَهُ لَهُ، كَانَ المقْصُودُ بِالْمُنَاظَرَةِ قَدْ تَحقَّقَ وَالْحَمْدُ للهِ.

الْجَوْلَةُ الثَّالِثَة: مِفْتَاحُها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

هـٰذِهِ الْجَوْلَةُ يَبْدَؤُهَا المتَحَدِّثُ بِلِسَانِ المشْرِكين.

المشْرِك: أَنْتُم أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قَدِ ارْتَكَبْتُمْ جَرائِمَ مُتَعَدِّدَةً بِحَقِّ قَوْمِكُم، فَرَّقْتُمْ صَفَّهُمْ، وَشَتَمْتُمْ آلِهَتَهُمْ، وَسَفَّهْتُمْ أَحْلَامَهُمْ، وَتَقُولُونَ هُمْ وآبَاؤُهُمْ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْمُعَذَّبينَ فِي النّار، أَلَيْسَتْ هـٰذِهِ جَرائِمَ كُبْرَىٰ بِحَقِّ قَوْمِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَهـٰذا بِسَبَبِ الدِّينِ الْجَدِيدِ الّذي جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ وآمَنْتُمْ بِهِ.

الدَّاعِي إِلَىٰ الله: إِنَّ المسؤوليَّةَ عِنْدَ اللهِ مسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّة، فَرْدِيَّةٌ، لَا يَشْتَرِكُ اثْنَانِ فِي الْمَسْؤُولِيَّةِ، مَا لَمْ يَشْتَرِكا فِي الْعَمَلِ الَّذِي اقْتَضَىٰ أَنْ يُسْأَلَا عَنْهُ وَيُحَاسَبَا عَلَيه. هـٰذا قَانُونُ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وفِي الآخِرَة، فِي جَزَاءِ اللهِ وفِي جَزَاءِ الْعِبَاد.

فإنْ كُنَّا قَدْ أَجْرَمْنَا فِي نَظَرِكُمْ، إِذِ اعْتَدَيْنَا عَلَىٰ حَقِّ قَوْمِنَا كَمَا تَزْعُمونَ، فَقَدْ أَنقَذْنَا أَنْفُسَنَا مِنْ جُرْمٍ عَظِيمٍ تُجَاهَ رَبِّنَا، إِذْ آمَنَّا بِهِ رَبّاً واحِداً فِي الْوُجُودِ كُلّه، وإلَهاً واحِداً في الْوُجُودِ كُلِّهِ، وأَسْلَمْنَا لَهُ، وأَنْقَذْنَا بهـٰذا أَنْفُسَنَا مِنَ الْخُلُودِ في عَذَابِ الْجَحِيم.

أَمَّا أَنْتُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ حَافَظْتُمْ عَلَىٰ وَحدَةِ قَوْمِكُمْ، وحَفِظْتُمْ كَرَامَةَ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ، مِنْ أَنْ يُشْتَمُوا بالسَّفَاهَةِ والْتِزَامِ الْبَاطل، وَآثَرْتُمْ اتِّبَاعَهُمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فإِنَّكُمْ تُعَرِّضُونَ نُفُوسَكُمْ لِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَنَحْنُ نَقُولُ لَكُمْ بَعْدَ هـٰذا البيانِ التَّحليليّ، مَعَ التَّلَطُّفِ مَعَكُمْ فِي العبارَة، إِذْ لَا نَصِفُكُمْ بالإِجْرَامِ رَدّاً علىٰ اتِّهَامِكُمْ لَنَا بالإجرَام:

أَنْتُمْ لَا تُسْأَلُونَ عَقْلاً وَلَا عِنْدَ رَبِّنَا عمَّا أَجْرَمْنَا، وَنَحْنُ لَا نُسْأَلُ عَقْلاً وَلَا عِنْدَ رَبِّنَا عَمَّا تَعْمَلُون.

وهَكَذَا تَنْتَهِي الْجَوْلَةُ الْحِوارِيَّة، ويبْقَىٰ الداعِي إلىٰ اللهِ المحاوِرُ مُمْسكاً نَفْسَهُ عَنِ الغَضَب، ومُحَافِظاً عَلَىٰ أَدَبِ الْحِوَارِ المشْبَعِ بالرِّفْق والتَّهْذِيب.

الْجَوْلَةُ الرَّابِعَة: مِفْتَاحُهَا: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾:

في هٰذِهِ الْجَوْلَةِ يَصِلُ المتَحَدِّثُ بِلِسَانِ المشْرِكينَ إِلَىٰ ادِّعَاءِ أَنَّ اللهَ سَوْفَ يُعْطِيهِمْ فِي الآخِرَة ـ عَلَىٰ فَرْضِ وُجُودِها الذي لا يُؤْمِنُون به ـ مِثْلَمَا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ خَيْراً مِنْه، كَما قال الكافِرُ الَّذِي جَعَلَ اللهُ له جَنَّتين، لصاحِبِهِ المؤمِنِ وهُوَ يُحَاوِرُه، مَا جاء بيانُهُ في سورة (الكهف/ ٦٩ نزول):

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

وَفِي مُقَابَلَةِ هٰذا الادِّعَاءِ الْجَدَلِيِّ التَّعَنُّتِيِّ الْكَاذِبِ، الَّذِي لَا دَلِيلَ يَدُلُّ عَلَيه، لَا مجَالَ للدَّاعِي إلىٰ اللهِ إلَّا أَنْ يَقُولَ:

سَوْفَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ يَبْعَثُنَا إِلَىٰ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ للحِسَابِ وفصْلِ القضاء وَتَنْفِيذ الجزاءِ كَمَا وَعَدَنا، وهُوَ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وسَوْفَ يَقْضِي ويَحْكُمُ بَيْنَنَا بالحقِّ، ثُمَّ يُنَفِّذُ مَا قَضَىٰ بِهِ مِنْ جَزَاءٍ بِالثَّوَابِ في جَنَّاتِ النّعِيم، أو بالْعَذَاب في نَارِ الجحيم، إِنَّهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، والْحَاكِمُ الْقَاضِي بالفَضْلِ أو بالْعَدْلِ، فَلَا يَظْلِمُ أَحداً مِثْقَال ذَرَّة.

الْفَتَّاحُ: صِيغَةُ مبالَغَةٍ لاسم الفاعل «الْفَاتِح» بمَعْنَىٰ الَّذِي يَحْكُمُ ويَقْضِي بالحقِ، وهُوَ خَيْرُ الْفَاتِحِين، والْفَتَاحُ اسْمٌ مِنْ أسماء الله الحسْنَىٰ.

الْعَلِيم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وهو صيغة مبالغة لاسْم الفاعل «العالم». ومَعْنَىٰ العليم بالنِّسْبَةِ إلىٰ اللهِ عزّ وجلَّ أَنَّهُ المحيطُ بِكلِّ شيءٍ عِلْماً، الّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ وَالأَرْض، ولَا أصْغَرُ مِنْ ذَرَّةٍ وَلا أكْبَرَ مِنها.

الْجَوْلَةُ الْخَامِسَةُ: مِفْتَاحُها مَعَ الرَّدّ: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

في هـٰذِهِ الْجَوْلَةِ يَبْدَأُ الدَّاعِي إلىٰ الله بِطَرْحِ السُّؤَالِ التَّالي عَلَىٰ المشْرِكِين.

الداعي إلىٰ الله: أيُّها المشركُونَ أَرُونِي آلِهَتَكُمُ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمُوهم بِاللهِ، جاعِلِينَ إيَّاهم شُرَكَاءَ لَه، في رُبُوبيَّتِهِ فإلَهِيَّتِهِ.

المنَاظِرِ بِلِسَانِ المشركين: يُشِيرُ مَثلاً إلَىٰ هُبَل، وإسَاف، ونائِلَة، ومَنَاة، والْعُزَّىٰ مِنْ أَوْثَانِهِمْ الّتي يَعْبُدونها، ويَدْعُونَها.

الداعي إلىٰ الله: مَاذَا خَلَقَ هؤلَاءِ مِنَ الكَوْنِ حَتَّىٰ يَكُونُوا شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبِيَّتِه، فَيَسْتَحِقُوا أَنْ يُشَارِكُوهُ فِي إلَهِيَّتِه.

المناظر عن المشْرِكين: قَدْ يَدَّعِي دَعَاوَىٰ كَاذِبَةً، يَزْعُمُ فِيها أَنَّهم سَأَلُوا «هُبَلَ» في مَوْقِعَةِ كَذا أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ فَانْتَصَرُوا.

وسَأَلَ فُلَان «مَنَاة» أَنْ يَأْتِيَهُ أَوْلَادٌ ذُكورٌ، فجاءَه أَوْلَادٌ ذُكُور.

وسَأَلَ فُلَان «الْعُزَّىٰ» أَنْ يُوَفِّقَ فِي سَفَرِهِ، ويَعُودَ سَالِماً رابحاً فِي تِجَارَتِهِ، فَذَهَبَ سَالماً وَعَادَ سَالماً مُوَفَّقاً، وَرَابحاً فِي تِجارَتِهِ.

وكثيرةٌ تَجَارِبُ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنا مِنْ هـٰذا القبيل، ولِهـٰذا نَتَقَرَّبُ إلىٰ هـٰذِهِ الأَوْثَانِ بالْقَرَابِينَ، ونَعْبدُهَا بالدُّعَاءِ، والْعُكُوفِ عِنْدَها، والرُّكُوعِ لها، والْفَاعِلُ مِنْ وَرَائِهَا أَرْواحُ مَنْ تُمَثِّلُهُمْ.

الداعي إلىٰ الله: عِنْدَ هـٰذا الادّعَاءِ الْكَاذِبِ لَا يَجِدُ إلَّا أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ زَاجراً لهم: ﴿كَلَّا﴾ لَمْ يَكُنْ لآلِهَتِكُمْ تَأْثِيرٌ مَا فِيمَا زَعَمْتُمْ.

فإنْ كَانَتْ قِصَصُكُمْ صَحِيحَةً فِيمَا ذَكَرْتُمْ، فَلَيْسَتْ آلِهَتُكُمْ هِيَ الَّتِي حَقَّقَتْ مَا سَرَّكُمْ في كَذا وكذا وكَذا. بَلِ الَّذِي حَقَّقَهَا لَكُمُ اللهُ الْعزيزُ بِقُوَّتِهِ الْغَالِبَة، الحكيمُ في كُلِّ أَفْعَالِهِ، فأَنْتُمْ في حِيَاةِ الابْتِلَاءِ، وَرَأْسُ مَا يُمْتَحَنُ فِيكُمْ عُقُولُكُمْ وَضَمَائِرُكُمْ وإرَادَاتُكُمْ، وَقَدْ عَبِثَ الشَّيْطَانُ بِعُقُولِكُمْ

وَضَمَائِرِكُمْ، فَأَوْهَمَكُم أَنَّ آلِهَتَكُمْ نَفَعَتْكُمْ أَوْ رَفَعَتْ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ، وعَبِثَ بأهوائِكُمْ وَشَهَواتِكُمْ فَأَثَّرتْ عَلَىٰ إرادَاتِكُم، فَوَجَهَتْهَا لِسُلُوكِ سُبُلِ الْغَوَايَة.

إنْ كَانَ لَدَىٰ آلِهَتِكُمْ جَلْبُ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعُ ضُرٍّ، أَوْ رَدُّ أَعْدَائِها عَنْها، فَتَعَالَوْا نُجَرِّبْ تَحْطِيمَها أمَامَكُمْ، وَجَعْلَهَا جُذَاذاً، كما فَعَلَ إبراهيم عليه السلام في أَوْثَانِ قَوْمِهِ، وَلْيَفْعَلْ فِينَا مَنْ تَرْمُزُ لَهُ هـٰذِهِ الأَوْثَانُ مَا نَكْرَهُ، إِنْ كَانَ لَدَيْهَا قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً.

وهُنَا يَنْقَطِعُ المشْرِكُونَ، وَتَسْقُطُ ذَرَائِعُهُمْ، وَلَا يُوَافِقُونَ علىٰ أَنْ تُحَطَّمَ أَصْنَامُهُمْ، ويُغْلَبُونَ.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الخامِسِ مِنْ دُروس سورة (سبأ).

والحمْدُ للهِ علىٰ معونته ومَدَدِه، وتَوْفيقِه وفَتْحِه.

(٩)
التَّدبُّر التحليلي للدَّرس السّادس من دُروس سُورَةِ (سَبأ) الآيات من (٢٨ ـ ٣٠)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ خِطابٌ من اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، بأَنَّهُ رَسُولٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً، بَشِيراً لِلْمُؤْمِنين، ونَذِيراً لِلْكَافِرِينَ.

وفِيهِ عَرْضُ مَقُولَةِ الكافِرِين الَّتِي يُكَرِّرُونَهَا، ويَتَصَوَّرُونَ أَنَّها ذَرِيعَةٌ مَقْبُولَةٌ لِجُحُودِهِمُ الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُوله، وهيَ سُؤَالُهُمْ: مَتَىٰ يَكُونُ قِيَامُ السَّاعَةِ، ومَتَىٰ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مِن عَذَابٍ مُعَجَّلٍ إِذَا أَصَرُّوا علَىٰ عِنَادِهِم وكُفْرهم، مَعَ بَيَانِ الرَّدِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُرَدَّ بِهِ علَىٰ مُمَاحَكَتِهِمُ الْجَدَلِيَّةِ الَّتِي يُكَرِّرُونَها.

التَّدَبُّرُ التحليلي:

■ قولُ اللهِ عزّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ يُبَيِّنُ لَهُ فيه أَنَّ رِسَالَتَهُ رِسَالَةٌ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِلنّاسِ أجْمَعِينَ مِنْ كُلِّ قَوْم وَفي كُلِّ أَرْض:

● ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

كافَة: لفظٌ من ألفاظ الْعُمُوم، يقال لغة: «جاء النَّاسُ كافَةً» أي: جَمِيعاً.

والمعنىٰ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ في حَالٍ من الأَحْوَالِ إِلَّا في حَالِ كَوْنِكَ مُرْسَلاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهـٰذا مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الإضَافي، أي: فَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّكَ رَسُولٌ لأَهْلِ مَكَّةَ، أَوْ رَسُولٌ لِلْعَرَبِ خَاصَّةً، فَقَدَ جَانَبَ الصَّوَابَ والْحَقَّ، إِذْ أَنْتَ رَسُولٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، ورِسَالَتُكَ عَامَّةٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَنَفْهَمُ بالْلُّزُوم الْعَقْلِيّ مِنْ هـٰذا، أَنَّهُ يَجبُ علىٰ الدُّعَاةِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْ يُبَلِّغُوا هـٰذا الدِّينَ لِلنَّاسِ كَافَّةً، فإِذَا قَصَّرُوا فِي هـٰذا التَّبْلِيغ كانُوا جَمِيعاً آثِمِينَ، وَهـٰذا التَّبْلِيغُ مِنْ فُرُوضِ الكِفَايَةِ، إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ الْوُجُوبُ عَن الآخَرين، وإِذَا احْتَاجَ هـٰذا التَّبْلِيغُ مُسَاهَمَةً من سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ بِأَمْوَالٍ وَأَعْمَالٍ وَجَبَ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يُسَاهِمَ عَلَىٰ مِقْدَارِ حَالِهِ، وعَلَىٰ ذَوِي السُّلْطَةِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ المسْلِمين تَدْبِيرُ الأُمُورِ اللَّازِمَةِ لهـٰذَا التَّبْلِيغ، وَمِنْهَا إِعْدَادُ الدُّعَاةِ إِعْدَاداً مُلَائِماً لِوَظِيفَتِهِمُ الْعُظْمَىٰ.

وَهـٰذَا التَّكْلِيفُ للمؤمِنِينَ الْمُسْلِمين مُسْتَمِرٌّ فِي كُلِّ عَصْرٍ، ومِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَلُغَة.

• ﴿..بَشِيرًا وَنَذِيرًا..﴾ أَيْ حَالَةَ كَوْنِكَ مَعَ تَبْلِيغِكَ رِسَالَةَ رَبِّكَ، بَشِيراً لِمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ لله، بالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، مَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ نُصُوصُ القرآنِ مِنْ أَنْوَاعِ ثَوَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، وَنَذِيراً لِمَن كَفَرَ وَأَعْرَضَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ، بالشَّقَاءِ الأَبَدِيّ بِعَذَابٍ في نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، مع مَا جَاءَتْ بِهِ نُصُوصُ الْقُرْآنِ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَقْضِيَ اللهُ بِهِ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيا، إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

الْبَشِيرُ: الْمُخْبِرُ بِمَا يَسُرُّ وَيُفْرِحُ مُتَلَقِّيَ الْخَبَر.

النَّذِيرُ: المخبرُ بما يَسُوءُ أَو يُحْزِنُ مُتَلَقِّي الخبر.

• ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: وَلَـٰكِـنَّ أَكْـثَـرَ النَّاسِ لَا يَرْغَبُونَ في أَنْ يَعْلَمُوا حَقَائِقَ الدِّينِ الَّذِي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ؛ لِئَلَّا يَصْرِفَهُمْ هـٰذا العِلْمُ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ تَحْقِيقِ أَهْوَائِهِمْ، وَشَهَواتِهِمْ، وَمَطَالِبِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَة، لأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ الآخِرَة.

هـٰذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ المضارعُ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ هَنَا، إِذْ جَاءَ في مَعْرِضِ تَبْلِيغِ الناسِ حَقَائِقَ الدِّين، ودَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الإيمانِ باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلىٰ طَاعَةِ اللهِ في أَوَامِرِهِ وَنواهِيهِ، وهـٰذِهِ قَضَايَا غَيْرُ مُحَبَّبَةٍ لَهُمْ، فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوها.

أي: هَكَذَا سَيَكُون وَاقِعُ حَالِ النَّاس، وَلَكِنْ يَجِبُ تَبْلِيغُهُمْ دِينَ رَبِّهِم لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِم.

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ مُبيِّناً مَقَالَةً ذَرائِعِيَّةً يَتَعَلَّلُ بها الّذِينَ كَفُروا، مَعَ تَعْلِيم الرَّسُولِ فكُلِّ دَاعٍ إِلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِم:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

لَمْ يَكُنْ لَدَىٰ المشْرِكِينَ ذَرِيعَةٌ يُرَدِّدُونَها بتَكْرَارٍ، في مُقَابَلَةِ دَعْوَةِ الدُّعَاةِ المنذِرين لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ احْتِمَالِ إهْلَاكِهِمْ بِعَذَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، إلَّا أنْ يَقُولُوا لهم: أَبِينُوا لَنَا الْوَقْتَ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ مَا تُنْذِرُونَنَا به إن كنْتُمْ صَادِقِين في هـٰذا الإنْذَارِ، فإذَا لَمْ تُبَيِّنُوا لَنا هـٰذا الْوقْتَ فَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ في إنْذَارِكُمْ، وَفِي كُلِّ مَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ هـٰذا الدِّينِ الْجَدِيدِ، الَّذِي جاء به مُحَمَّدٌ، واسْتَجَبْتُمْ لَهُ فِيهِ واتَّبَعْتُمُوهُ.

وَطَرْحُ هـٰذا السُّؤال، وَرَبْطُ الصِّدْقِ في خَبَرِ الْوَعْدِ الَّذِي وُعِدُوه بأنْ يَكُونَ مُقْتَرِناً بِبَيَانِ الْوَقْتِ الّذِي سَيَكُونُ فِيهِ جَهَالَةٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ مُغَالَطَة، وهـٰذا الثاني هُوَ الأحْرَىٰ بالاعتبار، لأَنَّ المشْرِكِينَ كَانُوا يُصَدِّقُونَ كُهّانَهُمْ فِي أُمُورٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ دون أَنْ يُعْلِمُوهُمْ بأوْقَاتِ حُصُولِها، ومعظم أخبار الكُهَّانِ المسْتَقْبَلِيَّةِ كاذِبة.

إنّ الصِّدْقَ فِي الإخْبَارِ بأحْدَاثٍ سَتَكُونُ في المسْتَقْبَلِ القريب أَوِ الْبَعِيدِ، لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ الْعِلْمُ بالْوَقْتِ الَّذِي سَتَكُونُ فيه، حَتَّىٰ في الْوُعُودِ الإنْسَانِيَّة.

كَمْ يَقُولُ إنْسَانٌ لِمَنْ يَعِدُهُ سَأَزُورُكَ، ويَكُونُ صَادِقاً فِي وَعْدِهِ، ويُرِيدُ زِيَارَتَهُ حَقّاً، ثُمَّ يُحَدِّدُ وَقْتَ الزِّيَارَة فِيما بَعْدُ.

كَذَلِكَ يَكُونُ في مَوَاعِيدِ تَهْدِيدِ وإنْذَارِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لبَعْضٍ، فإنَّ أكْثَرَهَا لَا يَقْتَرِنُ بِبَيَانِ أَوْقَاتِ التَّنفيذ، ويَأْتِي التَّنْفِيذ مُباغَتَةً.

عَلَىٰ أَنَّ مَوَاعِيدَ اللهِ عزّ وجلَّ مُحَدَّدَةُ الْمَوَاقِيتِ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يُخْبِرُ في مُعْظَمِهَا بِمَواقِيتِ حُصُولِها، وَمِمَّا أَخْفَاهُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ عِبَادِهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَة.

فَرَبْطُ صِدْقِ وُقُوعِ الْخبرِ الْمُسْتَقْبَلِيّ بالإعْلَامِ بِوَقْتِ حُصُولِهِ مُغَالَطَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَتَشْوِيشٌ مَقْصُودٌ كَانَ يُوَجِّهُهُ المشْرِكُونَ لتَضْلِيلِ الْعَامَّةِ مِنَ المسْلِمِينَ، وفِتْنَتِهِمْ عَنِ دِينهِم الَّذِي آمَنُوا بِهِ، واتَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ، واتَّبَعُوا رَسُولَ رَبِّهِم.

وهـٰذَا الْعَمَلُ مِنَ المشْرِكِينَ هو مِنْ وَسَائِلِ الإعْلَامِ التَّضْلِيلِيَّة، الَّتِي لَا تَعْتَمِدُ علَىٰ مَوازِينَ عَقْلِيَّةٍ مَقْبولَةٍ لَدَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ.

وَلِهـٰذا جَاءَ في التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ للرَّدِّ عَلَىٰ مَقَالَةِ المشْرِكِينَ الذَّرائِعِيَّة، قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ للرَّسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته:

• ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الميعاد: المواعدة. ووقْتُ تَحْقِيقِ الْوَعْدِ. ومَكَانُ تَحقِيقِ الْوَعْد.

ومِيعَادُ يَوْمٍ: أي: وقْتُ تَحْقِيقِ الْمَوْعُودِ في يَوْم مَعْلُومٍ.

لَا تَستَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً: أَي: لَا تَسْتَطِيعُونَ مَهْمَا بَذَلْتُمْ مِنْ جَهْدٍ تَأْخير زَمَنِ وُقُوعِ ميعاد اللهِ مَهْمَا قلَّ، وجاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِلَفْظِ «سَاعَة» فهـٰذا اللفظ يُطْلَقُ بإِطْلَاقَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ مِنْها إرادَةُ أَقَلِّ مِقْدَارٍ مِن الزَّمن.

وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ: أي: ولا تَسْتَطِيعُونَ مَهْمَا بَذَلْتُمْ مِنْ جَهْدٍ تَقْدِيم فِعْلِ شَيْءٍ قَبْلَ زَمَنِهِ الذي قَدَّرَهُ الله لَهُ وقَضَىٰ بِهِ.

الاسْتِئْخَارُ والاسْتِقْدَامُ فِيهِمَا مَعْنَىٰ المبالَغَةِ في طلَبِ تَحقِيقِ التَّأَخُّرِ والتَّقَدُّمِ.

والمعنىٰ: قُلْ لَهُمْ فِي مُعَالَجَتِهِمْ بِشَأْنِ مَقَالَتِهِمْ الْخَارِجَةِ عَنْ مَوازِينِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: لَكُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِالإِنْذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَكُمْ بِهَا رَسُولُ رَبِّكُمْ، مُتَعَلِّلِينَ بِتَعِلَّاتٍ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الصِّحَّةِ وَقْتٌ مُحَدَّدٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ بقَضَائِهِ وَقَدَرِه، لا تَسْتَطِيعُونَ مَهْمَا اجْتَهَدْتُمْ تَأْخِيرَ أَقَلِّ زَمنٍ عَنِ

الزَّمنِ الْمُقَدَّرِ لِتَنْفِيذِ مَا أُنْذِرْتُم بِهِ مِنْ مُؤَجَّلٍ أَوْ مُعَجَّل، وَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَيْضاً لَوْ شِئْتُمْ تَقْدِيمَ أَقَلِّ زَمَنٍ مَهْمَا اجْتَهَدْتُمْ، فَالْقَضَاءُ قَضَاءُ اللهِ، والأَمْرُ أَمْرُهُ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِه، ولَا مُعَدِّلَ لَهُ، وَلَا مُغَيِّرَ لِشَيْءٍ فيه.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ السادس مِنْ دُروس سورة (سبأ).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

(١٠)
التدبُّر التحليلي للدَّرْس السابع من دُروس سورة (سبأ)
الآيات من (٣١ ـ ٣٣)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ مَقُولَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْعِنَادِيَّةِ التَّيْئِيسِيَّةِ مِنْ إيمانِهِم.

وجاءَتْ مُعَالَجَتُهُمْ بِشَأْنِ هٰذِهِ المقُولَةِ بِعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القِيامَةِ الّذِي سَوْفَ يَكُونُ حَتْماً، وهو مَشْهَدٌ سَوْفَ يَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا

مَوْقُوفِينَ فِيهِ عِنْدَ رَبِّهِم يُحَاسِبُهُمْ، مَعَ بَيَانِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الأَتْبَاعِ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا كُبَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ تَخَاصُمٍ، إِذْ كَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ بِأَنْ يَكْفُرُوا بالله، وَبِأَنْ يَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ أَنْدَاداً لَهُ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وفي إِلَهِيَّتِهِ، وفِي هٰذا حَثٌّ ضِمْنِيٌّ لِلأَتْبَاعِ أَنْ يَتَحَرَّرُوا مِنْ تَبعيَّتهم لقادَتِهم وأَئِمَّتِهِمْ فِي الكُفْر، لأَنَّهُم سَوْفَ يَتَبَرَّؤُون عند رَبِّهِمْ مِن إِضْلالِهم.

التدبُّر التَّحْلِيلِي:

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ . . . ﴿٣١﴾﴾:

سَبَقَ أَنْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (الْقَصَص/ ٤٩ نزول) أَنَّ أَئِمَّةَ الكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قَالُوا بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ يَعْنُونَ الآياتِ التِّسْعَ الَّتي آتاهُ اللهُ إِيَّاها، وهٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهم يَعرِفُونَ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلامُ رسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به فَلَمْ يفْعَلُوا، فَقَالَ اللهُ بِشَأْنِهم عقِبَ البَيانِ السَّابق:

﴿. . . أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وَجَاء بَعْدَ سُورَة (القصص/ ٤٩ نزول) في نجوم التَّنْزيل تَفْصِيلٌ عَنِ الرُّسُلِ، وذِكْرٌ بِتَمْجِيدٍ للتوْرَاة وَالإِنجيل، وَشَعَرُوا مِنْ هٰذا أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ في الإِسْلام بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ كُتُبِ اللهِ السَّابِقَةِ لِلْقُرْآن، فَأَرَادُوا أَنْ يُيْئِسُوا الرَّسُولَ والدُّعَاةَ إِلَىٰ الإِسْلَام مِنْ أُمَّتِهِ، بِأَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا لَا بالْقُرْآنِ وَلَا بالكُتُبِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ عَلَىٰ الرُّسُلِ السَّابِقِين، فَهِيَ كُتُبٌ نَزَلَتْ بَيْنَ يَدَي القرآن، أَيْ: قَبْلَه، فأعْلَنُوا قَوْلَهُمُ الَّذِي جاء بيانُهُ في الآيَةِ (٣١) من سورة (سَبَأ/ ٥٨ نزول).

فَلَمْ يَصْلُحْ فِي عِلَاجِهِمْ إِلَّا إِنْذَارُهم بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، عَنْ طَرِيقِ تَقْدِيمِ مَشْهَدٍ مِن المشاهِدِ المسْتَقْبَلِيَّةِ الَّتِي سَوْفَ تكُونُ حتْماً.

■ فقال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

فِي هٰذِهِ الآيَاتِ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ وُقُوفِ الَّذِين كَانُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ في الدُّنيا، مَعَ الَّذِينَ كَانُوا أَتْبَاعَهُمْ، وَمَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ مِنْ تخاصُم.

أ ـ يَبْدَأُ الْعَرْضُ بِقَوْلِ اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ..﴾:

أي: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائِي أَيّاً كُنْتَ حِينَ يَكُونُ الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ مَوْقُوفِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، والأَتْبَاعُ يَتَخَاصَمُونَ مَعَ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ فِي الدُّنيا، لَرَأَيْتَ حِوَاراً عَجَباً، وأَمْراً مُرْهِباً.

• ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي: حِينَ يَكُونُ الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، ومِنْهُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ قَالُوا: لَا نُؤْمِنُ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

• ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي: سَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وجَعلَتْهُمْ وَاقِفِينَ عِنْدَ رَبِّهم لِمُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ.

• ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

قَوْلاً، فَيُجيبُهُمْ بَعْضُهُمُ الآخَرُ، هـٰذا التَّعْبِيرُ يَدُلُّ علىٰ التخاصُمِ الْكَلَامِي بَيْنَ فَرِيقين.

رَجْعُ الْقَوْلِ: هُو الجوابُ عَلَيْهِ، أي: يَقُولُ خَصْمٌ قَوْلاً، فَيُجِيبُهُ المخاصَمُ عَلَيْهِ بِجَوابٍ يَرْفَعُ فِيهِ عَنْ نَفْسِهِ مَسْؤُولِيَّةً ما مِنَ المسْؤُوليات.

يقال لغة: «رَجَعَ فُلانٌ الْقَوْلَ» أي: أَجَابَ بِكَلامٍ مِنْ عِنْده عَلَىٰ كَلامٍ وُجِّهَ لَهُ مِنْ شَخصٍ آخرَ.

ب ـ التَّخَاصُمُ بَيْنَ الأتْبَاعِ والمتْبُوعِين، الأتباعُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنيا مُسْتَضْعَفين، والمتْبُوعُونَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنيا مُسْتَكْبِرِينْ.

• **الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ:** يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾: أي: لَوْلَا فِتْنَتُكُمْ لَنا وَضَغْطُكُمْ عَلَيْنا لَكُنَّا مُؤْمنينَ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ رَبِّنا، وَلَمَا تَعَرَّضْنَا لِحِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جزَائِهِ.

• **الَّذِينَ كانوا مُسْتَكْبِرِين:** يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿..أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

المرادُ بالاسْتِفْهَام هُنَا النَّفْيُ مَعَ شِدَّةِ التَّبَرُّؤ، والإنْكَارِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ اتِّهَامَهُمْ لَهُمْ، بأَنَّهُمْ كَانُوا هُمُ السَّبَبَ فِي ضَلَالِهِمْ وَمَنْعِهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْهُدَىٰ الرَّبَّانِيَّة.

يُقَال لُغةً: «صَدَّ فُلَانٌ فُلَاناً عَنْ كَذَا» أي: صَرَفَهُ عَنْهُ ومَنَعَهُ منه.

أي: لَسْنَا الَّذِينَ مَنَعْنَاكُمْ وَصَرَفْنَاكُمْ بِسُلْطَانِنَا عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ فِي نُفُوسِكُمْ، فَأَعْجَبَتْكُمْ مَسَالِكُنَا الْبَعِيْدَةُ عَنْ صِرَاطِ الْهُدَىٰ، وَوَجَدْتُمْ فِيهَا مَا يُرْضِي أهْوَاءَكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَنا، ولَمْ نَكُنْ مُكْرِهِينَ لَكُمْ.

• **الّذِين كانُوا مُسْتَضْعَفِينَ**: يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ بقولهم: ﴿.. بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا.. ﴿٣٣﴾﴾:

أي: بَلْ كَانَ لَكُمْ تَأْثِيرٌ عَلَيْنَا بِالتَّضْلِيلِ الْفِكْرِيّ، والإغْرَاءَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وكَانَ هٰذا مِنكُمْ مَكْراً مَكَرْتُمُونَنَا إِيَّاهُ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، لِخِدَاعِنَا وَتَضْلِيلِنَا.

• ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: مَكْرٌ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، يُقَالُ لُغَةً: «مَكَرَهُ، وَمَكَرَ بِهِ، يَمْكُرُ مَكْراً، فَهُو مَاكِر، وَمَكَّارٌ، وَمَكُورٌ».

الإضافة في: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هي علىٰ تَقْدِير «فِي» أي: مَكْرٌ في اللَّيْلِ وفي النَّهار.

المكْرُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ مَا فِي خَفَاءٍ عَنِ الممكُورِ بِهِ، يَكُونُ فِي الشّرِّ، ويَكُونُ فِي الْخير.

• ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾: أي: حين كُنْتُمْ في الدُّنْيا تَأْمُرونَنا بأَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ، بِتَكْذِيبِ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ علَىٰ لِسَانِ رَسُولِه، وبِجُحودِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، وَتَأْمُرُونَنا بِأَنْ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً، أي: نُظَرَاءَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلٰهِيَّتِهِ.

أنْدَاد: جَمْعُ «نِدّ» وهو في اللُّغَةِ المِثْلُ، والنَّظِير.

وطَوَىٰ النَّصُّ مَا يُجِيبُ بِهِ المسْتَكْبِرُون لِسُهُولَةِ إِدْرَاكِهِ، أي: لَمْ نَكُنْ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبِرِينَ لَكُمْ، فَلِمَاذَا اسْتَجَبْتُمْ لأَوَامِرِنَا، إِنَّكُمْ لَوْ لَمْ تَسْتَهْوِكُمْ طَرَائِقُ حَيَاتِنَا وَمَفْهُومَاتُنَا لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِمَا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِهِ.

■ وَخَتَمَ اللهُ عزّ وجلَّ بَيَانَ هٰذا التَّخاصُم بَيْنَ الأَتْبَاعِ والْمَتْبُوعِينَ بقولِهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

النَّدَامَة: مَصْدَرُ «نَدِمَ علَىٰ الأمْرِ، يَنْدَمُ، نَدماً، وَنَدَامَةً» أَيْ: أسِفَ، وتَحَسَّرَ، وَحَزِنَ، علَىٰ مَا كَانَ فَعَلَهُ باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ دُونَ إجْبَارٍ وَلَا إكْرَاهٍ، وَتَمَنِّيهِ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ فَعَلَهُ.

الأَغْلَال: جَمْعُ «الْغُلّ» وهُوَ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ أَوْ غَيْرِهما، يُوضَعُ في عُنُق الأَسِيرِ وَنَحْوِه، أَوْ فِي يَدَيْهِ، وَقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُولِ إلَىٰ عُنُقِهِ، وَتُطَوَّقَانِ بالْغُلّ، وتُعْقَدُ بالْغُلِّ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيد، أَوْ يُعْقَدُ بِهِ سَيْرٌ لِجَرِّهِ بِهِ.

المعْنَىٰ: وأَسَرَّ الأَتْبَاعُ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ، والمتْبُوعُونَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نَدَامَتَهُمْ: أسَفَهُمْ، وَتَحَسُّرَهُمْ، وَحُزْنَهُمْ، ولَوْمَهُمْ لِنُفُوسهم عَلَىٰ ما كَانُوا قد ارْتَكَبُوهُ مِنْ جَرائِم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، حِينَ رَأَوْا أَدَوَاتِ تَعْذِيبهم، وحِينَ رَأَوْا جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِهِم.

وَيَجْعَلُ اللهُ الأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وفي أعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَروا جميعاً، بِأَمْرِ التَّكْوِين، أَوْ بأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ الْمَسْؤُولِينَ عَنْ سَوْقِهِمْ إلىٰ حَيْثُ يَكُونُ تَعْذِيبُهُمْ فِي جهَنَّمَ، وَيُسَاقُونَ لِيَنَالُوا عذَابَهُمْ عَلَىٰ وفْقِ قَضَاءِ اللهِ الَّذِي قَضَاهُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

وأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ جَزاءَهُمْ يَكُونُ مُسَاوِياً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، دُونَ زِيَادَةِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَرَّة، فَقَالَ تَعالَىٰ:

- ﴿..هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

الاسْتِفْهَام هُنَا يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا يُجْزَوْنَ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ التَّامّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ إلَّا مُطَابِق وَمُمَاثِل مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الحياة الدُّنْيَا مِنْ جَرَائِمَ وَمَعَاصِي وآثَام.

وَفِي هـٰذا الاسْتِفْهَام مَعْنَىٰ: هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَجْزِيَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِعَدْلِهِ إِلَّا جَزَاءً مُطَابِقاً وَمُمَاثلاً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُون، إذَا لَمْ يَكُنْ أَقَلَّ مِمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ بِفَضْلِ اللهِ عَلَىٰ مَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ، فالْعِبَارَةُ يُرَادُ بِها نَفْيُ الزِّيَادَةِ عَلَىٰ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَىٰ مَا أَسْلَفُوا فِي الحياة الدُّنْيا، إِذْ لَا يَظْلِمُ اللهُ أَحداً مِنْ عِبَادِه مِثْقَالَ ذَرَّة ولا أَصْغَرَ مِنها.

وبهٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس السَّابعِ مِنْ دُرُوسِ سُورَة (سبأ).

والحمدُ للهِ علَىٰ مَدَدِه ومَعُونَتِهِ وتَوفِيقِهِ وفَتْحِه.

(١١)
التدبّر التحليلي للدَّرْس الثامن من دروس سورة (سبأ) الآيات من (٣٤ ـ ٣٩)

قال اللهُ عَزّ وجل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

القراءات:

(٣٧) • قرأ رُوَيْسٌ: **[جَزَاءً الضِّعْفُ]** مع كَسْرِ التَّنْوين في الوصْلِ لالتقاءِ السَّاكِنَيْن.

وقرأها باقي الْقُرّاء الْعَشَرة: **﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾** بالرَّفْعِ والإضافة.

وهما مِنَ التفَنُّن في التعبير.

(٣٧) • قرأ حَمْزَة: [**فِي الْغُرْفَةِ**] بالإفراد.

وقرأها باقي القراء العشرة بالجمع: ﴿**فِي الْغُرُفَاتِ**﴾.

والإفراد يُحَمَلُ عَلَىٰ الجنس فَهُو بمَعْنَىٰ «الْغُرُفَات».

(٣٨) • قرأ ٱبن كثير، وأبُو عَمْرو: [**مُعَجِّزِينَ**] مِنْ فِعْلِ «عَجَّزَ» أي: ثَبَّطَ وعَوَّق.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ مِنْ فِعْلِ «عَاجزَ» بمَعْنَىٰ سَبَقَ فَلَمْ يُدْرِك، أي: مُفْلتين هاربين لا يُدْرَكُون.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ إشْعَارٌ بأَنَّ حَالَ مُتْرَفي قُرَيشٍ، الَّذين كَفَرُوا بِرِسَالَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُتَفَاخرِينَ ومُعْتَزِّين بِأَمْوَالِهِمْ، مُشَابِهٌ لأَحْوَالِ مُتْرَفِي أَهْلِ الْقُرَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلهِمْ، إذْ قَالُوا لَمَّا أَعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بِمَا أُرْسِلَ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ: نَحْنُ أَكْثَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْوالاً وأَوْلَاداً. وبِمَا أَنَّ اللهَ فَضَّلَنَا بهـٰذا فَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، إِنْ صَحَّ ما يَقُولُ مُحَمَّد مِنْ وُجودِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ هـٰذِهِ الحياة.

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَفَاتِيحَ الإقْنَاعِ الَّذِي يَكْشِفُ للَّذينَ كَفَرُوا خَطَأَهُمْ فِي تَصَوُّرِهم، وهُوَ أَيْضاً بَيَانٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ بأسْلُوبِ التَّعْرِيضِ لَا بأُسْلُوبِ الْخِطَابِ المباشر.

وفي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ أيْضاً تَعْلِيمٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ولِكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ وَنَاصِحٍ مُرْشِدٍ، مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ للْمُؤْمِنِينَ المسلمين، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ مُتَفَاضِلِينَ فِي الأَرْزَاقِ.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ عزّ وجلّ مُبيِّناً سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، الَّذِي مِنْ ظَاهِرَاتِ أَهلِ الثَّرَاءِ وَالْمَالِ الْوَفير فيه، أَنْ يَقُولُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ:

• ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

• ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾: أي: فِي مُجمَّعٍ سَكَنِيٍّ وَلَوْ كَانَ مَدِينَةً عظيمة.

• ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾: «مِنْ» زيدَتْ للدَّلالَةِ عَلَىٰ اسْتِغْرَاقِ الْعُمُومِ، وذكْرُ لفظ «نَذِير» يَدُلُّ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَسْبِقُ الإنْذَارَ مِنْ وَظَائِفِ الرَّسُولِ فِي رِسَالَتِه.

المترفون: هُمُ الذين وسَّعَ اللهُ عَلَيْهِم في الرزق والمال، فكانوا بِهِ ذوي رفاهيَة زَائِدَة، وهـٰذِهِ الرفاهية مُبْطِرَةٌ تُولِّد الاسْتكبارَ والعزَّةَ بالإثم.

أي: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْ رَسُولٍ يُبَلِّغُ رِسَالَتَنَا، ويُبَيِّنُها للنَّاس، وَيَقُومُ بوَظَائِفِ رِسَالَتِهِ المختَلِفَةِ، وَفِي آخِرِهَا إِنْذَارُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهَا، بأَنَّهُمْ سَوْفَ يُلاقُونَ عَذَابَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين، إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهُمْ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ.

■ قول اللهِ عزّ وجَلَّ يُبَيِّنُ افْتِخَارَ المتْرفِينَ بأَمْوَالِهِمْ وأَوْلَادِهم واسْتِكْبَارَهُمْ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وجَعْلَهُمْ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُهُمْ:

• ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وقالوا: نَحنُ مُفَضَّلُونَ في هـٰذِهِ الْحَياةِ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ وَبِكَثْرَةِ الأَوْلَادِ، لِمِيزَاتٍ مَيَّزَنَا رَبُّنَا بِها، فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يُعَذِّبَنَا.

■ قَولُ اللهِ عزّ وجلَّ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ فَكُلَّ نَاصِحٍ مرْشِدٍ دَاعٍ إِلىٰ اللهِ مِنْ

أمَّتِهِ، مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ بِهِ فَسَادَ رَأْيِهِمْ، وَجَهْلَهُمْ بِحِكْمَةِ اللهِ في بَسْطِ رِزْقِهِ لِبَعْضِ عِبادِه، وَفي تَقْدِيرِهِ عَلَىٰ بَعْضِ عِبادِهِ، ويُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ أَمْوالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ عَطَاءٌ مِنَ اللهِ لامْتِحَانِهِم، فَهِيَ لَا تُقَرِّبُهُمْ عِنْدَ اللهِ زُلْفَىٰ، بَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ إيمانُهُمْ وإسْلامُهُمْ وَالأعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يَبْتَغُونَ بِها مَرْضَاةَ رَبِّهِمْ، فَهُمُ الَّذِينَ يُضَاعِفُ اللهُ ثَوَابَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، ويَجْعَلُهُمْ فِي غُرُفَاتِ الْجنَّاتِ آمِنين، خالِدِينَ فِيها مُخَلَّدِين:

• ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

• ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: أي: يُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُهُ.

• ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ الرّزقَ ويُقَلِّلُه، أصل الْعِبَارَة: «ويقْدِرُهُ» حُذِفَ الضمير المفْعُولُ به إيجازاً.

(١) أي: قُلْ أيُّها الدَّاعي إلىٰ اللهِ النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ: إنَّ للهِ حِكْمةً سَامِيَةً فِي تَوسِعَةِ الرِّزْقِ وَتَكْثِيره لِبَعْضِ عِبادِهِ دَواماً أَوْ فِي بَعْضِ الأَوْقَات، وفِي تَضْيِيقِ الرزْقِ وتَقْلِيلِهِ لآخرِينَ كَذَلِكَ، دَواماً أَوْ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَنْزِيل بَيَانُ هٰذِهِ الْحِكْمَةِ وهي امْتِحَانُ عِبَادِه.

• فَمَنْ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يَمْتَحِنُهُ لِيَكْشِفَ مَا انْطَوَىٰ فِي نَفْسِهِ: هَلْ هُوَ مِنْ شَاكِرِي أَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِ، بالطَّاعَةِ والاسْتِقَامَةِ وعَدَم الاسْتِكْبَارِ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ بِمَا آتَاهُ الله، بِتَأْدِيَةِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ تَأْدِيَتهُ مِنْ حُقُوقٍ، أَمْ هُوَ مِن الْكَافِرِينَ الْعُصَاةِ الَّذِينَ يَسْتَخْدِمُونَ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي مَعْصِيَتِهِ، والخُرُوج مِنْ دَوائِرِ طَاعَتِه، وَجُحُودِ نِعْمَتِهِ، والاسْتِكْبَارِ علىٰ عِبَادِ اللهِ بِمَا آتَاه الله.

• ومَنْ ضَيَّقَ اللهُ رِزْقَهُ وقَلَّلَهُ لَهُ، فَاللهُ عزَّ وَجَلَّ يَمْتَحِنُهُ لِيَكْشِفَ مَا

انْطَوىٰ فِي نَفْسِهِ، هَلْ هُوَ من الصَّابِرِينَ الرَّاضِين بِمَا قَسَمَ اللهُ لهم، الَّذِينَ لَا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ ما آتاهُم رَبُّهُمْ، وَلَا يَسْتَخْدِمُونَ وَسَائِلَ فِيها مَعْصِيَةُ اللهِ أَوِ الكُفْرُ بِهِ، لإِنْماءِ ثَرَواتِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا يَتذَمَّرُونَ مِنْ وَاقِعِ حَالِهِمْ، مُعْتَرِضِينَ علَىٰ مَقَادِيرِ رَبِّهِم، بَلْ يَقُومُونَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم كَمَا أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ. أَمْ هُوَ مِنَ الضَّجِرِينَ السَّاخِطِينَ عَلَىٰ مَا قَدَّرَ الله لَهُمْ، الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ نِعَمَ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ نَظَرَاتِ حَسَدٍ وغَيْظٍ، وَيُحَاوِلُونَ الْحُصُولَ عَلَىٰ مَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ بالظُّلْمِ والْعُدْوانِ، وَمَعْصِيَةِ الله، ويَكُونُونَ دَواماً مُتَذَمِّرِينَ، شَاكِينَ، طَاعِنِينَ فِي حِكْمَةِ اللهِ عَزّ وجَلّ، بِعَطَائِهِ ومَنْعِهِ، وبَسْطِهِ وتَقْدِيرِه.

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بأُسْلُوبِ الاسْتِدْرَاك، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ تَغُرُّهُمُ وَفْرَةُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ قَدْ تَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعَمٍ قَدْ كَانَ ثَمرَةَ عِلْم عِنْدَهُمْ، وَعَمَلٍ رَشِيدٍ سَدِيدٍ مَارَسُوهُ فِي حَيَواتِهِم، نَاسِينَ تَيْسِيرَ اللهِ وفَضْلَهُ عليهم، أَوْ جَاحِدِينَ لَهُ، وَمَهمَا أَبَانَ لَهُمْ أَهْلُ الإيمانِ والْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنَّ اللهَ يَمْتَحِنُهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، وَأَنَّهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ لِيَبْلُوَهُمْ، فإِنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا هٰذِهِ الحقيقَةَ، فَلَا يَفْتَحُونَ مَغَالِيقَ نُفُوسِهِمْ لاسْتِقْبَالِهَا، وَإِدْرَاكِها والتَّأَمُّلِ فيها، لأَنَّ عِلْمَهُمْ بِهَا يُشْعِرُهُمْ بِوَاجِبَاتٍ كَثِيراتٍ، عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَدُّوهَا طَاعَةً لِرَبِّهِمْ، وأداؤهُم هٰذِهِ الواجبَاتِ يُخَالِفُ أهواءَهم، ويَصْطَدِمُ بِشُحِّ نُفُوسِهم، فَهُمْ لَا يَفْتَحُونَ مَغَالِيقَ نُفُوسِهِمْ لإِدْرَاكِها، وَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعْلَمُوها عِلْماً يُعَكِّرُ صَفْوَ نُفُوسِهم.

هٰذا مَا أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢) والْتَفَت الْبَيَانُ فخاطَبَ اللهُ عزّ وجلّ هَؤلَاءِ الكَافِرِينَ الْمُترَفِينَ المتَفَاخِرين بِوَفْرَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَكَثْرَةِ أَوْلَادِهِمْ، فقالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم:

• ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

زُلْفَىٰ: أي: قُرْبَىٰ. وتُطْلَقُ عَلَىٰ دَرجَةٍ عَالِيَةٍ ذَاتِ قُرْبٍ مِنْ فُيُوضَاتِ ثَوابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ. فَعَلَىٰ أَنَّها اسْمُ مَصْدَرٍ، هِي نائب مَفْعُول مطلق. وَعلَىٰ أَنَّها دَرَجة عَالِية، هي مَفْعُول للفعل في «تُقَرِّبُكُمْ».

﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: أي: جزاءُ المضاعَفَةِ لأَعْمَالِهِم. **الضِّعْفُ**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علىٰ مِثْلِ الشَّيْءِ، أَوْ مِثْلَيْهِ فَأَكْثَرَ، ودَلَّ البيان النَّبوِيُّ علىٰ أَنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا عِنْدَ اللهِ في الْحَدِّ الأَدْنَىٰ، وَتُزَادُ بِفَضْلِ اللهِ إلىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ فَأَكْثر.

﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جمع «الْغُرْفَة» وهِي في الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ العَرَب ذَاتُ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ فيها، تُخْتَارُ لِسَيِّدِ الْقَصْرْ ومُتْعَتِهِ الْخَاصَّة، وَيُصْعَدُ إِلَيْها بدَرَجٍ، وتَكُونُ فِي الْعَادَةِ عَالِيَةً مُشْرِفَة.

وقَدْ تُطْلَقُ «الغرفَةُ» بالإفراد كما جاء في الآية (٧٦) من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) ويُرَادُ بِهَا الْجِنْسُ الشَّامِلُ لِلْغُرُفَاتِ، وَعَلَىٰ هٰذا تُحْمَلُ القراءة الأُخْرَىٰ هُنا فِي سُورَة (سبأ/ ٥٨ نزول).

فَاللهُ عزَّ وجَلَّ يَقُولُ لَهُمْ تَكْمِيلاً لإِقْنَاعِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ لَهُمْ بِالْحِكْمَةِ مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَضْيِيقِهِ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا أَقَلَّ تَقْرِيب، فَنَحْنُ الَّذِينَ مَنَحْنَاكُمُوهَا لِنَبْلُوَكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا مَا كَانَ مِنْ كَسْبِكُمُ الإِرَادِي ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا، بالتَّقَرُّبِ إِلَيْنَا بالإِيمانِ والطَّاعَةِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ الَّذِي رَغَّبْنَا عِبادَنَا أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَتَرْكِ مَا رَغَّبْنَاهُمْ أَنْ يَتْرُكُوهُ، فَهؤُلَاءِ نَجْزِيهِمْ جَزَاءً مُضَاعَفاً أَضْعَافاً كَثِيرَةً، بِسَبَب مَا عَمِلُوا مِنْ صَالِحَاتٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا، وَنَجْعَلُهُمْ آمِنِينَ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُون، في الْغُرُفَاتِ الرَّفِيعَاتِ النَّفِيسَاتِ فِي جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدِّين.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿إِلَّا﴾ هي هُنَا بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» وَ﴿مَن﴾ بَعْدَهَا اسْم شَرْط جَازِم. ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ ومَعْطُوفٌ عليه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ...﴾ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ جواب الشَّرْطِ.

(٣) وإِذْ جَاءَ تَرْغِيبُ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً بالجزاءِ المضاعف في الآية (٣٧) كَانَ مَنَ الْحِكْمَةِ المتَّبَعَةِ فِي القرآنِ، الْتَّذْكِيرُ بِعِقَابِ مَنْ كَفَرَ وارْتَكَبَ قَبَائِحَ الأَعْمَالِ وَسَيِّئَهَا، مِمَّا يُسْخِطُ اللهَ عزّ وجلّ عَلَىٰ عِبَادِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

السّعْيُ: عَمَلٌ فَوْقَ المشْي، وهُوَ عَدْوٌ دُونَ الرَّكْضِ بِشِدَّةٍ وسُرْعَةٍ، ويأتي السَّعْيُ بمَعْنَىٰ الْعَمَلِ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

وجاء في القرآن اسْتِعمَالُ «السَّعْي» في الأَعْمَالِ ذَاتِ الثواب أو العقابِ في الآخِرَةِ.

- ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أيْ: مُتوهّمينَ أَنَّهُمْ قادِرُونَ علىٰ أن يَسْبِقُوا، وأنْ يُفْلِتُوا من عذاب ربّهم. وفي القراءة الأخرىٰ: [**مُعَجِّزِينَ**]: أي مُثَبِّطين ومُعَوِّقين.

فبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد.

والْمُرَادُ بِالسَّعْي في آيَاتِ اللهِ سَعْيُهُمْ في عَدَمِ اتِّبَاعِهَا، وسَعْيُهُمْ في تَحْرِيفِ دَلَالَاتِهَا، وَسَعْيُهُمْ في التشْكِيكِ فيها، وفي جُحُودِها، وَمِنَ السَّعْيِ في تَحْرِيف دَلَالَاتِهَا، تَلَاعُبُهُمْ في تَعْلِيلِ تَفاضُلِ أَرْزَاقِ النَّاسِ فِي الحياة، الَّذِي هو آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ علىٰ امْتِحَانِ بَعْضِهِمْ بِبَسْطِ الرِّزْق بِحَسَبِ

خَصَائِصِ نُفُوسِهم، وعلى امْتِحَانِ بَعْضِهِمْ بِتَقْدِيرِهِ وَتَقْلِيلِهِ بِحَسَبِ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ نُفُوسَهُمْ، فَيُوهِمُونَ أَنَّ مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَكَثَّرَ أَمْوَالَهُمْ وَكَثَّرَ أَوْلَادَهُمْ، هُمْ مُفَضَّلُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَهُوَ لَا يُعَذِّبُهُمْ مَهْمَا ارْتَكَبُوا مِن آثَامٍ وجَرَائم.

وَنَصْبُ لفظ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ علىٰ أَنَّهُ حَالٌ، أي: يَسْعَوْنَ فِي آياتِنَا حَالَةَ كَوْنِهِمْ مُعَاجِزِين، أو مُعَجِّزِينَ.

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أَيْ: أُولَـٰئِكَ الـمُنْحَطُّونَ الْبُعَدَاءُ في اتِّجاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، سَوْف يَكُونُونَ مَسُوقِينَ مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَةِ الْعَذَاب، لإِحْضَارِهم فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ، ووسَائِلِ تَعْذِيبٍ أُخْرَىٰ فِي الْجَحِيم، دَارِ عَذَابِهِمْ يَوْمَ الدين.

(٤) والْتَفَتَ الْبَيَانُ فَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إِلىٰ اللهِ مِن أُمَّتِهِ، يُعْطِيهِ بَعْضَ مَفَاتِيح بَيَانٍ دَعَوِيٍّ إِقْنَاعِيٍّ، يُوَجِّهُهُ فِي بَيانَاتِ النَّصْحِيَّةِ الإِرْشَادِيَّةِ، بِقَولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

يَبْدُو أَنَّ هـٰذا التَّعْلِيمَ يُقْصَدُ بِهِ، أَنْ يُوَجِّهَهُ الْمعَلِّمُ النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ الَّذِي هو مِنْ أَئِمَّةِ المتقِينَ، لِجَمَاهِير الْمُسْلمينَ، لإِقْنَاعِهِمْ بِحِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وتضييقِهِ، الَّتِي سَبَقَ بَيانُها لَدَىٰ تَدَبُّر الآيَةِ (٣٦) مِنْ هـٰذا الدَّرْس، وَلِحَثِّهِمْ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، في وُجُوه الْخَيْرِ الَّتِي رَغَّبَ اللهُ عزَّ وَجلَّ في الإنْفَاقِ فيها، ولإِطْماعِهِمْ بأَنَّ اللهَ يُخلِفُ لَهُمْ مَا يُنْفِقُونَ في سَبِيلِهِ، وَلِبَيَانِ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَيْرُ الرَّازِقِين.

فَيَقُولُ الناصِحُ الْمُرْشِدُ في حَثّ المسْلِمينَ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ: وَمَا أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ مِنْ شَيْءٍ مَهْمَا قَلَّ أَوْ كَثُر، فاللهُ

يُخْلِفُهُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، أي: إضَافَةً إلىٰ الأَجْرِ الْعَظِيم الَّذِي ادَّخَرَهُ لَكُمْ وَالَّذِي تَنَالُونَهُ يَوْمَ الدِّين.

إخْلَافُ الشَّيْءِ: التَّعْوِيض عَنْهُ وَجَعْلُ الْخَلَفِ عِوَضاً عَنْهُ.

• ﴿..وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ جَاءَت هـٰذِهِ العبارة ثَنَاءً عَلَىٰ اللهِ في نِهَايَةِ هـٰذا الدَّرْسِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَظِيمَةِ فِي رِزْقِهِ لِعِبَادِه، وَلِهـٰذِهِ الْحِكْمَةِ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ، بَعْضُهَا يَقْتَضِي الْبَسْطَ بقَدَر، وبَعْضُهَا يَقْتَضِي التَّضْييقَ بِقَدَرٍ، وَاخْتِيَارَاتُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا تَكُونَ إلَّا خَيْراً، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ خَيْرُ الرازقين.

وبهـٰذا تم تَدَبُّر الدّرْس الثامن مِنْ دُروس سورة (سبأ).

والحمد للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وَتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٢)
التدبر التحليلي للدَّرْس التاسع من دُروس سورة (سبأ)
الآيات من (٤٠ ـ ٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأ حفص، ويعقوب: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ﴾** بياء المضارعَةِ في الفِعْلَيْن. أي: يحشُرُهم اللهُ عزّ وجلّ.

وقرأَهَا بَاقي القراء العشرة: [**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ نَقُولُ**] بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم في الفعلين.

والقراءتان متكافئتان، وهما من التَّفَنُّن في أُسْلُوب الخطاب، وفي قراءة الجمهور تربية المهابة من جلال الله.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْس بيان مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، يُقَدِّمُ فيهِ للمشْرِكين الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ قُرَنَاءهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ مَلاَئِكة، مشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ يوم القيامَةِ في مَوْقِفِ الحِساب، وفي هـٰذا المشْهَدِ يَسْأَلُ اللهُ عزّ وجلَّ فِيهِ الملاَئِكَة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟ فيتبرَّؤُون مِنْهُمْ، وَيَقُولُون: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾.

وفي آخِرِ هـٰذا المشْهَدِ بَيَانُ مَا يَقُولُهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلْمُشْرِكِينَ وَآلِهَتِهِمْ، ومَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عابِدِينَ ومَعْبُودِين: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هـٰذا الْعَرْضِ مِنْ عِلَاجٍ فَعَّالٍ مُؤَثِّرٍ فِي قُلُوب الذين لَدَيهم اسْتِعْدَادٌ مَا للاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ، لَمْ تُطْمَسْ بَصَائِرهم باتِّبَاعِهم أهواءَهم وشَهَواتِهم ومَطَالِبَهُمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا العاجِلَة.

التدبّر التحليلي:

دلَّت آيَاتُ هـٰذا الدَّرْسِ عَلَىٰ أَنَّ قُرَنَاءَ الإِنْسِ مِنَ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، كانُوا يَكْذِبُونَ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُونَ لَهُمْ: نَحْنُ مَلاَئِكَةٌ، وَيَأْتُونَهُمْ بِبَعْضِ الأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ، لِيُوهِمُوهُمْ بأَنَّهم صَادِقُونَ في ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ مَلاَئِكَة، ثُمَّ يُزْلِقُونَهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، فَيُطِيعُهُم قُرَنَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ مُشْرِكِينَ باللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفي آلِهِيَّتِهِ، عَلَىٰ أَنَّ طَاعَتَهُمْ فِي التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ هِيَ عِبَادَةٌ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

■ قول اللهِ تَعَالَى يَعْرِضُ لَقْطَةً مِنْ لَقَطاتِ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة:

● ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُول**]:

الحشْر: السَّوْقُ والْجَمْعُ.

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيّهَا المتَلَقِّي لِبَيَانَاتِ رَبِّكَ في آيَاتِ كِتَابِهِ، هـٰذا الْمَشْهَدَ الَّذِي نُحَدِّثُكَ عَنْهُ، والَّذِي يَكُونُ يَوْمَ يَحْشُرُ رَبُّكَ الإِنْسَ والْجِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء جميعاً، وَيَسُوقُهُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَيَأْتِي بالشُّهُودِ وَمِنْهُم الْمَلَائِكَة.

ثُمَّ بَعْدَ وُقُوفِ الْمُحَاسَبِينَ وَالشُّهُودِ، وَهـٰذا المشْهَدُ يَتَعَلَّقُ بالمشْرِكِينَ وَالْمَلَائِكَةِ الَّذين كَانَ شَيَاطِينُ الْجِنّ يَزْعُمُونَ لِقُرَنائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ، يَقُول اللهُ عزَّ وجلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ الّذِينَ كَانُوا في الدّنيا مُشْرِكِينَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، أي: يُطِيعُونَ فِي أَوَامِرِ الدِّينِ بِحَسَبِ مَا يَزْعُمُونَ؟

قُدِّمَ المفعولُ به ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على الفِعْلِ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ لإِفَادَة التَّخْصِيصِ، أيْ: أهَؤُلَاءِ المشْرِكُونَ كَانُوا يَخُصُّونَكُمْ بالْعِبَادَة؟

■ قَوْلُ اللهِ عَزّ وجَلَّ مُبيناً مَا يُجِيبُ بِهِ الْمَلَائِكَة، وجاء بِصِيغَةِ الْفِعْل الماضِي اسْتِقْطَاعاً مِن الْحَدَثِ المستقْبَلِيِّ، لِلدَّلَالَة عَلَى أَنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ حَتْماً، فَهُوَ بِقُوَّةِ الأَمْرِ الَّذِي وَقَعَ فِعلاً:

● ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾:

● ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: قَالَ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا تَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ شُرَكَاءُ في رُبُوبِيَّتِكَ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِكَ، وَنَحْنُ نَتبَرَّأ مِنَ الرِّضا بعِبَادَتِهِمْ لنا.

● ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أَيْ: أَنْتَ وَحْدَكَ رَبّنَا، وَمَالِكُنا، وَإِلَٰهُنَا،

والمتَصَرِّفُ بِكُلِّ أُمُورِنَا، لَا رَبَّ غَيْرُكَ، ولا إلَهَ إلَّا أنْتَ، فَنَحْنُ لَمْ نَتَّخِذْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَاءَ يَعْبُدُونَنَا مِنْ دُونِكَ، وَلَمْ نَرْضَ بِذَلِكَ، فإنْ زَعَمُوا أنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَنَا وَنَحْنُ رَاضُونَ بأنْ نَكُونَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ، فَنَحْنُ نُكَذِّبُهُمْ، وَنُعْلِنُ أنَّكَ وَحْدَكَ وَلِيُّنَا مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ غَيْرُهُمْ، كُنَّا وَمَا زِلْنَا عَلَى هٰذا.

إنَّهُمْ في الحقيقة لَا يَعْبُدُونَنَا، وَلَا يُطِيعُونَ أَوامِرَنَا، بَلْ كَانُوا يَعْبُدون الْجِنَّ، الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنْيا شَيَاطِينَهُمْ، الَّذِينَ يُغْرُونَهُمْ وَيُغْوُونَهُم، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ بِشَيَاطِينِهِمْ مِنَ الْجِنِّ مُؤْمِنِين، يُصَدِّقُونَهُم فيما يُوحُونَ بِهِ إلَيْهِمْ مِنْ ضَلَالَات، وَيَتَّبِعُونَهُمْ غَاوِين.

■ وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ هٰذا المشْهَدَ بِذِكْرِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكِين وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنّ، وبالإشَارَةِ إلى مَا قَضَى بهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابٍ أَبَدِيٍّ في النَّار، ومَا يَقُولُهُ جلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ وَلِكُلِّ الظَّالِمِينَ الْمُجْرِمِينَ الْخَالِدِينَ في العذاب:

● ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ للمشركين ولأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الجنّ:

لَقَدِ اسْتَمْتَعَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ حِينَ كُنْتُمْ مُمَكَّنِينَ مِنْ مُمَارَسَةِ مَا تَشَاؤون فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدُّنيا، حَتَّى قَضَيْتُمْ فِيها آجالَكُم المقَدَّرَة المقْضِيَّةَ لَكُمْ، فَالْيَوْمَ أَنْتُمْ فِي حَيَاةِ الجزاءِ، لَسْتُمْ مُمَكَّنِينَ مِنْ أَنْ تَفْعَلُوا مَا تَشَاؤون، فَلَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضَرّ، وَسَيلْقَى كُلُّ فَرْدٍ مِنْكُمْ جَزَاءَهُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ، وَيَكُونُ فِي الدَّرَكَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَعُدْوان، وَفُجُورٍ وإِثْمٍ وطُغْيَان.

ويُوَجِّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِجَمِيعِ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ، فالدَّرَكَاتِ اللَّاتِي هِيَ أَخَسُّ مِنْهَا قائِلاً لهم:

﴿. . ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

لَقَدْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، يُكَذِّبُونَ بقَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيّ الّذِي أخْبَرَ عَنْهُ رُسُلُ اللهِ، ويُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ النَّارِ الَّذِي نَزَلَتْ ببيَانِهِ والإخْبَارِ عَنْهُ آيَاتُ اللهِ في كتابِهِ المُبين، فلْيَذُوقوا هـٰذا الْعَذَابَ الَّذِي كَانُوا بِهِ يُكَذِّبُونَ، وهُوَ خَبَرٌ حَقٌّ جَاءَهُم مِنْ عِنْدِ رَبِّهم.

ويُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ الظَّالِمِينَ بِهـٰذا الْقَوْلِ إهَانَةً لَهُمْ، لأَنَّهُمْ كانُوا يُكَذِّبُونَ بأَنْبَاءِ اللهِ جَاحِدِين، يَتّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ، مُدْبِرِينَ عَنِ اسْتِبْصَارِ بَرَاهِينِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة.

جاء في القرآن تَشْبيهُ الإحْسَاسِ بألَم الْعَذَاب بالذَّوَاقِ، لِتَقْرِيب مَعْرِفَةِ الإحْسَاسِ بِهِ، فَحَاسَّةُ الذَّوْق مِنْ أَشَدِّ المواضِعِ إحْسَاساً بِمَا يُلامِسُهَا.

وبهـٰذا انتهى تَدَبُّر الدَّرْس التاسع من دُروس سورة (سبأ).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

(١٣)
التدبر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠)

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ

مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ يَعْقُوب: [نَكِيرِي] بإثباتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ والْوَقف.

وكذَلِكَ قَرَأَهَا وَرْشٌ فِي الْوَصْلِ فَقَط.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاء العشرة: ﴿نَكِيرِ﴾ بحَذْفِ يَاء المتكلم في الوصْلِ وَالوقف، وهي مُلَاحَظَةٌ ذِهْناً.

(٤٦) • قَرأ رُوَيس في الوصْلِ: [ثُمَّ تفكَّرُوا].

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿ثُمَّ تتفكَّرُوا﴾ وَصلاً ووقْفاً.

(٤٧) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا﴾ بفتح ياء المتكلّم.

وأسْكَنَهَا باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

(٤٨) • قرأ شُعْبَة، وحمزة: [الْغِيُوبِ] بِكَسْرِ الْغَيْن.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بضَمّ الْغَيْن.

القراءتان لُغَتَانِ عَرَبِّيَتَانِ لِلْكَلِمَة.

(٥٠) • قرأ نَافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: ﴿رَبِّيَ إِنَّهُ﴾ بفتح يَاءِ المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ يَاءِ المتكلم.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرسِ بَيانُ مَقالَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ، إذَا تَلى عَلَيْهِمْ آياتٍ بَيِّناتٍ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد، إذْ يَتَّهِمُونَه بأنَّ غَرَضَهُ انْتِزَاعُ الزَّعَامَةِ مِنْ أصْحَابِها فِي مَكَّة وغَيْرِها، بِصَدِّ النَّاسِ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤهم، وَبأنَّهُ يفتَرِي الْقُرْآن مِنْ عِنْدِه، ويَنْسُبُهُ إلَى الله، وَبِأَنَّ مَا فِي القرآنِ مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى سَامِعِيهِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ، وَيَزْعُمُونَ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَا آتاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها، وَمَا أَرْسَلَ إلَيْهِمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ مِنْ نَذِيرٍ، جَاحِدِينَ رِسَالَةَ إسْمَاعِيلَ وَإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِما السَّلام، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مِنْ تَعْلِيمَاتٍ دِينِيَّةٍ، وَجَاحِدِينَ التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ صَحِيحٍ بَلَغَهُمْ عَنْ أيِّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ الله.

وفي هـٰذِهِ الآيات تَعْلِيقٌ رَبَّانِيٌّ عَلَى هـٰذا الموقفِ مِنْ مَوَاقِفِمْ، وتَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ مُعَالَجَةً لهـٰذا الموقف.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعالَى بِشأْنِ المعَالَجِينَ في السورة مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا:

● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾:

دَلَّتْ هَاتَانِ الآيَتانِ عَلَى خَمْسِ مَقولَات كاذِبَاتٍ قَالَهَا الَّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِين، ونَزَلَتْ آياتُ هـٰذا الدّرْسِ لِبَيَانِ كَذِبِهِمْ فيها، ولِتَعْلِيمِ الرَّسُول ﷺ مَا يَقُولُ لَهُمْ:

المقُولَةُ الكاذِبة الأولىٰ: دَلَّ عليها مَا جاء في قول اللهِ تَعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ . .﴾:

أي: وَإذَا تَلَىٰ الرَّسُولُ عَلَيْهِمْ طَائِفَةً مِنْ آيَاتِ كِتَابِنَا القرآنِ المنزَّلِ عَلَيْهِ، حَالَةَ كَوْنِها بيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ يَفْهَمُونَ دَلَالَاتِها، خَافُوا أَنْ تَتَأَثَّر بِهَا جَمَاهِيرُهُمْ الَّذِينَ يَخْضَعُونَ لِزَعَامَاتِهِمْ، وَيأتَمِرُونَ بأوامِرِهم، فَقَالُوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾: أيْ: أَنْ يَصْرِفَكُمْ وَيُحَوِّلَكُمْ.

هَٰذِهِ المقولَةُ ذَاتُ هَدَفين:

الْهَدَفُ الْأَوَّل: إثَارَةُ قائِلِيهَا عَصَبِيَّةَ جَمَاهِير قَوْمِهِمْ لِآبَائِهِمْ، إذْ كَانَتْ عَصَبِيَّاتُ الأَبْنَاءِ لِلْآبَاءِ مِنْ أَقْوَىٰ دَوَافِعِ الْأَقْوَام، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ مَوارِيثِهِمْ مِنَ الْعَادَاتِ، والمعتقدات، والرَّوابِطِ الْقَوْمِيَّة، ولَوْ لَمْ تَكُنْ لَهَا قِيَمٌ حَقِيقِيَّةٌ تَجْعَلُ المحافَظَةَ عَلَيْهَا أَمْراً حَسَناً. وَهَٰذِهِ نَخْوَةٌ جاهِلِيَّةٌ مَحْمُودَةٌ لَدَيْهِم، ولَوْ كَانَتْ مَذْمُومَةً لَدَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والارتقاء الحضاريّ.

الْهَدَفُ الثاني: إشْعَارُ جماهِيرِهِمْ بأنَّ مُحمّداً طالِبُ زَعَامَةٍ عَلَيْهم، فإذَا صَدَّهُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤهُمْ، كَانَ هُوَ الَّذي يُمْلِي عَلَيْهِمْ عِبادَاتِهم، وهُوَ الّذي يكُونُ قَائِدَهُمْ وزَعِيمَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، فَهُوَ غَيْرُ صَادِقٍ فِي ادِّعَاءَاتِهِ.

المقولَة الكاذِبَةُ الثانِيَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ..﴾:

الإفْك: الحديث والكَلامُ الكَذِب، يقالُ لغة: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكاً، وإِفْكاً، وَأُفُوكاً» ويُقال أيضاً: «أَفِكَ، يَأْفَكُ، إِفْكاً» أي: تَكلَّمَ بِكلامٍ كَذِب، أَوْ حَدَّث بحَدِيثٍ كَذِب.

مُفْتَرَىٰ: أيْ: مُخْتَلَقٌ ومُصْطَنَعٌ عَنْ عَمْد.

أي: وَمَا هَـٰذَا القرآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ وَيَقُولُ: إِنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، إِلَّا كَلَامٌ كَذِبٌ مَصْنُوعٌ مُخْتَلَقٌ مِنْ عِنْدِه، وهُوَ يَزْعَمُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وغَرَضُهُ مِنْ هَـٰذَا تَحْقِيقُ زَعَامَةٍ فِي قَوْمِهِ.

إِنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المقولَةِ الكاذِبَةِ، عَلَىٰ الرُّغْم مِنْ كُلِّ الْبَيَانَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ عَنِ القرآنِ وأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مِنْ كَلَامِ إِنْسٍ وَلَا جِنّ، وَعَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ تَحَدِّيهِمْ بأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ سُورَةٍ ذَاتِ طُولٍ مِنْ سُوَره، أَوْ بِمِثْلِ عَشْرِ سُوَرٍ قِصَارٍ مِنْ سُوَرِهِ، كالْعَصْرِ، والْفَلَقِ، والنَّاسِ.

المقولَةُ الكاذِبَة الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿..وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ المقولَةُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَابُونَ بالدَّهْشَةِ الشَّدِيدَةِ، حِينَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وكانُوا يَشْعُرُونَ بِعَظَمَتِهِ وَإِعْجَازِهِ، فَخَافُوا أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ جَمَاهِيرُهُمْ، فَقَالُوا لِصَدِّهِمْ عَنِ الإيمانِ باللهِ وبرسُولِهِ وبالْقُرْآن: مَا هَـٰذَا الْقُرْآنُ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ أنواعِ السِّحْرِ مُبين.

جاء ذِكْرُ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ المتحدَّثِ عَنْهُمْ فِي السورة بعُنْوان: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للدَّلَالَةِ علَىٰ أَنَّ كُفْرَهُمُ الإرادِيَّ الْعِنادِيَّ، هُوَ الَّذِي دَفَعَهُمْ لِأَنْ يَقُولُوا عَنِ الْحَقِّ الْإِعْجَازِيِّ فِي الْقُرْآن: مَا هَـٰذَا التَّأْثِيرُ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي النُّفُوسِ، إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ظاهِرٌ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْر.

فالمعْنَىٰ: وَقَالَ أئِمَّةُ الشِّرْكِ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً عِنَادِياً لِأَجْلِ صَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي عَرَفَ هَـٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ أَنَّهُ حَقٌّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «إنْ» حَرْف نفي بمعنَىٰ «مَا». أيْ: ما هَـٰذَا التَّأْثِيرُ الَّذِي يُحْدِثُهُ القرآن فِي النُّفُوسِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، إِلَّا بِسَبَبِ كَوْنِهِ نَوْعاً مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، لَا بِسَبَبِ كَوْنِهِ كَلَاماً مُعْجِزاً مُنَزَّلاً مِن لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أو: قالُوا مُوَجِّهِينَ كلامَهُمْ لِلْحَقِّ الرَّبَّانِيّ الذي جاءَهُمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

المقولَةُ الكاذِبَة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُبيِّناً مَقُولَتَهُم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا . .﴾.

دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَٰذِهِ المقولَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ عِلْم بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّةٍ، وأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَرَّوُا الْحَقَّ مِمَّا جَاءَ فِي الكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وعيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وأَنْ يَدْرُسُوها، ويُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ مِنْ حَقٍّ فيها.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَوْبِيخُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُمْ، إِذْ كَفَرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (القصص/٤٩ نزول) بِشَأْنِهم:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: كَيْفَ يُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْتَىٰ مُحَمَّدٌ لِتَصْدِيق بَلَاغَاتِهِ عَن رَبِّهِ، مِثْلَ مَا أُوتِي مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ مِنْ آيَاتٍ بَاهِرَاتٍ، وَخَارِقَاتٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا أُوتيَ مُوسَىٰ مِن التوراة، ويَكْفُرُونَ بالآيَاتِ المعجزاتِ الّتي آتاهُ اللهُ إيَّاهَا مُصدِّقَةً أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين، وَمُصدِّقَةً بَلَاغَاتِهِ عَنْهُ، وَقال قَائِلُونَ مِنْهُمْ وَسَكَتَ الآخَرُون: إنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ سِحْر، فَهُو سَاحِرٌ، وإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ قُرْآنٍ عجيبٍ مُعْجِزٍ هُو أَيْضاً سِحرٌ، فَمُحَمَّدٌ سَاحِرٌ مِثْلُ مُوسَىٰ، وَقَدِ اجْتَمَعَا كَالْمُتَعَاوِنَيْنِ عَلَىٰ إِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، هِي تَوحِيدُ اللهِ في رُبُوبِيّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَنَفْيُ الشُّرَكَاء، وَمُحَارَبَةُ الْأَوْثَانِ، وإثباتُ القيامَةِ ويَوْمِ الدّين لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

الْمَقُولَة الكاذِبَةُ الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُبَيناً مَقُولَتَهُمْ: ﴿. . وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾:

إنَّهُمْ يَقُولُونَ بِوَقاحَةٍ عِنادِيَّةٍ عَجِيبَة: إنَّ اللهَ مَا أرْسَلَ إلَيْهِمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً مُبَلِّغاً وَمُعَلِّماً وَدَاعِياً إلَىٰ رَبِّهِ وَهَادِياً، وَمُبَشِّراً مَنْ آمَنَ وأطاع بخُلُودٍ يَوْمَ الدِّينِ بِجَنَّاتِ النَّعِيم، ومُنْذِراً مَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ بِخُلُودٍ فِي دَارِ العذاب النّارِ يَوْم الدِّين.

إنَّهُمْ يَقُولُونَ هَـٰذَا الْقَوْلَ الْوَقِحَ الْقَائِمَ عَلَىٰ المكابَرَةِ، مَعَ افْتِخَارِهِمْ بِجَدِّهِمْ إسْمَاعِيلَ بْنِ إبراهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلام، وإيمَانِهِمْ بِأَنَّهُمَا نَبِيَّانِ وَرَسُولَان، وهُمْ يُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ وَارِثُوا مَنَاسِكِ الْحَجِّ عَنْهُما.

ومَعْلُومٌ أَنَّ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ رَسُولَهُمْ، وَرَسُولاً لِجَمِيعِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيّة، وَيأتِيهِمْ فِي كُلِّ عَامٍ حَاجُّونَ وَحَاجَّاتٌ مِنْهَا اتِّبَاعاً لِشَرِيْعَةِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام.

■ وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المقولاتِ الْكَاذِبَاتِ بِقَول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَـٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾:

مِعْشَارُ الشَّيْءِ: جُزْءٌ مِنْ عَشَرَةٍ مِنْه، والمرادُ هنا التقليل.

أي: كَذَّبَ هَـٰؤُلَاءِ وكذّب الّذين كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَعَادٍ، وثمود، وفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجنوده بالْحَقِّ، وَمَا بَلَغَ مَا آتَيْنَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَا الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، مِنْ سُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَأَمْوَالٍ وَمَنَعَةٍ وأنْصار، فأرْسَلْتُ لِأُولئِكَ المكَذِّبِينَ السَّابِقِينَ بالْحَقّ رُسُلِي، فَكَذَّبُوهُمْ، ولَمْ يَعْبَؤُوا بِمَا آتَيْتُ رُسُلِي مِنْ آياتٍ بَيِّنَاتٍ، ومُعْجِزَاتٍ عَظيماتٍ، فَأَهْلَكْتُهُمْ، وقَدْ بَيَّنْتُ قِصَصَ إهْلاكِهِمْ فِي سَوَابِقِ نُجُوم تَنْزِيلِ الْقُرْآن، فَكَيْفَ كَانَ إنْكَارِي التَّطْبِيقِيّ لِتَكْذِيبِهِمْ؟! أَلَمْ يَكُنْ إنْكَاراً سَاحقاً مَاحِقاً؟!!

• ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟: أي: فَكَيْفَ كان عِقَابي. إنَّ إنْكَارَ الْقَدِيرِ عَلَىٰ المعاقَبَةِ والانْتِقَامِ يَدُلُّ عَلَىٰ عِقَابِهِ وانْتِقَامه.

هٰذَا البيان يَهْدِف إلى غَرَضِين:

الْغَرَضُ الأوّل: طَمْأنَةُ المؤمِنِينَ المسْلِمِينَ بأنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُمْ وَيُهْلِكُ عَدَوَّهم.

الْغَرَضُ الثاني: إنْذَارُ الكُفَّارِ المعانِدِينَ المضِلِّين الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، بأنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ الْقُرُونِ السَّالِفَة، الَّذِينَ كَانُوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَالاً وسُلْطَاناً وآثاراً فِي الأَرْض.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَوْعِظَةً يُوَجِّهُهَا لِأَفْرَاد الَّذِينَ كَفَرُوا، أَنْ يُفَكِّرُوا بِحُرِّيَّةٍ فَرْدِيَّةٍ طَالِبِينَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، أو أَنْ يُفَكِّرُوا مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ، وَأَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ سُلْطَانِ الضَّغْطِ الْجَمَاعِي، الَّذِي يُهَيْمِنُ عَلَيْهِ الْقَادَةُ المضِلُّونَ ذَوُو السُّلْطَانِ عَلَىٰ جماهِيرِهم:

• ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾:

إنَّ مِنْ أسَالِيبِ أئِمَّةَ الضَّلالِ والفساد والإفساد في الْأَرْض، أَنْ يُحِيطُوا أتْبَاعَهُمْ وَجَمَاهِيرَ قَوْمِهِمْ بِضَغْطٍ جَمَاعِي، يَسْلُبُونَ بِهِ الأَفْرَادَ قُدْرَةَ التَّفْكِيرِ الْفَرْدِيّ وَقُدْرَةَ التَّفْكِيرِ الثُّنَائِي، ويَمْلِكُونَ بالمنافِع والمَصَالِحِ الخاصَّةِ مِنَ الْجَمَاعَةِ أفراداً مَعْدُودِينَ يَبُثُّونَهُمْ بَيْنَهُمْ، لاقتراحِ الآرَاءِ أو الأَفْكَارِ، الَّتِي يُرِيدُ الأَئِمَّةُ المضِلُّونَ الإقْنَاعَ بها، واسْتِعْطَافَ الْجُمْهُورِ الأَكْثَرِ لِلْمُوافَقَةِ عَلَيْهَا واعْتِقَادِ أنَّهَا الأَفْضَلُ والأَحْسَن، وَمُنَاصَرَتِها بما لَهُمْ مِنْ قُدْرات مُنَاصَرَة.

وبِحِيلَةِ تَكْرِيرِ عَرْضِ الاقْتِراحِ أو الْفِكْرَة، مِنْ أَفْرَادٍ مُتَعَدِّدِينَ مُتَبَاعِدِي المواقِع، يُعَطِّلُ الْجُمْهُورُ الأَعْظَمُ مَلَكَاتِهِم الْفِكْرِيَّة، ويُعْلِنُونَ مُوافَقَتَهُمْ وَمُنَاصَرَتَهُمْ لِلاقْتِرَاحِ أَو الْفِكْرَة، مُغْتَرِّينَ بِأَنَّ عَدَداً مِنَ الأَفْرَادِ المُتَبَاعِدِينَ

فِي مَوَاقِعِهِمْ قَدْ قَدَّمُوا ذَلِكَ دُونَ تَوَاطُؤٍ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الحقِيقَةِ مُتَوَاطِئُونَ، مُوَجَّهُونَ سِرّاً مِنْ أَئِمَّةِ الضَّلَالِ والإِضْلَالِ، وَهَـٰؤُلَاءِ الأَفْرَادُ مُسْتَأْجَرُونَ لَهُمْ، أَوْ هُمْ مِنْ جُنُودِهم.

وَلِفَكِّ هـٰذا الحِزَام الجماعِيِّ الضَّاغِط، أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ بِأَنْ يَعِظَ جَمَاهِيرَ الْأَتْبَاعِ بِأَنْ يَقُومُوا مُخْلِصِينَ للهِ ولِلْحَقِّ، مُتَجَرِّدِينَ مِنْ تَبَعِيَّتِهِمْ لِأَئِمَّتِهِم، وقَادَتِهِمْ الضَّاغِطِين عليهم، ويَتَفَكَّرُوا مَثْنَىٰ، وَيَتَفَكَّروا فُرَادَىٰ، لَا أَنْ يَنْسَاقُوا بِغَوْغَائِيَّةٍ مَعَ أَصْوَاتِ الْجَمَاعَةِ دُونَ تَفْكِيرٍ مُسْتَقِلّ.

ومِفْتَاحُ الْقَضَايَا الَّتِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَفَكَّرُوا فيها، مَا يَقُولُهُ قَادَتُهُمْ بِشَأْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ: إِنَّهُ مُصَابٌ بِالْجُنُون، فإِذَا هَدَاهُمْ تَفْكِيرُهُمُ الْحُرُّ إِلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ مَجْنُوناً، بَلْ هُوَ أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلاً، وأَعْظَمُهُمْ رُشْداً، اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ مُعْظَم أَقْوَالِ أَئِمَّتِهِمْ الدِّعَائِيَّةِ، وأَنْ يَكْتَشِفُوا أَنَّ قَادَتَهُمْ كَاذِبُونَ مُغْرِضُونَ، يَصُدُّونَهُمْ عَنِ الْحَقِّ لِهَوىً فِي نُفُوسِهِمْ، وَخَوْفاً عَلَىٰ زَعَامَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ.

• ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾: أيْ: قُلْ لِلْجَمَاهِيرِ من الْأَتْبَاعِ: مَا أَعِظُكُمْ إِلَّا بِمَوْعِظَةٍ وَاحِدَةٍ.

الْمَوْعِظَة: مَا يَكُونُ بِهِ الْوَعْظ. **والْوَعْظ**: هو النُّصْحُ المقرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَوِ الرَّهْبَةَ في النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْحِ، واتِّبَاعِ مَا هَدَىٰ إِلَيْهِ.

• ﴿..أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ..﴾: أيْ: أَنْ تَقُومُوا مُتَجَرِّدِينَ مِنَ الأَهْوَاء، والْعَصَبِيَّاتِ، والتَّبَعِيَّاتِ، تَبْتَغُونَ الْوُصُولَ إِلَىٰ الْحَقِّ وَمَرْضَاةِ الله. مَثْنى، وفُرَادَىٰ، بَعِيدِينَ عَنِ الضَّغْطِ الْجَمَاعِيِّ الَّذِي يُحِيطُ بِكُمْ، وَيُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِهِ أَئِمَّتُكُمْ وَقَادَتُكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ.

مَثْنَىٰ: أي: اثْنَيْنِ، فَاثْنَيْن، يُقَالُ لغة: «جَاءَ الْقَوْمُ مَثْنَىٰ» أي: جاءُوا اثنين، فاثْنَيْن، وهكذا.

فُرَادَىٰ: أي: واحداً، فواحداً، يقال لغة: «جاء الْقَوْمُ فُرَادَىٰ» أي: جَاءُوا وَاحِدَاً، فَوَاحِداً، وهكذا.

إنّ الاثْنَيْنِ يَتفكَّرانِ غَالِباً دُونَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِهِمَا هَيْمَنَةٌ ضَاغِطَةٌ عَلَىٰ الآخَر، إذَا كانَا مُتَعَادِلَيْنِ نِدَّيْنِ. وَالْفَرْدُ يَتفكَّرُ فِي نَفْسِهِ بِحُرِّيَّةٍ أَكْثَر، إلَّا أَنَّ الاثْنَيْنِ أَقْدَرُ عَلَىٰ الإحَاطَةِ بِكُلِّ جَوانِبِ الْقَضِيَّةِ الْمَطْرُوحَةِ للتَّفْكِير، لِأَنَّ كُلَّاً مِنْهُمَا يَجْتَهِدُ بأَنْ تَكُونَ مُشَارَكَتُهُ فِي التَّفْكِيرِ تَأْتِي باحْتِمَالَاتٍ وَجَوَانِبَ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِ صَاحِبِهِ.

• ﴿..ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..﴾: هٰذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةُ الَّتِي تَدْعُوهُمْ للتَّفكُّرِ فيها بَعْدَ تَأَنٍّ وَتَأَمُّلٍ، لِيَتَوَصَّلُوا بالتَّفْكِيرِ الحرِّ الْبَعِيدِ عَنِ الضَّوَاغِطِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، فَيَعْلَمُوا وَيُؤْمِنُوا أَنَّهُ: مَا بِصَاحِبِهِم النبيّ الرَّسُولِ الَّذِي يَدْعُوهم إلى الحقّ والخير وَسَعَادَةِ دُنيَاهم وأُخْرَاهُمْ مِنْ جُنُونٍ مَا، كما يَزْعُمُ قادَتَهُمْ وأئمتُهُمْ، بَلْ هُو ذُو عَقْلٍ كَامِلٍ، وَرُشْدٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَىٰ نَجاةِ الناسِ مِنْ عَذَاب رَبِّهِمْ، وَظَفَرِهِمْ بِجَنَّاتِ النَّعيمِ يَوْمَ الدِّين.

• ﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: وقل لَهُمْ مَا هُوَ إلَّا مُبَلِّغٌ رِسَالَاتِ رَبِّهِ لَكُمْ، وَنَاصِحٌ لَكُمْ أَمِينٌ، وَمُعَلِّمٌ وَدَاعٍ إِلَىٰ اللهِ بِصِدْقٍ، وَمُبَشِّرٌ مَنْ آمَنَ وَأطاع بسعادة أبديَّةٍ فِي جَنَّاتِ النعيم، وَمُنْذِرٌ مَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ بِعَذَابٍ شَدِيد في دَار الْعَذَاب يَوْمَ الدِّين، جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصِير.

وهو بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ وَقَدْ أَبَيْتُمْ أَنْ تَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ، وَهُوَ يَدْعُوكُمْ إلى صِرَاطِ اللهِ المستقيم عِدَّةَ سِنِينَ، نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، سَوْفَ تُعَذَّبُونَهُ، إذَا لَمْ تَحْمُوا نُفُوسَكُمْ مِنْهُ بأَنْ تُؤْمِنُوا وَتَعْمَلُوا صَالحاً.

■ وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُكَرِّرَ لَهُمْ تَجَرُّدَهُ مِنَ المصْلَحَةِ

الشَّخْصِيَّةِ عِنْدَهم، ويُقْنِعَهُمْ بأَنَّهُ لَا يَبْتَغِي مِنْهُمْ أجراً ما عَلَىٰ مُجاهَدَتِهِ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ خَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا يَبْتَغِي ثَوَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ له:

• ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾:

الأَجْرُ: عِوَضٌ نَافِعٌ عَلَىٰ عَمَلٍ مَا، سَواءٌ أَكَانَ مَالاً أَمْ غَيْرَ مَالٍ، كَمُلْكٍ أَوْ سُلْطَانٍ، أَوْ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ مَحَابِّ النُّفُوس.

• ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ..﴾: أَيْ: كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَنِي بِأَنَّنِي سَأَلْتُكُمْ أجْراً ما أَقَلَّ أَجْرٍ، عَلَىٰ مُجاهَدَتِي لِهِدَايَتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، فإنَّنِي أُمَلِّكُكُمْ إيَّاهُ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَنِي بِطَلَبِ مَالٍ، فإنَّنِي أَقُولُ لَكُمْ حَافِظُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ لَا تُعْطُونِي مِنْها شَيْئاً، فهِيَ لَكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَنِي بِطَلَبِ مُلْكٍ أَوْ سُلْطَانٍ، فَإِنَّنِي أَقُولُ لَكُمْ حَافِظُوا عَلَىٰ سُلْطَانِكُمْ وَمَكَانَاتِكُمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِنَّنِي لَا أُنَافِسُكُمْ عَلَيْهَا، وَلَا أَسْعَىٰ لانْتِزَاعِهَا مِنْكُمْ، فَهِيَ لَكُمْ بِحَسَبِ مَوَاقِعِكُمْ فِي قَوْمِكُمْ.

وَأُأَكِّدُ لَكُمْ وَأُكَرِّرُ أَنَّنِي مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَيَّ أَجْر.

• ﴿..إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ..﴾: أي: مَا أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رَبِّي، فَلَا تَظُنُّوا أَنِّي لَا أَطْلُبُ أَجْراً عَلَىٰ تَأْدِيَة رِسَالَتِي مِنْ أَحَدٍ، بَلْ أَطْلُبُ أجْرِي مِن اللهِ الّذِي اصْطَفَانِي نَبِيّاً وَرَسُولاً، وكلَّفَنِي أَنْ أبلّغ رِسَالَاتِهِ دَاعِياً هادِياً مُجَاهِداً صَابراً، مُحْتَسِباً أَجْرِي عِنْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

• ﴿...وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾: أي: واللهُ عَلِيمٌ بِحَالِي عِلْماً شَامِلاً، ظاهِراً وبَاطِناً، حَتَّىٰ خَوَاطِر فِكْرِي، وَخَلَجَاتِ قَلْبِي وَنَفْسِي، وَرَغَبَاتِي وَنِيَّاتِي، إِذْ هُوَ حَاضِرٌ بِصِفاتِ عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَخَلْقِهِ، مُسْتَعْلٍ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ غَايَةِ أجْزَاءِ الذَّرَّةِ، حَتَّى غَايَةِ أَكْبَرِ كَائِنٍ في الْكَوْنِ كُلِّه.

الشَّهِيدُ: الحاضِرُ الْمُشَاهِدُ الْمُرَاقِبُ دَوَاماً لِمَا هُوَ شَهِيدٌ عَلَيْه. لفظ «شَهِيد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «شاهد» وهو بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ يُحْمَلُ عَلَىٰ غَايَةِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «شَهِيد» وكذلِكَ كُلُّ أسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيم رَسُولِهِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ قَوْمه:

● ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾:

الْقَذْف: رَمْيُ الشيءِ بِقُوَّةٍ.

وَجَاءَ في سُورَةِ (الْأَنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَرْهِيب المعانِدِينَ مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْرِضِ الحديثِ عَنْ إهْلَاكِ الَّذِينَ كَذَّبوا رُسُل رَبِّهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، مَع مَزِيد إيضَاحٍ لِلآيَتَيْن (٤٨) و(٤٩) من سورة (سبأ/ ٥٨ نزول):

● ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

الحقُّ قُوَّةٌ صَامِدَة، إذَا قُذِفَتْ عَلَىٰ رَأسِ الباطِلِ أَخْرَجَتْ دِمَاغَهُ فقَتَلَتْه، هٰذِه اسْتِعَارَةٌ أَسَاسُها تَشْبِيهُ الحقّ بقَذِيفَةٍ تَصْرَعُ الباطل.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: أي: فإِذَا هُوَ زَائِلٌ لَا حَرَكَةَ لَهُ.

الْحَقُّ: هُوَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ.

والْبَاطِل: هُوَ مَا عَلَيْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ممَّا هُو مُنَاقِضٌ أو مضادٌّ لِلْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على رسُوله.

إنَّ الْحَقُّ الرَّبَّانِيُّ مُؤَيَّدٌ بالْبَرَاهِينِ القَاطِعَةِ، والحجج السَّاطِعَة. والْباطلُ الَّذي يَتَّبِعُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْهَامٌ وَأكاذِيبُ وَمُفْتَرَيَاتٌ لَيْسَ لَهَا قِيمَةٌ مَا فِي مَقَايِيس وَمَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَة.

فإذَا قَذَفَ اللهُ بالْحَقِّ وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ كُلِّها، عَلَىٰ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا قِيمَة لَهُ وَلَا وَاقِيَ لَهُ يَقِيهِ مِنْ صَدمَاتِ الْحَقِّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْسِرَ رَأْسَهُ، وَيُخْرِجَ دِمَاغَهُ وَيُزِيلَهُ، وَيُزِيلَ الْهَيْكَلَ الْهَشَّ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ.

إِنَّ الْحَقَّ يُبْدِئُ فِي الْوُجُودِ خَيْراً عَظِيماً، وفَضَائِلَ جَسِيمَةً، وأُمَّةً مُؤَيَّدَةً بِنَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ هُوَ الْحَق. وَإِذَا تَركَتِ الأُمَّة الْحَقَّ فانْهَارَتْ بِتَرْكِهِ، فإنَّ الْحَقَّ قَادِرٌ عَلَىٰ إعَادَتِهَا بِقضاء الله وقَدَره. إذا عادتِ فاسْتَمْسَكَتْ بِهِ.

وَإنَّ الباطِلَ لَا يُبْدِئ فِي الْوُجُودِ خَيْراً، ولَا فَضائلَ، ولَا أُمَّةً مُؤَيَّدَةً بِنَصْرِ اللهِ، وَإِذَا تَدَاعَتْ دُمْيَةُ الْأُمَّةِ المبْنِيَّةِ عَلَىٰ الْبَاطل، فإنَّ الْبَاطِلَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِيدَ تِلْكَ الْأُمَّةَ الَّتِي جرَّبَتْهُ فَلَمْ تُفْلِحْ، بَلْ كَانَ ضَعْفُهُ سَبَبَ سُقُوطِها.

• ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ..﴾ وَسَيَنْتَصِرُ، وَسَيَزْهَقُ الْبَاطِلُ، وهـٰذا الحقُّ الرَّبَّانِي قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَصْنَعَ أُمَّةً هِيَ خَيْرُ الْأُمَم، وَإِذَا تَركَتْهُ فانْهارت بِسَبَبِ تَرْكِه، فإنَّهَا إذَا عَادَتْ فَاسْتَمْسَكَتْ به، فَهُوَ بِقضاءِ اللهِ وَقَدَرِه سَيُعِيدُها إلَىٰ مَجْدِهَا وَقُوَّتِها، وَيَجْعَلُها فِي النَّاسِ خَيْرَ الأُمَم.

﴿..وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾: أي: وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ أُمَّةً تَكُونُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، وَإِذَا انْهَارَ كَيَانُ الأُمَّةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، لَمْ يَسْتَطِعْ هـٰذَا الْبَاطِلُ أَنْ يُعِيدَها إلَىٰ مِثْلِ كِيَانِها السَّابق.

وقَدْ دَلَّتْ علَىٰ هـٰذا أيضاً شَوَاهِدُ تَارِيخ الأُمَمِ والشُّعُوب والدُّول.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ، مَا يُجِيبُ بِهِ الَّذِينَ يَتَّهِمُونَهُ مِنْ قومِهِ بِالضَّلَالِ والْخُرُوجِ عَنْ صِرَاطِ الْهُدَىٰ في دَعْوَتِهِ:

• ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾:

دَلَّ مَا جَاءَ في هٰذا التَّعْلِيم عَلَىٰ أَنَّ فَرِيقاً مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، صَارُوا يَصِفُونَهُ بالرَّجُلِ الضَّالِّ، وسِيلَةً إعْلَامِيَّةً لِصَدِّ النَّاس عَنْهُ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ الَّذِينَ يَسْتجيبونَ لِدَعْوَتِهِ يَتَكَاثَرُون.

هٰذا التَّعْلِيمُ مُشْبَعٌ بالرِّفْقِ والنَّزَاهَةِ والْحِكْمَةِ فِي الرَّدِّ، فَلَيْسَ فِيهِ رَدُّ الشَّتيمَةِ بِمِثْلِهَا وَلَا بِأَدْنَىٰ مِنْهَا، بَلْ فِيهِ تَرْدِيدُ الْأَمْرِ بَيْنَ احْتِمَالَيْن، والإجابَةُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنَ الاحْتِمَالَيْنِ، وفِيهِ أَخِيراً إلْمَاحٌ إلَىٰ عِقَابِ اللهِ السَّمِيعِ الْقَرِيبِ، الَّذي مِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُعَاقِبَ مُسْتَحِقِّي الْعِقَابِ، الَّذِينَ يَشْتُمُونَ رَسُولَ ربّهم بأَنَّهُ ضَالٌّ، لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْهُ وعَنْ دَعْوَتِهِ إلىٰ سَبيلِ رَبِّهِ.

• ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ ..﴾: أي: إنْ كُنْتُ ضَلَلْتُ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والرَّشَادِ، وابْتَعَدْتُ عَنِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وأُتَابعُ مَسِيرَتي ضَالّاً، فإنِّي لَا أَضِلُّ إلَّا جَانِياً عَلَىٰ نَفْسِي، إذْ أُعَرِّضُهَا لِلْعِقَابِ مِنْ رَبِّي الْحَكَمِ الْعَدْل، فكُلُّ مَنْ ضَلَّ مُرِيداً مُخْتَاراً عَالِماً بِمَا اخْتَارَ مِنْ ضَلَالٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحِقَّ عِقَابَ ضَلَالِهِ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، ولَنْ يتْرُكَنِي أَنْتَصِرُ، بَلْ سَيأْخُذَنِي بِعَدْلِهِ.

وفي هٰذا تَعْرِيضٌ للّذِينَ افْتَرَوْا عَلَيْهِ واتَّهَمُوه بالضَّلَالِ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ علىٰ هدىً مِنْ رَبِّه، وإشَارَةٌ ضِمْنِيَّةٌ بِأَنَّهُمْ يُعَرّضُونَ نُفُوسَهُمْ لِعِقَابِ اللهِ الشَّدِيدِ يوم الدِّين، وخذلَانٍ عَاجلٍ فِي الدُّنيا.

• ﴿.. وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ ..﴾: أي: وإنْ كُنْتُ اهْتَدَيْتُ وَأُتَابعُ مَسِيرَتِي مَهْدِيّاً وَهَادِياً، فَلَيْسَ هٰذا مِنِّي، بَلْ بِسَبَبِ مَا يُوحِي إلَيَّ رَبِّي، مِنْ بَيانَاتٍ يُنَزِّلُ عَلَيَّ آيَاتِها، وَهِيَ مَا أُبَلِّغُهُ للنَّاسِ عَنْهُ، فَتَدَبَّرُوها إِنْ شِئْتُمْ وقَارِنُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِي وَمَا أَدْعُو إلَيْهِ.

• ﴿.. إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾: أي: إنَّ رَبِّي سَمِيعٌ لِأَقْوَالِكُم

وسَمِيعٌ لِرَدّي، قَريب بِصِفَاتِهِ مِنْ كُلِّ عِبَادِهِ، وهُوَ يُنَفِّذُ مَا يَبُتُّهُ بِحِكْمَتِهِ بِأَقْصَرِ زَمَنٍ إِنْ شاء.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ العَاشِرِ مِنْ دُرُوسِ سُوْرَةِ (سبأ).

وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٤)
التَّدبرُ التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٥١ ـ ٥٤) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٢) ● قرأ أبو عَمْرو، وشُعْبَة، وحَمْزَة، والكِسَائي، وَخلف: [**التّناؤش**] بالْهَمْزَة المضمومَةِ بَعْدَ الْألِفِ وقَبْلَ الشِّين.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: ﴿**التَّنَاوُشُ**﴾ بالواو بَعْدَ الألف وقبل الشين.

ويَقِفُ حمزة بالتَّسْهِيلِ مَعَ المدّ والقصر.

(٥٤) ● قرأ ابْنُ عَامر، والْكِسَائي، ورُوَيْس: بإشْمَامِ ضَمِّ الحَاء مِنْ: [**وَحيلَ**] الكَسْر، إذْ أَصْلُ الْفِعْل «حُولَ».

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ العشَرَة: ﴿**وَحِيلَ**﴾ بالكَسْرَةِ الْخَالِصَة، اعْتِبَاراً بأنَّ الْوَاوَ انْقَلَبَتْ يَاءً بالتَّصْرِيفِ.

تمهيد:

فِي آياتِ هذا الدَّرس بَيَانُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إذْ

يَقُومُونَ مِنْ أجْدَاثِهِمْ فَزِعِينَ مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم، عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ مَا أَسلَفُوا في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَجرَائم.

ويَجدُونَ أَنَّهُمْ يُؤْخَذُونَ مِنْ أَمْكِنَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُمْ، تَأْخُذُهُمْ المَلاَئِكَةُ المُحِيطَةُ بِهِمْ، إِلَىٰ حَيْثُ تُقَامُ لَهُمْ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةُ، ويُحَاوِلُونَ أَنْ يَتَخلَّصُوا بإِعْلَانِ إيمانِهِمْ، لَكِنَّهُمْ عاجِزُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ شيءٍ يُحَقِّقُ لَهُمْ نَجاتَهُمْ، ويَكُونُ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إِبلٍ ظِمَاءٍ تَمُدُّ أَعْنَاقَهَا إِلَىٰ مَاءٍ يَبْعُدُ عَنْها مَدَّ بَصَرِها.

ويُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، ثُمَّ يَلْقُونَ عَذَابَهُمْ الَّذِي يَقْضِي عَلَيْهِمْ بِهِ رَبُّهُمْ، عَلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ، إِذْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

التدبُّر التَّحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ الْكافِرين حِين يُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، وَيَرَوْنَ نُفُوسَهُمْ مُحَاطِينَ بِمَلَائِكَةِ السَّوْقِ والْجَمْعِ، ويَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَهْرباً يُفْلِتُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِهِمْ، عَلَىٰ ما سَلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَجَرَائمهم فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحياةِ الدُّنيا:

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

• ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾: أي: حِينَ خَافُوا خَوْفاً شَدِيداً، مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم، بَعْدَ بَعْثِهِمْ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ، لِيُلَاقُوا أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين.

الْفَزَعُ: الْخَوْفُ والذُّعْرُ الشديد مِنْ مُخِيفٍ مُفَاجِيءٍ يُقَالُ لُغَةً: «فَزِعَ فُلَانٌ، يَفْزَعُ، فَزَعاً» فَهُوَ«فَزِعٌ» وَهٰذا الْفَزَعُ الشَّدِيدُ تَظْهَرُ لَهُ آثار نُفُورٍ واضْطِرَاب ومُحَاوَلَةُ هَرَبٍ.

وَوَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في الآية (١٠٣) من سورة (الأنبياء/ ٢١مصحف/ ٧٣نزول) فَزَعَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ الْفَزَعُ الأكبر، أمَّا المؤمِنُون المتَّقُون فَلَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ.

• ﴿فَلَا فَوْتَ﴾: أيْ: فَلَا تَفَلُّتَ ولَا خَلَاصَ وَلَا مَهْرَبَ مَنْ قَبْضَةِ الْأَخْذِ إِلَىٰ حِسَابِهِمْ فَعَذابهم، والمعنَىٰ: فَلا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَىٰ الْفَوْتِ.

الْفَوْتُ: يأتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ سَبْقِ الْفَارِّ الَّذِي يَفُوتُ مُلَاحِقَهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ الْقَبْضَ عَلَيْهِ، فالْكَافِرُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لَا يَجِدُونَ قُدْرَةً عَلَىٰ التَّفَلُّتِ، والْهَرَبِ، والسَّبْقِ، والْفَوْت، إِذْ هُمْ مُحَاطُونَ بالْقَبْضِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيُؤْخَذُونَ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ جِدّاً مِنْهُمْ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمأْمُورِينَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِمْ مُلَاصِقُونَ لَهُمْ، ولَدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي أَجْسَامِهِمْ، إِذَ هُمْ، مَخْلُوقُونَ مِنْ نُورٍ، فَأَجْسَادُهُمْ لَطِيفَة تَنْفذُ فِي الْأَجْسَادِ الْبَشَرِيَّة.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بالْفِعْل الماضِي، اسْتِقْطاعاً مِنَ الْحدَثِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، كأنَّهُ يَحْدُثُ عِنْدَ التكلُّم، وهٰذا مِنَ الابْدَاعَاتِ الرائِعَة الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا القرآنُ المجيد.

فالمعنىٰ: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّها الرائي أيّاً كُنْتَ إِذْ فَزِعَ الَّذين كَفَروا بَعْدَ الْبَعْثِ خَوْفاً مِمَّا سَيُلاقُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وإذْ أَخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ جدّاً مِنْهُمْ، وَسِيقُوا سَوْقاً مُذِلاً مُهيناً، إلى مَكَانِ حِسَابِهم، فَمَكَانِ عَذَابِهِمْ، لَرَأَيْتَ أَحْدَاثاً هَائِلَةً مُرْعِبَةً تَخْلَعُ الْقُلُوبَ مِنْ مَوَاضِعِهَا.

حُذِفَ جوابُ «لَوْ» لإمْكَانِ إدْرَاكِهِ مِنَ الْقَرائِنِ.

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجَلّ مُبَيِّناً تَوابعَ تَتَعَلَّقُ بالمشْهَدِ:

• ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾:

• ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ جاءَ فِي السَّوابِقِ مِنَ السُّورَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ النَّارِ، وأَنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بآيَاتِ اللهِ الْبيِّنَات، وَيَقُولُونَ عَنِ الْقُرْآن هُو إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ، وسِحْرٌ مُبِينٌ، وأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْحَق لَمّا جاءَهُمْ، وأَنَّهُمْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ ووصَفُوه بأَنَّهُ ضَالٌّ عَنْ سَبيلِ الهُدَىٰ، والجامِعُ لِكُلِّ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بالْحَقِّ لمّا جاءَهُمْ، فأجْمَعُ مَا يُعادُ عَلَيْهِ الضّميرُ فِي قَوْلِهِمْ يَوْمَ القيامَة: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هُو الْحَقُّ الَّذِي جاءَهُمْ، الشَّامِلُ لِلْقُرْآن، ولِلرَّسُولِ، ولِأَنْباءِ يَوْم الدِّينِ، ولِكُلِّ مَا جاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَلَّغَهُمْ إِيَّاه.

إِنَّ إِعْلَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِيْمَانَهُمْ بالْحَقِّ الَّذِي كَان قَدْ جاءَهُم عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئاً، لِأَنَّهُ إِيمانٌ عَنْ شُهُودٍ، وَكَانَ المطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْب، إلَّا أَنَّهُمْ رُبَّما تَوَهَّمُوا أَنَّ هَـٰذا الإيمانَ قَدْ يَنْفَعُهُمْ بِتَخْفِيفِ شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَنْهُمْ، ولَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُم هـٰذَا الإيمانُ يَوْم الدِّين شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ، فَقَد انْتَهَتْ بِمَوْتِهِمْ مُدَّة الابْتِلَاءِ، وَجاءَ يَوْمُ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

• ﴿..وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾؟!:

«أَنَّىٰ» اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَىٰ «كَيْفَ» هُنَا، وَالْمُرَادُ بهـٰذا الاسْتِفَهَام النَّفْيُ، أي: لَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَحْقِيقُ أَقَلِّ مِقْدارٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ مِنْ نَجاةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ و[**التَّنَاؤُشُ**] في القراءة الْأُخْرَىٰ. هو تَناوُلُ الْمَطْلُوبِ مِنْ بُعْدٍ. وَأَكْثَرُ مَا وَرَدَ هَـٰذا اللَّفْظُ في مُحَاوَلَةِ الإبِلِ الشُّرْبَ مِنَ الْحَوْضِ الَّذِي يَبْعُدُ مَاؤُهُ عَنْ مَدِّ أَعْنَاقِهَا، حَتَّىٰ تَصِلَ إلَىٰ الْماءِ أَوَائِلُ مَشَافِرِهَا فَتَمْتَصُّ الْمَاءَ شَيْئاً فَشَيْئاً بِكُلْفَةٍ وَمُجَاهَدَة.

قالَ غَيْلَانُ بْنُ حُرَيْثٍ يَصِفُ نَاقَتَهُ:

فَهْيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِنْ عَلَا ... نَوْشاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازَ الْفَلَا

أي: تَمْتَصُّ مَاءَ الْحَوْضِ مِنْ عُلْوٍ، بأوائِلِ مَشَافِرِهَا حَتَّىٰ تَجْمَعَ فِي بَطْنِهَا مَا تَقْطَعُ بِهِ أَوْسَاطَ الْفَلا الَّتِي لَا مَاءَ فيها.

فقد تكونُ العِبَارَةُ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، بِتَمْثِيل حَرَكَةِ الْكَافِرِين يَوْمَ الدِّينَ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَطْلُوبِهِمْ، وهُوَ الْخَلاصُ مِنْ الْعَذَاب الَّذِي قَضَىٰ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، بِنُوقٍ تَمُدُّ أَعْنَاقَهَا لِلْوُصُول إِلَىٰ مَاءِ حَوْضٍ بَعِيدٍ جدّاً عَنْهَا، وَهِيَ شَدِيدَةُ الظَّماً، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَنَاوَشَ (أي: تَتَنَاوَلَ) من الماءِ شَيْئاً.

فالمعنى: هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَنَاوُلُ شيءٍ مِنْ مَطْلُوبِهِمْ، وهُمْ يَمُدُّونَ أعْنَاقَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ جدّاً، فَقَدْ قَضَىٰ اللهُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَنَالَ عَذَابَهُ خَالِداً مُخَلَّداً فِي نَارِ جَهَنَّمَ، جَزَاءَ سَابِقِ كُفْرِه وجَرَائِمه، فِي حَيَاةِ ابتِلَائه.

كيْفَ يَكُونُ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ تَحْقِيقُ شَيْءٍ مِنَ النَّجَاةِ الَّتِي يُرِيدُون تَنَاوُشَهَا: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ وهُوَ الَّذِي أعْلَنُوا إيمَانَهُمْ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ، بَعْدَ أَنْ فَاتَ الْأَوَانُ، وتَحَقَّقَ الْخُسْرَان، وَكَانُوا فِي الْحَيَاةِ ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ رَجْماً ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، فَيَدَّعُونَ دَعَاوَىٰ كَاذِبَاتٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْها. ويُثْبِتُونَ آلِهَةً بَاطِلَةً، وَيَنْسبُونَ إِلَيْهَا صِفَاتٍ وأفْعَالاً غَيْبِيَّةً، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِغَيْرِها نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، ورُبَّما تكُونُ أَسْمَاءً وَهْمِيَّةً هُمْ اصْطَنَعُوهَا لَيْسَ لَهَا وُجودٌ إِلَّا فِي أَوْهَامِهِمْ، وَرَجْمُهُمْ أقوالاً وَأَكَاذِيبَ تَتَعَلَّقُ بالْغَيْبِ عَنْهُمْ، هُوَ رَجْمٌ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ جدّاً عَنِ الْغَيْبِ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أمُورٍ هِيَ فِيه، وَلَيْسَ باسْتِطاعَتِهِمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ أيِّ مَوْقِعٍ مِنْه.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِتَاماً لِهٰذا الدَّرْسِ وخِتَاماً للسُّورَةِ بِشَأْنِ المعالجين فيها:

● ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾:

● ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ..﴾: أي: وأقِيمَ حَائِلٌ حَاجِزٌ بَيْنَهُمْ وَبيْنَ مَا يَشْتَهُون يَمْنَعُهُمْ مَنْعاً كامِلاً مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

● أَمَّا مَا يَشْتَهُونَهُ فَهو أُمورٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْها:

(١) أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم.

(٢) أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ وَيأْذَنَ لَهُمْ بِدُخُول الجنّة.

(٣) أنْ يَأْذنَ اللهُ لَهُمْ باسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

(٤) أن يَقْبلَ اللهُ شَفَاعَةَ الشُّفَعاءِ فِيهم.

● وَأَمَّا الحائِلُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، فَهُوَ حَائِلُ جَهَنَّمَ الَّتِي كُبْكِبُوا فِيها، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ وَيْلاتُهَا.

● ﴿.. كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ..﴾:

أشْيَاع: جَمْعُ «شِيَع» وَهذا جَمْعُ «شِيعَةٍ» فَأَشْيَاع جَمْعُ جَمْع. ويُطْلَقُ لفظ «الْأَشْيَاع» علَىٰ الأَشْباهِ والأمْثَال.

أي: وَأُدْخِلُوا في دَارِ الْعَذَابِ، كَمَا أُدْخِلَ أَشْبَاهُهُمْ وَأمْثَالُهُمْ فِيها مِنْ قَبْلِهِمْ، فَوْجاً فَفَوْجاً بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ الله، وبِحَسَبِ إصْدارِ أحْكَامِهِ عَلَيْهِمْ.

● ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾:

شَكُّهُمْ هُنَا: هُو مَا كانَ فِي خَواطِرِهِم مِن احْتِمَالٍ مَهْمَا كانَ ضَعِيفاً، يَطْمَعُونَ بِهِ أَنْ يَتَجاوَزَ اللهُ عَنْ تَعْذِيبِهِمْ.

مُرِيب: أي: موقع لَهُمْ فِي رَيْبٍ، أي: في شَكّ، وَوَصْفُ شَكِّهِمْ بأنَّه مُرِيب، يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ شَكَّهُمْ فِي احْتِمَالِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْعَذَاب، جَرَّهُمْ إلَىٰ شَكٍّ آخَرَ، وهُوَ أَنَّهُمْ إذَا دَخَلُوا دارَ عَذَابِهم، وعُذِّبُوا فِيها مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، فَمِنَ المطْموعِ بِهِ أَنْ يُخْرِجَهُمُ اللهُ مِنْها، اسْتِجَابَةً لِطَلَبٍ مِنْ طَلِبَاتِهِمْ، مِمَّا يَشْتَهُونَ تَحْقِيقَهُ، فَمِنْ طَبيعَةِ الشَّكِّ فِي

شيْءٍ مَا، أَنْ يُولِّدَ أَوْ يَجُرَّ إِلَىٰ شُكُوكٍ أُخْرَىٰ وَرَاءَهُ، عَلَىٰ احْتِمَالِ عَدَمِ تَحَقُّقِهِ، فَهُو شَكٌّ مُرِيب.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبّر الدَّرس الحادي عشر من دُروس سورة (سبأ) وَهُو الدَّرْسُ الْأَخير مِنْ دُروس السورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوفيقه، وفَتْحِه.

(١٥)
ملحق: مُستَخْرجَات بلاغِيَّة من سورة (سبأ)

توجَدُ في سورة (سبأ) اختيارات بلاغيَّة عَدِيدَة، اسْتَخْرَجْتُ مِنْها طائِفَةً لهذا الملْحَق، وتَرَكْتُ طَائِفَةً يَسْتَخْرِجُها مَنْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِعُلُومِ الْبَلاغَة وَفُنُونِها.

أولاً:

ذكَر عُلَمَاءُ الْبَدِيعِ مِنْ أنواع المحَسِّنَاتِ الْجَمَالِيَّةِ البديعة «الطِّبَاق»: وهُوَ الجمع في العبارة الواحِدَةِ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ على سبيل الحقيقة، أو على سبيلِ المجاز ولَوْ إيهاماً. كالتقابُلِ بَيْنَ النَّقِيضَيْن، وبَيْنَ الضِّدَّين، وَبَيْنَ المتضايفَيْن.

وَذَكَرُوا أَنَّ مِنَ الطِّباقِ نَوْعاً سَمَّوْهُ «المقَابَلَة» وهي طِبَاقٌ مُتَعَدِّدُ عَناصِرِ الْفَرِيقَيْنِ المتقابِلَيْن، وفيها يُؤْتَىٰ بِمَعْنَيَيْن فَأَكْثَر، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِمَا يُقَابِلُ ذَٰلِكَ عَلَىٰ التَّرْتِيب.

ومِنَ أمْثِلَة الطِّبَاقِ في السُّورة قول اللهِ عزَّ وجَلَّ في بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِهِ تبارَكَ وتَعَالَىٰ: .

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾:

في هذه الآية ثَلاثة أمْثِلَةٍ للطباق.

الأول: مَا بَيْنَ: «يَلِجُ» و«يَخْرُجُ».

الثاني: مَا بَيْنَ: «يَنْزِل» و«يَعْرُج».

الثالث: مَا بَيْنَ: «الأرض» و«السَّماء».

والعنصر الجماليُّ في الطّبَاقِ هُوَ مَا فِيهِ مِنْ تَلَاؤُم بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَداعِي الأفْكارِ في الأذهان، باعتبار أَنَّ المتقابِلَاتِ أقْرَبُ تَخَاطُراً إلَىٰ الأذهان مِنَ المتشابِهَاتِ والمتخالفات.

ثانياً:

من أَمْثِلَةِ الإيجاز بالحذف في السورة قول اللهِ عزَّ وجَلَّ في وصْفِ عِلْمِهِ تَعالَىٰ:

﴿...عَلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾:

الاستثناء في: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَحْذوفٍ يُمْكِنُ فَهْمُهُ مِنَ السِّبَاق، أي: وَلَا مَعْلُومٌ لِلَّهِ في السَّمَاواتِ والْأَرْضِ إلَّا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ هُو اللَّوْحُ الْمَحْفُوظ.

ولهذا المثال نظائِرُ في القرآن المجيد.

ثالثاً:

ذكَرَ عُلَمَاءُ البيان «الاسْتِعَارَة» وهي استعمالُ لفظ مَا في غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحٍ به التَّخاطُب، لِعَلَاقَةِ الْمُشَابَهةِ مَع قَرِينَةٍ صَارِفَةٍ عَنْ إرَادَة المعنى الموضوع لَهُ في اصْطِلَاحٍ بِهِ التَّخاطب.

وأرَىٰ أنَّ مِنَ الاستعارة في السُّورة مَا جاء في قول اللهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ الكافِرِينَ يَوْمَ القيامة، وأمَلِهِمْ بالنَّجاةِ أَوْ تَحْقِيق مَا يَشْتَهُون:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢﴾:

أَكْثَرُ مَا وَرَدَ لفظ التَّنَاوُشِ في مُحَاوَلَةِ الإِبِلِ الشُّرْبَ مِنَ الْحَوْضِ الَّذي يَبْعُدُ مَاؤُهُ عَنْ مَدّ أَعْنَاقِها، حتىٰ تَصِلَ إِلَىٰ الْمَاءِ أَوَائِلُ مَشَافِرِها، فتَمْتَصّ الماءَ شَيْئاً فَشَيْئاً بِكُلْفَةٍ وَمُجاهَدَةٍ.

فَقَدْ تَكُونُ هذه العِبارَة قَدِ اسْتُعْمِلَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، بِتَمْثِيلِ حَرَكَةِ الكَافِرِين يَوْمَ الدِّينِ، لِلْوُصُولِ إلى مَطْلُوبِهِمْ، وهُوَ الْخلاصُ مِنَ الْعَذابِ الّذي قَضَىٰ بِهِ اللهُ عَلَيْهم، بِنُوقٍ تَمُدُّ أعْنَاقَها لِلْوُصُولِ إلى مَاءِ حَوْضٍ بَعِيْدٍ عَنْها بُعْداً شَاسعاً، وهِيَ شَدِيدَةُ الظمأ.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هـٰذِهِ الاسْتِعَارَةِ مِنْ تَصْوِيرٍ رائعٍ لِحَالَةِ نُفُوسِهِم الْمُشْرَئبَّةِ لتَحْقِيقِ مَطْلُوبٍ قَضَىٰ اللهُ بأنْ يَحْرِمَهُمْ مِنْهُ.

رابعاً:

من الفنون البلاغيَّةِ الاستقطاع، وهو اسْتقطاع النصوص مِنْ أزمانها الماضية، أو المستقبلة، وعرضها بألْفَاظِها، دون الإشارَةِ إلى أنَّهُ كانَ كَذا فِيما مَضَىٰ، أو سَيَكُونَ كذَا فيما سَيَأْتي.

ومِنْ أمْثِلَةِ هذا الاستقطاع في السورة ما يلي.

المثال الأول: قول اللهِ عزّ وجل بشأن دَاوُد عَلَيْه السَّلام:

﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠﴾.

عبارة: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ مِن الاسْتِقْطَاع من الماضي.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ عَمَلِ الجِنِّ لِسُلَيْمانَ:

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾.

عبارة: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ مِنَ الاستقطاعِ مِنَ الماضِي.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قِصَّةِ سَبأ:

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾.

عبارة: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ من الاستقطاع من الماضي.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ التَّخَاصُم الّذي سَوْفَ يَكُون بَيْنَ الأتباع والمتبوعين يَوْمَ القِيامَةِ في مَوْقف الحساب:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ... ٣٣﴾.

هذا البيان من الاستقطاع الّذي سوف يَحْدُثُ في المستقبل.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْن المشركين الّذِين يَعْبُدونَ الجنّ زاعِمِينَ أنَّهُمْ مَلائِكة:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾.

ما جاء في الآية (٤١) من الاستقطاع الّذِي سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْم الحساب وفَصْلِ القضاء.

خامساً:

من دواعي اختيار اسم الإشارة الموضوع للمشار إِلَيْهِ الْبعيد، مَع أنَّ المشار إِلَيْهِ في البيان قَرِيبٌ، تَكْرِيمُهُ وبيان ارْتِفاعِ مَنْزِلَتِهِ وَعُلُوِّ شأنِه، أو

إهَانَتُهُ بِبَيَانِ انْحِطَاطِ مَنْزِلَتِهِ وبُعْدِها في اتِّجاهِ الدَّرْكِ الأَسْفل.

ومن الأمْثِلَةِ الدَّالَّةِ على التكريم ما يلي:

(١) قَوْلُ الله تَعَالَىٰ بشأن الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

ومن الأمْثلَة الدَّالَّةِ علَىٰ الإهَانَةِ مَا يلي:

قول الله تعالى:

(١) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

أي: أولئكَ الْبُعَداءُ في اتجاه الدَّرْكِ الأسْفل.

(٢) وقولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أولئِكَ البعداءُ في اتجاه الدَّرْكِ الأسْفَلِ.

سادساً:

ممَّا اعْتَنَىٰ بتَفصيلهِ البلاغيّونَ «الْقَصْر» وهو تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيه.

وأعْرِضُ هُنَا الأَمْثِلَة دُونَ شَرْحٍ وَدُونَ تَحْلِيلٍ، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ في المستخرجاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنَ السُّوَرِ السَّابِقَةِ أمْثِلَةٌ كَثِيرَة مُشَابهة:

(١) ﴿. . . وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ . . ﴿٢﴾﴾.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

(٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ... ﴿٢٣﴾﴾.

(٤) ﴿... وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ .. ﴿٢٣﴾﴾.

(٥) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ... ﴿٢٨﴾﴾.

(٦) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

(٧) ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ ... ﴿٤٦﴾﴾.

(٨) ﴿... إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ ... ﴿٤٧﴾﴾.

(٩) ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ ... ﴿٥٠﴾﴾.

وأكْتَفِي بهذه المستخرجات لهٰذا الملْحَق.

والْحَمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقه، وفَتْحه.

سورة الزّمر

٣٩ مصحف ٥٩ نزول

وهي سورة مكية كُلُّها

على الأرجح

وقيل: إلّا الآيات ٥٢ و٥٣ و٥٤

(١)

نصّ السورة مع فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى

٦ ـ • قرأ حمزة: [فِي بُطُونِ إِمِّهَاتِكِمْ] بِكَسْرِ الهمزة وكَسْرِ الميم المشَدَّدَة في الوصل.
وقرأ الكسائي: [فِي بُطُونِ إِمَّهَاتِكُمْ] بِكَسْر الْهَمْزَة وفَتْح المِيم المشدّدة في الوصل.
وقَرَأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بضَمّ الهمزةِ وفتح الميم المشَدَّدة.
وأجْمَعُوا على ضَمّ الهمزة وفتح الميم المشدَّدَةِ عند البدء.
وهي وجوه من النطق العربيّ.

ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم

---

٧ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ بِضمّ الهاء مِنْ غير صِلَة.

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكوان، والكِسَائي، وابْنُ وَرْدان وَخَلَفٌ: بِضَمٍّ الهاء مع الصِّلَة.

وقرأها السُّوسي، وابْنُ جمّاز: بإسكان الهاء: [يَرْضَهْ لَكُمْ].

ولِدُورِي أبي عمرو وجهان: الإسكان، والضّمّ مع الصِّلَةِ.

ولهشام الضَّمُّ مِنْ غَيْرِ صِلَة.

٨ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ورُوَيس: [لِيَضِلّ] بفتح الياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء من فعل «أضَلَّ».

٩ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وحَمْزَةُ: [أَمَنْ] بفتح الميم دُونَ تَشْدِيد.

وقرأها باقِي القراء العشرة: ﴿أَمَّنْ﴾ بفَتْحِ الميم مع التشْدِيد، أصلُهَا «أم مَنْ».

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ

١١ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿إِنِّيَ أُمِرْتُ﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٣ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

١٦ ـ • قرأ رُوَيْس: [يَا عِبَادِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يَا عِبَادِ﴾ بحذْفِ يَاءِ المتكلّم وَصلاً ووقفاً.

١٦ ـ • قرأ يعقوب: [فَاتَّقُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

١٧ ـ • قرأ يَعْقُوبُ: [فَبَشِّرْ عِبَادِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوقف فقط وقرأها باقي القراء العشرة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

٢٠ ـ • قرأ أَبُو جَعْفَرْ: [لَكِنَّ الَّذِينَ] بِتَشْدِيدِ نُون «لَكِنَّ». =

مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ

= وقرأها باقي القراء العَشرَة بإسْكان نُون «لَكِنْ» وتُكْسَرُ في الوَصْلِ للتَّخلُصِ مِن التقاء السَّاكِنَيْن.

٢٣ ـ • قرأ ابْن كثير: [هَادِي] بإثبات الياء في الوقف فقط.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿هَادٍ﴾ وصلاً ووقفاً.

شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ
فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ
وَصَدَّقَ بِهِۦٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم
مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

---

٢٩ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوب: [سَالِماً].
وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: ﴿سَلَماً﴾ وهما بمعنى «خالصاً» فمُؤَدّى القراءتَيْنِ واحد.

٣٦ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وأبو جَعفر: [عِبَادَهُ] بالجمع.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عَبْدَهُ﴾ بالإفراد.
والمؤدّى واحد، لأن النكرة المضافة إلى المعرفة تعم.
وقد يكون المراد بالإفراد الرسولُ، وبالجمع أتباعه المؤمِنُون المسلمون.

٣٨ ـ • قرأ حمزة: [أَرَادَنِي اللهُ] بإسْكان ياء المتكلم.
وقرأها باقِي القُراءِ العشرة بالفتح: ﴿أَرَادَنِيَ اللهُ﴾.

كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ

٣٨ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ] و[مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ] بتَنْوينِ الأوّل مِنْ كُلٍّ مِنَ العبارتين، ونَصْبِ الثاني علىٰ أنَّهُ مَفْعُول بِهِ.
وقرأهما بَاقي القراء العشرة بِدُونِ تَنْوين الْأَول مِنْ كُلٍّ مِنْهما، وبجرّ الثاني علىٰ أنَّهُ مُضافٌ إليه.
والقراءتان وجْهَانِ عَربيان.

٣٩ ـ • قرأ شعبة: [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع.
وقرأها باقي القراء العشر: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفْراد.
ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٤١ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِم﴾.

٤٢ ـ • قَرَأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالبناء للمعلوم: ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾.
ومؤدى القراءتين واحد.

شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟

٤٤ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

٥٣ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ بفتْح ياءِ التكلم. =

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟

= وأسْكَنَها باقي القرّاءِ العشرة.

٥٣ ـ • قرأ أبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[لَا تَقْنِطُوا]** بكَسْرِ النون.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿لَا تَقْنَطُوا﴾** بفتح النون.
وهما لغتان عَرَبيّتان.

٥٦ ـ • قرأ ابْن جمّاز، وابْنُ وَرْدَانَ بخُلْف عنه: **[يَا حَسْرَتَايَ عَلَىٰ]**.
وقرأها رُوَيس: **[يَا حَسْرَتَاهُ]** وقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ﴾**.
وهي وجُوهُ عَرَبيّة.

٦١ ـ • قرأ رَوْح: **[وَيُنْجِي اللهُ]** مِنْ فعل «أَنْجَىٰ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَيُنَجِّي اللهُ﴾** مِنْ فعل «نَجَّىٰ».
القراءتان متكافئتان، لأنَّ الهمز أخو التضعيف.

بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

٦١ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [بِمَفَازَاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بالإفراد.
ومُؤدّى القراءتين واحد، لأنّ النكرة المضافة إلى المعرفة تَعُمُّ.

٦٢ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمرو والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكانِ الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء.
وهما لغتان عَرَبيتان.

٦٤ ـ • قرأ نافع وأبو جعفر: ﴿تَأْمُرُونِيَ أَعْبُدُ﴾.
وقرأها ابْنُ كثير: [تَأْمُرُونِّيَ أَعْبُدُ] مع المدّ المشْبَع وبفتح ياء المتكلم.
وقرأها ابْنُ عَامر: [تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ] مع المدّ المشبع، وبإسكان ياء المتكلّم.

٦٩ ـ • قرأ نافع: [بِالنَّبِيئِينَ]. =

عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِٱلنَّبِيِّينَ﴾.
وهما نُطْقَانِ عَربيان.

٧٠ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [وَهْو] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء.
وهما لغتان عرَبيّتان.

٧١ و٧٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، ويَعْقُوب: ﴿فُتِحَتْ﴾ في الْمَوْضِعَيْن، بكَسْرِ التاء دون تَشْدِيد.
وقرأهُمَا باقي القرّاءِ العشرة: [فُتِّحَتْ] بكَسْرِ التّاء مَعَ التَّشْدِيد، رُوعي في التّشْدِيد الإشارة إلَىٰ زِيادَةِ إهانَة بَعْضِ أهل جَهَنَّم.
وزِيادَةِ تكْرِيم بَعْضِ أهل الْجَنَّة.

٧٢ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [فَبِيسَ] بإبدال الهمزة ياء في الوقف والوصل.
وكذلك قرأها حمزة في الوقف فَقَطْ.
وقرأها بَاقي الْقُرّاء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾.
الإبدال وعَدَمُهُ من اللّهجات العربية.

(٢)
مما ورَدَ فِي السّنّة بشأن سورة (الزُّمَر)

روى النسائي بسَنَدِه عن عائِشَةَ أم المؤمنين رضي اللهُ عنها، قالَتْ:

«كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حتَّىٰ نَقُولُ: مَا يُريد أنْ يُفْطِرَ، ويُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولُ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ ﷺ يَقْرأ في كُلِّ لَيْلَةٍ: بَنِي إسْرَائيل، والزُّمَر».

سورة «بني إسْرَائيل» هي سورة «الإسْرَاء».

(٣)
موضوع سورة (الزُّمَر)

ظهر لي أنَّ مَوْضوع هذه السّورة يَدُورُ حوْلَ ذِكْرِ مُلَخَّصَاتٍ مُوجَزَاتٍ لقَضَايَا تتعلَّقُ بالقضايا الإيمانيَّة، وبمَفْهُومَاتٍ هِيَ من الكلِّيَّاتِ الكُبْرىٰ في الدّين، سَبَقَ ذِكْرُ مُعْظَمِهَا فِي نُجُومِ التَّنْزِيل قَبْلَ سورة (الزُّمَر/ ٥٩ نزول) مَبْسُوطاً، أَوْ مُفَصَّلاً، أَوْ مَقْرُوناً بِجَدَلِيَّاتٍ لِلْمُخَالِفِينَ، بُغْيَةَ الإقْنَاعِ، أو الإلْزَامِ، أو الإفْحَام.

وتُعتَبَرُ هـٰذِهِ السُّورَةُ فيما أَرَى بِمَثَابَةِ شَجَرَةٍ بَاسِقَةٍ ذَاتِ سَاقٍ وَاحِدَةٍ مُمَتَدَّةٍ سُمُوقاً، وَقَدْ نُضِّدَتْ عَلَيْها المَلخَّصَاتُ الْمُوجَزَاتُ تَنْضِيداً حَكِيماً مُتَرَاكِباً مَعَ مَا قُرِنَ بِها مِنْ إضَافَاتٍ نَافِعَاتٍ مُكَمِّلَاتٍ.

وظَهَرَ لي أنَّ قَضَايَاها بِمَثَابَةِ «مَتْنٍ» سَبَقَ شَرْحُهُ، وأُضِيفَتْ إلَيْهِ إضَافَاتٌ تَوْضِيحِيَّةٌ وتَكمِيلِيَّة، وَقَدْ يُتْبَعُ بِشُرُوحٍ مُفَصَّلَةٍ مَعَ إضَافَاتٍ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ اللَّاحِقَةِ، ذَوَاتِ قِيَمٍ ثَمِينَةٍ فِي الْفِكْرِ الدِّيني.

وبما أَنَّها مُلَخَّصَاتٌ مُوجَزَاتٌ لِمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ في نُجُوم التَّنْزِيل، فَمِنْ غَيْرِ المسْتَحْسَنِ تَحْدِيدُ مَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ جامِعٍ لَهَا، غَيْرَ كونِهَا كُلِّيَّاتٍ عَامَّاتٍ

مِنْ أُصُولِ الدِّين، وَمَفْهومَاتٍ كُبْريَاتٍ تَتعَلَّقُ بِبَيَانِ حِكْمَةِ اللهِ في تَصارِيفه، وبِوَاقِعِ حَالِ سُلُوكِ النَّاسِ تُجاهَ مَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

(٤)
دروس سورة (الزُّمَر)

اجتَهَدْتُ فِي اكْتِشَافِ دُروسِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، فَبَدا لي أَنَّ مِنَ المقبولِ فِكْرِيّاً تَقْسِيمَها إلى (٢٣) دَرْساً، وهي كما يلي:

الدّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٤).

وفي آيات هذا الدَّرْس افتتاحٌ يَتعَلّقُ بالْقُرآن، فَأَمْرٌ للرسول ﷺ بتوحيد اللهِ في عِبادَتِه، لِإِعْلَامِ الْمُشْرِكِينَ بأنَّ الرَّسُولَ مأمُورٌ مِثْلَ سَائِرِ النَّاسِ بقَضَايَا الْقَاعِدَةِ الإيمانية، وكانَ هَـٰذَا مَدْخَلاً للْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ كُفْريّاتِ المشْرِكين.

الدرس الثاني: الآيتانِ: (٥) و(٦).

وفي هاتَيْن الآيَتَيْنِ عَرْضٌ لبَعْضِ آيات اللهِ في كونه.

الدرس الثالث: الآية (٧).

وفي آية هذا الدّرس خطابٌ من الله عزّ وجلّ للنَّاس بأنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ مَنْ يُؤْمِنُ به، وأَنَّهُ في ابْتِلَائِهِ عِبادَهُ يُقِيمُ عَدْلَهُ، إذْ لَا يَرْضَىٰ لِعِبادِه الكُفْرَ ويَرْضَىٰ لهم الإيمان الَّذِي هُو أَدْنى دَرَجاتِ الشُّكر، ويُحَاسِبُ النَّاسَ ويُجَازِيهِمْ فُرادَىٰ بحَسَبِ أَعْمالِهِمْ، وأَنَّهُم مَبْعُوثُونَ ورَاجِعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدّين لمجازاتهم على ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحانهم.

الدرس الرابع: الآية (٨).

وفيها بيانُ حالِ الإنسان الّذي عليه أَكْثَرُ النَّاسِ من إنابَتِهِمْ إِلَىٰ الله داعين ملتجئين إليه في أحوال الضُّرّ، فإذا آتاهُمْ مِنْ نِعَمِهِ كَفَرُوا وَأَشْرَكُوا.

الدرس الخامس: الآيتان (٩) و(١٠).

وفي هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيانٌ لِلْفَرْقِ الكَبِيرِ بَيْنَ الْمُحْسِنِينَ والأبرار، وبين مَنْ هم دُونَهُمْ، ودَعْوَةٌ للَّذينَ آمَنُوا بأنْ يَتَّقُوا رَبَّهم في أنواع سُلُوكهم، وأَنْ يَرْتَقُوا إلَىٰ مَرْتَبَةِ المحْسِنِينَ لِيَنَالُوا مَثُوبَةً حَسَنَةً فِي الدَّنيا، وَمِنَ الْإِحْسَانِ أَنْ يُهَاجِرُوا إلَىٰ بَلَدٍ يَجِدُونَ أَنَّ الهِجْرَة إلَيْه تُمَكِّنُهُمْ مِنْ أعْمَالٍ هِيَ أَرْضَىٰ للهِ مِمَّا يَقُومُونَ بِهِ فِي بَلَدِهِمْ، وأَنْ يَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا يُلاقُونَ مِنْ مَكَارِه، لينالُوا الْأَجْرَ العظيم.

الدرس السادس: الآيات من (١١ ـ ٢٠).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ تكْلِيفٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أن يُعْلِنَ للنَّاس أنَّهُ مأمُورٌ بأنْ يَعبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، وبأنْ يَكُونَ أوَّلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، وأنَّهُ يَخَافُ عذابَ اللهِ إِذَا هو عَصَاه، وبأنَّهُ يُطَبِّقُ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ.

ومنها أيضاً بيانُ أنَّهُ ليْسَ مُجْبراً لَهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا عبادَة مَا شَاءُوا، وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَمَّلُوا تَبِعَةَ اخْتِيارَاتِهِم إذا اخْتَارُوا الشِّرْكَ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ، عَذَاباً خَالِداً يَوْم القِيامَةِ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجْرِمِينَ.

وفيها بيانُ الْبُشْرَىٰ للمؤمنينَ، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِهِمْ في اتِّباع الْهُدَىٰ، وَمَعَ لَوَاحِقَ مُرْتَبطَةٍ بأهْلِ النَّعيمِ وأهْلِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين.

الدَّرس السابع: الآية (٢١).

وفيها عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنه، تذكيراً بصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ مَا في الكون، المسْتَلْزِمَةِ عَقْلاً لِوَحْدَانِيَّتِهِ في إلَهِيَّته.

الدرس الثامن: الآية (٢٢).

وفيها بيان الْفَرْقِ الكبيرِ بينَ المؤمن الذي شرح اللهُ صَدْرَه للتطبيقات الإسلامية، والْكَافِرِ الّذِي قَسَا قَلْبُهُ فهو في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

الدرس التاسع: الآيتان: (٢٣) و(٢٤).

وفيها بَيَانٌ عن تأثير آياتِ القرآن في قلوب المؤمنين الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَبيانٌ مُوجَزٌ عن المؤمِنِ الَّذِي يَتَّقِي بِتَوَجّهِهِ لِرَبِّه سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة، بخِلَافِ الظالمين الّذِين يَذُوقُونَ عَذَابَ مَا كانُوا يَكْسِبُون.

الدرس العاشر: الآيتان: (٢٥) و(٢٦).

وفيهما التَّذْكِيرُ بِتَعْذِيب اللهِ كُفَّارَ الْأُمَم السَّابِقَةِ، للاتِّعَاظِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

الدرس الحادي عشر: الآيتان: (٢٧) و(٢٨).

وفيهما بَيَانٌ تكمِيلِيٌّ لِمَا جَاءَ بِشَأْنِ القرآنِ في سَوابقِ التَّنْزِيل.

الدرس الثاني عشر: الآية (٢٩).

وَفيها بيانُ دَلِيلٍ إقْنَاعِيٍّ للمشْرِكين، بأنَّ التوحِيدَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَكْرَمُ لِنُفُوسهم.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

وتبدأ بخِطَاب الرَّسُول ﷺ بأَنَّهُ مَيّتٌ وَبأَنَّ كُلَّ الأَحْيَاءِ مِنْ عباد اللهِ مَيّتُون، ويَنْتَقِلُ البيان إلى خطاب النَّاسِ بِشأنِ يَوْمِ القيامَةِ، وبَيَانِ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على الله، أو كَذَّبَ بالصِّدْقِ الَّذِي جَاءَ عَنِ اللهِ علَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ الصَّادِقين، بخِلَافِ أَحْوَال الرّسُل الصَّادِقِينَ، والمؤمِنِينَ المصَدِّقِين، وثَوابِهِمْ عند رَبهم.

الدرس الرابع عشر: الآيتان (٣٦) و(٣٧).

وفيهما إشْعَارُ الْكَافِرِينَ بأَنَّ رَسُولَهُ ﷺ وَالمؤمِنينَ مَكْفِيُّون بِحِمَايَةِ اللهِ لَهُمْ، وأَنَّ الْحُكْمَ بِالضَّلَالِ والحكْمَ بالْهِدَايَةِ للهِ عزَّ وجلَّ وَحْدَه.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠).

وفيها تَعْلِيمٌ جَدَّلِيٌّ وإقْنَاعِيٌّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لِلرَّسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّته، يُوَجَّهُ للمشْرِكينَ، وهُو مُكَمِّلٌ لِمَا جَاء مِنْ تَعْلِيمٍ في سَوَابقِ التَّنْزِيل.

الدرس السادس عشر: الآية (٤١).

وفيها بيانٌ من الله عزَّ وجلَّ للنَّاسِ بِشَأْن القرآن وأنَّ اللهَ أنْزَلَهُ لَهُمْ مُتَّصِفاً بالحق، وأنَّ مَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ جَلَبَ الْخَيْرَ والسَّعَادَةَ، ومَنْ ضَلَّ فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ.

الدرس السابع عشر: الآية (٤٢).

وفِيها بيانٌ عَنِ الموتِ والنَّوْمِ وأنَّهُما يَشْتَركانِ في أنَّ كُلّاً مِنْهُمَا وَفَاةٌ.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٤٣ ـ ٤٨).

وفيها بَيَانُ تَعْلِيم إقْنَاعيّ يُوجَّهُ مِنَ الرَّسُولِ أو مِن الداعي إلى اللهِ للمشْرِكينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ لِيَكُونُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ أَحْوالِ المشرِكِينَ تُجاه ذِكْرِ اللهِ، ومَا يَنْبَغِي للدَّاعي إلى اللهِ أَنْ يقُولَه.

وفيها تَحْذِيرٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للمشركين من عاقِبَةِ شِرْكِهِمْ الَّذِي هُو سُوءُ عذَابٍ يَوْمَ القيامَة.

الدرس التاسع عشر: الآياتُ من (٤٩ ـ ٥٢).

وفيها مُتَابَعَةُ بيانٍ بِشَأْنِ الإنسانِ الجَحُود الكنود، الّذي جاء في «الدَّرْسِ الرَّابِع» وصْفُ حاله بِأَنَّهُ يَلْجَأُ إلى اللهِ دَاعِياً إذا نزل به الضُّرُّ، ثُمَّ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ، فَيُشْرِكُ بِهِ، أَوْ يَدَّعِي أَنَّ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ قَدْ كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ

مَهَارَتِهِ وَعِلْمِهِ، لَا مِنْ عَطاءَاتِ رَبِّهِ له، وهذا مِنْ كُفْرِهِ نِعْمَةَ الرَّبِّ المنعم عَلَيْه دَواماً بما لَا يُحْصِي من النِّعَم.

الدرس العشرون: الآيات من (٥٣ ـ ٦٣).

وفيها بيانُ تعليم دَعَوِي من اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، وفي هذا البيان الدَّعَوِي إطْمَاعُ بِرَحْمَةِ اللهِ وَأَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، مع بَيَانَاتٍ وَاعِظَات.

الدرس الْحَادِي والعشرون: الآيات من (٦٤ ـ ٦٦).

وفيها تعليم الرَّسُول ﷺ أَنْ يُعْلِنَ اسْتِنكَارَه دَعْوَة المشركين لَه أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ الله، على خِلَافِ مَا أَمَرَهُ اللهُ به.

الدرس الثاني والعشرون: الآية: (٦٧).

وفيها بيانُ أَنَّ الْكَافِرِينَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، مع أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ سُلطانِه.

الدرس الثالث والعشرون: الآيات من (٦٨ ـ ٧٥) آخر السورة.

وَفيها بَيَانُ لقطاتٍ مُوجَزاتٍ عَنْ أحداث يَوْمِ الدّين، بدأً مِنْ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ دُخُولِ أَهْلِ النَّارِ النارَ، ودُخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبر التحليلي للدّرس الأوّل من سورة (الزُّمر)
الآيات من (١ ـ ٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟

مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

تمهيد:

في آياتِ هَٰذَا الدَّرْس مُقَدِّمَةٌ عَنِ القرآن، فأَمْرٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بأَنْ يَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أَحداً، إذْ لَا تَكُونُ عِبَادَةٌ للهِ مَا لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لَهُ.

وفيها بَيَانُ تَعِلَّةِ بَعْضِ المشْرِكِينَ بَعْدَ أَنْ أَفْحَمَتْهُمُ الحجج الْبُرْهَانِيَّة بأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، إذْ لَجَؤُوا إِلَىٰ تَعِلَّةِ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ لِيُقَرِّبُوهم إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ.

وَجاء فيها إِنْذَارُ هؤلاء المشركين الْكَذَّابين.

وجاء فيها بَيَانُ إِحْدىٰ كُفْرِيَّاتِ المشْرِكين، وهي ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ للهِ وَلَداً، مَعَ الرَّدِّ الرَّبَّانِيِّ علَىٰ هٰذا الادّعاء الباطل.

التدبّر التحليليّ:

■ قول اللهِ تعالى:

• ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾:

• ﴿تَنزِيلُ﴾: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهُوَ مُكَافِئُ «أَنْزَلَ إِنْزَالاً» لِأَنَّ المهْمُوزَ والمضَعَّفَ في المعنَىٰ وَالدَّلَالَةِ أخوان، ولَمْ أَجِدْ فِي النُّصُوصِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْفَرْقِ بَيْنَ «التَّنْزِيل» و«الإِنْزَال» وَقَدْ جَاء فيها بالنِّسْبَةِ إلى القرآنِ المجيد فعل «نَزَّل» وفعل «أَنْزَل».

لمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الْعَلِيّ الأَعْلَىٰ كَانَ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ تَنْزِيلاً وَإِنْزَالاً، مِنْ عُلُوِّهِ إلَى مَا هُوَ دُونَهُ، وَإِلَىٰ مَنْ هُمْ دُونَهُ، وَكُلُّ أَكْوَانِهِ كَذَلِكَ سَواءٌ أكَانَتْ أحياءً أم غَيْرَ أَحْيَاء.

• ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: سمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا يُنَزِّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِن بَيَانٍ كلَامِيّ كتاباً للدَّلالَةِ علىٰ أَنَّ علىٰ الرَّسُولِ وعَلَىٰ المؤمِنينَ أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَاب مَصُونٍ، مَحْفُوظٍ مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ والتحرِيفِ. وتَابَعَ تَعْرِيفَهُ بـ (ال) الْعَهْدِيَّة، فَصَارَ يُعْرَف بلَفْظِ «الكِتَاب» وهذا اللَّفْظُ أَحَدُ الْعُنْوانَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الْبَيَانُ الْقَوْلِيُّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ قَبْلَ إكمالِ إنْزَالِهِ، وَبَعْدَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ إِذْ هُوَ في الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ مُهَيَّأٌ إِنْزَالُهُ كُلّهُ بِأُسْلُوبِ التَّنْجِيمِ والتَّفْرِيقِ، مُنْذُ بَدْءِ إِنْزَالِ «اقْرأ» حتَّىٰ آخِرِ حَرْفٍ أُنْزِلَ مِنْهُ.

لفظ «كتاب» هو في الأصْلِ مَصْدَرُ «كتَبَ» يُقالُ لُغَةً: «كتَبَ يَكْتُبُ، كَتْباً، وكِتَاباً». وقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ «المكْتُوب» من إطلاق المصْدَرِ على اسْمِ المفْعُول.

«تَنْزِيلُ» مُضَافُ و«الْكِتَابِ» مُضَاف إليه. ولفظ «تَنْزِيل» مُبْتَدأٌ خَبَرُه:

• ﴿..مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾: جاءَ تَمْجِيدُ اللهِ هُنَا بِذِكْرِ اسْمَيْنِ من أسمائِهِ الحسْنَىٰ هُمَا: «الْعَزِيز» و«الْحَكيم».

الْعَزِيز: أي: الْقَوِيُّ الغالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَلَا تُكَافِيءُ قُوَّتَهُ قوَّةٌ ما، ولَا قُدْرَتَهُ قُدرَةٌ ما.

الْحَكِيم: أي: الّذي يَضَعُ الأَشْيَاءَ في مَواضِعِها، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وأَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المختَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِج.

وهذا الاسْمُ بِالنّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ، يَدُلُّ علىٰ اتِّصَافِهِ بالْكَمَالِ الْأَقْصَىٰ لِلْحِكْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن اخْتِيَارَاتِهِ وَأَفْعَالِه وتَصارِيفِهِ كُلِّهَا.

وفي ذكرِ هـٰذينِ الاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، بَعْدَ بيانِ أنَّ تَنْزِيلَ الكِتَابِ مِنْهُ، فِيه دَلَالَةٌ عَلَىٰ أنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ يَجْزِي عِبَادَهُ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدنيا مَوْضِع الامْتِحَان، ويَبْعَثُهُمْ بَعْدَ الْمَوْت، وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِلآخِرَةِ، بِأتْقَنِ مَا تَقْضِي بِهِ حِكْمَتُه، لِدَار نعيم المسلمين، ولدار عذاب المجرمين.

هـذه الآيـة جَـاءَتْ أيـضـاً فـي أوَّلِ سُـورَتـي (الـجـاثـيـة ٦٥ نـزول) و(الأحْقَاف/٦٦ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بضمير المتكلّم العظيم:

● ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ... ۝٣﴾:

أي: إنَّا أنْزَلْنا إلَيْكَ أيُّها الرَّسُولُ محمَّدٌ الكِتَابَ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ، فَلا بَيَانَ فِيهِ إلّا هُوَ حَقٌّ.

الحق: هو الأمْرُ الثّابتُ الّذي لَا شَكَّ فيه، فالمطابِقُ للواقع هو من الحق، وضِدُّه الباطل، وَالمطابِقُ بِمَا فِيهِ نَفْعٌ وخيْرٌ هو من الحق. والمطابق لمطلوب اللهِ مِن عباده هو من الحقِّ، وعَمَلُ شَيْءٍ لِغَايَةٍ نَافِعَةٍ حَكِيمَةٍ هُوَ مِنَ الحقّ، أمّا عَمَلُ شيءٍ لِغَيْرِ غايَةٍ حَكيمةٍ فَهُو من الْعَبَث، وهو مُنَافٍ لِلْحَقّ.

● ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾:

أي: فاعْبُدْ أيُّها الرَّسُولُ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصاً لَهُ عَبادَتَكَ الَّتي هِي الدِّينُ الحقُّ، غَيْرَ مُشْرِكٍ بِعِبَادَتِهِ أحداً وَلَا شَيْئاً ما في الوجود كُلِّه، فَأنْتَ أوَّلُ المطَالَبِينَ بهذا التَّكْلِيفِ مِنْ رَبّكَ في هذه الرسالة الخاتمة.

الإِخْلَاصُ لله: جَعْلُ أَعْمَالِ الدِّينِ خَالِصَةً صَافِيَةً مَنقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاءِ ومِنْ شوائِبِهما.

يُقَالُ لُغَةً: «أَخْلَص فُلَانٌ الشَّيْءَ» أَيْ: صَفَّاهُ ونقَّاهُ مِنْ شوَائِبِهِ.

فالْمُخْلِص: هو مَنْ أخْلَصَ عَمَلَهُ وَنِيَّتَهُ مِنَ الشّوَائِب، وَجعَلَ ذَلِكَ صَافِياً لِمَنْ وَجَّهَهُ له.

الدّين: الطاعَةُ والانقياد، **والدِّينُ لله**: الطَّاعَةُ والانقياد وصِدْقُ الْعُبُودِيَّةِ لَه، مَعَ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ لِجَلَالِهِ وَلِعَظَمَتِه.

• ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ .. ﴿٣﴾﴾:

﴿أَلَا﴾: أداة اسْتِفْتاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقِيق.

أي: انْتَبِهُوا وتَحقَّقُوا أيُّهَا النَّاسِ أَنَّ الدِّينَ الْخَالِصَ مِنَ الشوائِبِ لَا يَسْتَحِقُّهُ إلَّا اللهُ وَحدهُ، ولا يَصِلُ إلَيْهِ مَا فيه شِرْك.

اللام في: ﴿لِلَّهِ﴾ مَعْنَاها الاستحقاق، وتَقْدِيم هذا الخبر عَلَىٰ المبتدأ: ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ وهو مَعْرِفَةٌ أَفَادَ التخصيص، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أغْنَىٰ الشُّركاءِ عن الشِّرْك، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ عِبَادَةٍ أشْرَكَ فِيهِ غَيْرَ اللهِ لَمْ يَقْبَلْهُ اللهُ مِنْه، وَرَدَّهُ إلَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكين الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله، وَيَجْعَلُونَ آلِهَتَهُمْ شُرَكاءَ للهِ في إلَهيَّتِهِ:

• ﴿... وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾:

• ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: أي: تَكَلَّفُوا باصْطِنَاعٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ خِلَافِ الحقّ والواقع.

• ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ بعِبادَاتٍ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

• ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾: أي: قَائِلِينَ هٰـذا القول تَعِلَّةً جَدَلِيَّةً، بَعْدَ أَنْ تَبيَّنَ لَهُم أنّ آلِهَتَهُمْ لا تَخْلُقُ شَيْئاً، ولا تَنْفَعُ وَلا تَضُرُّ، ولم يَسْتَطيعُوا أَنْ يُثْبِتُوا بِحُجَجٍ مَقْبُولَةٍ أنّ لَهَا أثراً مَا في جلْب نفع أو دفع ضُرٍّ.

• ﴿زُلْفَىٰٓ﴾: **الزّلْفَىٰ. والزُّلْفَةُ**: الْقُرْبَةُ والمنزلة. قالَ الأخفش: **الزُّلْفَىٰ**: اسْمُ مَصْدَر. فِعْلُ: «زَلَفَ إِلَيْهِ، وازْدَلَفَ إلَيه» بمعْنَىٰ دَنَا إِلَيْهِ وَقَرُبَ مِنْهُ.

أي: مَا نَعْبُدُ آلِهَتَنَا مِنَ الْأَوْثَانِ لِأَنَّ لَهمْ رُبُوبِيَّةً يَسْتَحِقُّونَ بِهَا أَنْ يُعْبدُوا، بَلْ نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ مَنْزِلَةً، لِمَا لَهُمْ عِنْدَ الله مِنْ مَنْزِلَة عَظِيمَةٍ، وشَفَاعَةٍ مَقْبُولَة، ولَمْ تَصْدُرْ عَنْهُمْ هـٰذه المقالَةُ طَوال سنين من دعوة الرّسُولِ لهم.

قالُوا هذا القولَ فِي مُرَاوَغَةٍ جَدَلِيَّةٍ، وهُمْ كاذِبُونَ، إذْ يَعْبُدُون آلِهَتَهُمْ زَاعِمِينَ أَنَّ لَهَا تَصارِيفَ رُبُوبيَّةٍ مَا في حيَوَاتِهم.

وَإِسْقَاطُ هـٰذِهِ التَّعِلَّةِ الْجَدَلِيَّةِ يَكْفِي لَهَا أَنْ يُقَالَ لهم: إِنَّ الْعِلْمَ بأنّها تُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ لَا يَكُونُ إلّا بِبيَانٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، فَهَاتُوا بُرْهَانَكُم مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيحٍ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا تَزْعُمُونَ، وَلَنْ يَسْتطيعوا أنْ يَأْتُوا بأيِّ دَلِيلٍ علَىٰ مَا يَزْعُمُون، ولهذا جَاءَ فِي آخِرِ الآيَةِ بيانُ أَنَّهُمْ كاذِبُون كَفَّارُون.

• ﴿. . إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . .﴾:

أي: إنَّ اللهَ يَقْضِي في مَحْكَمَتِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، بَيْنَ كُلِّ الَّذِينَ كَانُوا في الحياةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَنِينَ، في كُلِّ مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ممَّا يَتَعَلَّقُ بِمَا كَانُوا بِهِ مُمْتَحَنِينَ، مِنْ إيمانٍ ظَاهِرٍ يُحَسُّ، أَوْ بَاطِنٍ في قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ يَعْلَمُهُ اللهُ.

ومن الْمَعْلُومِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ سِجِلَّ حَيَاةٍ مِمَّا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّهِ،

فيَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ ثَواباً بِفَضْلِ الله، أَوْ عِقَاباً بِعَدْلِ الله، وَهٰذَا السِّجلُّ مُخْتَلِفٌ عَنْ كُلِّ سِجِلَّاتِ سَائِرِ عِبَادِ اللهِ الْمُحَاسَبِينَ فِي الْحَسَنَاتِ وفي السّيّئات.

وبما أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَرِيعُ الحساب، ويُحِيطُ بِكُلّ شيءٍ عِلْماً، فإنَّهُ تبارَكَ وتَعالَىٰ يقْضِي بالحقِّ فضْلاً أَوْ عَدْلاً، فَلَا يَظْلِمُ أَحداً مثقالَ ذَرَّةٍ ولَا أَصْغَرَ مِنْ ذَرَّة.

• ﴿. . .إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ . . ﴿٣﴾﴾:

أي: إِنَّ اللهَ قَدْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ويَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِ بَعْضِ عبادِه، فَيَجْعَلُهُمْ مَعَ مَنْ حَكَمَ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُون وكانُوا يَتّقُونَ بِمَقَادِيرَ مُخْتَلِفَة، لَكِنَّهُ لَا يَحْكُمُ وَلَا يَقْضِي بِهِدَايَةِ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ علَىٰ رَبِّهِ فِي قَضَايَا الدِّينِ، كَفَّارٌ بَلَغَ كُفْرُهُ دَرَكَةَ مَنْ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُم، وهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَمَنْ هُمْ أَحطُّ مِنَ الْمُشْرِكين في الدَّرَكاتِ، كالَّذِينَ يَجْحَدُونَ وُجُودَ الرَّبِّ الخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

كَفَّارٌ: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعِلِ «كافر».

﴿لَا يَهْدِى﴾: أي: لَا يَحكُمُ بالهِدَايَةِ وَلَا يقضي بِها، إذا كان المقضيُّ لَهُ كَاذِباً كَفَّاراً.

وقد أَبَانَ الله عَزَّ وَجَلَّ أنّ الشِّرْكَ أَوَّلُ دَرَكاتِ الكَفَّارِينَ، ويأتي بَعْدَهَا مَا هُو أَحَطُّ مِنْهَا وَأَخَسُّ، فقال تَعَالَىٰ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

■ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذينَ زَعَمُوا أَنَّ للهِ وَلَداً، وَفِي مُقدِّمَتِهِم بالنِّسْبَة إِلَى هٰذِهِ الآيَةِ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الملائكةَ أَوْ إِنَاثَ أَوْثَانِهِمْ

بَنَاتُ اللهِ، وهُمْ مِنَ المشركين، ثُمَّ يَعُمُّ النَّصُّ كُلَّ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ للهِ وَلَداً، كالنصارىٰ الَّذِينَ قَالُوا: عِيسَىٰ ابْنُ اللهِ سبحانَهُ وتَعالَىٰ عمَّا يَصِفُون:

• ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾:

كانَ بَعْضُ المشركين يَزْعمون أنَّ «اللَّاتَ، والْعُزَّىٰ، ومَنَاةَ» بَنَاتُ اللهِ، هـٰذهِ الأوثان تَمَاثيلُ لِنِسَاء، وهِيَ بالتجْرِبَةِ مَعَ الوقَائِعِ لَا تَجْلُبُ لِعَابِدِيها نَفْعاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرّاً.

ومِن بَابِ مُخَاطَبَةِ المشْرِكِينَ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَدَارِكِهم الْفِكْرِيَّةِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ هـٰذِه الْقَضِيَّة، يُبَيِّنُ اللهُ لَهُمْ سَفَاهَتَهُمْ وَضَعْفَ عُقُولِهِمْ، إِذْ يَجْعلُونَ هـٰذِه الأوثَانَ أَوْ مَنْ تَرْمُزُ إِلَيْهِن هـٰذِهِ الأَوْثَانُ، بَنَاتِ اللهِ.

لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً بالتَّبَنِّي، إِذْ وُجُودُ وَلَدٍ للهِ عَلَىٰ وَجْهِ الحقيقَةِ مُسْتَحِيلٌ عقْلاً، لَاصْطَفَىٰ لِنَفْسِهِ مِمَّا يَخْلُقُ مَخْلُوقاً عظيماً جدّاً، قَادِراً عَلَىٰ السَّيْطَرَةِ علَىٰ نُجُوم السَّمَاءِ، وعَلَىٰ خَلْقِ مَا يَشَاءُ، ولَمْ يَصْطَفِ لِنَفْسِهِ مِثْلَ هـٰذِهِ الأَوْثَانِ الحقيرَة الَّتِي لا تَمْلِكُ لِغَيْرِها ولَا لِأَنْفُسِها جَلْب نَفْعٍ أو دَفْعَ ضَرٍّ، إِنَّهُ الْوَاحِدُ في رُبُوبيَّتِهِ، الْقَهَّارُ فِي الإيجاد والإعدام.

الْقَهَّارُ: صيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعِلِ «القاهر» وهو اسْمٌ مِنْ أَسَمَاءِ اللهِ الحسنىٰ، ومعْنَاهُ الغالِبُ الَّذِي لَا يَحُدُّ غَلَبَتَهُ شيء، الْمُجْبِرُ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ إيجادَهُ أَوْ إعْدَامَهُ أَوْ أيَّ تَصرُّفٍ فيه.

أي: وَإِذْ هُو قَهَّارٌ يَفْعَلُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ مَا يُرِيدُ، فَلَا حَاجَةَ لَهُ إِلَىٰ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً يُعِينُهُ فِي أعْمَالِ رُبُوبيّتِهِ لِكَوْنِهِ.

أمّا الملائكَةُ وَسَائِرُ الْأَسْبَاب الكَوْنِيَّةِ فَهِيَ تَعْمَلُ بأمْرِهِ وَخَلْقِهِ،

وَقَدْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُجْرِيَ أَفْعَالَهُ فِي كَوْنِهِ مَسْتُورَةً بِسُتُورِ الأسْبَابِ، لحكْمَةِ ابتِلَاءِ عبادِه.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الأول من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمْدُ لله على معونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِه.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الزُّمرِ) الآيتان (٥) و(٦)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

القراءات:

(٦) • قرأ حَمْزَةُ: [**فِي بُطُونِ إِمِّهاتِكُمْ**] بِكَسْر الهمزة، وكَسْرِ الميم المشدَّدَةِ في الوصل.

وقرأها الكسائي: [**فِي بُطُونِ إِمَّهَاتِكُمْ**] بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وفَتْحِ الْمِيمِ المشَدَّدَةِ في الوصل.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: ﴿**فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ بِضَمّ الْهَمْزَةِ وفَتْحِ الميم المشَدَّدَة.

وأَجْمَعُوا عَلَىٰ ضَمِّ الْهَمْزَةِ وفتْح الميمِ المشَدَّدَةِ عِنْدَ الْبَدْءِ.

وهي وُجوهٌ مِنَ النُّطْقِ العَرَبي.

تمهيد:

في آيَتَي هذا الدَّرْسِ عَرْضٌ لِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنه، الدالَّاتِ على طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَة، مِنْها عِلْمُهُ، وقُدْرَتُهُ، وحِكْمتُهُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، وإتْقَانُهُ لِخَلْقِهِ.

وجاء في هذه الآيات ما يلي:

(١) التَّذْكِير بأَنَّهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ السَّماواتِ والْأَرْضَ بالحق.

(٢) التَّنْبِيهُ علىٰ ظَاهِرَةِ تَكْوِيرِ اللَّيْل على النَّهارِ وتَكْوِيرِ النَّهارِ علَىٰ اللّيل.

(٣) التَّذْكِير بأَنَّهُ تَبَارَكَ وتَعالَىٰ سَخَّرَ الشّمْسَ والْقَمَرَ، وأنَّ كُلًّا مِنْهُما يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمَّىٰ.

(٤) تَذْكير الله النَّاسَ بأنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَة، وأنَّهُ جَعَلَ مِنْها زَوْجها، وَجَاءَت إضَافَةُ فِكْرَةِ الترتيب المتراخي عَلَىٰ ما جاء في الآية (١٨٩) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول).

(٥) امْتِنَانُ اللهِ علَىٰ النَّاسِ بأَنَّهُ أنْزَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أزْواجٍ.

(٦) بَيَانُ أنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَخْلُقُ النَّاسَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْق في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ.

(٧) خَتْمُ بَيَانِ الآيَاتِ السَّابقَاتِ بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

التّدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ .. ﴿٥﴾﴾:

هذه القضيَّة جاءَت تَذْكِيراً لِمَا سبَقَ بَيَانُهُ في الآية (٧٣) مِنْ سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول).

وَقَدْ جَاءَ تَدبُّرُ هـٰذا البيانِ مُوَسّعاً مُفَصَّلاً في صَفَحَاتٍ، فَيَنْبَغِي الرُّجُوعُ إِلَيْهِ، لِمعْرِفَةِ وُجُوه الْحَقِّ، وكيْفَ أَنَّ اللهَ تبارَكَ وَتَعالَىٰ خَلَقَ السَّمَاوَات والْأَرْضَ بالْحقِ، ولَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطلاً، ولَيْسَتِ الإعَادَة مُسْتَحْسَنَة لِطُولها.

■ قول الله تعالى:

● ﴿..يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَـارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ..﴾:

سبَقَ في سورة (فاطر/٤٣ نزول) في الآية (١٣) منها، وفِي سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) في الآية (٢٩) مِنْهَا بَيَانُ أَنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالَىٰ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، ويُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيل، وقد سبَقَ تَدبُّرُ المراد مِنَ الإيلَاجِ لَدَىٰ تَحْلِيلِ الْآيَتَيْن.

لَكِنْ جَاءَ هُنَا فِي سُورَةِ (الزُّمَر/ ٥٩ نزول) بَيَانُ أَنَّ اللهَ يَكُوِّرُ اللَّيْلَ عَلَىٰ النَّهَارِ، ويَكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَىٰ اللَّيْل.

إنَّ حَرَكَةَ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا تُجَاهَ الشَّمْسِ الَّتِي تُعْطِي تَعَاقُبَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، تُصَوِّرُ لِلنَّاظِرِ مِنْ عُلُوٍّ مَشْهَدَيْن:

المشْهَدُ الْأَوّل: أنَّ اللَّيْلَ في أَوّلِ النّهارِ مَعَ تَتَابعِ امْتِدَادِهِ يَلِجُ فيه، وأنَّ النَّهارَ فِي أوّل اللَّيْلِ مَعَ تَتَابعِ امْتدادِه يَلِجُ فيه.

المشْهَدُ الثاني: أَنَّ اللَّيْلَ في آخِرِ النَّهارِ يُكَوَّرُ عَلَى النَّهارِ فَيَسْتُرُهُ شَيْئاً فَشَيْئاً، وأَنَّ النَّهَارَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ يُكَوَّرُ علَىٰ اللَّيْلِ شيئاً فشيئاً، إذْ يَبْدُو في مَحلِّهِ النَّهار.

فجاء في القرآن التعبيرُ عَنْ هـٰذين المشْهَدَيْنِ بالإيلَاجِ وبالتّكْوِير،

والْغَرَضُ مِنْهَا الدَّلالَةُ عَلَىٰ حَرَكَةِ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا باتّجاهِ الشّمْسِ، في نِظَامٍ رَائِعٍ بَدِيعٍ، وَمِنْ لَوَازِم هذا أنَّ الْأَرْضَ بِمَثَابَة كُرَةٍ كَبِيرَةٍ تَدُورُ عَلَىٰ مِحْوَرِها باتّجَاهِ الشّمْسِ، دُونَ خَلَلٍ وَلَا خُرُوجٍ عَنْ نِظَامِهَا في الْأَحْقَابِ والدُّهُور طَوال ملايين السِّنِين، وَهَـٰذا لَا يَكُونُ إلَّا بسُلْطَانِ رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيم قَدِيرٍ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ في كونِهِ ويَخْتَارُ.

التَّكْوير: لَفُّ الشَّيْءِ عَلَىٰ جِهَةِ الاسْتِدَارة، كَمَا تُلَفُّ خُيُوط الصُّوفِ علَىٰ بَعْضِهَا حَتَّىٰ تَكُونَ كُرَةً ذاتَ مُحِيطٍ دَائِرِيّ من كُلِّ جِهاتها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿. . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . .﴾:

المراد بالتَّسخير هنا: تَطْوِيعُ المخْلُوقِ بالْجَبْرِ الرَّبَّاني لِلْعَمَلِ وَالتَّحرُّكِ على وَفْقِ إرَادَةِ اللهِ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

وقد ثبت لدى عُلَمَاءِ الفَلَك أنَّ كُلًّا مِن الشَّمْسِ والْقَمَر يَجْرِيَانِ فِي السَّماءِ كما جاء في كتاب اللهِ القرآن.

فمِنْ آيات اللهِ العظيمة الكَوْنيَّةِ، ذَاتِ الصِّلَةِ بمَصَالحِ الْعِبَادِ في الأرْض، آيَتَا تَسْخِير الشَّمْس وتَسْخِيرِ القمر.

وقد سَبَقَ لَدَى تدبّرِ الآية (١٣) من سُورَةِ (فاطر/٤٣ نزول) ولَدَى تَدَبُّر الآية (٢٩) من سُورَةِ (لُقمان) بَيَانٌ مُطَوَّلٌ بِشَأْنِ تَسخِير الشَّمْسِ والْقمر، وبِشَأْنِ جَرَيانِ كُلٍّ مُنْهُمَا لِأَجَلٍ مُسمَّىٰ، وإلَىٰ أجَلٍ مُسَمَّىٰ، فَمِنَ الأحْسَنِ عَدَمُ التَّكْرار، والرُّجُوعُ إلى مَا جَاءَ في تَدَبُّرِ آيَتَي (فاطر) و(لُقْمَان).

الأَجَلُ المسَمَّىٰ: هو الأجَلَ المعَيَّنُ باسْمِهِ المحدَّدِ لَهُ في عِلْمِ الله، وفي الكِتَابِ الّذِي كتَبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهِ كُلَّ شيءٍ قَدَّرَهُ وقَضاه.

■ قول الله تعالى:

● ﴿...أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾:

● ﴿أَلَا﴾: أداة اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبيهٍ، وتحْقيق.

أي: انْتَبِهُوا وتَحَقَّقُوا أيُّها المشركونَ أَنَّ رَبَّكُمُ الْخَالِقَ الَّذِي خلَقَ مَا أَبَانَهُ لَكُمْ فِي هٰـذِه الآيَةِ قَدِيرٌ عَلىٰ الانتقام مِنْكُمْ بِقُوَّتِه الْغَالِبَةِ لِكُلِّ شيْءٍ إِذَا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ وَكُفْرِكم، غَفَّارٌ لِكُلِّ مَا أَسْلَفْتُمْ إِذَا آمَنْتُمْ وأَسْلَمْتُمْ وَتُبْتُمْ إِلَيهِ، قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ مُدَّةُ امْتِحَانِكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنيا.

الْعَزِيز: أي: ذُو القوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي لَا تُغْلَبُ.

الْغَفَّار: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الغافِر» وهو السَّاتر المتجاوزُ عن ذُنُوبِ وسيّئات مَنْ آمَنُوا وأَسْلَمُوا وَتَابُوا إلى ربّهم.

■ قول اللهِ تَعَالىٰ خِطَاباً لِكُلِّ النَّاس ويَدْخُلُ فيهم المعنيُّونَ بالمعالجة:

● ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴿٦﴾﴾.

أي: خَلَقَكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ أَنْسَالاً مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ هِيَ نَفْسُ أَبِيكُمْ آدم، ففي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَقَادِيرُ خَاصَّةٌ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ والْخَصَائِصِ الكُلّيّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ أَبَاكُمْ آدَمَ عَلَيْها.

وبَعْدَ مُدَّةٍ ذَاتِ مُهْلَةٍ مِنَ الزَّمَانِ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَها، وهِيَ أُمُّكُمْ الْأُولَىٰ «حَوَّاء». فَدَلَّ هـٰذا عَلَىٰ أَنَّ مُصَغَّرَاتِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فِي ظَهْرِهِ كَانُوا مَخْلُوقين قَبْلَ خَلْقِ «حَوَّاء» مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِه.

لَقَدْ أَوْدَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في ظَهْرِ آدَمَ كُلَّ ذُرِّيَّاتِهِ إِلَىٰ آخِرِ مَوْلُودٍ يُولَدُ مِنْ بَنِيه، وَجَعَلَهُمْ مُتَدَاخِلِينَ بَعْضَهُمْ فِي بَعْضٍ عَلَىٰ وفْقِ نِظَام تَنَاسُلِهِمُ الَّذِي ظَهَرَ فيما بَعْدُ، فالذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ جَمِيعاً أَنْسَالٌ مِنْ آدم عليه السّلام.

فقد جاء في البيان النبويّ أنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مَسَحَ علىٰ ظَهْرِ آدَمَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ ذُرِّيَّتِهِ وَأشْهَدَهُمْ علىٰ أنفسهم، وقَدْ سبق بَيَانُ هٰذا لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآية (١٧٢) مِنْ سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) مَعَ ذِكْرِ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ حَوْل هذا الاسْتِخْراج، ومع تحليلات فيها تَوسُّع.

وَقَدْ صَحَّ في الحديث عَنِ النبيّ ﷺ: «أَنّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وأَنَّ أعْوَجَ شَيْءٍ في الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنِ اسْتَمتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفيها عوَجٌ».

وأَوْرَدَ ابْنُ كثير في تَفْسِيرِه الآيَة (١) من سورة (النساء) أَنَّ حَوَّاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعِ آدم الأيْسَر مِنْ خَلْفِهِ وهُوَ نَائِم، فاسْتَيْقَظ فَرَآها، فأعْجَبَتْه، فَأَنِسَ إلَيْها وَأَنِسَتْ إليه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ أيضاً:

● ﴿. . وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ . .﴾:

أي: وَخَلَقَ لَكُمْ أيُّهَا النَّاسُ مِنْ صِنْفِ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ المذَلَّلَةِ لَكُمْ ثَمَانِيَةَ أَزْواج.

الْأَنْعَام: هي الأموال الراعِيَة، وهي الإبلُ، والبَقَرُ، والْغَنَم: «الضَّأْنُ والْمَعز» مِنْ كلٍّ مِنْهَا ذُكُور وإِناث، فهي ثَمَانِيَةُ أَزْواج. ولفظ «الأنعام» يذكّرُ ويؤنث.

الزَّوْج: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مَعَهُ آخَرُ مِنْ جِنْسِهِ. فالذَّكر من الإبلِ «زَوْج» والأنْثىٰ «زَوْج» وهَكَذَا.

إنَّ خَلْقَ الأَنْعَامِ لِلنَّاسِ مِنْ عَظِيم نِعَمِ اللهِ علىٰ عباده.

وقَدْ سَبَقَ في الآيات مِنْ (٧١ ـ ٧٣) من سُورَةِ (يس/ ٤١ نزول) امتنانُ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ بالأنْعَام، مع تَفْصِيلٍ زَائِدٍ على مَا جاء هُنَا في سورة (الزُّمَر).

وَمَا جَاءَ هُنَا قَدْ جَاءَ تَذْكِيراً بِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُ فَضْلِ اللهِ بِهِ عَلَىٰ النَّاس.

وَجَاءَ هُنَا اسْتِعْمَالُ فِعْلِ: «أَنْزَلَ» بَدَلَ فِعْلِ «خَلَقَ» للدَّلَالَةَ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنِ اللهِ مِنْ خَلْقٍ وَتَصَارِيفَ هُو إِنْزَالٌ، لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتعالَىٰ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَكُلُّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ يَكُونُ مِنْ دُونِه، فَهُوَ إِنْزَالٌ مِنْ لَدُنْهُ بالْخَلْقِ والتّكْوِينِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ أيضاً:

• ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ..﴾.

• ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾:

دَلَّ الفِعْلُ المضَارِعُ في ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ عَلَىٰ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ المتَتَابِعِ، الَّذِي يَكْتَشِفُ عُلَمَاءُ الْأَجِنَّةِ مِنْهُ الْأَطْوَارَ الَّتِي يَظْهَرُ فِيها تَغَيُّرٌ مَشْهُودٌ فِي الْجَنِين، وهو في الحقيقة خَلْقٌ مُتَتابِعٌ.

وَجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ لِبَيَانِ أَنَّ كُلَّ تَغيُّرٍ في أَحْوالِ الْجَنِينِ مَهْمَا قَلَّ وَلَوْ كَانَ نُمُوّاً، هُوَ خَلْقٌ جَدِيدٌ، مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ سَابقٍ له، وَمِنْهُ نَسْتَفِيدُ أَنَّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ مُتَتابِعَةٌ فِي الْكائِنَاتِ، مَعَ أَصْغَرِ الوحَدَاتِ الزَّمَنِيَّة، وَلِكُلِّ قِسْمٍ لَا يَقْبَلُ عَقْلاً الْقِسْمَةَ مِنْ ذَرَّاتِ هٰذا الكوْن كُلِّه.

• ﴿... فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ..﴾:

وقَدْ أَبَانَ عُلَمَاءُ الْأَجِنَّةِ هٰذهِ الظُّلُمَاتِ الثَّلاثِ مَرْسُومَةً بالصُّوَرِ، ومُحَدَّدَةً بالْأَسْمَاء، وأَنْقُلُ هُنَا مِن كتاب «خَلْق الإنسان بَيْنَ الطّبّ والقرآن» للدُّكْتُور: «مُحمّد علي البار»:

«إِذَا دَقَّقْنَا النّظَرَ في الْأَغْشِيَةِ الْمُحِيطَةِ بالْجَنِينِ وَجَدْنَاها ثَلَاثَةً:

١ ـ غِشَاءُ السَّلَىٰ، أو الْأَمنيون، ويُحِيطُ بالجنين مُبَاشَرَة.

٢ ـ غِشَاءُ الكُورْيون (الغِشَاءِ الْمَشِيمِيّ).

٣ ـ الْغِشَاءُ السَّاقِط، وَهُو غِشَاءُ الرَّحِمِ الّذي يَسْقُطُ بَعْدَ الولادة أو الإجهاض، وسُمِّيَ بالسَّاقط، لأنَّ الرَّحِمَ يُسْقِطُهُ مَعَ الْأَغْشِيَة».

أقول: وَقَدْ سَمَّاهَا اللهُ في الآية ظُلُمَاتٍ، لِأَنَّ كُلَّ غِشَاءٍ مِنْهَا يُحْدِثُ نِسْبَةً مِنَ الظَّلْمَةِ، وَكونُ كُلٍّ مِنْهَا مُحِيطاً بالْجَنِينِ علَىٰ التَّتابُعِ، فالْجَنِينُ مُحَاطٌ بِمَا يُحْدِثُ ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ، ومَعْلُومٌ بالبداهَةِ أنَّ الظُّلْمَةَ ذَاتُ نِسَبٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فكُلَّمَا زَادَتِ الْحُجُبُ زَادَتْ نِسْبَةُ الظُّلْمَةِ في مَكَانٍ تَرَاهُ الْأَبْصَارَ بِسَبَبِ ضَوْءٍ أَوْ نُورٍ يُظْهِرُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِلنَّاسِ ولا سيما المَعْنيُّون بالْمُعَالَجَةِ وَهُمُ المشْرِكُون:

● ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾:

أي: ذَلِكُمُ العظيمُ الْجَلِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا لَكُمْ بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، ومِنْها خَلْقُكُمْ وَالإِنْعَامُ عليكم وَإِنْشَاؤُكُمْ في بُطُون أَمَّهَاتكُمْ هو اللهُ رَبُّكُمْ.

الله: اسْمُ عَلَم علَىٰ ذَاتِهِ الجامِعَةِ لِكُلّ صِفَاته.

رَبُّكُمْ: أي: المهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ والمتَصَرِّفُ فِيكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ الْجَامِعَةِ لمعْظَمِ أسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

وهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا ذَكَرْنَا لَكُم في سَوَابِقِ التنزيل، ولَكِنْ ذَكَرْنَا لَكُمْ هُنَا أَنَّهُ رَبُّكُمْ، لِإشعاركم بحَقِّ رُبُوبيّتِه لَكُمْ، وَبِمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تُجاهَهُ، ولاسْتِثَارَة طَمَعِكُم في ثَوَابِهِ، وخَوْفِكُم مِنْ عِقَابِه.

● ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾: أي: كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِنْ أَحْيَاء وغَيْرِ أحياء، مَمْلُوكٌ لَهُ، لَا يُشَارِكُهُ في ملكه أَحَدٌ، إِذْ هُو الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شيء،

وكُلُّ مَا هُو دَاخِلٌ في ملكِهِ خاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ وَحْدَه، وخاضِعٌ لِتَصارِيفهِ وَحْدَه، فَلَا يُشَارِكُهُ في السُّلْطَانِ وَلَا في التَّصارِيفِ أحدٌ، إذْ كُلُّ ما يُدَّعَىٰ لَهُ شيْءٌ من الرُّبُوبيَّةِ أو شيءٌ مِن الإلَٰهيَّةِ هُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُو دَاخِلٌ في ملكه، وهذا يسْتَلْزِم نفي رُبُوبِيّتِهِ وإلَٰهيته.

يُقَالُ لغة: «مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً ومُلْكاً وَمَلْكاً» أي: حازَه، وانْفَرَدَ بِحَقِّ التَّصرُّفِ فيه، وَكَانَ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطانٌ وقُدْرَةٌ علَىٰ التَّصرُّفِ في حُدُودِ مِلْكِيَّتِهِ له.

• ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ في الوجود كلِّهِ، هَٰذِه الحقِيقَةُ نَتيجَةٌ عَقْلِيَّةٌ بَدَهِيَّة لِكَوْنِهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ خالِقَ كُلِّ شيءٍ، ولَهُ الْمُلْكُ كُلُّه في الْوُجُودِ كُلِّه.

فَكَيْفَ يَتّخِذُ الْمُشْرِكُونَ أَرْبَاباً أَو آلِهَةً مِنْ دُونِه، عَلَىٰ خِلَافِ مَوَازِينِ الْعَقْلِ وَمَقَايِيسِهِ وَبَدَهِيَّاتِه، ولهذا خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَةَ بِقَوْلِهِ الْمُوَجَّهِ لِلْمُشْرِكين، ولَوْ كَانَ شِرْكُهُمْ مِنْ أَخَفِّ دَرَكَاتِه:

• ﴿. . فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: «أَنَّىٰ» هُنَا بمعْنَىٰ «كيْفَ». والاستفهام هُنَا استِفْهامٌ إنْكارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ مِنْ ابْتِعَادِ المشْرِكِينَ عَنْ هَٰذِهِ الحقيقة البَدَهِيَّة.

• ﴿تُصْرَفُونَ﴾: أي: تُبْعَدُونَ عَنْ هَٰذِهِ الحقيقَةِ الْعُظْمَىٰ والإيمانِ بها، والتزام مَا تُوجِبُهُ عليكُمْ مِنْ وَاجِبَات تُجَاهَ رَبّكُمْ.

المعنى: فَكَيْفَ تُبْعَدُونَ عَنْ هَٰذِهِ الحقيقة الجَلِيَّةِ الْبَدَهِيَّة الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ظواهِرُ الكوْنِ وَبُرْهَانَاتُهُ؟!!.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الثاني من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفيقه وفتحِه.

(٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الزُّمر)
الآية (٧)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

القراءات:

• قرأ نَافع، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: ﴿**يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ بِضَمِّ الهاء من غير صِلَة.

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوَان، والكِسَائيّ، وابْنُ وَرْدَان، وخلف، بِضمِّ الهاء مَعَ الصِّلَة.

وقرأها السُّوسِي، وابْن جَمَّاز: بإسْكانِ الهاء: [**يَرْضَهْ لَكُمْ**].

ولِدُوري أبي عمرو وجهان: الإسْكان، والضَّمُّ مع الصِّلَة.

ولِهِشَام الضَّمُّ مِنْ غَيْرِ صِلَة.

وهِي وُجوهٌ مِنَ الْأَدَاء.

تمهيد مع التدبر التحليلي:

في هذا الدَّرْسِ تَأْكِيدٌ وَتَأْسِيسٌ لقَضَايَا مِنْ قضَايا الفِكْرِ الدِّينيّ في الإسْلَام، ذَاتِ قِيَمٍ عَظِيمَةٍ مُقوِّمَةٍ لِسُلُوكِ الإنسانِ فِي حَيَاتِهِ إذا آمَنَ بِهَا وَاتَّبَعَ مَا تَهْدِي إليه، وهِي خَمْسُ قَضَايا:

القضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلنَّاسِ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ ..﴾:

سبق بيان هذه القضيَّة في الآية (١٢) من سورة (لقمان/٥٧ نزول) وجاء تأكيدها في آيَةِ هـٰذا الدَّرْسِ لأنَّ معظَمَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُونَ أنَّ لِلْمَعْبُودِ مَصْلَحَةً خَاصَّةً مِنْ عِبادَةِ عَابِدِيهِ لَهُ وَإيمانِهِمْ به، وتَكْثِيرِ جماعَةِ المؤمنين المسلمين، فَكَانَ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ غَنِيٌّ عَنْ إيمَانِ الناسِ بِهِ يَحْتَاجُ تَوْكيداً، فجاء هُنَا في مُوجَزَاتِ هـٰذِهِ السُّورَةِ خِطَابُ اللهِ للنَّاسِ بقوله لهم: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾.

أي: إنَّ إيمَانَكُمْ أَيُّها النَّاسُ باللهِ رَبِّكُمْ، وَطَاعَتَكُمْ لَهُ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بما يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَات، لَا يَزِيد في مُلْكِهِ شَيئاً. وإِنْ تَكْفُرُوا وَتَجْحَدُوا صِفَاتِهِ، وتَجْحَدُوا نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ، وَتَعْصُوهُ دَواماً، فإِنَّكُمْ لَا تَنْقُصونَ مِنْ مُلْكِهِ شيئاً، فاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لِذَاتِهِ ولِصِفَاتِهِ.

ويَلْزَمُ عَنْ هـٰذِهِ الحقيقة، أنَّ إيمَانَ مَنْ آمَنَ، وَطَاعَةَ مَنْ أطاع، وعِبَادَاتِ منْ يَسْتَزِيدُ مِنْ قُرُبَاتِهِ لِمَرْضَاةِ رَبِّه، كُلُّ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، إِذْ يَنَالُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ ثَوَاباً جَزِيلاً وسَعَادَةً أَبَدِيَّة، فِي حَيَاةِ الجزاء، بَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ بأعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ حَيَاةَ الابْتِلَاء.

ويلْزَمُ عنها أيْضاً أَنَّ كُفْرَ مَنْ كَفر، ومَعْصِيَةَ مَنْ عَصَىٰ، وطُغْيَانَ مَنْ طَغَىٰ، وفُجُورَ مَنْ فَجَر، كُلُّ ذَلِكَ ضِدُّ مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، وظُلْمٌ لها، إِذْ يكُونُ لَهُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ جَزاءٌ عِقَابِيٌّ بالْعَدْل، وشقاءٌ أبَدِيٌّ فِي حَيَاةِ الجزاء، بَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ بِجَرَائِمِهِ وأَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ حَيَاةَ الابْتِلاء.

كيف لَا يَكُونُ اللهُ غَنِيّاً عَنْ عِبادِه، وهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء، وَيَفْعَلَ مَا يَشاء؟.

الْقَضِيَّةُ الثانيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿. . وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ . .﴾:

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُو الكَمَالُ المطْلَقُ في ذَاتِهِ وفي صِفَاتِه، فَهُو تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِكَمَالِ صِفَاتِهِ يكْرَهُ الكُفْرَ وَالْفُسُوق والْعِصْيَانَ، والْجُحُودَ والظُّلْمَ

والطُّغْيَان، وسَائِرَ صِفَاتِ النَّقْصِ والانْحِطَاطِ والخِسَّة، مِنْ ذِي إرادَةٍ حُرَّةٍ قَادِرٍ عَلَىٰ اجْتِنَابها.

وَإِذْ وَضَعَ اللهُ النَّاسَ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ومَنَحَهُمْ قُدْراتِ فَهْمِ الْحقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والكَمَالِ، والنُّقْصَان، وَخَلَقَ فيهم إرادَاتٍ حُرَّةً يَخْتَارُونَ بِهَا مَا يَشَاؤُونَ، وهُو يَخْلُقُ لَهُمْ مَا أرادُوا أنْ يَفْعَلُوهُ، فَإنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الَّذِين يَمْنَحُهُمْ شَرَفَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ أَنْ يَتَّصِفُوا بالْكُفْر، بَلْ هُو يَكْرَهُهُ لَهُمْ.

بَلْ يَكْرَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مَا هُوَ دُونَ الكُفْرِ مِنَ الكبَائِرِ وَمِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا مَا جَاءَ في سُورَةِ (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول) بَعْدَ ذِكْرِ طَائِفَةٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ على عِبَادِهِ، ومِمَّا أَرْشَدَهُمْ بِهِ إلى كَمَالِ السُّلُوكِ والاخْتِيَاراتِ، ومِنْهَا النَّهْيُ عَنِ اتّباعِ الْعَبْدِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، ومِنْهَا النَّهْيُ عَنِ الاختيالِ والتَّكَبُّر، وهو قولُهُ تعالى:

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

إنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَكْرَهُ السَّيِّئَاتِ كُلَّها، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ أنْ يَتَّصِفُوا بِهَا مُخْتَارِين.

القضِيَّة الثّالِثة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾:

أي: وَإنْ تَشْكُرُوه ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بِالْإيمانِ، وبإعْلَانِ الإسْلَامِ والاسْتِسْلَام والخُضُوعِ لَهُ، وبِفِعْلَ مَا يَرْضَىٰ لَكُمْ مِنَ الصَّالِحَاتِ والحسَنَاتِ والْخيراتِ والْفَضَائِلِ، وبتَرْكِ واجْتِنَابِ مَا لَا يَرْضَىٰ لَكُم مِنَ الفاسِدَاتِ والسَّيِّئَاتِ والشُّرُورِ والرَّذَائِل، فإنَّهُ تبارَكَ وتَعالَىٰ يَرْضَاهُ لَكُمْ.

رَأْسُ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ مَا تَفَضَّلَ بِهِ علَىٰ عِبادِهِ المدْرِكين ذوي الإرادات الحرَّة: الإيمان، فالإسْلام، ثُمَّ فِعْلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكُ مَا أَمَرَ اللهُ بتَرْكه.

وأَصْلُ مَعْنَىٰ الشُّكْرِ في اللُّغَة: مُقَابَلَةُ إحْسَانِ الْمُحْسِنِ بما يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْك، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ الْحَمْدُ والثَّنَاءُ، لكنَّ الحمْدَ والثَّنَاءَ لَا يَشْمَلُ كُلَّ العناصِرِ المطْلُوبَةِ في الشُّكْرِ.

الْقَضِيَّةُ الرابِعَة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ..﴾:

هذه القضيَّة جَاءَتْ تَأْكِيداً لِمَا سَبَقَ بيانُهُ:

(١) في الآية (١٨) مِنْ سُورَة (فاطِر ٤٣ نزول).

(٢) وفي الآية (١٥) من سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول).

(٣) وفي الآية (١٦٤) من سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول).

والْغَرَضُ مِنْ هذا التوكيد تَكْرِيراً لِهَـٰذِهِ الْقَضِيَّة، انْتِزَاعُ مَفْهُوم مُتَأَصِّلٍ لَدَىٰ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ، أَنَّ الصَّالِحِينَ المقَرَّبِينَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَحْمِلُونَ أَوْزَارَ الْمُجْرِمِينَ، وَيَفْتَدُونَهُم بِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَدَىٰ بَعْضِ ذُرِّيَات الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ والمسرفين بحُبِّهم نَصِيبٌ كَبِيرٌ مِنْ هـٰذا المفْهُوم الباطل، الّذي صَارَ لَدَيْهِمْ عَقَائِدَ مَوْرُوثَة، وَعَقِيدَةُ النَّصَارَىٰ قَائِمَةٌ عَلَىٰ أنَّ الْمَسِيحَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام حَمَلَ خَطَايَا النَّاسِ، وَقَدَّمَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ ليكُونَ فِدَاءً لِلْخَاطِئين.

هـٰذه حِيلَةٌ إِبْلِيسيَّة، أَرَادَ بِهَا إِبْلِيسُ تَوْرِيطَ النَّاسِ في ارتِكَاب الخطايا والذُّنُوب تُجَاهَ الرَّبِّ، لِأَنَّ عِيسَىٰ تَحَمَّلَ عَنْهُمْ خَطَايَاهُم، ورَضي أَنْ يُقْتَلَ صَلْباً، إذ افْتَدَاهُمْ بِنَفْسِهِ، زَاعِمِينَ أَنَّهُ ابْنُ اللهِ الأَوْحَد، تَعَالَىٰ اللهُ عمَّا يَصِفُون، وسُبْحَانَهُ عَمَّا يَفْتَرُون.

وكان العرَبُ في الجاهِلية يُحَمِّلُونَ الْقَبِيلَةَ كُلَّها مَا يَرْتَكِبُ بَعْضُ أفرادها مِنْ جرائم قَتْلٍ أَوْ سَلب.

ونفهم مِنْ قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ما يلي:

ولا تَحمِلُ نَفسٌ وَازِرَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحمِلَ أَوْزَارَهَا الَّتِي تَكْتَسِبُها، وِزْرَ نَفسٍ أُخْرَىٰ قَدْ حَمَلَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْ أَوْزَاراً وذُنوباً.

الْوِزْرُ: هُوَ في اللُّغَةِ الْحِمْلُ الثَّقِيل، ومِنَ الْأَحْمَالِ الثقيلَةِ أَسْلِحَةُ الْحَرْب.

ولمَّا كانَ ارْتِكَابُ الذَّنب وفِعْل الإثْم، مِمَّا يَتَحَمَّلُ بِهِ الإنْسَانُ مَا يُشْبِهُ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ، أُطْلِقَ في اللُّغَةِ لَفْظُ «الْوِزْرِ» على الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المكلَّفُ المختار، المسْؤُولُ عَنْ أَعْمَالِهِ الإراديَّة.

وجَمْعُ لفظ «وِزرٍ» يَأتي علَىٰ «أَوْزَار». يَقُالُ لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وَوَزْراً، وزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلاً ثَقِيلاً، أَو ارْتَكَبَ ذَنْباً، فهو «وَازِرُ» وهي «وَازِرَةٌ».

ومن هذه القضية نُدْرِكُ أَنَّ المسؤولِيَّة عَنِ الأَوْزَارِ، عند اللهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّار، مَسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ، ولَا شَكَّ أَنَّ هـٰذا هُوَ مَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ الرَّبَّانِيُّ، وَتَقْتَضِيهِ مَوَازِينُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَمَقَايِيسُهَا الصحيحة.

الْقَضِيّة الخامِسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿.. ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

أي: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ حَيَاةِ الابْتِلاءِ الَّتِي تَجْتَازُونَها مُمْتَحنينَ تَمُوتُونَ، وَيَوْمَ الْبَعْثِ تُبْعَثُونَ لِتُلاقوا أَحْدَاثَ الآخِرَةِ ويَوْم الدين، وفيه يَكُون إِلَىٰ حِسَابِ رَبِّكُمْ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، رُجُوعُكُمْ وَمَكَانُ رُجُوعِكُمْ، وَزَمَانُ رُجُوعِكُمْ، فإِذَا كُنْتُمْ فِي مَحْكَمَتِهِ فإِنَّهُ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ ثُمَّ يَكُونُ تَنْفِيذُ الجزاء الرَّبَّانِيّ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا تَمَّ بِهِ قَضاؤه، جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

ولَا تَتصَوَّرُوا أَنَّ اللهَ يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ بِجَوارِحكُمُ الظَّاهِرَة، بَلِ يُحَاسِبُكُم عَلَىٰ مَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَنُفُوسُكُمْ بإِرَادَاتِكُم مِنْ أَعْمَالٍ، كالنِّيَّاتِ السَّيِّئَاتِ، وَإِرَادَاتِ الشَّرِّ ذَوَاتِ الآثَارِ في سُلُوكِ النَّفْسِ،

وَالتَّدَابِيرِ الْفِكْرِيَّةِ للإضرارِ ومَنْعِ انْتِشَارِ الحقِّ وانْتِصَارِ دِينِ الله وَأَوْلِيَائه، وَكراهِيَةِ الحقِّ واسْتِعْلاءِ كَلِمَةِ الله، فَيَجْزِيكُمْ علىٰ هـٰذِهِ المكتَسَبَاتِ القلبيَّةِ والنفسيَّة بما تَسْتَحِقُّ مِنْ جَزَاءٍ بالْعَدْل. وفي مُقَابِلِهَا يُجَازِي المتَّقِينَ والأبْرارَ وَالْمُحْسِنِينَ عَلَىٰ مُكْتَسَبَاتِ قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ الإرادِيَّة الْمُرْضِيَاتِ لَهُ، بالثَّوابِ العظيمِ الَّذِي يُنَاسِبُ صِفَاتِ جُودِهِ وفَضْلِهِ وَفُيُوضِ عَطَاءَاتِهِ.

• ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ يَصْلُحُ هُنَا أَنْ يَكُونَ مَصْدراً مِيمِيّاً، واسْمَ مَكَانٍ، واسْمَ زَمَان، فيُفْهَمُ النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مُرَادَاتٌ كُلُّها هنا.

• ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: إنَّ الله عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ تُكِنُّهُ صُدُورُ عِبَادِه، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْها.

ذَاتُ الصُّدُورِ: أي: صَاحِبَةُ الصُّدُورِ المخْتَصَّةُ بِكَوْنِهَا مِنْ حَرَكَاتِ أو أعمَالِ النُّفُوسِ الَّتِي تَبْقَىٰ خَفِيَّةً فِي دَاخِلِ الصُّدُور، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ ظَاهِرٌ فِي السُّلُوك، كَنِيَّاتِ المنَافِقِينَ والمرائين.

عبارة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ جاءَتْ كِنَايَةً عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي في مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، لِأَنَّهَا بَعْضُ عَنَاصِرِها.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِه.

(٨)
التدبّر التحليلي للدّرسِ الرابع مِن دُروس سورة (الزُّمر)
الآية (٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾.

القراءات:

• قرأ ابْنُ كثير، وَأبو عَمْرو، ورُوَيْس: [لِيَضِلَّ] بفَتْحِ الياء مِنْ فعل «ضَلَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضمّ الياء، من فعل «أضَلَّ».

تمهيد:

سبق في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ هـٰذِه الصِّفَةِ الَّتِي جاءت في آيَة هـٰذا الدَّرْسِ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَان، والْمُرَادُ بِهِ الإنْسَانُ الْجَحُودُ الكَنُودُ الكَفُور، وهِي في الْواقِع تنْطَبقُ علَىٰ أَكْثَرِ النَّاس، فأكْثَرُ النَّاسِ مُدَنَّسُونَ بهـٰذِهِ الصِّفَةِ الذَّمِيمَة، إِذْ أكْثَرُ النَّاسِ لَيْسُوا شَاكِرِينَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ.

التدبر التُحليلي:

• ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: أي: رَاجعاً إِلَىٰ رَبِّهِ بالدُّعَاءِ وَالتَّضرُّع، لِأَنَّهُ مُسْتَيْقِنٌ مِنْ عُمْقِ فُؤَادِهِ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ إِلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾: أَيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، إذَا أعْطَاهُ رَبُّهُ نِعْمَةً مُتَفَضِّلاً بها عَلَيْهِ.

• ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: أي: نَسِيَ الضُّرَّ الَّذِي كَانَ يَدعُو رَبَّهُ إِلَىٰ كَشْفِهِ عَنْه، وَأَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ.

• ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وفي القراءة الأخرى: [لِيَضِلَّ].

• ﴿أَندَادًا﴾: أي: أَشْبَاهاً، وأمْثَالاً، ونُظَراء. ومن جَعْلِهِ الأنْدَادَ، أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ مَا أَصَابَ مِنْ نِعْمَةٍ، قَدْ كَانَ بِعِلْمِهِ وَمَهَارَتِهِ وَذَكَائِهِ وحُسْنِ اتِّخَاذِهِ الْأَسْبَابَ الموصِلَة لظَفَرِه بما وَصَلَ إليه مِنْ نِعْمَةٍ.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أو [لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ]: أي: إذَا كَانَ مِنَ الْمُضِلِّينَ الْحَامِلِينَ رِسَالَةً إبْلِيسِيَّةً، فَهُوَ يَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ الإيمَانِ بِرَبِّهِمْ لِيَجْعَلَهُمْ خَارِجِين عَنْ سبيلِ اللهِ المسْتقيم، ضالِّين تَائِهِينَ ضَائِعِينَ فِي سُبُلِ الإثْم والشَّرِّ والْفَسَادِ في الأرض.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ حَمَلَةِ رِسَالَةِ إبْلِيسَ الإضْلَالِيَّة، فَهُوَ يَتَّبعُ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وشَهَواتِها ومَطالِبها من الحَياة الدُّنيا، وباتِّباعها يَكون ضالاً بِنفسه عَنْ سَبِيلِ اللهِ، تائِهاً ضَائِعاً فِي سُبُلِ الْإِثْمِ وَالشّرِّ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَهٰذا الْمُصِرُّ عَلَىٰ جُحُودِه وَكُنُودِهِ وَكُفْرِه، لا يَليقُ بالدَّاعِي إلى الله إلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُ مَا جَاءَ في التعليم الرَّبَّانيّ في الآيَة:

• ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُ تَمَتَّعْ بِتَحْقيقِ اللَّذَّاتِ وَمَا يَسُرُّكَ مِنَ الدُّنْيا الَّتِي يُهَوِّنُهَا عَلَيْكَ كُفْرُكَ بربّكَ، مَتاعاً قَلِيلاً، يَنتَهِي بِمَوتِك. ثُمَّ تَحَمَّلْ عِقَاباً شَدِيداً عظيماً يَوْمَ الدِّينِ بِعذابِ الْحَرِيق جزاءَ كُفْرِكَ، إنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ خالداً فِيها مُخَلَّداً أبداً، إذْ كُنْتَ مِنَ المشْرِكين الّذِينَ جعلوا للهِ أَنْداداً.

وبهذا تَّمَّ تَدَبُّر الدَّرس الرابع من دُرُوس سورة (الزُّمَر).

والحمْدُ لله على مَعُونتِهِ وَمَدَدِه وتَوفيقِهِ وفَتْحه.

(٩)

التدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من دُرُوس سورة (الزّمر) الآيتان (٩) و(١٠)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾.

القراءات:

• قرأ نَافِع، وابْنُ كثير، وحمزَة: [أَمَنْ] بفتح الميم دُونَ تَشْدِيد، فالعبارة مُؤَلَّفَة من همزة استفهام، و«مَنْ» اسم موصول.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَمَّن] بفتح الميم مع التشديد، أَصْلُهَا «أَمْ مَنْ».

تَمْهيد:

آيَتَا هذا الدَّرْسِ تَتَعَلَّقَان بالْمُؤْمِنِينَ المسلمين، وحَثُّهُم مباشَرةً أو عن طريقِ أَئِمَّتِهِمْ على أن يَرْتَقُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ فَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، بالاسْتَزَادة مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ كَقِيَامِ اللَّيْل، والاسْتِزَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ الّذِي فِيه مَرْضَاةٌ للهِ عَزَّ وَجلَّ وَيُقَرِّبُ إِلَيْهِ، والاسْتِزَادَةِ مِنَ التَّذَكُّرِ الدَّافِعِ إِلَىٰ الْعَمَل الصَّالح الَّذي يَتَّصِفُ بِهِ أُولُو الْأَلْبَاب.

وفي الثانية مِنْهُما كما في الأولىٰ أمْرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ نَاصِحٍ مُرشِدٍ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُوجِّهَ نُصْحَهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ أَوَّلاً في كُلِّ سُلُوكِهِمْ الظَّاهر والباطِنِ، بِفِعْلِ مَا أَمَرَ الله بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْه، وأَنْ يَسْتَزِيدُوا مِنْ نَوافِلِ العباداتِ لِرَبِّهم حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنين، الّذِينَ ارْتَقَوْا إلىٰ مَرْتَبَةِ الْبرّ فَمَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، فَلِلّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ تَسُرُّهُمْ وَتُرْضِيهِمْ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فاللهُ يُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وَجاء فيها إِشْعَارٌ بأنَّ الهجرة في سَبِيلِ اللهِ، مِنَ الْوَطَنِ الَّذي لَا يَسْتَطِيعُ المؤمِنُ المسْلِمُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِن الْمُتَّقِينَ، هِيَ من مَرْتَبَةِ الإِحْسَان، وَكَذٰلِكَ الصَّبْرُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ هُوَ مِنْ مَرْتَبَةِ الإِحْسَان.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُوَجّهاً نُصْحَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ:

• ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ .. ⑨﴾: وفي القراءة الأخرى: [أَمَنْ]:

• ﴿أَمَّنْ﴾: لفظٌ مُرَكَّبٌ مِنْ كَلِمَتَيْن: «أمْ» و«مَنْ» أُدْغِمَتِ الميم في الميم، فصَارَ اللّفْظُ «أمَّنْ».

«أم» هُنَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ تَطْلُبُ مُعَادِلاً، وعلى هذا تَكُونُ قراءة ﴿أَمَّنْ﴾ مُكَافِئَةً لِقِرَاءَةِ [أَمَنْ]، والمعادِلُ مَطْوِيٌّ يسْهُلُ اسْتِخراجُهُ.

• ﴿قَٰنِتٌ﴾: أي: عَابِدٌ خاضِعٌ مُتَذَلِّلٌ لِرَبِّهِ.

• ﴿ءَانَآءَ﴾: **الآناءُ**: سَاعَاتُ اللَّيْل، مُفْرَدُها: «أَنْيٌ» و«إِنْيٌ».

• ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾: أي: سَاجداً وَرَاكِعاً وَقَائِماً، ذُكِرَ السُّجُودُ أَوّلاً لأنَّهُ أكْثَرُ تَعْبيراً عَنْ كَمَالِ الْخُضُوعِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِأَنَّ أقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجد، وَذُكِرَ القيام وَهُوَ الطَّرَفُ المقَابِلُ الأقْصَىٰ، وَطُوِيَ الرُّكُوعُ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ ذِكْرِ الْأَقْصَيَيْنِ، فَهُو وَسَطٌ بَيْنَهُمَا.

• ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾: أي: يَحْذَرُ عِقَابَ اللهِ في الآخِرَة عَلَىٰ إخْلَالِهِ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَيَسْتَزِيدُ مِنْ نوافِلِ العبادات وَمِنْهَا قِيَامُ اللَّيْلِ، لِتَكُونَ مُكَفِّرَاتٍ لِمَا سَلَفَ مِنْهُ مَع اسْتِغْفَارِهِ وَتَوْبَتِهِ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ قِيامَ اللَّيْلِ مِنْ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَتَي الْبِرِّ والإحْسَان، أمَّا مَرْتَبَةُ التَّقْوىٰ فالمطْلُوبُ لها فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكُ المحرّمَات، وَلَيْسَ مِنْهَا قيامُ اللّيْلِ.

• ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾: أي: وَيَتَوَقَّعُ طَامِعاً أَنْ يَنَالَ ثَوابَ اللهِ الْعَظِيم، بِسَبَب تَوَسُّعِهِ في فِعْلِ الْعِبادَاتِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، فَمَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان.

إنَّ عَطاءَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ ثَواباً عَلَىٰ فِعْلِ الصَّالحاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ، هِيَ تَفَضُّلٌ مِنْهُ، وَأَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، تَبارَكَ وَتَعالى.

المعْنَىٰ: أَمْ مَنْ هُو في رِحْلَةِ امتحانِهِ في الحياة الدُّنْيَا يُجَاهِدُ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، فَيَسْهَرُ عَابِداً لِرَبِّهِ خَاضِعاً مُتَذَلّلاً، سَاجداً وَرَاكِعاً وَقَائماً، يَحْذَرُ عِقَابَ اللهِ في الآخِرَة عَلَىٰ مَا سَلَفَ فِي حَيَاتِهِ مِنْ إِخْلَالٍ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، وَيَرْجُو مُترقِّباً ثَوابَ رَبِّهِ العظيم الَّذِي هُوَ أثرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ يَسْهَرُ لَيْلَهُ في الملْهِيَاتِ وَالأَلْعَابِ، أَوْ في المعاصِي والمخالفات، أَوْ يَقْضِي سَاعَاتِ لَيلِهِ كُلِّهَا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، مَعَ قُدْرَتِهِ على أَنْ يَمْلأَ بَعْضَهَا بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَاتٍ، وَأَعْمَالِ خَيْرٍ هِيَ مِنْ نَوَافِلِ الْقُرُبَاتِ؟؟.

وجوابُ هذا الاسْتِفْهَامِ ظَاهِرٌ لَا يَحْتَاجُ تَفْكِيراً وَلَا تَأَمُّلاً.

■ قَوْلُ الله تَعالىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ نَاصِح مُرْشِدٍ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَحُثَّ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين علىٰ الاسْتِزَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ:

● ﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .. ﴿٩﴾﴾؟:

أي: قُلْ أَيُّها النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ لِمَنْ تَتوسَّمُ فِيهِمُ الاسْتِجَابَةَ لاكْتِسَابِ الْعُلُوم النَّافِعَةِ، مُستَثيراً فِيهِمُ الرَّغْبَةَ فِي الْخَلاصِ مِن مُنْحَدَرِ الْجَهْلِ، وفي الارْتِقَاءِ فِي مَراقِي الْعِلْم والْمَعْرِفَةِ سُمُوّاً إِلَىٰ المنازِلِ الرَّفِيعَةِ العالِيَةِ، بأُسْلُوبِ سُؤَالٍ اسْتِفْهَامِيٍّ يَقُولُونَ فِي جوابِهِ تِلْقَائِيّاً: لَا يَسْتَوِي الَّذِين يَعْلَمُونَ وَالجاهِلُونَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّ الَّذِينَ يَعْلَمُون عُلُوماً نَافِعَةً مُفِيدَةً يَرْتَقُونَ سُمّواً إلى سَمَاوَاتٍ رَفِيعَاتٍ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَا نَالُوه مِنَ الْعِلْمِ، أَمَّا الجاهِلُونَ فَيَبْقَوْنَ فِي دَرَكَاتٍ مُنْحَطَّاتٍ وَضِيعَاتٍ على مَقَادِيرِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ جَهْلٍ.

إنَّ هـٰذا الْعَرْضَ الاسْتِفْهَامِيَّ يَسْتَحِثُّ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ رغْبَةٌ فِي الْكَمَالِ،

وَأَنَفَةٌ مِنَ النَّقْصِ واسْمِئْزَازٌ مِنْه، أن يكْتَسِبُوا ما يستطيعون من علم.

فَلْيَسْتَبْصِرُ الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ في أيّ مَوْقِعٍ هُوَ مِنْ سَمَاوَاتِ الارْتِقَاء، أو مِنْ دَرَكَاتِ الانْحِطَاطِ والنقص.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ السَّابق:

• ﴿. . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾:

﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هُمْ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ الَّتِي تَعْقِلُ المعَارِفَ، وتَعْقِلُ النَّفْسَ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ عَنِ اتّباعِ الْهَوَىٰ، والاستجابةِ لِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَمُغْرِيَاتِهم لِفِعْلِ الشَّرِّ والإثْم.

• ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ فِعْلُ «يَتَذَكَّرُ» وتَصَارِيفُهُ اسْتُعْمِلَ فِي القرآنَ المجيد، للدَّلَالَة على الأثرِ القلْبِيّ والنَّفْسِيّ لِحُضُورِ المعلومَةِ النافِعَةِ في الذَّاكِرَة، اسْتِدْعَاءً لَهَا مِنْ مَخَازِنِ المعرفَةِ في النفس، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الخارجِ، عَنْ طريقِ بيانٍ وارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيّ ذَاتِي، أَوْ بِتَأْثِير حَدَثٍ طَارِئ، أو ظَاهِرَةٍ كونيّةٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ.

فَصَارَ هذا المراد بهذه المادَّة اللُّغَوِيَّةِ بِمَثَابَةِ مُصْطَلحٍ قُرْآني، كَمُصْطَلَح الصَّلاةِ، والزَّكاة، في الدَّلَالَةِ علَىٰ مَعَانِيهما الدِّينيَّة.

وَهـٰذا الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ هُوَ المطْلُوبُ الدِّينيُّ مِنَ التَّذَكُّرِ وَمِنَ الذِّكْر، ومِن اكْتِسَابِ المعارِفِ والْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وهُوَ الدَّافِعُ للسُّلُوكِ الدِّيني الملَائِمِ لَهُ والمطْلُوبِ فيه.

فالْمَعْنَىٰ: لَا يَتَذَكَّرُ هـٰذا التَّذَكُّرَ المؤَثِّرَ في الْقَلْبِ والنَّفْسِ إذْ تُسْتَحْضَرُ الْمَعْرِفَةُ الدِّينِيَّةُ في الذَّاكِرَة، وَلَا يَكُونُ دَافِعاً للسُّلُوكِ الدِّينِيِّ الْمُلَائِمِ لَهُ والْمَطْلُوبِ فيه، إلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ، الَّتِي تَعْقِلُ المعارف، وتَعْقِلُ النَّفْسَ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ عن اتِّبَاعِ الْأَهواء والشَهواتِ الضَّارَّاتِ،

والاسْتِجَابَةِ لِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَمُغْرِيَاتِهِمْ لِفِعْلِ الإثْمِ والشَّرِّ ومَعْصِيَةِ اللهِ رَبّ العالمين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً التَّعْلِيمَ السَّابق:

● ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

فِي هذِهِ الآيَةِ يَأْمُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ إمَامٍ مِنْ أئِمَّةِ المتَّقِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، بأَنْ يُعْلِمَ المؤمِنِينَ إخْبَاراً عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأرْبَعِ قَضَايَا مِنْ كُبْرَيَاتِ الْفِكْرِ الدينيّ إبَّانَ التنزيل:

القَضِيَّةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ ..﴾:

أي: قُلْ أَيُّها الرَّسُولُ، ويَا مَنْ أنْتَ نَاصِحٌ مُرْشِدٌ مِنْ أَئِمَّةِ المتقين، للمؤْمِنِينَ الّذِينَ تَحقَّقُوا بِصِحَّةِ الإيمانِ: إنَّ رَبَّكُمْ يُنَادِيكُمْ قائلاً لَكُمْ: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ﴾: أي: إنَّ رَبَّكُم يُشَرِّفُكُم بِعُبُودِيّتِكُمْ لَهُ بِسَبَبِ إيمَانِكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ، بِأَنْ تَتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لَكُمْ، ويُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ دَوَاماً.

أي: اتَّقُوا عِقَابَه، بِفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِفِعْلِهِ، وَبِتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْ فِعْلِهِ، وَهَـٰذَا أَمْرٌ بالْتِزَامِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الدُّنيا مِنْ مَرَاتِبِ المؤمنين، وفيها دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ بِحَسَبِ أحْوَالِ المتّقِينَ الْتِزَاماً أَوْ تَقْصِيراً، وهذه الدَّرَجَاتُ لَا يُحْصِيهَا إلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيها قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً التعليم: ﴿ .. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ ..﴾:

أي: وَرَغِّبْهُمْ فِي أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، فَقُلْ لَهُمْ: إنَّ

رَبَّكُم يَقُولُ لَكُمْ مُنَادِياً يَا عِبَادِي: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْكُمْ بِأَعْمَالٍ هِي مِنْ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَان، وَهِيَ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، فإنَّ اللهَ يَمْنَحُهمْ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنيا حَسَنَةً تَسُرُّهُمْ وَتُرْضِيهم، غَيْرَ الْأَجْرِ العظيم والثَّوابِ الجزِيلِ الّذي ادَّخَرَهُ لَهُمْ، فَهُمْ يَنَالُونَهُ يَوْمَ الدِّين فِي جَنَّاتِ النعيم.

وَطَوَىٰ النَّصُّ ذِكْرَ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ لِأَنَّ الارْتقاءَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ إنَّمَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الارْتِقَاءِ في دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، وَهِي مَرْتَبَةُ التوسُّعِ في الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُقَرِّبَةِ إلىٰ اللهِ، فَوْقَ فِعْلِ الواجِبَاتِ وَتَرْكِ المحرَّماتِ.

وتَكْشِفُ هذا المطويَّ النَّصُوصُ القرآنيَّة المتعلِّقَةُ بالْأَبْرَار.

القضية الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً التعليم:

﴿.. وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ..﴾:

كَانَ كثيرٌ مِن المؤمنين في هـٰذِهِ المرحَلَةِ يَتَعَرَّضُونَ للاضْطِهادِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ جَبَابِرَة أئِمَّةِ المشْرِكين في مكة، وَرُبَّما أكْرَهُوهُمْ عَلَىٰ الكُفْر، أو مَنَعُوهُمْ مِنْ مُمَارَسَةِ حُرِّيَّاتِهم الدِّينِيَّة، فَأَعْطَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الرَّسُول ﷺ، وأئِمَّةَ المتّقِينَ: أَنْ يُبَيِّنُوا لَهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ لَهُمْ بَابَ الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّة، إِلَىٰ أَرْضٍ يَجِدُونَ فِيها الْأَمْنَ، وَحُرِّيَّة مُمَارَسَةِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الدِّينيَّةِ مِنْهُمْ، فَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ يَجِدُونَ في مَكانٍ مَا مِنْهَا مَا يُرِيحُهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ دِينِهِمْ، وَتَطْبِيق أحْكَامِه.

وَلَعَلَّ هِجْرَةَ بَعْضِ أصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْعَهْدِ المكِّيّ كَانَ عَمَلاً بهذا التوجيهِ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التعليم:

- ﴿.. إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾:

• ﴿.. يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم ..﴾: أي: يُعطَىٰ الصَّابِرُونَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ كامِلَ أَجْرِهِمْ وَافِياً تامّاً، عَلَىٰ مَا يُلائِمُ جُودَ اللهِ وَفَضْلَهُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ الْعِبَادُ مَعْرِفَةَ مَدَاهُ كمّاً ولَا كَيْفاً.

• ﴿.. بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩﴾: أي: بِالْعَطَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ الْخَلائِقُ حِسَاب مِقدارِه، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا تَحَمَّلُوا مِنْ صَبْرٍ ابْتغاء مَرْضاةِ رَبِّهِم، لكِنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً.

هَلْ يَسْتَطِيعُ مَنْ قَدَّمَ مِثْقَالاً مِنَ الصَّبْرِ أَنْ يَحْسُبَ مِقْدار المكافَأَةِ عَلَيْهِ، إِذَا كان مِلْءَ الْأَرْضِ مِنْ مَثَاقِيل الْعَطاءِ الرَّبَّانِي، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا كَان مع ذَلِكَ دَائماً خالداً مُتَجَدِّداً بِلَا نِهايَة.

وبهذا انتهىٰ تدبرُّ الدّرس الخامس من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله عَلَىٰ معونَتِه ومَدَدِه وتَوْفيقه وفتحه.

(١٠)
التدبّر التحليلي للدرس السَّادس من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (١١ ـ ٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ⑪ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ⑫ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑬ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ⑭ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑮ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ⑯ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ⑱ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ

كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

القراءات:

(١١) • قرأ نَافع، وَأَبُو جَعْفر: **[إنِّيَ أُمِرْتُ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان: ﴿**إِنِّي أُمِرْتُ**﴾.

(١٣) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[إنِّيَ أَخافُ]** بفتحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إنّي أخافُ]** بإسكان ياء المتكلم.

(١٦) • قرأ رُوَيس: **[يَا عِبَادِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكِلّم وَصلاً وَوَقْفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**يَا عِبَادِ**﴾ بِحَذْفِ يَاءِ المتكلّم وَصْلاً وَوقفاً.

(١٦) • قرأ يَعْقُوب: **[فَاتَّقُوني]** بإثباتِ ياء المتكلّم وَصْلاً ووَقْفاً.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة ﴿**فَاتَّقُونِ**﴾ بحذفِ يَاء المتكلّم وَصْلاً وَوَقْفاً.

(١٧) • قرأ يَعْقُوب: **[فَبَشِّرْ عِبَادِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوقف فَقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ**﴾ بحَذْفِ يَاءِ المتكلّم وصْلاً ووَقْفاً.

(٢٠) • قرأ أبو جعفر: **[لَكِنَّ الَّذِينَ]** بتَشْدِيد نون «لَكِنَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان نُونِ «لَكِنْ»، وتُكْسَرُ فِي الوصْلِ للتَّخلُّصِ مِن الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْن.

تمهيد:

في آيَات هذا الدَّرْسِ تَكْليفٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، أَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، كَسَائِرِ المُكَلَّفِينَ،

وَمَأْمُورٌ بِأَنْ يَكُونَ أَوَّل الْمُسْلِمين مِنْ أُمَّتِه، وبأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إنّي أخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي مِنْ عَذَاب يَوْم عظيم، هُو يَوْمُ الْحِسَاب، وفَصْل القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وَمَأْمُورٌ بأَنْ يُعْلِنَ لَهُمْ أَنَّهُ يُطَبِّقُ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ فِي سُلُوكِهِ فِي حَيَاتِهِ، فَهُوَ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أحداً.

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ تعليمٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ، بأَنْ يَقُولَ لِلَّذِين يأبَوْنَ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ: اعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِ الله، فإنِي لَا أُجْبِرُكُمْ وَلَا أُكْرِهكُمْ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَكِنَّكُمْ تَكْتسبُون باخْتِيارِكُمْ خُسْرَاناً عَظِيماً تَخْسَرُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة، واعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ الْخُسْرَانَ الشَّنِيعَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، واعْلَمُوا أَنَّ عَذَابَكُمْ سَوْفَ يَكُونُ فِي جَهَنَّمَ إِذْ تُحِيطُ بِكُمْ ظُلَلُ دُخَانِ نَارِهَا: مِنْ فَوْقِكُمْ، وَمِنْ تَحْتِكُمْ، فاحْذَرُوا إنْ شِئْتُمْ هـٰذَا الْعَذَابَ الرَّهِيبَ.

أمَّا المؤمِنُونَ الّذِينَ أَنَابُوا إِلَىٰ اللهِ واجْتَنَبُوا عِبادَةَ غَيْرِ اللهِ وَلَمْ يُطِيعُوا الطَّواغيت، فَلَهُمُ الْبُشْرَىٰ، خُلُودٌ في جنَّاتِ النعيم، لَهُمْ فِيها غُرَفٌ نَفِيسَةٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الرائِعَة.

وكُلٌّ مِنْ جزاءِ المشركين، وجزاء المتّقين، قَدْ نَزَلَ بِهِ وعْدٌ صَادِقٌ مِنَ الله، واللهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد.

التَّدَبُّر التَّحْلِيليّ:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ أَوَامِرَ تَتَعَلَّقُ بِرِسَالَتِهِ، وَبِدُخُولِهِ تَحْتَ تَكَالِيفِهَا الْعَامَّةَ كَسَائِرِ الْمُكَلَّفِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

● ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾:

اشْتَملَتْ هٰذهِ الآيَاتُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوَامِرَ، أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا رَسُولَهُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَهُ للنَّاسِ، لِيُعْلِمَهُمْ بِهَا أَنَّهُ مِثْلُهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ التَّكالِيفِ الدِّينِيةِ الْمُوَجَّهَةِ لَهُمْ مِنَ اللهِ رَبِّ العالَمِين.

الْأَمْرُ الْأَوَّل: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

العبادة: الْخُضُوعُ والطَّاعَةُ والقيامُ بِمَا يُرْضِي الْمَعْبُود، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيه، وَرَأسُ العبادة الدُّعَاءُ بالغيب، لِتَحْقِيقِ مَطالِب الدُّنيا والآخِرَة.

والعبادةُ لَا تَكُونُ إلَّا لِلرَّبّ جَلَّ جَلالُهُ، فَهُو وَحْدَه الَّذِي يَسْتَحِقُّهَا، لِأَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الرَّبُّ الخالِقُ المالك.

وَالإِخْلَاصُ للهِ في الدين: هو جَعْلُ أعْمَالِ الدِّينِ خالِصَةً صَافِيَةً مُنَقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاءِ ومِنْ شَوائِبِهما.

يقالُ لُغةً: «أَخْلَصَ الشَّيْءَ» أي: صَفَّاهُ وَنَقَّاهُ مِنْ شوائِبِهِ.

الدِّين: الطَّاعَةُ والانْقياد، يُقَالُ: «دَانَ نَفْسَهُ» أي: أَذَلَّها وطَوَّعَها. ويَأتي الدِّين بمَعْنَىٰ الجزاء، ومنه «يوم الدين».

والدِّينُ للهِ: الطَّاعَةُ والتَّعَبُّدُ لَهُ مَعَ الخضوع والذُّلِّ والإِذْعَانِ لَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَسُلْطانِهِ جَلَّ جلالُه، والإذعانِ لِحَقِّهِ في الإِلَٰهِيَّةِ الَّتِي لَا يُشارِكُهُ فيها شَرِيك.

فالمعنى: قُلْ يَا أيُّها الرَّسُولُ مُعْلِناً للنَّاسِ جَمِيعاً: إِنِّي مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّي الَّذِي أَرْسَلَنِي بالرِّسَالَةِ الْخاتِمَةِ لِرِسَالَاتِهِ للنَّاس، بِأَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً له دِينِي، جَاعلاً كُلَّ أعْمَالِي التَعبُّدِيَّةِ خَالصةً لَهُ، صَافِيَةً مُنَقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاءِ وَمِنْ شَوَائِبِهما.

فأنَا مُطَالَبٌ بالإِخْلَاصِ للهِ في عِبَادَتِي مِثْلَمَا أَنَّكُمْ مُطَالَبُونَ بِهِ، وَلَيْسَ لِي إِعْفَاءٌ خَاصٌّ مِنْ هٰذَا التكلِيفِ باعْتِبَارِي نَبِيّاً وَرَسُولاً.

أقول: بَلْ تَكْلِيفُ اللهِ رَسُولَهُ فِي هـٰذَا أَشَدُّ مِنْ تَكلِيفِ سائِرِ النَّاسِ، فَمَا يَتَجاوَزُ اللهُ عَنِ الناسِ فيه، لَا يَتَجاوَزُه عَنْ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: وَقُلْ لَهُمْ يَا أَيُّها الرَّسُولُ: وَأُمِرْتُ بِأَعْمَالٍ خَاصَّةٍ بِي، لَمْ تُؤْمَرُوا أَنْتُم بِمِثْلِهَا، وَمِنْهَا أَنْ أَغْشَىٰ جُمُوعَ النَّاسَ دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ بالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وأَنْ أَصْبِرَ عَلَىٰ مَا أَنَالُ مِنْ أذىً فِي تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبّي، وَمِنْهَا أَنْ أَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلاً أَعْبُدُ رَبِّي بالصَّلَاةِ والتِّلَاوَةِ والذِّكْرِ، لأجل أَنْ أَكُونَ فِي تَطبيقَاتِي الإِسْلَامِيَّةِ أَوَّلَ الْمُسْلِمينَ الْمُطِيعِينَ لِرَبِّهم في هذه الرسالةِ الخاتِمَة.

الْمُسْلِم: المنقادُ المطِيعُ بِفِعلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنه. يُقَالُ لغة: «أَسْلَمَ، يُسْلِمُ، إِسْلَاماً» أي: انْقَادَ مطيعاً مُخْتاراً.

ولِهذا جاء في بَيَانِ أَرْكَانِ الإِسْلَام: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضَان، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سبيلاً.

الأَمْرُ الثَّالث: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَقُلْ لهم يا أَيُّهَا الرَّسُولُ: إِنِّي مُعَرَّضٌ لِعَذَاب رَبِّي فِي يَوْمٍ عَظِيم قَادِمٍ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، هُوَ يَوْمُ الدِّينِ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، فَعبَدْتُ مِنْ دُونِهِ شُرَكَاءَ، أَوْ عَصَيْتُهُ بِتَرْكِ مَا أَمَرَني بِفِعْلِه، أَوْ بِفِعْلِ مَا أَمَرَنِي بِتَرْكِه، فَلَسْتُ مَعْفِيّاً مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ إِنْ أَنَا عَصَيْتُهُ، وَلَكِنِ اعْلَمُوا أَنِّي لَنْ أُعَرِّضَ نَفْسِي لِعِقَابِ رَبِّي، وَقَدْ آتَانِي عَقْلاً وَرُشْداً، وإِرَادَةً قَوِيَّة حَازِمَةً أَضْبِطُ بِهَا سُلُوكِي عَلَىٰ وَفْقِ مَا يُرْضِيه مِنِّي، مُلْتَزِماً فِي مَسِيرَتي فِي حَيَاتِي صِرَاطَهُ المسْتَقِيم، لَا أَخْرُج عَنْهُ ذَاتَ الْيَمِين ولَا ذَاتَ الشِّمَال.

أُضِيفَ لفظ «عَذَابَ» إلى «يَوْم عَظِيم» لِأَنّ هـٰذا الْعَذَابَ يَجْرِي فيه، والْمُرَادُ: إنّي أخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَهُ الْأَلِيمَ الّذِي سَوْفَ يَكُونَ فِي يَوْمٍ عَظِيم هو يَوْمُ الدين.

الأَمْرُ الرابع: دَلَّ عليه قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾:

أي: أعْلِنْ للنَّاسِ أَنَّكَ مُطِيعٌ بالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ أَمْرَ اللهِ لَكَ، بأنْ تَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، لَا تُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ شيئاً مِنَ الأحْيَاءِ ومِنْ غَيْرِ الأحْيَاء، فَقُلْ لَهُمْ بإعْلَانٍ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا لَبْسَ فيه وَلَا غُمُوض:

﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾.

جاء في العبارة تقديم لفظ الجلالة «الله» وهو مَفْعُولٌ بِهِ على العامل وهو فعل «أَعْبُدُ» لإفَادَةِ الْحَصْرِ، أي: لا أَعْبُدُ إلَّا الله، وحِينَ أَعْبُدُهُ تَكُونُ عِبَادَتِي لَهُ خَالِصَةً مِنْ كُلِّ الشَّوَائِبِ، وأَدْنَاها أَخَفُّ أنْواعِ الرِّيَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى مُتابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لرسوله ﷺ، بِشَأْنِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكين في مَوْضُوع عباداتِهم، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِمَا جاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله ﷺ:

• ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾:

أي: قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلَّذِينَ لم يَسْتَجِيبوا لِدَعْوتِكَ: أَنْتُمْ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ أحْرَارٌ فيما تَخْتَارُونَ مِنْ إيمانٍ وَعِبَادَةٍ، لَسْتُمْ مَجْبُورِينَ على الاسْتِجَابَةِ لِمَا يَدْعُوكُم رَسُولُ رَبِّكُمْ إليْه، إذْ لَا إكْرَاهَ فِي الدِّين، فلَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ فِي رِحْلَة امْتِحَانِكُمْ مِنْ أحياءٍ وَغَيْرِ أَحْيَاء، مِنْ مَشْهُودٍ وَغَيْرِ مَشْهُود، ولَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَحَمَّلُوا تَبِعَةَ اختِيارَاتِكم، فِي عِبَادَةِ مَا تَشَاؤُونَ مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِذَا لَزِمْتُمْ مَذْهَبَ الشِّرْكِ، وكَفَرْتُمْ بِحَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، كُنْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ خُسْرَاناً، إِذْ تَخْسَرُونَ أَنْفُسَكُمْ بِإِلْقَائِهَا فِي الْعَذَابِ الأَبَدِيِّ الأَلِيم، وَتَخْسَرونَ الْأُنْسَ بِأَهْلِيكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مَعَكُمْ فِي الْعَذَاب، فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ أَعْدَاءً لَكُمْ، إِذِ الأَخِلَّاءُ سَوْفَ يَكُونُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّاً إِلَّا المتَّقِينَ، وإِنْ كَانُوا بِإِيمانِهِمْ مِنْ أَهْلِ دَارِ النَّعِيم، فإِنَّهُمْ سَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْكُمْ، ويَكُونُونَ شَدِيدِي الْعَدَاوَةِ لَكُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِرَبِّكُمْ، وهُمْ يَوْمَ الدّين يَسْخَطُونَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَجعَلَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ حِينَما تُكَبُّونَ فِي جَهنَّمَ يَوْمَ الدِّين، تَكُونُونَ فِي وَسَطٍ مِنْهَا تُحِيطُ بِكُمْ ظُلَلٌ مِنْ دُخَانِ نَارِها مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِكُمْ، وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، وهٰذه الظُّلَلُ الدُّخَانِيَّةُ تكُون شَدِيدَة الحرارة، مَعَ مَا تُحْدِثُهُ مِنْ ظُلْمَةٍ تَزِيدُ مِنْ عَذَاب المعَذَّبين فِي جَهَنَّمَ.

وقد سبَقَ في سورة (الواقعة/٤٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ أَصْحَابَ الشِّمَالِ يكُونون في دَارِ العذاب:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾.

السَّمُوم: الرّيحُ الحارّة الَّتِي تَنْفُذُ في المسَامّ.

الْحَمِيم: الماء الْحَارُّ ذُو الحرارة الشَّديدة.

وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم: أي: وفي ظِلٍّ مِنْ أَثَرِ يَحْمُوم، وهُوَ الدُّخَانُ، والْأَسْوَدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُو دُخَانٌ أَسْودُ شدِيدُ الحرارة.

ظُلَل: جَمْعُ «ظُلَّة» وهِيَ مَا أَظَلَّ وَسَتَر. وظَاهِرُ أَنَّ الظُّلَلَ مِنَ النار إِنَّمَا تَكُونُ دُخَاناً أَسْوَدَ شَدِيدَ الحرارة، يُحْدِث كَرْباً شَدِيداً.

- ﴿... أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾:

«ألَا» أداةُ استفتاح، وتَنْبيهٍ، وَتوْكيد.

أي: انْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا أَنَّ خُسْرانَ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَأَهْلِيه، إِذْ يَكْتَسِبُ مِنَ الجرائم مَا يَجْعَلُهُ يَوْمَ الدِّينِ مِن الخالِدِين في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المُجْرِمِينَ، هُوَ الْخُسْرَانُ الْوَاضِحُ الْجلِيُّ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ بأَنَّهُ مِنْ أَشَدِّ صُوَرِ الْخُسْرَانِ الَّتِي لَا يَخْتَلِفُ في الْحُكْمِ عَلَيْهَا اثْنَان.

• ﴿. . ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾:

أي: ذَلِكَ التحْذيرُ الشَّدِيدُ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، بَيَانٌ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنَ الْعَذَابِ الشديد الذي سَوْفَ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّين، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ، فَضْلاً عمَّا هُو أشَدُّ مِن الشِّرْكِ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ، وَمَاتُوا وَلَمْ يَتَدَارَكُوا نُفُوسَهُمْ بالإيمانِ الصَّحِيح، وبِما يُعَبِّرُ عَنْهُ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ.

وأخِيراً يُنَادِي اللهُ في الآيَةِ عِبَادَه الَّذِينَ هُمْ مَخْلُوقُونَ وَمَمْلُوكُونَ لَهُ، فَيَقُولُ لهم: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾: أي: يَا عِبادِي الَّذِين أَنْتُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي، وَوَاقِعُونَ فِي مِلْكِي، أتَصَرَّفُ فِيكُمْ بِحَسَبِ مَشيئَتِي الْعَادِلَةِ الحكِيمَةِ فِيكُم: اتَّقُوا عَذَابِي الَّذِي جَعَلْتُهُ لِمَنْ كَفَرَ بِوَحْدَانِيَّتِي فِي رُبُوبِيَّتِي، أَوْ وَحْدَانِيَّتِي في إلَهِيَّتِي، وَلِمَنْ عَصَانِي بِتَرْكِ مَا أَمَرْتُهُ بِفِعْلِه، أَوْ بِفِعلِ مَا نَهَيْتُهُ عَنْ فِعْلِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وهذا المعنىٰ هُو المرادُ هنا، ولفظ «الطَّاغُوت» يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وغَيْرُه والمذكَّرُ والمؤنث، وقد يُجْمَعُ على «طَواغيت».

وأصْلُ معنى «الطاغوت» كُلُّ رَأسٍ في الضَّلال، ويُطْلَقُ على الشيطان، والكاهن، والساحر.

• ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾:

اجْتِنَابُ الشَّيْءِ: يكُونُ بالابْتِعَادِ عَنْ حُدُودِهِ، وَعدَمِ الاقْتِرَاب مِنْهُ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ عَدَمِ الْوُقُوعِ به.

فالمعنى: والَّذِينَ ابْتَعَدُوا عَنِ الاقتراب مِنْ كُلِّ الطَّوَاغيت، وهي آلِهَةُ المشْرِكينَ، والاقْتِرَابِ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ تَعْظِيمِهَا وَعِبَادَتِها، حَذَرَ أَنْ يُسْتَنْزَلُوا أَوْ يُزْلَقُوا إِلَىٰ عِبَادَتِهَا، ولَوْ بِقَبُول أحْكَامِ التحلِيلِ والتحريم، وَمَا يَفْتَرِيهِ سَدَنَتُها مِنْ أَخْبَارٍ عَنْ مُغَيّبَاتٍ، وَهـٰذَا مِنْ عِبَادَتها.

فالعبارة فيما أَرَىٰ على تَقْدِير: «حَذَرَ أَنْ يَعْبُدُوها».

فالتَّعْبِيرُ باجْتِنَاب الطَّوَاغِيتِ حَذَرَ عبادَتِهَا يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ إيمانِهِمْ بتَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ وفي إلهيَّته، وشِدَّةِ كَرَاهِيَتِهِمْ لِلشِّرْكِ، عَلَىٰ أيّ صُورَةٍ مِنْ صُورِه، وَأيّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِه.

• ﴿. . وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ . .﴾: يُقَال لغة: «أَنَابَ فُلانٌ إلى الشَّيْءِ يُنِيبُ»، أي: رَجَعَ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً، فَهُو «مِنِيب».

أُطْلِقَ عَلَىٰ الإيمانِ وتَرْجَمَتِهِ بالْعَمَلِ الصَّالحِ: إِنَابَةً، لِأَنَّهُ رُجُوعٌ إِلَىٰ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، وهي الإيمان الصحيح برُبوبيَّة الله.

ولـمَّا كَانَ هذا الرُّجُوعُ لَا يَتِمُّ الْكَمَالُ فِيهِ دُفْعَةً واحِدَة، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبَ أَنْ يُخْتَارَ لِلدَّلَالَة عليه فعل: «أنَابَ» الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الرُّجُوع مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة.

• ﴿. . لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ . .﴾: **الْبُشْرىٰ**: اسْمٌ للتَّبْشِير. كما أَنَّ **«الذِّكْرىٰ»**

اسْمٌ لِلتَّذْكِير. **والتَّبْشِيرُ**: هُو الْإِخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ المخْبَرَ مِنْ نَبأٍ حَصَلَ لَهُ ولَمْ يَعْلَمْ بِهِ، أَوْ نَبأٍ سَيَحْصُل لَهُ عَاجلاً أَوْ آجلاً.

والبشْرَىٰ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْمؤمِنُونَ الَّذين اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها، وأَنَابُوا إِلَىٰ اللهِ:

(١) قَدْ تَنَزَّلَتْ بِهَا نُصُوصُ القرآن المجيد، في مَواطِنَ كثيرةٍ مِنْه، بِوْعدٍ مُؤَكَّدٍ مَقْطُوعٍ بِهِ، واللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد.

(٢) وَتَكُونُ لَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ إِذْ يُكْشفُ للمؤمِنِ عِنْدَ مَوْتِهِ مَنْزِلَتُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ، فَيُحِبُّ اللهُ لِقَاءَه.

(٣) وتكُونُ لَهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ إِذْ يأخُذُونَ كُتُبَ أَعْمالِهِم بأيمَانِهِم، وهٰذِهِ بُشْرَىٰ عظيمة بأَنَّهُمْ مِنْ أهْلِ الْجَنَّة.

(٤) وَتَكُونُ لَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنيا بِرُؤْيا صَالِحَةٍ أَوْ أَكْثَرهُمْ يَرَوْنَها، أَوْ تُرَىٰ لهم مِنْ صَالِحِينَ أَوْ صَالِحَات.

(٥) وَقَدْ تَكُونُ لَهُمْ بِخَبَرِ نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ، كالعشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بالْجَنَّة مِنْ أصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ.

أَمَّا الْبُشْرَىٰ بما جاء في الْقُرْآنِ مِنْ وَعْدٍ كَرِيم، فقد قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِها في الآية: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾: أي: فَبَشِّرْ يا أيُّها الرَّسُولُ عِبَادِي هٰؤلَاء بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ في جنَّاتِ النعيم يَوْم الدّين.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَاتِ هٰؤلَاءِ المبَشَّرِينَ أنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيُحَاكِمُونَهُ بِعُقُولِهِمْ الدَّرَّاكَةِ الْوَاعِيَةِ الْحَصِيفَةِ النَّظِيفَةِ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ قَوْل، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِمْ:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ.. ﴿١٨﴾﴾:

أي: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ قَوْلَ اللهِ في آيَاتِ كِتَابِهِ، وقَوْلَ الرَّسُولِ فِي

بَيَانَاته، وَقَوْلَ حَمَلَةِ دَعْوَةِ الرسُولِ ﷺ مِنْ أُمَّتِهِ، ويَسْتَمِعُونَ أَقْوَالَ المشْرِكِين، وَزُخْرُفَ أَقْوَالِ الْكَفَرَةِ المضلِّلينَ مِنْ شَيَاطِين الإنس، فَيُوازِنُون بَيْنَ الأَقْوَالِ، وَقَدْ تَغُرُّهُمْ أحْياناً أَقْوالُ الْمُضِلِّينَ الزُّخْرُفِيَّة، فَيَجِدُون فِي أَصْبَاغِهَا وَأَلْوَانِهَا وَمَا فِيها مِنْ صِنَاعَةٍ تُوهِمُ بأَنَّها حَقٌّ، بَعْضَ الْحُسْنِ فِي بَعْضِ الْقَضَايَا الَّتِي هِيَ من الْفُرُوع لَا مِنَ الأُصُولِ، لَكِنَّهُمْ إِذَا قَارَنُوهَا بِمَا جَاءَ فِي دِين اللهِ، وَنَظَرُوا إِلَيْهَا بِمِنْظَارِ الْحَقِّ والتَّجْرِبَةِ وَجَدُوا أَنَّ مَا جَاءَ في بَيَانَاتِ دِينِ اللهِ أَحْسَنَ مِنْها.

فَهُمْ لا يَرْفُضُونَ اسْتِمَاعَ الأَقْوَالِ ابْتِدَاءً، بَلْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْها، فَيَنْبِذُونَ مَا يَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّهُ بَاطلٌ، وَهِيَ الأُصُولُ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا الْكَافِرُونَ أَبْنِيَتَهُمُ الْفِكْرِيَّةَ التَّنْظِيمِيَّةَ لِشُؤُونِ الحياة، ثُمَّ بالْبَحْثِ والتَّأَمُّلِ يَرَوْنَ أَنَّ أحْكَامَ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ هِي أَحْسَنُ الأَحْكَامِ وَأَفْضَلُهَا، لِمُرَاعَاةِ حُقُوقِ النَّاسِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَتَنْظِيم حَيَاتِهِمْ تَنْظِيماً فِيهِ طِيبُ عَيْشِهِمْ وَمَرْضَاةُ رَبِّهِمْ.

وَمِنْ هُنَا يَتَحقَّقُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبعُونَ أَحْسَنَهُ، أي: فَيَنْبِذُونَ مَا يَرَوْنَهُ بَاطِلاً، وَيَتَّبِعُونَ مَا يَرَوْنَهُ هُوَ الأَحْسَن، وَعِنْدَئِذٍ يَجِدُون أَنفُسَهُمْ مُلْتَزِمِينَ دِينَ اللهِ الْتِزاماً كَامِلاً فِي أُصُولِهِ الَّتِي هِيَ الْحَقُّ، وفي فُرُوعِهِ الَّتِي هِي الأَحْسَن.

وَبناءً عَلَىٰ مَا سَبَقَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِمْ:

﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾:

أي: أُولئِكَ رَفِيعُو المنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِدَايَتِهِمْ، لاسْتِخدَامِهِمْ عُقُولَهُمْ فيما خُلِقَتْ لَهُ، فَأَدْرَكُوا الْحَقَّ والْخَيْرَ والأَحْسَنَ فَاتَّبعُوه، وَأَعَانَهُمْ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ خُطُواتِهِم فِي صِرَاطِ الْهِدَايَةِ، إِذْ لَمْ تَخْدَعْهُمْ زَخَارِفُ أقْوالِ المضِلّين، وَأُولئِكَ أَيْضاً هُمْ أُلُوا الأَلْبَاب، أي: هم أَصْحَابُ الْعُقُولِ الْحَصِيفَةِ النظيفة.

اللُّبُّ: هو العقل الخالِصُ مِنَ الشّوائب. **والْألْبَابُ**: هِيَ الْعُقُولُ الواعِيَة الدَّرَّاكَةُ الَّتِي تَعْقِلُ المَعارِفَ فَتُمْسِكُ بها، وتَعْقِلُ النفوسَ عَنِ اتّبَاعِ الْهَوىٰ.

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في آخِرِ هذا الدَّرْسِ مُبّيناً لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنَّ وَظِيْفَة الدَّاعِي إلَىٰ اللهِ لَا تَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا وَظيفَةَ بَلاغ، فَهِيَ لَا تَصِلُ إلى إنْقَاذ مِنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الكُفْرَ عَلَىٰ الإيمانِ، مِنْ عَذَابِ النَّار الَّذِي اسْتَحَقَّهُ بِاخْتِيَارِه الْحُرِّ.

لَكِن الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ وَاتَّبَعُوا رِضوانَهُ قَد اخْتَارُوا لِنُفُوسِهِمْ سُلُوكَ الصِراطِ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إلَىٰ الْخُلُودِ في السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، ذَاتِ الصِّفَاتِ النّفِيسَاتِ الْمُسْعِدَاتِ دَوَاماً للّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ:

• ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾:

• ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾؟:

أي: أَفَمَنْ ثَبَتَ وَتَحقَّقَ عَلَيْهِ العذَابُ الّذِي صَدَرَتْ بِهِ كَلِمَةُ اللهِ الْقَضَائِيَّةُ مُسَلَّطَةً عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، تَسْتَطِيعُ أَنْتَ أَيّاً كُنْتَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، ومَهْمَا كُنْتَ مِنْ مُحِبِّيهِ ونَاصِرِيهِ، إنْقَاذَه مِنْ عَذَاب النَّار؟؟.

الاستفهام هُنَا يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، والإنْكَارُ عَلَىٰ مَنْ يَدَّعِيهِ.

وَجَاءَت جُمْلَةُ: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ المصَدَّرة بالاستفهام الإنْكارِيّ سَادَّةً مَسَدَّ خَبَرِ «مَنْ» في الْعِبَارَةِ السَّابِقَةِ.

والمعنى: أَمَنَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ باخْتِيارِه الْحُرِّ، وَمَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ مُعَانِداً، فَحَقَّ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ وَوَعِيدِه الصَّادِقِ أَنْ تُصَدَّر مُسَلَّطَةً عَلَيْهِ

كَلِمَةُ اللهِ بتَعْذِيبِهِ خَالِداً مُخَلَّداً فِي نَارِ جَهَنَّم، فأنْتَ أيّاً كُنْتَ وَمَهْمَا كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ إنْقَاذَهُ مِنْ عَذَابِ النَّار، إذْ لَا رَادَّ لِحُكْمِ اللهِ وَلَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ. الفاء في ﴿أَفَمَنْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ على محذوف.

وأرَىٰ أَنَّ الْخِطَابَ فِي العِبَارَةِ غَيْرُ مُوَجَّهٍ لِمُعَيَّن، والمرادُ بِهَا نَفْيُ إمْكَانِ إنْقَاذِ مَنْ صَدَرَتْ مُسَلَّطَةً عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ من اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَجاء استعمالُ حَرْفِ «عَلَىٰ» في عبارَة «عَلَيْهِ» مُلَائِماً لِمَعْنَىٰ الْحُكْمِ النَّازِلِ عَلَيْهِ بالْعَذابِ، وَلَوْ كانَتْ كَلِمَةُ اللهِ لِمَصْلَحَتِه لَكَانَ مِنَ المنَاسِبِ في العبارة أنْ يُقَالَ: أَفَمَنْ حَقَّ لَهُ؟.

وفي مُقَابِلِ بَيَانِ عَذَابِ الْكَافِرينَ في النَّارِ الّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ إنْقَاذَهُمْ مِنْهُ، جَاءَ بَيَانُ طَرَفٍ مِنْ نَعِيم المتَّقِينَ فِي جنَّاتِ النّعِيم، وفْقَ مَنْهَجِ القرآن فِي إتْبَاعِ ذِكْرِ الْوَعِيدِ بذِكْرِ الْوَعْد، وإتْبَاعِ ذِكْرِ الْوَعْدِ بِذْكِرِ الْوَعِيد، فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾:

جاء الاسْتِدْرَاكُ بِحَرْفِ **[لَكِنْ]** وفِي القراءة الأخرى **[لَكِنَّ]** لِدَفْعِ تَوَهُّم أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ الثَّابِتَاتِ تَكُونُ كَلِمَاتِ قَضَاءٍ بِعَذَابٍ، فَجاءَتْ كَلِمَةُ «لَكِنْ» دَالَّةً على أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ الثَّابِتَاتِ تَكُونُ بالجزاءِ بِالثَّوَابِ كَمَا تَكُونُ بِالْجَزاءِ بالْعِقَابِ. كما تَكُونُ بِغَيْرِهما مِنْ أَحْكامِه.

وحَرْفُ «لَكِنْ» حَرْفُ ابْتِدَاءٍ لَا يَعْمَل، ومَعْنَاهُ الاسْتِدْرَاك.

وحَرْفُ «لَكِنَّ» حَرْفٌ مِنْ أخَواتِ «إنَّ» يَنْصِبُ الاسْمَ ويَرْفَعُ الخبر، وَمَعْنَاهُ الاسْتِدْرَاكُ.

فَمُؤَدَّىٰ معنَىٰ الحرفَيْنَ وَاحد.

• ﴿.. ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ..﴾: أي: الَّذِينَ اتَّقَوْا عَذَابَ رَبِّهِمْ بِالْإِيمَانِ والْعَمَلِ الصَّالح، فَحَمَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَاب النَّارِ.

• ﴿.. لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ..﴾: أي: أُعِدَّتْ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النّعِيم قُصُورٌ عَظِيمَةٌ، وَفي هـٰذِه الْقُصُورِ العظيمة غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِي أَهْلُها.

الْغُرَفُ: جَمْعُ «الْغُرْفَةِ» وهي في الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَب ذَاتُ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ فيها، تُخْتَارُ لِسَيِّدِ الْقَصْرِ ومُتْعَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَيُصَعَدُ إِلَيْها بِدَرَجٍ، وتَكُونُ فِي العادة عالِيَةً مُشْرِفَةً تُشَاهَدُ مِنْ شُرُفَاتِهَا الْأَنْهَارُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا، وَمِنْ تَحْتِ الْقُصُور.

• ﴿.. تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ..﴾: أي: تَجْرِي مِنْ تَحْتِ هـٰذِهِ الْغُرَفِ وَمِنْ تَحْتِ الْقُصُورِ الَّتِي هِي مَبْنِيَّةٌ فَوْقَهَا الْأَنْهَارُ الْجَمِيلَةُ الرَّائِعَةُ التَّدَفُّقِ وَالْجَرَيَانِ، زِيَادَةً فِي نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحانِ في الدُّنيا.

﴿.. وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: هُمْ مَوْعُودُونَ بِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم غُرَفٌ مِنْ فوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ، حَالَةَ كَوْنِ هـٰذا الْوَعْدِ وَعْدَ اللهِ، وَحَالَةَ كَوْنِ اللهِ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

المِيعَادُ: مَصْدَرُ «وَاعَدَ». يقال لغة: «وَاعَدَهُ، مُواعَدَةً، ومِيعَاداً» وجاء مِنْ فِعْلٍ يَدُلُّ عَلَىٰ المشَارَكَةِ لِلْإِشْعَارِ بأَنَّ وَعْدَ اللهِ مُؤَكَّدٌ جدّاً، فَكَأَنَّهُ مُوَاعَدَةٌ بَيْنَ فَرِيقَين، مَقْرُونَةٌ بِتَوْثِيق. وَيُطْلَقُ الميعاد علَىٰ زَمَانِ الْوَعْدِ، ومَكَانِهِ.

ومِنْ قَطْعِيَّاتِ الْعَقِيدَة الإيمانيَّةِ في الْإِسْلَام أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يُخْلِفُ تَنْفِيذَ وَعْدِه، وَلَا يُخْلِفُ في زَمَنِ وَعْدِه، ولَا في مَكَانِهِ، فَشَمَلَتِ الْعِبَارَةُ كُلَّ ذَلِكَ.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ السَّادِس من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على معونتِه ومَدَدِه وتَوفيقِهِ وفَتحه.

(١١)
التدبُّر التحليلي للدَّرس السابع من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٢١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

تمهيد:

في آيَةِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضٌ لِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في كَوْنِهِ، تَذْكيراً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - لِكُلِّ مَا فِي الكَوْنِ، المسْتَلْزِمَةِ عَقْلاً لِوَحْدَانِيَّتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

بَيْنَ آيَةِ هـٰذا الدَّرْسِ، وَبَيْنَ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ في نُجُوم التَّنْزيل، بِشَأْنِ مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بالْمَاءِ الَّذِي يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ، بَعْدَ أَنْ يُصْعِدَهُ بالتَّبَخُّرِ وَيَجْعَلَهُ سَحَاباً، تَكَامُلٌ بَدِيعٌ مَعَ تَأْكِيدِ أَصْلِ الامْتِنَان.

وَالتَّدَبُّر التكامُلِيُّ لَهَا يَحْتَاجُ بَحْثاً خَاصّاً، وَقَدْ نظرتُ في سوابق التنزيل فَظَهَرت لي النصوص التالية:

(١) الآياتُ من (٩ ـ ١١) مِنْ سُورَة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) الآية (٥٧) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٣) الآيتان (٤٨ و٤٩) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٤) الآية (٢٧) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول).

(٥) الآيتان (٥٣ و٥٤) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(٦) الآية (٦٠) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

(٧) الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

(٨) الآية (٩٩) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

(٩) الآية (١٠) من سروة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول).

(١٠) الآية (٢١) من سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) وهي: التِي يَجْري تَدَبُّرُها بِمَعُونَةِ اللهِ وَمَدَدٍ مِنْه.

وسيأتي في سُوَرِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ اللَّاحِقِ نُصُوصٌ أُخْرَىٰ.

وَمُتَدبِّر هـٰذِهِ النُّصُوصِ تَدبُّراً تَكَامُلِيّاً بأَنَاةٍ وتأمُّلٍ عَمِيقٍ، يُلَاحِظُ مَا في كُلٍّ مِنْهَا من بَيَانِ جَانِبٍ أَوْ أَكْثَرَ لَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِه من النُّصُوص، فتَبَارَكَ اللهُ مُنْزِلُ هـٰذا الكِتَاب الْمُعْجِز، الَّذِي لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُه ورَوائِعُهُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ حَكِيمٍ عَلِيم.

أَمَّا آيَةُ سورة (الزُّمر) فَقَدْ طَرَحَتِ البيانَ بِصِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ مُوجَّهٍ لِكُلِّ صَالِحٍ لِأَنَّ يَرَىٰ بِبَصَرِه، وَيَرَىٰ بِفِكْرِه الدَّرَّاكِ، أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الْمُهَيْمِنَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِه عَلَىٰ كُلِّ أصْغَرِ جزْءٍ مِنْ ذَرَّاتِ كَوْنِهِ، أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

(أي: مِنَ السَّحَاب، إذْ كُلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ فَهُو فِي اللُّغَةِ سماء) مَاءً عَلَىٰ شَكْلِ مَطَرٍ، أَوْ ثَلْج، أَوْ بَرَدٍ، فَأَدْخَلَهُ فِي مَسَارِبَ مِنَ الْأَرْض، وَجَعَلَهُ مَخْزُوناً فِي تَجَاوِيفها، فَسَلَكَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَسَارِبَ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، وَأَخْرَجَهُ يَنَابِيعَ، مِنْهَا مَا يَكُونُ عُيُوناً، وَمِنْها مَا يَجْرِي سَوَاقِيَ، ومِنْهَا مَا يَجْرِي أَنْهَاراً صُغْرىٰ وَكُبْرىٰ.

• ﴿يَنَابِيعَ﴾: جَمْعُ مُفْرَدُه «يَنْبُوع» وهو عَيْنُ مَاءٍ يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْض.

• ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: فَأَدْخَلَهُ في مَسَارِبَ جَعَلَها اللهُ في بَاطِنِ الْأَرْضِ، لِيَخْرُجَ مِنْ أَمْكِنَةٍ أُخْرَىٰ يَنابِيعَ يَشْرَبُ مِنْهَا النَّاسُ، وَيَسْقُونَ مِنْها أَنْعَامَهُمْ وَدوابَهُمْ وَمَزَارِعَهُمْ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزّمَنِ يُوصِلُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إلَىٰ بَاطِنِ الْبُزُور والجذُورِ الْمُنْبَثَّةِ فِي الْأَرْض، ويُخْرِجُ بالماء الَّذِي حَلَّلَ عَناصِرَ التُّرْبَة، فاخْتَلَطَتْ بِهِ مَوادُّ غذَاءِ النَّبَاتِ، فَتَغَلْغَلَ الْخَلِيطُ إِلَىٰ نَوَيَاتِ الْبُزُورِ، وَمَا هُوَ مُسْتَعِدٌّ بِتَقْدِيرِ اللهِ للنَّبَاتِ فِي الْجُذُور، فَيُخْرِجُ اللهُ بِذَلِكَ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ، وَمُخْتَلِفَةً أَجْنَاسُهُ وَأَصْنَافُهُ وَطُعُومُهُ وَمَنَافِعُهُ.

• ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: أي: يَيْبَسُ وَيَصْفَرُّ، يُقَالُ لغة: «هَاجَ النَّبَاتُ، يَهِيجُ، هَيْجاً، وَهَيَجَاناً» أي: يَبِسَ واصْفَرَّ، وَيُقَالُ: «هاجَتِ الْأَرْضُ» أي: يَبِسَ بَقْلُهَا واصْفَرّ.

• ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: أي: فَتَراهُ أَيُّهَا الرائي أيّاً كُنْتَ بَعْدَ يُبْسِهِ مُصْفَرّاً.

• ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾: أي: ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللهُ مُحَطَّماً مُكَسَّراً، لَا خُضْرَةَ فِيه وَلَا نُضْرَة.

الْحُطام: الأشْيَاءُ الْمُحطَّمَةُ المكَسَّرَة.

• ﴿.. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾:

- ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: اسْمٌ لِلتَّذكير.
- **[لِأُولى الأَلْبَاب]**: أي: لأصْحَابِ العقولِ الواعية الدَّرَّاكةِ الحصيفَةِ النَّظِيفَة.

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي هذه الآيَةِ مُصرَّحاً بِهِ وَمَطْوِيّاً، تَذْكِيراً لِأَصْحَاب الْعُقُولِ الواعِيَةِ، بِكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَبِرُبُوبِيَّتِهِ المهيْمِنَةِ عَلَىٰ كُلِّ أصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ ذَرَّاتِ كَوْنِهِ، وَعَلَىٰ إتْقَانِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَعَلَىٰ أَنَّ حَالَةَ الْأَحْيَاءِ وَمِنْهُمُ النَّاسُ، كَحَالَةِ النَّبَاتِ فِي الْأَرْضِ، إذَا انْتهَتْ أَعْمَارُهُمْ أَمَاتَهُمُ الله، ثُمَّ إِذَا شَاءَ بَعَثَهُمْ إِلَىٰ حياةِ الْحِسَابِ، وَفَصْلِ القَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، بَعَثَهُمْ، كَمَا يُحْيِي النباتاتِ مِنْ بُزُورِهَا، بَعْدَ أَنْ صَارَتْ حُطاماً، وَخَلْقُ اللهِ لِلْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْحَيَّةِ ولِلْأَحْيَاء لَا يَحْتَاج أَكْثَرَ من أَمْرِ التكوين: «كُنْ فيكُون»..

وبهذا انتهى الدرس السابع منْ دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

(١٢)
التدبّر التحليلي للدَّرُس الثامن من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾.

التدبّر التحليلي:

الشّرح: يُستَعْمَلُ للدَّلَالَةِ على الْبَسْطِ والتوسِعَة، وشَرْحُ الصَّدْرِ

لِلْإسلام يَكُونُ بِجَعْلِه منفرجاً واسعاً قَادِراً على تَحمُّلِ الْمُزعجَاتِ والمكارِهِ والأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وكُلِّ مَا يُخَالِفُ أهْواءَ النَّفْسِ وشَهواتِها، ويكُونُ بِجَعْلِه مُقْبلاً علىٰ التطبيقَاتِ الإسلاميَّةِ بسُرُور وَرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ بِسَبَبِ إيمانِهِ بالجزاء العظيم الَّذِي أعَدَّهُ اللهُ عَز وجَلَّ للَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ويَتَحَمَّلُونَ المكاره ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِه.

هذه الآيَةُ قَدْ نَزَلَ قَبْلَهَا في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) آيَةٌ يَتَكامَلُ مِنْهُما عِقْدُ مَوْضُوع، وَهِي قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذِهِ الآيَةِ في مَوْقِعِهَا من سورة (الأنعام).

ولاسْتِجْماعِ كَامِلِ عَنَاصِرِ الموضُوعِ مِنَ النَّصَّيْنِ، لَا بُدَّ مِنْ تَوْضِيحِ أفْكَارٍ أَسَاسِيّةٍ تُبْنَىٰ عَلَيْهَا تَتِمَّاتُ الموضوع.

الإيمان: هُو التَّصْدِيقُ الإرَادِيُّ الْقَلْبِيُّ المقْرُونُ بابْتِغَاءِ الحقِّ والْبُعْدِ عَنِ الباطلِ، وهذا التصْدِيقُ يَجبُ أَنْ يكون تَصْدِيقاً بأَرْكَانِ الإيمان الَّتِي أَمَرَ اللهُ عباده أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

ولا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أنَّ هـٰذا التَّصْديق مَتْرُوكٌ لاخْتِيارِ الإنسانِ الموضوع في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، لَا جَبْرَ فِيهِ مُطْلقاً، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفر، وعَلى المبتلَىٰ أن يتحمَّلَ نَتَائِجَ اختيارِه الحرّ.

والإسلام: هو أثَرُ الْإيمانِ في السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِي، ولهذا جاءَ في تَعْرِيفِهِ: أنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إلَه إلّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رسُولُ الله، وتقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكاة، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلاً. وهـٰذِهِ كُلُّهَا ظَاهراتٌ سُلُوكِيَّةٌ يَدْفَعُ إلى تَطْبِيقِها في السُّلُوك صِدْقُ

الْإِيمَانِ عَلَىٰ مِقْدَارِه، باعتبار أنَّ الإيمانَ ذُو نِسَبٍ مُتَفاضِلَةٍ في الناس.

فَمَنْ آمَنَ بإرَادَتِهِ الْحرَّةِ كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، أَنْ يَشْرَحَ الله صَدْرَهُ للتَّطْبِيقَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ علَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ إيمَانِه، وعَلَىٰ هـٰذا المعنىٰ يُفْهَمُ قَوْلُ الله تَعَالَىٰ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ .. ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَحْكَمُ له بالهداية المنجيَةِ الْمُسْعِدة، اسْتِنَاداً إِلَىٰ أَثَرِ إيمانِهِ فِي السُّلُوكِ النَّفْسِيّ والْجَسَدِيّ، كَانَ مِنْ سُنَّتِهِ الدَّائِمَةِ فِي عِبَادِه، أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ للتَّطْبِيقَاتِ الإسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ مِقْدارِ قُوَّةِ إيمانِهِ، بِدَلِيلِ أَنَّ مَنْ لَا يَشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ للتَّطْبِيقَاتِ الْإسْلَامِيَّةِ قَدْ كَان ذَٰلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِ وَعَدَمِ إيمانِهِ بالْحَقِّ، أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ في آخر الْآية:

﴿... كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

بَعْدَ قَولِهِ تَعَالَىٰ:

﴿.. وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ...﴾

فَضِيقُ الصَّدْرِ وَعَدَمُ انْشِرَاحِهِ للتّطبيقات الإسلاميَّة، أَثَرٌ مِنْ آثَارِ عَدَمِ الإيمان بما أَمَرَ اللهُ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا به، فَدَلَّ هـٰذَا على أَنَّ انْشِرَاح الصَّدْرِ لِهـٰذَهِ التطبيقات هو مِنْ أَثَرِ الإيمان.

ووَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذا الضِّيقَ في الصَّدْرِ بأنَّهُ رِجْسٌ، أي: نَجاسَةٌ سَبَبُها الكُفْر الَّذِي هُو أَخْبَثُ الرِّجْسِ في النفوس.

وَمَنْ لَا يُدْرِكُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإيمانِ والإسْلَام، وَأَنَّ مِنْ آثَارِ الإيمانِ الاختياريِّ انْشِرَاحَ الصَّدْرِ للتَّطْبِيقَاتِ الإسْلَامِيَّةِ في السُّلُوكِ، يَقَعُ في مَفْهُومَاتٍ جَبْرِيَّةٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ في الفِكْرِ الدينيّ.

وَجاءت آيَة سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول) مُؤَكِّدَة لِلْمَفْهُوم الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ سورة (الْأَنْعَام/ ٥٥ نزول) وَمُضيفَةً إلَيْهِ تَكْمِيلاً يَدُلُّ عَلَيْهِ التحليلُ التّالي:

• ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ..﴾:

أي: أمَنْ كانَ ذَا إيمانٍ صَحِيحٍ بإرَادَةٍ حُرَّةٍ مِنْ قَلْبِهِ، فَشَرَحَ اللهُ صَدَرَهُ لِلتَّطبيقَاتِ الإسْلَامِيَّةِ بِسَبَبِ إيمانِهِ، فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ من رَبّه يَهْدِيهِ، ويَجْعَلُهُ يَسِيرُ في حَيَاتِهِ عَلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ يَجِدُ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً، يَنْفِرُ من التطبيقاتِ الإسلاميَّة، وتَشْمَئِزُّ نَفْسُهُ مِنها، بمقتضىٰ سُنَّةِ الله في عِبَادِهِ فَهُو في حَيَاتِهِ يَسِيرُ في مَتَاهَاتِ سُبُلٍ مُظْلِمَةٍ، تَنْتَهِي بِهِ إلَىٰ عَذَاب السَّعِير. **الْحَرَجُ**: أضْيَقُ الضّيق.

الفاءُ في: ﴿أَفَمَن﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ (الأنعام).

• ﴿.. فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ..﴾:

﴿فَوَيْلٌ﴾: **الْوَيل**: كَلِمَةُ عَذَاب: أي فعذَابٌ شَدِيد.

المَعْنَىٰ: فعذابٌ شَدِيدٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ النَّافِرَةَ المشمَئِزَّة مِنْ ذِكْرِ اللهِ حِينَمَا يُذَكَّرُون به، أَوْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آياته.

ضُمِّنَ لفْظُ «القاسِيَة» وهو اسْمُ فاعلٍ يَعْمَل عَمَلَ فِعْلِهِ مَعْنَىٰ لفظ «نافِرَة» أَوْ «مُشْمَئِزَّة» فَعُدِّي تَعْدِيَتُهُ بحرف الجرّ «من».

وَوَرَدَ أن «الْوَيل» وَادٍ في جَهَنَّم.

روى أحمد، والترمذي، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، والحاكم عن أبي سعيدٍ الخُدْرِي، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«الْوَيلُ: وَادٍ في جهَنَّم، يَهْوِي فيه الكافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً، لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهِ الجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَه»(١).

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أولَئِكَ الْكَافِرُونَ الْبَعِيدُونَ عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلَاتِ رَحْمَاتِ اللهِ لِتَسَفُّلِهِمْ فِي دَرَكَاتِ الْإِثْمِ الَّذِي كَانُوا بِهِ كَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ، الْمُمِدَّ لَهُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَهَائِمِينَ فِي ضَلَالٍ عَنْ طَرِيقِ سَعَادَتِهِمْ، وَضَلَالُهُمْ هَٰذَا مُبِينٌ وَاضِحٌ يُدْرِكُهُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الحصيفَة النَّظِيفَة، وَالْبَصَائِرُ الدرَّاكَةُ النَّافِذَةُ، الَّتِي تُدْرِكُ صِرَاطَ الْهُدَى، وَمَسَالِكَ الضَّلَالِ.

وبهذا انتهى تدبُّر هَٰذَا الدرس الثامن من دُروس سورة (الزمر).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه المبين.

(١٣)
التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٢٣ و٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) لم يَبْلُغْ هذا الحديثُ عِنْدَ المحدِّثين دَرَجَةَ الصحيح، ولكِنْ يُسْتَأْنَسُ بِهِ للدلالَة على معنى شدَّة العذاب.

القراءات:

(٢٣) • قرأ ابْنُ كثير: [**مِنْ هَادِي**] بإثباتِ الياء في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**مِنْ هَادٍ**﴾ بحذْفِ الياء وصلاً ووَقفاً.

تمهيد:

في آيَتَيْ هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ تَأْثِيرِ آيَاتِ القرآنِ المجيد في قُلُوب المؤمنين الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَبَيَانٌ عَنِ المؤْمِنِ الَّذِي يَتَّقِي بِتَوَجُّهِهِ لِرَبِّه سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ القيامَةِ، بِخِلَاف الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَذُوقُونَ عَذَابَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

وفي هذا الدَّرْسِ إضَافَةٌ تكَامُلِيةٌ، لِمَا سَبَقَ أَنْ نَزَل بِشَأْنِ القرآنِ في نُجُومِ التَّنْزِيل.

التدبّر التحليلي:

قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْن القرآن المجيد:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

اشْتَملَتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ بَيَان سَبْعِ قضايا تَتعلَّقُ بالقرآنِ الكريم:

القضيَّة الأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الّذي نَزَّلَ الْقُرْآن عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي إلى رسُولِهِ مُحمَّد ﷺ، لِيُؤْمِنَ بِهِ ولِيَعْمَلَ بِمَا جَاءَ فيه مِنْ تكاليف، ولِيُبَلِّغَهُ للنَّاس حتَّىٰ يكونوا علَىٰ بَيّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِم تُجاهَ رَبِّهِمْ.

القضيَّة الثَّانية: أنَّ الْقُرْآن أَحْسَنُ الحديثِ، وقد وَصَفَ اللهُ القرآن بأَنَّهُ حَدِيث، لِيُمَيِّزَهُ عَنِ الْخُطْبَةِ، والشِّعْرِ، وَالْقِصَّةِ، وَغيرها مِنْ فُنُونِ

الْقَوْل، ولِيُبَيّنَ أنَّهُ مِنْ نَوع الحديثِ، والواقِعُ على تَوالي القرونِ أبان أنَّ القرآن المجيد أحْسَنُ الحديث كلِّه.

الحديث: هو الكلام الهادئ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ الْمُحَدِّثُ فِي مَجْلِسٍ مُتَكافِئٍ بَيْنَهُ وبَيْن مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْه، فَلا يَشْعُرُ المسْتَمِعُ بأنَّهُ في مَوْقِع الْأَدْنَىٰ الَّذِي يَتَلَقَّىٰ مِنَ الْأَعْلَىٰ، بَلْ يَشْعُرُ بأنَّهُمَا على سواءٍ، في التَّلَقِّي والْعَطاء.

بخلاف عَمَلِ الْخطيب أو المعلّم، أو المدَرِّس، أو المحاضِرِ، أو الآمِرِ النّاهي، أو الشَّاعِرِ، أو الْقَصَّاص، أو نحوهم.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الحديثَ أَكْثَرُ قَبُولاً وتأثيراً في النفوس البشرية، إذْ لَا يُواجهُ عَقَبةً صَادَّةً فِي الْغَالِبِ من الأحْوَالِ، ولا يُواجِهُ نُفُورَ مُسْتَكْبِرٍ، يَرْفُضُ تَلَقِّيَ الْعلْمِ مِنْ مُعَلّم.

ونَسْتفيدُ مِنْ وَصْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كتابَهُ بأنَّهُ مِن نَوْع الحديث إرْشَاداً للدُّعَاةِ إلى اللهِ، والناصحين المرشِدِينَ الآمِرِينَ بالمعروف الناهِينَ عَنِ المنْكَر، بأَنْ يكُونُوا مُحَدِّثِينَ فِي بيَانَاتِهم، ونُصْحِهم، وإرْشَادِهم.

ولهذا أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ في سورة (الضُّحى/ ١١ نزول) بقوله له:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾: وَنِعْمَةُ اللهِ هي مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ دِين.

القضيّة الثالِثة: أَنْ يُدَوِّنَهُ المؤمنُونَ فِي كِتابٍ مَصُونٍ مِنَ التحريفِ، والتغيير، والتَّبْدِيل، كالّذِي حَصَلَ في كُتُبِ أَهْلِ الكِتَاب من تحريفاتٍ وزيادة ونقصان.

هذه القضية نَسْتفيدها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿كِتَٰبًا﴾ في الآيَة، إذْ لَمْ يَنْزِلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ كِتَاباً في صُحُفٍ أَوْ أَلْوَاحٍ مَكْتُوبَة، بَلْ نَزَلَ قَوْلاً تَلَقَّاهُ الرَّسُولُ ﷺ بِقَلْبِهِ وسَمَعه، وَكانَ يأمُرُ بِكِتَابَةِ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْه، وَعُرِفَ

الصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِكِتَابَةِ مَا يُنْزلُ عَلَيْهِ من القرآن: «بكتَّابِ الْوَحْي».

وَأَلْهَمَ اللهُ أَصْحَابَ رَسُولِهِ مِنْ بَعْدِهِ تَثْبِيتَ القرآنِ في مُصْحَفٍ جَامِعٍ، وَكَانَ للخليفَةِ الثالث «عُثْمَانَ بن عَفَّان» رضي الله عَنْهُ فَضْلُ نَسْخِ مَا كُتِبَ في عَهْدِ «أبي بَكر» رضي اللهُ عَنْهُ فِي مَصَاحِفَ وتوزيعها على الأمصار الإسلامية، وكانت هذه إمام المصاحف الَّتِي يَكْتُبُهَا النَّاسُ، فَحَفِظَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهذا العمل المجيد القرآنَ كَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رسُولِه محمد ﷺ.

الْقَضِيَّة الرابعَة: أَنَّ القرآن مُتَمَاثِلُ الكَمالِ والْحُسْنِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ وُجُوهِ الإعْجَاز فَمَا يَتَدَبَّرُ المتدبِّرُونَ مِنْهُ سُورَةً إِلَّا وَجَدُوا فِيهَا مِنْ وُجُوهِ الكَمَالِ والحسْنِ مَا هُوَ فِي أَعْلَىٰ قِمَم الإعْجَازِ اللّفظيّ، والمعنويّ، والعِلْميّ، والمطابَقَةِ لِلْحَقِّ، وَمَا هُوَ الْأَفْضَلُ والأحْسَنُ مِنْ كُلِّ الاحْتِمَالَاتِ الممكِنَةِ لِبَيَانِ السُّلُوكِ الأفْضَلِ للنَّاسِ.

دَلَّ علىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ القرآن: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ أي: مُتَمَاثِلَ صِفَاتِ الكَمَالِ والْحُسْنِ وَعَنَاصِرِ الإعجاز فيه.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُتَشَابِهَةَ فِي الْحُسْنِ، لَا يُسْتَطَاعُ تَفْضِيلُ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدُرَاتِ النَّاسِ، لِوُجُودِ التَّفَاضُلِ الْمُتَكَافِئِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ الْمُخْتَلِفَةِ بَيْنَهَا.

القَضِيَّةُ الخَامِسَة: أَنَّ القُرْآنَ مَثَانِيَ، أي: فيه مَطْوِيَاتٌ بَيْنَ جُمَلِهِ، وَبَيْنَ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ مِنْهُ، وَهَـٰذِهِ المَطْوِيَّاتُ يَكْشِفُهَا التَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ، بِتَأَمُّلٍ وَعُمْقِ نَظَرٍ فِكْرِيّ.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا ظَهَرَ لِي مِنَ المُرَادِ بِوَصْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ القُرْآنَ بِأَنَّهُ «مَثَاني» لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٨٧) من سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول).

المَثَاني: جمع «المثْنَاة» وهِي الطيَّةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُثْنَىٰ، مِنْ قَوْلِهِمْ:

«ثَنَىٰ الشَّيْءَ يَثْنِيهِ» أي: رَدَّ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَالْقُمَاشُ الَّذِي يُثْنَىٰ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ بِصِفَةٍ مُتَوَالِيَةٍ، تُسَمَّىٰ طَيَّاتُهُ «مَثَانِي».

وَقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ وُجُوهاً مُتَعَدِّدَةً لِتَفْسِيرِ كَوْنِ القُرْآنِ مَثَانِي، وَهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا فِي لَفْظِ «مَثَانِي» مِنْ مَعْنَىٰ التَّكْرِيرِ، كَتَكْرِيرِ آياتِ «الْفَاتِحَة» فِي رَكَعَاتِ الصَّلَوَات.

وَالَّذِي ظَهَرَ لِي مِنْ خلَالِ تَدَبُّرِي الطَّوِيلِ لآيَاتٍ كَثِيراتٍ مِنَ القُرآنِ الْمَجِيدِ، أَنَّ المُرَادَ بِوَصْفِ القُرآنِ بِأَنَّهُ «مَثَانِي» أَنَّ لَهُ سُطُوحاً ظَاهِرَةً، وَهِيَ ما يُدْرَكُ مِنَ الْكَلِمَاتِ المَقْرُوءَات في أَعْلَىٰ كل مَثْنَاةٍ مِنْهُ وَأَن فِيهِ مَطْوِيَّاتٍ فِي بَاطِنِ الثَّنْيَاتِ هِيَ مَحْذُوفَاتٌ لفظاً، ويُمْكِنُ إِدْرَاكُهَا ذِهْناً، عَنْ طَرِيقِ اللَّوَازِمِ الفِكْرِيَّةِ، أو الدَّلالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، كَحَرْفِ جَرٍّ، أَوْ حَرْفِ عَطْفٍ، أَوْ تَعْدِيَةِ الْفِعْلِ لِغَيْرِ مَا يَتَعَدَّى به لُغَةٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ تَعْتَمِدُ عَلَيْها المحاذيفِ، ومِنْها الْعَطْف علىٰ مَحْذُوفٍ بِمَا يُسَمَّىٰ الفاء الْفَصِيْحَة، وَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّ كُلَّ حُرُوفِ الْعَطْفِ قَدْ تَعْطِفُ فِي القُرْآنِ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مَطْوِي. وَكَمَلْءِ فَرَاغَاتِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، إِذْ تَبْدُو فِي الظَّاهِرِ أَنَّهَا مُكَرَّرَاتٌ، وَهِيَ فِي الحَقِيْقَةِ مُتَكَامِلَاتٌ فِيْمَا بَيْنَهَا، يَتَدَاخَلُ بَعْضُهَا فِي بَعْض، فَيُكَمِّلُ بَعْضُها الظَّاهِرُ هُنَا، النّصّ الآخَرَ، إِذْ يَمْلَأُ فَرَاغَ مَطْوِيٍّ فِيْهِ، وَمِنْهَا الْحَذْفِ مِنَ الْأَوَائِلِ لِدَلَالَةِ مَا فِي الْأَوَاخِرِ، وَالْحَذْفِ مِنَ الأَوَاخِرِ لِدَلَالَةِ مَا فِي الْأَوَائِلِ مِنَ النّصّ.

وَكُلُّ ذَلِكَ هُوَ مِنَ الإعْجاز الإيجازيِّ فِي القُرْآنِ المَجِيد.

وَأَفْضَلُ تَعْبِيرٍ عَنْ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْم، أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ «مَثَانِي» تَظْهَرُ فِي السُّطُوحِ المَقْرُوءَةِ مِنْ مَثَانِيهِ جُمَلٌ وَكَلِمَاتٌ، وَتُوجَدُ مَطْوِيَّاتٌ دَاخِلَ المَثَانِي تُسْتَخْرَجُ بِالتَّأَمُّلِ الدَّقِيقِ، وبالاسْتِنْبَاطِ الْعَمِيقِ، ضِمْنَ ضَوَابِطِ الْفِكْرِ، وَقَوَاعِدِ الاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ وَأَمَارَاتِهِ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ الحَقِيْقَةِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ المَجَاز.

أَمَّا الْبَاطِنِيُّونَ الْأَخْبَاثُ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِتَفْسِيْرَاتٍ بَاطِنِيَّةٍ مِنْ إِيحَاءَاتِ شَيَاطِينِهِمْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا، لَا مِنَ اللَّوَازِمِ الْفِكْرِيَّة، وَلَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ، وَلَا مِنْ جَمْعِ النُّصُوصِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي السُّورِ، وَهَدَفُهُمْ التَّلَاعُبُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ. لِإِلْغَاءِ الدِّينِ كُلِّهِ، وَإِقَامَةِ بِدَعٍ إِبْلِيسِيَّةٍ إِبَاحِيَّةٍ كُفْرِيَّةٍ لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، بَلْ تَتَّخِذُ مِنَ النَّاسِ آلِهَةً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، وَتَجْعَلُ مَا يَفْتَرُونَهُ مِنَ العِبَادَاتِ لَعِباً وَلَهْواً، وَمُمَارَسَاتٍ لِقَبِيحِ الشَّهَوَاتِ.

القَضِيَّةِ السَّادِسَة: أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ أَوْ تِلَاوَتِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ القَضِيَّةِ فِي الآيَة، مُتَابَعَةً لِوَصْفِ القُرْآنِ، قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِيْهَا: ﴿..تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ..﴾.

تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ: أي: تَضْطَّرِبُ وَتَرْجُفُ وَتَأْخُذُهَا رِعْدَةٌ مَقْرُونَةٌ بِمَشَاعِرِ الْخَوْفِ فِي النَّفْسِ.

هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ تَحْدُثُ لَدَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَائِلِ سُلُوكِهِمُ الإِسْلَامِيّ، حِيْنَمَا يَسْمَعُونَ أَوْ يَتْلُونَ آيَاتٍ فِيْهَا تَرْهِيبٌ مِنْ عِقَابِ اللهِ، إِذْ تَنْفَعِلُ قُلُوبُهُمْ بِمَشَاعِرِ الْخَشْيَةِ مِنَ اللهِ وَعَذَابِهِ، فَتَرْجُفُ جُلُودُهُمْ الَّتِي تَتَرَكَّزُ فِيْهَا النِّهَايَاتُ الْعَصَبِيَّةُ.

وَمَشَاعِرُ الْخَشْيَةِ مِنَ اللهِ وَعَذَابِهِ، تَنْفَعِلُ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ، حِيْنَ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا خَوَاطِرُ سَوَابِقِ مَعَاصِيهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَالْوَجَلُ الَّذِي يَحْدُثُ فِي قُلُوبِهِمْ يَمْتَدُّ إِلَىٰ أَعْصَابِهِمْ الْوَاصِلَةِ إِلَىٰ جُلُودِهِمْ، فَتَحْصُلُ فِيْهَا هَـٰذِهِ الرَّعْدَةُ وَالرَّجَفَانُ فِي الْجُلُودِ.

لَكِنَّهُمْ حِيْنَمَا تَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمُتَابَعَةِ مَسِيرَتِهِمُ الإِيمَانِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، فَيَصِلُونَ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الْخُشُوعِ لَدَىٰ ذِكْرِ اللهِ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ

الطُّمَأْنِيَّةِ الْكَامِلَةِ، فَإِنَّ حَالَتَهُمْ تَكُونُ كَالْوَصْفِ التالي الَّذِي جَاءَ فِي الْقَضِيَّةِ السَّابِعَةِ:

الْقَضِيَّةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ تَلِينَ سَاكِنَةً مُطْمَئِنَّةً لِسَمَاعِ آيَاتِهِ أَوْ تِلَاوَتِهَا، جُلُودُ وَقُلُوبُ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا مَرْحَلَةَ الْوَجَلِ فِي سُلُوكِهِمْ الإِيمانِيِّ الإِسْلَامِي الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأَنْفَالِ/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٢)﴾.

وَدَخَلُوا مَرْحَلَةَ الْخُشُوعِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ .. (١٦)﴾.

أَو ارْتَقَوْا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الرَّعْد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨)﴾.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ السَّابِعَةِ مِنَ الآيَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ..﴾:

دَلَّ لِينُ الْجُلُودِ وَالْقُلُوبِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْخُشُوعُ وَهُوَ السُّكُونُ، أَوْ تَكُونُ بِهِ الطُّمَأْنِينَةُ الَّتِي هِيَ غَايَةُ المَرَاحِلِ الإِيمانِيَّةِ فِي نَفْسِ المُؤْمِنِ، عَلَىٰ أَنَّ الْقُشَعْرِيرَةَ الَّتِي تَحْدُثُ لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ تَكُونُ بِسَبَبِ شَدٍّ عَصَبِي تَتَقَبَّضُ بِسَبَبِهِ الْجُلُودُ وَالْقُلُوب.

أَمَّا عِنْدَ الْخُشُوعِ، أَوِ الطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي هِيَ أَرْقَىٰ مَرْتَبَةً مِنَ الْخُشُوعِ، فَلَا يَكُونُ مَعَهُمَا شَدٌّ عَصَبِيٌّ وَلَا تَقَبُّضٌ، بَلْ تَكُونُ بِهِ الْجُلُودُ وَالْقُلُوبُ لَيِّنَةً عَلَىٰ وَفْقِ أَصْلِ فِطْرَتِهَا وَطَبِيعَتِهَا، إِذْ رَجَحَ رَجَاءُ الْمُؤْمِنِ بِغُفْرَانِ اللهِ وَعَفْوِهِ

عَلَىٰ خَوْفِهِ مِنْ عِقَابِهِ، أَوِ اطْمَأَنَّ إِلَىٰ أَنَّ اللهَ أَحَاطَهُ بِرَحْمَتِهِ وَجَعَلَهُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «لَانَ لَهُ» وبِتَضْمِيْنِ فِعْلِ «لَانَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «اطْمَأَنَّ» يُقَال: لَانَ إِلَيْهِ.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَة بِقَوْلِهِ:

• ﴿... ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾:

الإشارة بِعِبَارَة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَرَىٰ أَنَّها مُوَجَّهَةٌ لِلْأَمْرِ الْحَمِيدِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، إِذْ تَقْشَعِرُّ مِنْ سَمَاعِ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ أَوْ مِنْ تِلَاوَتِها جُلُودُهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ مَائِلَةً إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَمُطْمَئِنَّةً إِلَيْهِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي التَّدَبُّرِ.

أَي: إِنَّهُمْ بِسَبَبِ إِيمانِهِمْ بِرَبِّهِمْ إِيماناً صَحِيْحاً صَادِقاً، وَبِسَبَبِ خَشْيَتِهِمْ عَذَابَهُ وَعِقَابَهُ، فَمِنْ سُنَّةِ اللهِ الْعَامَّةِ فِي عِبَادِهِ، أَنْ يَرْتَقُوا بِتَوْفِيْقِهِ فِي الْمَرَاتِبِ، مِنْ مَرْتَبَةِ الْخَشْيَة الَّتِي جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالْوَجل فِي آيَةِ (الأَنْفَالِ) إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْخُشُوعِ، كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ سُورَةِ (الْحَدِيد) ثُمَّ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الطُّمَأْنِيْنَةِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي آيَةِ سُورَةِ (الرَّعْدِ) وَهِي أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ، الَّتِي يَنَالُ مَنْ بَلَغَها عِنْدَ مَوْتِهِ وَبَعْدَهُ حَتَّىٰ دُخُولِ الجَنَّةِ فَضْلَ النِّدَاءِ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الْفَجْرِ/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

إِنَّ التَّوْفِيقَ المَقْرُونَ بِالْمَعُونَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، لِمَنْ آمَنَ وَكَانَ يَخْشَىٰ اللهَ حَقّاً، حَتَّىٰ يَتَرَقَّىٰ فِي المَرَاتِبِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ إِيمانِهِ وَخَشْيَتِهِ رَبَّهِ، جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ هُدَىٰ اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ لَا

تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَمَنْ نَحَىٰ مَنْحَىٰ الْجَبْرِ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي فَهْمِ الآيَةِ، إِذِ التَّوْفِيقُ الرَّبَّانِيُّ جَاءَ ضِمْنَ قَانُونٍ رَبَّانِيٍّ أَيْضاً مَبْنِي عَلَىٰ عَمَلٍ اخْتِيَارِيٍّ كَانَ مِنَ الْعَبْدِ وَهُوَ إِيمَانُهُ الصَّادِقُ الَّذِي نَشَأَ عَنْهُ خَشْيَتُهُ رَبَّه.

أَمَّا مَنْ كَفَرَ ابْتِدَاءً بِرَبِّهِ، فَلَمْ يَخْشَ عِقَابَهُ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مَسَالِكَ ضَلاَلِهِ، وَأَمَدَّهُ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِيَكْتَسِبَ بِهَا مَا يَشَاءُ مِنْ جَرَائِمَ وَآثَام، وَمَنْ سَارَ فِي سُبُلِ ضَلَالِهِ بِاخْتِيَارِهِ الحرِّ، النَّاشِئِ عَنْ كُفْرِهِ بِرَبِّهِ وَعَدَمِ خَشْيَتِهِ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يَهْدِيهِ، إِذِ الحُكْمُ بَيْنَ العِبَادِ للهِ وَحْدَهُ، هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بِالضَّلَالَةِ لِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَها، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بِالْهِدَايَةِ لِمَنْ كَانَ مَهْدِيّاً، وَكُلُّ ذَلِكَ بِمَشِيْئَتِهِ المُطْلَقَةِ الَّتِي لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَلَا سُلْطَانَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، لَكِنَّ كَمَالَهَا يَجْعَلُ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا حَقّاً وَعَدْلاً أَوْ فَضْلاً وَإِحْسَاناً.

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُخَالِفَ اللهُ سُنَّتَهُ فِي امْتِحَانِ عِبَادِهِ فَيَسْلُبَهُمُ اخْتِيَارَهُمْ وَهُمْ مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، أَوْ يَمْنَعَ عَنْهُمْ إِمْدَادَهُمْ بِالْقُوَىٰ فِي حَالَةِ مَعْصِيَتِهِمْ لَهُ.

وَعَلَىٰ الْمُتَفَكِّرِ أَنْ يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ دَوَاماً، أَنَّ مَنْ وَضَعَ يَدَهُ فِي النَّارِ بِاخْتِيَارِهِ الحُرِّ، أَحْرَقَ اللهُ لَهُ يَدَهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كُلِّ عِبَادِهِ، وَمَنْ تَحَسَّىٰ سُمّاً قَاتِلاً قَتَلَهُ اللهُ بِسُمِّهِ الَّذِي تَجَرَّعَهُ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كُلِّ عِبَادِهِ.

كَذَلِكَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ بَيَانَاتٍ، وَجَدَ سُبُلَ الضَّلَالِ مُيَسَّرَةً أَمَامَهُ، وَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ بَيَانَاتٍ، وَجَدَ صِرَاطَ الْهُدَى مُيَسَّراً أَمَامَهُ، وَأَعَانَهُ اللهُ وَزَادَهُ تَوْفِيقاً، لِيَزِيدَ مِنْ دَرَجَاتِهِ، وَيَرْفَعَهُ فِي المَرَاتِبِ عَلَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ إِيمَانِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: أَفَمَنْ يَتَّقِي سُوءَ الْعَذَابِ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُوَجِّهُهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً، بَعِيداً عَنْ كُلِّ شِرْكٍ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَقَالَ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ الَّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ وَتَدَبُّرُهُ فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ/ ٥٥ نزول):

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

كَمَنْ يَكُونُ مِنَ الكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ بِتَوْجِيهِ وُجُوهِهِمْ لِلرَّبِّ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَفَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض، فَهُمْ يَسِيرُونَ فِي حَيَاتِهِمْ فِي سُبُلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَ، تَسُوقُهُمْ أَو تَقُودُهُمُ الشَّيَاطِينُ، مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَشَيَاطِينِ الْجِنِّ، إِلَىٰ جَحِيمِ عَذَابِهِم الدَّائِمِ الْخَالِدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَإِذَا كُبْكِبُوا فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ يُقَالُ لَهُمْ عِنْدَ إِلْقَائِهِمْ وَبَعْدَهُ: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: أي: ذُوقُوا عَذَابَ مَا كُنْتُمْ تَكسِبُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمٍ هُوَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الَّذِي تَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي النَّارِ.

وَلَما كَانَ عَذَابُهُمْ مُكَافِئاً لِظُلْمِهِمْ كَانَ أَدَقُّ تَعْبِيرٍ عَنِ الْمُكَافَأَةِ دُوْنَ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَلَوْ مِثْقَالَ ذَرَّة، أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنِ الإِحْسَاسِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَاب بِالذَّوْقِ عَلَىٰ سَبِيْلِ الاسْتِعَارَةِ، لِأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ أَشَدُّ الْمَوَاضِعِ إِحْسَاساً بِمَا يُلَامِسُهَا.

إِنَّ عِبَارَة: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لَا يَصِحُّ أَنْ تُفْهَمَ دُونَ اسْتِخْرَاجِ المطْوِيّ فِيْهَا، وَهُوَ كَمَا يلي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ الَّذِي يُوَجِّهُهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إذْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ فِي الدُّنْيَا، كَمَنْ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ؟؟.

الجواب: لَا يَسْتَوِيَانِ حَتْماً.

سُوء العَذَابِ: شَدِيدُهُ، وَشَاقُّهُ وَمُؤْلِمهُ. وأصْلُ الكَلَامِ: العَذَاب السُّوء.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ التَّاسِعِ مِنْ دُرُوسِ سُوْرَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ المُبِيْن.

(١٤)
التدبُّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة الزُّمر
الآيَتان (٢٥ و٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَذْكِيرُ المُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ كُفَّارِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنْ عَذَابٍ، مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ أَنَّ عَذَاباً مِنَ اللهِ سَيَأْتِيهِمْ، وَكَانَ عَذَابُ اللهِ الَّذِي أَتَاهُمْ مُخْزِياً لَهُم.

وَأَنْذَرَهُمُ اللهُ بِأَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ سَوْفَ يَكُونُ أَكْبَرَ، وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُ يَرْضَىٰ لَهُمْ أَنْ يُوَجِّهُوا مَلَكَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة لِلْعِلْمِ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ، فَيَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ، وَيَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَىٰ إِيمَانِهِم.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ .. ﴿٢٥﴾﴾:

أي: كَذَّبَ كُفَّارُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِهِمْ، رُسُلَ رَبِّهِم، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاؤوهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِم.

- ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ هَـٰؤلَاءِ الَّذِينَ يُوَجَّهُ لَهُمُ الْعِلَاجُ فِي السُّورَةِ، وَهُمُ المُعَانِدُونَ المُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل.

﴿.. فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَأُنْذِرُوا بِعَذَابِ رَبِّهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَارْتِكَابِهِمْ جَرَائِمَهُمْ، فَأَتَاهُمْ مَا أُنْذِرُوا بِهِ وَهُوَ مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ تَعْذِيبَهُمْ وَإِهْلَاكَهُمْ بِهِ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، إِذْ هُمْ كَانُوا نَائِمِينَ، أَوْ فِي غَفَلَاتِهِمْ يَلْعَبُونَ أَوْ يَلْهُونَ.

حَيْثُ: ظَرْفُ مَكَانٍ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الضَّمِّ، وَقَدْ تُفْتَحُ الثَّاء. وَقَدْ يَرِدُ ظَرْفَ زَمَانٍ. وَالغَالِب كَوْنُهُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ ظَرْفُ مَكَان. وَجَاءَ هُنَا فِي مَحَلِّ جَرٍّ بِحَرْفِ الجَرّ «من».

أي: وَجَاءَهُمْ مَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ مَكَانٍ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِيهِ آمِنُون.

الشُّعُورُ بِالشَّيْءِ: قَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بِهِ، فَالَّذِي لَا يَشْعُرُ بِالشَّيْءِ لَا يَكُونُ لَدَيْهِ أَقَلُّ عِلْمٍ بِهِ.

- ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ .. ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَجَعَلَهُمُ اللهُ يُحِسُّونَ بِآلَامِ الْعَذَابِ الَّذِي صُبَّتْ عَلَيْهِمْ وَسَائِلُهُ،

إحْسَاساً شَدِيداً، نَظِيرَ إحْسَاسِ حَاسَّةِ الذَّوْقِ بِمَا تَكْرَهُ مِنْ مَذُوقَاتٍ، وَجَعَلَهُمْ يُحِسُّونَ أَيْضاً بِآلَامِ الْخِزيِ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ، إذْ وَقَعُوا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَوْ جُثِيّاً عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَقدْ كَانُوا يَمْشُونَ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ مُخْتَالِينَ مُسْتَكْبِرِينَ، فَصَارُوا أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ مُحْتَقَرِين.

﴿.. وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٢٦)﴾:

أي: وَتَأَكَّدُوا أَنَّ مَا سَوْفَ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَخِزْيٍ فِي الآخِرَةِ أَكْبَرُ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيا.

﴿..لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾: أي: لَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمُوا الحَقَّ وَيَعْمَلُوا بِهِ، لَما أَلْقَوْا نُفُوسَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ هَـٰذَا المَصِيرِ الوَخِيم.

فَاعْتَبِرُوا أَيُّهَا الكَافِرُونَ المُكَذِّبونَ، وَاسْتَعْمِلُوا عُقُولَكُمْ فِيمَا خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِهِ.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ العَاشِرِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٥)
التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٢٧ و٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾.

تَمْهِيد:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مُتَابَعَةٌ لِلْحَدِيثِ عَنِ القُرْآنِ، الَّذِي جَاءَ طَرَفٌ مِنْهُ:

(١) في الآيَتَيْنِ (١ و٢) مِنْ هَـٰذِهِ السُّورَة.

(٢) وَفِي الآيَة (٢٣) وَكَانَ البَيَانُ فِيهَا مُشْتَمِلاً عَلَىٰ سَبْعِ قَضَايَا.

التدبّر التحليلي:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ العَظِيمِ مُؤَكِّداً بِعِبَارَة: ﴿وَلَقَدْ﴾ الَّتِي فِيهَا اللَّامُ الوَاقِعَةُ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُ المُعرِبُونَ، وَفِيهَا حَرْفُ «قَدْ» الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ، مُرَاعَاةً لِحَالِ المُسْتَهِينِينَ بِعَظَمَةِ القُرْآن.

﴿..ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ..﴾:

أي: ذَكَرْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ يُقَاسُ عَلَيْهِ للاعْتِبَارِ، أَوْ لِمَعْرِفَةِ حُكْم دِينِيٍّ فِي قَضِيَّةٍ لَهَا أَشْبَاهٌ وَنَظَائِرُ، يُقَاسُ عَلَيْهَا، أَوْ لِتَقْرِيب حَقِيْقَةِ مَوْجُودٍ غَيْرِ مَشْهُودٍ، بِذِكْرِ مَشْهُودٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَاسَ عَلَيْهِ، أَوْ بِتَشْبِيهِ أَمْرٍ مَعْنَوِيٍّ بِأَمْرٍ آخَرَ يُدْرَكُ بِالْحِسِّ لِتَقْرِيبِ إِدْرَاكِ حَقِيْقَتِهِ وَإِدْرَاكِ النَّتَائِجِ الَّتِي يَؤُولُ إِلَيْهَا.

المَثَل: يُطْلَقُ عَلَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي يُضْرَبُ لِشَيْءٍ آخر لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ شَبِيهُهُ، فَيُدَّعَىٰ أَنَّهُ مِثْلُهُ.

وَالمُرَادُ بِالتَّعْمِيم الوَارِدِ بِعِبَارَةِ: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أَنَّ كُلَّ قَضِيَّةٍ هِيَ مِنَ القَضَايَا الدِّينِيَّةِ، وَلَهَا أَشْبَاهٌ وَنَظَائِرُ تُقَاسُ عَلَيْهَا. قَدْ ضَرَبَ اللهُ مِنْهَا مَثلاً أَوْ أَكْثَرَ لِيُقَاسَ عَلَيْهِ أَشْبَاهُهُ وَنَظَائِرُهُ، فَيُعْطَىٰ لِلْمَقِيسِ مِنَ النَّتِيجَةِ أَوِ الْحُكْمِ، مِثْلُ مَا ثَبَتَ لِلْمَقِيسِ عَلَيْهِ.

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ حُجِّيَّةِ الْقِيَاسِ، أَقْوَىٰ وَأَجْلَىٰ مِنَ الأَدِلَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ أُصُولِ الْفِقْهِ عَلَىٰ حُجِّيَّتِهِ.

أَصْلُ الضَّرْبِ تَوْجِيهُ شَيْءٍ لِشَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ يَصْطَدِمَ بِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ صِنَاعَةُ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ تَتِمُّ عَنْ طَرِيقِ ضَرْبِ صَفَائِحِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ بِقَوَالِبَ حَدِيدِيَّةٍ صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فِيهَا أَمْثِلَتُهَا، أَوْ ضِمْنَ قَوَالِبَ يَدْخُلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، قَالُوا: ضَرَبَ فُلَانٌ الدَّرَاهِمَ أَوِ الدَّنَانِيرِ، أي: طَبَعَ مَعْدِنَهُمَا عَلَىٰ المِثَالِ المَحْفُورِ فِي القَالِبِ.

ثُمَّ حَصَلَ تَوَسُّعٌ فِي مَعْنَىٰ الضَّرْبِ، فَقَالُوا: ضَرَبَ مَثَلاً، أي: ذَكَرَ مَثَلاً، أَوْ صَنَعَ مَثَلاً، أَوْ نَحو ذَلِكَ.

هَـٰذِهِ الصِّفَةُ هِيَ مِنْ عَجَائِبِ صِفَاتِ القُرْآنِ المَجِيدِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُشْتَمِلاً عَلَىٰ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ وَمَقَاصِدِهِ، بِصَرِيحِ العِبَارَةِ، أَوْ بِلَوَازِمِهَا الفِكْرِيَّةِ، وَمَطْوِيَّاتِها، أَوْ بِقِيَاسِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ عَلَيْهَا، وَتَأْتِي بَعْدَهَا بَيَانَاتُ الرَّسُولِ ﷺ.

• ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أَيْ: رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرَ المَوْضُوعُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

وَالمُرَادُ بِالتَّذَكُّرِ فِي الاصْطِلَاحِ القُرْآنِي، أَثَرُهُ فِي نُفُوسِ المُتَذَكِّرِينَ وَقُلُوبِهِمْ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْ هَـٰذَا الْأَثَرِ مِنْ سُلُوكٍ دِينِيٍّ نَفْسِيٍّ وَجَسَدِيٍّ يَتَحَقَّقُ بِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

«**لَعَلَّ**» أَصْلُ مَعْنَاهَا الرَّجَاءُ، وَلَازِمُهُ الرَّغْبَةُ فِي تَحَقُّقِ الْمَرْجُوّ، فَيُحْمَلُ فِي العِبَارَاتِ الَّتِي لَا يَلِيقُ فِيهَا مَعْنَىٰ الرَّجَاءِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّغْبَة.

• ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِ هَـٰذَا القُرْآنِ قُرْآناً عَرَبِيّاً، مُنَزَّلاً بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مِنَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

لَفْظ «قُرْآن» هُوَ فِي الأَصْلِ مَصْدَرٌ لِفِعْلِ «قَرَأَ»، يُقَالُ لُغَةً: «قَرَأَ فُلَانٌ الْكِتَابَ يَقْرَؤُه، قِرَاءَةً، وَقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كَلِمَاتِهِ نَظَراً، وَنَطَقَ بِهَا.

وَأُطْلِقَ لَفْظ «الْقُرْآن» فِي الاصْطِلَاحِ الدِّينِيِّ عَلَىٰ الكَلَامِ الْمُنَزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَىٰ خَاتَمِ رُسُلِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَىٰ سَائِرِ رُسُلِ اللهِ وأَنْبِيَائِهِ أَجْمَعِينَ.

• ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: وَصْفٌ لِـ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

الْعِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ فِي الأَشْيَاءِ المَعْنَوِيَّةِ، كَالفِكْرِ، وَالقَوْلِ، وَالمَذْهَبِ، وَمِنْهَاجِ السُّلُوكِ.

أي: فَهَـٰذَا القُرْآنُ المُنَزَّلُ عَلَىٰ خَاتِمِ المُرْسَلِينَ مُحَمَّد ﷺ، مُسْتَقِيمٌ عَلَىٰ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالفَضَائِلِ وَكُلِّ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ وَصَايَا وَأَحْكَام وَنَصَائِحَ، غَيْرُ صَاحِبِ عِوَجٍ مَا فِي أَيِّ بَيَانٍ مِنْ بَيَانَاتِهِ مَهْمَا كَانَ كُلِّيّاً أَوْ جُزْئِيّاً، وَشَوَاهِدُ الدِّرَاسَاتِ المُخْتَلِفَاتِ الَّتِي اعْتَنَتْ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ تُقَرِّرُ أَنَّهُ لَا عِوَجَ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ، وَهَـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ العَلِيْمِ الحَكِيمِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يُنْهُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، لِيَتَّقُوا عَذَابَ اللهِ يومَ الدِّين.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الحَادِي عَشَر مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٦)
التدبر التحليلي للدّرسِ الثاني عشر من دُروس سُورَة (الزُّمر) الآية (٢٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

القراءات:

• قرأ ابن كثير، وَأَبُو عَمْرو، ويَعْقُوب: **[سَالِماً]**. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**سَلَماً**﴾.

«سَالِماً» و«سَلَماً» بِمَعْنَىٰ «خَالِصاً» فَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ وَاحِد.

تَمْهِيد:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ عَوْدٌ إِلَىٰ مُعَالَجَةِ المُشْرِكِينَ، بِأُسْلُوبٍ إِقْنَاعِيٍّ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ اسْتِثَارَةِ جَانِبٍ نَفْسِيٍّ لَدَىٰ الْإِنْسَانِ الْمُشْرِكِ، بِسُؤَالِهِ: أَيُّهُمَا أَكْرَمُ وَأَفْضَلُ لَهُ، أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكاً عَابِداً لِمَعْبُودٍ وَاحِدٍ، أَمْ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكاً لِمَالِكِينَ مُتَعَدِّدِينَ مُخْتَلِفِينَ مُتَشَاكِسِينَ، وَمَطْلُوباً مِنْهُ أَنْ يَكُونَ عَابِداً لَهُم جَمِيعاً؟!.

إِنَّ الْأَكْرَمَ وَالْأَشْرَفَ لَهُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِمَعْبُودٍ وَاحِدٍ بَدَاهَة.

أي: فَمَا هِيَ الْخِسَّةُ وَالضَّعَةُ الَّتِي رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ بِهَا لِنُفُوسِهِم بِاخْتِيَارِهِمْ الحُرِّ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِمَا زَعَمُوهُ مِنْ آلِهَةٍ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الحَقِيْقَةِ، بَلْ هُمْ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ افْتَرَوْهَا عَلَىٰ اللهِ وَعَلَىٰ الْحَقِيْقَةِ، أَوْ أَسْمَاءٌ وَهْمِيَّةٌ سَمَّوها لَا وُجُودَ لِمُسَمَّيَاتِهَا فِي الوَاقِع.

التدبّر التحليلي:

• ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا . . .﴾: سَبَقَ في الدرس «الحادي عشر» بَيَانٌ تَحْلِيلي للمثَلِ وَلِضَرْبِ المثَلِ.

والمثَلُ الَّذِي جَاءَ فِي هَـٰذَا الدَّرْس «الثَّانِي عَشَر» مَثَلٌ إِقْنَاعِيٌّ للتَّنْفِيرِ مِنَ الشِّرْكِ، بِاسْتِثَارَةِ دَافِعِ الكَرَامَةِ فِي نَفْسِ الْمُشْرِكِ.

• ﴿. . رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ . .﴾:

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾: أي: مُتخَالِفُونَ مُتعَاسِرُونَ.

أي: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً: رَجُلاً مَمْلُوكاً اشْتَرَكَ فِي مِلْكِهِ شُرَكَاءُ مُتَخَالِفُونَ مُتَعَاسِرُونَ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِخَدَمَاتِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْحَظِّ الْأَكْثَرِ مِنْهَا، فَهَـٰذَا يَنْهَرُهُ لِيَخْدُمَهُ، وَذَاكَ يَنْهَرُهُ لِيَخْدُمَهُ، وَذَلِكَ يَنْهَرُهُ لِيَخْدُمَهُ، وَلَا يَتَّفِقُونَ عَلَىٰ مُهَايَأَةٍ مَا بَيْنَهُمْ.

- ﴿..وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ..﴾: وَفِي القِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ **[سَالِماً]**.

يُقَالُ لُغَةً: «الشَّيْءُ سَلَمٌ لِفُلَان» أي: خَالِصٌ لَهُ. ويُقَالُ: «سَالِمٌ لَهُ» بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، أي: خَالِصٌ لَهُ أَيْضاً. فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِد.

- ﴿..هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ..﴾: أي: هَلْ يَسْتَوِيَانِ وَصْفاً.

أَرَىٰ أَنَّ المَثَلَ هُنَا فِي هَـٰذِهِ العِبَارَةِ بِمَعْنَىٰ الوَصْفِ. قَالَ الْجَوْهَرِي: «وَمَثَلُ الشَّيْءِ صِفَتُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا .. ﴿٣٥﴾﴾[1]: أي: صِفَةُ الْجَنَّةِ.

فَالمَعْنَىٰ: هَلْ يَسْتَوِي هَـٰذَانِ الرَّجُلَانِ فِي الْوَصْفِ؟.

وَالْجَوَابُ الَّذِي يُجِيبُ بِهِ كُلُّ عَاقِلٍ رَشِيدٍ بَدِيهَةً هُوَ: لَا يَسْتَوِيَانِ وَصْفاً، فَمَنْ كَانَ عَبْداً لِمَالِكٍ وَاحِد، لَا يُنَازِعُهُ فِي مِلْكِهِ أَحَدٌ، أَكْرَمُ وَأَشْرَف لَهُ مِنَ الْآخَرِ الَّذِي يَخْضَعُ لِشُرَكَاءَ يَمْلِكُونَهُ، وَهُمْ فِيهِ مُتَشَاكِسُونَ، مُتَخَالِفُونَ مُتَنَازِعُون.

وَهُنَا يُقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ: كَيْفَ تَجْعَلُونَ نُفُوسَكُمْ عَبِيداً لِآلِهَةٍ مُتَعَدِّدِينَ، تَتَوَزَّعُ أَوْقَاتُكُمْ لِعِبَادَةِ هَـٰذَا فَهَـٰذَا فَذَاك. بَيْنَمَا رَبُّكُمُ الْخَالِقُ لَكُمْ، الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.

---

(١) من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).

كَيْفَ تَسْقُطُونَ بِاخْتِيَارِكُمُ الْحُرِّ فِي هَـٰذَا الحَضِيضِ العَفِنِ الْوَخِيمِ، الَّذِي يَتَرَفَّعُ عَنْهُ ذَوُو الكَرَامَةِ، وَأَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ، وَيَتَنَزَّهُونَ مِنَ الاقْتِرَابِ مِنْهُ؟؟.

هَـٰذِهِ حُجَّةٌ إِقْنَاعِيَّةٌ مُسْكِتَةٌ، لَا رَدَّ لَهَا مِنْ قِبَلِ المُشْرِكِينَ، وَهِيَ مَسْبُوقَةٌ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بِحُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ، تُثْبِتُ أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ، فَلَا إِلَهَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ.

وَإِذْ سَكَتَ المُشْرِكُ وَلَمْ يَجِدْ جَوَاباً فَعَلَىٰ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَقُولَ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ:

• ﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٩)﴾: أي: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي آتَانَا الْحُجَّةَ المُسْكِتَةَ الدَّامِغَة، فَنَصَرَ الحَقَّ بِهَا.

وَجَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾: أي: بَلْ أَكْثَرُ المُشْرِكِينَ لَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، لِأَنَّ أَهْوَاءَهُمْ تَدْفَعُهُمْ لِلتَّمَسُّكِ بِالْبَاطِلِ.

«بل» هنا ابتدائية، ومعناها الإضرابُ الانتقالي.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الثَّانِي عَشَر مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

تَمْهيد:

بَدَأَ هَـٰذَا الدَّرْسُ بِخِطَابِ اللهِ لِرَسُولِهِ مُحَمّد ﷺ بِأَنَّهُ مَيِّتٌ، وَبِأَنَّ كُلَّ الْأَحْيَاءِ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَيِّتُون.

وَانْتَقَلَ الْبَيَانُ بَعْدَ هَـٰذِهِ التَّوْطِئَةِ إِلَىٰ خِطَابِ اللهِ النَّاسَ بِشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَخْتَصِمُون، وَكَانَ قَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ مَشَاهِدَ مِنَ التَّخَاصُمِ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَتْبَاعاً، وَبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّةً لَهُمْ، وَيَحْرِصُ الأَتْبَاع أَنْ يُحَمِّلُوا أَئِمَّتَهُمْ مَسْؤُولِيَّةَ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ، وَيَتَبَرَّؤ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّة مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ إِضْلَالِ الَّذِينَ كَانُوا أَتْبَاعاً لَهُم.

وَجَاءَ فِي هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ، أَو كَذَّبَ بِالصِّدْقِ الَّذِي جَاءَ عَنِ اللهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ الصَّادِقِين، بِخِلَافِ أَحْوَالِ الرُّسُلِ الصَّادِقِين، والمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقين، فَثَوَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين عَظِيمٌ جَسِيمٌ.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

● ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَهُوَ خَاتَمُ المُرْسَلِينَ أَنَّهُ مَيِّتٌ كَسَائِرِ الْأَحْيَاء، لِيَفْهَمَ النَّاسُ جَمِيعاً أَنَّ اللهَ لَا يَخُصُّ أَحداً مِنْ عِبَادِهِ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، بِالْخُلُودِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَالْمَوْتُ قَضَاءٌ مُبْرَمٌ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى الْأَحْيَاءِ جَمِيعاً فِي هَـٰذِهِ الحَيَاة الدُّنْيَا، لِأَنَّهَا حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، فَنِظَامُهَا قَائِمٌ عَلَىٰ انْتِهَاءِ الحَيَاةِ فِيْهَا بِالْمَوْتِ لِكُلِّ حَيٍّ.

أَمَّا الحَيَاة الأُخْرَىٰ بَعْدَ البَعْثِ فَهِيَ حَيَاةُ جَزاء، وَهِيَ حَياة خُلُودٍ وَبَقَاءٍ، لِمَنْ كَانُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِيْنَ مَوْضِعَ الابْتِلاءِ، وَلِذُرِّيَّاتِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا سِنَّ التَّكْلِيفِ، ولِحَيٍّ شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُ خالداً.

وَأَمَّا الأَحْيَاءُ الَّتِي لَمْ يَجْعَلْهَا الله مُمْتَحَنَةً فِي الحَيَاة الدُّنْيا بالإيمان بِالغَيْبِ، وَبِالإِسْلَام وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّ اللهَ يَبْعَثُها لِيُقِيمَ عَدْلَهُ بَيْنَهَا فِي التَّظَالُم، ثُمَّ يُمِيتُها، وَيَقُولُ لَهَا كُونِي تُرَاباً.

وَتَوْكِيد الجُمْلَةِ لُوحِظَ فِيهِ صَرْفُ أَوْهَامِ بَعْضِ المُؤْمِنِينَ عَنْ تَوَهُّمِ أَنَّ مُحَمّداً ﷺ لا يَتَعَرَّضُ لِلْمَوْتِ.

وَقَدْ جَاءَ هَـٰذَا البَيَانَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَوْطِئَة لِلْحَدِيثِ عَنِ الْبَعْثِ الَّذِي جَاءَ فِي الآيَة التَّالِيَة:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطاباً لِلنَّاسِ جَمِيعاً بَعْدَ أَنْ أَبَانَ أَنَّهُم مَيِّتُونَ:

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾:

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: أي: يُخَاصِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وَهَـٰذَا الاخْتِصَامُ يَشْمَلُ بِعُمُومِهِ مَا بَيْنَ الْخُصَمَاءِ مِنْ حُقُوقٍ كَانَ قَدْ ظَلَمَ بَعْضُهُمْ فِيْهَا بَعْضاً، فِي الْأَمْوَالِ، أَوِ الأَنْفُسِ، أَوِ الأَعْرَاضِ، أَوْ غَيرِ ذَلِكَ.

وَيَشْمَلُ أَيْضاً التَّخَاصُمَ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَتْباعاً ضَالِّين، وَبَيْنَ قَادَتِهِمْ وَأَئِمَّتِهِمْ، إِذْ كَانُوا يُطِيعُونَهُمْ وَيَأْتَمِرُونَ بِأَوَامِرِهِم، وَيُنَفِّذُونَ مَكَايِدَهُمْ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآيَة (٣٣) مِنْ سُورَة (سَبَأ/ ٥٨ نزول) وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُها.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ (ثُمَّ) لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْفَاصِلِ الزَّمَنِيِّ المُتَرَاخِي، بَيْنَ المَوْتِ وَبَيْنَ المُثُولِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ وَالْفَصْلِ الرَّبَّانِيَّة يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ الْبَعْث.

وَجَاءَ التَّعْبِير بِعِبَارَة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لِأَنَّ قِيَامَ الْمَوْتَىٰ مِنْ نَوَيَاتِهِمْ الْمُتَنَاثِرَةِ فِي الْأَرْضِ أَحْيَاءً يَكُونُ فِيهِ. وَيُسَمَّىٰ «يَوْمَ الدِّين» إِذْ يَكُونُ فِيهِ الجَزَاءُ الرَّبَّانِيُّ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاء. وَيُسَمَّىٰ «يَوْمَ الْفَصْلِ» إِذْ يَكُونُ فِيهِ فَصْلُ الأَحْكَامِ بَيْنَ العِبَاد. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَاء، أَخْذاً مِنْ أَحْدَاثٍ تَجْرِي فِيهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً فَرِيقَيْنِ هُمْ مِنْ أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ، مَعَ الإِشْعَارِ بِأَنَّ مَكَانَهُمُ الدَّائِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ فِي جَهَنَّمَ:

• ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾؟.

الاسْتِفْهَامُ فِي ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلْماً مِنْ هَـٰذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ المَذْكُورَيْنِ فِي الآيَة:

الْفَرِيْق الْأَوَّل: مَنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ، فَادَّعَىٰ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَسُولٌ أَوْ تَلَقَّىٰ عَنِ اللهِ كَذَا، أَوْ حَكَمَ بِحُكْمٍ فِي الدِّينِ زَاعِماً أَنَّهُ مِنْ دِينِ اللهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ مَقْبُولٌ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، أَوْ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ الصَّحِيحَةِ، وَمِنْ هَـٰذَا الفَرِيْقِ المُشْرِكُون وَمَنْ هُمْ أَخَسُّ مِنْهُم.

الْفَرِيْق الثَّاني: مَنْ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ عَنِ اللهِ، بِبَلَاغِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، أَوْ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ الثَّابِتَةِ بِيَقِينٍ.

وَبِمَا أَنَّ هَـٰذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْكَافِرِين، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَتَوَعَّدَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ وَعَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين:

• ﴿. . . أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾؟.

جَهَنَّم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فِيْهَا الْكَافِرِينَ، وَالْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ، لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيْثِ.

وَلَفْظُ «جَهَنَّمَ» يُطْلَقُ لُغَةً عَلَىٰ الْقَعْرِ الْبَعِيدِ مِنْ وَادٍ أَوْ بِئْرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

مَثْوَىً: أي: مَكَانُ إِقَامَةٍ وَاسْتِقْرَارٍ. يُقَالُ لُغَةً: «ثَوَىٰ بِالْمَكَانِ، يَثْوِي، ثَوَاءً، وَثُوِيّاً» أي: أَقَامَ بِهِ وَاسْتَقَرَّ.

والمعنى: أَقِرُّوا أَيُّهَا الْمُتَلَقُّونَ الْمُسْتَمِعُونَ آيَاتِنَا هَـٰذِهِ، أَلَمْ نُعْلِمْكُمْ فِي سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ، أَنَّ الْكَافِرِينَ سَوْفَ نَجْعَلُهُمْ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، ثَاوِينَ مُقِيمِينَ مُسْتَقِرِّينَ خَالِدِينَ، يُعَذَّبُونَ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ فِيْهَا، وَمِنْهُ عَذَابُ الْحَرِيقِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً فَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ مُقَابِلَيْنِ لِلْفَرِيقَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَهُمْ عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، بَدْءاً مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، وَارْتِقَاءً فِي الدَّرَجَاتِ وَالْمَرَاتِبِ حَتَّىٰ قِمَّةِ دَرَجَاتِ الْمُحْسِنِين:

• ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

• ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ﴾: هُمْ أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ عَلَيْهِم السَّلام، وَحَمَلَةُ رِسَالَاتِهِمُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، هَـٰؤُلَاءِ هُمُ الْفَرِيقُ الْأَوَّل.

• ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: أي: وَصَدَّقَ بِالصِّدْقِ الَّذِي جَاءَ بِهِ أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُله عَلَيهِم السَّلام، وَحَمَلَةُ رِسَالَاتِهِمُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِم، وَهَـٰؤُلَاءِ هُمُ الْفَرِيقُ الثَّانِي.

وَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَشْمَلُهُمْ عُمُومُ عُنوان: «المتّقِين»، لأنَّ «التَّقْوَىٰ» هِي

الْمَرْتَبَةُ الدُّنيا مِنْ مَرَاتِبِ المؤمِنِين، وهِيَ ذَاتُ دَرَجات، وَفَوْقَهَا تَأْتِي مَرْتَبَةُ «الْبِرّ» عَلَىٰ دَرَجَاتِهَا الْمُتَفَاضِلَات، وَفَوْقَ مَرْتَبَةِ «الْبِرِّ» تَأْتِي مَرْتَبَةُ «الْإِحْسَانِ» وَهِيَ قِمَّةُ مَرَاتِبِ أَهْلِ الإِيمان، وَهِي أَيْضاً ذَاتُ دَرَجَات.

وَلَا يَتَحَقَّقُ الارْتِقَاءُ إِلَىٰ الْمَرْتَبَةِ الْأَعْلَىٰ إِلَّا مِنْ خِلَالِ التَّحَقُّقِ بِالْمَرْتَبَةِ الْأَدْنَىٰ.

الْمَعْنَىٰ: وَفِي مُقَابِلِ الْفَرِيْقَيْنِ السَّابِقَيْنِ الدَّاخِلَيْنِ تَحْتَ عُنْوَانِ «الْكَافِرِين» أَصْحَابِ جَهَنَّم، يُوجَدُ فَرِيقَانِ آخَرَانِ يَشْمَلُهُمَا عُنْوان «المتَّقِين».

الْفَرِيقُ الْأَوَّل: الَّذِي جَاءَ النَّاسَ يُحَدِّثُهُمْ بِالصِّدْقِ عَنِ اللهِ وَعَنْ دِينِ اللهِ وَأَحْكَامِ شَرِيْعَتِهِ لِعِبَادِهِ، دَاعِياً هَادِياً مُبَلِّغاً مُرْشِداً.

وَيَنْطَبِقُ هَـٰذَا الْوَصْفُ عَلَىٰ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم السَّلَام، وَيَنْطَبِقُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ وَأَئِمَّةِ الْمُتَّقِين.

الْفَرِيقُ الثَّانِي: عَامَّةُ الْمُؤْمِنِين الصَّادِقِينَ فِي إِيمانِهِمْ وَإِسْلَامِهِم، الَّذِينَ صَدَّقُوا بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي بَلَّغَهُ رُسُلُ اللهِ، وَأَنْبِيَاؤُهُ عَلَيهِم السَّلام، وَدُعَاةُ الْهُدَىٰ وَأَئِمَّةُ الْمُتَّقِين مِنْ أَتْبَاعِ رُسُلِ اللهِ، وَهُمْ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَتْبَاعُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، الَّذِينَ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ، غَيْرَ غَالِينَ، وَلَا مُحَرِّفِينَ، وَلَا مُبْتَدِعِينَ.

وَكِلَا هَـٰذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِي هَـٰذَا الدَّرْس:

﴿.. أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ رَفِيعُو الْمَكَانَةِ عِنْدَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ يَصْدُقُ عَلَيْهِمُ الْعُنْوَانُ الْعَامُّ الشَّامِلُ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ «الْمُتَّقُونَ»، أي: الَّذِينَ اتَّقَوا بِإِيمَانِهِم الصَّادِقِ وَبِإِعْلَانِهِمْ إِسْلَامَهُمْ أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمُ مَثْوَاهُم، بِخِلَافِ

الْفَرِيقَيْنِ الْمُنْحَطَّيْنِ السَّافِلَيْنِ الَّذِينَ يَشْمَلُهُمْ عُنْوَانُ «الْكَافِرِين».

وَهَـٰؤُلَاءِ «الْمُتَّقُون» يَدْخُلُونَ الْجَنَّة يَوْمَ الدِّينِ، وَلَوْ بَعْدَ مُجَازَاتِهِم عَلَىٰ مَعَاصِيهِمْ كُلِّها أَوْ بَعْضِها، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ، أَوْ الْأَبْرَارِ أَوْ كَامِلِي التَّقْوَىٰ، أَوْ مِنَ الَّذِينَ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ خَطَايَاهُم لِعِلْمِهِ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِنْ خَيْر.

وَبَعْدَ دُخُولِ هَـٰؤُلَاءِ الجَنَّة:

• ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ .. ﴿٣٤﴾﴾:

كَمَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورة (ق/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذَا النَّصِّ لَدَىٰ تَدبُّر سُورَةِ (ق).

وَيَجْزِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلَ هَـٰذَا الجَزَاءِ الْمُقَرَّرِ لِعُمُوم الْمُتَّقِينَ، الْأَبْرَارَ وَالْمُحْسِنِينَ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، فَيَأْخُذُونَ مَع الْمُتَّقِينَ الجَزَاءَ الْمُخَصَّصَ لَهُمْ، وَيَنَالُ الْأَبْرَارُ مَا يُعْطِيهِمُ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ زِيَادَاتٍ لِبِرِّهِمْ وَتَوَسُّعِهِم فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَمَرَاضِي اللهِ، وَيَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ بِمَا يُلَائِمُ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ أَعْمَالِ بِرٍّ زَائِدَةٍ عَلَىٰ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ «الْمُتَّقِين». وَيَنَالُ الْمُحْسِنُونَ مَا يُعْطِيهِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ زِيَادَاتٍ لِإِحْسَانِهِم، مَعَ مَا يَنَالُونَهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَالأَبْرَارِ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقونَ، وَأَبْرَارٌ، وَزَادُوا عَلَىٰ مَطْلُوبَاتِ الْمُرْتَبَةِ الدُّنْيَا وَالْوُسْطَىٰ مَا هُو مِنْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، فَاسْتَحَقُّوا عَطَاءَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ المَرَاتِبِ الثَّلَاثَةِ.

وَاقْتَصرَ النَّصُّ فِي السُّورَةِ الجَارِي تَدَبُّرُهَا، عَلَىٰ ذِكْرِ المُحْسِنِين، فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي يَنَالُهُ عُمُومُ المُتَّقِين، يَنَالُهُ الْمُحْسِنُونَ أَيْضاً مَعَ زِيَادَاتٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ، بِسَبَبِ ارْتِقَائِهِمْ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الله كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَه، وَيُفْهَمُ مِنْ هَـٰذَا أَنَّ الأَبْرَارَ الَّذِينَ هُمْ فَوْقَ الْمُتَّقِينَ وَدُونَ الْمُحْسِنِينَ لَهُمْ مِثْلُ مَا لِلْمُتَّقِينَ مَعَ زِيَادَاتٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ بِسَبَبِ ارْتِقَائِهِم إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، إِذْ كَانُوا يَسْتَزِيدُون مِنَ الْقُرُبَاتِ فَوْقَ فِعْلِ الوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَات.

أَمَّا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عقِبَ ذِكْرِ الْمُحْسِنِين:

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فَهُوَ تَعْلِيلٌ لِمَطْوِيٍّ فِي النَّصِّ تَقْدِير مَعْنَاهُ فِيمَا أَرَىٰ: وَيَخُصُّ اللهُ «الْمُحْسِنِين» أي: أَصْحَاب مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ الْعُلْيَا الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بِعُيُونِهِم، بِجَزَاءٍ فَوْقَ مَا يَشَاؤُونَ وَفَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُونَ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ضِمْنِ الْمَوْضُوعِينَ لِلْمُحَاسَبَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا فَمَا دُونه مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ، وَلِيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ الصَّالِحَاتِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، بِجَزَاءٍ يُسَاوِي الجَزَاءَ المُقَرَّرَ لِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَىٰ اللهِ، بِسَبَب أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مُحْسِنِين.

وَبِهَـٰذَا تَمَّ تَدَبّر الدَّرْس الثَّالِث عَشَر مِنْ دُرُوسِ سُورَة (الزُّمر).
وَالحَمْدُ لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ.

(١٨)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٣٦ و٣٧)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

القراءات:

(٣٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر: **[عِبَادَهُ]** بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿عبده﴾** بالإفراد.

والمؤدّىٰ واحد، لأنَّ النكرة المضافَةَ إلىٰ المعرفة تعمُّ.

وقد يكون المرادُ بالإفراد الرَّسُول، وبالجمع أتباعُهُ المؤمنون المسلمون، فيكون بَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أدَاء المَعْنَىٰ المراد.

تَمْهِيد:

تُشْعِرُ الآيَةُ الأُولَىٰ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْسِ أَنَّ كُبَرَاءَ مُشركي مكة كَانُوا يُدَبّرونَ مَكَايِدَ للتّخَلُّص مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، ويَضْطَّهِدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ويُخَوِّفُونَ الرَّسُول ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ مِنْ أنْ تُنْزِلَ بِهِم آلِهَتُهُمْ بَأْساً أَوْ ضُرّاً أَوْ شَرّاً، فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَمِيعِ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَام التَّقْرِيرِيّ أَنَّهُ كافٍ عَبْدَهُ وَعِبَادَهُ، يحْمِيهِمْ مِنْ كلِّ سُوءٍ لا يَقْضِيْهِ أوْ يأذَنُ بِهِ، فَهُوَ الرَّبُّ الذي بِيَدِهِ مَفَاتيحُ كُلِّ شَيءٍ، والمُهَيمِنُ بِصِفَاتِ رُبُوبيَّته على كلِّ شَيء. وَبَعْدَ هَذَا الاسْتِفْهَامِ التَّقْريريّ لَوَّحَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلَّذِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه بِآلِهَتِهِمْ، بِأَنَّهُ بِعِزَّتِهِ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، بَعْدَ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِهِ الانْتِقَامِ، فَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ فَلَا أَحد يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْهِدَايَةِ، وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ.

التدبّر التّحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ .. ﴿٣٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: **[عِبَادَهُ]**.

أي: تَفَكَّرُوا فِي عِزَّةِ الرَّبِّ ذِي الانْتِقَام، ثُمَّ أَجِيبُوا عَلَىٰ هَـٰذَا السُّؤَال أَيُّهَا المُشْرِكُون الَّذِينَ تُدَبِّرُونَ المَكَايِدَ للتَّخَلُّص مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أَلَيْسَ اللهُ الْعَظِيم الكَبِيرُ، الحَكِيم الْقَدِيرُ، الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَكْفِي عَبْدَهُ، وَيَكْفِي عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، مَكَايِدَكُمْ وَتَدْبِيراتِكُمْ وَشُرُورَكُمْ بِمَا شَاءَ مِنْ حِمَايَةٍ يَحمِيهِ بِهَا، وَلَوْ بِإِهْلَاكِ مُدَبِّري المَكَايِدِ والمُحَرّضِين عَلَيْهَا مِنْ كُبَرَائِكُمْ؟؟.

والجواب: إنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَكْفِيَ رَسُولَهُ ﷺ وَالَّذِين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه كُلَّ شُرُوركم، فَيَحْمِيَهُمْ مِنْها.

الاسْتِفْهَامُ فِيه مَعْنَىٰ التقرير، وفيه معنىٰ الاسْتِهَانَةِ بِمُدَبِّري المكايد، وتَهْدِيدِهِمْ بالانْتِقَام، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ تَحْقِيقِ مَا يُرِيدُون مِنْ شَرٍّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاللهُ كَافِيه، ولا بعبادِه المؤمنين الصَّادِقين مِنْ أَصْحَابِهِ.

الباء في «بِكَافٍ» زيدَت للتوكيد في خَبَرِ ليس، والأكثر في خَبَرِ ليسَ زيادة الباء.

• ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: أي: بحَافِظٍ عَبْدَهُ وَحَامِيهِ، مِنْ كَيْدِ أعَادِيه.

أي: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ حَافِظٌ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ وحَامِيهِ مِنْ مَكَايِدِكم، مَهْمَا دَبَّرْتُمْ وَمَكَرْتُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

﴿. . وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ . . ﴿٣٦﴾﴾:

أي: ويُخَوِّفُكَ المشْرِكُونَ بِآلِهَتِهِمْ الّذِين يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، أَنْ تُنْزِلَ بِكَ مَكْرُوهاً أو انْتِقاماً، لِأَنَّكَ تَذْكُرُ أنَّها باطِلَة، وبأنَّها لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَلِأَنَّكَ تُسَفِّهُ أَحْلَامَ عَابِدِيها، وَتُنْذِرُهُمْ بِعَذَابٍ فِي جَهَنَّمَ يَوْم الدِّين، خَالِدِينَ فِيها أبداً.

ورَدَ في أقوال بعض المفسرين: أنَّ قُرَيشاً قَالُوا لرسُول اللهِ ﷺ: «إنَّا نَخَافُ أَنْ تَخْبِلَكَ آلِهتُنا، وإِنَّا نَخْشَىٰ عَلَيْكَ مَعرَّتَها لِعَيْبِكَ إِيَّاها».

«أَن تَخْبِلَكَ آلِهتُنا»: أي: أَنْ تُفسِدَ عَقْلَكَ، وتُذْهِبَ فُؤَادَك.

«مَعَرَّتَهَا»: أي: أذاهَا، ومَكْرُوهاً يَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِها.

وقد سبَقَ في سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) بَيَانُ أَنَّ قَوْمَ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَوَّفُوه بانْتِقَامِ آلِهَتِهِمْ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُمْ مَا دَلَّ عليه قول اللهِ تَعالَىٰ فيها:

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فَدَلَّ هَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ أفْكَارَ المشْرِكِينَ وَطَرَائِقَهُمْ مُتَشَابِهَةٌ، وَلَوْ عَقَلَ مُشْرِكُو مَكَّة لَاكْتَفَوْا بِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ عَنْ إبراهِيم عَلَيْهِ السَّلام، وَلَمْ يُخَوِّفُوا رَسُولَهُمْ مُحمّداً ﷺ بِآلِهَتِهِمْ، فَجَوابُهُمْ عَلَىٰ هَـٰذَا التَّخْوِيف هُوَ الجوابُ نَفْسُهُ، الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَجَابَ بِهِ إِبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُشْرِكي قَوْمِهِ، ولَكِنَّهُمْ عِنَادِيُّون، وَبِبَاطِلِهِمْ مُسْتَمْسِكُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ هَـٰذَا الموقف مِنْ مَوَاقِفِ المشركين الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ إِبَّانَ التَّنْزِيل:

• ﴿... وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾:

• ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بأنَّهُ ضَالٌّ، لِأَنَّهُ اجْتَازَ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِ ضَالّاً باختيارِهِ الحرِّ، فاسْتَحَقَّ الْعِقَاب.

• ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: أي: فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ لَهُ بأنَّهُ كَانَ مُهْتَدِياً في رِحْلَةِ امْتِحَانه، لِيَرْفَعَ اللهُ عَنْهُ الْعِقَابَ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ.

الإِضْلَالُ والْهِدَايَةُ: مُسْتَعْمَلَانِ هُنَا بِمَعْنَىٰ الْحُكْم بالضَّلَالِ، والْحُكْمِ بالْهِدَايَةِ، بالاسْتِنَادِ إِلَىٰ وَاقِعِ حَالِ المحْكُوم عَلَيْهِ أوْلَه[1].

• ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ..﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ، فيسْتَحِقُّ بِحُكْم اللهِ وقَضَائِهِ دُخُولَ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، خالداً فِيها مُخَلَّداً مُنَعّماً أبداً، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ، لِيَحْجُبَ عَنْهُ فَضْلَ رَبِّهِ عَلَيْه بالنَّعِيم المقيم.

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

والمعنى: فَلَا يَطْمَعِ المشْرِكُونَ بأَنْ تَصْنَعَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ شَيْئاً، فَتَدْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ إذا حَكَمَ بِهِ عَلَيْهِم، أَوْ تَجْلُبَ لَهُمْ مَنْفَعَةً مَا، إذا قَضَىٰ اللهُ أَنْ يُمْسِكَهَا عَنْهُمْ.

• ﴿.. أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ إِثْبَاتُ أنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام، وهو اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيري بِالنِّسْبَةِ إلى مَنْ يُؤمِنَ بِهَـٰذَا، وفي هذِه العِبَارة تَلْوِيحٌ لِلْمُعَالجين المعاندين بأَنْ يَتَرَقَّبُوا عِقَابَ الله لهم.

بِعَزِيزٍ: أيْ: بقَويٍّ غَالِبٍ، لَا نِدَّ لَهُ، ولَا تَمْتَنِعُ عَنْ تَنْفِيذِ إرادَتِهِ قُوةٌ مَا فِي الوجود كُلِّهِ بَالغاً ما بَلَغَت.

---

(١) انظر القاعدة (٣٧) حول علاقات إسناد الفعل أو ما في معناه في كتاب: «قواعد التدبُّر الأمْثَل لكتاب اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» للمؤلّف.

ذي انْتِقَامٍ: أي: ذي عُقُوبَةٍ بِالْعَدْل. **الانْتِقَامُ**: الْعُقُوبَةُ.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الرَّابع عشر مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَر). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٩)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (الزُّمَر) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

القراءات:

(٣٨) • قرأ حَمْزَة: [**إنْ أَرَادَانِيْ اللهُ**] بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرَة بِفَتْحِ يَاءِ المتكلم: ﴿**إن أرادنيَ الله**﴾.

(٣٨) • قرأ أَبو عَمْرو، وَيَعْقُوبُ: [**كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ**] و[**مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ**] بتَنْوِينِ الْأَوّلِ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْعِبارَتَيْن، وَنَصْبِ الثاني على أَنَّهُ مَفْعُولٌ به لاسم الفاعل.

وقرأهُمَا باقِي الْقُرَّاءِ العشرةِ، بدُونِ تَنوِينِ الْأَوّلِ مِنْ كُلٍّ مِنْهُما وبِجَرّ الثاني من كلٍّ مِنهما على أَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ.

وَالقراءتَانِ وَجْهَانِ عَرَبيَّانِ مُتَكَافِئَان.

(٣٩) • قرأ شعبة: [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مكانتكم﴾ بالْإفراد.

ومُؤَدّىٰ القراتَيْن واحد.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ جَدَلِيٌّ وإقْناعِيٌّ، مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، يُوجَّهُ للمشْرِكين، وهـٰذا التَّعْلِيمُ مُكَمِّلٌ لِمَا جَاءَ مِنْ تَعْلِيمٍ في سَوَابقِ التَّنْزِيلِ.

التدبر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه بِشَأْنِ المشْرِكين إِبَّانَ التَّنْزِيل:

• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴿٣٨﴾﴾:

كَانَ المشْرِكُونَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ السَّماواتِ والْأَرْضِ، ولٰكِنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ بالنِّسْبَةِ إلى أَحْوَالِ النَّاسِ في الْأَرْض، وَبِسَبَبِ هَـٰذَا يَعْبُدُونَ شُرَكَاءَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، فَيَتَّخِذُونَهُمْ آلِهَةً.

فجاء التَّعْلِيمُ هُنَا لانْتِزَاعِ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وللانْتِقَالِ مِنْ هـٰذا الاعْتِرَافِ إِلَىٰ فِكْرَةٍ أُخْرَىٰ يَرَوْنَ بِهَا أَنَّ لِآلِهَتِهِمْ رُبُوبِيَّةً ما عَلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الْأَرْض.

▪ وفي الانْتِقَالِ إِلَىٰ المرحَلَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ المناظَرَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الخطاب:

• ﴿...قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: إنَّكُمْ أيُّها المشْرِكُونَ تُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، ولَا تَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي هَـٰذَا الْقِسْمِ مِنْ أَقْسَامِ رُبُوبيَّتِهِ، لكِنَّكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ تَجْعَلُونَ للهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبيَّتِه، كَقَضَايا الرِّزْق، والذُّرِّيّة، والْأَمْنِ، والنَّصْرِ عَلَىٰ الْأَعْدَاء، والتوفيق في الرِّحْلَاتِ التجارية، ونحو ذَٰلِكَ.

هُنَا أَطْرَحُ عَلَيْكُمُ السُّؤالَ التالي:

إِنْ أَرَادَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ أَنْ يُنْزِلَ بِي ضُرّاً أَكْرَهُهُ، فَهَلْ آلِهَتُكُمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَكْشِفَ عَنِّي مَا أَنْزَلَ بِي مِنْ ضُرٍّ؟. وإِنْ أَرادَ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِنِعْمَةٍ هِيَ من آثَارِ رَحْمَتِهِ، فَهَلْ آلِهَتُكُمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تُمْسِكَ عَنِّي نِعْمَتَهُ، فتَمْنَعَها عَني؟. تَفَكَّرُوا وأَجْيبُوني.

فإِنْ قَالُوا: إِنْ أَرادَ اللهُ أَنْ يُنْزِلَ بِكَ أَوْ بغَيْرِكَ ضُرّاً فَلا أَحَدَ يَكْشِفُهُ غَيْرُهُ، وإِنْ أَرادَ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْكَ أَوْ على غَيْرِكَ بِنِعْمَةٍ، فَلَا أَحَدَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُمسِكَهَا وَيمْنَعَها، فقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الحجَّةُ بِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ، بِمَا في ذَٰلِكَ أَحْوَالُ النَّاس، وَعِنْدَئِذٍ يَلْزَمُهُمْ حَتْماً أَنْ يُؤْمِنُوا بأنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هو.

ويَتَحَقَّقُ المطْلُوبُ مِنَ المناظَرَة.

وَإِنْ قَالُوا: إِنَّ لِآلِهَتِهِمْ تَأْثِيراتٍ فِي كَشْفِ الضُّرِّ أَوْ إِمْسَاكِ النِّعْمَة، فإِنَّ باسْتِطَاعَةِ المناظِرِ لَهُمْ أَنْ يَأْتِي بِذِي ضُرٍّ، ويتَحدَّاهُمْ بِأَنْ يَدْعُو آلِهَتَهُمْ لِكَشْفِ الضرِّ عَنْه، ولَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ لِعَجْزِها، وَباسْتِطَاعَتِهِ بأنْ يأتِي بِذِي نِعْمَة، وَيَتَحَدَّاهُمْ بأَنْ يَدْعُو آلِهَتَهُمْ لإمْسَاكِ نِعْمَةِ اللهِ عَنْه، ولَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ لِعَجْزِها.

وعِنْدَئِذٍ يُغْلَبُ الْمُشْرِكُونَ، ويتحقَّقُ المطْلُوبُ مِنَ المناظَرَة.

وهُنَا يُعْلِنُ المنَاظِرُ المؤمِنُ الداعي إلَىٰ مَقَالَته الإيمانيَّة، كَما جَاءَ في التعليم الرَّبَّاني فيقول:

﴿... حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾: أي: كافٍ لِيَ اللهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَهُو الرَّبُّ الَّذي يُغْنِي كُلَّ كائِنٍ فِي الْوُجُود عَمَّا سِوَاهُ، وَلَسْتُ بِحَاجَةٍ إلَىٰ الاستعانَةِ بأحَدٍ لَا عَوْنَ عِنْدَهُ مِن دُون الله، وآلِهَتُكُمْ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ بَاطِلَةٌ، لَا رُبُوبِيَّةَ لها، فَلا إلَهِيَّةَ لَهَا، لِذَا فَأَنَا أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ في كُلِّ أُمُوري وشُؤُوني وأحْوَالي.

﴿.. عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَتَوكَّلُ المتَوَكِّلُونَ مِنْ أَهْلِ الإيمان والْعَقْلِ والرُّشد، الَّذِينَ يَنْفَعُهُمْ تَوَكُّلُهُمْ.

التوكُّلُ علَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيق مَا يَرْغَبُ فِيه المتوكّل، مع القيامِ بالْأَسْبَابِ المسْتَطَاعَةِ المادِّيَةِ وَالْمعنَوِيَةِ طَاعَةً لِأَمْرِه ونَهْيِه.

يُقَالُ: «تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ» أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعْتِمَاداً صَادِقاً، مُسْتَسْلِماً لِمَا يَخْتَارُهُ لَهُ مِنْ أَمْر، مع قيامِهِ بالْأَسْبَاب الكَوْنِيَّةِ الَّتِي لم يُحَرِّمِ اللهُ اتَّخَاذَها، دُونَ تَفْرِيطٍ بشيءٍ مِنْها.

اسْتُفِيدَ القصرُ من تقديم المعمول: ﴿عَلَيْهِ﴾ على عَامِلِه: ﴿يَتَوَكَّلُ﴾.

و«ال» في: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لِلْكَمال، والْكَامِلُونَ مِنْهُمْ هُم المؤمِنُون أهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ الَّذِينَ يَنْفَعُهُمْ تَوَكَّلُهم.

أَمَّا الَّذِين يَتوَكَّلُونَ عَلَىٰ آلِهَةٍ مِنْ دُون اللهِ فإِنَّهُمْ خَائِبُونَ، لَا يَنْفَعُهُمْ تَوَكُّلُهُمْ شَيْئاً، بَلْ يَجْعَلُهُمْ شِرْكُهُمْ كُفَّاراً مَحْكُوماً عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار.

وَإذا أَصَرَّ المشْرِكُونَ علَىٰ مَوْقِفِهِمْ الشِّرْكي الْعِنَادِيّ الّذي قَامَتِ الحجَّةُ علَىٰ بُطْلَانِهِ، كَانَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا جَاءَ فِي خِتَامِ التَّعْلِيمِ، وهو قول الله التالي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيم:

• ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

الْمَكَانَة: مُؤَنَّثُ الْمَكَان، والمرادُ بعبارَةِ: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ الموقفُ الشِّرْكيُّ الَّذي يُصِرُّونَ عَلَىٰ مُلازَمَتِهِ مَعَ ظُهُورِ بُطْلَانِه، وَلَا يَتَزَحْزَحُونَ عَنْه.

وفي القراءة الأخرى [**مَكَانَاتِكُمْ**] أي: مَوَاقِفِكُم الشركية.

المعنىٰ: قلْ لَهُم إِذَا أصَرُّوا علَىٰ شِرْكِهِمْ عَلَىٰ الرُّغْم مِنْ ظُهُورِ فَسَادِ مَذْهَبِهِمْ: اعْمَلُوا مَا تَشَاؤُونَ مُحَافِظِينَ علَىٰ مَوْقِفِكُمُ الشِّرْكيّ الباطل أو مَوَاقِفِكُمْ، إِنّي عَامِلٌ بِمَا يَطْلُبُهُ مِنّي إيماني بِرَبِّي الَّذي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَلَازِمٌ مَكَانِي فِيه، لَا أَتَزَحْزَحُ عَنْهُ.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّه عَذَابٌ يُخْزِيهِ ذُلّاً وَهَوَاناً فِي مَوْقِفِ الحشْرِ فَمَا بَعْدَه، وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ لَا يَرْحَلُ عَنْه، أَيْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَنالُونَ هَـٰذا الْمَصِير الوخيم.

الخِزْيُ: الذُّلُّ والْهَوَانُ، والافتضاح بالقبائحِ، مَعَ آلامِ التَّعْذِيب.

• ﴿.. وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾: أي: وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ، حَالّاً بِهِ حُلُولَ النَّازِلِ بالمكانِ للإقامَةِ والاسْتِقرار.

يُقالُ لُغةً: «حَلَّ المكَانَ، وحَلَّ بِهِ، يَحِلُّ، حُلُولاً» أي: نَزَلَ بِهِ.

وَتَنْتَهِي جَوْلَاتُ هٰذِه المناظَرَةِ الحِوَارِيَّةِ بِهٰذا، ويَتَفَاصَلُ الْفَريقان.

وبهذا يَنْتَهِي هَـٰذا الدَّرْسُ الخامس عشر من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

(٢٠)

التدبّر التحليلي للدرس السادس عشر من دُروس سورة (الزّمر) الآية (٤١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسُوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

الْقِرَاءات:

• قرأ حَمْزَة، ويَعْقُوبُ: [**عَلَيْهُمْ**] بِضَمِّ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسْرِ الْهَاءِ: [**عَلَيْهِمْ**].

تَمهيد:

في هذه الآية مُتَابَعَة للحديث عن القرآن، الَّذِي جاءت لقطاتٌ عَنْهُ فيما يلي:

(١) في الآيتين (١ و٢) من هذه السورة.

(٢) وفي الآية (٢٣) وكان البيانُ فيها مشتملاً على سبْعِ قضايا.

(٣) وفي الآيتين (٢٧ و٢٨).

وفي آيَةِ هذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ القرآنَ أُنْزِلَ لِلنَّاسِ مُتَّصِفاً بالحقِّ.

التدبر التحليلي:

■ قول اللهِ تعالى خطاباً لرسوله:

• ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ...﴾:

يتحَدَّثُ رَبُّنَا بضَمِير المتكلّم الْعَظِيم إشْعَاراً بِمَكَانَةِ الْقُرآن الْجَلِيلَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ عَلِيم حَكِيم، فَيَقُولُ لرسوله ﷺ: إنَّا بصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِنَا العظيمةِ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الكِتَاب القرآنِ، وَسَنُتِمُّ تَنْزِيلَ سَائِرِ آيَاتِه، لِتُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ لِأَنَّكَ رَسُولُنَا للنَّاسِ أَجْمَعِين، وَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ مُتَّصِفاً بِالْحَقّ فِي بَيَانَاتِهِ الخبريَّةِ عَنِ الماضِي والحاضِرِ والمستقْبَلِ، وَمُتَّصِفاً بالْحَقِّ فِي أحْكَامِهِ الْعَدْلِيَّة، وَمُتصِفاً بِالْحَقِّ فِي بَيَانِ العِبَاداتِ الَّتِي تُرْضِيهِ تَعالى مِنْ عِبَادِه، فَكُلُّ مَا فِيهِ مُتَّصِفٌ بِالْحَقّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُوله ﷺ:

• ﴿... فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾:

أي: فَمَنِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، فاهْتَدَىٰ بِهَٰذِهِ الاسْتَجَابَةِ لِمَا يُحَقِّقُ بِهِ لِنَفْسِهِ السَّعَادَةَ الْخَالِدَةَ، فَلِنَفْسِهِ جَلَبَ رِضْوَانَ اللهِ، والنَّعِيمَ الأبَدِيَّ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين، مَعَ طِيبِ عَيْشٍ فِي الحياة الدُّنيا بالرِّضَا عَنِ اللهِ وَمَقَادِيره.

ومَنْ لم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآن، فَضَلَّ بِرَفْضِهِ الاسْتِجَابَةَ، عَنِ الطَّرِيق الَّذِي يُوصِلُهُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ الْخَالِدَة، فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ شَقَاءً أَبَدِيّاً، وخُلُوداً فِي عَذَاب النَّارِ يَوْم الدِّين.

• ﴿... وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾: أي: وما جَعَلْنَاكَ قَائِماً عَلَىٰ النَّاسِ مُلْزَماً بِحِمَايَتِهِمْ، وتَحْوِيلِهِمْ مِن الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمَانِ، كالْوَكِيلِ عَلَىٰ

قُطْعَانِ الْأَنْعَام، إنَّمَا أَنْتُ مُبَلِّغٌ رِسَالَةَ رَبِّكِ، وقائِم بوظائِفها فَقَطْ، إِذِ الناسُ ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وهُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا مُمْتَحنُونَ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحمَّلُوا تَبِعَاتِ اخْتِيَارَاتِهِمْ، فإمَّا أَنْ يَجْلُبُوا لِنُفُوسِهِمْ ثَواباً، وإمَّا أَنْ يَجْلُبُوا لِنُفُوسِهِمْ عِقَاباً وعَذَاباً أَلِيماً عِنْدَ رَبهِمْ يَوْمَ الدين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس السادس عشر من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على مَعُونَتِه ومَدَدِه وتوفيقِهِ وَفَتْحِهِ.

(٢١)
التدبّر التحليلي للدرس السابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٤٢)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

• قرأ حمْزَةِ، والكِسَائِي، وخَلَف: [**الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ**] بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بالبناء لِلْمَعْلُوم: ﴿**الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ**﴾.

أي: قَضَىٰ اللهُ عليها الموت.

ومُؤَدَّى القراءتَيْنِ وَاحد.

تمهيد:

سبَقَ في الآيتين (٦٠ و٦١) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) بَيَانٌ عَنْ تَوَفِّي الله النَّاسَ بالنَّوم، وعَنْ تَوَفِّيهم بالموت.

ومَا جَاءَ فِي آيَةِ هذا الدَّرْسِ فيه تَوْكِيدٌ وَإِضَافَاتٌ فِكْرِيّة، فَبَيْنَ النَّصَّيْنِ تَكَامُلٌ لَا يَخْفَىٰ علَىٰ مُتَدبِّرِهما معاً.

التدبرُّ التحليلي:

أصْلُ مَادَّةِ «تَوَفَّى، يَتَوَفَّىٰ» ومُشتقَّاتِها يَدُور حَوْل مَعْنَىٰ استيفاءِ المقدارِ الْمُحَدَّدِ، سواءٌ أكَانَ مُتَّصِلَ الأجزاءِ أمْ مُنْفصلها. وبُلُوغُ غَايَةِ أَفْرادِ الشيءِ أَوْ أجْزَائِهِ الْمُقَدَّرَةِ يَحْصُلُ بِهِ التَّوَفّي.

فيقال: «تَوَفَّىٰ اللهُ فُلاناً» أي: أَعْطَاهُ غَايَةَ الزَّمَنِ المقدَّر لَهُ أَنْ تكُونَ رُوحُهُ مُتَّصِلَةٌ بِنَفْسِهِ اتِّصَالاً كُلّيّاً أَو اتِّصَالاً جُزْئِيّاً، وبالْفَصْلِ الْكَامِلِ يَحْدُثُ الموْتُ، وبالْفَصْل الجزْئِيِّ يَحْدُثُ النَّوْمِ.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هذه الآيَةِ من سورة (الزُّمر) أَنَّهُ يَتوفَّىٰ الْأَنْفُسَ وَفَاةً كَامِلَةً حِينَ مَوْتِها، ويَتَوَفَّاها وَفَاةً جُزْئِيَّةً فِي حَالَةِ نَوْمِها.

وَنَفْهَمُ مِنْ هـٰذا البيانِ الرَّبَّانِيِّ أَنَّ النَّوْمَ والْمَوْتَ ظَاهِرتَانِ لِلْفَصلِ بَيْنَ الرُّوحِ الْمُمِدَّةِ بِالْحَيَاةِ، وبَيْنَ النَّفْسِ الَّتِي تَجْتَمِعُ فيها خَصَائِصُ الْكَائِنِ الْقَابِلِ لِلْحَيَاة.

فإِذَا كَانَ الْفَصْلُ فَصْلاً كُلِّيّاً حَدَثَ الموتُ، فَذَاقَتِ النَّفْسُ الْمَوْتَ، كما قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ .. (١٨٥)﴾.

وَإِذَا كَانَ الْفَصْلُ فَصْلاً جُزْئِيّاً يَقْتَصِرُ عَلَىٰ سَلْبِ الْحَرَكَةِ الإرَادِيَّةِ حَدَثَ النَّوم.

وقدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي بَيانِهِ القرآنيّ فِعْل «تَوفَّىٰ - يَتَوَفَّىٰ» ومُشْتَقَّاتِه للدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعْنىً كُلِّيٍّ ذِي نَوْعَيْنِ:

النَّوع الأوَّل: الْفَصْلُ الْكُلِّيُّ بَيْنَ الرُّوح والنَّفْس، وبه يكون الموت.

النوع الثاني: الْفَصْلُ الْجُزْئي بَيْنَ الرُّوح والنَّفْس، وقَدْ يكُونُ مَا أجْرَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، مِنْ هـٰذا النَّوْع.

وقد يَسْتَمِرُّ هَذَا الْفَصْلُ الجزْئِيُّ مِئَاتِ السِّنين، كَمَا حَصَل لِأَهْلِ الكَهْف، واللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ خَلْقاً وَتَصَارِيف.

وتَحْلِيلُ الآيَةِ بَعْدَ هـٰذا البيان السَّابقِ يَكُونُ على الوجْهِ التالي:

اللهُ يَتوفَّىٰ الأنْفُسَ فَيَمْنَحُها غَايَةَ الأَجَلِ الْمُقَدَّرِ لَهَا في الحياة الدُّنْيا وَافِياً غَيْر مَنْقُوصٍ، ويَتَحَقَّقُ هَـٰذا التَّوَفِّي حِينَ مَوْتِها.

أمَّا الْأَنْفُسُ الَّتِي لَمْ يَنْتَهِ أَجلُ بَقَائِهَا فِي الحياة، فَاللهُ يَتوَفَّاهَا تَوَفِّيّاً جُزْئِيّاً بِفَصْلٍ جُزْئِيٍّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّوحِ، في حَالَةِ النَّوْم الَّذِي تُسْلَبُ بِهِ الحَرَكَةُ الإرَادِيَّةُ لِذِي الْحَيَاة.

وَغَفَوَاتُ النَّوْمِ قَدْ يَنْتَهِي فيها الأَجَلُ المقَدَّرُ لِحيَاةِ الْأَنْفُسِ، فَيُمْسِكُ اللهُ عَنْهَا الإمْدَادَ بِالحيَاةِ إمْسَاكاً كاملاً، إذْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ بانْتِهَاءِ أَجَلِهَا المقَدَّرِ لَهَا في الحياةِ الدُّنيا، فيتَحَقَّقُ الْفَصْلُ الْكُلِّيُّ بَيْنَ الرُّوح والنَّفْس. والَّتِي لَمْ يَنْتَهِ أَجَلُهَا الْمُقَدَّرُ لَهَا فِي الحياةِ الدُّنيا، فَيَرْفَعُ عَنْهَا الْفَصْلَ الْجُزْئِيَّ وَيُرْسِلُهَا مِنْ قَيْدِ النَّوْم فَتَصْحُو وَتُمَارِسُ حَرَكَاتِهَا الإرَادِيَّة، وتَسْتَمِرُّ هَكَذَا في كُلِّ حَالَاتِ النَّوْم، إلَى زَمَنِ انْتِهَاءِ أَجَلِ بِقَائِهَا فِي الحياة الدُّنيا، وَهـٰذا الْأَجَلُ مَعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ مُسَمَّىٰ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضائِهِ للنفوس، فإذَا بَلَغَتْهُ تَوَفَّاها اللهُ تَوَفِّياً كُلِّيّاً، فأمَاتَها بالْفَصْلِ الْكُلِّيِّ بيْنَها وَبيْنَ أرْوَاحِهَا الَّتِي تكُونُ بِهَا ذَاتَ حَيَاة.

وَتَشْمَلُ عِبَارَةُ الْأَنْفُسِ كُلَّ المخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ أَدْنَاهَا إِلَىٰ أَعْلَاهَا.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: إِنَّ في ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيم الذي اشْتَمَلتْ علَىٰ بَيَانِهِ هٰذِهِ الآيَةِ لَآيَاتٍ جَلِيلَاتٍ، علَىٰ قُدْرَةِ الرَّبِّ ـ جلَّ جَلَالُه ـ وعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيء، وإِتْقَانِهِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ، وحِكْمَتِهِ السَّامِيةِ، وهَيْمَنَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الدَّائِم على كُلِّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيّ، مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ ومِن عَالَم الْغَيْب.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السَّابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

(٢٢)
التدبر التحليلي للدرس الثامن عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٤٣ ـ ٤٨)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

القراءات:

(٤٤) • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.

وقَرَأها بَاقِي القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلُه.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ، أي: يُرْجِعُهُم اللهُ تَعالَىٰ فَيَرْجعُونَ مُطَاوِعينَ.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ حِوارٍ إقْنَاعِيٍّ وجَدَلِيٍّ لِلْمُشْرِكين بِشَأْنِ اتِّخاذِهِمْ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الله.

وفيها بيانُ نُفُورِهِمْ واشمِئْزَازِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَحْدَه، مَعَ تَوْجِيهِ مُعَالَجَةٍ لَهُمْ بِشَأْنِ هَذِهِ الظَّاهِرَة مِنْ سُلُوكهم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ اتّخاذِ المشركين آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الله:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾. وفي القراءة الأُخْرَى: [تَرْجِعُونَ]:

[أَمْ] هذه هي «أم» المنقَطِعَة وهِيَ تُفِيدُ الإضراب الانتقالِيَّ، وفِيها مَعْنَىٰ الاسْتِفْهَام المسْتَأْنَفِ بَعْدَ كَلَامٍ تَقَدَّمَ عَلَيْها.

أي: نَنْتَقِلُ مِن الحديثِ السَّابق، ونَتَحَدَّثُ عنِ المشْرِكين الَّذِينَ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ.

سَبَقَ في سورة (يونس/ ٥١ نزول) بيان أنَّ المشركين لَجَؤُوا إلىٰ ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ لِيَكُونُوا شُفَعَاءَهُمْ عِنْدَ اللهِ، وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها رَسُولَهُ ﷺ حُجَّةً يَدْفَعُ بِهَا زَعْمَهُمُ الباطِلَ، فقال اللهُ تَعالَىٰ فيها:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقد سَبَق تَدَبُّرُ هـٰذِه الآيَةِ عِنْدَ مَوْضِعِهَا مِنْ سُورَة (يُونس/ ٥١ نُزُول) وَجَاءَتِ الْحُجَّةُ فِيها حُجَّةً ابْتِدائِيَّة كافِيَةً لِمَنْ لِدَيْهِمْ تَفْكِيرٌ مَنْطِقِيٌّ سَلِيم.

إنَّ ادِّعَاءَهُمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءُهُمْ عِنْدَ اللهِ، لَا يَصِحُّ مَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ خَبَرٌ عَنِ الله جَلَّ جَلالُهُ، بِأَنَّهُ مَنَحَهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ يَعْبُدُهم، لِكنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ بياناً عَلَىٰ رَسُولٍ صَادِق، وَلَا فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ أَنَّهُ مَنَحَ آلِهَةَ المشْرِكِينَ مِيزَةَ الشَّفَاعَةِ لِعُبّادِهِم عِنْدَه، فَقَوْلُهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ افتراء منهم على الله، وادعاء كاذب باطل.

إلَّا أَنَّ المشْرِكِينَ قَدْ أَعْجَبَتْهُمْ هـٰذِهِ الذَّرِيعَةُ الْجَدَلِيَّة، فَصَارُوا يُكَرِّرُونَهَا، فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول) تَعْلِيماً جدليّاً فِيهِ شِدَّةٌ وَقَسْوَةٌ واسْتِهَانَةٌ بِعُقُولِ المشرِكِينَ، وَأُلْحِقَ هـٰذا التَّعْلِيمُ الْجَدَلِيُّ بِتَعْلِيم إِقْنَاعِيٍّ فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْإِذْنَ بالشَّفَاعَةِ حَقُّ اللهِ، وهُو الّذِي يَقْبَلُها أَوْ يَرْفُضُها، فَهِي في الْحَقِيقَةِ مِلْكُهُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ اللهِ حَقٌّ مَا لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ ذَلِكَ بِوَعْدِهِ الْكريم، وَلَهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، وَقَدْ وَضَعَ النَّاسَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتحانِ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيما آتاهُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ بَعْدَ الْبَعْثِ للحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

فجاءَ في التعليم الْجَدَلِيّ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: قُلْ لِلَّذِينَ اتَّخذُوا آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَه: أَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ، وَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهم شَيْئاً عِنْدَ اللهِ، وَلَوْ

كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ عَقْلاً يَعْقِلُونَ بِهِ مَعْرِفَةً مَا، بالنَّظر إِلَىٰ كَوْنِهِمْ أَصْنَاماً حَجَرِيَّةً أَوْ مَعْدَنِيَّةً أَوْ طِينِيَّة تُمَثِّلُ فِي أَوْهَامِكُمْ ذَوِي أَوْ ذَواتِ قُوىً غَيْبِيَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ عَقْلٍ وَلَا خَبَرٍ عَنِ اللهِ صحيح.

وَجَاءَ في التَّعْلِيمِ الإقْنَاعِيّ قولُ اللهِ تَعالىٰ:

• ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: قُلْ لهم: للهِ وَحْدَهُ حَقُّ الشَّفَاعَةِ، هُو الَّذِي يَقْبَلُ شفاعَة الشَّافِعِينَ إنْ شَاءَ، وهُوَ الَّذِي يَرْفُضُها إِنْ شَاء، وهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ لِمَنْ يَشَاءُ بأَنْ يَشْفَعَ لِمَنْ يَشَاءُ فِيما يَشَاءُ.

فَلَهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً، إذْناً، وَقَبُولاً، واسْتِجَابَةً لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الشَّافِعِينَ، ولِمَنْ يَشَاءُ مِنَ المشْفُوعِ لَهُمْ، وفيما يَشَاءُ مِنْ شَفَاعَات.

﴿جَمِيعًا﴾ حَالٌ باعْتِبَارِ شُمُولِ الشَّفَاعَةِ لِكُلّ العناصر السَّابقة.

وَهَٰذِهِ الشَّفَاعَةُ جُزْءٌ مِنْ مُلْكِ اللهِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والْأَرْضِ.

وَبِمَا أَنَّ النَّاسَ مُطَالَبُونَ بأَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَه، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبيَّتِهِ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وبمَا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنيا حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ، وبما أَنَّ الجَزَاءَ مُؤَجَّلٌ للحياةِ الْأُخرىٰ، جاءَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الْآية:

• ﴿...ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ مُشيراً إِلَىٰ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيّ يَوْمَ الدِّين.

وَجاء الترتيبُ المتَراخِي بحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» مُطَابقاً لِوَاقِعِ حَالِ يَوْمِ الدّين الّذي سَوْفَ يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ الْبَعْثِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً صِفَةً مِنْ صِفَاتِ المشْرِكينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ وهُمْ حاضِرُونَ شَاهِدُون، بخلافِ حَالِهِمْ إِذَا ذُكِرَتْ آلِهَتُهُمْ:

• ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

اشْمَأَزَّ: أي: تَقَبَّضَ نافراً كَارِهاً ضَائِقاً.

اسْتَبْشَرَ: أي: سُرَّ وفَرِحَ.

المعنى: وَإذا ذُكِرَ اللهُ وحْدَهُ بحُضُورِ المشركين الَّذِينَ نَتَحدَّث في السُّورِة عَنْهُمْ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ مُتَقَبِّضَةً نَافِرَةً كارهةً، وكَذلِكَ كُلُّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، إذْ هُمْ لا يَطْمَعُونَ فِي ثوابِ اللهِ العظيم، ولَا يَخْشَوْنَ مِنْ عِقَابِهِ الْأَلِيم يَوْمَ الدِّين.

وَإِذَا ذكِرَتْ آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُون اللهِ، إِذَا هُمْ يُسَرُّونَ ويَفْرَحُونَ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَتعَلِّقَةٌ بِمَنَافِعِهِمْ، إِذْ هُمْ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ لَهُمْ رُبُوبيَّةً في أَحْوَالِ النَّاس.

أَمَّا ادِّعَاؤهم بأَنَّ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاؤهُمْ عِنْدَ الله، فَهُو ذَرِيعَةٌ جَدَلِيَّةٌ اتَّخَذُوها، إِذْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقِيمُوا الدَّلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُ وَتَضُرُّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إِلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه، مَا يُقَابلُ بِهِ هـٰذا الْمَوْقِفَ مِنْ مَوَاقِفِ المشْرِكِين، بِمَوْقِفٍ إيمانيٍّ إِسْلَامِيّ يَغِيظُ المشْرِكِينَ ويَزِيدُ اشمِئزَازَ قُلُوبِهم:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

فَاطر: أي: خالِق ومُوجِد عَلَىٰ نِظامِ الْفَطْرِ، وهو الشَّقُّ والْفَلْقُ. لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هِي الْعَدَمُ، واللهُ هُو الموجِدُ مِنَ الْعَدَم.

الغَيْب: هو مَا غَابَ عَنْ شُهُودِ الْخَلائِقِ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ، أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَلَا شَيْءَ هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْه.

الشَّهَادَة: كُلُّ مَا يُدْرَكُ بالحسِّ، وأصْلُ لفظ «شَهَادَة» مَصْدَرُ «شَهِدَ الشَّيْءَ شَهَادَةً»، أي: عاينَهُ ورآه بِحسِّهِ، وأُطْلِقَ عَلَىٰ كُلِّ مَشْهُودٍ يُدْرَكُ بالْحِسِّ.

● ﴿..أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ..﴾: أي: أنْتَ تَفْصِلُ أحْكَامَكَ بَيْنَ عِبادِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيما أَحْسَنُوا بِهِ أَوْ أَسَاؤُوا بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، لِتَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ مَا أَسْلَفُوا مِنْ أَعْمَالٍ بالثَّوابِ أو بالعقاب.

● ﴿..فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: فيما كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ في الحياةِ الدنيا حياة الابْتِلَاء، من حَقٍّ وَبَاطِلٍ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ للهِ وَمَعْصِيَةٍ له، وَأَفْعَالٍ حَسَنَةٍ وَأَفْعَالٍ سَيِّئَة.

وَبَعْدَ أَنْ يَفْصِلَ اللهُ حُكْمَهُ فِيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ، ضِمْنَ قَاعِدَتَي الْفَضْلِ لِلْمُحْسِنِينَ، وَالْعَدْلِ لِلْمُسِيئين.

المعْنَى: دَعْهُمْ تَشْمَئِزّ قُلُوبُهُمْ كَمَا يَحْلُو لَهُمْ، وَتَوَجَّهْ لِرَبّكَ دَاعِياً قائلاً: اللَّهُمْ يا خَالِقَ السَّمَاواتِ والأَرْضِ على نِظَامِ الْفَطْرِ مِنْ نُقْطَةِ الْعَدَمِ، وَيا عَالِمَ كُلِّ غَيْبٍ عَنْ خَلَائِقِكَ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ، وَيَا عَالِمُ كُلِّ مَشْهُودٍ لِخَلَائِقِكَ كِلِّهُمْ أَوْ بَعْضِهُمْ، أَنْتَ وَحْدَكَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يُشَارِكُكَ فِي حُكْمِكَ أَحَدٌ، فَتَفْصِلُ فِي أحْكَامِكَ بَيْنَهُمْ فيما كَانُوا فِي حَيَاة الامْتِحانِ يَخْتَلِفُونَ فِيه، مِنْ مَكْسُوبَاتِهِم الإرادِيَّة مِمَّا يُرْضِيكَ ومِمَّا لَا يُرْضِيكَ، وَبَعْدَ فَصْلِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ تُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ ثواباً أَوْ عِقَاباً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خِتَامِ هٰذَا الدَّرْسِ مُبَيِّناً حَالَ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ يَوْمَ الدِّينِ:

● ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا

لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

• ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ..﴾: أي: ولو أنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ الْمُشْرِكينَ المقْصُودِينَ بِالْعِلَاجِ فِي السُّورَةِ، وسَائِرِ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، الَّذين يَحْكُمُ اللهُ بِعَذابِهِمْ خالِدِينَ فِي جهَنَّمَ، مِلْكَ:

• ﴿..مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ..﴾: أي: كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْوَالٍ وكُنُوزٍ وقُوىً وَكُلَّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ.

• ﴿.. لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ..﴾:

• ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾: أي: لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ وأَكْثَرَ لَقَدَّمُوهُ فِداءً، لِيُنْقِذُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَاب، لَكِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شيئاً يَفْتَدُونَ بِهِ، وَلَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ فِداء.

• ﴿..مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ..﴾ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ وَشَاقِّهِ، أَصْلُ العبارَة: من الْعَذاب السُّوء.

• ﴿..وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحَكَمِ الْعَدَلِ المحيط بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، مَا لَمْ يَكُونُوا يَظُنُّونَ، وَلَوْ ظَنّاً تَوَهُّمِيّاً ضعِيفاً، إِذْ لَمْ يَكُونوا يُؤْمِنُونَ بِيَوْم الدِّين، تَصْدِيقاً لِلْمُرْسَلِين، ولِمَا جاءَ في كِتاب رَبِّ الْعَالَمِينَ.

• ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

• ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: أَحَاطَ بِهِمْ ونَزَلَ بِهِمْ وَلَزِمَهُمْ.

يقال لغة: «حَاق بفلانٍ الْأَمْرُ، يَحِيقُ، حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً» أي: لَزِمَهُ، وَوَجَبَ عَلَيْه، ونَزَل به، وأَحَاط به.

• ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: عَذَابُ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَة، الَّذِي كَانُوا بِهِ في الْحَياةِ يُكَذِّبُون، وَكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ومِنَ الْمُخْبِرِ بِهِ يَسْخَرُونَ.

أي: وَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ، بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ جَزَاءُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، فَيَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْبُؤْسِ والْحُزْنِ والنَّدَمِ والذُّعْرِ مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيهِ ومِن الْهَمِّ الشَّدِيدِ، مَا لَوْ أُلْقِي عَلَىٰ جَبَلٍ ذِي إِحْسَاسٍ لتَفَتَّتَ وانْهَار.

وَمَا لَبِثُوا أَنْ أَحَاط بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا في الدُّنْيَا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، إِذْ يُكَبُّونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ فَيَهْوُونَ بَيْنَ وِدْيَانِهَا وَدُخَانِهَا، وَصُنُوفِ الْعَذَابِ الَّتِي فيها.

وبهـٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثامن عشر من دُرُوس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفيقه وفَتْحِه.

(٢٣)
التدبّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الزّمر) الآيات من (٤٩ ـ ٥٢)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ مُتَابَعَةُ بيانٍ بِشَأْنِ ذوي الجحود ـ وهم أَكْثَرُ النّاسِ ـ الَّذِي جاءَ في «الدَّرْس الرابع» من السّورة وصْفُ حالِ الواحِدِ

مِنْهُم بأنَّهُ يَلْجَأُ إلىٰ اللهِ دَاعِياً إذَا نَزَلَ بِهِ الضُّرُّ، ثُمَّ يَكْفُر بِرَبِّهِ، فَيُشْرِكُ به، أَوْ يَدَّعِي أَنَّ ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ، قَدْ كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ مَهَارَتِهِ وعِلْمِهِ، لَا مِنْ عَطَاءاتِ رَبِّهِ لَهُ لِيَبْلُوَهُ فِيمَا آتاه.

وهـٰذا مِنْ شِدَّةِ كُفْرِهِ نِعْمَةَ رَبِّهِ المنْعِمِ دَواماً بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ إِحْصَاءَهُ مِنَ النِّعَم.

وسَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ هـٰذَا الْوَصْفِ مِنْ سُلُوكِ أَكْثَرِ الناسِ فيما يلي:

(١) في الآيتين (٦٧ و٦٨) مِنْ سُورَة (الإسْراء/ ٥٠ نزول).

(٢) وفي الآيات من (٢١ ـ ٢٣) من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

(٣) وفي الآية (٣٢) من سورة (لقمان/ ٥٧ نزول).

(٤) وفي الآية (٨) من سورة (الزّمر/ ٥٩ نزول) الجاري تدبُّرُها.

مع تكامُلٍ فِكْرِيٍّ وَبَيَانِيٍّ في هـٰذِهِ النُّصُوصِ يَكْشِفُهُ المتدبِّرُ بأناةٍ.

التدبّر التحليلي:

■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ حَالِ الإنْسَانِ الَّذِي يَظْهَرُ في مُعْظَمِ أَفْرَادِه، مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم الْعَظِيم:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

• ﴿خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾: أي: أَعْطَيْنَاهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّفَضُّلِ نِعْمَةً صَادِرَة مِنْ أَمْرِنَا، وَجَارِيَةً ضِمْنَ أَنْظِمَتِنَا السَّبَبِيَّةِ فِي كَوْنِنَا.

أي: فَلْنَتْرُكِ الحديثَ عَنِ المشركينَ، لِبَيَانِ حَالِ أَكْثَرِ النَّاسِ تُجَاهَ

تَعَامُلِهِمْ مَعَ سُلْطَانِ رُبُوبِيّتِنَا عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ كُلِّ شيءٍ فِي كَوْنِنَا، إنَّهُ كما يلي:

إِذَا مَسَّ الإنْسَانَ أَلَمُ ضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، ولم يَجِدْ وَسِيلَةً سَبَبِيَّةً لِكَشْفِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ ضُرّ، دَعَانا، إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضّرَّ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَجْلُبُ الْخَيْرَ إِلَّا اللهُ، وَقَدْ نَكْشِفُ عَنْهُ الضُّرَّ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِنَا، وَلِنُثْبِتَ لَهُ سُلْطَانَ رُبُوبِيّتِنا، وأَنَّنَا نَفْعَلُ مَا نَشَاءُ بأَمْرِ التكْوين.

وَنَتْرُكُهُ مُدَّةً مُسْتَغْرِقاً فِي مَتَاعَاتِهِ من الْحَياةِ الدُّنْيا، ونُمِدُّه عَنْ طَرِيقِ الأَسْبَابِ بِمَا يُمْتِعُهُ مِنْ مَتَاعَاتٍ تَسُرُّهُ.

ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا تَفضُّلاً عَلَيْهِ ضِمْنَ أَنْظِمَتِنَا السَّبَبِيَّة، جَحَدَ نِعْمَتَنا عَلَيْه، وَقَالَ مُتَفَاخِراً بِمَهارَتِهِ وَعِلْمِهِ باتِّخَاذِ الأَسْبَاب:

مَا أُوتِيتُ هٰذا الَّذِي أَمْلِكُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ مَجْدٍ إِلَّا بِمَهارَتِي، وبِكَسْبِي الْقَائِم عَلَىٰ عِلْم بفُنُونِ الكَسْب، وَمَداخِلِ الحياةِ ومَخَارِجها، وَطَرَائِقِ الْحِيلَةِ بَيْنَ النَّاسِ لِتَحْقِيقِ مَا أَصْبُو إِلَيْهِ.

فجاء الرَّدُّ الرَّبَّانِي بِقَولِ اللهِ تَعَالىٰ:

• ﴿.. بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ..﴾: أي: لَمْ تَصِلْ إلَيْكَ النِّعْمَةُ بِمَهارَتِكَ وَعِلْمِكِ وَحِيلَتِكَ وَفَرْطِ اجْتِهَادِك، بَلْ نَحْنُ مَنَحْنَاكَ إِيَّاهَا لِنَبْلُوَكَ فِيمَا آتَيْنَاكَ، هَلْ تَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ، أَمْ تَكُونُ مِنَ الكَفُورِينَ الْجَحُودِين.

فِتْنَةٌ: أي: امْتِحَانٌ وابْتِلَاء.

• ﴿.. وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوْا أَنَّ مَا يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ في الحياة الدُّنْيا مِنْ نِعَم، هُوَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ أَلْهَمَهُمُ اتِّخاذَ الأَسْباب الكَوْنِيَّة، وَيَسَّرَهَا لَهُمْ، لِيَصِلُوا إلىٰ مَا يُحِبُّونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ، ولِيَبْلُوهُمْ بِهَا، هَلْ يَكُونون مِنَ الشَّاكِرِينَ، أَمْ يَكُونُونَ مِنَ الكَفُورِين الكَنُودِينِ الجحودين؟.

إِنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا هـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ، حَتَّىٰ لَا تُقَيِّدَ أَوَامِرُ اللهِ وَنَوَاهِيه حَرَكَتَهُمْ فِي الحياة، فَتَحْرِمَهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ الْجَانِحَاتِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكُلُّ واحِدٍ مِنَ الكَفُورينَ يَقُول: إِنَّ مَا أُوتِيتُ مَا لَدَيَّ عَلَىٰ عِلْمٍ، جَاحداً فضل الله عليه.

• ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. ﴿٥٠﴾﴾:

أي: قَد قَالَ هـٰذِهِ المقالَةَ الدّالَّةَ علىٰ الجحود والكُنُودِ والاسْتِكْبَارِ، الكَفُورُونَ الَّذِينَ مَرُّوا رِحْلَةَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنْيا مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمِنْهُمْ «قَارُونُ» الَّذِي سَبَقَ بَيَانُ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّتِهِ في الآيات من (٧٦ ـ ٨٢) مِنْ سُورَة (القَصَص/٤٩ نزول)، فَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها أَنَّهُ قَالَ بِشَأْنِ مَا أَتَاهُ اللهُ مِنَ الكُنُوزِ الكَثِيرة:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: عِنْدَ إهلاكهم في الدنيا.

وَكَانَتْ عُقُوبَةُ قَارُونَ في الدُّنْيَا، أَنْ خَسَفَ اللهُ بِهِ وبِدَارِه الأَرْضَ، لِيَكُونَ عِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَاب.

• ﴿.. فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: فَمَا كَفَاهُمْ فَصَرَف عَنْهُمْ عِقَابَ اللهِ، مَا جَمَعُوهُ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ أُوتُوهُ بِاجْتِهَادِهِمْ الْقَائِم عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْ إيتاءِ اللهِ لَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

وَقَضَىٰ اللهُ بأَنْ يُعَاقِبَهُمْ كَمَا فَعَل بِقَارُونَ، فَاتَّخَذُوا وسَائِلَ لَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ شيئاً من نوازل العذاب.

• ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟... ﴿٥١﴾﴾:

أي: فَأَصَابَهُمْ مِنَ اللهِ عِقَابٌ بَالِغٌ غَايَةَ الْعُمْقِ مِنْ ذَوَاتِهِمْ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ الْمَسِّ، وَهُوَ عِقَابُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا في الحياة الدُّنيا مِنْ مَسَاخِطِ اللهِ.

- ﴿..وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: والَّذِين ظَلَمُوا مِنْ هؤُلَاءِ الْكَفُورِينَ الْمُجْرِمِينَ المعَالَجِينَ فِي السُّورَةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والْعِنَادِ في مَكَّةَ، الَّذِينَ يَكِيدُونَ الرَّسُولَ ﷺ والمؤمِنِينَ، سَيُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا مِثْلُ مَا أَصَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَيَنْزِلُ بِهِمْ عِقَابُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا، وَمَا هُمْ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الْهَرَبِ والإِفْلَاتِ مِنْ عِقَابِ اللهِ الَّذِي سَيُصِيبُهُمْ.

- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أكانُوا صُمّاً عَمَّا سَبَقَ بيانُهُ فيما أنْزَلَ اللهُ، وَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قَبْلَ سُورَةِ (الزُّمر) وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزْقَ وَيُكَثِّرُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه، وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَبْلُوَ كُلًّا فيما آتاهُ.

- ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: أي: يُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُه.

- ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ وَيُقَلِّل. يُقَالُ لُغَةً: «قَدَرَ اللهُ عَلَىٰ فُلَانٍ الرِّزْقَ وَقَدَّرَهُ عَلَيْه» أي: ضَيَّقَهُ وَقَلَّلَهُ عَنْ حَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ مَنْ هو مُكَلَّفٌ أَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهِمْ.

- ﴿..إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: إنَّ فِي بَسْطِ الرّزْقِ عَلَىٰ بَعْضِ عِبَادِ اللهِ، وَفِي تَضْيِيقِهِ عَلَىٰ آخَرِينَ لَعَلَامَاتٍ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ هُوَ الْبَاسِطُ وهُوَ المضَيّقُ، فَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ

الْحِيلَةِ وَالذَّكَاءِ قَدْ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ، وَكَمْ مِنْ وَاسِعِ الْحِيلَةِ والذَّكاء وَالمجاهَدَةِ والْكَدْحِ في الكَسْب قَدْ ضَيَّقَ اللهُ رِزْقَهُ.

وَلَكِنَّ هٰذِهِ الآيَاتِ يُدْرِكُهَا وَيَتَأَثَّرُ بِهَا الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدادُ النَّفْسِيُّ وَالْقَلْبِيُّ لأَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ وَبِحِكْمَتِهِ، وَلأَنْ يَعْمَلُوا بِمُقْتَضَىٰ إِيمَانِهِمْ، فِي امْتِحَانِ اللهِ لَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحياةِ الدُّنْيا.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

(٢٤)
التدبر التحليلي للدّرسِ العشرين من دروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٥٣ ـ ٦٣)

قَال اللهُ عزّ وجل:

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

القراءات:

(٥٣) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، وَعَاصم، وأبو جعفر: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ**﴾ بفتح ياء المتكلّم.

وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

(٥٣) • قرأ أبو عمرو، والكِسَائي، ويَعْقُوب، وخلف: [**لَا تَقْنِطُوا**] بِكَسْرِ النون.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**لَا تَقْنَطُوا**﴾ بفتح النون.

وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتان.

(٥٦) • قرأ ابْن جمَّاز، وابن وَرْدان بخُلْفٍ عنه: [**يَا حَسْرَتَايَ عَلَىٰ**].

وقرأها ابن وردان [**يا حَسْرَتَايْ على**] مع المدّ المشبّع.

وقرأها رُوَيْسٌ: [**يَا حَسْرَتَاهْ**] وَقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ**﴾.

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّة.

(٦١) • قرأ رَوْحٌ: [**وَيُنْجِي اللهُ**] مِنْ فعل «أنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَيُنَجِّي اللهُ**﴾ مِنْ فعل «نَجَّىٰ».

القراءتان متكافئتان، لأنَّ الفعل المهمُوز أخو الفعل المضعَّف.

(٦١) • قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: [**بِمَفَازَاتِهِمْ**] بالجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**بِمَفَازَتِهِمْ**﴾ بالإفراد.

ومُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد، لأَنَّ النكِرَة المضافة إلىٰ المعرفة تَعُمّ.

(٦٢) • قرأ قَالُون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكان الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.

والقراءتان لغتان عَرَبيَّتَانِ.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ تَعْلِيم دَعَوِيٍّ من اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وفي هـٰذا البيانِ الدَّعَوِيِّ إطْمَاعٌ بِرَحْمَةِ الله ـ جلّ جَلاَلُهُ وَعَظُم سُلْطَانه ـ وَبأَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً، مع بيانات واعِظَات.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ من أمَّتِه، مُعَلِّماً بياناً دَعَوِيّاً:

• ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾:

• ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . .﴾:

أي: قُلْ أيُّها الدَّاعي إلىٰ الله لِلْمُذْنِبينَ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا بَعْدُ، وتَأْنَسُ فِيهِمْ لِيناً، وَقَابِلِيَّةً ما لأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحق: اللهُ يُنَادِيكُمْ فَيقُولُ لَكُمْ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا مُتَجَاوِزِينَ الحدَّ الْمُحْتَمَلَ مِنَ المعَاصِي والآثَام، جَانِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، إِذْ جَعَلُوهَا مُسْتَحِقَّةً لِلْعَذَابِ الأَلِيمِ، مِنَ الرَّبِّ الْعَلِيمِ الحكيم.

الإسْرَافُ: الْغُلُوُّ فِي تَجَاوُزِ الْحُدُودِ المحْتَمَلَةِ مِنْ أخْطَاءِ وَخَطَايَا النَّاسِ في تَصَرُّفَاتِهِم الإرَادِيّة.

• ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أي: أَسْرَفُوا جَانِينَ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ بأنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا بجرائمِهِمْ عِقَابَ اللهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ، فالفعل مُضَمَّنٌ مَعْنَىٰ فِعْل: «جَنَىٰ».

• ﴿...لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ..﴾:

أي: لَا تَيْأسُوا مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ إذَا تَعَرَّضْتُمْ لَهَا بإراداتِكُمْ واسْتَغَثْتُمْ بها، فاسْتَغْفِرُوه يَغْفِرْ لكم، وتُوبوا إلَيْهِ بالإيمان والإسلام يَتُبْ عليكم.

يُقَال لغة: «قَنَط، يَقْنُط، وَيَقْنِط، وَقَنِط، يَقْنَطُ، قُنُوطاً» أي: يَئِسَ يَأساً شَدِيداً.

• ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ...﴾:

أي: إنَّ اللهَ يَسْتُرُ جَمِيعَ ذُنُوبِ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَيَتُوبُونَ إلَيْهِ مَا دَامُوا فِي حَيَاةِ الامْتِحَان.

يَغْفِرُ: أي: يَسْتُرُ، ومِنْ لوازم سَترِ الذُّنُوبِ التَّجَاوُزُ عَنِ المؤاخَذَةِ عليها. يُقَالُ لغة: «غَفَرَ الشّيءَ يَغْفِرُه» أي: سَتَرَه.

جَميعاً: حَالٌ، أي: حَالَةَ كَوْنِ الذُّنُوبِ جَمِيعاً، فَهِيَ تُغْفَرُ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، لِمَنْ آمَنَ وأسْلَمَ وَتَابَ إلَىٰ رَبِّه.

﴿..إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾: أي: إِنَّـهُ هُـو وَحْـدَهُ الـمـتَّـصِـفُ بِكَمَالِ هذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الْجَلِيلَيْن.

في هـٰذِهِ العبارة قَصْرٌ بِتَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَادِ، وبالتَّأْكيد بِضَمِيرِ الْفَصْل.

الْغَفُور: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل «الغافر» أي: كَثِيرُ المغْفِرَةِ وَعَظِيمُها.

الرَّحِيم: أي: كثِيرُ الرَّحْمَةِ وَعَظِيمُها وَوَاسِعُها.

■ قَولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ الدَّعَوِيّ:

• ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

الإنَابَةُ إلىٰ الشيء: الرُّجُوعُ إلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً، يقال لغة: «أَنَابَ فُلَانٌ إلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رجعَ إلَيْه مَرَّة بَعْدَ مَرَّةً، وَوُصِفَ إيمَانُ الْكافِرِ وإسْلَامُهُ بأَنَّهُ إنَابَةٌ إلَىٰ اللهِ؛ لأَنَّ كُفْرَهُ قَدْ كَانَ خُرُوجاً وابْتِعَاداً عَنْ أَصْلِ فِطْرَتِهِ الإيمانِيّة، فإيمانُهُ وإسْلَامُهُ رُجُوعٌ إلىٰ أَصْلِ فِطْرَتِهِ.

المعنىٰ: وارْجِعُوا إلىٰ رَبِّكُمْ الَّذِي فَطرَكُم عَلَىٰ الإيمان، فَآمَنُوا بِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ المهَيْمنَةِ بِصِفَاتِها عَلَىٰ كُلِّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الكَوْنِ، لَا يُشَارِكُهُ فيها مُشارِكٌ ما، وَأَسْلِمُوا لَهُ مُسْتَسْلِمِينَ عَابِدينَ، مُذْعِنينَ بأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُو، وَتَدَارَكُوا أنفُسَكُمْ مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِيكُمْ عَذَاب رَبِّكُمْ، جَزَاءَ عِنَادِكُمْ وإصْرَارِكُمْ علَىٰ الشِّرْكِ الباطِل الَّذِي لَا حُجَّةَ لَكُمْ فِيهِ، وَهـٰذا يَكُونُ لَكُمْ فِي الدُّنيا، ويَكُونُ فِيهِ إهْلَاكُكُم.

ثُمَّ يَأْتِيكُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَذَابٌ أَبَدِيٌّ في دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِين، وَيَوْمَئِذٍ لَا تَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُكُمْ، فَيَمْنَعُ عَنْكُمْ الْخُلُودَ في الْعَذَاب، وَتَجِدُونَ أَنَّ مَنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُكُم عِنْدَ رَبِّكُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ وَلَا لأَنْفُسِهِمْ شَيْئاً، وتَجِدُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَشَبَّثُونَ بأَوْهَامٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَخُرَافَاتٍ صَنَعَهَا الكَذَّابُون من شياطين الإنس والجنّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ الدَّعَوِيِّ:

• ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

بما أنَّ هـٰذِهِ الآية تضمّنَتْ مُتابَعَةَ تَعْلِيم دَعوِيٍّ، يَدْعُو بِهِ الدَّاعِي إلىٰ اللهِ مَنْ وَجدَ لَدَيْهِمْ لِيناً، وقَابِلِيَّةً لِلاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَدْعُوَهُمْ بَعْدَ إيمانِهِمْ وَإعْلَانِهِمْ إسْلَامَهُمْ، إلَىٰ الْعَمَلِ بما سبَقَ أَنْ أَنْزَلَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قَبْلَ سُورَةِ (الزّمر) مِنْ فَرَائِضَ فَرَضَ اللهُ علَىٰ عِبَادِه أَدَاءَها، وَإلىٰ تَرْكِ ما حَرَّمَ اللهُ علَىٰ مَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ فِعْلَهُ.

فالأَحْسَنُ مِنَ الأَفْعَالِ قَدْ جَعَلَهُ اللهُ فَرْضاً واجِبَ الأَدَاء، ويأتي دُونَ الْفَرَائِضِ الّتِي يَجِبُ فِعْلُهَا مَطْلُوبَاتٌ حَسَنَةٌ كَثِيرَةٌ لَمْ يُوجِبِ اللهُ فِعْلَها فِيمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، قَبْلَ سُورَةِ (الزُّمَر) فاللهُ يَدْعُو إلىٰ فِعْلِهَا تَطَوُّعاً لا إلْزَاماً.

وَفي مُقَابِلِ الأَفْعَالِ تَأْتِي الأَشْيَاءُ الَّتِي يُطْلَبُ مِنْ عِبَادِ اللهِ تَرْكُهَا وَعَدَمُ فِعْلِها، وَتَرْكُ الأَشْيَاءِ الَّتِي يُطْلَبُ تَرْكُهَا قِسْمَانِ أَيْضاً، فَمَا كَانَ تَرْكُهُ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ غَيْرِهِ هُوَ الأَحْسَن جَعَلَهُ اللهُ حَرَاماً، وجَعَلَ فِعْلَهُ مِنَ الكَبَائر، وَمَا كانَ تَرْكُهُ حَسَناً لَمْ يَصِلْ إلىٰ دَرَجَةِ الأَحْسَن، فاللهُ يَدْعُو إلىٰ تَرْكِهَا تَطَوُّعاً لا إلْزَاماً.

وَهـٰذا الْمَنْهَجُ هُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ إلَىٰ الالْتِزَامِ بأَحْكَامِ الدِّينِ وَتَكالِيفِهِ مِنَ الأَفْعَالِ والتُّرُوكِ.

هـٰذا مَا ظَهَرَ لي في فهم عبارَةِ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: واتَّبِعُوا بَعْدَ أَنْ تُؤْمِنُوا وتُعْلِنُوا إسْلَامَكُمْ، مَا شَرَعَهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَحْكَام، فَافْعَلُوا مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَفْعَلُوه، وَاتْرُكُوا مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَفْعَلُوهُ، فَهـٰذَا أَحْسَنُ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ تَكالِيفَ، بأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، وَتُوجَدُ أَعْمَالٌ وَتُرُوكٌ يَحْسُنُ فِعْلُهَا أَوْ يَحْسُنُ تَرْكُها، إذا اتَّبَعْتُموها تَطَوُّعاً أَثَابَكُمْ رَبُّكُمْ، وَإذَا لَمْ تَتَّبِعُوها لَمْ يُؤاخِذْكُمْ عَلَىٰ عَدَمِ اتِّبَاعِهَا، ولَكِنْ تُحْرَمُونَ ثَوَابَ اتِّبَاعِها.

هـٰذا الْفَهْمُ يَتَلاءَمُ مَعَهُ قَوْلُ الله تَعالَىٰ في تَتِمَّة الآية:

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾.

هـٰذِهِ التَّتِمَةُ تُفِيدُ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ولَمْ يُسْلِمُوا بَعْدُ، والدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِمُ الالْتِزامَ بأحْكَامِ الدِّينِ، فَيُطَالِبُهُمْ بأَنْ يَتَّبِعُوا أحْسَنَ ما أُنْزِل إليهم.

بَغْتَةً: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إشْعَارٍ سَابق.

تَلَطُّفٌ وَحِكْمَةٌ عَالِيَةٌ في الدَّعْوَةِ إلَىٰ الله، جاءَ عَقِبَهُ تَرْهِيبٌ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ مُبَاغِتٌ مُهْلِكٌ مِنْ رَبِّهِمْ، فَقَدْ طَالَ أَمَدُ عِنادِهِمْ وإصْرَارِهِمْ عَلَىٰ شِرْكِهِم الْبَاطل، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ (٥٨) سورة قَبْلَ (سورة الزُّمر) وفيها أفانينُ عِلاجِيَّةٌ لَهُمْ، دُونَ أَنْ يَتَزَحْزَحُوا عَنْ مَوْقِفِهِم الْعِنَادِيِّ الشِّرْكي الَّذِي لَا حُجَّةَ لهم فيه.

■ قول الله تَعالَىٰ مُتابعاً التعليم الدَّعَوِيّ:

• ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾:

أي: أَنْزَلْنا الْبَيَانَ الدَّعَوِيَّ السَّابِقَ، وأَنْزَلْنا الكِتَابَ، وبَعَثْنَا الرَّسُول مُبَلِّغاً، وكلّفْنَا الدُّعاة أنْ يبلِّغُوا رسالة الرَّسُول للأسباب التالية:

السَّبَبُ الأوّل: أَنْ تقُولَ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَفْسٌ كَفَرَتْ وَكَذَّبَتْ بِمَا بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبِّهَا، مُعْتَرِفَةً بِجَرِيمَتِهَا، مُتَحَسِّرَةً عَلَىٰ مَا فَاتَها، نَادِمَةً عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانها:

﴿... يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾:

الحسْرَة: شِدَّةُ التَّلَهُّفِ والحزْنِ مع النَّدَمِ علىٰ ما فات.

وَأرىٰ: أنَّ نِدَاءَ الْحَسْرَةِ هُو مِنْ قَبِيلِ إعْلَانِ التَّوَجُّعِ والتَّفَجُّعِ والحزْنِ والنَّدَمِ وَتَوْبِيخِ النفس عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْها مِنْ جُرْمٍ أوْصَلَها إِلَىٰ الْخُلُودِ في عَذَابِ النار يَوْم الدِّين.

والنادِمُونَ المتحسِرُونَ، يَسْتعْمِلُونَ بتلْقَائِيَّةٍ أداة النداء، فِي أوّلِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ تَحَسُّرِهِمْ وحُزْنِهِمْ وَنَدَمِهم.

ولَا حَاجَةَ مَعَ هـٰذا لتخريجات مُتَكَلَّفَةٍ جَاءَتْ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ التفسير.

أصْلُ: «يا حَسْرتا» يَا حَسْرَتي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التاء فَتْحَةً، وقُلِبَتِ الياء ألِفاً، وهـٰذِهِ إحْدَىٰ لُغَاتٍ ستٍّ ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ النَّحْوِ في مِثْلِ هـٰذا التعبير.

التَّفْرِيطُ في الشّيء: التَّقْصِيرُ والتَّضْيِيعُ فِيهُ حَتَّىٰ فَاتَ دُونَ إمْكَانِ تَدَارُكٍ له.

﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: الْجَنْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَاحِيَتُه. والمرادُ بالتَّفْرِيطِ في جَنْبِ اللهِ التقْصِيرُ والتَّضْيِيعُ في نَاحِيَةِ اللهِ وحَقِّهِ عَلَيَّ.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾: أي: وقد كُنْتُ مِنْ أصْحَاب السُّخْرِيَة الشديدة بِنَبَأ الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين، ومَا فيه مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَحْقِيقِ جزاء.

«إنْ» هي المخففة من الثقيلَةِ «إنَّ» واللّامُ في ﴿لَمِنَ﴾ هي الفارقة بَيْنَ المخففَةِ من الثقيلة و«إنْ» النافية.

السبب الثاني: مَنْع أَوْ دَفْعَ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ القِيامَةِ نَفْسٌ كَفَرَتْ وكَذَّبَتْ بِمَا بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبِّها:

﴿..لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: لَوْ لَمْ نَبْعَثِ الرَّسُولَ، وَلَمْ نُنْزِلِ الكِتَابَ، ولم نُكلّفِ الدُّعَاة أَنْ

يُبَلِّغُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول، لَوَجَدَ الْكَافِرُ لِنَفْسِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ حُجَّةً يَعْتَذِرُ بِها قائِلاً: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي إلىٰ الْحَقِّ وإلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيم، بإرْسَالِ رَسُولٍ، أَوْ إِنْزَال كِتَاب، أو تَكْلِيفِ دُعاةٍ يُبَلِّغُونَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَنْ رَبِّهِ، لَكُنْتُ اسْتَجَبْتُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَلَكُنْتُ مِنَ المتَّقِين.

فَمَنَعَ وَدَفَعَ اللهُ اعْتِذَارَ الْكَافِرِ بِهٰذا الْعُذْر بإرسَالِ الرَّسُولِ، وَبَيَانَاتِ الكتابِ، وتكليفِ الدُّعَاةِ من أُمَّةِ الرَّسُولِ محمد ﷺ أَنْ يُبلِّغُوا مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

السَّبَبُ الثالث: رَدٌّ وَصَدٌّ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ القيامَةِ نَفْسٌ كَفَرتْ وَكَذَّبَتْ بِمَا بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبّها، حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ وَهِيَ عَلَىٰ أبواب جَهَنَّمَ أَوْ حِينَ تَذُوقُهُ:

﴿...لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

«**الْكَرُّ**» وواحِدُهُ «**الْكَرَّةُ**» الرُّجُوعُ إلىٰ الوراء لاسْتِئنَافِ الإقْبَالِ إلَىٰ الأَمَام.

«لَوْ» هُنَا للتّمنّي.

أي: أَتمَنَّىٰ أَنْ يَجْعَلَ لِي رَبِّي رَجْعَةً إلَىٰ حَياةِ الابْتِلاء، فَأَكُونَ فِيهَا مِنَ الْمُحْسِنينَ، أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، أَعْلَىٰ مَرَاتِب المؤمِنِينَ، ظَانّاً أَنَّ اللهَ، إنْ رَدَّهُ إلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاء، فَسَتَبْقَىٰ في ذَاكِرَتِهِ مَشَاهِدُ يَوْمِ الجزاء الأكبر، لكِنَّ هـٰذا الظَّنَّ بَاطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ لَوْ رَدَّهُ إلىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاء، وَلَنْ يرُدَّهُ، فَسَيَمْسَحُ مِنْ ذَاكِرَتِهِ كُلَّ شَيْءٍ انْطَبَعَ فيها مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامة، وَحِينئذٍ يَكُونُ مِثْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَيُبْعَثَ، ولَنْ يَكُونَ حَالُهُ إلَّا مِثْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا أوّلاً، كَفُوراً جَحُوداً مُكَذِّباً، كَمَا قَال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذا النَّصّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (الأنعام).

السَّبَبُ الرابع: زَجْرُ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَفْسٌ كَفَرَتْ في الحياةِ الدُّنْيا، بادِّعَاءٍ كاذِبٍ وَقِحٍ: يَا رَبّ لَمْ تَأتِني آيَاتٌ مِنْ عِنْدِك، وَلَوْ جاءَتْني لآمَنْتُ بها، وكُنْتُ مِنَ المتَّقِين.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا السَّبَبِ المطْوِيّ في النَّصِّ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ رَدّاً عَلَيْه:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

دلَّ هـٰذا البيان علىٰ أَنَّهُ رَدٌّ لِدَعْوَىٰ كَاذِبَةٍ يَدَّعِيها فَرِيقٌ مِنَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ القيامَةِ، يَدَّعِي فِيها أَنَّهُ لَمْ تَأْتِهِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، تُبَيِّنُ لَهُ مَطْلُوبَاتِهِ في رِحْلَة ابْتِلَائه.

فيأتي الرَّدُّ بِقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ مُكَذِّباً لَهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ وَتبلَّغْتَها، ودَمَغَتْكَ الْحُجَّةُ الْبُرْهَانِيَّة، وهؤلاء الشُّهُودُ الكثيرونَ مِنَ الناسِ والملائكة، مَعَ سِجلَّاتِ الصُّحُفِ، ومَعَ شَهَادَة جَوارِحِكَ عليكَ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْهَدُ عَلَيْكَ بأَنَّكَ تبلَّغتَ آياتي فَكَذَّبْتَ رَسُولَنَا بِها، وزَعَمْتَ أَنَّهُ قَدِ افْتَرَاهَا عَلَيْنا، واسْتَكْبَرْتَ فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوةِ الحقِّ، إذْ تَوَهَّمْتَ أَنَّكَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ تابِعاً لِمَنْ اصْطَفَاهُ رَبُّكَ رَسُولاً، وكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ كُفْراً عِنادِيّاً اسْتِكْبارِيّاً، مَعَ وُضُوحِ الْحَقِّ لَكَ بِأَدِلَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً حَالَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ، ومُبَيِّناً مَصِيرَهُمْ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي هِي مَثْوَاهُمْ وَمَثْوىٰ المتكبِّرِينَ الَّذِين دَفَعَهُمْ كِبْرُهُمْ إلىٰ أَنَّ يَكُونُوا كَفُورِينَ مُجْرِمين:

• ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

أي: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي يَخْرُجُ الموتَىٰ بها مِنَ الأجْدَاثِ، لِيُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّهِمْ، وَفَصْلَ قضائِه، وَتَنْفِيذَ جزائه، تَرَىٰ أَيُّها الرّائي أيًّا كُنْتَ، الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ بافْتِرَاءِ دِينٍ وأحْكَامٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ، وادِّعَاءِ شُرَكَاء لَهُ يَعْبُدُونهم مِنْ دُون الله لتَحْقِيقِ مَصَالِحَ تُرضِي نَوازِع الكِبْرِ في نُفُوسِهِمْ، تَرَىٰ وُجُوهَهُمْ مُسْوَدَّةً تَحْقِيراً لَهُمْ وَعَلَامَةً فَارِقَةً تُمَيِّزُهُمْ عَنْ أَهْلِ الإيمانِ والطَّاعَةِ، إذْ يَجْعَلُهَا اللهُ بَيْضَاءَ مُتلأْلِئَةً، وَلَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيا مِنْ ذَوِي الأَلْوانِ السَّوْدَاء.

﴿..أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾؟.

المرادُ بالاستفهام هُنَا إثباتُ أنَّ في جَهَنَّم مَكَانَ إقَامَةٍ واسْتِقرارٍ لِلْمُتَكَبِّرِينَ، الَّذِينَ جَعَلَهُمْ كِبْرُهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ.

وَقَدْ سَبَقَ في هـٰذِهِ السُّورَةِ تَدَبُّرُ نَظِيرِ هـٰذِهِ الْعِبَارَة فِي الآيَةِ (٣٢) فَلْيُرْجَعْ إلَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً حَالَ المتّقِينَ في مُقَابِلِ بَيَانِ حَال الكافِرِينَ المتكَبِّرين:

• ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَيُنَجِّى﴾: أي: ويُخَلِّصُ مِنْ مَكْرُوه مُتَوقَّع الحدوث، يُقَال لغة: «نَجَّىٰ اللهُ فُلَاناً تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوه مُتوقع الحدوث، فَاسْتِعْمَالُ هـٰذا الفعل يُشْعِرُ بِعَفْو اللهِ وَغُفْرَانِهِ عَنْ كثير مِنْ ذُنوب الَّذِينَ اتَّقَوا.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: **المفَازَة**: تَأْتي مَصْدراً مِيمياً بمعنىٰ «الفوز».

وتأتي بمعْنَىٰ اسْم مَكانِ الْفَوْز، وهو في الآخِرَةِ الجنَةُ أو المكانُ الموصِلُ إليها والطريق الذي يُسَاقُ فيه المتقون إلَيْها.

الفوز: يأتي للدلالة علىٰ الظَّفَرِ، والنجاة من الشّرِ، وعلىٰ الربح، يقال لغة: «فَازَ، يَفُوزُ، فَوْزاً، ومَفَازاً، وَمَفَازَةً».

السُّوء: اسْمُ جَامع لمختلف الآفاتِ والمكاره.

الحزن: مَشَاعِرُ أَلَم في النَّفْس طَوِيلَةِ الأمَدِ بسَبَب فوات مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، أو بِسَبَب مَكْرُوه نَازِلٍ أو مُتَوَقَّعِ النُّزُول.

المعنىٰ: وَيُخَلِّصُ اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بعَفْوِهِ وغُفْرَانِهِ، مِنْ كُلّ مَكْرُوه يَتَوَقَّعُونَهُ علَىٰ خَطَايَاهُمْ، بالْحُكْم لَهُمْ بالفَوْزِ، وبإبْلاغهم مَفَازَتَهُمْ وَهِيَ الْجَنَّةُ، أو الطَّرِيقُ الَّذِي يُسَاقُونَ فِيهِ إلَيْها.

وبتَنْجِيتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ الَّذِي يَكْرَهُونَهُ وَلَوْ مَسّاً خَفِيفاً، ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ علَىٰ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فيه فَاتَهُمْ، أَوْ يَخْشَوْنَ فَوَاتَهُ، بَلْ هُمْ فَرِحُونَ مَسْرُورُونَ آمِنُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُذَكّراً في آخِرِ هـٰذا الدّرْسِ بِبَعْض عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، ومُبَيِّناً أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ اللهِ هُم الْخَاسِرُون مِنْ أشَدِّ دَرَكَاتِ الْخُسْرَان:

● ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

في هاتين الآيتين بَيَانُ أَرْبعِ قَضَايَا:

القضِيَّة الأُولىٰ: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾:

فعل «خَلَقَ» يَأْتي للدَّلَالَة علىٰ معنىٰ «التقدير» وهو إعْطَاءُ أجْزَاءِ الشيْءِ مَقَادِيرَهَا بإحْكَام. وللدَّلَالَة علىٰ معنىٰ ابْتِدَاعِ الشيْءِ علَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وإيجادِهِ مِن الْعَدَمِ.

فاللهُ عزَّ وجلّ مُقَدِّرُ كُلِّ شيءٍ بإحكام كامِلٍ، ومُبْدِعُ كُلِّ شيءٍ إيجاداً مِنَ الْعَدَم، وَتَصَارِيفَ وتَغْيِيرَاتٍ في الأشياء الَّتِي سَبَقَ إيجادُهُ لها، وعِبَارةُ: «كلّ شيءٍ» تَشْمَلُ كُلّ ما سوىٰ الله إذْ هُوَ الخالق.

ومِمَّا خلَقَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ الإرادات الْحُرَّة الَّتِي أَوْجَدَهَا فِي نُفُوسِ النَّاسِ لِيَبْلُوَهَا بالإيمان والكفر، والطاعَة والمعصية، والخَيْر والشّر، وَهُوَ الذي يَخْلُقُ مُرَاداتِها، ويُحاسِبُها عَلَىٰ اخْتِيَارَاتِها.

القَضِيّة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾:

الوكيل: هو مَنْ يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا، ويُكْتَفَىٰ بِهِ في اختياره وعَمَلِهِ وَسَائِر تَصَرُّفَاتِهِ فيما هُو مُوَكَّلٌ عَلَيْهِ.

والمرادُ بِكَوْنِ اللهِ وكيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَّهُ هُوَ الْقَائِمُ دَوَاماً بِحِفْظِ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبالتَّصَرُّفِ فِيهِ الشَّامِلِ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، إيجاداً وإمْدَاداً، وتَغْيِيراً، والشَّامِلِ لابْتِلَائِهِ فيما مَنَحَهُ فيه الاختيار الحرِّ، وَلِتَرْبِيَتِهِ وَمُحَاسَبَتِهِ وَمُجَازَاتِهِ، فَمَا مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ من أجْزَاء كُلِّ ذَرَّةٍ في الكَوْنِ كُلِّهِ إِلَّا هُوَ خَاضِعٌ لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فَمَعْنَىٰ كَوْنِ اللهِ وَكِيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، صَارَ في الاصْطِلَاحِ الدِّينيّ يَشْمَلُ كُلَّ المفْهُومَاتِ الّتي سَبَقَ بَيَانُها، ولَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ مَفْهُومِ الناس من مَعْنَىٰ الْوَكِيلِ مِنَ الْبَشَرِ عَلَىٰ شَيْءٍ ما.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾:

﴿مَقَالِيدُ﴾: جَمْعُ «مِقْلَاد» وهُو في اللُّغَةِ يُطْلَقُ علَىٰ «الْخِزَانَةِ» ويُطْلَقُ علىٰ «المفتاح» **فالمقاليد** هي الخَزَائِنُ، والمفاتيح.

فَدَلَّتْ هٰذِهِ الْقَضِيَّةُ علَىٰ أَنَّ للهِ وَحْدَهُ كُلَّ مَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مِنْ خَزائِن، مِنْهَا خَزَائِنُ الأرْزَاق، وخَزَائِنُ المعادِن، وَخَزَائِنُ الْقُوىٰ، وَأَنَّ للهِ وحْدَهُ كُلَّ مَفَاتِيحِ كُلِّ الخزائِن، وكُلَّ مَفَاتِيح التَّصَرُّفِ في كُلِّ شيء، إذْ نِظَامُ اللهِ السَّبَبِيّ في كَوْنِهِ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ سَبَبٍ مِفْتَاحاً بِهِ يَتَحَرَّكُ السَّبَبُ، فَتُوجَدُ المسَبَّبَاتِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِه.

الْقَضِيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمْ يُؤْمِنُوا بآيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة، وآيَاتِ اللهِ الجزَائِيَّة، وآيَاتِ اللهِ الإعْجَازِيَّة، وآيَاتِ الله الْبَيَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ علَىٰ رَسُوله ﷺ، أَولئِكَ المنْحَطُّونَ، الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، المتَسَفِّلُونَ فِي الدَّرَكاتِ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَشَدَّ الْخَسَارَاتِ؛ لأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمُ وَخَسِرُوا جَنَّاتِ النَّعِيم وَجَلَبُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ الْخُلُودَ فِي عَذَاب النار.

كيف لَا يَكُونُونَ كامِلي الْخُسْرَانِ وَقَدْ خَسِرُوا كُلَّ رُؤُوس ما يَمْلِكُونَ فِي وُجُودهم الأَبَدِيّ، وَحيواتِهم الأبديّة؟؟!.

خَسِرُوا ذَواتهم، وصِفَاتِهِمْ، وأَزْمَانَهُمْ الأَبَدِيَّةَ في حَيَواتِهم، فَجَعَلُوا كُلَّ زَمَنٍ مِنْها مَصْحُوباً بآلَام وأَوْجَاعٍ مِنْ دَرَكَةِ الْحَرِيقِ فَمَا دُونَهُ.

هل يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِهٰذَا الْخُسْرَانِ المبينِ مَنْ لَدَيْهِ عَقْلٌ وبصيرَةٌ غَيْرُ عَمْيَاء؟؟!.

وبهٰذا انتهىٰ تدبر الدرس العشرين من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفَتْحِه.

(٢٥)

التدبُّر التحليلي للدرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الزّمر)

الآيات من (٦٤ ـ ٦٦)

قال اللهُ عزَّ وجل خِطَاباً لِرَسُوله محمّد ﷺ مُعَلّماً:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

القراءات:

(٦٤) • قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: **[تَأْمُرُوْنِيَ أَعْبُدُ]** بِكَسْر النون دُون تَشْدِيدٍ، وبِفَتْحِ يَاءِ المتكلم.

وقرأها ابْن كثير: **[تَأْمُرُوْنِّيَ أَعْبُدُ]** بِكَسْرِ النُّونِ المشَدَّدَة، مع المدّ المشْبَع، وبفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأها ابْنُ عَامر: **[تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ]** بنونين مفتوحة، فَمَكْسُورَة، وبإسْكَانِ يَاء المتكلّم.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: **[تَأْمُرُوْنِّيْ أَعْبُدُ]** بِكَسْرِ النُّونِ المشَدَّدَةِ مع المدّ المشبع، وبإسْكان يَاءِ المتكلم.

وهـٰذِهِ القراءات وَجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النطق.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرْسِ يُعَلِّم اللهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، مَا يَقُولُهُ لِلّذِينَ يَدْعُونَهُ مِنَ المشْرِكين أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، ويُبيِّنُ لَهُ لِيُعْلِمَ المشْرِكين بأُسْلُوب غَيْرِ مُبَاشر، قائلاً لَهُ: لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، ولَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين، وأَمَرَهُ بأنْ يَعْبُدَ اللهَ وحْدَه وأَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرينَ.

التَّدبّر التحليلي:

دَلَّ هـٰذا الدَّرْس من دُروس السُّورَة علَىٰ أَنَّ أئِمَةَ المشركين في مَكَّةَ كَرَّرُوا مُحَاوَلَتَهُمْ الَّتِي نَزَلَتْ بِسَبَبِهَا سُورة (الْكَافِرُون) فَدَعَوا الرَّسُولَ ﷺ إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، وَيَكُفَّ عَنْ بَيانِ بُطْلَانِها، وَسَفَاهَةِ مِنْ يَعْبُدُها، وَوَعَدُوه أَنْ يَعْبُدُوا الله مَعَهُ، فَيجمَعُوا بَيْنَ عِبَادَةِ اللهِ وعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤)﴾؟!.

الاستفهام في هٰذِهِ الآيَة فيه دلالَةٌ عَلَىٰ مَعاني التعجبِ، والاستنكارِ، والتوبيخِ للمُشْرِكين، الَّذين يَدْعُونَ وَيَأْمُرُونَ بِعِبادَةِ غَيْرِ الله.

وَالمعْنَىٰ: أَوَصَلَتْ بِكُمْ الجهالَةُ والْمُكَابَرَةُ بالْبَاطِلِ والْوَقَاحَةُ إلَىٰ أَنْ تُقَدِّمُوا لِي آلِهَةً غَيْرَ اللهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، ولَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَعْبُدَها، وَأَنَا رَسُولُهُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إلىٰ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُونَ بِعِبادَتِهِ شَرِيكاً، أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ.

مَا هٰذِهِ الْحَمَاقَةُ الَّتِي تَرْتَكِبُونَها؟!، مَا هٰذِهِ السَّفَاهَةُ الَّتِي لَا تَخْجَلُونَ مِنها؟!

أَصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً، وَجَهَالَة» أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُها، وهو ضدُّ «تَحَلَّمَتْ».

وَيُقَالُ: «جَهِلَ فُلانٌ عَلَىٰ فُلان» أي: جَفَا وَتَسَافَهَ.

ويُطْلَقُ الْجَهْلُ أيضاً بمَعْنَىٰ عَدَمِ الْعِلْمِ بالشَّيْء.

وأَرَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ الْحَمَاقَةِ وَالسَّفَاهَةِ هُو المرادُ هُنا؛ لأَنَّ المشْرِكين لَا يَجْهَلُونَ جَهْلاً عِلْمِيّاً دَعْوَةَ الرَّسُولِ ﷺ إلىٰ التوحيد، وَتَمَسُّكَهُ بِهِ، وَلَكِنْ تَغْلِي صُدُورهُمْ غَضَباً مِن انْتِشَارِ الإسْلَامِ في مَكَّة، فَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَقِفُوا مَوْقِفَ الدَّاعِي المضَادِّ النّدّ إلىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، وَيُوَجِّهُونَ دَعْوَتَهُمْ إلَىٰ رَسُولِ رَبِّهِمْ، الَّذِي يَعِيبُ آلِهَتَهُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلامَهِمْ، لِيَخْدَعُوا جَمَاهِيرَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ حَقٍّ، وأَنَّهُمْ يُوَاجِهُونَ الرَّسُولَ والمؤمنين به بندِّيَّة في المبادئ والمفاهيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ لِيُسْمِعَ المشْرِكين بِأُسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر:

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥)﴾:

دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْغَرضَ إسْمَاعُ المشْرِكِينَ الّذِينَ يَأْمُرُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِم، التوكيدُ في صَدْرِ الآيَةِ بِعِبَارَة ﴿وَلَقَدْ﴾ فاللَّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَواب قَسَم مَنْوِيٍّ كَمَا يَقُولُ الْمُعْرِبُون، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقيق. وَمَعْلُومٌ بَدَاهَةً أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَحْتَاجُ تَوْكِيداً فِي مِثْلِ هـٰذا الْمَوْضوع، فَالْغَرَضُ التَّوْكِيدُ لِلْفِئَةِ من الْمُشْرِكين الَّذِينَ قُصِدَ إسْمَاعُهُمْ.

أي: وَنُؤَكّدُ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّد، وأُوحِيَ إِلَىٰ كُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ قَائِلِين لَهُ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: نُقسِمُ لَكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ أَخَفَّ أَجْزَاءِ الشِّرْكِ، كاعْتِقَادِ فَاعِلِيَّةِ الأَسْبَابِ، لِيَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالح، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين.

حَبِطَ الْعَمَلُ: أي: بَطَل، وكُلُّ عَمَلٍ لَا يُحَقِّقُ الْغَايَةَ الْمَرْجُوَّةَ مِنْهُ فَقَدْ حَبِطَ وَبَطَلَ.

لَكِنْ لَمْ يُشْرِكْ باللهِ، وَلَوْ مِنْ أَخَفِّ أَجْزَاءِ الشِّرْكِ وَعَنَاصِره، رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وَلَا نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَام، فَكَيْفَ يُشْرِكُ باللهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وسَيِّدُ المرْسَلِينَ ﷺ؟!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ وَآمراً لَهُ بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ شَرِيكاً مّا:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

«بَلْ» تَعْطِفُ علَىٰ مَحذُوفٍ مِنَ السَّهْلِ إدْرَاكُه، وَهُوَ لَا تَسْتَجِبْ يَا مُحَمَّدُ لِدَعْوَةِ المشْرِكِين أنْ تَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، وإذا كُنْتَ حَرِيصاً علىٰ مَرْضَاةِ رَبِّكَ فاعْبُد اللهَ وَحْدَه.

جاء في العبارة تقديمُ لَفْظِ الْجَلَالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ وهُوَ مَفْعُولٌ بِهِ عَلَىٰ العامِلِ فيه وَهُوَ فِعْل: «اعْبُدْ» لإِفَادَةِ الْحَصْرِ والتَّخْصِيص.

• ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي: وَكُنْ مِنَ الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِي اللهَ عَنْكَ.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ المنْعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، وَيَدْخُلُ في عُمُومِهِ الْحَمْد، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْقَوْلِ يَخْتَصُّ بعُنْوَانِ الْحَمْدِ وَالثناء، يُقَالُ لغة: «شَكَرَهُ يَشْكُرُهُ، وَشَكَرَ له».

لَمْ يُكلّف اللهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يَكُونَ شَكُوراً، لِئَلَّا يَكُونَ تَكْلِيفاً وَاجِباً عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ شَكُوراً دَوَاماً. لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ دُونَ تَكْلِيفٍ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَكُونَ عَبْداً شَكُوراً، كما صَحَّ عَنْهُ ﷺ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ عزّ وجلّ في سورة (سَبَأ/ ٥٨ نزول):

﴿. . .وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

وبهٰذا انْتَهىٰ تدبر الدّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله علىٰ معونتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، وفَتْحه.

(٢٦)
التدبُّر التحليلي للدَّرسِ الثاني والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٦٧)

قال اللهُ عزَّ وجَلّ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

تمهيد:

جَاءَ في الآيتين (٦٢) و(٦٣) بَيَانُ ثَلاثِ كليّاتٍ كبرى من صِفَاتِ اللهِ المتَعَلِّقَةِ بِالكَونِ في الحياة الدنيا وهي:

(١) اللهُ خَالِقُ كُلِّ شيء.

(٢) وهو على كُلِّ شيءٍ وكيل.

(٣) لَهُ مَقَاليد السَّمَاوَات والأرض.

وجاء بَعْدَهما دَرْسٌ مِنْ ثلاثِ آيَات تتعلَّقُ بِدَعْوَةِ أَئِمَّة مُشْرِكِي مَكَّةَ الرَّسُول ﷺ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ.

فَكَانَ مِنَ الحكْمَةِ في البيان تَوْطِئَةً لِبَيَانِ أَحْدَاثٍ تَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ القيامة، ذِكْرُ عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللهِ إِذْ يَقْبِضُ الأرضَ ويَطْوِي السَّمَاوَات بِيَمِينِه يَوْمَ القيامة، وَبَيَانُ أَنَّ عِبَادَ الله مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِه، أمَّا المشركون فَقَدْ نَقَصَتْ إدْرَاكَاتُهُمْ إلَى حَدٍّ أنْ جَعَلُوا لله شُرَكاء مُعِينينَ لَهُ في تَصَارِيفِ كَوْنِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون.

التدبُّر التحليلي:

■ قوله تَعَالَى:

• ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ..﴾:

يقال لغة: «قَدَرَ فلانٌ الشيْءَ يَقْدِرُه» أي: بَيَّنَ مقداره. أَوْ عَلِمَ مِقْدَاره، أو أَدْرَكَ بِتَصَوُّره مِقْداره.

و«**قَدْرُ الشيء**» مِقْدَارُه في ذَاتِهِ أو في صفاته.

وأرَىٰ أَنّ الضميرَ في: ﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾ يُرَادُ بِهِ كلُّ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ قُدْرَاتٌ إدْرَاكِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ، يَسْتَطِيعُونَ بها إِدْرَاكَ مَقَادِير الأشيَاء.

فكُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ ذَواتِ الإدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ، لَمْ تَصِلْ إدْرَاكاتُها فِي تَصوُّرَاتِهَا إِلَىٰ إدْرَاكِ عَظَمَةِ صِفَاتِ اللهِ حَقَّ قَدْرِها.

﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: أي: قَدْرَهُ الحقّ، فالإضافة هُنَا من إضافةِ الصِّفَةِ إلَىٰ

الموصُوف، **والمعنىٰ**: لم تَصِلْ تَصوُّرَاتُهُمْ إلىٰ إدْرَاكِ مِقْدَارِه الحقِّ المطَابِقِ لِلْوَاقِع، بَلْ كُلُّ إدْراكاتِهِمْ نَاقِصَاتٌ عَمَّا هُوَ لَهُ مِنْ مِقْدَارٍ، جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَتْ وَسَمَتْ فَوْقَ كُلِّ التَّصوُّرَاتِ صِفَاتُه.

وَتَتَفَاوَتُ تَصوُّرَاتُ المخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الإدْرَاكِ الْعِلْمِي بالنِّسْبَةِ إلَىٰ إدْرَاكِ صِفَاتِ اللهِ تَفَاوَتاً كَبِيراً، وأعْلَاهَا وَأسْمَاهَا لَا يَصِلُ إلىٰ الإدْرَاكِ المطابقِ لِمَا هِي عَلَيْهِ في الواقِع، إذْ لَا تَمْلِكُ أجْهِزَتُهَا الإدْرَاكِيَّةُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إدْرَاكِ الكَمَالِ الأزَلِيّ المطْلَقِ، لِصِفَاتِ اللهِ الأزَلِيِّ الأبَدِيِّ في ذَاتِهِ وَفِي صِفَاته جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

وانْحَطَّ المُشْرِكُونَ انْحِطَاطاً فَاحِشاً في إدْرَاكِهِمْ لِصِفَاتِ اللهِ، تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ، فاتَّخَذُوا لَهُ شُرَكَاء افتراءً عَلَيْهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿.. وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ..﴾:

أي: وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، والحالُ أنَّ الأَرْضَ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَة وأنَّ السَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه.

• ﴿جَمِيعًا﴾: حَالٌ لِلأَرْض، والمراد جَميعُ أَجْزَائِها.

• ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: **القبضَة**: الْمَرَّةُ الواحِدَةُ مِن القبض، مَصْدَر «قَبَضَ الشَّيْءَ قَبْضاً» أي: أخَذَه بكَفِّهِ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ عَلَيْه.

• ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: أي: مَضْمُومَاتٌ أو مَلْفُوفَاتٌ بَعْضُهَا علىٰ بَعْضٍ بِيَمينِهِ جلَّ جلالُه يَوْمَ القيامة. يقال لغة: «طَوَىٰ فلانُ الشَّيْءَ، يَطْوِيهِ، طَيّاً» أيْ: ضَمَّ بَعْضَهُ علَىٰ بَعْضٍ، أَوْ لَفَّ بَعْضَهُ فَوْق بَعْض.

وَجَاءَ في سُورَة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ... ﴿١٠٤﴾﴾.

السِّجِلُّ: يأتي بمعنىٰ: الكِتاب، ويَأْتي بمَعْنَىٰ: الْكَاتِب. والظَّاهِرُ هُنَا أَنَّهُ بمَعْنَىٰ «الْكَاتِب» أي: كَطَيِّ الكاتِبِ لِلْكُتُب إِذْ يَضُمُّ بَعْضَها علَىٰ بَعْض، أَوْ يَلُفُّ بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ.

أي: فَالسَّمَاوَاتُ كُلُّهَا بِمَا فِيهَا مِنْ بَلَايين المجَرَّاتِ يَطْوِيهَا اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ كَمَا يَطْوِي الْكَاتِبُ مَا يَكْتُبُ مِنْ كُتُبٍ في قَرَاطِيسَ أَوْ فيما يُشْبِهُها.

وجاء في الصّحيح عَنْ عبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عَنْهُ قَال: جاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَار إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقال: يَا مُحمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، والأَرضينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، والشَّجَرَ علَىٰ إِصْبَع، والماءَ والثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبع، وسَائِرَ الْخَلْقِ علَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ.

فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتى بَدَتْ نَواجِذُه (= أَضْرَاسُهُ) ثُمَّ قَرأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

جاء في رِوَايَةِ هٰذا الحديث: «فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحبر».

قال الْخَطّابي: رَوَىٰ هٰذا الحديث غَيْرُ وَاحِدٍ عن عبد اللهِ بن مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيق عَبِيدَة، فَلَمْ يَذْكُرُوا قَوْلَهُ: «تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحَبْر».

وَقَدْ جَزَمَ الْقُرْطُبي في كِتابه: «الْمفهِمْ علىٰ صحيحِ مُسْلم» أَنَّ هٰذا الْقَوْلَ مُدْرَجٌ في الحديث مِنْ فَهْمِ الرَّاوي.

وَيظْهَرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جاءَ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْم، وَلَمْ يَتَعَرَّض لِمَا ذَكَرَهُ الْحَبْرُ الْيَهُودِي، دَفعاً لِلْجَدَلِ في أَمْرٍ غَيْبِيٍّ يَتَعَلَّقُ بأَحْوَالِ يَوْم القيامَةِ

وَأَفْعَالِ الله عزّ وجلّ، وَضَحِكَ حتَّىٰ بَدَتْ نواجِذُهُ اسْتِغْرَاباً مِنَ التَّفْصِيلاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْحَبْر، وهـٰذا يَنْسَجِمُ مَعَ وَصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ المسْلِمِينَ، بِأَنْ لَا يُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا يُكَذِّبُوهم، اجْتِنَاباً لِلْمُشَاحَنَاتِ الْجدَلِيَّة.

وَرَوَىٰ البخاري وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول:

«يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، ويَطْوِي السَّمَاوَات بِيمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟».

- ﴿. . سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: تَنَزَّهَ اللهُ عزّ وجلّ، وَتَعَالَىٰ عُلُوّاً لَا حَدَّ لَهُ، عَمَّا يَفْتَرِي المشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبِيّتِه، أَوْ في إلٰهِيَّتِه، فَيَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونه.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّر هـٰذا الدَّرْس من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله علىٰ مَعُونته ومَدَدِه وتَوفيقه وفَتْحِهِ.

(٢٧)
التدبر التحليليُّ للدّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٦٨ ـ ٧٥) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

القراءات:

(٦٩) • قرأ نافع: [**بِالنَّبِيئِينَ**] بِهَمْزَةٍ بَعْدَ الياء الأولىٰ جمع «النَّبِيء».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**بِالنَّبِيِّينَ**﴾ بياء مُشدَّدَةٍ بَعْدَ الباء، جمع «النَّبِيِّ».

وهُما نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ.

(٧٠) • قرأ قَالُون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفر: [**وَهْوَ**] بإسْكانِ الْهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَهُوَ**﴾ بضَمّ الْهاء.

والقراءتان لغتان عَرَبِيَّتَانِ.

(٧١) و(٧٣) ـ • قرأ عاصم، وحَمْزَة، والكسائي، ويَعْقُوب: ﴿**فُتِحَتْ**﴾ بتاء مَكْسُورَةٍ دُونَ تَشْدِيد بَعْدَ الفاء، في الموضعين.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [**فُتِّحَتْ**] بكَسْرِ التَّاء مع التَّشْدِيد.

رُوعي في التَّشْدِيد الإشَارَةُ إلىٰ زِيَادَةِ إهَانَةِ بَعْضِ أَهْلِ جَهَنَّم، وزيادَةِ تَكْرِيمِ بَعْضِ أَهْلِ الجنَّة.

(٧٢) • قرأ السُّوسي، وأبو جَعْفر: [فَبِيسَ] بإبْدَال الهمزة ياءً في الوقف وفي الوصل. وكذلِكَ قرأَهَا حَمْزَةُ فِي الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾.

الإبْدَالُ وعَدَمُهُ نُطْقَانِ مِنَ اللَّهجات العربيَّة.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ عَنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين. بَدَأَتْ هـٰذِهِ اللَّقَطاتُ مِنْ إنْهَاءِ ظُرُوف الحياةِ الدُّنيا بالنفخة الأولَىٰ، فالْبَعْثِ بالنَّفْخَةِ الثانية، فأحْدَاثٍ تَتَعَلَّقُ بِمَوْقِفِ الحساب، فَسَوْقِ الّذين كَفَرُوا إلَىٰ جَهنَّم ومَا يُقَالُ لهم من تَلْويم، وَسَوْقِ الَّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلَىٰ الْجَنَّة، وَمَا يُقَالُ لَهُمْ مِنْ تَحِيَّةٍ وَتَكْرِيم، ومَا يَقُولُونَ مِنْ عِبَارَات ثناء علىٰ الله.

وفيه لَقْطَةٌ أخيرَةٌ عن الملائِكة حَافِينَ من حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وقد قُضِي بين الخلائق بالحقّ، وقيل: الحمدُ لله رَبّ العالمين.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالَىٰ استقطاعاً من أحداث المستقبلِ وحكايَتِهِ بأسْلوب أحداث مَضَتْ، لتوكيد وقوعها حتماً.

• ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

• ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: **الصُّور**: مَخْلُوقٌ عظيم مِنْ مَخْلُوقاتِ اللهِ كهَيْئَةِ الْقَرْن، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، والأُخْرَىٰ واسِعَةٌ جدّاً، وبَاطِنُهُ فَارِغٌ، يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِهِ، والْمَلَكُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّفْخِ في الصُّور هو إسْرَافيل عَلَيْهِ السّلام.

هٰذِهِ النفخة في الصُّورِ هي النَّفْخَةُ الأُولَىٰ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ مِنَ الأَحْيَاءِ حينئذٍ، إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ لَا يَمُوتَ بها.

• ﴿فَصَعِقَ﴾: أي: فَمَات. ويأتي الصّعْقُ لغةً بمَعْنَىٰ الغِشْيَانِ الَّذِي يَفْقِدُ بِهِ المصْعُوقُ كَامِلَ وَعْيِهِ دُونَ أَنْ يَمُوت.

• ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾: «مَنْ» اسْمُ مَوْصُولٍ خَاصٌّ بذوي الْعِلْم، وهُمُ الْمَلَائِكَةُ في السَّمَاء، والإنْسُ والْجِنُّ والْمَلَائِكَةُ في الأَرْضِ، وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الأَحْيَاءِ في السَّمَاوَاتِ وفي الأَرْض، وغير ذوي الْعِلْمُ يَدْخُلُونَ في عُمُومِ «مَنْ» مِنْ بَاب التَّغْلِيب؛ لأَنَّ ذوي الْعِلْم مِنَ الْمَلَائِكَةِ والإنْسِ والْجِنِّ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَكْثَرُ مِن الأحْيَاءِ غَيْرِ ذَوِي الْعِلْم في الأرْضِ بمَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ، فَقَدْ صَحَّ عَنِ النّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ بِشَأْنِ السَّمَاء:

«... والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، مَا فيها مَوْضِعُ شِبْرٍ إلَّا وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِدٍ يُسَبِّحُ اللهَ ويَحْمَدُه»[1].

• ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: اخْتَلَفَ أهل الْعِلْم في تَحْدِيدِ الّذِين اسْتَثْنَاهم اللهُ عزّ وجلّ بهٰذِهِ العبارة، وهي أَقْوَالٌ اجْتِهَادِيَّةٌ لم أجِدْ فيها مَا يَصْلُحُ لأَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيه.

وقد يُسْتَأْنَسُ بما رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قال: سأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قول اللهِ تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال: «جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، ومَلَكُ الموْتِ، وَإِسْرَافِيلُ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ».

ومَنِ استَثْنَاهُمُ اللهُ من الموت بالنفخة الأولىٰ، لَا يُفِيدُ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ لَا يُمِيتُهُمْ بَعْدَهَا، وقَبْلَ نَفْخَةِ الْبَعْث.

(١) انظر الحديث رقم ١٠٢٠ في «صحيح الجامع الصغير وزيادَته» لِلأَلْبَاني.

فقَدْ وردَتْ أخْبارٌ تُفِيدُ أَنَّ اللهَ يُميتُ مَنْ جاءَ ذِكْرُهُمْ في حَدِيثِ أَنَسٍ، وظاهِرٌ أَنَّ هـٰذا يَكُونُ بَعْدَ نَفْخَةِ الصَّعْقِ وقَبْلَ نَفْخَةِ الْبَعْث، والله أعلم.

• ﴿..ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ ـ اللهُ أَعْلَمُ بِمِقْدَارِها ـ يُنْفَخُ في الصُّورِ نَفْخَةٌ أُخْرَىٰ، هِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ بأمْرِ اللهِ بَعْدَ أَنْ يُحْيِيَهُ مِنَ الْمَلائِكة، فإذا الْمَوْتَىٰ قِيَامٌ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ مَبْعُوثُونَ رَاجِعُونَ إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

«إذا» فُجائِيَّةٌ، أي: فَيُفَاجَؤُونَ بأَنَّهُمْ أَحْياءٌ يَنْظُرُونَ أَرْضَ الْمَحْشَرِ، وَيَنْظُرُونَ كُلَّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بَصَرُهُمْ فَوْق أَرْضِ المحشر.

هـٰذِهِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ يَكُونُ بِهَا انْطِلَاقُ الأَرْوَاحِ إِلىٰ أَجْسَادِهَا، فَتَلْتَقِي بالنُّفُوسِ الَّتِي كانَتْ قد انْفَصَلَتْ عَنْهَا، فَذَاقَتِ الْمَوْتَ بهـٰذا الانفصالِ، فَتَعُودُ النُّفُوسُ وأَجْسَادُهَا حَيَّةً حَياةً أُخْرَىٰ، لِمُلاقَاةِ أَحْداثِ يَوْمِ الدِّين.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

• ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ..﴾: أي: وَظَهَرَتْ أَرْضُ الْمَحْشَرِ مُشْرِقَةً مُضِيئَةً بِنُورِ رَبِّها، وَلَيْسَ لَنا أَنْ نُحَدِّدَ أَنَّ هـٰذا النُّورَ مُنْبَعِثٌ مِنَ أَرْضِ الْمَحْشَرِ ذَاتِها، أَوْ مِنْ مَصْدَرٍ مُضِيءٍ مُسَلَّطٍ عَلَيْها، إذ الاحْتِمَالَانِ مُتَكافِئَانِ، والْعِبَارَةُ صَالِحَةٌ لِكُلٍّ مِنْهُما. والنور في الوجود كلِّهِ هو نورٌ مَمْلُوكٌ للهِ لأَنَّه مَخْلُوقٌ من مَخْلُوقاته.

• ﴿. . وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ . .﴾: أي: وأحْضِر بأَمْرِ اللهِ الكِتَابُ الَّذِي سُجِّلَتْ فِيه أعْمَالُ العباد الّذِينَ كانُوا في الحياة الدُّنيا مُمْتَحَنِين، وعُرِضَتْ عَلَيْهِمْ صُحُفُ أعْمَالِهِمْ، فَرَأَوْها سِجِلًّا كامِلاً بالصُورَةِ، والصَّوْتِ، وَخَواطِرِ الْفِكْرِ، وَأَحَادِيث النفس، وَالنِّيَّاتِ، وأعْمَالِ الْقُلُوبِ والنفوسِ الإرَادِيَّة.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

وَضْعُ الكتاب: يُرَادُ بِهِ إحْضَارُهُ، وكَشْفُ مَا سُجِّلَ فيه مِنْ أعْمَالِ الْعِبَادِ، وَعَرْضُهُ عَلَيْهِم.

الْوَضْعُ: ضِدُّ الرَّفْعِ الّذِي هُو الإبْعَادُ والإزَالَة.

وَيكُونُ هـٰذا الْحَدَثُ أَحَدَ عَنَاصِرِ الْمَحْكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة الَّتِي يُحَاسِبُ اللهِ فيها عِبَادَهُ، ويَفْصِلُ قَضَاءَهُ بَيْنَهُمْ، فَيُصْدِرُ حُكْمَهُ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ بِمَا يُلائِمُهُ مِن عَدْلٍ أَوْ فَضْلٍ.

• ﴿. . وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ. . .﴾:

أي: وَجِيءِ بأمْرِ اللهِ بالنَّبِيِّينَ وفي مُقَدّمَتِهِم الرُّسُلُ عَلَيهِم السَّلام، لِيَشْهَدُوا عَلَىٰ أُمَمِهِمْ بِتَبْلِيغ رِسَالَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وجِيءَ أيْضاً بالشُّهَدَاءِ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّين عَلَيهِم السَّلام، وَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ والنُّصْحِ والإرْشَادِ والأَمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المنكَرِ من أتْبَاعِ الرُّسل عَلَيهِم السَّلام.

وقَدْ جَاءَ تَفْصِيلُ شَهَادَةِ النبيّين عَلَيهِم السَّلام، والشُّهَداء مِنَ المؤمنين أتباع الرُّسُلِ عَلَيهِم السَّلام في عِدَّةِ نُصُوصٍ، مِنْها النُّصُوص التالية:

(١) قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ في سورة (النحل/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

(٢) وقول الله تعالىٰ خِطَاباً لأتباع الرسول محمد ﷺ في سورة (البقرة/ ٨٧ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . ﴿١٤٣﴾﴾.

(٣) وقَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً لرسوله في سُورَة (النساء/ ٩٢ نزول):

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾.

فَأَبَانَتْ هـٰذِهِ النُّصُوصُ الْغَرَضَ مِنْ إحْضَارِ النبيِّين عَلَيهِم السَّلام إلَىٰ مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، وهو أَنْ يكُونُوا شُهَدَاءَ علىٰ الَّذِينَ أَبْلَغُوهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ وَأَمَانَةٍ، وَنَصَحُوهُمْ وَلَمْ يألُوا جهداً فِي إقْنَاعِهِمْ وَتَرْغيبِهِمْ وَتَرْهِيبِهِمْ والصَّبْرِ عَلَيْهم.

- ﴿. . وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وَقُضِيَ بَيْنَ الَّذِينَ اسْتَحقُّوا الْعِقَابَ بِالْعَدْلِ، وهُمْ لَا يُظْلَمُونَ في أَحْكَامِ اللهِ القضائيَّة فيهِمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ولَا أَصْغَرَ من ذلِكَ، وجاءَ استعمالُ الفعلِ المضارَعِ بَعْدَ المَوَاضِي لِتَصْويرِ حركةِ تتابعِ الأَحْكامِ يومئذٍ.

- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

يَظْهَرُ لي أَنَّ تَوْفِيَةَ كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ خَاصٌّ بالَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا في حياة امْتِحَانِهِمْ مِنَ الصَّالحاتِ.

تَوْفِيَةُ صَاحِبِ الحقّ تَكُونُ بإعْطَائِهِ حَقَّهُ وافياً غَيْرَ مَنْقُوص، كَيْفَ لَا

يُوَفِّيهِم مَا عَمِلُوا وَقَدْ جَعَلَ حَسَنَاتِهِمْ مُضَاعَفَةً إلىٰ عشرة أضْعاف، إلىٰ سبعمائةِ ضِعْفٍ، إلَىٰ أضْعَافٍ كثيرَةٍ، فضْلاً مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ بِلَا حُدُودٍ جُودُه؟!.

﴿..وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: في هٰذِهِ العبارة انْتِقَالٌ إلىٰ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وَإعْلَامٌ بأنّ اللهَ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ الْعَالِمِينَ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُه، مِمَّا يَكْسِبُونَ مِنْ أفْعَالٍ بإرَادَاتِهِمْ، حتَّىٰ مَا يَكْسِبُونَ مِنْها في داخِلِ نُفُوسِهِمْ وقُلُوبهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبيِّنُ حَدَثَ سَوْقِ الّذِينَ كَفَرُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ إلَىٰ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين:

• ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

• ﴿وَسِيقَ﴾: **السَّوْق**: الْحَثُّ عَلَىٰ السَّيْرِ مِنْ خَلْفٍ، يَقُال لغة: «سَاقَهُ، يَسُوقُهُ، سَوْقاً، وَسِيَاقاً، وسِيَاقَةً، ومَسَاقاً» أي: حَثَّهُ من خَلْفِهِ عَلَىٰ السَّيْر، بِخِلَافِ: «الْقَوْدِ ـ والقِيَاد ـ والقِيادَة» فهُوَ حَثُّ الْمَقُود عَلَىٰ السَّيْرِ مِنْ أمَامِهِ.

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي: الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ كَفَرُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، ومَاتُوا وهُمْ كَافِرُون.

• ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: أي: إلَىٰ بُلُوغ أبْوابِ جهنم. لفظ «جَهَنَّم» اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أسماء دَار العذاب الَّتي أعْتَدَهَا اللهُ لمستحقِيهِ، يَدْخُلُونَها يَوْمَ الدّين. وهو ممنوعٌ من الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتأنيث.

• ﴿زُمَرًاۖ﴾: جَمْع زُمْرَة، وهي الجماعَة، والْفَوْجُ من الناس.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ...﴾: أي: حَتَّىٰ إذَا وَصلُوا إلَىٰ أبْوَابِهَا فُتِحَتْ تِلْقَائِيّاً هٰذِهِ الأَبْوَابُ، كَمَا تُفْتَحُ الأَبْوَابُ الْعَصْرِيَّةُ بِجِهَازٍ حَسَّاسٍ لِلْقَادِمِ إلَيْها، وهُوَ يُحرِّكُ الآلاتِ الكَهْرُبائِيَّةَ الْمَحْجُوبَةَ بِنِظَامٍ تَنْفَتِحُ بِهِ الأَبْوَابُ الْخَاصَّةُ بِهَا. حَتَّى هُنَا ابْتِدَائِيَّةٍ، وَهذِهِ الْحَرَكَةُ التِّلْقَائِيَّةِ خَاصَّةٌ بأبْواب جَهَنَّم، وهي سَبْعَةُ أبْواب، كما جاء في الآية (٤٤) من سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) وقد سبق تدبّرها.

• ﴿.. وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ ..﴾: أي: وَقَالَ لِلْمَسُوقِينَ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلَائِكَة. **خَزَنَة**: جَمْعُ خَازِن، وهم المكلّفُون مِنَ الملائكة أَنْ يَكُونُوا عِنْدَ أبْوابِ جَهَنَّمَ حُرّاساً، ورُبَّما يَتَوَلَّوْنَ تَعْذِيبَ مَنْ يُؤْمَرون بِتَعْذِيبِهِ، ورَئِيسُ خَزَنَةِ جَهنَّمُ «مَالِكُ» عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿.. أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ..﴾؟.

أي: وَقَالَ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِلمَسُوقِين إلَىٰ إلْقَائِهِمْ مِنْ أبوابها بِحَسَبِ جرائِمِهِمْ هٰذا الْقَول.

دلَّ هٰذا القول علَىٰ أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يُحكَمُ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ كَانُوا كافرينَ في الحياة الدُّنيا، وَمَاتُوا كَافِرِينَ، قَدْ تَبَلَّغُوا رِسَالَةَ رَسُولٍ مِنْهُمْ، مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرين.

وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيهِم السَّلام قَدْ كَانَ يَتْلُو عَلَىٰ أُمَّتِهِ آياتٍ مُنَزَّلَاتٍ من اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، أنْزِلَتْ عَلَيْهِ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ قَبْلِهِ، أو مُصَاحِبٍ لَهُ في حَيَاتِه.

وَدَلَّ علىٰ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ أَنْبَأَ أُمَّتَهُ بالآخِرَةِ وَيَوْم الدّين، وأطْمَعَهُمْ بجَنَّاتِ النعيم إذَا آمَنُوا واسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ رَبِّهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ وَأنْذَرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ في جَهَنَّمَ خالِدِين مُخَلَّدِين فيها، إذا رَفَضُوا أَنْ يَسْتَجيبوا لِدَعْوَةِ

رَبِّهِمْ الَّتي بَلَّغَهُمْ إيَّاها رَسُولُهُ. ويَوْمُهُمْ هـٰذا، هُوَ الْيَوْمُ الآخِرُ الَّذِي يَكُونُونَ يَوْمَئِذٍ فِيهِ.

• ﴿. . قَالُواْ بَلَىٰ . .﴾: أي: بَلَىٰ قَدْ أَتَتْنا رُسُلٌ مِنَّا، وَتَلَوْا عَلَيْنَا آيَاتِ رَبِّنَا، وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَ يَوْمِنَا هـٰذا، وَعَذَابَ رَبِّنَا فِي جَهَنَّمَ إذَا اسْتَكْبَرْنَا، وَكَذَّبْنَا، وَكَفَرْنَا، واتَّبَعْنَا أَهْوَاءَنا وشَهَوَاتِنَا وَغَرَّتْنَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا بِزِينَاتِها، وخَدَعَنَا شَيَاطِينُ الإنْسِ والجنّ بأبَاطِيلِهِمْ.

• ﴿. . وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: وَلَكِن اسْتَكْبَرْنَا، وَكَذَّبْنَا، وكَفَرْنَا، واتَّبَعْنَا أَهْوَاءَنَا وشَهَواتِنَا، وغَرَّتْنَا الْحَيَاةُ الدُّنيا بزينَاتِهَا، وَخَدَعَنَا شَيَاطِين الإنس والْجِنِّ بأبَاطِيلِهم، فَثَبَتَتْ عَلَيْنَا وتَحَقَّقَتْ كَلِمَةُ الْعَذَاب الرَّبانيّ السَّابِقَةُ بِعَذَابِ الْكَافِرِينَ في جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها، بِسَبَبِ كُفْرِنَا، وَتَحققَتْ وثَبَتَتْ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَافِرين.

• ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

أَيْ: يَقُولُ مَالِكٌ رَئِيسُ خَزَنَةِ دَارِ الْعَذَاب يَوْمَ الدِّين، أو هُوَ وَمَعَهُ سَائِرُ خَزَنَتِها يَتوَزَّعُونَ عَلَىٰ الزُّمَر، فَيَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِلزُّمْرَةِ المكلَّفِ أَنْ يُدْخِلَهَا مِنَ الْبَابِ الْمُعَيَّنِ أَنْ تَدْخُلَ مِنْه، أُدْخُلُوا جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها.

• ﴿فَبِئْسَ﴾: «بِئْسَ» فِعْلٌ لإنْشَاءِ الذَّمّ عَلَىٰ سبيلِ المبالغة.

• ﴿. . مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: هو فاعل «بِئْسَ» والمخْصُوصُ بالذّم محذوف تَقْدِيرُه: جَهَنَّم، والمعنىٰ: فبِئْسَ مَكَانُ إقَامَةِ المتكبِّرِينَ واسْتِقْرَارِهِمْ جَهَنَّمُ دَارُ عَذَاب الْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ المتكبِّرِينَ، الَّذِينَ تكَبَّرُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ الَّذِي يُمِدُّهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الإيمانِ بِهِ والإسْلَامِ له.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ حَدَثَ سَوْقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، إلَىٰ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِين:

• ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

دلَّ هـٰذا البيان علىٰ أَنَّ أهْلَ الجنَّةِ يُساقُونَ إلَيْها زُمَراً جماعاتٍ وَأفْواجاً، ويَظْهَرُ أَنَّ تَقْسِيمَهُمْ إلَىٰ زُمَر يُلاحَظُ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ وَدرَجاتُهُمْ واتِّبَاعُهُمْ لِرُسُلِهِمْ عَلَيهِم السَّلام، وَقَدْ يُلاحَظُ فيه تَعارُفُهُمْ في الدُّنيا وَقرابَاتُهُمْ.

ولكنّ سَوْقَ المتَّقِينَ أهْل الجنَّةِ يَكُونُ مَصْحُوباً بالتَّكْرِيم كَمَا يُكَرَّمُ ضُيوفُ الْقَوْمِ، بِخِلَافِ سَوْقِ أَهْلِ النَّارِ، فإنَّهُ يكُونُ مَصْحُوباً بالإهَانَةِ والإذْلَالِ، كَمَا يُساقُ الأسْرَىٰ والسُّجَناءُ إلَىٰ سُجُونِهِمْ وَأَمَاكِنِ تَعْذِيبهم.

• ﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ..﴾: أي: حتَّىٰ إذَا جاءُوها بالوصُولِ إلَىٰ أبْوابِهَا، اسْتُقْبِلُوا بالْحَفَاوَةِ والتَّكْرِيم مِنْ قِبَلِ طَوائِفَ مِنَ الملائِكَةِ عَلَيهِم السَّلام، وَرُبَما قُدِّمَتْ لَهُمْ كُؤُوسُ شَرابٍ وَثَمَراتٌ مِنْ ثَمَراتِ الْجَنَّة.

وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوابُ الْجَنَّةِ مِنْ قِبَلِ مُسْتَقْبِلِيهم، مُبالَغَةً في تَكْرِيمِهِمْ، بِخِلَافِ أهْلِ الْعَذَابِ الَّذِينَ تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوابُ النَّارِ فَتْحاً تِلْقَائِيّاً.

فالَّذِي أَرَاه أَنَّ الواو في عِبارَةِ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ عَطَفَتْ علىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بما ذكَرْتُ آنِفاً؛ لأَنَّ السَّوْقَ إلىٰ دَارِ النَّعِيم يَقْتَضِي التَّكْرِيمَ بِاسْتِقْبَالٍ سَارٍّ بَهِيجٍ قَبْلَ الدُّخول، وهـٰذا المطويُّ المحذُوفُ مِنَ اللَّفْظ هو جواب «إذَا»، بِخِلَافِ العبارَة الّتي سَبَقَتْ بِشَأْنِ أَهْلِ النار، فإنَّ جَوابَ «إذَا» فيها هو «فُتِحَتْ»، وهـٰذا الَّذِي جَعَلَ بَعْضِ المفسِّرِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الواو في ﴿وَفُتِحَتْ﴾ زَائِدَةٌ، وهُو غَلَط.

• ﴿.. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ وَعَلَىٰ رَأسِهِمْ رِضْوَان عَلَيهِ السَّلام بَعْد

فَتْح الأَبْوَابِ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ. هٰذِهِ الْعِبَارَةُ عِبَارَةُ تَحِيَّةٍ، مَعَ بِشَارَةٍ ودُعَاءٍ لَهُمْ بِالأَمْنِ الدَّائِم.

ولمعنىٰ الأمْنِ الدَّائم سمَّىٰ اللهُ عزّ وجلّ الجنَّةَ دَارَ السَّلام، كَمَا جاء في الآية (٢٥) من سورة (يونس/ ٥١ نزول). وجعل تحيَّةَ أهْلِ الجنة في الجنة: «سَلَام»، كما جاء في الآية (١٠) من سورة (يونس) أيضاً. ويَقُولُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة: «سَلَامٌ»، كما جاء في الآية (٥٨) من سورة (يس/ ٤١ نزول) إلىٰ غير هٰذِهِ مِنْ نصوص.

• ﴿طِبْتُمْ﴾: أي: زَكَوْتُم، وَطَهُرتُمْ، وَسَعِدْتُم بِمَا سَتُلَاقُونَ مِنْ نَعِيم.

• ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: أي: فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ، حَالَةَ كَوْنِكُمْ سَتَكُونُون خالِدِينَ فيها أبداً، مَا امْتَدَّتِ الأَزْمَان في الآباد.

• ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: فَدَخَلُوا الجنَّةَ مُعَزَّزِينَ مُكَرَّمِينَ، وَقَالُوا حِينَ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ أَرْضِهَا يَتَنَقَّلُونَ أَحْرَاراً، مُنَعَّمِينَ بِمَا فيها مِنْ وَسَائِلِ نَعِيمٍ عظيم جَسِيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: كُلُّ الثَّنَاءِ عَلَىٰ الله، إِذْ هُوَ مُسْتَحِقُّ الْحَمْدِ كُلِّهِ، الّذي أَوْفىٰ بِوَعْدِهِ الَّذي وَعَدَنا إِيَّاهُ، بأَنْ يُدْخِلَنَا جَنَّتَهُ خَالِدِينَ أَبداً، مُنَعَّمِينَ إِذَا آمَنَّا بِهِ وبِمَا أَتَانَا مِنْ عِنْدِه وأعْلَنَّا إِسْلَامَنَا لَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَرِيكاً، إِذْ كُنَّا نجتاز رِحْلَةَ امْتِحَانِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

يُقَالُ لغة: «صَدَقَ فُلَانٌ فُلاناً الْوَعْدَ» أي: أَوْفَىٰ به.

• ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾: أي: أرضَ الجنَّةِ، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ بَعْدَها، وهو قولُهم: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

الْمِيرَاثُ: هُوَ مَا يَمْلِكُهُ الخلفُ مِنْ سَلَفٍ دُونَ عِوَضٍ، وهُوَ يَشْمَلُ المادّيَّاتِ والمعنويات، فيُقال: «فُلَانٌ وَرِثَ الْمَالَ والْمَجْدَ عَنْ أبيهِ، وَوَرِثَهُ مِنْهُ» ويُقَال: «وَرِثَ فُلَانٌ أَبَاه».

وَلَمَّا كَانَ تَمْلِيكُ اللهِ الَّذِين اتَّقَوْا أَرْضَ الْجَنَّةِ عَطَاءً مِنْ فَضْلِهِ بالْوَعْدِ الْكَرِيم، وَلَمَّا كَانَتِ الْجَنَّةُ مِنَ السَّعَةِ بِحَالٍ تَسْتَوْعِبُ كُلَّ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ أُبْعِدُوا عَنْهَا لِكُفْرِهِمْ، عَلَىٰ مَقَادِير أَطْمَاعِهِمْ لَوْ آمَنُوا وأَسْلَمُوا واسْتَحَقُّوا دُخُولَهَا، كَانَ من المناسِبِ أَنْ يُعَبَّرَ عَنِ امْتِلَاكِ أَهْلِ الْجَنَّة أَرْضَ الْجَنَّةِ بأَنَّهُ مِيراثٌ، فَهُوَ تَمَلُّكٌ دُونَ مُقَابلٍ مَلَّكَهُمُ اللهُ إِيَّاه، وَفَاءً بِوَعْدِه الْكَرِيم، وَلأَنَّهُمْ وَرِثُوا فِيها مَا كَانَ قَدْ خُلِقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ، فِيمَا لَوْ كَانُوا آمَنُوا وَأَسْلَمُوا باختيارِهِمُ الْحُرّ.

• ﴿. . . نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ . .﴾: أي: نَنْزِلُ وَنُقِيمُ في المكان الّذِي نَشَاؤُهُ مِنَ الجنَّة، لَا يُنَازِعُنَا فيه مُنَازِع.

يُقَالُ لغة: «تبَوَّأَ الْمَكَانَ، وتبَوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وأَقَامَ بِهِ.

والْمَبَاءَة: الْمَنْزِل، وَيُقَالُ: «بَوَّأَهُ المكانَ» أي: أَنْزَلَهُ فِيهِ.

حَيْثُ: ظَرْفُ مَكَانٍ، مبنيٌّ علَىٰ الضمّ، وقَدْ تُفْتَحُ ثَاؤه، وقَدْ يَرِدُ للزَّمَان، وَالغالب أَنْ يكونَ في مَحَلِّ نَصْبٍ ظَرْفَ مكان. أي: نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنَّةِ مَكَاناً نَشَاءُ أَنْ نَتَبَوَّأه.

• ﴿. . فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾: «نِعْمَ» فِعْلٌ لإنْشَاءِ الْمَدْحِ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة. ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فاعل «نِعْمَ» والمخصُوصُ بالْمَدْحِ محذوف تَقْدِيره: الجنَّة.

هـٰذِهِ العبارَةُ جَاءَت في مُقَابلِ عبارَة ﴿. . فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وَهَلْ عبارة: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ تَصْدُرُ عَنْ الّذينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ

الجنَّة، أَوْ هِيَ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ أَثْنَىٰ اللهُ به عَلَىٰ الثواب العَظيم الَّذِي يَمْنَحُهُ لِلْعَامِلينَ بمَرَاضِيه، تَحْرِيضاً وَتَرغِيباً للمؤمِنِينَ في الدُّنيا، حَتَّىٰ يكُونُوا مِنَ المجتَهِدِينَ الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِي اللهَ مِنْهُمْ، لِيَنَالُوا الأَجْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيه، وهـٰذا الْفَهْمُ هُوَ الأَرْجَحُ فيما ظَهَرَ لي، واللهُ أَعْلَمُ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَةِ الأَخِيرَة مِنْ هـٰذا الدَّرْس، ومِنْ هـٰذِهِ السّورة:

• ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

أي: وَتَرَىٰ يا أَيُّها الرَّسُولُ وَيا كُلَّ راءٍ مُؤَهَّلٍ لِهـٰذا التَّشْرِيف الرَّبَّاني يَوْم الدِّينِ، الْمَلاَئِكَةَ مُحِيطِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْش، صُفُوفاً صُفُوفاً، بِحَسَبِ دَرَجاتِهِمْ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ إيَّاها، وَاللهُ أَعْلَمُ بالْمَسَافَةِ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا دَوائِرُ صُفُوفِهِم الكَثِيرَةِ، وَهُمْ طَوَال مُدَّةِ الْحَشْرِ والْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم قَائِلين: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَوْ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّنَا وَبِحَمْدِه، وَيَسْتَمِرُّونَ هَكَذَا ذَاكِرِينَ مُسَبِّحِينَ حَامِدِين، حَتَّىٰ يُنْهِيَ اللهُ قَضَاءَه بَيْنَ العباد، وَيُنْهِيَ إدْخَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْجَنَّة، وَإِدْخَالَ أَهْلِ النَّارِ النار.

وَإِنْهَاءُ كُلِّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بالْحَقِّ عَدْلاً أَوْ فَضْلاً.

• ﴿. . وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ . .﴾: أَيْ: وأُنْهِي قَضَاءُ اللهِ بَيْنَ الْعِبَادِ بالْحَقّ، حُكْماً وَتَنْفِيذاً.

• ﴿. . وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: وَبَعْدَ إنْهَاءِ كُلِّ ما سَبَقَ يَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ وَكُلُّ شُهُودِ هـٰذا الموْقِفِ من الرُّسُلِ والنبيّينَ عَلَيهِم السَّلام وغَيْرِهِمْ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

حافّين: أي: مُحِيطينَ وَمُلْتَفِينَ حَوْلَ العرْش.

وبهـٰذا انتهىٰ تدبّر الدّرس الثالث والعشرين وهو الدرسُ الأخير من دُروس سُورة (الزُّمَر).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِه ومَدَدِه وتَوْفيقه وفتحه.

(٢٨)
ملحق: مُستَخْرَجات بَلَاغِيَّة مِنْ سُورَةِ (الزُّمر)

في هـٰذِهِ السّورة اختياراتٌ بلاغيةٌ كَثِيرَةٌ، استَخْرَجْتُ مِنْها ما يلي:

أولاً: مِنَ الإيجاز

يوجد في السّورة مِنْ قسم الإيجاز بالحذْف، أمْثِلَةٌ مُتَعَدِّدَة، منها الأمْثِلَةُ التالية:

المثالُ الأوَّل: قول الله عزّ وجلّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ... ۝٣﴾:

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ قـائِـلِـيـنَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

المثال الثاني: قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ... ۝٩﴾:

أي: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا﴾ وَراكِـعـاً ﴿وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ كَمَنْ لَيْسَ كَذلِكَ بَلْ هُو مُعْرِضٌ عَنْ عبادة رَبِّهِ، أو هو مُقَصِّرٌ في نوافِلِ العبادات.

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾:

أي: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ: اللهُ يقولُ لَكُمْ: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟﴾ عِقَابَ ﴿رَبَّكُمْ﴾ بِفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَتَرْكَ ما نَهَاكُمْ بإلْزَام، وكُونوا أبْراراً بالتَّقَرُّب إلَيْهِ بنوافِلِ العبادات يَزِدْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وأَحْسِنُوا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ عَطايا ومِنَحٌ ﴿حَسَنَةٌ﴾، ومِنَ الْبِرِّ والإحْسَانِ الْهِجْرَةُ فِي سَبيلِ اللهِ، فالْهِجْرَةُ مُيَسَّرَةٌ لَكُمْ ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، وَاصْبِرُوا على مَتَاعِبِ الهجرَةِ وغيرها لِتَنالُوا الأجْرَ العظيم عِنْدَ رَبّكُم بِغَيْرِ حِسَاب إذْ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لرسوله محمد ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بأوَامِرَ وَتكاليفَ زَائِدَةٍ عَلَىٰ التَّكاليفِ الموجَّهَةِ لِسَائِرِ الْمُسْلِمينَ ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الخاتِمَةِ لِلأُمَم.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾:

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فَلَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْها وَلَا من الدَّعَاةِ إليها، خَشْيَةَ أَنْ يُفْتَنُوا بِها و﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ تَأَثُّراً بالدَّاعين إلى عبادتها، ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ﴾ أَيُّها الدَّاعي إلى رَبِّك **[عِبَادِ]** ي.

المثال السادس: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾:

أي: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الَّتِي سبَق بِبَتِّهَا تقدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ فِي قَانُونِ جزائِهِ لِعِبَادِه، أَتَمْلِكُ يَا مَنْ تُحِبُّهُ أَيّاً كُنْتَ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؟، إِنَّكَ مَهمَا كَانَ شَأْنُكَ لَا تُنْقِذُه، إذ الْحُكْمُ، والتنفيذُ للهِ وحْدَه.

المثال السابع: قوله اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسُوله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾:

أي: [**فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِـ**] نَجاةِ [**نَفْسِهِ**] وَسَعَادَتِهَا كَسَبَ خَيْراً، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ جانياً ﴿عَلَيْهَا﴾ شَقَاءً أَبَدِيّاً وَعَذَاباً أَلِيما.

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ لِأَنَّهُ قَضَىٰ أَنْ يُمِيتَها، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ لِأَنَّهُ قَضَىٰ أَنْ لا يُمِيتَها فَإِنَّهُ يَتَوَفَّاها ﴿فِى مَنَامِهَا﴾، [**فـ**] سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ الَّتِي لَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

المثال التاسع: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْن الظَّالِمينَ الكفرة يوم القيامة:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَبدا لَهُمْ «جَزاءُ» سَيِّئَاتِ ما كَسَبُوا وحَاق بهم «واقع» ما كانُوا «بالْوَعيد به في الدُّنيا» يَسْتَهْزِئون.

المثال العاشر: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ عباده المسرفين على أَنْفُسِهِم:

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

والآيتان (٥٧) و(٥٨).

أي: نُوجِّهُ لكُمْ هذا النداء الذي جاء في: ﴿يَٰعِبَادِىَ ... ﴿٥٣﴾﴾ «مَنْعَ» ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ .. ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ .... ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ ... ﴿٥٨﴾﴾.

المثال الحادي عشر: قول عَزَّ وَجَلَّ بشَأْن الْكَافِرِ الذي يَدَّعِي كاذباً يوم القيامة أَنَّهُ لَمْ يَتبَلَّغْ رِسَالَةَ رَسُولٍ:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: وإذا ادَّعَىٰ كَافِرٌ يوم القِيامَةِ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ وَمُبَشِّرٌ ومُنْذِرٌ، قال اللهُ لَهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ...﴾ الآية.

المثال الثاني عشر: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المتّقِينَ حِينَ يُسَاقُونَ يَوْمَ القِيامَةِ إِلىٰ الجنَّة مُكرَّمِين:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ اسْتُقْبِلُوا بِحَفَاوَةٍ وتَكْرِيمٍ عِنْدَ وصولهم إليها، ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بأيدِي مستقبلِيهِم زيادةً في تَكْرِيمِهِم والْحَفَاوَةِ بِهِمْ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ عِنْدَ دُخُولِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

ثانياً: من الكناية:

الكناية: هي اللّفظ المسْتعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحٍ بِهِ التَّخاطُبُ للدَّلالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنًى آخَرَ لَازِمٍ لَهُ، أَوْ مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الملابَسَة بِوَجْهٍ من الوجُوه.

وفي سورة (الزُّمَرِ) من الكِنَايَةِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا الأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ حُكْمِهِ بَيْنَ عبادِه يَوْمَ الدِّين:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾:

أي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يَوْمَ القيامَة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ويُجَازِيهم بِحَسَبِ أَحْكامِهِ فيهم بالثَّوابِ أَوْ بِالعقاب، وهُو لَا يَحْكُمُ بهِدَايَةِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْحُكْمَ لَهُ بالْهِدَايَة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

جاء التَّعْبِيرُ بِبَعْضِ العناصر الَّتي تَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ لِتَحْقِيقِ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّاني، وفي هـٰذا المذْكُور في الآيةِ كِنَايَةٌ عَنْ سَائِرِ العناصر لِمُصَاحَبَتِهِ لها.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للنَّاس:

﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾:

جاء في هذه الآيَةِ التعبير بِالرُّجوع إلى الله، وبإِنْبَاءِ الناس بما كانوا يَعْمَلُونَ في الحياةِ الدّنيا، ومِنْهُ أَعْمالُ قُلُوبِهِمْ ونُفُوسِهِم الإرادِيَّة، كِنَايَةً عَنْ كُلِّ مَا يَتِمُّ به تَحْقِيقُ قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَانيّ يَوْم الدِّينِ، لِتَلَازُمِهَا وَمُصَاحَبَةِ بَعْضِها لِبَعْض.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾:

جاء في هذا النَّصِّ التعبير بعبارة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ . . .﴾ الآية، كِنايَةً عَنْ عبارة أُخرىٰ تتضَمَّنُ الدلالَةَ على ما يلي: إنَّكُمْ إذا عَبَدْتُم مِنْ دُونِ اللهِ شيئاً خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ، وجُوزِيتُمْ بعذاب شَدِيدٍ يَوْمَ الدّين عَلَىٰ شِرْكِكُمْ.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾:

جاءتْ عِبارَةُ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في هٰذِهِ الآيَةِ كِنايَةً عن الحسابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، يَوْمَ الدين.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾.

جاءت في هٰذِهِ الآيَة عبارة: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ لِإشْعَارِ المشْرِكينَ بأسْلُوب الكِنايَةِ، أَنَّ اللهَ سَوْفَ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القيامَةِ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ خُلُودٍ فِي عَذَابِ النَّارِ، وَيُنَفِّذُ فِيهِمْ أَحْكَامَهُ، وهذا الإشْعَارُ إِنْذَارٌ لَهُمْ.

المثال السادس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾:

في هذه الآيَةِ اسْتِفْهَامٌ تَوْبيخيٌّ للكافِرِينَ المتَكَبِّرينَ، وهُوَ كِنايَةٌ عَنْ عذابِهِمْ في جهنَّمَ، وإِنْذارِهِمْ بهذا العذاب.

ثالثاً: من خُرُوج الاستفهام عَنْ أصل دَلَالَتِه:

ذكر علماء المعاني أَنَّ الاستفهام قَدْ يَخْرُجُ عن أَصْلِ دَلَالَتِهِ وهي

طَلَبُ الإفهام، إلى مَعَانِي كثيرة أُخْرَىٰ تُفْهَمُ مِنَ القرائن.

ومِنْ أَمْثِلَةِ هَـٰذَا الخروج في السُّورَةِ مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿. . .أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾؟:

يدُلُّ الاسْتِفْهَام في هذه العبارة على الإخبارِ، والإنْذَارِ، مَعَ تَوْبيخ المتكَبِّرِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا علىٰ الله.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ، بشأن المشركين الذين كانُوا يَدْعُونَهُ إلىٰ عبادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنْ دُون الله:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟:

يُفْهَمُ مِنْ هذا الاسْتِفْهامِ الإنْكارُ بِشِدَّةٍ على هؤلَاءِ المشركين، مَعَ تَوْبيخِهِمْ عَلَىٰ حَمَاقَتِهِمْ، وَدَعْوَتِهِمْ، الَّتِي فيها سَفَاهَةٌ ومُكابَرَةٌ بالْبَاطِل.

رابعاً: من الْقَصْر:

ذكر علماء المعاني «الْقَصْر» وهو تَخْصِيصُ شيءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ومن أمْثِلَة الْقَصْرِ في سورة (الزُّمر) ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ . . . ﴿٣﴾﴾:

أي: ألَا للهِ وَحْدَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ مِنْ شَوَائِب الشِّرْكِ.

دَلَّ على القصر في هذه العبارة تَقْدِيمُ الخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ: ﴿ٱلدِّينَ﴾، وَهو قَصْرٌ حقيقيٌّ من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿. . .وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . . . ﴿٤١﴾﴾:

أي: وَمَنْ ضَلَّ فإنَّهُ لَا يَضِلُّ إلَّا جَانِياً علىٰ نَفْسِهِ وَجالباً لها عِقَاباً عِنْدَ رَبه.

دَلَّ علَى الْقَصْرِ أَدَاةُ «إنَّما»، وهو قَصْر حقيقي من قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصوف.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كَفَرُوا بآيات اللهِ هُمْ وَحْدَهم دُونَ غَيْرِهم أَكْثَرُ النَّاسِ خَسَارة؛ لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ بإراداتِهِم الحرَّة.

دلَّ على القَصْرِ في هذه العبارَة تَعْرِيف طَرَفي الإسناد، وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةِ الْأَخْسَرِيَّة على الَّذِين كَفَرُوا بآيات الله.

خامساً: من التوكيد:

المثالُ الأوّل: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٢﴾﴾:

جاء في هذه العبارة التوكيد بـ«إنَّ ـ والْجُمْلَة الاسمية»، ونَفْهَمُ من أحوال الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ على يَقِينٍ كامِلٍ بأنَّ اللهَ أنْزَلَ عَلَيْهِ الكتابَ مُتَّصفاً بالْحَقّ، فالمَقْصُودُونَ بالتوكِيدِ هُمُ الّذِينَ تَقْتَضِي أَحْوَالُهُمْ التَّوْكِيدَ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ جَاءَ الخطابُ مُوَجّهاً لِلرَّسُولِ ﷺ باعْتِبَارِه أَوَّلَ المتَلَقِّينَ عَنِ اللهِ.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ ... ﴿١١﴾﴾.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ ... ﴿١٣﴾﴾.

المقصُودُون بالتوكيد في هـٰذِينِ المثالَيْنِ الشَّاكُّونَ من المبَلَّغِين.

وجاء فيها التوكيد بـ«إنَّ ـ والجملة الاسمية».

وأقتصر على هذه المستخرجات من الاختيارات البلاغيَّة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحِهِ.

سورة غافر

وتُسَمَّى سورة (المؤمِن) وسورة (الطَّوْل)

٤٠ مصحف ٦٠ نزول

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

وقيل إلّا الآيتَيْنِ (٥٦ و٥٧) منها فهما مَدَنِيتان

وهي أولَى «الحواميم السبع»

(١)

نص السورة وَمَا فيها من فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى

---

١ ـ • سَكَتَ أبو جعفر على «حا» و«ميم» سَكْتَةً لطيفة بدون تنفُّس.

٥ ـ • قرأ يعقوب [عِقَابِي] في الوقف والوصْل.
وقرأها باقي القراء العشر: ﴿عِقَابِ﴾ في الوصْلِ والوقف أيضاً.

٦ ـ • قرأ نَافع، وابن عامر، وَأبو جعفر: [كَلِمَاتُ رَبِّكَ] بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإفراد ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٧ ـ • قرأ رُويس: [وَقِهُمْ عَذَابَ الْجَحِيم] بضم هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ هاء الضمير.

وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

٩ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو، وروح: [وَقِهِمِ السَّيِّئَاتِ] بكسر الهاء والميم من [وَقِهِمِ] في حَالة الوصل.

وقرأَها حَمْزَةُ، والكسائي، ورُيْس، وخَلَف: [وَقِهُمُ السَّيئَاتِ] بضم الهاء والميم في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة:

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ بكسر الهاء وضم الميم في الوصل.

أما في حالة الوقف فكُلُّ القراء على كَسْرِ الهاء وإسْكان الميم.

إلّا رُوَيْساً فَيقِفُ بِضَم الهاء وإسكان الميم.

وهي وُجوه من النطق في العربية.

١٣ ـ • وقرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [وَيُنْزِلُ] من فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَيُنَزِّلُ] من فعل «نَزَّلَ» المضعف.

والقراءتان متكافئتان، فالمهموز أخو المضعف.

لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت

---

١٥ ـ • قرأ ورْش، وابْن وَرْدان [يَوْمَ التَّلَاقِي يَوْمَ هُمْ] بإثبات يَاءِ «التلاقي» في الوصل.

وقرأها ابْنُ كثير، ويعقوب بإثبات ياء «التلاقي» في الوصل والوقف.

وحَذَف هـٰذِه الْيَاء باقي القراء العشرة في الْوَصْلِ والوقف، فَقَرَؤوها ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

٢٠ ـ • قرأ نافع، وهشام: [والَّذِينَ تَدْعُونَ] بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَالَّذِين يَدْعُونَ﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداءِ البياني.

٢١ ـ • قرأ ابن عامر: [أَشَدَّ مِنْكُمْ] بضمير المخاطَبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ بضمير الغائبين.

وبين القراءتين تَكامل في الأداء البياني، وفي قراءة ابْنِ عامر التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب.

٢١ ـ • قرأ ابن كثير: [مِنْ وَاقِي] في الوقفِ، و﴿مِنْ وَاقٍ﴾ في الوصل. =

تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ

= وقرأها باقي القراء العشرة: بحذف الياء في الوقف والْوَصْل.

٢٢ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَأْتِيهُمْ] بِضَمّ هاء الضمير، والباقون بكَسْرِها.

٢٢ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكان السِّين.
وقرأها باقِي القراء الْعَشَرَة: ﴿رُسُلُهُمْ﴾ بِضَمّ السّين.

٢٦ ـ • قرأ ابن كثير: [ذَرُونِيَ أَقْتُلْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياءِ المتكلّم.

٢٦ ـ و٣٠ ـ و٣٢ ـ• قرأ نافع، وابْنُ كَثِير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جعفر: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفَتْح ياء المتكلم.
وقرأ الثلاثة باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

٢٦ ـ • قرأ نَافع، وأبو عمْرو، وأَبُو جعفر: [وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ].
وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامِر: [وَأَنْ يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادُ].
وقَرأها شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادُ].
وقرأها حفص، ويعقوب: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. وفي هَـٰذِهِ القراءَاتِ تَكَامُلٌ يَدُلُّ على مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ فِي مَجَالِسَ لَهُ مَع مَلَئِهِ.

وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ

---

٢٩ و٣١ ـ • أبدل الهمزة من «بأس» ومن «دَأب» ألفاً السُّوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

٣٢ ـ • قرأ ورش، وابْن وردان [التَّنادِي] بإثبات الياء في الوصل.
وقرأها ابن كثيرٍ، ويَعْقُوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.
وحَذَف هذه الياء باقي القراء العشرة في الوصل والوقف.

٣٣ ـ • قرأ ابن كثير: [مِنْ هَادِي] في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ على التَّنْوِينِ في الوصل.

ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾

٣٥ ـ • قرأ أبو عمرو، وابن ذكْوان: [**عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بتنوين لفظ «قَلْبٍ».

وقرأها باقي القراء العَشَرة بكَسْرِ لفظ «قَلْبِ» دُونَ تَنْوين، وهو على الإضافَة إلى ما بَعْدَه.

وبين القراءتين تكامل في أداءِ المعنى المراد.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر، وابن عامر: ﴿**لَعَلِّيَ أَبْلُغُ**﴾ بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٧ ـ • قرأ حَفْص: ﴿**فَأَطَّلِعَ**﴾ بالنَّصْب بأنْ مضمرة، على اعتبار أَنَّ الفاء سببيَّة.

وقَرَأها باقي القراء العشرة: [**فأَطَّلِعُ**] بالرَّفع على أنَّ الفاء عاطفة.

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر: [**وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ**﴾.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، ففِرْعَوْنَ صَدَّ مَلأَهُ وقَوْمه عن السبيل. وهُو قد «صُدَّ» عَنِ السَّبِيل من قبَل الشيطان، وعَوامِل نَفْسِهِ الجامِحة الجانِحة.

٣٨ ـ • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: [**اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ**] بإثباتِ ياء المتكلّم وصلاً، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثيرٍ، ويعقوب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذفِ ياءِ المتكلم: ﴿**اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ**﴾ وصلاً ووقفاً.

يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾

٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وشُعْبة، وأبو جعفر، ويعقوب: **[يُدْخَلُونَ الجنَّةَ]** بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾** بالبناء للمعلوم.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: يُدْخِلُهُمُ اللهُ الجنَّة، فَيَدْخُلُونها هُمْ.

٤١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وَهِشام، وَأبو جعفر: **[مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرَةِ بإسْكَانِ يَاء المتكلم.

٤٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[وَأَنَا أَدْعُوكُمْ]** بإثْبَاتِ ألف «أنا» وتُمَدُّ للهمزة بعدها.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» من النُّطْق.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وَأبو جَعْفر: **[وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَىٰ اللهِ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ ياء المتكلّم.

فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾

٤٦ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبُو عمْرو، وابنُ عامِر، وشُعْبة: **[وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ٱدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ]** أي: يُقالُ لَهُمْ: ٱدخُلُوا يا آلَ فِرعَوْنَ.

وقرأها باقي القراءِ العَشَرةِ **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾** أي: يُقالُ لِمَلَائِكَةِ التَّعْذِيبِ بالنار: أَدْخِلُو آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ الْعَذاب.

فبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في الدَّلالَةِ على مَعْنَيَيْن مُرادَيْن.

٥٠ و٥١ ـ • قرأ أبو عمرو: **[رُسْلُكُمْ]** و**[رُسْلَنَا]** بإسْكانِ السين فيهما.

وقرأهما باقي القراء العشرة بضمّ السّين.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسائي، وخَلَف: **﴿لَا يَنْفَعُ﴾**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَا تَنْفَعُ]** بالتاء.

وهما وجْهانِ عَرَبيان جائزان.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

---

٥٨ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [يَتَذَكَّرُون] بياء الغائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

٦٠ ـ • قرأ ابن كثير: [ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلم.

٦٠ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وشعبةُ، وأبو جعفر، ورُويس: [سَيُدْخَلونَ جَهَنَّمَ] بالبناء لِمَا لم يُسَمَّ فَاعِلُه، أي: يأمُرُ اللهُ بإدْخالِهم جهَنَّم، فَتُدْخِلُهُمُ الملائِكَةُ المأمُورنَ بذلك.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ بالبناء لِلْمَعْلُوم.

وبَيْنَ القراءتين تَكامُلٌ، أي: يُدْخَلُونَ مُكْرَهِين، فَهُمْ يَدْخُلونها عاجِزِينَ عن المقاوِمَة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ

---

٦٧ - • قرأ ابن كثير، وابن ذَكوان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [شِيُوخاً] بِكَسْر الشِّين.

وقرأها باقي القراء الْعشرة ﴿شُيُوخاً﴾ بضَمِّ الشّين.

والقراءتانِ لُغتَان عَربيَّتَانِ.

٦٨ - • قرأ ابْنُ عَامر: [كُنْ فَيكُونَ] بنصب «يكون» بأنْ مضمرة، عَلَىٰ أنّ الفاء سببيَّة. =

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ
أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ
أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ
يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾
مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ
شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾
ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ
﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي
نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا
مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ
عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بِرَفع «يكونُ» علىٰ أنّ الفاء عَاطفة غير سببيَّة، أي: فَهُو يكون.

٧٠ ـ • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلَنَا] بإسكان السّين.
وَقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿رُسُلَنَا﴾ بضمّ السّين.
والقراءتان نطقان عَربيان.

٧٦ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: [فَبِيسَ] بإبدال الهمزة ياءً، وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾ بالهمزة دون إبدال.

٧٧ ـ • قرأ يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.
وقرأَهَا باقي القراء العشرة: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعله.
أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ بالْجَبْرِ فَهُمْ يَرْجعُونَ مُطَاوِعِين.

جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

٨٣ - • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكان السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿رُسُلُهُمْ﴾ بضمّ السِّين.
وهما نطقان عربيان.

٨٤ - و٨٥ -• أبْدَلَ السُّوسي، وأَبُو جَعْفَر الهمزَةَ مِنْ [بَأْسَنا] أَلِفاً فِي الْمَوْضِعَيْنِ.
وكذَلِكَ حمزةُ فِي الوقف، وَلَمْ يُبْدِلْهَا الباقون.

٨٥ - • وقف ابن كثير، وأبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب، بالهاء في لفظ ﴿سنت﴾.
ووقف باقي القراء العشرة بالتاءِ.

(٢)
ممّا ورَدَ بشأن سورة (غافر)

(١) رُوي عن أبي هُرَيرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ قَرأ حمَ المؤمن (غافر) إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وَآيَةَ الكُرْسِيّ حِينَ يُصْبِحُ، حُفِظَ بِهِمَا حَتَّىٰ يُمْسِي، وَمَنْ قَرَأَهُمَا حِينَ يُمْسِي حُفِظَ بهما حَتَّىٰ يُصْبِحَ».

(٢) ورُوي عَنْ أَنَسٍ قال: قال رسُول اللهِ ﷺ:

«الْحَوَامِيمُ دِيبَاجُ القرآنِ».

الحواميم: هي السُّور الْمَبْدُوءَةُ بـ(حمَ) وهي سبع سُور، مُرَتَّبَة في المصحف على وفق ترتيب نزولها: (غافر ـ فُصِّلَت ـ الشُّورى ـ الزُّخْرُف ـ الدُّخان ـ الجاثِية ـ الأَحْقَاف).

الدّيباج: نوع من الثياب، سَدَاهُ ولُحْمَتُهُ حَرِير، أي: هـٰذِهِ السُّور نفيسَةٌ ليّنَةٌ نَاعِمَة، كالديباج بَيْنَ الثياب، وذوات زينة.

وجاءت تَسْمِيَةُ هـٰذِهِ السُّورِ السَّبْعِ: «آلَ حَم» كأَنَّها مِنْ عائِلَةٍ شَرِيفَةٍ واحِدَة.

(٣)
موضوع سورة (غافر = المؤمن)

ظَهَر لي أنَّ موضُوعَ هـٰذِهِ السُّور يَدُور حَوْلَ مُعَالَجَةِ الَّذِين يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ وَبالحِيلِ الكَلَامِيَّة والمكابراتِ العِنَادِيّة، فِي آياتِ اللهِ الْبَيِّنَاتِ المنَزَّلَاتِ بالحَقِّ من العزير الحكيم، لِيُدْحِضُوا بجدالِهِمْ بالْبَاطِلِ الْحَقَّ المنَزَّلَ الَّذِي يُبَلِّغُهُ رُسُولُ ربِّهِمْ، مع تَوجِيهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ وَتَرْبِيَتِهِ فيما يتعَلَّقُ بِجدَليات الكافِرِين بالباطل، وبِشَأْنِ هـٰذا الموقف من مَوَاقفِهِمْ.

ومعالجتُهُمْ في مُعْظَمِها مُراوحَةٌ بَيْنَ الترغيب، والترهيب، وعَرْضِ لَقَطاتٍ مِنْ أحْوَالِ المجادِلِينَ بالباطلِ من الأُمَم السَّابقة، ومَا أنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ وَعَذَابٍ كَانَ بِهِ هَلَاكُهُمْ، ومَا أَعْتَدَ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ أبَدِيٍّ يَوْمَ القيامَةِ في الْجَحيم، دَار عذاب الكَفَرَة المجرمين، وَتَقْدِيم مَشَاهِدَ مِمَّا سَوْفَ يُلَاقِيهِ الكافِرُونَ يَوْمَ الدِّين.

وفي أثناء المعالَجَةِ بالتَّرْغيب والتَّرْهِيبِ إقْنَاعٌ بِعَرْضِ بَعْضِ آيَاتِ الله الكوْنيّة، الدّالّاتِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ لِكَوْنه، في الخلْقِ والرّزْق، وهـٰذِه الآياتُ الكَوْنيَّةُ تُلْزِمُ العقول بأنَّهُ لَا رَبَّ إلّا الله، فلا إلَه إلّا هو، وتُبيِّنُ لَهَا واجِبَ شُكْرِ اللهِ على نِعَمِهِ الكثيرة.

وفي السُّورَةِ تَوْكِيدُ قَضَاياً مِنْ أُصُولِ العقيدة الإيمانيّة في دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، والتَّنْبيهُ على قَضَايَا مُتَّصِلَةٍ بها، مَعَ بَيَانِ حكْمَةِ اللهِ في تَدْبيراتِهِ جلَّ جلالُه في طَائِفَةٍ من القضايا.

وفي السُّورَةِ ضَرْبُ مَثَلٍ تَارِيخيٍّ، فيه عَرْضُ مُوجَزٍ من قصَّةِ مُوسَىٰ عليه السلام، وإرسالِهِ رَسُولاً إلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وقَارُوْنَ، وفيه تَفْصِيْلٌ لدَعْوَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لِدِينِ اللهِ في داخِلِ القَصْرِ الفِرْعَوْني، وأَنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ مَكَرُوا للتَّخلُّصِ مِنْهُ، فأنْجَاهُ اللهُ وَوَقَاهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا.

إلَىٰ غير ذَلِكَ مِنْ قضايا مُنْبَثَّةٍ بِحِكْمَةٍ في السُّورَة.

(٤)
دروس سورة (غافر = المؤمن)

ظهر لي بالتأمُّل أَنْ أقَسِّمَ هـٰذِهِ السُّورةَ إلى (١٥) دَرْساً. وهي المفصَّلَاتُ فيما يأتي:

الدّرس الأول: الآيات من (١ ـ ٦).

وفِي هـٰذَا الدَّرْسِ مُقَدِّمَةٌ تتعَلَّقُ بالقرآن الكريم، وبِذِكْرِ بَعْضِ صفاتِ اللهِ وأسمائِهِ الَّتِي فيها تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ، وأنَّهُ لَا إلَٰهَ إلَّا هو، تَوطِئَةً لِبَيَانِ المحْوَرِ الَّذِي تَدُور حَوْلَهُ المعالجات في السُّورَة، وَهُو مُجادَلَةُ الْمُجادِلِين في آيات اللهِ البيانية المنَزَّلَاتِ على رسُوله، مَعَ الْبَدْءِ بِمُعَالَجَتِهِمْ في جَرْعَةٍ عِلَاجِيَّةٍ أُولى.

الدرس الثاني: الآيات من (٧ ـ ٩).

وفي آياتِ هذا الدَّرْسِ إطْمَاعٌ وَتَرْغيبٌ للّذِين يُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، بأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ سَخَّرَ حَمَلَةَ العرش مِنْ مَلائِكَته، وَمَنْ هُمْ حَوْلَ الْعَرْش، أَنْ يَسْتَغْفِروا للَّذِينَ آمَنُوا وَتَابُوا واتَّبَعُوا سبيل رَبّهم مِنَ الموضُوعين في الحياة الدنيا موضِعَ الامْتحان، ويَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَغْفِر لَهُمْ ويَقِيَهُمْ عَذَاب الجحيم، ويُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ، ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرّيَّاتِهم، وَأَنْ يَقِيَهُمُ السَّيِّئَاتِ.

الدرس الثالث: الآيات من (١٠ ـ ١٢).

وفي آياتِ هذا الدَّرْسِ تَقْدِيمُ مَشْهَدٍ مِن مَشَاهِدِ الّذِين كَفَرُوا وَهُمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الدِّين في النار، وفي هذا المشهد بيان حِوارٍ يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَزَنَةِ جهَنَّم، وبيانُ دُعائِهِمْ رَبَّهُمْ بأُسْلُوب اسْتِفْهَامِ المستجْدِي: هَلْ إلَىٰ خُروجٍ من دَارِ العذاب مِنْ سبيل؟. فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ مع بَيَان سَبَبِ رَفْضِ طَلَبِهِمْ.

الدرس الرابع: الآيات من (١٣ ـ ١٧).

وفي آيات هذا الدَّرس تذكيرٌ بآياتِ اللهِ في كونه بوجّهٍ عامّ، مَعَ تخْصِيصِ إنْزَالِ الرِّزْقِ من السَّماءِ، وأَمْرٌ للمُؤْمِنِين الَّذِينَ يُنِيبُونَ إلىٰ رَبِّهِمْ بأنْ يَدْعُوا اللهَ مُخْلِصين لَهُ الدِّينَ، ولو كَرِهَ الْكَافِرُونَ ذَلِكَ.

وفيها بيانُ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وَأَنَّهُ يُلْقِي مَا يُوحِي به علَىٰ

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِه، وهم أنبياؤه وَرُسُلُه، لِيُنْذِرَ مَا أَوْحَىٰ بِهِ، وَمَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ، النَّاسَ بعَذَاب اللهِ يَوْم الدين لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة.

وفِيهَا عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين، مع بَيَانِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَرَّتْ رِحْلَةَ الامْتِحانِ في الحياة الدُّنيا، تُجْزَىٰ يَوْمَ القيامَةِ بما كَسَبَتْ، دُونَ أَنْ تُظْلَمَ شيئاً، ومع بيان أن اللهَ سَرِيعُ الحساب.

الدرس الخامس: الآيات من (١٨ ـ ٢٠).

وفيها توجيهٌ للرَّسُول ﷺ، فلكُلِّ حَامِلِ رِسَالَة دَعْوَتِهِ أَنْ يُنْذِرَ الْمُعَالَجِينَ في السّورة وأمْثَالَهُمْ، عِقَابَ اللهِ يَوْم القيامَة، ويُبَيِّنَ لَهُمْ أَنّه يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ ومَا تُخْفِي الصُّدُور، وأَنَّهُ يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِه بالحقّ، وأَنَّ الَّذِين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شركاء لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، وأَنَّ اللهَ هُو وَحْدَهُ السّمِيعُ لِكُلِّ مَا يمكن أَنْ يُسْمع، الْبَصِير لِكُلّ مَا يمكِنُ أَنْ يُبصَر، من الكائنات.

وظاهر أنَّ هذا الدَّرْسَ تَعْلِيمٌ دَعَوِيّ قائِمٌ على الترهيب والإقناعِ بالحقّ.

الدرس السادس: الآيتَانِ: (٢١ و٢٢).

وفي هذا الدَّرْسِ تَذكِيرٌ بِعَاقِبَةِ الَّذِينَ كَفَروا مِنْ قَبْلِ المعَالَجِينَ في السُّورة، مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ تُوجَدُ آثار إِهْلاكِ اللهِ لَهُمْ فِي أماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ من الأَرْض، وكانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بالآيات البَيِّنَاتِ الَّتِي كانَتْ تأتِيهم بها رُسُلُ ربّهم، وكانوا يجادلُونَ فيها بالباطل، لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

الدرس السابع: الآيات من (٢٣ ـ ٤٦).

وفي هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَثَلٍ تَارِيخي يَتَضَمَّنُ فَصْلاً مِنْ فُصُولِ تاريخ فِرْعَوْنَ، إِذْ كَفَرَ هُو وآلُهُ وجنودُهم بما جاءهم به مُوسَىٰ علَيْهِ السَّلامُ مِنْ

آياتِ اللهِ، وسُلْطانٍ مُبينٍ كانَ بُرْهَاناً دَامغاً لَهُمْ، وَمَا كانَ مِنْهُم، وفي هٰذا الْفَصْلِ بَيَانٌ لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مُؤْمِنُ آلَ فرعون، ومَا نَصَحَهُمْ به، فَلَمَّا كَشَفَ عَنْ هُوِيَّتِه وأَبَانَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ، وَدَاعٍ مِنْ دُعَاةِ الحقّ دَبَّرُوا سِرّاً أَنْ يَقْتُلُوه ويتَخلَّصُوا مِنْه، فَوَقَاهُ اللهُ، وأَنْزَلَ بِفِرْعَوْن وآلِهِ وجُنودِهِ سُوءَ الْعَذَابِ وأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِين، وأبان اللهُ أَنَّهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّار عَرْضاً غُدُوّاً وعَشِيّاً، وأَنَّهُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةِ ويُقْضَىٰ عَلَيْهِم يُسَاقُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمُ ويُقْذَفُونَ فِيها، لِيُلاقُوا عَذَابَهُمُ الْأَبْدِيّ دَاخِلَها.

هذا مَثَلٌ تَاريخيٌّ يَتَّعِظُ بِهِ أُولُو الْأَلْبَابِ، وهو من العلاج بالتَّرْهِيب.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٧ ـ ٥٠).

وفي هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ من أَحْوَالِ المعذَّبين في النّار يَوْمَ الدِّين، وهو مَشْهَدٌ مُخِيفٌ لِأَهْلِ العقُولِ الواعِيَةِ، الّذِينَ لم تَنْطَمِسْ بصائِرُهُمْ بالأهواء، والشّهَواتِ، وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين، وحُبّ الْعَاجِلَةِ وَمَتَاعَاتِ الْأَنفس فيها.

الدرس التاسع: الآيات من (٥١ ـ ٥٥).

وفيه طَمْأَنَةٌ لِلرَّسُولِ وللمؤمنين مَعَه، بأنّ الله سَيَنْصُرُهم في الحياةِ الدُّنيا، وفي الآخِرَة، كما نَصَرَ مُوسَىٰ وبني إسرائيل على فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجنودِهِم.

وَفيه تَوجيه للرَّسُولِ بأَنْ يَصْبرَ ويَسْتَغْفِرَ، ويُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بالعشيِّ والإبكار، وهذا التوجيه يَنْسَحِبُ عَلَىٰ المؤمنين الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

الدرس العاشر: الآيات من (٥٦ ـ ٦٥).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ بيانٌ من اللهِ بشأنِ الّذِينَ يجادِلُون في آيات اللهِ بغير حُجَّةٍ يُعْذَرُون بها، وأنَّ الدافع لهم الكِبْرُ الَّذي وَرَّمَ صُدُورهم، فَحَجَبَهُمْ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ الحقّ الرَّبانية.

وفيها دَعْوَةُ المؤمِنِ إلى أَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ من الكِبْر ومن كُلّ مَا يَصُدُّ عن الإيمان، وعن سُلُوك سبيل الْهُدَى، وفيها إقناعٌ بأنّ الناس لَا يَلِيقُ بهم أَنْ يَسْتَكْبِرُوا، فخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِهِمْ.

وفيها بيانُ أنَّهُ لَا يَسْتَوِي الأعْمَىٰ والبصير، ولَا يَسْتَوِي الذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصالحات، ولا المسيءُ.

وفيها بيان أن السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا ريبَ فيها، وأنَّ الله رَبَّ العالَمِينَ قالَ: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، وأنَّهُ قال: إنَّ الذين يسْتَكْبِرُونَ عن عبادته سيدخلون جهَنَّم صَاغِرِين.

وفيها امْتِنَانٌ من اللهِ على عبادِهِ باللَّيلِ والنهار وبيانُ أنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. وفيها خطابُ اللهِ الناسَ بأنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ، وأنَّه لا إلَه إلَّا هو، فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ هَـٰذِهِ الحقِيقَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا كُلُّ شيءٍ في الكون؟!

كَذَلِكَ كَانَ يُصْرَفُ الجاحِدُون بآيَات اللهِ، فيَكْفُرُونَ، مِنْ كُلِّ أمَّةٍ سَلَفَتْ وفي كُلِّ عَصْر.

وفيها عَوْدٌ إلَىٰ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِه، والتَّذْكِيرِ بِبَعْضِ صِفَاتِه وأسمائه.

وخَتَمَ الله هذا الدرس بقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٦٦ ـ ٦٨).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ما يَقُولُهُ للنّاسِ في هـٰذِهِ المرْحَلَةِ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٦٩ ـ ٧٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرسِ عَوْدٌ إلَىٰ تَرْهِيب الّذِين يُجَادِلُون في آيَات اللهِ بالباطلِ ليُدْحِضُوا به الحق، بِشَيْءٍ مِمَّا سَوْفَ يُلاقُونَهُ من عَذَاب اللهِ يَوْمَ الدّين.

الدرس الثالث عشر: الآيتان (٧٧ و٧٨):

وفي هَاتين الآيتَيْن تَرْبِيَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله، بِشَأْن عِدَّةِ قضايا، وفيها إسْمَاعٌ لِلكَافِرِينَ وتَرْبِيَةٌ للمؤمنين:

(١) أَمْرُه بأنْ يَصْبِر، إذْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ.

(٢) إشْعَارٌ بأنَّ اللهَ سَيُرِيهِ في الدُّنْيا بَعْضَ الّذِي يَعِدُ المجادِلِينَ في آياته مِنْ عِقَاب، وأمَّا عذابُهُمُ الأَكْبَرُ فَسَوْفَ يكونُ يوم القيامة.

(٣) تَذْكِيرُهُ بما لَاقَىٰ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أُمَمِهِمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وَأذىً، وكيْفَ صَبَرُوا، وكَيْفَ نَصَرَهُمُ الله، في آخرِ الأمر.

(٤) كَفُّهُ عَنْ تَشَوُّفِ نَفْسِهِ لِأَنْ يُجْرِيَ اللهُ الآياتِ الخوارق، طَمَعاً في إيمان قَوْمِهِ وإسلامِهِمْ.

الدَّرس الرابع عشر: الآيات من(٧٩ ـ ٨١).

وفيها عَوْدٌ إلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، وَمِنَنِهِ على الناس، ومنها مِنَّةُ اللهِ علَىٰ الناس بالأنْعَام.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٨٢ ـ ٨٥) آخر السورة.

وفيها تَلْويمٌ للمكذّبين الكافرين، الَّذِين يجادِلُونَ في آيات اللهِ بالْباطل، إذْ لم يَتَّعِظُوا بمَا شَاهَدُوا في مَوَاطِنَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْض، آثَار المُهْلكِينَ السَّابقين، الَّذِين كَفَرُوا بمَا جاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، وفَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْم يَنْتَفِعُونَ به فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا قَوابِلَ تَعْذِيبهم وَإهلاكِهِمْ آمَنُوا فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ حِينَئِذٍ إيمانِهم وأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذابُ الّذي كَانوا بأنبائِهِ الَّتِي أَنْذَرهُمْ بِهَا رُسُلُ رَبِّهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ، وأَهْلَكَهُمُ اللهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ في عبادِه الأوّلِينَ والآخِرِين.

(٥)
التدبر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (غافر) وهو الآيات من (١ ـ ٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على «حَا» و«مِيم» سَكْتَةً لطيفةً بدُون تنفس.

(٥) • قرأ يعقوب: **[عِقَابِي]** في الوقف والوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿**عِقَابِ**﴾ بحَذْفِ يَاء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٦) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿**كَلِمَتُ رَبِّكَ**﴾ بالإفراد.

ومُؤَدَىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ واحد.

تمهيد:

في هذا الدّرْس مقدمةٌ تتعَلّقُ بالقرآن الكريم المشتمل على آيات اللهِ البيانِيَّة، وبذكر بعض صفاتِ اللهِ وأسْمَائِهِ الحسنىٰ، الَّتي فيها تَرْغيب

وَتَرْهِيب، وَأَنَّهُ لَا إِلَه إِلّا هو، وفيهِ تَوْطِئَةٌ لبيانِ المِحْوَرِ الذي تَدُور حَوْلَهُ المعالجات في السورة، وهُو مَا لجأ إِلَيه المكذِّبُونَ من المِحْوَرِ الذي تَدُور حَوْلَهُ المعالجات في السورة، وهُو مَا لجأ إِليّه المُكذِّبُونَ من المجادلة بالباطِلِ في آيات اللهِ المنزَّلاتِ على رسُولِهِ، مع الْبَدْءِ بمعالجتِهِمْ فِي جَرْعَةٍ عِلَاجِيَّةٍ أولَىٰ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ حرفان من الحروف المقطّعة الواردة فِي أوائلِ بَعْضِ سُورِ القرآنِ المجيد، وقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها لَدَىٰ تَدَبُّرِ أول سورة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

• ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾:

سَبَقَ في أول سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول) نظير هذه الآيَةِ إلَّا أَنَّهُ جَاءَ فِيها اسْمُ اللهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بَدَلَ اسْمِ اللهِ ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ هُنَا في سورة (غافر). ونَسْتَفِيدُ مِنَ الآيَتَيْنِ أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْحَكِيمِ الْعَلِيم، فهو بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شَيْءٍ، يختار أحْكَمَ بَيَانٍ لِكِتَابِهِ المجيد، خَاتِمَةِ كُتُبِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِين، وَإِنْزَالِهِ عَلَىٰ خَاتَم أنبيائِهِ وَرُسُلِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبد اللهِ.

﴿تَنزِيلُ﴾: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهو مكافِئُ «أنْزَلَ إِنْزَالاً».

إِنَّه لمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هو الْعَليّ الأعْلَىٰ كانَ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ، تَنْزِيلاً وَإِنْزَالاً مِنْ عَلُوّه إلىٰ ما هُوَ دُونَه، وإِلَىٰ مَنْ هُمْ دُونه، وَكُلُّ أكْوَانِه كذَلِكَ سَوَاءٌ أكانَتْ أحْيَاءً أَمْ غَيْرَ أحياء.

• ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مَا يُنَزِّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ بَيَانٍ كَلَامِي يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ كِتَاباً، لِلدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ عَلَىٰ الرَّسُول وَعَلَىٰ المؤمنين أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَابٍ مَصُونٍ، مَحْفُوظٍ من التحريف، والتَّغْيير، والتبديل، والزِّيَادَةِ، والنقْص، وتَابَعَ تَعْرِيفَه بـ(ال) الْعَهْدِيَّة، فصَارَ يُعْرَفُ بلفظ «الكِتَاب» وهذا اللفظ أَحَدُ الْعُنْوانَاتِ الّتي يُعْرَفُ بها الْبَيَانُ الْقَوْلِيُّ الرَّبَّاني الذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على رَسُولِهِ محمد ﷺ، قَبْلَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، وبَعْدَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، إِذْ هُوَ في الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ مُهَيَّأٌ إِنْزَالُهُ كُلَّهُ، بِأُسْلُوبِ التَّنْجِيمِ والتَّفْرِيق، مُنْذُ بَدْءِ إِنْزَالِ «اقْرأْ» حَتَّىٰ آخِرِ حَرْفٍ أُنْزِلَ مِنْهُ.

ولفظ «كتاب» هو في الأَصْلِ مصدر «كتب» وقد يُطْلَقُ على المكتُوب، منْ إطلاقِ المصدر على اسْمِ المفعول.

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مُضَافٌ وَمُضَافُ إليه.

• ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾: خَبَرُ «تَنْزِيلُ الكِتَاب».

الْعَزِيز: أي: القوي الغالِب الَّذِي لَا يُغْلَبُ، ولَا تُكَافِئُ قُوَّتَهُ قُوَّة، ولَا قُدْرَتَهُ قُدْرَة.

الْعَلِيم: صيغَةُ مُبَالَغَة لاسْمِ الفاعل «عَالم» وَمعنى «الْعَليم» بالنّسْبَةِ إلى الله، الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَمَ عِلْماً، حَتَّىٰ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ظَاهِرِه وبَاطِنِه.

• ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: أي: سَاتِرِ كُلِّ ذَنْبٍ يُذْنِبُهُ عِبَادُهُ، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَيَلْزَمُ مِنْ سَتْر الَّذنْبِ عَدَمُ المؤَاخَذَةِ عَلَيْهِ. **غافر**: اسْم فاعل من فعل «غفر» وهو بمعنى «يَغْفِر».

والمْعنَىٰ: أَنَّ مِنْ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِذَا شَاءَ، وَمَشيئَتُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهَ، فَمَن اسْتَغْفَرَ اللهَ مُعْتَرِفاً بِذَنْبِهِ صَادِقاً فِي طَلَب المغفرةِ غَفَرَ اللهُ لَهُ، وهَـٰذِهِ الصِّفَةُ ذَاتُ اسْتِمْرَارٍ تَشْمَلُ الماضِيَ، والحاضِرَ، والمسْتَقْبَل.

• ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾: أي: وَيقْبَلُ الرُّجُوعَ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، بَعْدَ الابتِعَادِ عَنْهَا بالْمَعْصِية، عُطِفَتْ هـٰذِهِ العبارة بالواو لدفع توهُّمِ المطابقة بيْنَ غُفْرَانِه وقبول التوبة.

قابل: اسْمُ فاعل من فعل «قَبِلَ» وهو بمعنى «يَقْبَلُ».

التّوْبُ: الرُّجُوعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، يُقَال لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبَةً، ومَتَاباً، وَتَابَةً» أي: رَجَعَ إلى الطَّاعةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ. و«تَابَ اللهُ عَلَىٰ عَبْدِه» أي: قَبِلَ تَوْبَتَهُ، وأَرْجَعَ إِلَيْهِ مَا كَانَ حَجَبَ عَنْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ مَعْصِيَتِه.

وَفي ذِكْر عبارَة: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ إطْمَاعٌ لِلْعُصَاةِ المذنبين مِنْ كُلِّ دَرَكاتِ المعاصِي والذُّنوب حتَّىٰ أشَدِّ أنواع الكُفْرِ، بأنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، وَيَتُوبُوا إِلَيْهِ، لِيَغْفِرَ لَهُمْ، ويَقْبَلَ تَوبَتَهُمْ، وَيُرْجِعَ إِلَيْهِمْ ما كَانَ حَجَبَ عَنْهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ ذُنوبِهِمْ ومَعَاصِيهم.

• ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾: **العِقَابُ**: الجزاءُ عَلَىٰ الذّنب، يقال لغة: «عَاقَبَ فُلَاناً بِذَنْبِهِ، مُعَاقَبَةً، وَعِقَاباً» أي: جَزَاهُ سُوءاً بما فَعَلَ من ذنب.

والمرادُ بِشِدَّةِ الْعِقَابِ جَعْلُ الجزاء علَىٰ الذَّنْبِ مُكَافِئاً لمقدارِ الذَّنب، دون ارْتِخَاءٍ أَوْ تَهاوُنٍ أَو ضَعْفٍ.

ويُعَاقِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِقَاباً شَدِيداً إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ إِقَامَةَ كَمَالِ الْعَدْلِ، لكِنَّهُ قَد يَرْحَمُ فيخَفِّفُ بإِرَادَتِهِ مِنْ شِدَّةِ العقاب.

وفي ذِكْرِ هذا الْوَصْفِ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ من الوقوع في الذُّنُوب والْمَعَاصِي، وَإِثَارَةٌ لمخَاوِفِ ذَوِي الإِدْرَاكِ السَّلِيم، مِنَ الإصْرَار على ارْتكاب الذّنوب والآثام، ومَعْصِيَةِ اللهِ بفِعْلِ ما نَهَىٰ عَنْه نَهْيَ إلْزَام. وَتَرْكِ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ أَمْرَ إلْزَام.

• ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: أي: ذي الإنْعَام والتّفَضُّلِ بالْعَطاءِ، وذي الْغِنَىٰ والسَّعَة. فَهو الْغنِيُّ عَنْ كُلِّ شيء، والْغَنِيُّ الّذِي لَا تَنْفَدُ خَزَائِنه، وهُوَ الْجَوَادُ المتفَضِّلُ المنْعِمُ علىٰ عِبَادِهِ بِعَطَايَاه.

ويَأْتِي الطَّوْلُ بمعْنَىٰ الْقُدْرَة.

وفي ذِكْرِ هـٰذا الوصْفِ إطْمَاعٌ بالثّوابِ الجَزِيلِ العظيم للسَّاعِينَ في الْعَمَلِ بمراضِي اللهِ، والتّقَرُّبِ إلَيْهِ بالطَّاعَاتِ وَنَوَافِلِ العبادات، مع الخَشْيَةِ مِنْ قُدْرَتِهِ العظيمة.

• ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ إلّا هُوَ، إذْ لَا رَبَّ في الوجود غَيْرُه جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُه.

• ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: **الْمَصِيرُ**: اسْمُ المكان الّذِي يُصارُ إلَيْهِ طَيّباً كانَ أَمْ خَبِيثاً. **ومَصِيرُ الأمْر**: مُنْتَهَاهُ وَعَاقِبَتُهُ.

أي: إلَىٰ حُكْمِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَتَنْفِيذِ جزَائِهِ، وإلَىٰ المكانِ الّذِي يَقْضِي بِهِ يكُونُ مَصِيرُ العبادِ الموضُوعِينَ في الْحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾:

المجادَلَة: أصْلُ معناها في اللُّغَةِ المصارعَة، وأُطْلِقَتْ علَىٰ المخاصَمَة الكلامية، والمحاوَرَة على فِكْرَةٍ ما أو قضيَّةٍ ما، لإثباتِها أو نَفْيها، وهي تكون بالحقّ، وتكونُ بالباطل.

والمرادُ بِالْمُجَادَلَةِ فِي آيَاتِ الله هُنَا المخاصَمَةُ بالْبَاطِل، للإقْنَاع بأنَّها لَيْسَتْ حَقّاً، ولَيْسَتْ مُنَزَّلَةً مِنْ عند الله، والدِّفَاعِ عن المفْهُوماتِ المناقِضَةِ والمضَادَّةِ لِمَا جاء فيها مِنْ حقائق.

أي: مَا يجادِلُ فِي صِدْقِ آياتِ اللهِ، وصِحَّةِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ بيانُها

المحْكَمُ، إلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا كُفراً إرادِيّاً بالحقِّ، بَعْدَ أنْ ظَهَرَتْ لَهُمْ أدِلَّةُ كَوْنِهِ حَقّاً، فَسَتَرُوا إدْرَاكَهُمْ لَهَا بِجُحُودِهِمْ، ويُجَادِلُونَ لِسَتْرِهَا بِحِيَلِهِمْ وَزُخْرُفِ أَقْوالِهِم، ومَا يَصْطَنِعُونَهُ مِنْ أكاذِيبَ ومُفْتَرَيَاتٍ.

والكافِرُونَ بالحقِّ الرَّبَّانِيِّ يُبْطِلُ اللهُ سَعْيَهُمْ وأعْمَالَهُمْ الرَّامِيَةَ إلَىٰ إبْطَالِ الحقّ، ونَصْرِ بَاطِلِهِمْ عَلَيْه، ويَجْعَلُ عَاقِبَتَهُمْ ذُلّاً وهَزِيمَةً وانْكِسَاراً، وَخِزْياً وصَغَاراً، ويُحِقُّ اللهُ الحقَّ بكَلِمَاتِهِ ولَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وتَعْلُو في الأجواء رَايَتُهُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

● ﴿. . . فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾: أي: فَلَا يَخْدَعْكَ أيُّهَا المشاهِدُ لِأَحْوَالِ النَّاسِ إمْهَالُ اللهِ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، إذْ جعلَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ مُتَصَرِّفِين آمِنين في الْبِلَاد كما يشاءُون، إقامَةً وسَفَراً وكَسْباً وَمَتَاعَاتٍ، كَمَا يَتَصَرَّفُ غَيْرُهُمْ مِنَ النَّاسِ، دُون إنْزَالِ الْعِقَابِ عَلَيْهم، فَلَهُمْ سَاعَةٌ يَكُونُونَ فيها خَزَايَا نَادمين، بمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ، وعلى وَفْق سُنَّةِ إمْهَالِهِ لِعِبادِه لقَطْعِ كُلِّ أَعْذَارِهِم.

يقال لغة: «تَقَلَّبَ فِي الْأُمور» أي: تَصرَّفَ فيها كيف شاء. و«تَقَلَّبَ في الْبِلَاد» أي: تَنَقَّلَ فيها حُرّاً آمِناً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾:

سبَقَ في نجومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ إهْلَاكِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كُفَّارَ قَوْم نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وبَيَانُ إهلاك كُفَّارِ عَادٍ وَثَمُودَ، وقَوْمِ لُوطٍ، وقَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجُنُودِهِمْ، وغَيْرِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَقَدْ أَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِمْ عُنْوانَ «الأحزاب» في (١١) مَوْضِعاً مِنَ الْقُرْآنِ المجيد؛ لأنَّ المؤمِنينَ الصَّادِقِينَ حِزْبٌ وَاحِدٌ هو «حِزْبُ الله». أمَّا الكافِرُونَ فَلا يَجْمَعُهُمْ حِزْبٌ واحد، بَلْ هُمْ أحْزَابٌ مُتَعَدِّدُون.

الحزب: الجماعةُ مِنَ الناسِ الذينَ تَشاكَلَتْ مَبادِئُهُمْ وأهواؤهُمْ واتّفَقَتْ أعمالهم.

• ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾:

الْهَمُّ بالْعَمَل: رَغْبَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَمْ تَصِلْ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ الإِرَادَةِ الجازِمَة، المؤثِّرَةِ فِي التَّنْفِيذِ.

أي: وَهَمَّتْ كُلُّ أمَّةٍ كَافِرَةٍ بِتَدْبِيرِ أمْرٍ يَتَخلَّصُونَ بِهِ مِنْ رَسُولِهِمْ، وغَرَضُهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يَسْجُنُوهُ أو يُعَذِّبُوهُ، رَغْبَةً في أَنْ يَمْنَعُوهُ عَنْ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ الّتي كلَّفَهُ اللهُ أَنْ يُؤَدِّيهَا في الْقَوْمِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُ إليهم.

والمرادُ: فَصَبَر رُسُلُ رَبِّكَ السَّابقون، فاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ كَمَا صَبَرَ الرُّسُل، فَرَبُّكَ حَامِيكَ ونَاصِرُك.

• ﴿وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾:

أي: وَجَادَلُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِم، وَجَادَلُوا الَّذِينَ آمَنُوا بهم، بالْبَاطِلِ مِنْ الْأَقْوَالِ المزَخْرَفَةِ بالْحِيَلِ الْفِكْرِيَّةِ والزِّينَاتِ الكَلامِيَّة، لِيُزْلِقُوا الْحَقَّ فِي مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ والتَّلْبِيسَاتِ والتّدْلِيسَات، رَغْبَةً في أَنْ يُزِيلُوهُ عَنْ مَوَاقِعِ ثَبَاتِهِ في أذْهَان المؤمنين به.

الإدْحَاض: الإزْلَاق، يُقَالُ لُغَةً: «أَدْحَضَ فُلَانٌ فُلاناً» أي: دَفَعَهُ وَأَزْلَقَهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، إلى مَوْضِعٍ آخَرَ لَيْسَ هو له.

• ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: أي: فَقَبَضْتُ عَلَيْهِمْ قَبْض مُعَاقِب، فَعَذَّبْتهُمْ، وأَهْلَكْتُهُمْ، أغْرَقْتُ كُفَّارَ قَوْمِ نوحٍ، وعذَّبتُ وأَهْلَكْتُ كُفَّار عادٍ وثمود، ومن بَعْدهم.

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾:

أي: فَتَفكَّرْ أيُّها المتفكِّرُ، وَضَعْ في تَصَوُّرِكَ الحالَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا

عِقَابِي الشَّدِيدُ للأقْوَامِ المهْلَكِينَ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً مُسْتَأصِلاً، عَلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ بَعْضَ تَفْصِيلٍ لَهُ في سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيل.

ولَا تَقْتَرِحْ علىٰ رَبِّكَ تَدْبيراتٍ وَتَصَاريفَ فِي عِبَادِهِ على خِلَافِ حِكْمَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾: وفي القراءة الأخرى: **[كَلِمَاتُ رَبّك]**.

أي: وَكَذَلِكَ الْعِقَاب الَّذِي أَنْزَلَهُ رَبَّكَ بِكُفَّارِ الْقُرونِ السالفة، تَعْذيباً فإِهْلَاكاً سَاحِقاً مَاحِقاً، ثَبَتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الصادرَةُ بشَأْنِ جَزَاءِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، في بَيَانَاتٍ مِنَ الكلِمَاتِ مُفَصَّلَات، وَهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا وهُمْ كَافِرُونَ، أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ ومُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ فِيهم، وبَعْدَ إِدْخَالِهِمْ، دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ، فَهُمْ يَكُونُونَ يَوْمَ القيامَةِ أصْحَابَها الملازِمينَ لَهَا أبداً لَا يُفَارِقُونَها.

أَصْحَابُ النَّار: أي: مُلازِمُوها مُلازَمَةَ الصَّاحِبِ لِصَاحِبه.

أَصْحَاب: جمع «صَحْب» وَهٰذا جمع «صاحِب».

• **[حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَىٰ الَّذينَ كَفَرُوا]**: أي: ثَبَتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ السَّابِقَةُ الَّتي كانَتْ مُعَلَّقَةً، لَا تَثْبُتُ وَلَا تَتَحَقَّقُ حَتَّىٰ يَتَحقَّقَ شَرْطُهَا، وهُوَ اخْتِيَارُ الْعَبْدِ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّة.

إنَّ كَلِمَةَ اللهِ بأنَّ الَّذين كفروا أصْحَابُ النَّار، كَانَتْ كَلِمَةً مُعَلَّقَةً في حَلْقَةٍ مِنْ حَلقَاتِ قَانُونِ الْجزَاءِ، فَلَمَّا مَاتَ الْكَافِرُونَ عَلَىٰ كفرِهِمْ لَمْ يَسْتَغْفِرُوا وَلَمْ يَتُوبوا، حَقَّتْ وَثَبَتَتْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أصْحَابُ النَّارِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ بأَنْوَاعِ العذاب المقرَّرِ في خُطَّةِ الابتلاءِ والجزاء، الَّتِي سَبَقَتْ فَحَدَّدَتها كَلِمَاتُ اللهِ.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأول من دُروس سورة (غافر).

والحمد لله على معونتِهِ وَمَدَدِه وتَوْفِيقِه وفَتْحِهِ.

(٦)
التدبّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (غافر)
الآيات من (٧ ـ ٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

القراءات:

(٧) • قرأ رُوَيس: [**وَقِهُمْ عَذَابَ الْجَحِيم**] بِضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ بكَسْرِ هاء الضمير. وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

(٩) • قرأ أبو عمْرو، ورَوْح: [**وَقِهِمِ السَّيِّئَاتِ**] بِكَسْرِ الهاءِ والميم، في حالة الوصل.

وقرأها حمزة، والكِسَائي، ورُوَيْس، وخَلَف: [**وَقِهُمُ السّيِّئَاتِ**] بضَمّ الهاء والميم في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**﴾ بِكَسْرِ الهاء، وضَمِّ الميم في الوصل.

أمَّا في حالَةِ الوقف فكُلُّ القرَّاء على كَسْرِ الهاء وإسكان الميم، إلَّا رُويساً فَيَقِفُ بضَمِّ الهاء وإسكان الميم.

وهذه القراءات وُجُوهٌ من النُّطْقِ في اللِّسَانِ العربيّ.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْس إطْمَاعٌ وتَرْغيب للّذين يُؤْمِنُون وَيَسْتَغْفِرُونَ، بأنَّ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ سَخَّرَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَنْ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَتَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَ رَبِّهِمْ، مِنَ الموضوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحان، وَيَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وأَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الجحيم، وأنْ يُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِ عَدْن، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتهم، وَأَنْ يَقِيهُمُ السَّيِّئَاتِ.

التدبر التحليلي:

جاء في هٰذا الدرسِ بَيانٌ رَبَّانِيٌّ يُبَشِّرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ المؤْمِنين، بأنَّه جَعَلَ بِواسِعِ رَحْمَتِهِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ مِنَ الملائكَةِ وهُمْ كَثِيرُونَ جدّاً، يَسْتَغْفِرُونَ دَواماً بتَجَدُّدٍ للّذِينَ آمَنُوا مِنَ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

فَمِنْ عَمَلِ الْمَلَائِكَةِ حَمَلَةِ الْعَرش، وَمَنْ هُمْ حَوْل الْعَرْش، الّذي هُوَ جُزْءٌ مِنْ عِبادَاتِهِم المتكرِّرَةِ المتَجَدِّدَةِ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ مَا يلي:

(١) أَنَّهُمْ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي: يُنَزِّهُونَ اللهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، بعبارَة: «سُبْحَانَ اللهِ» ويَقْرِنُونَ بهذا التَّسْبِيحِ ثَنَاءَهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ بعبارة: «الْحَمْدُ للهِ».

فالمعْنىٰ: يُسَبِّحُونَ رَبَّهُمْ تَسْبِيحاً مُقتَرِناً بِحَمْدِه، وهو مَا جاء في التعليم الدِّينيّ في الإسلام: «سُبْحَانَ اللهِ والْحَمْدُ للهِ» و«وسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ».

وَجاء استعمالُ الفِعْل المضارِعِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ للدَّلَالَة عَلَىٰ عَمَلِهِمْ المتَجَدِّدِ المتكرِّرِ في هٰذا التَّسْبِيحِ.

(٢) ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: أي: ويُحْيُونَ فِي نُفُوسِهِمْ بتَكْرِيرٍ وتَجْدِيدٍ تَصَوُّرَاتِهِمُ الْإيمانِيّة، ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هَـٰذِهِ العبارة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِم بِتَكْرَارٍ وتَجَدُّدٍ: «رَبَّنَا آمَنَّا بِكَ».

(٣) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وَيَسْأَلُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِتَكْرِيرٍ وتجدِيدٍ أَنْ يَغْفِرَ للَّذِينَ آمَنُوا قائِلين في دُعَائِهِمْ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾:

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هـٰذا الدُّعَاءُ قَدْ تَلَقَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ تَعْلِيماً مِنْ رَبِّهِمْ، لِيَكُونَ مِنْ وَظَائِفِهِمُ التَّعَبُّدِيَّةِ الَّتِي يَعْبُدُونَ اللهَ بها وهُمْ سُعَدَاءُ في عِبَادَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، فَهِيَ مِنْ أعْمَالِهِمْ المتكرِّرة الَّتِي يَعْمَلُونَها، كَمَا نَتَنَفَّسُ نَحْنُ فِي الْحَيَاةِ أَنْفَاسَنَا سُعَدَاءَ بها.

• ﴿..رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ..﴾: دُعَاءٌ حُذِفَتْ مِنْهُ أَدَاةُ النِّدَاء، وهو الأكْمَلُ في دُعَاءِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ لِأَنَّهُ أقْرَبُ إِلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ أقْرَبِ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ، فَهُو لَا يَحْتَاجُ أَدَاةَ نِدَاء.

وقَدْ بَدَأَ دُعَاءُ المـلائِكَةِ بالثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بأَنَّهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً.

أَمَّا كَوْنُهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً فَهُو ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ مَوْجُودٍ واجِبِ الْوُجودِ أَوْ مُمْكِنِ الْوُجُودِ، وَمَا مِنْ مَعْدُوم مُسْتَحِيلِ الْوُجُودِ، أَوْ مُمْكِنِ الْوُجودِ، إِلَّا هُوَ دَاخِلٌ فِي عِلْمِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ وَسَمَتْ إِلىٰ الْغَايَاتِ صِفَاتُهُ ـ وعِلْمُهُ تَعَالَىٰ مُحِيطٌ بِمَا كَانَ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، وبما سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُون.

وَأَمَّا كَوْنُهُ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً، فَمَعْنَاهُ فِي حُدُودِ مَدَارِكِنَا، أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ذِي حَاجَةٍ إِلَىٰ مِقْدَارٍ ما مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَكُلُّ ذِي إِحْسَاسٍ مَا بِحَاجَةٍ مَا يُمِدُّهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه، وهذا في الدُّنيا ظَاهِرٌ، وأمَّا في الآخرةِ فالمعَذَّبُونَ فَمَشْمُولُونَ بشيءٍ من رحمة الله، إِذْ مَا يَنَالُونَهُ مِنْ عذَابٍ أقلُّ مِمَّا يستحقون مِنْهُ، وأمَّا غيرهُم فهم مغمورون برحماتِ الله.

• ﴿.. فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ..﴾: أي: فَاغْفِرِ الذُّنُوبَ والمعاصِي مَغْفِرَةً تَسْتَتْبِعُ عَدَمَ المؤاخَذَةِ والْعِقَاب عَلَيْها، لِعِبَادِكَ الَّذِينَ تَابُوا رَاجِعِين إِلَىٰ الإيمانِ بِكَ، وإِلَىٰ طَاعَتِكَ، مِنْ كُفْرِهِمْ أَوْ مِنْ مَعَاصِيهِمْ الَّتِي هِي مِنْ دُونِ الكُفر، واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ، وهُوَ صِرَاطُكَ المسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَسْلُكُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنْيَا.

• ﴿... وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ أي: وَصُنْهُمْ وَاحْفَظْهُمْ مِنْ عَذَابِ الجحيم، بغفرانِكَ وعَفْوِكَ وَفَضْلِكَ، وبحِمَايَتِهِمْ من الوقُوعِ بِمُسَبِّبَاتِ عَذَابِ الجحيم.

الْجَحِيم: اسْمٌ من أَسْمَاءِ النّارِ دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمينَ والْعُصَاةِ يَوْمَ الدّين. وكُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

يقال لغة: «وَقَىٰ الشيءَ، يَقِيهِ، وَقْياً، وَوِقَايَةً، ووَاقِيَةً» أي: صانَهُ عَنِ الأذَىٰ، وحَمَاهُ.

• ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨﴾:

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾: أي: جَنَّاتِ ثَبَاتٍ واسْتِقْرَارٍ دَائم، وجَنَّاتُ عَدْنٍ في عُمُوم الجنَّةِ دَارِ نَعِيم المؤمنين، هي جَنَّاتٌ ذَواتُ دَرَجاتٍ مُرْتَفِعاتٍ، وَلَكِنْ فَوْقَهَا دَرَجَاتٌ أعْلَىٰ مِنْها هِيَ دَرَجَاتُ الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَىٰ، وَدُونَهَا فِي عُمُومِ

الجنَّةِ دَرَجاتٌ لِغَيْرِ السَّابِقِينَ بِفِعْلِ الخيرات، فجنَّاتُ عَدْنٍ جَنَّاتٌ مُتوَسِّطاتُ الارْتِفَاعِ في الدَّرَجات[1].

فالَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَ اللهِ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ، واسْتَقَامُوا في مَسِيرَتِهِمْ على صِرَاط اللهِ، يَسْتَحِقُّونَ بِفَضْلِ اللهِ الارْتِقَاءَ إِلَىٰ جَنَّاتِ عَدْن، فالْمَلَائِكَةُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، والملائِكَةُ مِنْ حَوْلِ الْعَرْش يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُدْخِلَهُمْ بِفَضْلِهِ جَنَّاتِ عَدْنٍ، وإكْرَاماً لَهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِأَنْ يُدْخِلَ مَعَهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، لِيأْنَسُوا بِأهْلِيهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحِقُّونَ دَرَجاتِ جَنَّاتِ عَدْنٍ بأعْمَالِهِم.

فَدَلَّ هَـٰذا على أَنَّ الْمُرَادَ بعبَارَةِ: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ مَنْ مَاتَ مُؤْمِناً مِنْ ذَوِي التَّقْوَىٰ بِدَرَجَةٍ لَا تُؤَهِّلُهُ لاسْتِحْقَاقِ دَرَجَةٍ من دَرَجاتِ جَنَّاتِ عَدْن، وَلَكِنْ قَدْ يَرْفَعُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى جَنَّاتِ عَدْنٍ، إكْرَاماً لِمُسْتَحِقِّيهَا مِنْ أَهْلِهِمْ لِيأْنَسُوا بِهِمْ.

ويُثْنِي الدَّاعُونَ مِنَ الْمَلَائِكَة على رَبِّهِمْ باسْمَيْنِ من أسمائِهِ الحُسنَى، هما الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، والتوكيد بـ«إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ وضَمِيرِ الْفَصْلِ» يُقْصَدُ بِهِ المبالَغَةُ فِي التَّعْبِير عَنْ مَشَاعِرِ الثناء، مَعَ إفَادَة الْقَصر، أي: إنَّكَ وَحْدَكَ الْعَزِيزُ الْكَامِلُ فِي صِفَةِ الْعِزَّةِ، وهي القوةُ الغالِبَة، الْحَكِيمُ الْكَامِلُ فِي الْحِكْمَة، وهي وضْعُ كُلِّ شيءٍ في الموضع الملائم له، فَهُمْ مَعَ الدُّعَاءِ بِمَا يَرْجُوْنَ، يُسَلِّمُونَ للهِ ويُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهَ لَا يُجْري في تَصارِيفِهِ إلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه.

• ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . .﴾: أي: وَصُنْهُمْ وَاحْفَظْهُمْ مِنَ المؤاخَذَةِ عَلَىٰ ما ارْتَكَبُوا مِنْ سَيِّئَاتٍ، لَمْ تُخْرِجْهُمْ عَنِ اتِّباعِ سَبِيلِكَ؛ لِأَنَّ

---

(١) انظر: الملحَقَ الثَّاني من مُلْحَقي تَدَبُّر سورة (مريم/ ٤٤ نزول): «جَنَّات عَدْنٍ ومُسْتَحِقُّوها» في أواخر المجلّد السّابع من هذا الكتاب.

ذَوِي الإرَادَاتِ الحرَّةِ والشَّهوَاتِ والأَهْوَاء خَطَّاءُون، وَأَنْتَ غَفُورٌ عَفُوٌّ كَرِيم.

• ﴿..وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ..﴾: أي: وَمَنْ لَمْ تُؤَاخِذْهُ يَوْمَ الدِّينِ، عَلَىٰ مَا ارْتَكَبَ مِنْ سَيِّئَاتٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا، فَقَدْ رَحِمْتَهُ بِفَضْلِكَ وَجُودِكَ وَإِحْسَانِكَ.

• ﴿...وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾: وَذَلِكَ الشَّيْءُ العظيمُ السَّامِي، وهُوَ عَفْوُكَ عَنْ سَيِّئَاتِ مُرْتَكِبِ المعاصِي، الَّذِي لَمْ تُخْرِجْهُ مَعَاصِيهِ خُرُوجاً كُلِّيّاً عَنِ اتّباعِ سَبِيلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ له.

الفَوْز: النَّجَاةُ مِنَ الشَّرّ، والرِّبْحُ، والظَّفَر، يُقَالُ لُغَةً: «فَازَ، يَفُوزُ، فَوْزاً، وَمَفَازاً، ومَفَازَةً».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (غافر).

والحمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وتَوْفيقه، وفتحه.

(٧)
التدبر التحليليّ للدّرس الثالث من دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٠ ـ ١٢)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ بيانِيٍّ تَرْهِيبيٍّ، من مَشَاهِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا وهُمْ يُعَذَّبُون فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّين، وهو من المعالَجَةِ بالترهِيبِ المثِيرِ لمَخَاوِفِ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ للاتِّعَاظِ بالْمُرْهِبَاتِ البيانيّة.

وفي هذا المشهد بَيَانُ حوار يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَزَنَةِ جَهَنَّم، وفيه بَيَانُ دُعَائِهِم بأُسْلُوبِ اسْتِفْهَامِ المسْتَجْدِي المتَذَلِّلِ: هَلْ إلىٰ خُروجٍ مِنْ دَارِ الْعَذَابِ مِنْ سَبِيلٍ؟.

ولَكِنْ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، فَقَدْ صَدَرَ قَضَاءُ اللهِ بِخُلُودِهِمْ في دَار الْعَذَابِ، بِكُفْرِهِمْ، الَّذِي لم يَكُنِ الدَّافعُ لَهُ إلَّا كِبْرُهُمْ، ورَفْضُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَبِّهِمْ الْمُمِدّ لَهُمْ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبِيَّته، وأنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ علَىٰ رَسُولِهِ من الحقِّ، ورفْضُهُمْ أَنْ يُعْلِنُوا إسْلَامَهُمْ لَهُ، وأَنَّهُ لَا إلَه يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إلَّا هو، جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

التدبّر التحليلي:

يُشَاهِدُ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مَا يُعَانِيهِ المعَذَّبُونَ فِيها عَذَاباً خَالداً بِسَبَبِ أَنَّهُمْ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرونَ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمْ رَبُّهُمْ إمْهَالاً طَوِيلاً في الحياة الدُّنيا لِيُؤْمِنُوا.

إنَّهُمْ فيما هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ يَمْقُتُونَ أَنْفُسَهُمْ مَقْتاً شَدِيداً، عَلَىٰ مَا خَتَمُوا بِهِ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدّنيا مِنْ كُفْرٍ، لَا دَاعِي لَهُ إلَّا الكِبْرُ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُنْذِرُوا بهذا الْعَذاب الذي هُم فيه، فَلَمْ يُصَدِّقوا بإنْذَاراتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم، ورُبَّمَا تَصْدُرُ عَنْهُمْ عِبَارَاتٌ يُعْلِنُونَ بِهَا مَقْتَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ.

المقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، يقال لغة: «مَقَتَ فُلَانٌ فُلَاناً، يمْقُتُهُ، مَقْتاً» أي: أَبْغَضَهُ أَشَدَّ الْبُغْضِ.

فَيُنَادِيهِمْ خَزَنَةُ جهَنَّم مِنَ الْمَلَائِكَةِ قائِلِينَ لَهُمْ فِي النِّدَاءِ مِن بَعيد:

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾:

أي: لَبُغْضُ اللهِ الشَّدِيدُ لَكُمْ، حِينَ كُنْتُمْ في الحياة الدُّنْيا تُدْعَوْنَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الّذِي بَلَّغَكُمْ إِيَّاهُ رُسُلُ رَبِّكُمْ، وَظَهَرَتْ لَكُم بَرَاهِينُ أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ رَبِّكُمْ الْمُمدّ لَكُم دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَكُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، أَكْبَرُ مِنْ مقتكَم أَنْفُسَكُمْ الآن وأنتم في العذاب نادِمُون متحَسِّرُون.

دَلَّ الْفِعْلُ المضارعُ في ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ وفي ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ عَلَىٰ تَكْرِيرِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الإيمَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا آناً فآناً، وتَكْرِيرِ مُقَابَلَةِ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ آناً فآناً.

وفي التَّعبير بالكُفْر مَعْنَىٰ سَترِ الحقِّ الَّذِي تبَلَّغُوه، وَسَتْرِ أدِلَّتِهِ وَبَرَاهِينِهِ بوسائِلِهم الإيهامِيَّة، وَحِيَلِهِمْ وَأَكاذِيبِهِمْ وافْتِرَاءَاتِهِم، وزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ.

وقَدْ دَلَّ هٰذا النّداء عَلَىٰ أنَّ مَا يُعَانُونَهُ مِنْ عَذَابٍ في جَهَنَّمَ أَقَلُّ مِمَّا يَسْتَحِقُّون علىٰ كُفرِهم العِنادِيِّ، إِذْ كَانَ مَقْتُ اللهِ لَهُمْ بِسَببِ كُفْرِهِمْ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ خَالِدُونَ فِي العذاب، ولَوْ جَازَاهُمُ اللهُ بِحَسَبِ مَقْتِهِ لَهُمْ، لكانَ عَذَابُهُمْ أَشَدَّ مِمَّا هُمْ فِيه، وهذا من واسِعِ رَحْمَتِه جلَّ جلالُهُ.

وَبَعْدَ أَنْ يَسْمَعَ المعذَّبُونَ في جَهَنَّمَ بسَبَبِ كُفْرِهِمْ هٰذا النداء مِنْ خَزَنَتِها، ويُدْرِكُوا مِنهُ أن اللهَ قَضَىٰ عَلَيْهِمْ بعَذَابٍ دُونَ مَا يَسْتَحِقُّون، يَتَجَدَّدُ طَمَعُهُمْ، بِأَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُمْ مُتَذَلِّلِينَ مُسْتَفْهِمِين:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾:

الْمَوْتُ يَكُونُ بانْعِدام اتِّصَالِ الرُّوحِ بالنَّفْسِ، وأَوَّلُ تَكْوِينٍ لِلنَّفْسِ

يَكُونُ بَعْدَ الْتِقَاءِ نَوَاةِ بُيَيْضَةِ الْأُنْثَىٰ بالْحُوَينِ القَادِمِ مِنْ نُطْفَةِ الذكر، وَيَنْمُو الجنينُ مئة وعِشْرِينَ يَوْماً في رَحِم أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ رُوحُ الحياةِ الْإِنْسَانِيَّة، فَهُوَ في هـٰذِهِ المَدَّةِ ذُو نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِهَا الرُّوحُ فَتَجْعَلَهَا إِنْسَاناً حَيّاً حَيَاةً إِنْسَانِيَة، فالنَّفْسُ في هـٰذِهِ المُدَّةِ تَكُونُ مَيِّتَةً، لَيْسَ لَهَا حَيَاةٌ إِنْسَانِيَّةٌ ذَاتُ رُوحٍ جَامِعَةٍ لِكُلِّ خَلَايَا الجنِينِ، وَهـٰذِهِ هِيَ الْمَوْتَهُ الْأُولَىٰ فِيمَا أَرَىٰ.

أَمَّا قَبْلَ انْعِقَادِ الجنِينِ فَالمادَّةُ الَّتِي يُخْلَقُ مِنْهَا بَدْءاً مِنَ التُّرَاب، مَادَّةٌ غَيْرُ ذَاتِ نَفْسٍ، فَلَا تُوصَفُ بأنَّها إِنْسَانٌ مَيِّتٌ، بِسَبَبِ عَدَمِ اتِّصَالِ الرُّوحِ بِهَا.

وَإِذَا قُلْنَا إِنَّ اسْتِخْرَاجَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، لِأَخْذِ اعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُمْ قَدْ كَانَ حَيَاةً، ثُم سُلِبَتْ مِنْهُمُ الحياةُ وأُعِيدُوا إِلَىٰ ظَهْرِهِ، فإنَّ هذا الْقَوْلَ يَلْزَمُ عَنْهُ وُجُودُ ثَلَاثِ حَيَواتٍ، لَا مُجَرَّدُ حَيَاتَيْنِ، وهذا يُخَالِفُ عبارَةَ: ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

والّذي لَا إِشْكَالَ فِيهِ هو مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عليَّ مِنْ فَهْم، فَالْجَنِينُ في ضِمْن مدَّة (١٢٠) يَوْماً ذُو نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ، ولكِنْ لَيْسَ لَهُ رُوحٌ تَجْعَلُهُ إِنْسَاناً حَيّاً، فَهُو في مَوْتَةٍ أُولَىٰ[1].

فَعبَارة أَهْلِ جَهَنَّمَ فِي دعائهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فيها مَعْنَىٰ الاسْتِعْطَافِ، والثَّنَاءِ علَىٰ اللهِ بعَظِيم قُدْرَتِهِ علىٰ الإحْيَاءِ والْإِمَاتَةِ، أي: فَأَمِتْنَا وَأَحْيِنَا حَيَاةَ امْتِحَانٍ أُخْرَىٰ، لِنُؤْمِنَ وَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَل، أَمَّا بالنِّسبَةِ إِلَىٰ مَا كَانَ مِنَّا في الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ الَّتِي كُنَّا فِيهَا مُمْتَحَنِينَ، فَقَدْ كُنَّا فِيهَا مُذْنِبِينَ نَسْتَحِقُّ هـٰذا العذابَ الَّذِي نَحْنُ فيه، وَأَمَّا الآن: ﴿.. فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ..﴾ وَأَقْرَرْنَا بأَنَّا كُنَّا فِي الحياةِ الدُّنْيَا مُرْتَكِبِي كَبَائِرِ الْإِثْم، وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْنَا مُدَّة نَحْنُ فِيها نُعَذَّبُ فِي جهنَّم ﴿.. فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ..﴾ مِنْ

(١) بَعْدَ أَنْ كتبتُ هذا رَأَيْتُ أنَّ بَعْضَ كِبَارِ المفسّرين ذَهَبَ إلى هذا الفهم الذي ظهر لي، والحمدُ للهِ على فتحه.

هـٰذا الْعَذَابِ الَّذي نَحْنُ فِيهِ ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾؟. اسْتِفْهَامٌ بِتَذَلُّلٍ وخُضُوعٍ يُرَادُ بِهِ طَلَبُهُمُ الْخُرُوجَ بأسْلُوبِ الْعَرْضِ الرَّفِيقِ الاسْتِفْهَامِيِّ.

وَيُفْهَمُ مِنْ طَلَبِ الْخُرُوجِ مَا أشْعَرَتْ بِهِ مُقَدِّمَةُ دُعَائِهِمْ، مِنْ رَغْبَتِهِمْ في إعَادَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي حياةٍ ثَالِثَةٍ بَعْدَ إمَاتَتِهِمْ، ثُمَّ إمَاتَتِهِمْ ثُمَّ بَعْثِهِمْ، فَهَذِهِ أُمُورٌ هيِّنَةٌ عَلَىٰ الرَّبِّ الَّذي أمَاتَهُمْ مَوْتَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَاهُمْ حَيَاتَيْنِ اثْنَتَيْن.

فَيُجَابُونَ بِرَفْضِ تَلْبِيَةِ طَلَبِهِمْ وَاسْتِعْطَافِهِمْ، وَقَدْ طُوِيَ فِي النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذا الرَّفْضِ، وَبُنِيَ عَلَىٰ المطويِّ قَوْلُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ لَهُمْ وَهُمُ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ كَرَّرُوا عَلَيْهِمُ النِّدَاءَ الَّذِي جاءَ بَيانُهُ في الآية (١٠):

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِىِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾:

أي: ذَلِكُمُ الرَّفْضُ الَّذِي تَضَمَّنَ عَدَمَ تَلْبِيَةِ طَلَبِكُمُ الخروجَ، واسْتِئنَافَ حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ، قَدْ كَانَ بِسَبَبِ أنَّ شَأْنَكُمْ، قَدْ كُنْتُمْ إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِه تُؤْمِنُوا، فالأَمرُ مُتَعَلِّقٌ بذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وحَقِّهِ عَلَيْكُمْ في تَوحِيدِ رُبُوبِيَّتِهِ وتوحيد إلَهِيَّتِهِ، فالحكُم في شأنِكُمْ للهِ الْعَلِيِّ الكبير، وهو الذي لَمْ يَسْتَجِبْ لِطَلَبِكُمْ في دُعَائِكُمْ.

وبهذا انتهى تدبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (غافر).

والحمد لله على معونتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

(٨)

التدبّر التحليليّ للدّرس الرابع من دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٣ ـ ١٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ

ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قَرَأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [وَيُنْزِلُ] مِنْ فعل: «أَنزَلَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ مِنْ فعل: «نَزَّلَ» المضعف.

والقراءتان مُتَكَافِئَتَان، فالفعل المهموز أخو الفِعْل المضعّف.

(١٥) • قرأ ورْشٌ، وابْن وَرْدَان: [يَوْمَ التَّلَاقِي يَوْمَ هُمْ] بإثْبَاتِ يَاء «التَّلاقي» في الوصل.

وأثْبَتَ هذه الياء في الوصْلِ والوقف ابْنُ كثير، ويَعْقُوب.

وحَذَفَ هٰذِهِ الياء بَاقي القرّاء العشرة في الوصْلِ والوقف، فَقَرَؤُوها ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ وهذا الحذف مِنَ الإيجاز في اللّفظ، وهو نُطْقٌ عَرَبيّ.

تَمْهِيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ تَذْكِيرٌ بآيَاتِ اللهِ في كوْنِهِ بِوَجْهٍ عامٍّ، مَعَ تَخْصِيص إنْزَالِ الرِّزْقِ مِنَ السَّمَاءِ بالذّكر.

وفيها أمْرٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنينَ الَّذِينَ يُنيبُونَ إلى رَبِّهِمْ، بِأَنْ يَدْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ.

وفِيها بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ يُلْقِي مَا يُوحِي على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه، وهُمْ أنبياءُ اللهِ وَرُسُله، لِيُنْذِرَ مَا أَوحَىٰ بِهِ، وَمَنْ أَوحِيَ

إلَيْه، النَّاسَ بِعَذَاب اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيّة.

وفيها عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَرَّتْ رِحْلَةَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، تُجْزَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا كَسَبَتْ دُونَ أَنْ تُظْلَمَ شَيْئاً، ومَعَ بيانِ أَنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَاب.

التَّدَبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُذَكِّرُ بآيَاتِهِ في كَوْنِهِ وبِبَعْضِ نِعَمِهِ علَىٰ عباده:

● ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يَعُودُ عَلَىٰ لَفْظِ الجلالَةِ في: ﴿..فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: اللهُ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ هُوَ الّذِي يُرِيكُمْ دواماً آيَاتِهِ في الظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّةِ المتَجدِّدَة، مِنْهَا خَلْقُ الْأَحْيَاءِ، وَمِنْها إنْبَاتُ النباتاتِ المخْتَلِفَات، وَمِنْهَا تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ وَتَسْخِيرُ السُّحُبِ بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، وَمِنْهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ والْقَمَرِ وغيابُهما، وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ والنهار، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ هِيَ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ.

﴿..وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ..﴾ وهـٰذا الـرِّزْقُ مـاءٌ يَـنْـزِلُ مِـن السُّحُبِ تَشْرَبُونَ مِنْهُ أَنْتُمْ وبَهَائِمكُمْ، وتَنْبُتُ بِهِ الزُّرُوعُ المختلِفَةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْها أنْواعُ الثَّمرات، الَّتِي فِيها رِزْقٌ لَكُمْ. ويَنْزِلُ من السَّمَاءِ أَيْضاً أشِعَّةُ الشَّمْسِ الَّتِي جعَلَ اللهُ بِهَا مَعَ الماء إنْباتَ الزُّرُوعِ وَإِخْرَاجَ الثمراتِ. وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ غُبَارٌ وعَنَاصِرُ كَثِيرَةٍ تُمِدُّ الأرضَ بِمَا تَحْتَاج إلَيْهِ لإنْبَاتِ الزُّرُوع، وكُلُّ هـٰذا مِنْ آياتِ اللهِ المتَجَدِّدَةِ في كَوْنه.

• ﴿..وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾:

أَصْلُ التَّذَكّر استحضارُ المعلومَةِ في الذّاكِرَةِ، بمعنى استِحْضَارِها فِي جهازِ التَّصَوُّرِ الحاضِرِ في الدِّماغ، والمرادُ بالتَّذَكُّرِ في الاستعمالَات القرآنيَّةِ الأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ المعلومَةِ الدِّينيَّةِ في الذَّاكِرَة، إذْ هو الدَّافع لِتَوجِيهِ الإرَادَةِ لِلسُّلُوكِ المطْلوبِ في الدِّين فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

وقد جَاءَ في القرآنِ بَيَانُ أَنَّ هَـٰذَا التَّذَكُّر مُنْحَصِرٌ في أُولِي الْأَلْبَابِ، وفي مَنْ يُنِيب.

أَمَّا أُولوا الْأَلباب: فهم أَصْحَابُ العقولِ الْحَصِيفَةِ النَّظِيفَةِ الخالِصَةِ من الشَّوَائب، الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ الَّتِي تَعْقِلُ المعَارِفَ فَتُمْسِكُ بها، وَتَعْقِلُ نُفُوسَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ.

وأَمَّا الَّذِينَ يُنِيبُونَ: فَهُمُ الَّذين يَرْجِعُون آناً فآناً إِلَىٰ رَبِّهِمْ، وَإِلَىٰ طَاعَتِهِ، وإِلَىٰ الاعْتِرَافِ بالْحَقِّ واتِّبَاعِ سَبِيلِ الْهُدَىٰ، كُلَّمَا انْحَرَفَتْ نُفُوسُهُمْ عَنْ سَوَاءِ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالخيْرِ والنَّجَاةِ والفلاح والسَّعَادَة.

وهـٰؤلَاءِ هم أُولُو الألْبَابِ، فَمَنْ لَدَيْهِمْ أَلْبَابٌ علَىٰ الوصْفِ الّذِي سبَقَ بَيَانُهُ، تُوَجِّهُهُمْ أَلْبَابُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا مُنِيبِينَ إلى رَبِّهِمْ وإِلَىٰ طاعَتِهِ آنا فآنا.

والرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ هُو رُجُوعٌ إِلَىٰ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الناسَ عليها.

ولمَّا كَانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطائِين، بَدوافِع أَهْوَائِهِمْ وشَهَواتِهم، كَانَ فُضَلَاءُ المؤمِنِينَ المتَّقِين والأبرار والمحسنين مُنِيبِينَ إِلَىٰ رَبِّهِم آناً فآناً، بالرُّجُوع إلى سَوَاءِ صِرَاطِهِ المستقيم.

يُقَالُ لغة: «أَنَابَ فُلانٌ إِلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رَجَعَ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً

بتَكْرار، **فالمنيب**: هُو ذُو الرُّجُوعِ إلىٰ اللهِ دَواماً بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وَفِكْرِه.

ومِنْ هذا نَفْهَمُ أنَّ مِنْ صِفَاتِ أُولِي الْأَلْبَابِ أَنَّهُمْ مُنِيبُونَ إلى رَبِّهِمْ وإلىٰ طاعَتِهِ آناً فآناً، ارْتِقَاءً فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بالصَّالِحَات، وَعَوْداً إِلَىٰ خَطِّ الاسْتِقَامَةِ كُلَّما انْحَرَفُوا عَنْهُ وَلَوْ قَلِيلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً لِلَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيَّة:

• ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: فاعْبُدوا اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، لَا تُشْرِكُونَ بِعبادَتِهِ شَيْئاً، وَمِنْ عِبادَةِ اللهِ أَنْ تَسْأَلُوهُ أَنْ يُحقِّقَ لَكُمْ مَطالِبَكُمْ لِدُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، وصَحَّ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّ هـٰذا رأسُ الْعِبَادَةِ وَأَحَدُ عَنَاصِرِها الْكُبْرَى، ومن عبادته أَنْ تَدْعُوا إلى اللهِ وإلى صراطِهِ المستقيم.

الدُّعَاء في اللُّغَة: النِّدَاءُ ورَفْعُ الصَّوْت، ويأتي بمَعْنَىٰ السُّؤالِ والطَّلب، واسْتُعْمِلَ الدُّعَاءُ في القرآنِ للدَّلالَةِ عَلَىٰ مُطْلَقِ العبادَةِ، ومن العبادة الدَّعْوَة إلى دين اللهِ، وتَبْليغُ مَا أَمَرَ اللهُ بتَبْلِيغِه.

وقد جاء في الآيَتَيْن (١٨) و(١٩) مِنْ سُورَةِ (الجنّ/ ٤٠ نزول) استِعْمَالُ الدُّعَاء بمعْنَىٰ العبادة، وَيَدْخُلُ في عبادَةِ اللهِ تَبْلِيغُ دِينِهِ، وتبلِيغُ آيَاتِ كِتَابِهِ المجيد، وشَرْحُ مَعَانيها، والإقْنَاعُ بما تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ حَقٍّ وَخيرٍ وهُدىً وفَضَائِل، وهذا التَّبْلِيغُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ وأَجَلّها، وهو وظيفة المرسلين الكبرى. ومن استعمال القرآن الدُّعاءَ بمعنىٰ العبادة: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ و﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ و﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تَعْبُدُون.

وتَدُلُّ عِبَارَة: ﴿.. وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ في الآيةِ هُنا عَلَىٰ أَنَّ المطْلُوبَ الْأَوَّلَ من عِبادَةِ اللهِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْها: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ..﴾ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ، وتَبْلِيغُ آياتِ كِتَابِهِ، وَبَيَانُ الحقِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذي جاءَ فيها.

إخْلَاصُ الدِّينِ للهِ: جَعْلُ أَعْمَالِ الدِّينِ خالِصَةً للهِ وحْدَهُ، مُنَقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاء ومِنْ شَوَائِبِهِما.

يُقَالُ لُغَةً: «أَخْلَصَ الشَّيْءَ» أي: صَفَّاهُ وَنَقَّاهُ مِنْ شَوَائِبِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ صِفَاتِهِ، وَبَعْضَ أَعْمَالِهِ المتَعلِّقَةِ بالدِّين:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾:

في هٰذِه الآيَاتِ بَيَانُ تِسْعِ قَضَايَا.

القَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ مُبَيّناً أنّهُ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ..﴾: أي: ذُو دَرَجاتٍ رَفِيعَاتٍ مِنْ الْكَمالَاتِ لَا تُدْرِكُ الخلائِقُ غَايَاتٍ لها، فَكُلَّما أَدْرَكَ وَاسِعُو الإِدْرَاكِ مِقْدَاراً ما مِنْها، وَجَدُوا أَنَّهم مَا زَالُوا في أجواءٍ سَحَابِيَّةٍ دُونَ سَمَاواتها.

أَوْ ذُو دَرَجَاتٍ رَفِيعَاتٍ مِمَّا خَلَقَ، يَرْفَعُ إِلَىٰ أَجْزَاءٍ مِنْها بَعْضَ عِبَادِه الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ بِفَضْلِهِ أَنْ يَرْفَعَهُمْ إِلَيْها، وهُمْ مُتَفَاضِلُونَ في الدَّرَجاتِ الَّتِي يَرْفَعُهُمْ إِلَيْهَا، وقَدْ جَاءَ في القرآن المجيد ما يَدُلُّ على الدَّرَجاتِ الَّتِي يَرْفَعُهُمْ إِلَيْها، وقَدْ جَاءَ في القرآن المجيد ما يَدُلُّ على الدَّرَجاتِ الَّتِي يَرْفَعُ اللهُ بَعْضَ عِبَادِهِ إِلَيْها، فمنها مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بِشَأْنِ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ الله:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (المجادِلَة/٥٨ مصحف/١٠٥ نزول):

﴿. . . يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

القضية الثّانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أنَّه: ﴿. . ذُو . . ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مَالِكُ الْعَرْشِ، فهو مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ مِنْ مَخْلُوقاتِهِ في كَوْنِهِ، وهو المتَصَرِّف فيه على ما يشاء، فَكَيْفَ حَالُ ما هو دون العرش.

الْعَرْش: مَخْلُوقٌ أعْظَمُ فَوْقَ السَّمَاواتِ السَّبْعِ وَمُحِيطٌ بِها.

ورُوي أنَّ السَّمَاوَاتِ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أَرْض فَلَاةٍ واسِعَة، والله أعلم.

القضيَّةُ الثالثة: دَل عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْوَحْي الَّذِي يُوحِي بِهِ إلَىٰ أنْبِيَائِهِ وَرُسُلِه: ﴿. . يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ . .﴾:

المرادُ بإلْقَاءِ الرُّوحِ هُنَا، الْوَحْيُ بقَضَايَا الدِّينِ، من عَقَائِدَ وشرائعَ، وأحْكَام وَوَصَايَا، وَتَعْلِيمَاتِ وَمَفْهُومَاتٍ، وَأَوامِرَ وَنَوَاهِيَ؛ لِأَنَّهَا لِلْقُلُوبِ والنُّفُوسِ، وَلِنَجاتِهَا وَسَعَادَتِهَا الْأَبَدِية بمَثَابَةِ الرُّوحِ لِحَيَاةِ الْأَجسَاد، وَيَدْخُلُ في عُمُومِ الرُّوحِ آيَاتُ الكِتَابِ المنَزَّل.

وكَمَا أَنَّ الرُّوحَ لحَيَاةِ الأجْسَادِ تَصْدُرُ مُبَاشَرَةً مِنْ أَمْرِ اللهِ، فالْوَحْيُ بقَضَايا الدِّينِ يَصْدُرُ مُبَاشَرَةً مِنْ أَمْرِ اللهِ للرُّسُل والأنْبِيَاءِ مُبَاشَرَةً، خِطَاباً مِنْ وَرَاءِ حِجَاب، أو إلْقَاءً في عُمْقِ الْقَلْب (= الرُّوع) أو بوسَاطَةِ إرْسَالِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وجِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ رَسُولُ الْوَحْي غَالباً.

• ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾: أي: يُلْقِي اللهُ هٰذا الرُّوحَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وهُمْ رُسُلُ اللهِ وأنْبِيَاؤُه غالباً.

• ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: أي: لِيُبَلِّغَ متلَقِّي هٰذا الرُّوحِ الرَّبَّانِيِّ، مَا أَمَرَهُ اللهُ بتَبْلِيغِهِ لِقَوْمِه، ولِيُبَشِّرَ مَنْ آمَنَ وَأطاعَ بِسَعَادَةٍ أبَدِيَّةٍ فِي جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدِّين، ولِيُنْذِرَ مَنْ كَفَرَ وعَصَىٰ، بِشَقاءٍ أَبَدِي في دار العذاب يَوْمَ الدِّين.

ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هٰذِهِ الْعِبَارَةِ يَوْمَ الدِّين، الّذِي هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بأنَّه يَوْمُ التَّلاقِي.

ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ وَصْفِهِ بأَنَّهُ يَوْمُ التَّلاقِي، أَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يَتلاقَىٰ فِيهِ النَّاسُ جَمِيعاً، بَدْءاً مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلام، حَتَّىٰ آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنَ النَّاس في الْأَرض، وَيَتَلاقَىٰ فيهِ الإنْسُ والْجِنُّ والملائِكَة، ويَلْزَمُ مِنْ هٰذا التَّلاقِي، أَنْ يُمْنَحَ الإنْسُ يَوْمَئِذٍ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ مُشَاهَدَةِ الْجِنِّ والْمَلائِكَةِ، والْإحَسَاسِ بِهِمْ بِمُخْتَلِفِ الْحَوَاسِّ، كَمَا يُحِسُّ الإنْسُ بِالْإِنْسِ في الحياة الدُّنيا.

• ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ ...﴾:

أي: يَوْمَ يَكُونُ المتَلاقُونَ في أَرْضِ المحْشَرِ بَارِزِين، أي: ظاهِرِينَ لَا سَاتِرَ يَسْتُرُ أَحَداً مِنْهُمْ، عَلَىٰ أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ بَرَازٍ.

الأرض الْبَرَاز: هي الأرض الْفَضَاء الواسِعَةُ الخالِيَةُ مِنَ الشَّجَرِ وَمِنْ كُلِّ سَاتِرٍ.

وعبارَة: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ للهِ دواماً في الدُّنْيا وفي الْآخِرَةِ، وَذُكِرَتْ هُنَا للدَّلالَةِ علَىٰ أَنَّهُ لا يُوجَدُ سَاتِرٌ يَسْتُرُ أحداً مِنَ الْمُتَلاقِينَ يَوْمَ الحَشْر، وَلَيْسَ المرادُ بيَانَ ظُهُورِهِمْ بَعْدَ خَفَاءٍ بالنِّسْبَةِ إلىٰ اللهِ، فاللهُ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ في كُلِّ مَكَانٍ وَفِي كُلِّ زَمَان، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ يَوْمِ التَّلَاقِي فِي الْمَحْشَرِ يَوْم القيامَة: ﴿. . لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾:

أي: يُنَادَىٰ يومَئذٍ بأَمْرِ اللهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فَيأْتِي الجوابُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمِنْ كُلِّ مَنْ يُشَارِكُهُمْ مِن المتَلَاقِينَ في الْمحشَرِ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾:

يَوْمَئِذٍ تُعْلِنُ الْخَلَائِقُ الْمُدْرِكَةُ جَمِيعُها اعْتَرافَها بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ ومُلْكِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وبأَنَّهُ الْقَهَّارُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِي كُلّ الْخَلَائِقِ بالْجَبْرِ والْقَهْرِ، إذْ تَكُون الْخَلائِقُ قَدْ سُلِبَتْ تَحرُّكَاتِهَا الاخْتِيَارِيَّة، الَّتِي كانت قَدْ مُنِحَتْها لابتلائِهَا.

الْقَهَّار: الغالِبُ الَّذِي لَا يَحُدُّ غَلَبَتَهُ شَيْءٌ، الْمُجْبِرُ على مَا يُرِيد، ولفظ «الْقَهَّار» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

القضيَّةُ الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾:

أي: اليومَ (وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ ـ يَوْمُ الْقِيامَةِ ـ يَوْمُ التَّلَاقِي) تُحَاسَبُ كُلُّ نَفْسٍ كَانَتْ في الحياة الدُّنْيا مُمْتَحَنَةً مُبْتَلَاةً، ويُفْصَلُ قَضَاءُ اللهِ بِشَأْنِها، وَتُجْزَىٰ بِمَا كَسَبَتْ بإرَادَتِهَا الحرَّةِ في رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فإنْ كانَتْ آمَنَتْ وَعَمِلَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ أُثِيبَتْ ثَوَاباً جَزِيلاً عَظِيماً دائماً في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَإِنْ كَانت قَدْ كَفَرَتْ وَعَصَتْ رَبَّهَا جُوزِيَتْ بما تَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابٍ عَادِلٍ في دَار الْعَذَاب النَّارِ.

وتتنَازَلُ الدَّرَكَاتُ في العقاب بَحَسبِ الجرائم والآثام، وتَرْتَقِي الدَّرَجَاتُ في الثواب بِحَسَبِ الطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ، وَفِعْلِ الصَّالِحَاتِ والْخَيْراتِ الْمُرْضِيَاتِ للهِ رَبّ العالمين.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾: أي:

لَا يُجْزَىٰ الْمُسِيءُ بأكْثَرَ مِنْ إسَاءَتِهِ وَلَوْ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَوْ مَا هُوَ أقَلُّ مِنْها، وَلَا يُجْزَىٰ الْمُحْسِنُ بأقَلَّ مِمَّا وَعَدَ اللهُ، مِنْ مُضَاعَفَةِ الأجْرِ إلَىٰ عَشْرَةِ أَضْعَافٍ إلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إلَىٰ أَضْعَافٍ كثيرة.

القضية السابعة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُ مَحْدُودِي التّفكِيرِ، أَنَّ مُحَاسَبَةَ الَّذِينَ كانُوا في الحياةِ الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضعَ الامْتِحَانِ، لِفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِم، من الإنْسِ والْجِنّ، قَدْ تَأْخُذُ وَقْتاً طَوِيلاً جِدّاً؛ لِأَنَّهُمْ يُحَاسَبُونَ أفراداً، إذْ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ حِسَابٌ خاصٌّ بِهِ مَلَائِمٌ لِخَصَائِصِ نَفْسِهِ، ولِمَا كَسَبَ باخْتِيَارِه الْحُرِّ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا، فَجاءَ بَيَانُ هـٰذِه الْقَضِيَّةِ دَافِعاً لِهٰذا التوهُّم.

إنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ الْمُحِيط بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً سَرِيعُ الْحِسَابِ، فَلَا يُظْلَمُ مُسِيءٌ وَلَا مُحْسِنٌ بِطُولِ انْتِظار.

إنَّ تَصَارِيف اللهِ مَعَ عِبَادِهِ تجري بِالْحقِّ، والْعَدْلِ، والْفَضْل، وكَمَالِ الْحِكْمَة.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (غافر).

والحَمْدُ للهِ على معونتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقه، وفَتحه.

(٩)
التّدبُّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس سورة (غافر)
الآيات من (١٨ ـ ٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

القراءات:

(٢٠) • قرأ نافع، وهشام: [والّذِينَ تَدْعُونَ] بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الْأَدَاء البياني.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرسِ توجيهٌ للرَّسُول ﷺ، فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَةِ دَعْوَتِهِ، أَنْ يُنْذِرَ المعالَجِينَ في السورة وأمْثَالَهُمْ، عَقَابَ اللهِ يَوْم القيامَة، وأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ، وأَنَّهُ يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِهِ بالْحَقِّ، وأنَّ الَّذِينَ يَعْبُدونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شُرَكاء لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، وأنَّ اللهَ هُو وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ مِنَ الْكائنات، الْبَصِيرُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُبْصَرَ مِنَ الْكائنات.

ولَا يَخْفَىٰ أَنَّ هذا الدَّرْسَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَعْلِيمٍ دَعَوِيٍّ قائمٍ علىٰ الترهِيبِ من عِقَاب اللهِ، والإقناعِ بالحقِّ.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لرسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ حَامل رسالَتِه من أُمَّتِهِ:

• ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

• ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾: أي: وَأعْلِمِ الَّذِين كَفَرُوا ولَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ الحقِّ.

الإنْذَارُ: الإعْلَام، والإخْبَارُ بعَوَاقِبَ غَيْرِ سَارَّةٍ، كَشَرٍ قادم، أو عُقُوبَةٍ علىٰ مُكْتَسَبٍ إرَاديٍّ مِنْ قولٍ وعَمَلٍ أو اعْتِقَاد.

يقالُ لُغَةً: «أَنْذَرَ فُلَانٌ فُلَاناً الشَّيْءَ» أَيْ: أَعْلَمَهُ بِهِ وخَوَّفَهُ مِنْه.

الآزِفَةُ: أي: الْقَرِيبَةُ، والمرادُ بِها «القِيَامَةُ» من الأجْدَاثِ يَوْمَ الْبَعْث، وَصَفَهَا اللهُ بأنَّهَا قَرِيبَةٌ لِأَنَّ الْمَوْتَىٰ يُلْغَىٰ الْحِسُّ بالزَّمَنِ مِنْ إدْرَاكِ نُفُوسِهِم، وَحِينَ البَعْثِ يتَصَوَّرُونَ أنَّهُمْ كَانُوا نَائِمِينَ نَوْمَةَ الضُّحَىٰ أَوْ نَوْمَةَ الْعَشِيّ، فالْمُدَّةُ الَّتِي قَضَوْهَا بَيْنَ المْوتِ والْبَعْثِ لَا تَزِيدُ فِي إحْسَاسِهِمْ علىٰ سَاعَاتِ الضُّحَىٰ، أَوْ سَاعَاتِ الْعَشِيّ، ولَوْ كَانُوا قَدْ ذاقُوا في هـٰذِهِ المدَّةِ عَذَاباً شَدِيداً فِي زَمَنٍ طَوِيل، فَالنَّائِمُ قَدْ يَرَىٰ فِي نَوْمِهِ أَحْداثاً كَثِيرَةً، وَقَدْ يُعَانِي فِي هَـٰذِهِ الأحْدَاثِ آلَاماً شَدِيدةً، وقَدْ يَشْعُرُ في نَوْمِهِ أَنَّ سِنِينَ عَدِيدَةً قَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ حِينَ يَصْحُو مِنْ نَوْمِهِ لَا يُقَدِّرُ زَمَنَ نَوْمِهِ بأكْثَرَ مِنْ عِدَّةِ سَاعَات.

فالقِيَامَةُ قَرِيبَةٌ في إحسَاسِ الْموتَىٰ مِن اللَّحْظَةِ الَّتِي فَارَقُوا فِيهَا الحياة، فهي إِذَنْ «آزِفَة».

يُقَالُ لغة: «أَزِفَ الوقْتُ، يَأْزَفُ، أَزَفاً، وأُزُوفاً» أي: دَنَا وقَرُب.

• ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: إنَّ الظَّالِمِينَ حِينَ يُبْعَثُونَ، وَيَقُومُونَ مِنَ الأجْدَاث، ويُدْرِكُونَ أنَّ هذا الْيَوْم هُو الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا بِهِ يُنْذَرُونَ، بآيَاتِ كتابِ اللهِ، أَوْ علىٰ ألْسِنَة رُسُلِ الله، أَوْ بَلَاغَاتِ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُل، يَشْتَدُّ خَوْفُهُمْ، وَذُعْرُهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُون، فَتَنْشَمِرُ قُلُوبُهُمْ مَشْدُودَةً إِلَىٰ الأَعْلَىٰ، حَتَّىٰ يُحِسُّوا أَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَىٰ حَنَاجِرِهِمْ، فَكَانَتْ بِمَثَابَةِ الْغُصَّةِ المؤْلِمَة.

الْحَنَاجِرُ: جَمْعُ «الْحَنْجَرَة» وهي الْحُلْقُومُ، ومَجْرَىٰ النَّفَسِ في الرَّقَبَة.

أي: حِينَ يُحِسُّونَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ انْشَمَرَتْ عَنْ مَوَاضِعِهَا تَحْتَ قَفَصِ الصَّدْرِ، وارْتَفَعَتْ حتَّىٰ وَصَلَتْ إِلَىٰ الْحناجِرِ، مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، ومِنَ المصِيرِ الذي هُمْ صَائِرُون إِلَيْهِ بَعْدَ الْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضاء، والْأَمْرِ بَتَنْفِيذِ الجزاء.

(ال) في «القلوب» وفي «الحناجِرَ» عوَض عن المضافِ إليه، أي: إذ قلوبُهُمْ لَدَىٰ حَنَاجِرِهم.

• ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾: أي: حَالة كوْنِهِمْ كاظمِينَ، أي: يُمْسِكُونَ خَوْفَهُمْ وَذُعْرَهُمْ دَاخِلَ صُدُورِهِمْ، لَا يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِصِيَاحٍ وَعَوِيل، مع أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ ذُعْراً وَخَوْفاً.

يُقَالُ لُغَةً: «كَظَمَ السِّقَاءَ، يَكْظِمُهُ، كَظْماً» أي: مَلأَهُ وَسَدَّ فاه، ويقال: «كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ، وكَظَمَ عَلَىٰ غَيْظِهِ» أي: أَمْسَكَ عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْهُ.

• ﴿..مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ١٨﴾:

الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ.

الشَّفِيعُ: الَّذِي يَطْلُبُ لِغَيْرِه قَضَاءَ حَاجَةٍ، عِنْدَ مَنْ يَرْجُو أَوْ يَطْمَعُ أَنْ يَقْبَلَ شَفَاعَتَهُ.

أَمَّا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، فَلَيْسَ لَهُمْ حَمِيمٌ يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ الدِّين، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ تَنْفِيذَ قَضَاءِ اللهِ بعَذَابِهم، ولَيْسَ لَهُمْ شَفِيعٌ يُسْتَجَابُ لِشَفَاعَتِهِ عِنْدَ الله يَوْمَئِذٍ.

وثبت في نُصوصٍ أُخْرَىٰ أَنَّ الشفاعَةَ يَوْمَ القيامَةِ لَا تكُونُ إلَّا لِمَنْ أذِنَ اللهُ لَهُ بأنْ يَشْفَعَ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً[١]، فَعَلَىٰ فَرْضِ وُجُودِ شَفِيعٍ يَشْفَعُ لِظالِمٍ مِنَ الظَّالِمين مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، فَإِنَّ شَفَاعَتَهُ لَا تُطَاع، أي: لَا يُسْتَجَابُ لها. «من» في: ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مَزِيدَة لتوكيد عُمُومِ النَّفْي والتنصيص عليه.

■ قَوْلُ اللهِ في التَّعْلِيمِ الدَّعوِي:

---

(١) انظر: الملحق الثاي من ملحقي تدبر سورة (طه/ ٤٥ نزول) في المجلّد الثامن من هذا الكتاب «حول الشفاعَة يوم الدين وأنواعها».

• ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾: أيْ: يَعْلَمُ اللهُ كُلَّ شيْءٍ، وَمِنْهُ مَا تَخْتَلِسُهُ الْعُيونُ بالنَّظرِ السَّرِيع، عَلَىٰ سبيل الْخِيَانَةِ إِذْ لَا حَقَّ لها بهذا الاخْتِلَاسِ، الَّذِي فيه اطّلاعٌ علىٰ عَوْرَاتِ النَّاس، وَكُلُّ مَعْصِيَةٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بالْأَعْيُنِ هُوَ مِنْ خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ فَلا يُظْهِرُهُ أصْحَابُها، وَمِمَّا تُخْفِي الصُّدُور الكُفْرُ الَّذِي يُخْفِيهِ المنافِقُون، والرِّيَاءُ الَّذِي يُخْفِيهِ المراءُونَ، والكَرَاهِيَةُ الَّتِي يُخْفِيهَا الكَارِهُونَ، والحبُّ الّذي يُخْفِيهِ المحبُّون، ومِنْهُ النّيّاتُ والإرَادَاتُ والرَّغَبَاتُ، إلىٰ غير ذلِكَ مِنْ أمُورٍ كَثِيرَةٍ جدّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُتَابعُ التَّعْلِيمَ الدَّعوِيّ:

• ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾:

• ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فِي كُلِّ قَضَاءٍ يَقْضِيهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهُو يَوْمَ القيامَةِ يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، قَضَاءً مُتَّصِفاً بالْحَقِّ فَلَا يَظْلِمُ أَحَداً مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا أقلَّ مِنْ ذَلِك.

أمّا الْمُحْسِنُونَ فَيُضَاعِفُ لَهُمْ أعْمَالَهُمْ وَأُجورَهُمْ عليها أضعافاً كثيرة جدّاً، ويَجْزِيهم بفضله جزاءً وَفيراً.

وأمّا الْمُسِيئُونَ فيَتَجاوَزُ عَنْ كَثِيرٍ مِن سَيِّئَاتِهِمْ، فَلا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْها، رَحْمَةً مِنْهُ بِهِمْ، وَتَفَضُّلاً عَلَيْهِم.

• ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾:

أي: والَّذِين يَعْبُدُهُمُ المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، لَا يَقْضُونَ بَيْنَ الْعِبَادِ بشَيْءٍ، لَا بِحَقٍّ وَلَا بِبَاطِلٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُون حُكْماً ولَا سُلْطَاناً عَلَىٰ شيءٍ، حتَّىٰ يَكُونَ لَهُمْ قَضَاءٌ ما، وهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً، إذْ كُلُّ أُمُورِهِمْ مَمْلُوكَةٌ للهِ ـ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه ـ وَيَنْفُذُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ مَا يَتِمُّ بِهِ قَضَاءُ الله.

فَعَلَىٰ الداعِي إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَشْرَحَ هٰذِهِ الحقيقةَ، للّذين يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ وصِرَاطِهِ المسْتَقِيم، والْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ وسَائِرِ الكُفرِيَّات.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: إنَّ الله عَزَّ وَجلَّ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا لَهُ صَوْتٌ مَهْمَا كانَ ضعِيفاً خافِتاً، وَمِنْهُ أصْوَاتُ حَرَكَاتِ أجْزَاءِ الذَّرةِ مَهمَا صَغُرَت، وَهُو وَحْدَه الْبَصِيرُ بِكُلِّ مَا لَهُ ذَاتٌ يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ تُرَىٰ، وَمِنْهُ حَرَكَاتُ الْأَلْكْتُرُونَاتِ في دَاخِلِ الذَّرَّات.

فَكَيْفَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شيْءٌ مِن أَصْوَاتِ عِبَادِه وأعْمالِهِمْ وَحَرَكَاتِ نُفُوسِهِمْ وَأفْكَارِهِمْ وَضَمَائِرِهم، وَهُمْ مُمْتَحَنُونَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، ومَحَاسَبُونَ عَلَىٰ كُلِّ تَصرُّفَاتِهم الإِرَادِيَّة الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة؟؟!.

فَعَلَىٰ الدَّاعي إلىٰ اللهِ أَنْ يَشْرَحَ هٰذِهِ الحقيقة، للذّينَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ دين اللهِ وَصِرَاطِهِ المستقيم، والبراءَةِ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ وسائِرِ الْكُفْرِيَّاتِ.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الخامس من دُروس سورة (غافر).

والحمد لله علىٰ معونته، ومَدَدِه، وتوفيقِه، وفَتْحِهِ.

(١٠)
التدبّر التحليليّ للدّرس السّادس من دُروس سورة (غافر)
الآيتان: (٢١ و٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

القراءات:

(٢١) • قرأ ابْنُ عَامر: [**أَشَدَّ مِنْكُمْ**] وفي هذه القراءة التفاتٌ من الغَيْبَةِ إلىٰ الخطاب.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**أَشَدَّ مِنْهُمْ**﴾ بِضَمِيرِ الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

(٢١) • قرأ ابْنُ كثير: [**مِنْ وَاقِيَ**] في الوقف، و﴿**مِنْ وَاقٍ**﴾ في الوصل.

وقرأها باقي القرّاء بِحَذْفِ الياء في الوصل والوقف.

(٢٢) • قرأ يَعْقُوب: [**تَأْتِيهُمْ**] بِضَمّ هَاء الضَّمِير.

وقرأها باقي الْقرّاء العشرة: ﴿**تَأْتِيهِمْ**﴾ بِكَسْرِ هاء الضَّمِير.

(٢٢) • قرأ أبو عَمْرو: [**رُسْلُهُمْ**] بإسْكانِ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العَشَرَة ﴿**رُسُلُهُمْ**﴾ بِضَمّ السّين.

وهما نطقان عربيان.

تمهيد:

في آيتَي هـٰذا الدَّرْس تَذْكِيرٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعَاقِبَةِ الَّذِين كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ الْكُفَّارِ المعالَجِينَ في السُّورَة، من الْأُمَم السَّابِقَةِ، الَّذِينَ تُوجَدُ آثَارُ إِهْلَاكِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لهم، في أماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وكانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيهِمْ بِها رُسُلُ رَبِّهِم، وكانُوا يُجَادِلُونَ فيها بالباطِلِ، لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ.

التدبرُ التَّحْلِيلِيّ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في عِلَاجِ المقْصُودِينَ بالْعِلَاجِ في السُّورَةِ، وهُمْ

مُشْركو مَكَّةَ المعانِدُونَ الْمُصِرُّونَ علىٰ عِنادِهم إِبَّانَ التَّنْزِيل، ويُلْحَقُ بِهِمْ أَمْثَالُهُمْ:

• ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أبقُوا في بَلَدِهِمْ، ولَمْ يَسِيرُوا مُسَافِرِينَ فِي رِحْلَاتِهِمْ، فَيَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ بِلَادَ الْمُهْلِكِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ دَمَّرَ اللهُ بُلْدَانَهُمْ وأبْقَىٰ مِنْهَا آثاراً يَعْتَبِرُ بِهَا أُولُو الْأَلْبَابِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَاقِبَةَ كُفْرِهم بالحق؟؟!.

استِفْهَامٌ فِيهِ مَعْنَىٰ التَّلْويم والتَّثْرِيبِ؛ لِأَنَّهُمْ في رِحْلَاتِهِمْ التجارِيَّة، كانُوا يَرَوْنَ آثَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ من كُفَّار الْأُمَم السَّالِفَةِ، الَّتِي أمْضَتْ رِحْلَاتِ امْتِحَانِها مِنْ قَبْلِهِمْ، ومِنْهُمْ مَنْ كَانُوا في أزمَانِهِمْ أشَدَّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قُوَّةً، وَأَشَدَّ آثاراً عُمْرانِيَّةً فِي الْأَرضِ، فَدَمَّرَ اللهُ بِلَادَهُمْ، وَعَذَّبَهُمْ، وأَهْلَكَهُمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

• ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾:

﴿هُم﴾ ضَمِيرُ فَصْلٍ جِيءَ بِهِ لِتَوكِيدِ أَنَّ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ كَانُوا في أَزْمَانِهِمْ أشَدَّ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل قُوَّةً وآثاراً فِي الْأَرْضِ، فَلَمْ تَحْمِهِمْ قُوَّتُهُمْ، ولَمْ تَقِهِم مُنْشَآتُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ، بِتَدْمِيرِ مُنْشَآتِهِمْ، وتَعْذِيبِهِمْ، وإهْلَاكِهِمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

الآثَارُ: مُفْرَدُهَا «الْأَثَرُ» وهِيَ مَا خَلَّفَهُ السَّابِقُونَ من أعْمَالِهم أو مُمْتَلَكَاتِهِمْ، مَادِّيَاتٍ أمْ مَعْنَوِيَّاتٍ.

• ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: فَقَبَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَبْضَ عِقَابٍ، بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَـٰذا الْقَبْضُ بأَيْدِي المأمورين بذلِكَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، فَعَذَّبَهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ، وَدَمَّرَ دُوْرَهُمْ وحُصُونَهُمْ وبلَادَهُم.

أصْلُ الْأَخْذ: الْقَبْضُ علَىٰ الشيء، ويُطْلَقُ علَىٰ مَا يُؤخَذُ لَهُ الشيء، وأخْذُ المذنِبين يَكُونُ أَخْذ عِقَابٍ.

• ﴿.. وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ وَاقٍ يَقِيهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِنْ عِقَابِ اللهِ وإنْزَالِ عَذَابه. ﴿مِن وَاقٍ﴾ حَرْفُ «مِنْ» زِيدَ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي وَالتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ. وَالْجَار والْمَجْرُور فِي: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ باسْمِ الفاعِل ﴿وَاقٍ﴾ مُقَدَّمٌ عَلَيه لِرِعَايَةِ الْفَاصِلَة. **الْوَاقِي**: الْحَافِظ الحامِيَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً سبَبَ أَخْذِهِمْ بالْعَذَابِ وَإِهْلَاكِهِمْ وَتَدْمِير بِلَادِهم:

• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، قَدْ حَصَل بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانَتْ تَأتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّاتِ مِنَ المعْجِزَاتِ الباهِرَات، وبالْبَيِّنَاتِ مِنَ الآيَاتِ المنَزَّلَاتَ، فَكَفرُوا وَلَمْ يَسْتَجيبُوا لِدَعواتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، حَتَّىٰ اسْتَحقُّوا بِحِكْمَةِ اسْتِئْصَالهُم بِالْعَذَاب والإِهْلَاكِ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإِهْلَاكٍ شَامل.

• ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾: أي: عَظِيمُ الْقُوَّةِ الَّتِي يَفْعَلُ بها مَا يَشَاءُ و«الْقَوِيّ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ.

• ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي: إِنَّهُ عَزَّ وَجلَّ إِذَا عَاقَبَ عاقَبَ عِقَاباً شديداً عَلَىٰ وَفْقِ مَا قَدَّرَ وقَضَىٰ مِنْ عقاب.

وبهذا تمّ تَدَبُّر الدرس السادس من دُروسِ سورة (غافر).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتوفيقه، وفتْحه.

(١١)

التدبّر التحليلي للدَّرسِ السابع من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٢٣ - ٤٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْس عرْضُ مَثَلٍ تاريخيٍّ يَتَضَمَّنُ فصْلاً مِنْ فُصُول تاريخ فِرْعَوْنَ، إذْ كَفَرَ هُو وَآلُهُ وجُنُودُهُمْ بما جاءَهُمْ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، مِنْ آياتِ اللهِ وسُلْطَانٍ مُبِين كانَ بُرْهَاناً دامِغاً لهم، ومَا كانَ مِنْهُمْ.

وفي هذا الفصل بَيَانٌ لِمَا دَعاهُمْ إِلَيْهِ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْن، وما نَصَحَهُمْ بهِ، فلَمَّا كَشَفَ عَنْ هُوِّيَّتِهِ وَأَبَانَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُسْلم، ودَاعٍ مِنْ دُعاة الحقِّ، دَبَّرُوا سِرّاً أَنْ يَقْتُلُوهُ ويتخلَّصُوا مِنْه، فَوَقَاه اللهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا، وَأَنْزَلَ بِفِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِهِ سُوءَ العذاب، وأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِينَ، وأَبَانَ اللهُ أَنَّهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلَىٰ يَوْم يُبْعَثُونَ، يُعْرَضُونَ علىٰ النَّارِ عَرْضاً غُدوّاً وَعَشِيّاً، وأَنَّهُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ويُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ يُسَاقُونَ إلىٰ جهَنَّم بأمْرِ اللهِ، وَيُقْذَفُونَ فيها لِيُلاقُوا عَذابَهُمُ الأَبَدِيَّ دَاخِلَها.

إنّ هذا المثَلَ التَّاريخِيَّ هو من الْعِلَاجِ بالتَّرْهِيب، ويَتعِظُ بِهِ أولُو الْأَلْباب.

التّدبُّر التحليليّ:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾:

في هٰذه الآيات بَيَانُ لَقْطَةٍ مِنْ لَقَطاتِ المراحِلِ الْأُولَىٰ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مِصْر، لِلْمِصْرِيِّينَ ولِبَني إسْرَائيل الَّذِينَ كَانُوا مضطهدينَ فيها.

• ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنَا مُوسَىٰ مصحوباً بآيَاتِنَا الإعجازيَّة، وآيَاتِنَا الْبيَانِيَّة، والتوكيد بِعِبَارَة «لَقَدْ» مُوَجَّهُ للمشْرِكِينَ المعَالَجين في السُّورَة.

• ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: وبُرْهَانٍ جَلِيٍّ واضح، ومُبِينٍ لِلْحَقِّ الذي أَرْسَلْنَاه به.

السُّلْطان: مِن مَعَانِيه في اللُّغَةِ الحجَّةُ والْبُرْهَان، وهذا هُوَ المرادُ هُنَا فيما يَظهر.

مُبِين: من فعل «أبان» اللّازم بمعنىٰ «ظَهَر» ومن «أَبَانَ» المتَعَدِّي بمَعْنَىٰ «أَظهَرَ وَأَوْضح» وَكِلَا المعنيَيْنَ صَالِحانِ هُنَا.

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾: هؤلاء الأَرْكَانُ الكُبْرَىٰ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْني يَوْمَئذٍ.

أَمَّا فِرْعَوْنَ فالْمَلِكُ الَّذِي طَغَىٰ، فادَّعَىٰ أَنَّهُ الإِلَٰهُ أَوَّلاً، ثُمَّ قَالَ: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ.

وأَمَّا هَامَانُ فَوَزِيرُهُ الأَولُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، وهُوَ مِنْ آلِهِ في الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ الطَّاغُوتِي.

وأَمَّا قَارُونُ فوزيرُهُ الثَّانِي المختصُّ بِشُؤُونِ بني إِسْرَائِيلَ في مِصْر، وهُوَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل قَوْم مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ، واشْتَرَاهُ فِرْعَوْنُ بالْأَمْوَالِ والمَنافِعَ الكَثِيرة، وَقَرَّبَهُ فَجَعَلَهُ وَزِيرَهُ الثَّاني ،سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورة (الْقَصَصِ/ ٤٩ نزول) بَيَانُ قِصَّةِ اسْتِعْلَائِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائيل، ثُمَّ خَسْفِ الْأَرْضِ بِهِ وَبِدَاره[١].

• ﴿..فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾﴾: أي: فَقَالُوا بالنِّسْبَةِ إلىٰ الآيَاتِ الإعجازِيَّة الَّتِي كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ يُجْرِيهَا لَهُ: إِنَّها مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، وقالُوا بالنِّسْبَةِ إلىٰ الآيَاتِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاها عَنْ رَبِّهِ باعْتِبَارِه نَبِيّاً وَرَسُولاً: إِنَّهَا كَذِبٌ يفْتَرِيهَا علىٰ اللهِ، فَهُو سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ ..﴾:

أي: فَلَمَّا ظَهَرَتْ في مِصْرَ آثارُ الآيَاتِ التِّسْعِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا ومِنْها آيَتَا الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَاناً حَقِيقِيّاً، والْيَدِ الَّتِي تَصِيرُ بَيْضَاءَ مُتَلأْلِئَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، وَبَدَأَ بَعْضُ قَوْمِهِ الإِسْرَائيلِيِّينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبّه، خَافَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَقَارُونُ أَنْ يَنْتَشِرَ الدِّينُ الَّذِي جاء بِهِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلام فيُؤْمِنَ بِهِ كُلُّ الإِسْرَائِيلِيِّين، ويَمْتَدَّ إِلَىٰ الْمِصْرِيين، وَتَبِعَهُمْ سَائِرُ مَلأِ فِرْعَوْنَ ومُسْتَشَارُوهُ فِي قَصْرِهِ، فَأَصْدَرُوا أَمْراً بقَتْلِ أَبْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) انظر تَدَبّر الآيات من (٧٦ ـ ٨٢) من سُورة (القصص/ ٤٩ نزول) من هذا الكتاب.

وهُمُ المواليدُ الذُّكُورُ، وباسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ، أي: باسْتِبْقَاءِ المواليد الإِنَاثِ علىٰ قَيْدِ الحياة. وَعَدَم قَتْلِهِنَّ، وَكَانَ مِثْلُ هٰذا الأَمْرِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْمُعْتَادَةِ في أَوَامِرِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، كُلَّمَا خَافَ أَرْكَانُ الْقَصْرِ عَلَىٰ سُلْطَانِهِمْ، أَوْ عَلَىٰ دِينِهِم الْوَثَنِي الَّذِي كَانُوا يَدِينُونَ بِهِ، وَيَدْعَمُونَ بِهِ سُلْطَانَهُمْ.

● ﴿..وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ الَّذِي يَكِيدُنَهُ لِحِمَايَةِ بَاطِلِهِمْ، ومَنْع انْتِشَارِ الْحَقِّ الرَّبَّاني إلَّا في ضَيَاع وَخَيْبَةٍ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَيَجْعَلُهُ زَاهِقاً، وقَدْ كانَ مَصِيرُ فِرْعَوْنَ وَأَرْكَانِ قَصْرِه وَجُنُودِهِم إِلَىٰ الْغَرَقِ في بَحْرِ «سُوف» بَعْدَ نَجَاةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِما السَّلَام وجَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بآيَةٍ رَبَّانِيَّةٍ بَاهِرَةٍ فَلَقَ اللهُ فِيها الْبَحْرَ، فأنجىٰ بِهِ بني إسْرَائيل، وَضَمَّ الْمَاءَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ جَمِيعاً فأغْرَقَهُمْ.

الكيد: التَّدْبيرُ سَواءٌ أكان خفيّاً أَمْ ظَاهِراً، بحَقٍّ أَمْ بِبَاطِلٍ، وفِيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

الضَّلَال: يُرَادُ بالضَّلالِ هُنَا مِنْ مَعَانِيهِ الضَّيَاعُ، وَعَدَمُ تَحْقِيقِ الْمَرْجُوّ مِنَ التَّدْبير، وخَيْبَةُ الْمَسَاعِي المتخَذَةِ لِتَحْقِيق المراد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً ما عَرَضَهُ فِرْعَوْن في أواخِرِ مَسِيرَةِ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ الدَّعوية في مصر، عَلَىٰ مَلَئِهِ وَمَجْلِسِ مُسْتَشَارِيةِ:

● ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

● قرأ ابْنُ كثير: [**ذَرُونِيَ أَقْتُلْ**] بِفَتْحِ يَاءِ المتكلِّم.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرَةِ بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

• قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأَبُو جَعْفَر: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بِفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأها باقي الْقُرّاء العَشَرةِ بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

• قرأ نافع، وأبو عمْرو، وَأَبُو جعفر [**وَأَنْ يُظْهِرَ في الْأَرْضِ الْفَسَادَ**].

أي: أخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَخَافُ أَنْ يُظْهِرَ في الْأَرْضِ الفسادَ.

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامِر: [**وَأَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الفَسَادُ**].

أي: وأخاف أَنْ يَظْهَرَ بِسَبَبِ دَعْوَتِهِ وَتَأَثُّرِ النَّاسِ بآيَاتِهِ الخوارقِ الْفِسَادُ.

وقرأها شُعْبَةُ، وَحَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ: [**أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ**].

أي: أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهَرَ في الْأَرْضِ الْفَسَادُ وقرأها حَفْصٌ، وَيَعْقُوب: [**أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**].

أَيْ: أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ مُوسَىٰ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ، بِدَعْوَتِهِ وخَوَارِقِهِ الْفَسَادَ.

ويُلَاحَظُ في هـٰذِهِ القراءاتِ تَكَامُلٌ يَدُلُّ علىٰ مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِمَلَئِهِ في مَجَالِسَ مُتَعَدِّدَة.

التدبّر التحليلي:

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ لِمَلَئِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فِي أَوَاخِرِ دَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِصْرَ، وَبَعْدَ أَنْ أَجْرَىٰ اللهُ لَهُ الآيَاتِ التِّسْعِ الَّتِي آتَاهُ إِيَّاهَا، وَأَبَانَ فِرْعَوْنُ سَبَبَ تَوَجُّهِهِ لِإِصْدَارِ الأَمْرِ الْفِرْعُونِيِّ

بِقَتْلِ مُوسَىٰ، بِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَ قَوْمِهِ الْوَثَنِيِّ، وَيَخَافُ عَلَىٰ سَبِيلِ الجزْم أَنْ يُظْهِرَ مُوسَىٰ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ، إِذْ يُحَرِّضُ الشَّعْبَ عَلَىٰ التَّمَرُّدِ عَلَىٰ سُلْطَانِ الْقَصْرِ الْفِرْعُونِي، أَوْ أَنْ يَتَمَرَّدَ الشَّعْبُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اعْتَبَرَ فِرْعَوْنُ هَـٰذَا التَّمَرُّدَ فَسَاداً، شَأْنُهُ فِي هَـٰذَا كَشَأْنِ كُلِّ ذَوِي السُّلْطَانِ فِي كُلِّ الدُّوَلِ، إِذْ يَعْتَبِرُونَ كُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ إِصْلَاحِ قَوانِينِ الدَّوْلَةِ، أَوْ مَذْهَبِهَا الدِّينِي أَوِ الإِدَارِي، مُفْسِداً فِي الأَرْض؛ لِأَنَّ هَـٰذَا الإِصْلاحَ يُضِرُّ بِمَصَالِحِ ذَوِي السُّلْطَانِ الظالمة.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَتَرَدَّدُ فِي إِصْدَارِ مِثْلِ هَـٰذَا الْأَمْرِ لِأَنَّهُ كَانَ يَخَافُ أَنْ يَدْعُوَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، فَيُحْبِطَ رَبُّهُ كَيْدَهُمْ، وَيُنْزِلَ نِقْمَتَهُ عَلَيْهِمْ. لَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمُوسَىٰ وَبِنَشَاطِهِ الدَّعَوِيِّ الدَّائِبِ، جَازَفَ وَهُوَ مُنْطَمِسُ الْبَصِيرَةِ فَقَالَ: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

وَبَلَغَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ مَا يُدَبِّرُ الْقَصْرُ الْفِرْعَونِيُّ ضِدَّهُ مِنْ إِصْدَارِ أَمْرٍ بِقَتْلِهِ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ المؤمِنِ الَّذِي يَكْتُمُ إِيمانَهُ بَيْنَ آل فِرْعَوْن، وَإِمَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحِي الرَّبَّانِيّ، فَقَالَ مُسْمِعاً رِجَالاً مِنْ رِجَال فِرْعَوْنَ، وَمُشْعِراً بِمَا يُدَبِّرُونَ:

﴿. . إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: إِني لَجَأْتُ مُسْتَعِيذاً لِحِمَايَتِي وَحِفْظِي بِرَبِّي الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ظَالِمٍ كَافِرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ حِسَابُ النَّاسِ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العباد، وَفَصْلُ القضاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَتَنْفِيذُ جَزَائِهِ.

وَقَدْ أَثْبَتَ التَّارِيخُ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ قَدْ أَعَاذَهُ، فَأَنْجَاهُ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ المتكبّرينَ الظّالمين، الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الحساب، والَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوه.

■ قول الله تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ مَا كَانَ مِنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ، فِي اعْتِرَاضِهِ عَلَىٰ تَدْبِيرِ أَمْرِ قَتْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

• أَبْدَلَ السُّوسي وأَبُو جَعْفَر الهمزة من ﴿بَأْسِ﴾ ألفاً في الحالَين، وكَذَلِكَ حَمْزَةُ في الْوَقف.

في هَـٰذِهِ الآيَات بيانُ بِدَايَةِ دَعْوَة الرَّجُل المؤمِنِ من آلِ فِرْعون، فَقَدْ آمَنَ بموسىٰ وَهَارُونَ عليهما السَّلامُ، وَكَتَمَ إيمانَهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، إِذْ كَانَ مُعَاصِراً لَهما، مَع مَا كَانَ لَدَيْهِ مِنْ عِلْمٍ مَوْرُوثٍ عن نَبيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ «يوسف» عَلَيْهِ السَّلام.

ويظهر أنَّ هَـٰذَا الرَّجُلَ قد كَانَ واحداً مِنْ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ المُسْتَشَارِينَ فِي الْقَصْرِ الفرعَوْنِيّ يَوْمَئِذٍ، فَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ عزّ وجَلَّ بأَنَّهُ مِنْ آل فِرْعَوْن، والآلُ مِنَ الأُسْرَةِ هُمْ أَشْرَافُهَا وَأَعْيَانُها وكبراؤها.

وقد اسْتَمَرَّ هَـٰذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إيمانَهُ، حَتَّىٰ تَأَزَّمَ الأَمْرُ ضِدَّ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ الحدّ الأَقْصَىٰ، إِذْ بَدَأَ فِرْعَوْنُ وَوُزَرَاؤُهُ وَمُسْتَشَارُوهُ يَأْتَمِرُونَ لإِصْدَارِ أَمْرٍ سُلْطَانيٍّ بِقَتْلِهِ.

عِنْدَئِذٍ قَدَّمَ هَـٰذَا الرَّجُلُ المؤمِنُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إيمانه مَشُورَته ناصِحاً، ضِمْنَ مَجْلِس المسْتَشَارِينَ، بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَا مِنَ الْعَدْلِ، وَلا مِنْ حُسْنِ السِّيَاسَةِ، قَتْلُ رَجُلٍ يَقُولُ: رَبِّيَ الله، وقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهي بَيّنَاتٌ فِكْرِيَّةٌ صَحِيحَةٌ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهَا، قَدَّمَها بِمَقَالِهِ فِي دَعْوَتِهِ، مَقْرُونَةً بِآيَاتٍ إعْجَازِيَّةٍ شَهِدْتُمُوهَا خِلَالَ سِنِينَ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا من الآيات:

• ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ..﴾.

﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾: أي: كان مؤمناً قبل ذلك بمُدَّةٍ من الزَّمَنِ، وصَارَ يَكْتُمُ مَعَ تَتَابُعِ الأيَّامِ واللَّيَالِي إِيمَانَهُ باللهِ الواحِدِ الأحَدِ، وبما جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ وَهَارُون.

﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾: أي: لِقَوْلِهِ: رَبِّيَ الله، أَوْ كَرَاهَةَ قولِهِ: رَبِّيَ اللهُ.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: بالْوَاضِحَاتِ الْجَلِيَّاتِ الْفِكْرِيَّة، وبالآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الْمُعْجِزَاتِ الخوارِقِ، مِنْ رَبِّكُمْ، خالِقِكُمْ وَمُمِدِّكُمْ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وَتَابَعَ هَـٰذَا الرَّجُلُ نُصْحَهُ لِفِرْعَوْنَ وَكِبَارِ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ، مُعْتَمِداً عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ الْفِكْرِيِّ الراجح، والمنْطِقِ الْعَقْلِيِّ السَّدِيدِ، فَقَالَ لَهُمْ:

لَا يَخْلُو مُوسَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً أَوْ صَادِقاً، فَهَـٰذَانِ احْتِمَالَانِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:

• **أَمَّا عَلَىٰ الاحتِمَالِ الْأَوَّلِ:** وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُوسَىٰ كَاذِباً، فَإِنَّ إِبْقَاءَهُ حَيّاً وَعَدَمَ التَّعَرُّضِ لِقَتْلِهِ لَا يَضُرُّكُمْ بِشَيْءٍ، إِذْ أَنْتُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ فِي مِصْر، وَهُوَ وَقَوْمُهُ عَاجِزُونَ عَنِ التَّصَدِّي لَكُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْشُرَ دِينَهُ وَهُوَ كَاذِبٌ فِي مِصر؛ لِأَنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، كَذَّابٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

إِنَّهُ إِنْ كَانَ كَذَّاباً فِي ادِّعَاءَاتِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَخِيبَ فِي مَسْعَاه. ولَا يَنْجَحَ فِي مقَاصِدِهِ.

• **وَأَمَّا عَلَىٰ الاحْتِمَالِ الثَّانِي:** وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَادِقاً، وَأَنْ يَكُونَ

رَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ رَبِّكُمْ حقّاً، فَأَقَلُّ مَا يُتَوَقَّعُ مُسْتَقْبَلاً أَنْ يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَتوعَدُكُمْ بِهِ إِذَا تَعَرَّضْتُمْ لِقَتْلِهِ.

دَلَّ عَلىٰ هَـٰذَا من الآيات:

• ﴿. . .وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وإنْ يَكُنْ مُوسَىٰ كَاذِباً فِي البَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَكُمْ بِهَا فَعَلَيْهِ يَنْزِلُ مِنَ اللهِ عِقَابُ كَذِبِهِ، وَلَا يَضُرُّكُمْ كَذِبُهُ شَيْئاً، فَأَنْتُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ وَالسُّلْطَانِ، وَلَا يَنْزِلُ بِكُمْ مِمَّا يَتَوَعَّدُكم بِهِ شيء؛ لأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِيَ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فِي الادّعَاءِ عَلىٰ رَبِّهِ كَذَّابٌ فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْهُ، فَلَا يُحقّقُ فِي الْوَاقِعِ مَا يَتَوَعَّدُكُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا حَقَّقَ مَا تَوَعَّدَكُمْ بِهِ كَانَ ذَلِكَ بَيَاناً مِنْهُ عَلَىٰ أَنَّهُ عَلىٰ هُدىً، وَهَـٰذَا مِنْ مَعَانِي هداية اللهِ لَهُ، والكَذِبُ عَلىٰ الله مِنْ أَفْحَشِ أنواعِ الكَذِبِ وأَكْثَرِهَا تجاوزاً لحدود أنواع الكذب.

وإن يَكُنْ مُوسىٰ صَادِقاً فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فِي الدُّنْيَا أَوْ يَوْمَ الدِّين، وهَـٰذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ، فِيهِ عَذَابٌ لَكُم كَبِيرٌ.

قَالَ عُلَمَاءُ اللُّغة: تُحْذَفُ نُونُ المضارع مِنْ «يَكُون» بشَرْطِ كَوْنِهِ مجْزُوماً بالسُّكُون غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِضَمِيرِ نَصْبٍ وَلَا بِسَاكِن، كما جاء في هـٰذا النصّ.

وَتَابَعَ الرَّجُلُ المؤمِنُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ نُصْحَهُ لِفِرْعَوْنِ ولَمَلَئِهِ فِي قَصْرِهِ قَائلاً:

• ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ . . . ﴿٢٩﴾﴾:

أي: يَا قَوْمِ الَّذِينَ أَنْتُمْ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي، يَسُوؤنِي مَا يَسُوؤكم،

ويُحْزِنني مَا يُحْزِنُكُم، لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، غَالِبِينَ بِقُوّاتِكُمْ كُلَّ مُخَالِفِيكُمْ وَمُنَافِسِيكُمْ، وَكَانَ الْمُلْكُ مِنْ قَبْلِ أُسْرَتِنَا لِغَيْرِنَا.

فَمَنْ يَنْصُرُنا حَامِياً لَنَا مِنْ بأسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا، وَهُوَ بَعْضُ مَا تَوَعَّدَكُم بِهِ مُوسَىٰ.

• ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: بارِزِين مُسْتَعْلِين غالِبينَ مُخَالِفِيكُم ومُنَافِسِيكُمْ.

• ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾: أي: فَمَنْ يَنْصُرُنَا حَامِياً لَنَا مِنْ بَأْسِ الله؟! ضُمِنَ فِعْل «يَنْصُر» مَعْنَىٰ فِعْلِ «يَحْمِي» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، وَهَـٰذا التضمين مِنْ بَدِيعِ الإيجَاز في القرآن.

﴿ٱلْبَأْسَ﴾: الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، وهـٰذا أَحَدُ مَعَانِي البأس، ويَظْهَرُ أَنَّهُ هو المرادُ هُنَا.

﴿إِن جَآءَنَا﴾: أي كَمَا تَوَعَّدَنَا مُوسىٰ بِسَبَبِ كُفْرِنَا بِمَا جَاءَ بِهِ عن الله.

وَهُنَا أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَحْسِمَ الْأَمْرَ، وَلَا يَدَعَ مَجالاً للرَّجُلِ مِنْ آلِهِ أَنْ يَزِيدَ فِي بَيانَاتِهِ فِي مَجْلِسِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُشْعِرَ أَعْضَاءَ مَجْلِسِهِ بِأَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمْ وَلِقَوْمِهِ فِي مصر، لِيَسْتُرَ خَوْفَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَىٰ مُلْكِهِ، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي النّصّ:

• ﴿. . قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: مَا أُرِيكُمْ مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي صَالِحاً، وما أَهْدِيكُمْ فِي عَرْضِي عَلَيْكُمْ أَنْ أَقْتُلَ مُوسَىٰ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، لِحِمَايَتِكُمْ وَحِمَايَةِ مُلْكِكُمْ مِمَّا يُحْدِثُهُ هـٰذا الرَّجُلُ مِنْ فِتْنَةٍ فِي مِصْرَ.

■ قول الله مُبَيِّناً مُتَابَعَةَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ نُصْحَهُ لِفِرْعَوْنَ وَمَجْلِسِ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ وَمَلَئِهِ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٠ ـ ٣٢) • فتح ياء المتكلم في **[إِنِّيَ أَخَافُ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأَسْكَنَهَا الباقون.

(٣١) • أبدل الهمزة من «دَابِ» ألفاً السُّوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

(٣٢) • قَرأ وَرْشٌ وابْنُ ورْدان: **[التَّنَادِي]** بإثبات الياء في الوصل.

وقرأها ابن كثير، ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.

وحذَفَ هَـٰذِهِ الياء باقي القرّاء العشرة في الوصل والوقف.

(٣٣) • قرأ ابن كثير: **[مِنْ هَادِي]** في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة **[مِنْ هَادٍ]**.

واتّفَقُوا عَلَىٰ التّنوِينِ في الوصل.

تمهيد:

يَبْدُو أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ من آل فرعونَ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّ الْفُرْصَةُ مُتَاحَةٌ لَهُ، بَعْدَ تَقْدِيم مَشْوَرَتِهِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا آنفاً، والّتي نَصَحَ بِهَا فِرْعَوْنَ وَمَجْلِسَ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ، إذْ أَصْغُوا لاسْتِمَاعِهَا، وَتَوَقَّفَ أَعْضَاءُ المجْلِسِ عَنْ

إِصْدَارِ الْأَمْرِ بِقَتْلِ مُوسَىٰ، وَشَعَرَ بِأَنَّهُمْ أَحَسُّوا بِإِيمَانِهِ بِمُوسَىٰ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، فَتَحَوَّلَ دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ، مُنْذِراً قَومَهُ بِعُقُوبَةِ اللهِ، وَمُحَذِّراً لَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عِقَابٌ مِنَ اللهِ مِثْلُ العِقَاب الَّذِي نَزَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمود والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وهـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قِصَصَ هؤلاءِ الأقوامِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً لَهُمْ، وُمَتَدَاوَلَةً بَيْنَ الْمِصْرِيين حِينئذٍ.

وَبَعْدَ هـٰذا انْتَقَلَ إِلَىٰ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، وَيَظْهرُ مِنْ هـٰذا أَنَّ عَقِيدَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجَزَاءِ، كَانَتْ مِنَ الْعَقَائِدِ الْمَوْرُوثَةِ لَدَيْهِمْ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الحكْمُ بَيْنَ العباد يومئذٍ، فَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلالَةِ فَلَنْ يَجِدَ مَنْ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ.

وَهُنَا ذَكَّرَهُمْ بِرِسَالَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، الَّذِي تُوُفّي مُنْذُ أَقَلَّ مِنْ قَرْنٍ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُ المؤرّخون، وأَنَّ الأسْرَةَ الْفِرْعُونِيَّة فِي عَهْدِهِ ـ وهُمْ قَوْمُ هـٰذا الرَّجُلِ المؤمِنِ الدَّاعِيَةِ ـ مَا زَالُوا يَشُكُّونَ فِي أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ، حَتَّىٰ إِذَا مَاتَ تَحَقَّقُوا مِنْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً يَمْنَعُهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَيَهْوَوْنَ مِنْ أَنْوَاعِ آثام وَتَسَلُّطٍ وَطُغْيَانٍ فِي الْأَرْضِ، إِذْ كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْحَاكِمُ الْأَوَّلَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ فِي عَهْدِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

سبق بيانُ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ أَطْلَقَ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ عُنْوانَ «الْأَحْزَاب» لاخْتِلافِ صُوَرِ كُفْرِهم، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ فَهُمْ حِزْبٌ

وَاحِدٌ هُوَ حِزْبُ اللهِ[١] وهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

الدَّأْب: العادَةُ، والسُّنَّةُ المتّبَعَةُ الّتي تَتكَرَّرُ فِي أَحْدَاثِ الدَّهْر.

أي: يَا قَوْم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذاباً مُعَجَّلاً فِي الدُّنْيَا وإهْلَاكاً شَامِلاً، يُنْزِلُهُ رَبُّكُمْ بِكُمْ، مِثْلَ مَا أنزَلَ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي عَذَّبَ وَأَهْلَكَ فِيهَا أَحْزَابَ الكُفْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، مِثْلَ سُنَّتِهِ الَّتِي أَجْرَاهَا لِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم.

• ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ هَـٰذِهِ الإضافَةُ هي علىٰ تَقْدِيرِ: إهْلَاكاً مِثْلَ إِهْلَاكِ اللهِ الكافِرِينَ فِي أَيَّامِ الْأَحْزَاب، فَلَفْظُ «يَوْم» اكْتَسَبَ مَعْنَىٰ الْجَمْعِ بِإِضَافَتِهِ إِلَىٰ الجمع.

• ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هَـٰذِهِ الْإِضَافَةُ هِي علَىٰ تَقْدِير: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِجْرَاءَ سُنَّةٍ مِثْلِ سُنَّةِ اللهِ الّتي أَجْرَاها لِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُود.

• ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: هؤلاء يَدْخُل فِيهم قَوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَقَوْمُ شُعَيْبَ عَلَيْهِ السَّلام، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ أَصْحَابُ الرُّسّ.

• ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾: أي: وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ هَـٰؤُلاءِ الْأَحْزَابَ بِعَدْلِهِ؛ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا بِكُفْرِهِمْ، وَبِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ، فَمِنْ صِفَتِهِ الدَّائِمَةِ أَنَّهُ مَا يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ، فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَلَا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

جَاءَ تَقْدِيمُ لَفْظِ الْجَلَالَةِ «الله» عَلىٰ فِعْل «يُريدُ» لتكونَ الْجُمْلَةُ جُمْلَةً اسْمِيَّة، وهِي أَقْوىٰ مِنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، إِذْ جَاءَ فِيها إِسْنَادُ فعل «يُريد» خبراً للفظ الجلالَةِ، وإسنادُهُ لضميره فاعِلاً مُسْتَتِراً.

---

(١) انظر تدبُّر الآية (٥) من هَـٰذِهِ السُّورة.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ قَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي تَحَوَّلَ دَاعِيَةً إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ:

• ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾:

يَوْمُ التَّنَادِي: هُوَ يَوْمُ القيامَةِ، إِذْ يُنَادِي فِيهِ بَعْضَ الْخَلَائِقِ بَعْضاً، وَلهـٰذا سُمِّيَ يومَ التَّنَادِي.

وَجاءَ بَيَانٌ لَتَنَادٍ يَحْصُلُ بَيْنَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سُورَةِ (الأعْرَاف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) فقال تَعَالَىٰ فِيهَا:

• ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وجاء فيها أَنَّ أَصْحَاب الأعراف يُنادُونَ، وأَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ يُنَادُونَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، اقرأ الآيات من (٤٦ ـ ٥٠).

وَجاء في سُورَة (الزّخرف/ ٦٣ نزول) بيانُ أَنَّ أَهْلَ النار يُنَادُون مالكاً خَازِنَ النارِ قَائِلِينَ لَهُ: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ ... ﴿٧٧﴾﴾ فيجيبُهُم نداءً ﴿... إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وجاء في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) بَيَانُ أَنَّ المنافِقِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ يُنَادُونَ المؤمِنِينَ مِنْ وَرَاءِ السُّورِ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ ..﴾ الآية (١٤) فيُجيبُهُم الْمُؤْمِنونَ نداءً: ﴿... بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ ... ﴿١٤﴾﴾ الآية.

وَجاء في الآية (٦٢) من سُورَة (القصص/ ٤٩ نزول) بَيانُ أَنَّ الله يُنَادِي المشرِكين: ﴿... أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وجاءَ فيها بَيَانُ نداء آخر في الآية (٦٥).

وَسَبَقَ فِي الآية (١٠) من سورة (غافر) بيانُ أَنَّ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ يُنَادُونَ المعذّبين فِيها.

وَمِنْ هَـٰذَا يَظْهَرُ أَنَّ التَخَاطُبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ المتَبَاعِدِينَ فِي الْأَمَاكِنِ يَكُونُ بِأُسْلُوب التَّنَادِي، ولهَـٰذَا أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ عُنْوَان: «يَوْم التَّنَادِي».

• ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: أي: يَوْمَ تُحَاوِلُونَ أَنْ تَبْتَعِدُوا مُدْبِرِينَ، خَائِفِينَ مِنْ إلْقَائِكُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ فَلَا تَسْتَطِيعُونَ.

• ﴿...مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ...﴾:

أي: مَا لَكُمْ مِنْ حَافِظٍ يحفظُكُمْ وَيَحْمِيكُمُ مِنْ عَذَاب الله النَّازِلِ بِكُمْ حَتماً، إِذَا مِتُّمْ وَأَنْتُم كَافِرُون.

«مِنَ الله» أي: مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ، والجار والمجرُور متعلّقَانِ باسم الفاعل: «عَاصِم» قُدِّمَا للتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْصِمُ مِنْ عَذَابِهِ عَاصِمٌ، إِذْ كُلُّ شيءٍ فِي الْوُجُودِ مِلْكُهُ، وَهُو القادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءَ.

وَزِيد حرف «مِنْ» في: «مِنْ عَاصِمٍ» لتوكيد عُموم النَّفْيِ وَالتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

• ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ له بِالْهِدَايَةِ، لِيُنجيَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ: إن الْحُكْمُ إِلَّا لله.

«لَهُ» متعلّق بـ«هادٍ» و«مِنْ» في: «مِنْ هَادٍ» زائِدَةٌ نَظِيرها في «مِنْ عَاصم».

لَقَدْ حَذَّرَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ قَوْمَه مِنَ الْعَذَابِ المعجَّلِ فِي الدُّنيا أوّلاً، وَبَعْدَهُ حَذَّرَهُمْ مِنْ عذاب اللهِ الْخَالِدِ يَوْمَ الدِّين.

وَبعْدَ هٰذَيْنِ التَّحْذِيرَيْنِ ذَكَّرَهُمْ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أَكَّدَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ بَيَانَهُ بِعبارَة: ﴿وَلَقَدْ﴾ مُقْسِماً وَمُحَقِّقاً.

أي: وَلَقَدْ جاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ مِنْ قَبْلِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، وهُوَ الَّذِي كَانَ الرَّجُلَ الثَّانِي فِي الْقَصْرِ بَعْدَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ فِي زَمَانِهِ، وَهُوَ مِنْ آبَاءِ أُسْرَتِكُمُ الْحَاكِمَةِ فِي مِصْرَ.

وَالْمُرَادُ بِالْبَيِّنَاتِ الَّتِي جاءَ بِهَا الْقَضَايَا الْوَاضِحَاتُ الْجَلِيَّاتُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَأَحْكَاماً، مَقْرُونَةً بِالْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنَ الحجج والْبَرَاهِينِ، وَبِبَعْضِ الآيَاتِ الخوارِقِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَكَانَ يُبَلِّغُهَا وَيَدْعُو إِلَيْهَا مِنْ مَوْقِعِهِ الْإِدَارِيّ الرَّفِيعِ فِي حُكْمِ مِصْرَ، فَمَا زَالَتْ أُسْرَتُكُمْ أَجْدَادُكُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، وكَانَ يُنَفِّذُ مَا يَمْلِكُ تَنْفِيذَهُ مِنْ أَحْكَام وَهُوَ فِي سُلْطَانِهِ، وَكَانَ أَفْرَادُ أُسْرَتِكُمْ يَضِيقُونَ بِتَنْفِيذِ مَا يُنَفِّذُهُ مِنْ أَحْكَامٍ تَمْنَعُهُمْ مِنَ التجاوُزَاتِ الَّتِي كَانُوا يَتَجَاوَزُونَ بِهَا حُدُودَ الْحُقُوقِ، قَبْلَ تَوَلِّيهِ السُّلْطَةَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ.

وَكَانَتْ أُسْرَتُكُمْ تَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ مُعْظَمَ أَفْرَادِهَا لَمْ يَكُونُوا يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِدِينِهِ، وَيَعْمَلُوا بِأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ، لِتَبْقَىٰ لَهُمْ امْتِيَازَاتُهُمْ الظَّالِمَةُ الَّتِي يَنَالُونَهَا بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ فِي مِصْر.

حَتَّىٰ حِينَ مَاتَ وَخَلَا لَهُمُ الْحُكْمُ، انْطَلَقُوا فِي مِصْرَ ظَالِمِينَ آثِمِينَ، لَا يَعْتَرِضُ تَصَرُّفَاتِهِمْ سُلْطَانُ رَسُولٍ حَاكِمٍ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ أُمُورِ الدَّوْلَةِ، وَقَدْ وَرِثْتُمْ أَنْتُمْ عَنْ آبَائِكُمْ هٰذَا السُّلْطَانَ الَّذِي أَطْلَقَ أَيْدِيَكُمْ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَا

تَشْتَهُونَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَفِي شَعْبِهَا مِنْ مِصْرِيّين وَغَيْرِهِمْ، وَقُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِ يُوسُفَ رَسُولاً يَمْلِكُ مَقَالِيدَ الحُكم فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْني؛ لِأَنَّنا لَنْ نُمكِّنَ رَسُولاً مِنَ الْوُصُولِ إِلَىٰ كُرْسِيِّ الْحُكْمِ، حَتَّىٰ لَا يَمْنَعَنا مِنْ تَحْقِيقِ مُرَادَاتِنَا مِنْ أَهْوائِنَا وَشَهَوَاتِنا بِسُلْطَانِ الدَّوْلَة.

وانْطَلَقَتْ أُسْرَتُكُمُ الْحاكِمَةُ ضَالِّينَ يَظْلِمُونَ وَيُفْسِدُونَ وَيَضْطَّهِدُونَ وَيُذِلُّونَ الْعِبادَ، وَيَسْتَأْثِرُونَ بِخَيْرَاتِ الْبِلَادِ، وَقَدْ وَرِثْتُمْ عَنهم كُلَّ ذَلِكَ، فَضَلَلْتُمْ، وَمَكَّنَكُمْ اللهُ مِنْ سُلُوكِ سُبُلِ الضَّلَالِ فِي سُلْطَانِكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ مُسْرِفِينَ غُلاةً فِي تَجاوُزِ الْحُقُوقِ، مُرْتَابِينَ فِي الْإِنْذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَكُمْ بِهَا رَسُولُ رَبِّكُمْ، شَاكِينَ فِي صِدْقِهَا، بِسَبَبِ غِشَاوَاتِ الأهواء والشهواتِ الَّتِي غَشَّتْ عَلَىٰ بَصائِركم، وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبادِهِ، فَمَنْ أَسْرَفَ مُغَالِياً فِي تَجاوُزِ الحقوق، وَصَارَ مُرْتَاباً شَاكّاً بِالْحَقِّ الْجَلِيِّ المؤيَّد بالبراهين، أَمَدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي ضَلَالِهِ، لِيَأْخُذَهُ بِجَرَائِمِهِ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

• ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾:

خَاطَبَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ المعَاصِرِينَ لَهُ مِنْ أُسْرَتِهِ، مَعَ أَنَّ الَّذِينَ كانُو فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ الرَّسُولُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُمْ أَجْدَادُهُمْ المعاصِرُونَ لِيُوسف؛ لِأَنَّ هٰؤُلَاءِ الأحْفَادَ مُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِ أَجْدَادِهِمْ وَمَفَاهِيمِهِمْ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ مَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ أَجْدَادِهِمْ الَّذِينَ كَانُوا مُعَاصِرِينَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ «يُوسف» عَلَيْهِ السَّلَامُ ضِمْنَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

• ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ...﴾.

أي: فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِن نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، ضَيِّقَةً بِتَصرُّفَاتِهِ الإدارِيَّةِ المخالِفَةِ لِأَهْوائِكُم صُدُورُكُمْ؛ حَتَّىٰ حِينَ مَوْتِهِ الَّذِي انْشَرَحَتْ بِهِ صُدُورُكُمْ، لِأَنَّكُمْ عُدْتُمْ إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ تَوَلِّيهِ السُّلْطَةَ، ظَالِمِينَ بَاغِينَ.

حِينَئِذٍ قُلْتُمْ: لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِ «يُوسُفَ» رَسُولاً يُمَكِّنُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَا سُلْطَانٍ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْني، يَكُفُّ أَيْدِيَنَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي مِصْرَ مَا نُرِيدُ بِاعْتِبَارِنَا الْأُسْرَةَ المالِكَةَ الحاكِمَةَ ذَاتَ التَّصَرُّفِ المطْلَق.

• ﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وَقَدِ انْطَلَقْتُمْ بَاغِينَ ظَالِمِينَ طَاغِينَ ضَالِّينَ فِي مَتَاهَاتِ الآثام والجرائم، بَعْدَ يُوسُفَ، ومَكَّنَكُمُ اللهُ مِنْ هَـٰذَا الضَّلَالِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِيَدِينَكُمْ بِجَرَائِمِكُمْ يَوْمَ الدِّين، وَيُعَذِّبَكُمْ خَالِدِينَ فِي دَارِ الْعَذَابِ بِسَبَبِ كُفْرِكُم، وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَنِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالِ مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ سُلُوكِهَا، وَأَمَدَّهُ بِمُخْتَلِفِ الْقُوَىٰ لِيُحَقِّقَ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، مَا لَمْ يَتَعَارَض اخْتِيَارُهُ مَعَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ فِي كَوْنِهِ.

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ: «يُضِلُّ» بِمَعْنَىٰ: يُمَكِّنُ مِنَ الضَّلَالِ مَنْ أَرَادَهُ لِنَفْسِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُسْرِفَ فِي بَغْيِهِ وَآثَامِهِ، الْمُرْتَابَ فِي الْحَقِّ الْجَلِيِّ الواضِحِ لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالِ.

المُسْرِفُ فِي ذُنُوبِهِ: هو الْغَالِي فِي مَعَاصِيهِ وَبَغْيِهِ وَجرائِمِهِ وآثامه.

المُرْتَابُ: هُوَ الَّذِي يَخْتَار لِنَفْسِهِ مَذْهَبَ الشَّكِّ فِي كُلِّ حَقيقةٍ تَتَضَمَّنُ تَحْذِيرَهُ مِنْ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَهْوَىٰ وَيَشْتَهِي مِنْ دُنْيَاهُ، وَمَنْعَهُ مِنْ تَحقيقِ مُرَادَاتِهِ الظَّالِمَةِ الآثمة.

■ قول اللهِ عزّ وجلَّ بياناً مِنْهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آيَاتِهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتاهم، وفي هَـٰذَا الْبَيَانِ الاعْتِرَاضِيِّ ضِمْنَ عَرْضِ قِصَّةِ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِنْ آلِ فِرْعَوْن فِي مَجْلِسِ فِرْعَوْنِ، إِشْعَارٌ بِصِحَّةِ مَا عَرَضَهُ هَـٰذَا الرَّجُلُ المؤمِنُ، وإِشْعَارٌ بِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دِينِ اللهِ الَّذِي أَوْحَىٰ بِهِ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام:

• ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾.

وفي قراءة أبي عمْرو، وابْنِ ذَكْوان: **[عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ]** بتنوين لفظ «قَلْبٍ».

دلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمَّا كَشَفَ الرَّجُلُ المؤمِنُ مِنْ آل فِرْعَوْنَ هُوِيَّتَهُ الْإِيمَانِيَّةَ، بَدَأَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ يُجادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، إِذْ مَنَعَهُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ، وَمَا لَهُمْ مِنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ فِي مِصْر، وهَـٰذَا مَا جَعَلَهُمْ طُغَاةً جَبَّارِينَ.

فجاء البيانُ القرآنيُّ مُشِيراً ضِمناً إِلَىٰ هَـٰذَا المَوْقف.

• ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾.

السّلطان: الحجة والبرهان.

أي: الَّذِينَ يُخَاصِمُونَ بِالْبَاطِلِ دُونَ بُرْهَانٍ أَتَاهُمْ مِنْ عَقْلٍ سَلِيم، أَوْ عِلْم صَحِيح، أَو خَبَرٍ يَقِينِيٍّ ثَابِتٍ عَنِ اللهِ، للإِقْنَاع بِأَنَّ آيَاتِ اللهِ البيانِيَّةُ لَيْسَتْ مُنَزَّلَةً مِنْ عِنْدِ اللهِ، أَوْ بِأَنَّ آياتِ اللهِ الإعجازِيَّةَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ بَلْ هِيَ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْر، وللدِّفَاعِ عَنِ المفْهُومَاتِ المناقِضَةِ والمضَادَّةِ لِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ حَقَائِقَ.

هـٰذا الْمَوْصُولُ وَصِلَتُهُ مُبْتَدأ، وَخَبَرُهُ دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ التَّالِيَةُ فِي الْآيَةِ.

﴿. . كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ . .﴾.

﴿كَبُرَ﴾: علىٰ وزن «فَعُلَ» مُسْتَعْمَلٌ فِي إِنْشَاءِ الذَّمّ، نَظِيرَ «بِئْسَ» وفاعِلُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلىٰ الجدال المفهوم مِنْ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾. و﴿مَقۡتًا﴾ تمييز.

الْمَقْتُ: أَشَدُّ البغْضِ والكراهِية.

فالمعْنَىٰ: الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، مَمْقُوتُونَ

عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، لانْكِشَافِ مُراوغاتِهِمْ وحِيَلِهِمُ الجدَالِيَّةِ، للإِيهَامِ بِأَنَّ الْحَقَّ الرَّبَّانِي بَاطِلٌ، ولِلْإِيهَامِ بأَنَّ بَاطِلَهُمْ حَقٌّ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا الخَبَرِ عِبَارَةُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الَّتي جيء بها لإنْشَاءِ الذَّم.

إِنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْفِطْرِيَّةِ فِي النُّفُوسِ أَنْ يَمْقُتَ الْمُؤْمِنُونَ دُعَاةُ الْحَقِّ، مَنْ يَظْهَرُ لَهُم أَنَّهُ يُرَاوِغُ وَيَحْتَالُ وَيَكْذِبُ وَيُضَلِّلُ فِي جِدَالِهِ لِيَنْصُرَ بَاطِلَهُ وَيُوهِمَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيُوهِمَ أَنَّ الْحَقَّ بَاطل.

• ﴿.. كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [**كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بتَنْوِين لفظ «قَلْبِ».

الطَّبْعُ فِي المادّيَّاتِ الملْمُوسَةِ كَالْخَتْمِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ المُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا أَرْسَلُوا رَسَائِلَ، وَأَرَادُوا الْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ سِرِّيَّةِ مَا فِيهَا، أَقْفَلُوهَا بإِحْكَام، وَوَضَعُوا عِنْدَ مَكَانِ إِقْفَالِهَا طِيناً خَاصّاً يَطْبَعُونَ عَلَيْهِ خَاتَمَهُمْ الخَاصَّ بِهِمْ، فَيَجِفُّ الطِّينُ وَمِثَالُ الخاتمِ عَلَيْهِ مطبوعٌ، فَلَا يُعْرَفُ مَا فِي دَاخِلِ الرِّسَالَةِ إِلَّا بِكَسْرِ خَاتم الطِّين.

وَعَلَىٰ سَبِيل التوسُّعِ فِي التَّعبِيرِ بِنَقْلِ مَا هُو لِلْمَادِّيَّاتِ لِلْمَعْنَوِيَّاتِ، جَاءَ فِي القرآنِ المجيد التعبير بالطَّبْع وبالختم علىٰ القلوب، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا صَارَتْ مَحْجُوبَةً عَنْ إِدْرَاكِ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ.

وطَبْعُ اللهِ علَىٰ الْقُلُوب لَا يَكُونُ بصُورَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ جبْرِيَّةٍ، ولَكِنْ يَكُونُ نَتِيجَةَ مَا يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ بإرَادَتِهِ، مِنْ أعمالٍ ظاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ، وهـٰذِهِ الأعمال يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الطَّبْعُ، بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ فِي عبادِه، ضِمْنَ قَوانِينِ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ الثابتة.

وقَوَانِينُ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ إِنَّما تَتَحَقَّقُ نَتَائِجُها بِخَلْقِ الله.

المتَكَبِّر: هُوَ المتعاظِمُ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، ويَبْتَغِي بِتَكَبُّرِهِ تَحْقِيقَ مَطَامِعِ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَنَزَعَاتِهِ وَنزغَاتِه.

الْجَبَّار: هو العاتي المُتَسَلِّطُ بالْقُوَّة، الَّذِي يُكْرِهُ النَّاسَ بالْقَهْرِ علىٰ مَا يُرِيدُ بِغَيْرِ حَقٍّ.

فَكُلُّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ لَا يُذْعِنُ لِلْحَقِّ، وَلَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِه، فَتَنْطَمِسُ بَصِيرَتُهُ، فَلَا يَهْتَدِي بِالنُّور الَّذِي يُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَسْتَمِرُّ تَائهاً في ظُلُمَاتِهِ.

وكُلُّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ يَطْبَعُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِهِ، فَيُغَلِّفُهُ الطَّبْعُ بِغِلَافٍ شَامِلٍ كُلَّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطِهِ.

فَقِرَاءَةُ: [**كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بِكَسْرِ لفظ «قَلْبِ» دُونَ تَنْوين، دَلَّتْ عَلَىٰ إِحَاطَةِ الْقَلْبِ بالطَّبْعِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطه، وفي هـٰذِهِ القراءة وَصْفُ صَاحِبِه بأَنَّهُ مُتَكَبِّرٌ جَبَّارٌ.

وقراءَةُ: [**عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بتَنْوينِ لفظِ «قَلْبٍ» دَلَّتْ عَلَىٰ عُمُومِ قُلُوبِ المُتَكَبِّرِينَ الْجَبَّارِين، وَلَيْسَ فِيها دَلَالَةٌ عَلَىٰ إحَاطَةِ كُلِّ قَلْبٍ مِنْهَا بالطَّبْعِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطِهِ.

وفي هـٰذه القِراءة وَصْفُ الْقَلْبِ بأَنَّهُ مُتَكَبِّرٌ جَبَّار.

ففي القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في دَلَالَتَيْهِما، وَقَدْ تَدُلُّ قِراءة تَنْوِينِ لفظ «قَلْبٍ» على احْتِمَالِ وُجُودِ بَعْضِ الْقُلُوبِ الَّتِي لَا يُحِيطُ الطَّبْعُ عليها إحَاطَةً شَامِلَةً لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطِها، وَهـٰذِهِ لَمْ تَصِلْ إلى حَدِّ انطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ انْطِمَاساً كُلِّيّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا لَجَأَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ الرَّجُلُ المؤمِنُ مِنْ آلِهِ إِلَىٰ دَاعِيَةٍ إلى دين اللهِ الحقّ:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾: قرئ: [لَعَلِّيَ أَبْلُغُ] بفتح ياء المتكلم. وقُرئ [فَأَطَّلِعُ] بالرفع على أن الفاء عاطفة غير سَبَبِيَّة.

لَقَدْ خَشِي فِرْعَوْنُ أَنْ يَتَأَثَّر بَعْضُ مَلَئِهِ بِدَعْوَةِ الَّذِي آمَنَ مِنْ آله، فَعَلَّقَ بِدَهَائِهِ الْأَمْرَ عَلَىٰ اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الْبَحْثِ، مُشْعِراً بِأَنَّهُ يُرِيدُ التَّأَكُّدَ مِنْ صِحَّةِ كَوْنِ مُوسَىٰ رَسُولاً مِنْ رَبِّهِ، وأَعْرَضَ عَنْ إِصْدَارِ الْأَمْرِ بِقَتْلِهِ، وَتَنَازَلَ عَنِ الْجَزْمِ بأَنَّهُ كاذِب، مُكْتَفِياً بِبَيَانِ أَنَّهُ يَظُنُّهُ كَاذِباً.

وَطَرَحَ فِرْعَوْنُ بِدَهَائِهِ وَسِيلَةً يَطُولُ أَمَدُ تَحْقِيقِها، فقَالَ لِوَزِيرِه الْأَوَّلِ: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾: أي: قَصْراً عَالِياً لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَىٰ أَسْبَابٍ عُلْوِيَّةٍ، أَصِلُ بِوَسَاطَتِهَا إلى السَّمَاوات، فأَطَّلِعَ هُنَاكَ إِلَىٰ إلَه مُوسَىٰ، فأعْرِفَ مِنْهُ هَلْ مُوسَىٰ رَسُولُهُ حَقّاً أم لا؟!.

الصَّرح: القصر العالي، والبناء الشاهق الذاهِبُ ارتفاعاً في السماء.

لقَدْ قَذَفَ فِرْعَوْنُ القضيَّةَ بِهـٰذِهِ الحِيلَةِ الشَّيْطانيّة، وعَلَّقَها على أَمْرٍ خُرَافِيٍّ مُتَعَذِّرِ التحقيق، وهو يَشْعُرُ بأنّ قَوْمَهُ: إمَّا هُمْ ضُعَفَاءُ التَّفْكِير قَلِيلو الْعِلْم، يَرَوْنَ أَنَّ لِفِرْعونَ قُدْراتٍ تُمَكِّنُهُ إذا بَنَىٰ الصَّرْحَ الْعَالِيَ مِن اتِّخاذِ أَسْبابٍ تُوصِلُهُ إلى السَّمَاءِ وهُنَالِكَ يَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ. وإمَّا شَيَاطِينُ مِثْلُهُ يُوَاطِئُونَهُ علَىٰ أكاذِيبِهِ وحِيَلِهِ، فَهُمْ شُرَكاؤه في الملْكِ والسُّلْطانِ والمنافع.

وبهـٰذا قَطَعَ فِرْعَوْنُ بَحْثَ هـٰذِه القضيَّةِ دَاخِلَ قَصْرِ الحُكْم، بانْتِظَارِ بِنَاءِ الصَّرْحِ واتّخاذِ الْأَسْبَابِ إِلَىٰ السَّمَاء.

• ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾: أي: لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ العالِيَةَ الرفيعة في الْأَجْوَاء الْعُلْيَا.

• ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ وهو بدَلُ كُلٍّ من كلٍّ، وهو بَدَلٌ يُقْصَدُ بِه الشَّرْحُ والتوضيح.

• ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: بِنَصْبِ لَفْظ: «أَطَّلِعَ» بأنْ مضمرة على أنّ الفاء سببية.

وفي القراءة الأخرىٰ، وهي قراءة جمهور القراء العشرة برَفع «أطّلِعُ» على أن الفاء عاطفة فقط، أي: فأنا أَطّلِعُ.

أطّلِع: أي: أَنْظُرُ وأشاهد. يُقَالُ لغة: «اطَّلَعَ إِلَىٰ الشيء» أي: تَطَلَّعَ وَنَظَرَ لِمَعْرِفَتِه[1].

• ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾: كان فِرْعَوْنُ يَقُولُ: إنَّ مُوسَىٰ سَاحِرٌ كذّابٌ، فلَمَّا سَمِعَ مَقَالَاتِ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِنْ آلِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ تَأْثِير دَعْوَةِ مُوسَىٰ قَدْ نَفَذَتْ إِلَىٰ بَعْضِ رِجَالِ قَصْرِهِ من آلِهِ، تَنَازَلَ فِي عبارَتِهِ مِنَ الْقَوْلِ المجْزُومِ بِهِ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ الظَّنِّ بأنَّ مُوسَىٰ كَاذِبٌ.

• ﴿..وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ..﴾: أي: وَكَذَلِكَ التَّزْيِينِ الَّذي جَعَلَهُ يُعْرِضُ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ المؤمِنِ مِنْ آلِهِ إلىٰ الْحَقِّ الرَّبَّاني، زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ في كُلِّ حَيَاتِه، ومِنْهُ تَدْبيرُ التخلُّصِ مِنَ المؤمِنِ مِنْ آلِهِ، بِوَسَائِلَ سِرِّيَّةٍ لَا يُصْدِرُ فِيهَا أَمْراً صَرِيحاً يُزَعْزِعُ بِهِ أركانَ مُلْكِه.

• ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: بالبِنَاءِ لما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ، وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ**] بالبناء لِلْمَعْلُوم.

أَمَّا قِرَاءَةُ «صُدَّ» بِالبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فَقَدْ دَلَّتْ علَىٰ أَنَّهُ مُنِعَ وَصُرِفَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ. ومَعْلُومٌ أَنَّ الصَارِفَ لَهُ شَيْطَانُهُ بِمُسَاعَدَةِ أهْوَاءِ نَفْسِهِ وشَهَوَاتِها، ونَزَعَاتِها ونَزَغَاتها.

---

(١) انظر تدبر الآية (٣٨) من سورة (القصص/ ٤٩ نزول).

وأمَّا قِرَاءَة «صَدَّ» بالبناء لِلْمَعْلُوم، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ، وَمَنَعَ غَيْرَهُ بِسُلْطَانِهِ وَوَسَائِلِهِ عن سُلُوكه، إذْ فِعْل «صَدَّ» يُسْتَعْمَلُ لَازِماً ومُتَعَدِّياً.

• ﴿..وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

الكيد: التَّدْبير الظاهِرُ أو الخفي للإضرار بالمكِيد.

التَّبَابُ: الانْقِطاعُ عَنْ تَحْقيقِ النَّتَائِجِ الْمَرْجُوَّةِ مِنَ الْعَمَل، ويَكُونَ غايَةً لِلْكَيْدِ ضِدَّ الْحَقِّ وَدُعَاةِ الْحَقِّ. ويَأْتِي بِمَعْنى الْخُسْرانِ والهلاك.

دَلَّت هـٰذِهِ الْعِبَارَة علَىٰ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَادَ كَيْداً مَا، للتَّخَلُّصِ مِنْ الرجُلِ المؤمِنِ مِنْ آله، وَمِنْ مُوسَىٰ، لَكِنَّ اللهَ أَحْبَطَ كَيْدَهُ، إذْ تَسَارَعَتِ الْأَحْدَاثُ، وَخَرَجَ مُوسَىٰ بِبَنِي إسْرَائيل مِنْ مِصْرَ، وتابَعَهُمْ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ، وأَنْجَىٰ اللهُ مُوسَىٰ وهَارُونَ وَمَعَهُمَا بَنُو إسْرَائيل، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جَيْشِهِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ، فَكَانَ كَيْدُ فِرْعَوْنَ فِي خَيْبَةٍ، وكَانَ هُوَ وَكُلُّ جَيْشِهِ في خُسْرَانٍ وَهَلَاك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَسِيرَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الدَّعَوِيَّةِ فِي قَوْمِه:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿٣٨﴾ • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر: [**اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ**] بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم وصلاً، وأثبتها في الْوَصْلِ والوقف ابْنُ كثير، ويَعْقُوب.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة بِحَذْفِ ياء المتكلم: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾

وصلاً ووقفاً، ومثلُ هـٰذا الْحَذْفِ مَعْرُوف في العربية، والغرضُ مِنْهُ الإيجاز في اللَّفْظِ.

(٤٠) • قرأ ابْن كثير، وأَبُو عَمْرو، وشعبة، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: [**يُدْخَلُونَ الْجَنَّة**] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿**يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ**﴾ بالبناء للمعْلوم.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنَىٰ المراد، أي: يُدْخِلُهُمُ الله الجنَّة، فَهُمْ يَدْخُلُونها.

يَظْهَرُ أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ أَنِ انْكَشَفَ أَمْرُهُ أَنَّهُ مِنَ المؤمِنينَ بمُوسَىٰ وَهَارُونَ، ومِنَ المؤمِنِينَ بِمَا جَاءَا بِه عَنِ اللهِ، ومِنَ الْعَالِمِينَ الْوَاعِينَ تَلَقِّياً عَنْهُمَا كَثِيراً مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وقَضَايَاهُ الكُبْرَىٰ، رَأَىٰ مِنَ الواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يَنْطَلِقَ فِي قَوْمِه الْمِصْرِيينَ بَدءاً بالْأُسْرَةِ الْفِرْعونِيَّة، دَاعِياً إلى سَبيلِ رَبِّهِ، ودِينِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ وَهَارُونُ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ وَجَدَ أَنَّ دَعْوَتَهُ دَاخِلَ الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ قَدْ أَبْعَدَهَا فِرْعَوْنُ إِلَىٰ أَجَلٍ لَنْ يَأْتِيَ، إِذْ عَلَّقَ الْأَمْرَ عَلَىٰ بِنَاءِ الصَّرْحِ الشَّاهِقِ الْمُسْتَعْلِي فِي السَّمَاءِ، وَعَلَىٰ صُعُودِه هُوَ إِلَىٰ أَعْلاهُ، واتِّخَاذِهِ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ رَجَاءَ أَنْ يَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ في السَّمَاءِ.

فجاءَ في بيانِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ المصريينَ مَا يَلِي:

• ﴿.. يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

نَادَاهُمْ مُسْتَعْطِفاً مُترفقاً بِهِمْ، مُبَيِّناً لَهُمْ أَنَّهُمْ قَوْمَهُ، الَّذِينَ يُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ، وَيَحْرِصُ عَلَىٰ نَجاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم.

• ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾: أي: فِيما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ.

• ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: أي: أُبَيِّنْ لَكُمْ وَأُوَضِّحْ لَكُمُ الطَّرِيقَ

الموافق للحقّ والصّواب، ولما هُوَ الأفْضَلُ والأحْسَنُ والأكْثَرُ نفعاً، والأبْعَدُ عن الضّرَرِ العاجل والآجل.

الرَّشاد: هو السُّلُوكَ الفكريُّ والنّفسيُّ وَالخَلْقِيُّ والعَمَلِيُّ الموافق للحقِّ والصوابِ والْخَيْر.

• ﴿يَـٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَـٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩﴾:

المتاع: مَا يُنْتَفَعُ بهِ إلَىٰ وَقْتٍ ما، ومَصِيرُهُ إلى الزَّوَالِ والفناء.

دَار القَرَارِ: أي: دار الاستقرار الدائم، والإقامَةِ الدّائمة، بِسُكُونٍ واطْمِئْنَان، وَهـٰذا اصطلاحٌ قرآنيٌّ مأخُوذٌ من الْوَضْعِ اللّغَوِيِّ، بإضَافَةِ الدَّوَام إليه، أي: الخلود بلا نهاية.

القرارُ في اللُّغة: المكانُ الَّذي يَثْبُتُ فِيهِ الشيء، ومَصْدَرُ «قَرَّ» بمعنى: أقامَ، وبمَعْنَىٰ: سكَنَ واطْمَأَنَّ.

أي: يَا قَوْم الَّذين أحْرِصُ عَلَىٰ نَجاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ الله، وعلى ظَفَرِهِمْ بالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّة، مَا هـٰذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إلَّا مَتاعٌ سَرِيعُ الزَّوَالِ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بِالفناء، فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ زِيناتُها، وَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ مَظَاهِرُهَا وَفِتْنَتُهَا.

ويا قَوْمِ إنَّ الْآخِرَةَ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، هِيَ دَارُ الاسْتِقْرَارِ الدَّائِم، والإقامَةِ الَّتِي لا نِهَايَةَ لها، فَاحْذَرُوا أَنْ يَكُونَ اسْتِقْرَارُكُمْ فِي الآخِرَة في دَارِ العذاب، واحْرِصُوا أَنْ يَكُونَ اسْتِقْرارُكُمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ للمؤمِنِينَ المتقين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ دَعْوَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ:

• ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَـٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٤٠﴾:

مَا كان لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَعْرِفَ مَا عَرَضَهُ فِي بَيَانِهِ الدَّعَوِيِّ الَّذِي

جَاءَ فِي هـٰذه الآية وغيرها، مَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ عَنْ دِينٍ رَبَّانِيٍّ جَاءَ بِهِ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، فالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ يَتَّصِلُ سِرّاً بِمُوسَىٰ وَهَارُونَ بَعِيداً عَنْ عُيُونِ جواسِيسِ فِرْعَوْن، ويتَلَقَّىٰ عَنْهُمَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مِن قَضَايَا الدِّين، ومِنْهُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ بَيَانُهُ الدَّعَوِيُّ للمِصْرِيين.

إنَّ مِنْ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيّ، أَنْ لَا يَجْزِي عَلَىٰ السَّيِّئَةِ، إذَا جَازَىٰ عَلَيْها ولَمْ يَغْفِرْ ولَمْ يَعْفُ، إلَّا بِمِثْلِهَا في أَشَدِّ دَرَجَاتِ الجزاء، فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إلَّا مِثْلَهَا.

وَمِنْ قَانُونِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِي، أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وهُوَ مُؤْمِنٌ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤمِنَ بِهِ فِي دِينِ اللهِ، وَكَانَ عَمَلُهُ طاعَةً لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، كَانَ جَزَاؤُهُ يَوْمَ الدِّينِ أَنْ يُدْخِلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً، وَأَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ فِيهَا مَا يُحِبُّ مِنْ رِزْقٍ مَادِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ، غَيْرِ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ، وَدُونَ أَنْ يَكُونُ خَاضِعاً لِحِسَابٍ في مُقَابِلِ الأَعْمَالِ، لَا مِنَ الْمَرْزُوقِينَ فيها، ولَا مِنَ الملائِكَة.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِمّا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ وَيُلْبَسُ وَيُتَلَذَّذُ بِهِ، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْحَيُّ فِي حَيَاتِهِ، حَتَّىٰ الهواء الذي يَتَنَسَّمُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ دَعْوَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ في قَوْمِه:

• ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤١) • قرأ نافع، وابْن كثير وأبو عَمْرو، وهشام، وأبو جعفر: **[مَالِيَ أَدْعُوكُم]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرَة بالإسكان.

(٤٢) • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[وَأَنَآ أَدْعُوكُمْ]** بإِثْباتِ ألف «أنا» وتُمَدُّ للهمزة بَعْدها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ألف «أَنَا» من النُّطْق.

(٤٤) • قرأ نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللهِ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة بالإسْكان.

التدبّر التحليلي:

دَلَّتْ هٰذِهِ الآياتُ علَىٰ أنَّ دَعْوَةَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ صِرَاعٍ جَدَلِيٍّ، مَعَ مُجَادِلِينَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ الْقَوْم، فَهُوَ يَدْعُوهم إِلَىٰ الإيمانِ بالحقِّ الرَّبَّانِيّ، وهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الكُفْرِ باللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وأنْ يُشْرِكَ بِهِ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ اللهِ، وهِيَ بَاطِلَةٌ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ يُثْبِتُ أَنَّ لَهَا حَقِيقَةً عِلْمِيَّةً ما.

• ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾؟!:

إِنَّهُ يُعْلِنُ تَعَجُّبَهُ الشَّدِيدَ مِن الْفَارِقِ الكَبِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، هو يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ النَّجاةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ في النار يَوْم الدِّين، وهُمْ يَدْعُونَهُ إلى الدُّخولِ فِي دِينِهِمْ الَّذِي يَجْعَلُ أصْحَابَهُ من الخالِدِينَ يَوْمَ الدِّينِ في عَذَابِ النار.

﴿مَا لِيٓ﴾؟: عِبارَةُ تَعَجُّب، أصْلُ مَعْنَاها: أَيُّ شيءٍ هَو لِي مُبَايِنٌ

لِلْحَقِّ والخيرِ حَتَّىٰ رَفَضْتُمْ دَعْوَتِي وَأَنْكَرْتُمُوها، وأنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ دِينٍ يُنْجِيكُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار يَوْمَ الدين، هـٰذا اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنْكارِي، اخْتُصِرَ إلَىٰ عِبارة: «ما لي ـ ما لَكَ ـ مَا لَهُ ـ مَا لَكُمْ» ونحو ذلك.

ويُقابِلُها في الآيَة عبارةٌ مُنَاظِرَة مَطْوِيَّةٌ تَقْدِيرها: وَمَا لَكُمْ؟ أي: وأيّ شيءٍ هُوَ لَكُمْ مِنْ دَلِيلٍ تَقْبَلُهُ العقولُ السَّلِيمة، وأنْتُمْ تَدْعُونَنِي إلَىٰ دِينٍ شِرْكِيٍّ عَاقِبَتهُ الْخُلُودُ في عَذَابِ النّارِ يَوْمَ الدِّين؟!.

■ وَشَرَحَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ خُلَاصَةَ مَضْمُونِ دَعْوَتِهِمْ له، ومَضْمُونِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، فقال لهم مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ الآيَةُ التالِيَة:

● ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ باللهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ، وأَنَا وَأَنْتُمْ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي يُهَيْمِنُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، ويُمِدُّهَا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَاماً، وَلَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ حَقُّ الإيمانِ بأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ الْوَاحِدُ الأَحَدُ، وبأَنَّهُ الإلَهُ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ الواحِدُ الأَحَدُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وكُلُّ إخْلَالٍ بهذا الاعْتِقَادِ مِنَ الكُفْرِ به.

وتَدْعُونني لِأُشْرِكَ بِهِ آلِهَتَكُمْ، وَهِيَ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَيْسَ لِي بِإِلَـٰهِيَّتِهَا عِلْمٌ، إذْ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ يُثْبِتُ إلَـٰهِيَّتَها، ولَا يُوجَدُ دَلِيلٌ حِسِّيٌّ يُثْبِتُ رُبُوبِيَّتَها الَّتِي تَسْتَلْزِمُ إلَـٰهِيَّتَها، ولا يُوجَدُ خَبَرٌ عَنِ اللهِ يَأْمُرُنَا بِعِبَادَتِها، فَكَيْفَ تَدْعُونَنِي أَنْ أَعْبُدَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ؟! فَإِنْ كَانَ لَكُمْ دَلِيلٌ مَا عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِها أَوْ إلَـٰهِيَّتِهَا فَهَاتُوا دَلِيلَكُمْ، لٰكِنَّكُمْ لَا تَمْلِكُونَ دَلِيلاً.

وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إلى الإيمانِ باللهِ رَبِّكُمْ، الَّذِي لَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، فَهُو إلَـٰهُكُمُ الَّذِي لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ سِوَاه، ومِن صِفَاتِهِ أَنَّهُ الْعَزِيزُ الْغَفَّار.

العزيز: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ لِكُلِّ شيءٍ، الْقَدِيرُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ وأَنْ يَخْلُقَ مَا يُرِيد، فبِعِزَّتِهِ يُثِيبُكُمْ بالْخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ يوم الدّين، إِنْ آمَنْتُمْ بِهِ وَأَسْلَمْتُمْ له، وبِعِزَّتِهِ يُعَاقِبُكُمْ بِالْخُلُودِ فِي دَار الْعَذَابِ النَّار يَوْمَ الدِّين، إِنْ كَفَرْتُمْ وَأَشْرَكْتُمْ.

وبِعِزَّتِهِ يُحْيِيكُمْ حَيَاة طَيِّبَةً في الدُّنيا إِنْ آمَنْتُمْ وأَطَعْتُمْ، وبِعِزَّتِهِ قَدْ يُعَذِّبُكُمْ فِي الدُّنيا، ويُهْلِكُكُم إِهْلَاكاً شَامِلاً، إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُم وَعَصَيْتُم.

الْغَفَّار: أي: عَظِيمُ الْغُفْرَانِ وَكَثِيرُهُ، فَهُوَ يَسْتُرُ سَوَابِقَ ذُنُوبِكُمْ وجَرَائِمكُمْ، وَيَتَجَاوزُ عَنْ مُؤَاخَذَتِكُمْ عَلَيْها، إِنْ آمَنْتُمْ وأَسْلَمْتُمْ وَعَمِلْتُم أَعْمَالاً صَالِحَاتٍ تَرْضِيه.

■ وتَابَعَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ جِهَادَهُ الدَّعَوِيَّ قَائِلاً لِقَوْمِهِ مَا جاء بيانُهُ في الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:

● ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: عِبَارَةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِ الْكَلَام وَتَوْثِيقِهِ، وقَدْ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ الْقَسَم، فهِي بِمَنْزِلَة «حَقّاً ـ لَا شَكَّ ـ لَا مَحَالَةَ» وأَصْلُ مَعْنَىٰ الْجَرْمِ الْقَطْعُ. فكَأَنَّ المعْنَىٰ: لَا جَرَمَ جَارِمٌ مَا أَقُولُ بِرَأْيٍ مُخَالِفٍ لَهُ، ثُمَّ حَصَلَ الاكْتِفَاء بِعِبَارَة: «لَا جَرَمَ».

فالمعنى: لَا شَكَّ فِي أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَجَعْلِهِ إِلَٰهاً، لَيْسَ لَهُ أَثَرٌ يُحَقِّقُ صِحَّةَ هَٰذِهِ الدَّعْوَةِ فِي الدُّنْيَا وَلَا في الآخِرَة.

الدَّعْوَة: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ «دَعَا، يَدْعُو».

أي: فَدَعْوَتُكُم بَاطِلَةٌ لَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ؛ لِأَنَّ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ لَا وُجُودَ لَهُ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَة.

هَلْ يُوجَدُ رَبٌّ حَقٌّ، أَوْ إِلَٰهٌ حَقٌّ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟. إِنَّهُ لَا يُوجَدُ، فَكُلُّ رَبٍّ سِوَىٰ اللهِ، وكُلُّ إِلَٰهٍ سِوَىٰ اللهِ، لَا تُوجَدُ دَعْوَةٌ صَحِيحَةٌ لَهُ، قَدْ تُوجَدُ لَهُ علَىٰ أَلْسِنَةِ الكَذَّابِينَ دَعْوَةٌ كاذِبَةٌ، لَكِنَّ الدَّعْوَةَ الْكَاذِبَةَ مَرْفُوضَةٌ لدَىٰ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ السَّلِيمَة، فَهِيَ بِمَثَابَةِ الْأَمْرِ الْمَعْدُومِ الَّذِي يُقَالُ بِشَأْنِهِ لَا وُجُودَ له.

وبهـٰذَا المعْنَىٰ نَفْهَمُ قَوْلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لِمُشْرِكي قَوْمِه:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وأبانَ لَهُمْ بَعْدَ هَـٰذا قَضِيَّتَيْنِ تَتَعَلَّقَانِ بِالْآخِرَة:

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعالَىٰ مُبيّناً مَضْمُونَ قولِهِ لهم: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: وَأَنَّ مَرْجِعَنا بَعْدَ الْمَوْتِ، والْبَعْثِ إِلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضائِهِ وَتَنْفِيذِ جَزَائه.

كلمة «مَرَدّ» تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ اسْمَ مَكَانٍ، واسْمَ زَمَانٍ، ومَصْدراً مِيمِيّاً، وكُلُّ هـٰذِهِ المعاني مُلائِمَةٌ هنا، أي: وأَنَّ رُجُوعَنا، وَمَكَانَ رُجُوعِنَا، وزَمَانَ رُجُوعِنَا إِلَىٰ الحياة الْأُخْرَىٰ، كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ لِمُلَاقَاةِ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ.

يقَالُ لُغةً: «رَدَّهُ، يرُدُّه، رَدّاً، وتَرْدَاداً، وَرِدَّةً» بمعنَىٰ أَرْجَعَهُ.

القضيّة الثّانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً مَضْمون قوله لَهُمْ: ﴿..وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: وأَنَّ الْغَالِينَ في ذُنوبِهِمْ، ومَعَاصِيهِمْ، وبَغْيِهِمْ، وجرائِمِهِمْ وآثَامِهِمْ، وظُلْمِهِمْ إِلَىٰ دَرَكَةِ الكُفْرِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ،

المُلاَزِمُونَ لَهَا لَا يُفَارِقُونَها، ولَا يُفَارِقُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ عَذَابُها.

دَلَّ تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ فِي هٰذِهِ الْجُمْلَةِ، عَلَىٰ قَصْرِ مُلازَمَةِ النَّارِ يَوْمَ القيامَةِ عَلَىٰ الْمُسْرِفِين في مَعَاصِيهِمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، والشِّرْكُ مِنْهُ؛ لأنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

وبَعْدَ أَنْ أنْهَىٰ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ بَيَانَ الكلّيَاتِ الْكُبرَىٰ مِنْ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهم، قال لهم مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآيَةِ التَّالِيَةِ:

• ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ مُؤْمِنَ آل فِرْعَونَ، كَانَ عِنْدَهُ خَبَرٌ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، بِأَنَّ اللهَ مُهْلِكٌ فِرْعَوْنَ وَكُفَّارَ آلِهِ وَجُنُودَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ مُسْتَعْمِلاً الْحَرْفَ الدَّالَّ عَلَىٰ المسْتَقْبَلِ فِي الحياة الدُّنيا، وهو حرف «السين»: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾: أي: فَستَذْكُرُونَ في الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَة، مَا أقولُ لَكُم بتكرارٍ ناصِحاً وَهَادِياً، وذَلِكَ حِينَمَا يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابٌ مِنَ اللهِ يَسْتَأْصِلُكُم بِهِ مُهْلِكاً لَكُمْ.

وَشَعَرَ بأَنَّ كُبَرَاءَ آلِهِ قَدْ غَضِبُوا مِنْهُ أَشَدَّ الْغَضَب، لإيمانِهِ بموسَىٰ وهَارُونَ وَمَا جَاءا بِهِ عَنِ اللهِ، وأَنَّهُ إذَا لَمْ يَعْصِمْهُ اللهُ مِنْهُم عَذَّبُوهُ وقَتَلُوهُ، فَقَالَ: ﴿. . وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ . .﴾:

التَّفْوِيض: جَعْلُ التَّصَرُّفِ كُلِّهِ تَحْتَ إرادَةِ مَنْ حَصَلَ التَّفْوِيضُ إِلَيْهِ.

يُقَالُ لغة: «فَوَّضَ فُلَانٌ أَمْرَهُ إِلَىٰ فُلانٍ» أي: جَعَلَ لَهُ التَّصرُّفَ فيه.

فَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَىٰ اللهِ نَظِيرُ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ الله، ويَدْخُلُ في مَعْنَىٰ هٰذا التَّفْوِيض سُؤَالُ اللهِ الْحِمَايَةَ والْحِفْظ مِنْ مَكْرِ الأعْدَاءِ وكَيْدِهِمْ، وَمَا يُدَبِّرُون مِنْ شَرٍّ أَوْ ضُرٍّ أَوْ أَذىً.

وَبَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ تَفْوِيضَ أَمْرِهِ إِلَى اللهِ، أَثْنَىٰ عَلَىٰ اللهِ بأَنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ تَدْبِيرٌ يُدَبِّرُهُ أَعْدَاؤُهُ وأَعْدَاءُ دِينِهِ ضِدَّه، فَهُوَ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، قَادِرٌ علَىٰ أَنْ يُحْبِطَ تَدْبيراتِهِمْ، فَقال مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنْهُ: ﴿إِنَّ.. ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ .. ﴿٤٤﴾﴾: أي: والْبَصِيرُ بِعبَادِهِ جَمِيعاً، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْمِيَ أَوْلِيَاءَه، ويُحْبِطَ تَدَابِيرَ أَعْدَائِهِ ضِدَّ أَوْلِيائه، وهٰذا مَا تَحَقَّقَ فِعْلاً بَعْدَ ذَلك.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْحِمَايَةِ لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مَكْرِ كُفَّارِ آلِهِ الَّذِي مَكَرُوه لِتَعْذِيبِهِ وَقَتْلِهِ، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: فَوَقَّىٰ اللهُ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرَهُ كُفَّارُ آلِهِ، صُغْرَاهَا وَكُبْرَاهَا، مِنَ الإهَانَةِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْهُ، فالسِّجْنِ، والتَّعْذِيبِ، حَتَّىٰ الْقَتْلِ، إِذْ تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمْ أَحْدَاثُ خُرُوجِ مُوسَىٰ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرِ، وَاسْتِدْعَاءِ الْجُنْدِ مِنَ الْأَقَالِيم لِلَّحَاقِ بِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَخُرُوجِ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ وَمَعَهُ كُفَّارُ آلِهِ، ثُمَّ كَانَتِ النِّهَايَةُ فَلْقَ الْبَحْر، وَنَجاةَ بَنِي إِسْرَائيل، وَغَرَقَ فِرْعَوْنَ وَكُلِّ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ.

وَحَمَىٰ اللهُ المؤمِنَ الدَّاعِيَةَ مِنْ كُلِّ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرَ كُفَّارُ آلِ فِرْعَوْنَ.

﴿.. وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَأَحَاطَ نَازلاً بآلِ فِرْعَوْنَ الكَفَرَةِ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ شَدِيدُ العذاب وشَاقُّهُ وَمُؤْلِمُه.

سُوءُ العذاب: هو مِنْ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصُوف، أي: العذابُ السُّوءُ. **السُّوءُ**: اسْمٌ جَامِعٌ لمخْتَلِفِ الآفَاتِ وكُلِّ مَا يَقْبُحُ.

وسُوءُ الْعَذَابِ هـٰذا، اسْتَمَرَّ مِنْ سَاعَاتِ إغْرَاقِهِمْ فِي الْبَحْرِ، تَضْرِبُهُمُ الْمِيَاهُ الْمُنْهَالَةُ حتَّىٰ مَوْتِهِم، وَبَعْدَ مَوْتِهِمْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنُفُوسِهِمْ عَذَاباً آخر، إذْ جَعَلَهَا تُعْرَضُ عَلَىٰ النَّار غُدُوّاً وَعَشِيّاً، لِيَذُوقُوا آلاماً مِنْ آلامِ حَرِّها.

الْغُدُوُّ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الْغُدْوَةِ» وهي مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفجر والشمس.

الْعَشِي: هو الوقْتُ مِنَ الْعَصْرِ إلى غُرُوب الشمس.

وَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ بَعْثِ الموتَىٰ إلَىٰ الآخِرَة، وَيَجْرِي حِسَابُ اللهِ، وفَصْلُ قَضَائِه بآلِ فِرْعَوْنَ الْكَافِرِين، يَقُولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفِينَ أَنْ يَسُوقُوهم إلَىٰ دركاتِهِمْ فِي جَهَنَّمَ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾: أي: أَدْخِلُوهم مَكاناً مِنْ جَهَنَّمَ فِيهِ أَشَدُّ الْعَذَاب، وَظَاهِرٌ أَنَّهُمْ إذَا دَخَلُوا هذا المكانَ، كَانُوا قَدْ دَخَلُوا أَشَدَّ الْعَذَابِ الْمُحِيطِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهِم. وتشْمَلُ العِبَارَةُ فِرْعَوْنَ لِأَنَّهُ رَأْسُ آلِ الْملك.

وَلَا تَمْلِكُ الْمَلَائِكَةُ المكلّفُونَ إلَّا تَنْفِيذَ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، فَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بطَاعَةٍ تَامَّةٍ، وَقُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ أَعْطَاهُمُ اللهُ إيَّاها.

وجاء في قراءة ابْنِ كثيرٍ، وأبي عمرو، وابْن عامِر، وشُعْبَة:

[.. **وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ٱدْخُلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ**]:

أي: يُصْدِرُ اللهُ حُكْمَهُ بآلِ فِرْعَوْنَ الْكَافِرِين، فَيَقُولُ لَهُمْ: ادْخُلُوا يَا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب.

وبعده يأمُرُ الملائِكَةَ بإدْخالِهِمْ أَشَدَّ العذاب.

فالقراءتان مُتَكَامِلَتَانِ في الدَّلَالَةِ علَىٰ المعنَيَيْنِ المرادَيْنِ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس السابع من دُروس سورة (غافر). والحمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِه.

(١٢)
التدبر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (غافر)
الآيات من (٤٧ ـ ٥٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

القراءات:

(٥٠) • قرأ أبو عَمْرو: [**رُسْلُكُمْ**] بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقي القراء العشرة بِضَمِّ السِّين: ﴿**رُسُلُكُمْ**﴾.

تمهيد:

فِي آيات هـٰذا الدَّرْس عَرْضُ مَشْهَدٍ مِن أَحْوَالِ المعَذَّبِينَ في النَّارِ يَوْمَ الدِّين، وَهُوَ مَشْهَدٌ مُخِيفٌ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الواعِيَةِ، الَّذِينَ لَمْ تَنْطَمِسْ بَصَائِرُهُمْ بالْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين، وحُبِّ الْعاجِلَةِ ومَتَاعَاتِ الْأَنْفُسِ مِنْهَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾:

التَّحَاجُج: التَّخاصُمُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ الْمُقْتَرِنُ بتقديم كُلٍّ مِنْهُما مَا لَدَيْهِ مِنْ حُجَّةٍ فأكثر.

اسْتَكْبَرُوا: أي: تَكَبَّرُوا كِبْراً شَدِيداً في الحياة الدُّنيا، إذْ كَانُوا هُمْ أَصْحَابَ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ والْمُلْك، والأَمْر والنَّهْي علىٰ جَماهِيرِ قَوْمِهِم.

مُغْنُونَ: أي: كافُونَ وصَارِفُون. **التبَعُ**: التابع، يقال: للوَاحد فأكثر.

نَصِيباً: **النصِيبُ**: الحظُّ مِنْ كُلِّ شيءٍ، ويُجْمَعُ على «أنْصِبَاء، وأنْصِبَة، وَنُصُب» ويُسْتَعْمَلُ في الخير والشّرّ.

مِنَ النار: أي: مِنْ عَذَاب النَّار الذي نُعَذَّبُ بِهِ.

إِنَّا كُلٌّ فِيهَا: التَّنْوِينُ فِي «كُلٌّ» هُو تَنْوِينُ العِوَضِ عَنِ الْمُضَافِ إلَيْهِ المحذوف، أي: كُلُّ فَرِيقٍ مِنَّا.

المعْنىٰ: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِي لِبَيانِ رَبِّكَ للاتِّعَاظِ والاعتبار، صُورَةً مِنْ صُوَر التَّخَاصُم الَّذِي سَوْفَ يكونُ يوْمَ الدِّينِ في دَارِ العذاب النار، بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنْيَا أَتْباعاً، والَّذِينَ كانُوا فِي الدُّنْيَا مَتْبُوعِينَ مُسْتَكْبِرِينَ فِي الأَرْضِ، إِذْ كَانُوا أَصْحَابَ الدَّوْلَةِ وَالْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ، أَو الزَّعَامَةِ والشَّرَفِ والجاه.

المخاصِمُونَ الّذِينَ كَانُوا ضُعَفَاءَ أَتْبَاعاً: يَقُولُونَ للّذِينَ كانوا أئمَّتَهُمْ: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَابِعِينَ، وكُنْتُمْ أَئِمَّتَنَا، نُطِيعُكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ تَأْمُرُونَنا به، وَصِرْنَا الآنَ جَمِيعاً مُعَذَّبين لِلْكُفْرِ الَّذِي أَمَرْتُمُونَنَا بِهِ، وللجرائِمِ الَّتِي أَطَعْنَاكُمْ فِي ارْتِكَابِها، فَهَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ كَافُونَ وَصَارِفُونَ عَنَّا جُزْءاً مِنْ عَذَابِ النَّارِ الَّذِي نُعَذَّبُهُ، بأنْ تَتَحَمَّلُوهُ عَنَّا، مُرَاعِينَ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ سَبَباً فيما نَحْنُ فِيهِ مِنْ عذَاب؟؟.

الرَّدُّ الذي يَرُدُّ بِهِ الَّذِين كانُوا مُسْتَكْبِرِينَ مَتْبُوعِين: إِنَّا جَمِيعاً نَحْنُ

وَأَنْتُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ نُعَذَّبُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يُعَذَّبُ بالْعَدْلِ على مقدار مَا قَدَّمَ في الدُّنيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْ كُفْرٍ وَجَرائِمَ وآثام، باخْتِيَارِه الْحُرّ.

إنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ جَمِيعاً بِالْفَضْلِ وَالْعَدْلِ، فلَمْ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ بأَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ لَمْ يُحَاسِبْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ، فَلا نَحْمِلُ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِكُمُ الَّذِي تَسْتَحِقُّونَهُ، وَلَا نَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكُفَّ أَوْ نَصْرِفَ عَنْكُمْ شيئاً مِنَ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ جَمِيعاً، والْحُكْمُ لَهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ.

في عَرْضِ هـٰذا التَّخَاصُم المقتَرِنِ بِتَقْدِيم كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقين مَا لَدَيْهِ مِنْ حُجَّة، وبصُورَتِهِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ الْأَتْبَاع والمتْبُوعِينَ، إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ جُنُودَ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ لَيْسُوا مِن آلِهِ، والَّذِينَ لَمْ يَتَعَرَّضْ آخِرُ الدَّرْسِ السَّابِقِ السَّابع لِبَيَانِ إدْخَالِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، سَوْفَ يَدْخُلُونَهَا مَعَ آلِ فِرْعَوْنَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الإرَادِي، وجرائِمِهم الَّتِي كَانُوا يَرْتَكِبُونَهَا بِإِرَادَتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَلَا يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُمْ إِلَّا الْمَسُوقُونَ بِالْإِكْرَاهِ، وَهُمْ مُؤْمِنُونَ غَيْرُ رَاضِينَ عَنْ أَعْمَالِ فِرْعَوْنَ وآلِهِ، إنْ وُجِدَ مِنْ هـٰؤلَاءِ أَحَدٌ في جَيْشِ فِرْعَوْن، الَّذِي أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ الشَّامل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ مَشْهداً آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ أَصْحَابِ النار وهُمْ يُعَذَّبُونَ فيها:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: وقَالَ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ بعَذَابٍ أَبَدِيٍّ لِكُفْرِهِم، مُوَجِّهِينَ قَوْلَهُمْ لِخزنَةِ جهنَّم، يَسْتَعْطِفُونَهُمْ بِتَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ: ادْعُوا رَبَّكُمْ دُعَاءً يُخَفِّفْ بِهِ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ.

خَزَنَةُ جَهَنَّمْ: هُمُ الملائِكَةُ المأمُورُونَ بِحِفْظِ مَا كُلِّفُوا أَنْ يَحْفَظُوهُ فيها.

قال الخزنَةُ: أَلَمْ تكُنْ لكم أَسْمَاعٌ وأَبْصارٌ وَأَجْهِزَةُ إِدْراكٍ تُفرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ والباطل، وبَيْنَ الخير والشّر، وَلَمْ تكُنْ تَأْتِيكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَياةِ امْتِحَانِكُمْ رُسُلُ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ، يُبَلِّغُونَكُمْ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْكُمْ مِنْ إيمَانٍ وَإسْلَام، وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ إِرادَاتٌ حُرَّةٌ؟

قَالَ الْمُعَذَّبُونَ فِي النَّار: بَلَىٰ كَانَتْ لَنا أَسْمَاعٌ وَأَبْصارٌ وَأَجْهِزَةُ إِدْرَاكٍ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الخير والشَّر، وجَاءَتْنَا رُسُلُ رَبِّنَا فَبَلَّغُونَا مَطْلُوبَ اللهِ مِنّا، وكانَتْ لَنَا إرَادَاتٌ حُرَّةٌ غَيْرُ مُكْرَهَة، ولَكِنَّا آثَرْنَا مَتَاعَاتِ الحَيَاةِ الدُّنيا.

الواو في ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ بَعْدَ الاسْتِفْهام أَرَىٰ أَنَّها تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ، يتَلَخَّصُ بِمَا ذَكَرْتُهُ فِي التَّدبّر.

قَالَ الْخَزَنَةُ: لَمْ يَأْذَنْ لَنَا رَبُّنَا بأَنْ نَدْعُوَ بِهٰذا الدُّعَاءِ الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ مِنَّا، وَنَحْنُ لَا نَشْفَعُ لِأَحَدٍ إِلَّا إذَا أَذِنَ اللهُ لَنا بأَنْ نَشْفَعَ لَهُ، فَادْعُوا أَنْتُمْ رَبَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ، ولَكِنْ نَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ كافِرينَ بِهِ، وَمَا دُعَاءُ الَّذِينَ كانُوا كافِرِينَ بِرَبِّهِمْ إِلَّا في ضَيَاعٍ، فَلَا أَثَرَ لَهُ عِنْدَ اللهِ.

وتَمَّ بِهٰذَا الحِوَارُ بَيْنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَخَزَنَتِها.

وبهٰذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْسِ الثامن من دُرُوسِ سُورَة (غافر). والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِه.

(١٣)
التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (غافر) وهو الآيات من (٥١ ـ ٥٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ

ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

القراءات:

(٥١) ● قرأ أبو عمْرو: [رُسْلَنَا] بإسْكان السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلَنَا] بضَمِّ السّين.

(٥٢) ● قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسَائي وخلف: ﴿لا يَنْفَعُ﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَا تَنْفَعُ] بالتاء.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبِيَّانِ جائزان.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْسِ طَمْأَنَةٌ للرَّسُول ﷺ ولِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْصُرُهُمْ في الحياة الدُّنيا، وسَوْف يَنْصُرُهُمْ في الآخِرَة، كما نَصَرَ مُوسَىٰ ومَعَهُ بَنُو إسْرَائيل، علَىٰ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وَجُنُودِهم.

وفِيها توجيهٌ للرَّسُولِ ﷺ بأَنْ يَصْبِرَ ويَسْتَغْفِرَ، وبأَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بالْعَشِيِّ والإبْكار، وهذا التوجيه يَنْسَحِبُ على المؤمنين الذين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم الْقَادِرِ علَىٰ مَا يُرِيد:

● ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾؛

يُؤَكِّدُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بالمؤكِّدَاتِ: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّامُ الْمُزَحْلقة إلى الخبر» أنَّهُ سَيَنْصُرُ رُسُلَهُ والَّذِينَ آمَنُوا صَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَضْطَّهِدُونَهُمْ وَيُدَبِّرُونَ الْمكايدَ مُؤْذِينَ وَمُعَذِّبين وَظالِمِينَ، مَهْمَا أمْهَلَهُمْ وأَمَدَّ لَهُمْ، فالْعَاقِبَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ نصراً للرَّسُولِ ولِلْمُؤْمِنِينَ، على الكافِرينَ الظَّالِمِين، وأَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ سَوْفَ يَنْصُرُ رُسُلَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ فِي مَحْكَمَةِ الرَّبِّ لعبادِهِ، فَيَحْكُمُ لِأَوْلِيَائِهِ بأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، علَىٰ دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا مِنْ إيمانٍ وَعَمَلٍ صَالحٍ، وَيَحْكُمُ علَىٰ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ بأَنَّهُمْ أَصْحَابُ دَارِ العذاب النَّار، عَلَىٰ دَرَكاتِهِمْ فيها، بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياة الدُّنيا من كُفْرٍ وَجرائِمَ وآثام.

الْأَشْهَادُ: الشُّهَدَاءُ، الَّذِينَ يَشْهَدُونَ في مَوْقِفِ الحسابِ وفَصْلِ القضاء، عَلَىٰ مَا عَلِمُوا مِنْ أَحْوَالِ الظَّالِمِينَ في الحياة الدُّنيا، وهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ومِنَ النَّاسِ الصَّادِقِينَ، وفي مُقَدِّمَةِ النَّاسِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ حَمَلَةُ رِسَالَةِ الرُّسُلِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهم، وَدَعَوْا إلى اللهِ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المنكر.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ يَقُومُ الأشهادُ بأَنَّهُ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ الَّتِي يَعْتَذِرُونَ بها عَنْ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِم الثَّابِتِ عَلَيْهِم، والَّذِي كانُوا قَدَّمُوه لِآخِرَتِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَياةِ الدُّنيا.

الْمَعْذِرَة ـ والْمَعْذُرَة: هِي الْحِجَّةُ الَّتِي يُقَدِّمُهَا ويُجَادِلُ بِهَا المعْتَذِرُ عَنْ ذَنْبِهِ لِتَبْرِئَةِ نَفْسِهِ. وجَمْعُها «المعاذِير».

والمعاذير يَشُوبُها الكَذِبُ، وَمِنْ أمْثَالِ الْعَرَبِ: «المعاذِرُ مَكَاذِب».

• ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾: أي: ولَهُمُ الطَّرْدُ الكَبِيرُ العظيم الشَّدِيدُ مِنْ مَهَابِطِ رَحْمَةِ الله جَلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه.

• ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: **السُّوء**: اسْمٌ جَامِعٌ لمختلفِ الآفاتِ والمؤلماتِ وكُلِّ مَا هُو قبيح وَكريهِ، وَسُوءُ مَكَانِ الإقَامَةِ يَوْمَ الدِّين إنَّمَا يَكُونُ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ المجرمين:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَوجيهاً لِرَسُولهِ وإنْذاراً بالتعريضِ لِلْمَعْنِيِّين بالْعِلَاجِ في السُّورَة:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾:

في الآيتين (٥٣ و٥٤) إيجازٌ إلىٰ حَدِّ الإيماءِ لِقِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام وبني إسْرَائيل، أي: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ، وهُوَ الآيات الْبَيِّنَاتُ المنَزَّلَات، والآيَاتُ الخوارِقُ المعجزات، فَكَذَّبَ بها فِرْعَوْنُ وَمَلؤه وَجُنُودُهُم، فَنَصَرْنَا أَوْلِيَاءَنَا عَلَىٰ أَعْدَائِنَا، وَأَوْرَثْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، وفيه هُدىً، وفيهِ ذِكْرَىٰ لِأُولي الألباب، ونَصَرْنَاهم على القوم الكافرين الجبَّارِين في الأرض المقدسة.

الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ للتَّذْكير، وتأتي اسْماً للتَّذْكِرَة، وهِي الوسِيلَةُ المذَكِّرَةُ.

أولو الألباب: هُمْ أصْحَابُ العقولِ الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ، الَّتِي تَعْقِلُ المعارف فتُمْسِك بها، وتَعْقِلُ النَّفْسَ عن اتِّبَاع الْهَوَىٰ.

وكانَ نَصْرُنَا لِمُوسَىٰ أوّلاً، ثُمَّ لِبَنِي إسْرَائيل مِنْ بَعْدِه، تَحْقِيقاً لِوَعْدِنَا الذي سَبَقَ أَنْ وَعْدْنَاه مُوسَىٰ، ومِنْ قَبْلِهِ إبراهيم، وَقَدْ صَبَرَ مُوسَىٰ، وصَبَرَ المتَّقُونَ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ حتَّىٰ أتاهُمْ نَصْرُنا.

• ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كَمَا صَبَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ من الرُّسُل.

• ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: أي: اسْأَلْ رَبَّكَ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ مَا قد يَقَعُ مِنْكَ مِنْ ذَنْب.

إِنَّ الرَّسُول ﷺ مَعْصُومٌ مِنْ أَنْ يَرْتَكِب ذَنْباً مِنْ ذُنُوب مَرْتَبَةِ المتَّقِينَ؛

لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد جَعَلَهُ أُسْوَةً حَسَنَةً لِلْمُؤْمِنِين، فَلَا يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ وَلَا تَقْصِيرٌ في حُدُودِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، لِئَلَّا يَكُونَ فِيهِ أُسْوَةً حَسَنَةً للمتَّقِينَ، ولَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد كَلَّفَ رَسُولَهُ تكالِيفَ زَائِدَةً على تَكالِيفِ مَرْتَبَةِ التقوى، هي مِنْ دَرجاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرارِ، أَوْ دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَمَا هُوَ مِنْ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ يَعْمَلُها غَيْرُ الرَّسُولِ تَطَوُّعاً وَتَنَفُّلاً، لكِنْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهُ مَفْرُوضاً علىٰ الرَّسُول ﷺ، فإذا قَصَّرَ فيما جَعَلَهُ اللهُ وَاجِباً عَلَيْهِ، كَانَ مُذْنِباً في حُدُودِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ أَوْ مَرْتَبَةِ الإِحْسَان.

• ﴿.. وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾:

الْعَشيّ: هو الوقْتُ من الْعَصْرِ إلىٰ الْغُرُوب.

الإبكارُ: هو الوقت من طُلُوعِ الفجر حتَّىٰ طُلُوع الشمس.

أي: وَنَزِّهْ رَبَّكَ تَنْزِيهاً عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِه، واجْعَلْ هذا التنزيهَ مُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، أي بالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

وكُلٌّ مِنَ الاستِغفارِ والتسبيح بحَمْد الله من الأدْويَة المساعِدَةِ على الصَّبْرِ، مع مَا في ذَلِكَ مِنْ فوائدَ جَلِيلَةٍ في معالجة النفس، في اكتساب رضوان الله.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع من دروس سورة (غافر). والحمْدُ للهِ علىٰ معونته، ومدده، وتوفيقه، وفتحه.

(١٤)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٥٦ ـ ٦٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

القراءات:

(٥٨) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [**يَتَذَكَّرُونَ**] بياء الْغَائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**تَتَذَكَّرُون**﴾ بتاءِ المخاطبين وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٦٠) • قرأ ابْن كثير: [**ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم.

(٦٠) • قرأ ابن كثير، وشعبة، وأبو جعفر، ورُويس: [**سَيُدْخَلُونَ جَهَنَّمَ**] بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُه، أي: يأمُرُ الله بإدْخَالهم جَهَنَّمَ فتُدْخِلُهُمُ الملائِكَةُ المكلَّفُونَ أن يُدْخلوهم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ بالبناء للمعلوم. وبينَ القراءتَيْنِ تكامل، أي: يُدْخَلُونَ مُكْرَهِينَ، فَهُمْ يَدْخُلونَها عاجزِينَ عَنِ المقاومَة.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ بيانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيات اللهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ يُعْذَرُونَ بها، وأَنَّ الدَّافِعَ لَهُمُ الْكِبْرُ الَّذِي وَرَّمَ صُدُورَهُمْ فَحَجَبَهُمْ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة.

وَفيها دَعْوَةُ المؤمِنِ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ من الكِبْرِ ومِنْ كُلِّ مَا يَصُدُّ عَن الإيمانِ، وعَنْ سُلُوكِ سبيل الْهُدَى.

وفيها إِقْنَاعٌ بأنَّ النَّاسَ لا يَلِيقُ بِهِمْ أَنْ يَسْتَكْبِرُوا، فَخَلْقُ السَّمَاواتِ والْأَرْضِ أكبَرُ مِنْ خَلْقِهِمْ.

وفِيها بَيَانُ أَنَّهُ لا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ والْبَصِيرُ، ولَا يَسْتَوِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ولَا المسِيء.

وفيها بَيَانُ أنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيها، وأَنَّ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ قال: ادْعُوني أَسْتَجِبْ لكم، وأنَّهُ قال: إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبَادتِهِ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ صَاغِرِين.

وفيها امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ على عباده باللَّيْلِ والنَّهَارِ، وبَيَانُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

وفيها خطَابُ اللهِ النَّاسَ بأَنَّهُ خالِقُ كُلِّ شيءٍ، وأنّه لا إِلَه إِلَّا هو، فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ هـٰذِهِ الحقيقة الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ؟!. كذَلِكَ كَانَ يُصْرَفُ الجاحِدُونَ بآيات الله، فَيَكْفُرونَ، مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ وفي كُلِّ عَصْرٍ من تاريخ الناس.

وفيها دَعْوَةٌ إلى التَّنْبيه عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، والتَّذْكِيرِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

وخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذا الدَّرْس بقَوله:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَـٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾:

هذه الآيَةُ مَوْصُولَةٌ بالْخَطِّ الأَعْظَم الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ وَحْدَةُ مَوْضوع السُّورَة، وهو مُعَالَجَةُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقَّ.

وَفي هٰذه الآيَةِ بَيَانُ الْعِلَّةِ النَّفْسِيَّةِ الدّافِعَةِ إلى مُجادَلَةِ الْكَافِرِينَ الجاحِدِين، في آيات اللهِ الكَوْنِيَّة، والْجَزَائِيَّةِ، والإعْجَازِيَّة، والبيانيَّةِ المنزَّلَة، بالْبَاطِلِ، لِيُدْحِضُوا بِجدَالِهِم بالْبَاطِلِ الْحَقَّ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ اللهِ، هٰذِهِ الْعِلَّةُ الْخَسِيسَةُ النَّجِسَةُ هِي الكِبْرُ الّذِي انْتَفَخَ في صُدُورِهِمْ انْتِفَاخاً مُنْتِناً، فَأَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ بقُدْرَةِ رَبٍّ خَالِقٍ، يُهَيْمِنُ عَلَيْهِمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا وُجُودَ لَهُمْ إِلَّا بإمْدَادِه، ولا رِزْقَ لَهُمْ، ولَا حَيَاة لَهُمْ، وَلَا شَيْءَ يَجْرِي فِيهِمْ مِمَّا يَسُرُّهُمْ وَمِمَّا يَسُوؤُهُمْ، إِلَّا بِخَلْقٍ مِنْهُ عَطَاءً أَوْ مَنْعاً، وضَرّاً أَوْ نَفْعاً.

وهَـٰذا الْوَهْمُ الَّذِي سيْطَرَ عَلَىٰ مَدَارِكِهِمْ بِكِبْرِهِمْ، جَعَلَهُمْ كُلَّمَا

عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ وعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، أو بَيَانٌ حَكِيمٌ مِنْ بياناته، جَادَلُوا بالباطِلِ لِرَفْضِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ اللهِ، وأَعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بها، واسْتَخْدمُوا مَا وَهَبَهُمُ اللهُ مِنْ ذَكَاءٍ في صِنَاعَةِ أَدِلَّةٍ زُخْرُفِيَّة، وَحُجَجٍ وَهْمِيَّة، قَدْ يَغْتَرُّ بِهَا سُفَهَاءُ الْعُقُولِ، والْجَهَلَةُ الَّذِينَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ، فَيَتَّبِعُونَهُمْ مُنْجَذِبِينَ إِلَيْهِم بِزِينَاتِ الأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ وزُخْرُفِ الحياة الدُّنيا.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يُخَاصِمُونَ في دَلَالَاتِ آيَاتِ اللهِ بالْبَاطِلِ، لِيُوهِمُوا أَنَّها غَيْرُ ذَاتِ دَلَالَةٍ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ حَقّاً، وَلِيُدَافِعُوا عَنْ آرائِهِم وَمَذَاهِبِهِم الْبَاطِلَة، وَمَفْهُومَاتِهِم المناقِضَةِ والمضَادَّةِ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آياتُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

• ﴿..بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ..﴾ أَيْ: بِغَيْرِ بُرْهَانٍ أَتَاهُمْ مِنْ مَقَايِيس عَقْلِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، أَوْ أَدِلَّةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ عِلْمِيَّةٍ صَحِيحَة، أَوْ خَبَرٍ عَنِ اللهِ صَادِق.

السُّلْطانُ: هُنَا الحجَّةُ والْبُرْهَان.

• ﴿..إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ..﴾ «إِنْ» حرف نفي بمعنى «ما». أي: مَا يُوجَدُ فِي صُدُورِهِمْ حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها لِعَدَمِ قَبُولِهِمْ دَلَالَاتِ آياتِ اللهِ، مَا يُوجَدُ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مُنْتَفِخٌ، أَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَبِيداً مِنْ عِبَادِهِ، وأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به، وأَنْ يَسْلِمُوا وَأَنْ يَرْكَعُوا لَهُ وَيَسْجُدُوا، خاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ ضُعَفَاءَ أَذِلَّاءَ.

إِنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ أَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ مَكَانٍ رَفِيعٍ في هَـٰذا الْوُجود، وهَـٰذا المكانُ العالِي لَيْسُوا في حَقِيقَةِ وَاقِعِهِمْ ببالِغِيه.

إِنَّهُمْ قَدْ يَتَوَهَّمُونَ أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ، وَهُمْ في الحضيضِ. وقد يَتَوَهَّمُونَ أَنْفُسَهُمْ في السَّمَاءِ، وَهُمْ في بِئْرٍ عَمِيقٍ جداً مِنْ بَاطِنِ الأَرْض.

زيدَتِ الباء في: ﴿بِبَـٰلِغِيهِۚ﴾ لِلتَّوكيد.

وَأُطْلِقَتِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للدَّلالَةِ عَلَى مَا تَحوِيهِ النُّفُوسُ مِنْ حَرَكَاتٍ ومُكْتَسَبَاتٍ إرَادِيَّاتٍ فيها.

• ﴿.. فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾:

أيْ: فَادْعُ اللهَ أَيُّهَا المؤمِنُ الْمُتلقِّي هـٰذا الْبَيَانَ الرَّبَّانِيَّ مُسْتَعِيذاً بِهِ مِنَ الكِبْر، وَمُسْتَعِيذاً بِهِ مِنَ التَّأَثُّرِ بِجدَلِيَّاتِ المسْتَكْبِرِينَ، وَزُخْرُفِ أقْوالِهِم الخادِعَة، فَهُوَ السَّمِيعُ لاسْتِعَاذَتِك بِهِ مَهْمَا كانَتْ خَافِتَة، وَالْبَصِيرُ بأحْوَالِ نَفْسِكَ حَتَّىٰ غَايَةِ عُمْقٍ فِيهَا، فَإِذَا وَجدَكَ صَادِقاً فِي اسْتِعَاذَتِكَ، صَادِقاً في تَضَرُّعِكَ لِرَبِّكَ وَخُضُوعِكَ لَهُ وَذُلِّكَ لَهُ بِدَافِعٍ مِنْ إيمَانِكَ، أعَاذَكَ وَصَانَكَ وَحَمَاكَ، وَنَصَرَكَ على المجَادِلِينَ في آيَاتِ اللهِ بالباطل.

وَأَرَىٰ أن يَقُولَ المسْتَعِيذُ: أعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ الْبَصِيرِ من الكِبْر ومِنَ التأثُّرِ بالمسْتَكْبِرِين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

إنَّ دَاءَ الكِبْر في صُدُورِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، يَتَّجِهُ بِهِم اتِّجَاهاً مَادِّيّاً في الكِبَرِ، فَيَتَطَاوَلُونَ في السَّمَاءِ مُسْتَكْبِرِينَ، وَيَضْرِبُونَ الْأَرْضَ بِأَرْجُلِهِمْ مُتعَاظِمِينَ، وَيُكَبِّرُونَ كَرَاسِيَهُمْ، وَمَرَاكِبَهُمْ، إشْعَاراً بِأَنَّهُمْ كُبَرَاءُ أعْظَمُ مِنْ نُظَرائِهِمْ مِنَ الْبَشَر، وَيَتَّخِذُ ذَوُو السُّلْطَانِ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ أَصْنَاماً عَظِيمَةً لتَضْخِيم صُوَرِهِمْ في أَذْهَانِ جَمَاهِيرِ الْعَامَّة، فجاءَ عِلَاجُهُمْ في هـٰذِهِ الآيَةِ مُرَاعِياً أَوْهَامَهُمْ الَّتِي أوْهَمَتْهُم أَنَّ أَجْسَامَهُمْ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ أعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ وحْدَهُ، ويَعْبُدوهُ وَحْدَهُ، ويَرْكَعُوا وَيَسْجُدُوا أَذِلَّاءَ خَاضِعِينَ لَهُ، وَهَـٰذا مِنْ سَفَاهَتِهِمْ وَصِغَرِ

عُقُولِهِم، وجَهْلِهِمْ بأَنَّ خَرِيطَةِ نُفُوسِهِمْ مَوْجُودَةٌ بِكَامِلِهَا فِي جُزْءٍ صَغِيرٍ فِي دَاخِلِ الْخَلِيَّةِ الْأُولَىٰ الَّتِي كَوَّنَهَا اللهُ في بَدْءِ خَلْقِ كُلِّ واحِدٍ مِنَ النَّاس، وَبَنَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ أَجْسَادَهُمْ عَلَيْها وَضِمْنَ صِفَاتِ مُخَطَّطِهَا.

هٰذا الانْحِطَاطُ الْفِكْرِيُّ لَدَيْهِمْ يُلائِمُهُ أَنْ يُقَالَ فِي مُعالَجَتِهِمْ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وَمَـعَ أَنَّ الـسَّـمَـاوَاتِ والْأَرْضَ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ فَهِيَ كُلُّها مُسَخَّرَةٌ لِلَّهِ، تَسِيرُ طَائِعَةً لِمَا يُجْرِي اللهُ فيها بأمْرِه. فَمَا لِلإِنْسَانِ المسْتَكْبِرِ يَتَعَالَىٰ وَيَتَعاظَمُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وعبادَتِهِ بالرُّكُوعِ والسُّجُودِ والتَّذَلُّلِ لَهُ، ويُجَادِلُ فِي آيَاتِهِ دُونَ أَنْ تكُونَ لَدَيْهِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ يَعْتَذِرُ بِهَا عِنْدَ رَبّه؛ وَكُلُّ ذَرَّةٍ فِيهِ وَاقِعَةٌ تَحْتَ تَصَارِيفِ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، لَكِنْ مُنِحَتْ لَهُ حُرِّيَّةُ الإرَادَةِ لاخْتِبَارِهِ، فَاسْتَكْبَرَ، وَتَمَرَّدَ عَلَىٰ رَبِّهِ، فَكَفَرَ بِهِ، وَصَارَ يُجَادِلُ في آيَاتِ اللهِ بالباطل؟!.

هٰذا الْفَهْمُ يَنْسَجِمُ مَعَ خِطَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْتَكْبِر في سُورة (الإسْراء/ ٥٠):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾:

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذه الآيَةِ في مَوْضِعِها مِنْ سُورَة (الإسْراء).

فالمستَكْبِرُ يَشْعُرُ في نَفْسِهِ الْعَظَمَةَ الَّتِي تَنْحُو مَنْحَىٰ الاسْتِكْبَارِ الْجَسَدِيّ، فَحَقَّرَهُ اللهُ بأَنَّ الْجِبَالَ أطْوَلُ مِنْهُ، وأَنَّ الْأَرْضَ أصْلَبُ مِنْهُ.

وأبانَ هُنَا في سورة (غَافِر) لِلْمُسْتَكْبر الكافِرِ الجاحِد أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ فِي مِنْظَارِ الْكِبَرِ الْجَسَدِي المادِّيِّ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناسِ كُلِّهِم، فَلَا تَتَكَبَّرُوا أيُّها الكافِرُونَ الجاحِدُون.

• ﴿.. وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَعْلَمُوا حَقَائِقَ الْأُمُور، الَّتِي تَقْتَضِي كَفَّهُمْ عن اتّباع أَهْوَائِهِم وَشَهَوَاتِهِمْ الجانِحَةِ المتجاوزةِ حُدُودَ الْحَقِّ وصِرَاطِ اللهِ المستقيم، الَّذِي أَمَر

عِبَادَهُ أَنْ يَسْلُكُوهُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ومِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، مَنْ دَافِعُهُمْ إلَىٰ الجدالِ بالْبَاطِلِ مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ كِبْرٍ مَا هُمْ بِبَالِغِيه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

جاء في هٰذِهِ الآيَةِ نفي التَّسَاوِي بَيْنَ الْأَعْمَىٰ والْبَصِيرِ، بِمَثَابَةِ شاهِدٍ علَىٰ أَنَّهُ لَا تَصِحُّ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْجاهِلِ الَّذِي ساقَهُ الْجَهْلُ إِلَىٰ الكُفْر، وبَيْنَ الْعَالِمِ الّذي هَدَاهُ عِلْمُهُ إلىٰ الإِيمان.

فالْجَاهِلُ كالْأَعْمَىٰ، والْعَالِمُ كالْبَصِير.

وجاء فيها نَفْيُ التَّسَاوي بَيْنَ أَفْرَادِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، ونَفْيُ التَّسَاوِي بَيْنَ أَفْرَادِ جِنْسِ الْمُسِيء، فَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أفرادُهُمَا مُتَفَاضِلُو المسْتَوَيَاتِ، وَيَلْزَمُ مِنْ هٰذا عَقْلاً نَفْيُ التَّسَاوِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

وجاء في الْعِبَارَة الثَّانِيَةِ مِنَ الآيَةِ تَكْرِيرُ حَرْف النَّفْي «لَا» إِشَارَةً إلى التفاضُلِ والتَّفَاوُتِ بَيْنَ أَفْرَادِ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وبَيْنَ أفرادِ جِنْسِ الْمُسِيء، وظاهِرٌ مَا فِي هٰذا الاختيارِ الْبَيَانِيّ مِنْ إيجازٍ بَدِيع.

ويَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ التَّسَاوِي بَيْنَ الْأَعْمَىٰ والْبَصِيرِ، المشْبِهانِ الْجَاهِلَ الكافِرَ، والعالِمَ المؤمِنَ، أَنْ لَا يَجْعَلَ اللهُ العليمُ الحكِيمُ الْكَافِرَ والمؤْمِنَ مُتَسَاوِيَيْنِ مَحْيَاهُمَا وَمَمَاتُهما، بل لا بُدَّ أَنْ يُعَاقِبَ الكافِرَ علىٰ كُفْرِه، وَلَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ المؤمِنَ عَلَىٰ إيمانه.

ولَا بدَّ أَنْ يُثِيبَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفرادِ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ فِي مُكْتَسَبَاتِهِ الإرادِيَّةِ من الإيمان والْعَمَلِ الصالح.

أمّا المسيئُونَ فَيسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ بِحَسَبِ دَرَكَةِ كُلّ واحِدٍ مِنْهُمْ في مُكْتَسَبَاتِهِ الإرَادِيَّةِ مِنَ الْمَعَاصِي والذُّنُوبِ والجرائم.

• ﴿. . قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**قَلِيلاً مَا يَتَذَكَّرُونَ**] ﴿٥٨﴾.

وبين الخطاب والحديث عن الغائبين تكامُلٌ في الأداءِ البياني.

أي: تَذكُّراً قليلاً تَتَذَكَّرُونَ أيها المتَلَقُّونَ، وَتَذكُّراً قَليلاً يَتَذَكَّرُ الّذِين لَا يُهِمُّهُمْ أَنْ يَتَلَقَوْا بيانات رَبّهم.

لفظ «قليلاً» صِفَة لِمَفْعولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ مُقَدَّمٍ عَلَى فِعْلِه، ولفظ «مَا» إبْهَامِيَّةٌ لِتَوْكِيد الْقِلَّة.

والمرادُ بالتَّذكُّرِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والسُّلُوكِيُّ الَّذِي يُثِيرُهُ أَوْ يُحْدِثُهُ التَّذَكُّرُ لِقَضِيَّةٍ ما مِنْ قَضايا المعْرِفَة، والمرَادُ بالمعْرِفَةِ هُنَا المعرفَةُ الدِّينيَّةُ الّتِي أَوْحَىٰ اللهُ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِه.

وَقَدْ تَكَرَّرَ هٰذا التعْبير في القرآن المجيد، في الآية (٣) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) وفي الآية (٥٨) من سُورَة (غافر/ ٦٠ نزول) وفي الآية (٤٢) من سورة (الحاقَّة/ ٧٨ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: إِنَّ سَاعَةَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ وَقيامِ النَّاسِ مِنَ الأجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ لَسَاعَةٌ آتِيةٌ، جَاء توكِيدُ الجمْلَةِ بـ«إنّ ـ والجملة الاسمية ـ ولَام الابتداء المزحْلَقَةُ إلَىٰ الْخَبَرِ» لِأَنَّ الخبرَ مُوجَّهٌ للشَّاكّين أو المنكرين.

• ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي: لَيْسَ الْإِخْبَارُ بِهَا إخْبَاراً على سَبِيلِ الاحْتِمَالِ الّذِي يُظَنُّ مَعَهُ الوقُوعُ، مع احْتِمَالِ عَدَمِ الوقوعِ، بَلِ الإخْبَارُ بِهَا أَمْرٌ

مَقْطوعٌ بِهِ؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ خُطَّةِ التكْوينِ الرَّبَّانية الَّتِي تَمَّ بَها تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضاؤهُ المبْرَم.

وَلَا شَكَّ في إتْيَانِهَا لَدَىٰ المؤمِنِينَ أُولي الْأَلْبَاب الَّذِينَ يَنْظُرُونَ ويَتَفَكَّرُونَ في حِكْمَةِ اللهِ، وعِلْمِهِ المحيطِ بِكُلِّ شيء، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ويَخْتَار، وَيَرَوْنَ أَحْوالَ النَّاسِ الّذِينَ يُوجَدُ فيهم المؤمِنُ والْكَافِرُ، والتّقِيُّ والْفَاجِرُ، والظَّالِمُ والمظْلُومُ، والْمُحْسِنُ والْمُسِيءُ، دُونَ أَنْ يَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ في الحياة الدُّنْيا جَزَاءَه، وهٰذا يَدُلُّهُمْ عَقْلاً على أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَضَعَ فِي خُطَّةِ التكوينِ حَيَاةً أُخْرَى يكُونُ فيها الجزاء، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ النَّاسَ بهٰذا الوضْعِ الَّذِي هِمْ فِيهِ عَبَثاً، فالْبَعْثُ لحياة أُخْرىٰ يَتَحقَّقُ فيها الْعَدْلُ والْفَضْلُ أَمْرٌ لَا رَيْبَ فِيهِ.

• ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾: أي: ولَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ الْعَاجِلِ والآجِلِ، لأنَّهُمْ سَلَّمُوا إرَادَاتِهِمْ لِأَهْوائِهِم، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ الْجَانِحَة، الْمُجَافِيَة لِصِرَاطِ اللهِ المستقيم، وَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَهُنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْتَازُوا عَقَبَاتِ نُفُوسِهِمْ وَلَا أَنْ يَقْتَحِمُوهَا طَمعاً بالثّوابِ الآجِلِ عِنْدَ الله جَلَّ جَلَالُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾:

أي: واسْمَعُوا يا أَيُّها النَّاسُ مَا قَالَ رَبُّكُمْ، قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: إِذَا أَرَدْتُم دَلِيلاً يُثْبِتُ لَكُمْ أَنِّي مَوْجُودٌ حَقٌّ غَائِبٌ عَنْ حَوَاسِّكُم، فادْعُونِي صَادِقِينَ فِي عِبَادَتي بالدُّعَاء، وَلَا تُشْرِكُوا بِي أحداً، أَسْتَجِبْ لَكُمْ، ضِمْنَ حُدُودِ الأدْعِيَةِ الَّتِي يَدْعُو بِهَا الدَّاعُونَ آلِهَتَهُمْ، أَمَّا آلِهَتُكُمْ فإِنَّهَا لَا تَسْتَجِيبُ لَكُمْ بِشَيْءٍ، فَمَا كَانَ لَهُ وجُودٌ مِنْهَا فَهُو عَاجِزٌ عن إجابَتِكُمْ

غَيْرُ مُمكَّنٍ مِنها، وَمَا لَيسَ لَهُ وُجُودٌ مِنْها، فَأَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها صَنَعَتْهَا أَوْهامُكُمْ.

ولَا يُوجَدُ مَانِعٌ يَمْنَعُ إِنْسَاناً مَا مِنْ عِبادة رَبِّهِ بالدُّعَاءِ وهو أَهْوَنُ الْعِبَادَات، وأَقْرَبُها نَفْعاً لِلْعَابِد، إِلَّا الاسْتِكْبَارُ علَىٰ الرَّبِّ الْمُمِدِّ لَهُ دواماً بِعَطاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِعِبادِه، وَهٰذا الْمُسْتَكْبِرُ الْجَاحِدُ لِرَبِّهِ يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ في جَهَنَّمَ ذَلِيلاً حَقِيراً صَاغراً.

- ﴿.. إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

- ﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: أَذِلَّاء، صَاغِرِينَ، خَاضِعِينَ، جَزَاءَ اسْتِكْبَارِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

- ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾: أي: يَغْلُونَ فِي كِبْرِهِمْ، مُتَرَفِّعِينَ مُمْتَنِعِينَ عَنْ عِبَادَتِي، وأَنَا رَبُّهُمُ الْمُمِدُّ لَهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِي.

- ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾: أي: سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ يَوْم الْقِيَامَةِ أَذِلَّاءَ صَاغِرِين خَاضِعِين، جزاء اسْتِكْبَارِهم.

اسْتُعْمِلَت «السِّينُ» الّتي تُسْتَعْمَلُ غالِباً للمسْتَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيد، نَظَراً إِلَىٰ أَنَّهُم لَا يَشْعُرُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ بِطُولِ الزَّمَنِ مَهْمَا طَالَ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْث، الَّذِي يَتْبَعُهُ حِسَابُهُمْ والقضاءُ عَلَيْهِمْ وإِدْخَالُهُمْ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَ يُبْعَثُونَ لَا يَشْعُرونَ أَنَّهُمْ لَبِثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وهُوَ مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ في سُورَة (الْأَحْقَاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول):

- ﴿.. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

جهنم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أسْماء دار الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُمْتَنّاً على النَّاس بِنِعْمَتَي اللَّيْلِ والنَّهَارِ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾:

سبَقَ أَنْ أَنْزَل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِ نِعْمَتَي اللَّيْلِ والنَّهارِ علَىٰ الناس نَصَّيْن:

الأول: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (النمل/ ٤٨ نزول):

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

الثاني: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الْقَصَص/ ٤٩ نزول):

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وَبَيْنَ هـٰذِهِ النُّصُوصِ الثَّلَاثَةِ تَكَامُلٌ.

ففي آيَة (النَّمْلِ) حَثٌّ عَلَىٰ النظر الْفِكْرِيّ، لِيَرَىٰ النَّاسُ مَا في اللَّيْلِ والنَّهَارِ مِنْ آياتٍ، دَالَّاتٍ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ الله وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، ومِنَّتِهِ عَلَىٰ عبادِهِ، بِاللَّيْلِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ، وبِالنَّهَارِ لِيَعْمَلُوا فِيه إِذِ الضَّوْءُ مُنْتَشِرٌ علَىٰ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْها، وينْتَفِعُ من دَلَالَاتِ هـٰذه الآياتِ من لديهم الاستعدادُ لأَنْ يُؤْمِنُوا وفيها تَلْوِيمٌ لِمَنْ رَأَىٰ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ.

وكلٌّ مِنَ الْحَثِّ والتَّلْوِيم قد دَلَّ عَلَيْهِ الاسْتِفْهَام في: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾؟

وفي آيَة سورة (القصص) بَيَانُ رَحْمَةِ اللهِ وَمِنَّتِهِ على عباده باللَّيْلِ والنَّهار، مَعَ بَيَانِ الرَّغْبَةِ فِي أَنْ يَشْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليهم.

وفي آية سورة (غافر) التَّنْبِيهُ الشّدِيدُ علَىٰ مِنَّةِ اللهِ على النَّاسِ باللَّيلِ والنَّهار، مَعَ بَيَانِ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُون.

إِنَّ التَّدْبِير الرَّبَّانِيَّ الذي جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ في الْأَرْضِ لَيلاً ونَهاراً

مُتعَاقِبَيْن، لِيَسْكُنَ النَّاسُ في اللَّيلِ، ولِيَعْمَلُوا في النَّهَارِ نَشِيطِينَ يُبْصِرُونَ أَمَاكِنَ أعْمَالِهِمْ، والْأَشْيَاءَ الَّتِي يَعْمَلُونَها أو يَعْمَلُونَ فيها، والْأَدوَاتِ الَّتِي يَعْمَلُونَ بها، هو مِن نِعْمَةِ اللهِ على الناس، ومِنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ، فالْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا نِعَمَهُ الَّتِي أَفَاضَ عَلَيْهِم، والَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَها لَوْ أرَادُوا أَنْ يَعُدُّوها، وهِيَ في نُفُوسِهِمْ وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِمْ.

• ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أي: وَجعَلَ النَّهَارَ بِضَوْئِهِ كاشِفاً لَهُمُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يُرِيدُونَ إِبْصَارَهَا بأعْيُنِهِمْ، فَهُو بِضَوْئِهِ يَجْعَلُهُمْ يُبْصِرُونَ.

وَلَدَىٰ تَدَبُّر آيَة سُورَة (النمل/ ٤٨ نزول) تَظْهَرُ بَيَانَاتٌ أَوْسَعُ، فَمِنَ الْخَيْرِ لِلْقَارِئِ أَنْ يُطَالِعَ مَا جَاءَ في تَدَبُّرِ آيَة (النمل) وكذلك في آيَةِ سورة (القصص/ ٤٩ نزول):

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: إنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ وَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ بِمِنَنِهِ الكَثِيرَة وَنِعَمِهِ الْوَفِيرَة، والواجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَىٰ مَا تفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِم، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكْرِ بِالإيمانِ والإِسْلَامِ وَبَعْضِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحاتِ، بَلْ يَكْفُرُونَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، أَوْ يَجْحَدُونَ وُجُودَهُ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ بِرُبُوبِيّتِهِ، أَوْ بوحدانِيَّتِهِ فِي إِلَٰهِيَّتِه، وَهَٰذا مَا يَكْشِفُهُ إِحْصَاءُ المَجْمُوعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ في كُلِّ الشُّعُوب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: أي: ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيه، والنَّهَارَ مُبْصِراً، وَالَّذِي هُوَ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ النَّاسِ، هُوَ

رَبُّكُمُ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُم بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والْمُمِدُّ لَكُمْ دَواماً بِعَطَايَاه، وَلَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، فَلَا إِلَهَ سِوَاه.

• ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ وفي الأَرْضِ وفي الأَنْفُسِ، مِنْ أَصْغَرِ أَجْزَاءِ الذَّرَّاتِ، إِلَىٰ أَكْبَرِ وأَعْظَمِ الكائِنَاتِ من المجرَّات فَمَا فَوْقَها، حَتَّىٰ حَرَكاتِ كُلِّ ذِي حَرَكَةٍ فيها.

فَمَا مِنْ شَيْءٍ في الْوُجُودِ يَكُونُ إِلَّا هُوَ يَخْلُقُهُ، والأَحْدَاثُ المتَجَدِّدَةُ هُوَ يَخْلُقُها، فَلَا رَبَّ فِي الوجُودِ كُلِّهِ إِلَّا هو.

• ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: وبِمَا أَنَّهُ لَا رَبَّ في الوجود إلَّا هو فَلَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا هو.

• ﴿.. فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ يَا مَنْ لَا تُؤْمِنُونَ باللهِ وَبِأَنَّهُ واحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ، عَنْ هَٰذِهِ الحقائِقِ الْجَلِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الآيَاتُ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ، في السَّمَاوَاتِ، وفي الأَنْفُسِ، مَعَ الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ المنَزَّلَاتِ مِنْ لَدُنْهُ، الْمُعَلِّمَاتِ والمُنَبِّهَاتِ، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ هَٰذِهِ الحقائِقِ.

أَصْلُ الإفْكِ: صَرْفُ الشيءِ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْه.

• ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ الإفْكِ الْخَسِيسِ الدَّنِيءِ الذي تُؤْفَكُونَهُ، كَانَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ، مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَنَالُوا بِجُحُودهم مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ وإِهْلَاكٍ، ثُمَّ يَنَالُونَ خُلُوداً فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَة.

الْجُحُودُ: إِنْكَارُ الْحَقِّ مَعَ العلم به، يُقَالُ لُغة: «جَحَدَ الْحَقَّ، يَجْحَدُهُ، جَحْداً، وَجُحُوداً» ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّهُ» و«جَحَدَهُ بِحَقِّهِ».

■ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

في هـٰذه الآيَةِ مُتَابَعَةٌ لِبَيَانِ بَعْضِ مِنَنِ اللهِ ونِعَمِهِ علىٰ الناس، ويُخَاطِبُ اللهُ النَّاسَ بِتَنْبِيهِهِمْ عَلَيْها، وقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ بَيَانِ أَرْبَعٍ مِنْها:

الْمِنَّةُ الأُولى: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ جَعَلَ لِلنَّاسِ الأَرْضَ قراراً، أي: مَكاناً صَالِحاً للاسْتِقْرار عَلَيْهِ.

الْقَرَارُ: مَصْدَرُ «قَرَّ» بمَعْنَىٰ أقام، وبمَعْنَىٰ سَكَنَ واطْمَأَنَّ.

فلَوْ كَانَ جعَلَها ثَائِرَةً مُضْطرِبَةً كأَمْوَاجِ الْبِحارِ الثائِرَة، لمَا كَانَتْ صالِحَةً للاسْتِقْرار عَلَيْها، والسُّكُونِ والاطْمِئْنَانِ والإقَامَةِ الدَّائمة.

المنَّةُ الثانية: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ جَعَلَ السَّماءَ بِنَاءً، أيْ: ذَاتَ أجْزَاءٍ مُتَرَابِطَةٍ مُتَماسِكَةٍ يَمْنَعُ هـٰذِهِ الأَجْزَاءَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ نِظَامِهَا خُرُوجاً مُفْسِداً لِوَحْدَةِ نِظَام الكَوْنِ، الَّذِي لَوْ حَدَثَ لَتَسَاقَطَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، ولَصَارَتِ الأَرْضُ هَبَاءً مَنْثُوراً.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ بِنَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ بِحَسَبِهِ، فبناء الذَّرَةِ لَهُ نظام، وبناءُ الْخَلِيَّةِ لَهُ نظام، وَبِنَاءُ الآلَةِ كالطَّائِرَةِ والسَّفِينَةِ الْبَحْرِيَّةِ لَهُ نِظَام، وبناءُ الْقُصُورِ لَهُ نِظَامٌ، وبِناءُ النُّجُومِ والكَوَاكِبِ لَهُ نظام.

فَلَيْسَ مِنَ الفكْرِ السَّلِيمِ أَنْ نَقِيسَ بناءَ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ بِنَاءِ المَسَاكِنِ والْبُيُوتِ والْقُصُورِ في الأَرْضِ، إذْ لِكُلِّ ذي أَجْزَاءٍ مُتَماسِكَةٍ مُترابِطَةٍ بِنَاءٌ يُلاَئِمُه.

المنَّة الثالِثَة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ صَوَّرَ النَّاسَ فَأَحْسَنَ

صُوَرهم، وَهَـٰذِهِ المنَّةُ مُشَاهَدَةٌ لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ وَفِكْرٍ، فَالْإِنْسَانُ أَحْسَنُ صُورَةً مِنْ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ لَهُ صُورَةٌ مَا، كما هُوَ مُشَاهِد.

المنَّة الرابعة: أنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ هو الّذي يَرْزُقُ النَّاسَ مَا يَحْتَاجُونَ لَهُ فِي حَيواتِهِم، وَهـٰذِهِ ظاهِرَةٌ مَشْهُودَةٌ للنَّاسِ في كلّ بِلَادِ الدُّنيا، إذْ هَيَّأَ لَهُمْ وَسَائِلَ أَرْزَاقهم، في السَّمَاءِ والْأَرْض.

وبَعْدَ خِطَابِ اللهِ تَعالَىٰ مُذَكِّراً بِمِنَنِهِ عَلَيْهِمْ بالمنَن الْأَرْبَعِ التي سبقَ بيَانُها، قَالَ لَهُمْ فِي خِطابٍ مُباشِرٍ لهم:

• ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: ذَلِكُمْ أيُّها النَّاسُ العظيم الجليلُ ذُو المِنَنِ التي تَفَضَّلَ بها عَلَيْكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبيّته، وَالْمُمِدُّ لَكُمْ دَواماً بِمِنَنِهِ وَهِبَاتِهِ وَعَطَاياه.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: أي: فتنامَىٰ وَتَزَايَدَ وَتَعَاظَمُ بالإطْلَاقِ العامّ فَوْق كُلِّ مَا يَصِفُهُ الواصِفُونَ من كَمَالَاتٍ، اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

الْعَالَمُونَ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الْعَالَم» ولفظ «العالَم» يُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ مَوْجُودِ سوى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهُوَ مَأْخُوذٌ من الْعَلَمِ والْعَلَامَة، بمَعْنَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي يُوضَعُ ليكونَ دَالاً عَلَىٰ شيءٍ آخر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِتَامِ هَـٰذا الدَّرْس:

﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

• ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾: أي: هُو وَحْدَهُ الْحَيُّ دَواماً مِنَ الْأَزَلِ إلىٰ الْأَبَدِ، فَلَا يَمُوتُ بِخِلَافِ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ فإنَّهُمْ يَمُوتُون.

• ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ سِوَاهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ سِوَاهُ.

• ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي: فَاعْبُدوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ والطَّاعَة، ومِنْ عِبادَتِهِ أَنْ تَسْأَلُوهُ دَاعِينَ لِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ وآخِرتِكُمْ.

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: الثَّنَاءُ كُلُّهُ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ هُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه.

بهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ العاشر من دُروس سورة (غافر). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِهِ.

(١٥)
التدَّبر التحليلي للدَّرس الحادي عشر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٦٦ ـ ٦٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

القراءات:

(٦٧) • قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوَان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [**شِيُوخاً**] بِكَسْرِ الشين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿شُيوخا﴾ بضَمّ الشّين.

والقراءتَان لُغتَان عَربيَّتان.

(٦٨) • قرأ ابْنُ عَامر: [كُنْ فيَكُونَ] بنصب فعل «يكون» بأنْ مُضْمَرَة، على أنَّ الفاء سببيَّة.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة: ﴿كن فَيَكُونُ﴾ برَفع فعل «يكون» على أنّ الفاء عَاطفة غَيْرُ سَببيَّة، أي: فهو يكون.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرس تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِه ﷺ مَا يَقُولُهُ للنَّاسِ في هـٰذِهِ المرحَلَةِ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيّةِ في مَكَّةَ المكرَّمة.

التدبّر التّحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ مُتَابَعَةٌ تَكْمِيلِيَّةٌ لِمَا جَاءَ في الآيَة (٦٤) مِنْ سُورَةِ (الزُّمَر/٥٩ نزول) وهِيَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها لِرَسُوله:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذه الآيَةِ في مَوْضِعهَا، وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَسْتَنْكِرَ بِشِدَّةٍ دَعْوَةَ أَئِمَّةِ المشْرِكِينَ لَهُ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، وأَنْ يَفْتَحَ مَعَهُمْ بَابَ المجادَلَةِ في آلِهَتِهِمُ الباطِلَةِ الَّتِي لا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ جَاهِلُونَ في بَابِ الْمَعْرِفَةِ، وجَاهِلُونَ جُفَاةٌ سُفَهَاءُ في بَابِ التَّعَامُلِ مَعَ دُعَاةِ الْحَقِّ والخير والْهُدَىٰ.

وجَاءَت آيَةُ سُورَةِ (غَافِر) فيها تَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ مُضَافٌ إلى مَا جَاءَ في آية سُورَة (الزُّمر/٥٩ نزول).

فعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أنْ يَقُولَ لَهُمْ عِدَّةَ مَقَالَاتٍ وفي هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْها مَقَالَتَان:

المقالَةُ الأُولَىٰ: مَا تَضَمَّنَهُ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ..﴾:

أي: قُلْ لِلَّذِينَ يَدْعُونكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ جَمِيعاً: إِنَّ رَبِّي نَهَانِي أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله، حِينَ جَاءَنِي الْوَحْيُ بِالْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ من رَبِّي الَّذِي هُو رَبُّ الْعَالَمِين.

أي: حِينَ جَاءَنِي هَـٰذا الْوَحْيُ نُهِيتُ بِنَهْيٍ مِنْ رَبِّي أَنْ أَعْبُدَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فأَنَا مُنْذُ بَدْءِ رِسَالَتِي كَانَ هـٰذا النَّهْيُ مُوَجّهاً لِي، قَبْلَ أَنْ أُطَالِبَ المشْرِكِينَ بِنَبْذِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ الله.

﴿تَدْعُونَ﴾: أي: تَعْبُدونَ، ومن الْعِبَادَةِ وأوَّلِ صُوَرِها الدُّعاءُ بسُؤَالِ اللهِ مَا يَطْلُبُ الدَّاعي من رَبِّهِ.

«لَمَّا» هُنَا ظَرْفٌ لِحَدَثٍ مضَىٰ، وَجَوَابُها في الآيَةِ دَلَّ عَلَيْهِ البيانُ الَّذِي جَاءَ قَبْلَا في الآيَة، أي: لَمَّا جَاءني البينات من ربي نهيت أن أَعْبُدَ ما تعبدون من دون الله.

المقالَةُ الثانية: مَا تَضَمَّنَهُ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: وَقُلْ أَيْضاً: إِنَّ اللهَ أمَرَني أَنْ أُسْلِمَ لَهُ، إذْ هُوَ رَبِّي وَرَبُّ جَمِيعِ الْعَالَمِين، بإعْلَانِ انْقِيَادِي وطَاعَتِي لِأَوَامِرِه ونَوَاهِيهِ، وبتَحْقِيقِ انْقِيَادِي وطَاعَتِي لَهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِي الإرادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة، الْجَسَدِيَّةِ والنفْسِيَّة.

الإسلام: هو الانْقِيادُ والطَّاعة، وأَوَّلُهُ يَكُونُ بالإعْلانِ الْقَوْلِي، وبَعْدَهُ يَكُونُ بالتَّطْبِيقَاتِ الْعَمَلِيَّةِ فِي حَرَكاتِ الحياةِ الإرَادِيَّة.

رَبُّ العالَمِين: هُو اللهُ الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه وسَمَتْ حِكْمَتُه.

هـٰذا التَّكْلِيفُ الَّذِي جاء في هـٰذه الآية لِلرَّسُولِ ﷺ، يَتَضَمَّنُ بَيانَ أنَّ الرَّسُولَ أَوَّلُ الْمُطالَبِينَ مِنْ أُمَّتِهِ باجْتِنَابِ عِبادَةِ غَيْرِ الله، وأَوَّلُ المطالَبِينَ بالإسْلَامِ لَه مِنْهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُتَابعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ بَيَاناً دَعَوِيّاً:

• ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾:

يُعَلِّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، أنْ يَجْعَلَ مِنْ ضِمْنِ دَعْوَتِهِ إلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ بَيانَ ما يَتَعَلَّقُ بمراحِلِ خَلْقِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفراد النَّاسِ من بَعْدِ آدمَ وَحَوَّاء، حَتَّى إنْهاءِ رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا، وَبيَانَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الخالِقُ لِكُلِّ ذَلِكَ وأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُو الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ.

إنَّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ التطويريَّةِ مُسَايرَةٌ لِأَصْغَرِ الوحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ، الَّتِي تُجَزَّأُ بِهَا الثَّانِيَةُ إلىٰ مِلْيَارَات الْأَجْزاءِ بِحِسَابِ سُرْعَةِ الضَّوْءِ.

إلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ ذَكَرَ في التعليم أَطْوَاراً بَارِزَةً مِنْ خَلْقِ النَّاس، وَهِيَ تَدُلُّ أَهْلَ الْعَقْلِ وَأَهْلَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ عَلَىٰ الْأَطْوَارِ الكثيرَةِ جدّاً الَّتِي تَحْدُثُ بَيْنَها.

الطَّوْرُ البارِزُ الْأَول: خَلْقُ الْإنْسَانِ مِنْ تُراب، وهـٰذا الطَّوْرُ يُدْرِكُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي يُعْتَبَرُ التُّرَابُ مَادَّتَها الْعُظْمَىٰ، مَعَ الماء والضَّوْءِ، فَيَتَحوَّلُ التُّرَابُ نَبَاتاً، فَيأْكُلُهُ الحَيَوانُ والإنسان، فَيَتَحوَّلُ لَحْماً وَدَماً، وَمِنَ الدَّمِ تَكُونُ نُطَفُ المنيّ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ بَدْءُ خَلْقِ الإنْسَان.

الطَّوْرُ البارِزُ الثاني: طَوْرُ النُّطْفَةِ، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا الطَّوْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهِيَ نُطْفَةُ المنِيِّ الَّذِي يَتَكَوَّنُ الجنِينُ مِنْ حُوَينٍ مِنْ هو واحِدٌ مِنْ مِئَاتِ الملايِينِ أمْثَالِهِ فِي الدَّفْقَةِ الواحِدَة، بِحَسَبِ مُقَرَّرَاتِ عُلَمَاءِ الْأَحْيَاءِ، حِينَ التِقَائِهِ بالْبُيَيْضَة الَّتِي تَهْبِطُ مِنْ مِبْيَضِ الأُنْثَىٰ.

النُّطْفَةُ: هي فِي اللُّغَةِ الْقَلِيلُ مِنَ الماء.

وَجَاء الْعَطْفُ بحرف الْعَطْفِ «ثُمَّ» لِأَنَّ طَوْرَ النُّطْفَةِ يَكُونُ بَعْدَ أَطْوَارٍ كَثِيرَةٍ لَا يُدْرِكُ مِقْدَارَهَا الْعِلْمُ الإنْسَانِيُّ مَهْمَا بَلَغتْ وَسَائِله.

الطَّوْرُ البارز الثالث: طوْرَ الْعَلَقَةِ، وهِي قِطْعَةٌ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ المتماسِكِ الَّتِي يَتَطوَّرُ إِلَيْها الْجَنِينُ بَعْدَ انْدِمَاجِ حُوَيْنِ الذَّكَرِ بِنَوَاةِ بُيَيْضَةِ الْأُنْثى، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا الطَّوْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: وَقَدْ جَاءَ الْعَطْفُ بِحَرْفِ الْعَطْف «ثُمَّ» لِأَنَّ طَوْرَ الْعَلَقَةِ يَكُونُ بَعْدَ أَطْوَارٍ كَثِيرَةٍ لَا يُدْرِكُ مِقْدَارَهَا الْعِلْمُ الإنْسَاني مَهْمَا بَلَغَتْ وَسَائِلُه.

الطَّوْرُ البارزُ الرَّابع: طَوْرُ خُرُوجِ الْجَنِينِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ طِفْلاً.

الطِّفْل: الْمَوْلُودُ الْحَدِيثُ الْوِلَادَة، يَسْتَوِي فِيهِ المذكّر والمؤنَّثُ والجمع، وقَدْ يُجْمَعُ ويُثَنَّىٰ ويُؤَنَّث.

وقد ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا الطَّورَ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

وَجَاءَ الْعَطْفُ بِحَرْفِ العطف «ثُمَّ» لِأَنَّ طَوْرَ خُرُوجِ الجنين من بَطْنِ أُمِّهِ طِفْلاً، يَكُونُ بَعْدَ أطْوارٍ كَثِيرَةٍ لَا يُدْرِكُ مقْدارَها الْعِلْمُ الإنْسَانِيُّ مَهْمَا بَلَغتْ وَسَائِلُه.

الطَّوْرُ البارز الخامس: طَوْرُ بُلُوغِ الإنْسَانِ أَشُدَّهُ، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذا الطَّوْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾: أي: ثُمَّ قَدْ يُبْقِيكُم اللهُ أَحْيَاءً تَتَنَامَوْنَ بِخَلْقِهِ لِتَبْلُغُوا طَوْرَ اكْتِمَالِ نُمُوِّكُمْ الإنسانيّ.

أَشَدُّ كُلّ شَيْءٍ: اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ القابِلَةِ للاكْتمالِ، والاكْتِمالُ في النُمُوِّ الْبَشَرِيّ، يَتَنَاوَلُ مُخْتَلِفَ الْقُوَىٰ والصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ والْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، علَىٰ وَفْقِ الْهِبَاتِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْهَا.

الطَّوْرُ البارِزُ السَّادِس: طَوْرُ بُلُوغِ الإنسانِ مَرْحَلَةَ الشَّيْخُوخَة، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذا الطَّوْر بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾.

شُيوخ: جمع «شَيْخ» وَهُوَ مَنْ بَلَغَ سِنَّ الْخَمْسِينَ فَمَا فَوْق حَتَّىٰ مَرْحَلَةِ «الْهَرَم» وتُقَدَّرُ غَايَةُ الشّيْخُوخَةِ بِسِنِّ الثمانين.

الْهَرِمُ: هُوَ الشَّيْخُ الَّذِي بَلَغَ أقْصَىٰ الْكِبَرِ، فَصَارَ عَاجزاً عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَرَكَاتِ الشّيُوخ، ضَعِيفَ الْقُوىٰ، فإذا زَادَ هَرَمُهُ وَصَلَ إلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

والمعنى: ثُمَّ قَدْ يُبْقِيكُمُ اللهُ أحْيَاءً بِخَلْقِهِ لِتَبْلُغُوا سِنَّ الشَّيْخُوخَة، الَّتِي قَدْ يَعْقُبُها ويَتَّصِلُ بِهَا الْهَرَم.

وَلَمَّا كَانَتْ أَعْمَارُ النَّاسِ بِحَسَبِ تَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ مُتَفَاضِلَةً، من أَدْنَىٰ الْأَعْمَارِ إلَىٰ أَقْصَاهَا بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ في اختِيَارَاتِهِ لِأَعْمَارِهِم، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التعليم:

﴿.. وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ..﴾:

أي: وبَعْضُكُمْ يَتَوَفَّاهُ اللهُ فِي أيِّ سِنٍّ بَعْدَ وِلَادَتِهِ، ومِنْ قَبْلِ أَنْ يَصِلَ إلَىٰ مَرْحَلَةِ الشيخُوخَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا الْهَرَم، وَيُبْقِي اللهُ فِي الحياة مَنْ لَمْ يَنْتَهِ أَجَلُهُ، وَيَسْتَمِرُّ مُمِدّاً لَهُ فِي الحياة لِيَبْلُغَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُم أجلاً مُحَدَّداً

ومَعْلُوماً ومُسمَّى بِمِقْدَارِ لَحظَاتِهِ، فإذا انْتَهَىٰ أَجَلُهُ المحدَّدُ المسَمَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ.

وَلمَّا كَانَتْ أَجَالُ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً وَمَجْهُولةً لَهُمْ، وَكَانَ احْتِمَالُ بُلُوغِ الْأَجَلِ قَائِماً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ حَيَاةِ الإنْسَانِ كَانَ بَيَانُ اخْتِلَافِ الْأَعْمَارِ الْمَجْهُولَةِ لِلنَّاسِ، دَافِعاً لَهُمْ لِأَنْ يَعْقِلُوا إِنْ شَاءُوا أَنْ يَكُونُوا أَهْلَ رُشْدٍ وَنَجَاةٍ وَفَوْزٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْلِيم: ﴿.. وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: ويَرْغَبُ رَبُّكُمْ في أَنْ تَعْقِلُوا، ويُفْهَمُ مِنْ هٰذِهِ العبارَة الْعَقْلُ الْعِلْمِيّ والْعَقْل الإرَادِي:

فالْعَقْل العِلْمِيُّ يَكُونُ بِوَضْعِ هٰذه الحقيقة في ذَاكِرَتِكُمْ دَواماً.

والْعَقْل الإرادِيّ يَكُونُ بِضَبْطِ حَرَكَةِ حَيَاتِكُمْ بإرادةٍ حَازِمَةٍ عَنْ تَعْرِيضِ نفوسِكم، لسَخَطِ اللهِ وَعَذَابِهِ بِمَعْصِيَتِهِ وبالْخُرُوجِ عن صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

ولِرَبْطِ مَا جَاءَ في هٰذا الدَّرْسِ التَّعْلِيمِيّ بِبَعْضِ عَنَاصِرَ مِنَ الْقَاعِدَة الإيمانيّة، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْهُ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: اللهُ وَحْدَهُ هُو الَّذِي يُحْيي ويميت، فَلا أَحَدَ في الوجود كُلِّهِ يُحْيي بنَفْخِ الرُّوحِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا النُّفُوسُ حَيَّةً غَيْرُه جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا أَحَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ يُمِيتُ بِنَزْعِ الرُّوحِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا النُّفُوسُ الحيَّةُ مَيِّتَةً غَيْرُه جَلَّ جَلَالُهُ.

والْقَتْلُ الَّذِي تَتَّخِذُ الْخَلَائِقُ وَسَائِلَهُ لَا يَكُونُ الموتُ به إلّا بتقدير اللهِ وَقَضائِه، وحِينَ لَا يَكُونُ لِلَّهِ بالْمَوْتِ قَضَاءُ رَبّاني فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَصْرِفُ بِتَدْبِيراتِهِ مُرِيدَ الْقَتْلِ عَن اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ القاتِلَةِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ الدَّائمة.

- ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ﴾ الله ﴿أَمْرًا﴾: أي: فإذا أَرَادَ جَلَّ جلالُهُ تَنْفِيذَ أَمْرٍ سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ وَقَضَاءَ وَجَاءَ أَجَلُ التَّنْفِيذِ، وقضَىٰ اللهُ أَمْرَ تَنْفِيذه.

• ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: فَلا يَحْتَاجُ تَنْفِيذُهُ إِلَّا أَنْ يُوَجِّهَ لَهُ أَمْرَ التكوين، فيقولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُو «يَكُون».

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الحادي عشر من دُروس سورة (غافر). والحمد لله على معونَتِهِ، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحِه.

(١٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دروس سورة (غافر) الآيات من (٦٩ ـ ٧٦)

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

القراءات:

(٧٠) • قرأ أبو عمْرو: [**رُسْلَنَا**] بإسْكانِ السِّين.

وقرأهَا باقي القراءِ العشرة: [**رُسُلَنَا**] بضَمّ السِّين.

والقراءَتَانِ نُطْقَانِ عَرَبيّان.

(٧٦) • قرأ السُّوسي، وأبُو جَعفر: [**فَبِيسَ**] بإبْدَال الهمزة ياءً.

وكذلك قَرَأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾ بالهمزة دُون إبدال.

تمهيد:

في آيات هذا الدّرْس عَوْدٌ إلَىٰ تَرْهِيبِ الَّذِين يجادِلُونَ في آيَات اللهِ بالباطل لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

والمعروض للترهيب مِنْهُ بَعْضُ مَا سَوْفَ يُلاقيه الكافِرُونَ مِنْ عذابِ اللهِ يَوْم الدّين.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُجَادِلُون في آيَاتِ اللهِ بالباطل:

• ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: ألَمْ تَرَ أَيُّها الْعَاقِلُ الْبَصِيرُ الرَّشِيدُ أيّاً كُنْتَ، ناظراً إلَىٰ الَّذِين يُجَادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ الرَّبّاني، ولِيُوهِمُوا أنَّ بَاطِلَهُمُ المضادّ لَهُ هُوَ الحقّ؟!!

اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أَمْرِهِمْ المنَاقِضِ لموازينِ الْعُقُولِ السّلِيمة، وَالْأَخْلَاقِ الْقَوِيمَةِ، والسُّلُوكِ الحكيم الّذِي لَيْسَ لَهُ عَوَاقِبُ وخيمَة.

﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾؟!: أي: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الحقِّ الْجَلِيِّ الواضِحِ، والصِّرَاطِ المسْتَقِيم الظَّاهِرِ للنَّاظِرين؟!.

وهذا أيضاً اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِهم.

هذا البيانُ عَنِ الّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بالْبَاطِلِ، مُتَّصِلٌ بِالْخَطِّ الْأَعْظَم الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ وَحْدَةُ مَوْضُوعِ السُّورَةِ، وهو مُعَالَجَةُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

وَفِي آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ إِنْذَارٌ لَهُمْ بعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَات التَّالِيَاتُ، إذا مَاتُوا وهُمْ كافِرُون مُكَذِّبُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِم:

• ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾:

أي: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِكِتَابِنَا (وهو يَشْمَلُ كُلَّ الكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَىٰ رُسُلِه) وكَذَّبُوا بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا مِنْ كُلِّ الأُمَمِ، حَتَّىٰ خاتِمِهم مُحَمَّدِ بن عَبْدِ الله (وهُوَ يَشْمَلُ مَا أَوْحَىٰ اللهُ به إلى رُسُلِهِ مِنْ غَيْرِ الكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِم) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَا نُنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، إذَا مَاتُوا وهُمْ مُكَذِّبُون.

زيدَتِ «الفاء» في خَبَرِ «الَّذِينَ» وصِلَتِهِ، لتَضْمِينِهِ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾:

الْأَغْلَالُ: جمع «الْغُلّ» وهُو طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْأَسِيرِ ونَحْوِه، أَوْ فِي يَدَيْهِ، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُول إِلَىٰ عُنُقِهِ وَتُطَوَّقَانِ بالْغُلِّ.

وتُعْقَدُ بالْغُلّ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيد، أَو سَيْرٌ مِنْ جِلْدٍ لِجَرِّهِ بِذَلِكَ.

السَّلاسِلُ: جَمْعُ «السِّلْسِلَة» وهِيَ حَلْقَاتٌ مَوْصُولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ قَابِلَةٌ للثَّنْي والتحريكِ كالحَبْلِ.

يُسْحَبُونَ: أي: يُجَرُّونَ عَلَىٰ الأَرْضِ.

فِي الْحَمِيم: أي: فِي الْجَمْر، فالْجَمْرُ الَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ يُسَمَّىٰ فِي اللُّغَةِ حَمِيماً، والْحَمِيمُ يُطْلَقُ علَىٰ الماء الحَارّ.

أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَا نُنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أَلِيم حِينَ تُوضَعُ الْأَغْلَالُ في أعْنَاقِهِمْ، وَتُعْقَدُ بِها السَّلَاسِلُ، ويُسْحَبُونَ في الْجَمْرِ الْكَاوِي لِأَجْسَادِهم.

• ﴿..ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ سَحْبِهِمْ عَلَىٰ الْجَمْر، يُوضَعُونَ ضِمْنَ لَهَبِ النّارِ وَقُوداً لِيَحْتَرِقُوا بها، كَمَا يُمْلأُ التَّنُّور بالحطَبِ لإحمائه، وَهـٰذا المعْنَىٰ يتَّفِقُ مَعَ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سُورَة (البقرة/ ٣ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿...فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾.

وكذلك جاء في الآية (٦) من سُورَة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول).

السَّجْرُ: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ الْمَلْء، وبِمَعْنَىٰ الإحْمَاءِ والإبقاء، يُقَالُ لغة: «سَجَرَ التَّنُّور، يَسْجُرُهُ، سَجْراً، وسُجُوراً» أي: مَلأَهُ وَقُوداً وَأَحْمَاهُ.

• ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

في هـٰذَا النَّصِّ حِكَايَةُ أَحْدَاثٍ سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، بِصِيَغِ الْأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ، لِلدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا سَوْفَ تَقَعُ حَتْماً، فَكَأَنَّها أَحْداثٌ قَدْ وَقَعَتْ فِعْلاً.

أَي: وَبَعْدَ وَضعِ الْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِهِم، وَسَحْبِهِمْ عَلَىٰ أَرْضِ الْعَذَابِ بِالسَّلَاسِلِ، وَجَعْلِهِمْ فِي النَّارِ بِمَثَابَةِ الْوَقُودِ، لَكِنَّهم كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ

بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذاب، يُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخاً، وَبَيَاناً لِأَكَاذِيبِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَكْذِبُونَهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ مِنْ دُونه: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِاللهِ مِنْ دُونِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، لِيُخَلِّصُوكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْتُمْ الآنَ فِيهِ؟!!

• ﴿قَالُوا۟ . . ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا . .﴾.

أي: قَالُوا: غَابُوا عَنَّا، فَفِعْلُ «ضَلَّ» يأتِي بِمَعْنَىٰ «غَابَ» فَهُمْ لَا يَجِدُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَنْ كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، أَوْ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ أَثَراً فِي تَخْلِيصِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ شِرْكِهِم.

وَيُضْرِبُونَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ضَلُّوا عَنَّا، فَيَقُولُونَ: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَعْبُدُ مِنْ قَبْلُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَيْئاً لَهُ وُجُودٌ فِي الواقع وهَـٰذَا الإِضْرَابُ يُلائِمُ أَحْوَالَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَسْمَاءَ فَقَطْ هُمْ سَمَّوْهَا لِأَوْهَامٍ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ فِي الْوَاقِعِ.

• ﴿. . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾: أي: كَذَلِكَ الضَّلَالِ الَّذِي ضَلَّ بِهِ الْمشْرِكُونَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِالْبَاطِلِ، يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالضَّلَالِ، ولِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الضَّالِّينَ حُكْمٌ عَلَيْهِ من اللهِ بِعَدْلِهِ عَلَىٰ مِقْدَارِ ضَلَالِهِ.

فَالْمُرَادُ بِعِبَارَةِ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ بِحَسَبِ ضَلَالِهِمْ، وَعَدْلُ اللهِ يَقْتَضِي أَنْ يَحْكُمَ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ بِمِقْدَارِ نِسْبَةِ ضَلَالِهِ، فَحُكْمُ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ حُكْمٌ إِفْرَادِيّ، وَلَيْسَ حُكْماً جَمَاعِياً.

وَبَعْدَ حُكْم اللهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ بِالضَّلَالِ، وَاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحياةِ الدُّنْيَا ضَالِّينَ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَصِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم ضَلَالاً إِرَادِياً، وَبَعْدَ إِصْدَارِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

الْفَرَحُ: انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ بِمَسَرَّةٍ وَرِضىً، حِينَ يَنَالُ الإنْسَانُ مَا يُلَائِمُهُ وَيُحِبُّهُ وَيَلَذُّهُ وَيُحقّقُ لَهُ مَطْلُوبَهُ مِمَّا يَهْوَىٰ وَيَشْتَهِي. وَيُرَادُ بِهِ الكِبْرُ وَتَجَاوُزُ حُدُودِ الحقِّ وَالْخَيْرِ.

والمَرَحُ: الاخْتِيَالُ والتَّبَخْتُرُ فِي الْمَشْي اسْتِكْبَاراً وَتَعَاظُماً عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَأَصْلُهُ شِدَّةُ الْفَرَحِ والنَّشَاطِ، وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ الْمُعْتَادِ فِي حَرَكَاتِ الْعُقَلَاءِ وَأَهْلِ الرُّشْدِ، عِنْدَ فَرَحِهِمْ وَسُرُورِهِمْ.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: قَيْدٌ لِلْفَرَحِ الْمَذْمُومِ، وَلِلْمَرَحِ الْمَذْمُومِ، أَي: ذَلِكُمْ وَهُوَ الحكْمُ عَلَيْكُمْ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ فِي جَهَنَّمَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِهِ مِنْ كُفْرٍ بِاللهِ وَتَكْذِيبٍ بآيَاتِهِ، وَلَوَازِمِ هَـٰذَا الكُفْرِ فِي سُلُوكِكُمْ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ، مِنْ فِسْقٍ وَفُجُورٍ وَعِصْيَانٍ، وَظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَعُدْوَانٍ، واتّبَاعٍ لِكُلِّ فَاسِدٍ وَمُفْسِدٍ وَشَيْطَانٍ. وَبِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسْتَكْبِرِينَ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَعَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَعَنِ الْعَمَلِ بآيَاتِ اللهِ الْمُنَزَّلَاتِ.

بَيْنَ لَفْظَتَيْ: «تَفْرَحُونَ» و«تَمْرَحُونَ» من البديع، ما يُسَمَّىٰ عِنْدَ عُلَمَاءِ البلاغة «الجناسَ المضَارِع» وهو ما اختلف فيه اللَّفْظَانِ المتَشابِهَانِ فِي نَوْعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُما، مع تَقَارُبِهما فِي النُّطْقِ، في الأوّل أو الوسَطِ أو الآخر.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنّم، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً الْقَوْلَ المقتطع مِنْ أحداثِ يَوْمِ الدِّين:

• ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: يُقَالُ لَهُمْ بِالْأَمْرِ الْمُقْتَرَنِ بَالتَّنْفِيذِ: ادْخُلوا أبوابَ جَهَنَّمَ بِحَسَبِ دَرَكَاتِكُمْ، خَالِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَكَانُ إِقَامَةٍ واسْتِقْرَارِ المُتَكَبِّرِينَ، الَّذِي جَعَلَهُمْ كِبْرُهُمْ يَرْفُضُونَ اتّبَاعَ مَا جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبهم.

بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالَغَة.

المَثْوَىٰ: مَكَانُ الإقَامَةِ والاسْتِقْرَار.

والمعنىٰ: فبِئْسَ مَكَانُ إقَامَتِكُمُ الدَّائِمة واسْتِقرارِكم.

وضِعَ الاسم الظاهِرُ «المتكبِّرينَ» مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِبَيَانِ سَبَبِ الحكم عَلَيْهِم بالعذاب خالِدِينَ في جهنّم.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس الثاني عشر من سورة (غافر).

والحمد لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحه.

(١٧)
التدبّر التَّحليلي للدرس الثالث عشر من دُروس سورة (غافر) الآيتان (٧٧ و٧٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

القراءات:

(٧٧) • قرأ يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالبناء للمعْلُوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.

وبَيْنَ القراءتين تكامل، أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ بالجَبْر، فَهُمْ يَرْجِعُونَ مُطَاوِعين.

تمهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْس تَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرسوله ﷺ، بِشَأْنِ عِدَّةِ قضايا، وفيها إِسْمَاعٌ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرْبِيَةٌ للمؤمنين، وقد اشتملَتْ هَـٰذِهِ القضايا عَلَىٰ ما يلي.

(١) أمْرُ الله رَسُولَهُ بِأَنْ يَصْبِر، إِذْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقّ، وَيَنْسَحِبُ هَـٰذا الْأَمْرُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنينَ.

(٢) إِشْعَارٌ بِأَنَّ اللهَ سَيُرِي رَسُولَهُ فِي الدُّنْيا بَعْضَ الَّذِي يَعِدُ المجادِلينَ فِي آياتِهِ مِنْ عِقَاب، وأَمَّا عَذَابُهُمُ الْأَكْبَرُ فَسَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ القيامة.

(٣) تذكير اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ، بِمَا لَاقَىٰ الرُّسْل الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أُمَمِهِمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وَأَذىً، وَكَيْفَ صَبَرُوا، وَكَيْفَ نَصَرَهم اللهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ.

(٤) كَفُّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ عَنْ تَشَوُّفِ نَفْسِهِ لِأَنْ يُجْرِيَ اللهُ الآيَاتِ الخوارقِ، طمعاً فِي إيمان قَومِهِ وإِسْلَامِهِمْ.

التّدبّر التَّحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

«إِمَّا» هي «إِنْ» الشَّرْطِيّة و«مَا» الزائدة لِتَوْكِيدِ مَعْنَىٰ الشرط.

والنون الْمُشَدَّدَة في: «نُرِيَنَّكَ» وفي «نَتَوَفَّيَنَّك» هي نون التوكيد الثقيلة.

أي: فاصْبِرْ يا مُحَمَّدُ وَلَا تَسْتَشْرِفْ نَفْسُكَ إِلَىٰ تَعْجِيلِ الانْتِقَامِ مِنْ مُكَذِّبِيكَ، الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقّ، فَانْتِقَامُ اللهِ لَهُ وَقْتٌ مُحَدَّدٌ بِإِرَادَتِهِ الحكيمة، وَإِنَّ وَعْدَ اللهِ بِعِقَابِ المجرمين وَعْدٌ حَقٌّ لَهُ أَجَلٌ مُسَمَّىٰ عِنْدَهُ، وكذلك سَائِرُ وُعُودِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

الوَعْدُ: هُو الإِخْبَارُ بِمَا تَمَّ العزْمُ عَلَىٰ فِعْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَل، خيراً كَانَ أَمْ شَرّاً.

أي: فإمَّا نُرِينَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ نَتَوَفَّاكَ، أَوْ نَتَوَفَيَنَّكَ قَبْلَ أَنْ نُرِيكَ كُلَّ الَّذِي نَعِدُهُمْ، فَإِلَىٰ حِسَابِنَا، وَفَصْلِ قَضَائِنَا، وَتَنْفِيذِ جَزَائِنَا لَهُمْ يُرْجَعُونَ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ يُبْعَثُونَ بَعْدَ الموتِ إِلَىٰ مُلاقَاة أَحْدَاثِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، حَيَاةِ الجزَاءِ الأَكْبَر.

■ قول الله تعالَىٰ مُتَابِعاً تَرْبِيَتَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ نَفْسَ الرَّسُولِ محمّد ﷺ، مَا زَالَتْ تَتَطَلَّعُ إِلَىٰ أَنْ يُؤْتِيهِ اللهُ آيَةً خَارِقَةً مُعْجِزَةً، رَاجِياً أَنْ تُؤَثِّرَ بِإعْجَازِهَا عَلَىٰ قَوْمِهِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَهُ بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ كَآيَاتِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي القرآنِ المجيد.

فأبَانَ اللهُ عَزّ وَجَلَّ لَهُ، أَنَّ رُسُلَهُ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قِصَصِهِمْ، وَرُسُلَهُ الَّذِينَ لَمْ يَقُصَّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ قِصَصِهِمْ، لَمْ يَكُنْ يُعْطِي أَحَداً مِنْهُمْ التَّمْكِينَ الْمُطْلَقَ مِنْ إِجْرَاءِ الآيَاتِ الخَارِقَاتِ الْمُعْجِزَاتِ، بَلْ كَانَ إِذَا شَاءَ إِجْرَاءَ خَارِقٍ مُعْجِزٍ مِنْهَا، أَذِنَ لِرَسُولِهِ باتِّخَاذِ السَّبَبِ الصُّورِي الَّذِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاه، كَمَا كَانَ يَأْذَنُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ، لِيُجْرِيَ اللهُ

بِأَمْرِهِ التّكْوِينيّ الخَارِقَ الَّذي شَاءَ أَنْ يُجْرِيَهُ لَهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ فَلْقُ الْبَحْرِ لَهُ، وَتَفْجِيرُ عُيُونِ الماءِ لَهُ.

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُ أَمْرِ اللهِ الحكيم، بِتَنْفِيذِ تَعْذِيب وإهْلاكِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ انْتَهَىٰ زَمَنُ امْتِحَانِهِمْ، قَضَىٰ اللهُ بالْحَقّ، فأصْدَرَهُ أمْرَهُ التكْوِينيَّ، فَتَمَّ بِهِ تَنْفِيذ إهْلَاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ، عَلَىٰ وَفْقِ الأَمْرِ الرَّبَّاني، وَخَسِرَ هُنَالِكَ فِي الْمَكَان الَّذِي عُذِّبَ وَأُهْلِكَ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ، الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ.

الْمُبْطِلُونَ: هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ واتَّبَعُوه، وَكَفَرُوا بِالْحَقّ ولم يَتَّبِعُوا سَبِيلَهُ وبهٰذا تمَّ تَدَبُّر الدَّرس الثالث عشر من دروس سورة (غافر).

والحمد لله عَلَىٰ معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

(١٨)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٧٩ ـ ٨١)

قال الله عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرسِ عُودٌ إِلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَمِنَنِهِ عَلَىٰ النَّاس، وَمِنْهَا مِنَّةُ اللهِ عَلَىٰ الناسِ بِنِعْمَةِ الْأَنْعَامِ.

التدبّر التحليلي:

هَـٰذا هو النَّصّ الخامس مِن النصوص القرآنيَّة المتعلّقةِ بامْتِنَانِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْأَنْعَامِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي المَلْحَقِ الرابع مِنْ مَلاحِقِ تدبُّر سورة (يس/ ٤١ نزول) دراسة تكامُلِيَّة للنُّصُوص المتعلِّقة بامتِنَانِ اللهِ عَلَىٰ عباده بالأنعام، وهي (١١) نصّاً:

■ قولُ اللهِ تَعَالىٰ يُخاطِبُ النَّاسَ مُمْتَناً عَلَيْهِمْ بِالْأَنْعَام:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

الأنْعام: الأمْوَالُ الرَّاعِيَة، وهَيَ الْإبلُ والْبَقَرُ والغنم. ولفظ «الأنعام» يُذَكَّر ويُؤَنَّث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام.

أي: اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ مِنْ نِعَمِهِ عليكم أيُّها النَّاسُ نِعْمَةَ الْأَنْعَام، ومِنْ ظَوَاهِرِ هَـٰذِهِ النِّعْمَةُ العظيمة أنّكُمْ تَرْكَبُونَ بَعْضاً مِنْهَا، وَهِيَ الجمال، وَأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ مِنْ لُحُومِها.

«مِن» في «مِنْهَا» للتَّبْعِيض. وفعل «جَعَلَ» مُسْتَعملٌ بمعنىٰ فعل «خَلَقَ»، وقد يَدُلُّ فِعْل «جَعَلَ» عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بَعْدَ أَنْ أَسْكَنَ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَتْ الْأَنْعَامُ مَخْلُوقَةً فِيهَا مِنْ قَبْلُ، جَعَلَهَا بالإلْهَام لِبَنِي آدَمَ، وبالتَّسْخِير الَّذِي فَطَرَها عَلَيْهِ صَالِحَةً لِمَا جَاءَ بَيَانُهُ مِنْ مَنَافِعَ للنَّاسِ، بَعْضُهَا جَاءَ مُفَصّلاً، وَبَعْضُهَا جَاءَ مجملاً، كما في الآيةِ التالِيَة:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ..﴾: أي: ولَكُمْ في الأَنْعَام مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ أُخرَىٰ، غَيْرُ مَذْكُورَةٍ فِي النّصّ هُنَا، فَمِنْ مَنَافِعِهَا أَلْبَانُها، وأصْوَافُها،

وأشْعَارُهَا، وأوْبَارُهَا، وجُلودُهَا، وعِظَامُهَا، ورَوْثُهَا، واسْتِخْدَامُ قُوَاهَا فِي الحرثِ والجرّ وغير ذلك.

• ﴿.. وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ..﴾: أي: ولِتُحَمِّلُوا عَلَىٰ ظُهُورِ مَا يَصْلُحُ لِلْحَمْلِ مِنْهَا أثْقالكُمْ، وَتَبْعَثُوهَا إِلَىٰ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، فَتُحَقِّقُوا بِذٰلِكَ حَاجَةً تَقْصِدُونَ تَحْقِيقَهَا فِي صُدُورِكُمْ الحاوِيَةِ لِقُلُوبكم، الْبَاعِثَةِ لِإرَادَاتِكُمْ، الَّتِي تُوَجِّهُهَا رَغَبَاتُ نُفُوسِكم، كالتّجارَةِ، والارْتِحَالِ مِنْ بَلَدٍ إلَىٰ بَلَدٍ.

• ﴿..وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾: أي: وَعَلَىٰ الْإِبِلِ مِنْهَا تُحْمَلُونَ فِي الْبَرّ، وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ.

جَاءَ الْفِعْلُ مَبْنِيّاً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لَكِنْ مِنَ الْمَعْلُوم أَنَّ الخَالِقَ الفَاعِلَ في الوجود كُلِّهِ هُوَ اللهُ جَلَّ جلالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَسَمَتْ مِنَنُهُ.

الْفُلْك: مَرْكَبُ البحر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ وَغَيْرِهِ، ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّث، فيقال: هو الفلك، وهي الْفُلْك.

ويقاسُ علىٰ الْإبلِ والْفُلْك مَا تَوَصَّلَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِإلْهَامِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَتَسْخيرِهِ، مِنْ مَرَاكِبَ بَرِّيَّةٍ، وَبَحْرِيَّةٍ وَجَوِّيَّة.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لِلنَّاسِ بِشَأْنِ سَائِرِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

• ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: وَيُرِيكُمُ اللهُ آيَاتِهِ الكَثِيرَةَ الْعُظْمَىٰ يَا أَيُّهَا النَّاسَ، فِي الآفَاقِ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ غَيْرَ آيَاتِ الأَنْعَام، وَهِيَ آيَاتٌ جَلِيلَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ عَظِيمِ صِفَاتِهِ، وَجَزِيلِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

فَأَيُّ آيَاتِ اللهِ الظَّاهِرَاتِ لِكُلِّ ذِي حِسٍّ وَفِكْرٍ تُنْكِرُونَ، فَلَا تَعْرِفُونَ أَيُّهَا الجاحِدُونَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَيَانَاتِ كِتَابِهِ، والمكَذِّبُونَ رَسُولَهُ بما يُبَلِّغُكُمْ عَنِ اللهِ مِنْ حَقٍّ وَهُدىً؟!

أو فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً، فَدَلَّ بِخَلْقِهِ وإِتْقَانِهِ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَجَلِيلِ حِكْمَتِهِ.

وبهٰذا تمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسَ الرَّابعَ عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (غافر).

والحمد لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٩)
التدبّر التحليلي للدَّرْسَ الخامس عشر من دُروس سورة (غافر) وهو الآيات من (٨٢ ـ ٨٥) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

القراءات:

(٨٣) • قرأ أبو عمرو: [**رُسْلَهُمْ**] بإسْكَانِ السّين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**رُسُلَهُمْ**] بِضَمّ السِّين.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيّان.

(٨٤ و٨٥) • أَبْدَلَ السُّوسي وأبو جَعْفَر الهمزة مِنْ ﴿**بأسنا**﴾ أَلِفاً في الموضعين. وكذلِكَ حمزة في الوقف.

ولَمْ يُبْدِلْهَا باقي القراء العشرة.

(٨٥) • وقف ابن كثير، وأبُو عَمْرو، والكِسَائي، ويعْقُوب، بالْهَاءِ في لفظ ﴿سُنَّت﴾.

ووقف باقي القراء العشرة بالتَّاء.

تمهيد:

في آيات هَـٰذَا الدَّرْسِ تَلْوِيمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الكافرين الذين يُجَادِلُون في آياتِ اللهِ بالباطِلِ، إذْ لَمْ يَتَّعِظُوا وَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِمَا شَاهَدُوا فِي مَوَاطِنَ مُتعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، آثَارَ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا جَاءَتهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، وَفَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْم يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ. فَلَمَّا رَأَوْا قَوَابِلَ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ آمَنُوا فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ حِينَئِذٍ إيمانُهُمْ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا بِأَنْبَائِهِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا رُسُلُ رَبِّهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ، وَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عزَّ وَجلَّ ضِمْنَ سُنَنِهِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ فِي عِبَادِهِ الْأَوَّلِينَ والآخِرِينَ.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المعالَجِينَ فِي السُّورَةِ وَيُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ بِأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ التَّلْوِيمِيِّ بِشِدَّةٍ مَعِ الْإِعْرَاضِ عَنْ خِطَابِهِمْ:

• ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

عَاقبة: عَاقِبَةُ كُلّ أَمْرٍ آخِرُهُ وخاتِمَهُ، وعاقِبَةُ الأمْرِ جزاؤه.

الآثار: جمع «الأثر» وهُوَ مَا خَلَّفَهُ السَّابِقُونَ، وَبَقِيَّةُ دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَأَشْيَائِهِمْ بَعْدَ هَلَاكهم.

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم: أي: فَمَا صَرَفَ عَنْهُمْ.

المعنىٰ: أبقُوا في بَلَدهم، ولَمْ يَسِيرُوا مُسَافِرِينَ فِي رِحْلَاتِهِمْ، أمْ كانوا عُمْيَاناً، فَلَمْ يَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ بِلَادَ المُهْلَكِينَ السَّابقين. الَّذِينَ دَمَّرَ اللهُ بُلْدَانَهُمْ وَأَبْقَىٰ مِنْهَا آثَاراً يَعْتَبِرُ بِهَا أُولو الْأَلْبَابِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِم بِما بَلَّغُوهُمْ عَنْهُ؟؟!

استفهام فيه معنىٰ التَّلْويم والتَّثْرِيب الشديد؛ لِأَنَّهُمْ في رحلاتهم التجاريّةِ، كانوا يَرَوْنَ آثَارَ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّتِي أَمْضَتْ رِحْلَاتِ امْتِحَانِهَا مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانوا فِي أَزْمَانِهِمْ أَشَدَّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قُوَّةً، وَأَشَدَّ آثاراً عِمْرَانِيَّةً فِي الْأَرْضِ، فَدَمَّرَ اللهُ بلادَهُمْ، وعَذَّبَهُمْ، وأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

وقد سَبَقَ في الآيةِ (٢١) من هَـٰذِه السُّورَةِ نَظِيرُ هَـٰذِه الآيَةِ، مع اختلافٍ بين [**أَوَلَمْ**] و﴿أَفَلَمْ﴾ ومع اختِلَافٍ في التعقيب:

ففي الآية (٢١): ﴿. . فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

وفي الآية (٨٢): ﴿. .فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: فما صَرَفَ عَنْهُمْ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ وإهْلَاكَهُ لَهُمْ، مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَيَجْمَعُونَ مِنْ أَمْوَالٍ وَقُوىً وَحُصُونٍ، وَمَلَاجِئَ إِلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ يَلْجَؤون.

فبين الآيتين تكامل ظاهر.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً سَبَبَ تَعْذِيبِ وَإِهْلَاكِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، وَمُبَيِّناً لُجوءَهُمْ إِلَىٰ الْإِيمانِ حِينَ لَمْ يَكُنِ الإِيمَان يَنْفَعُهُمْ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ أَرَىٰ أَنَّهَا فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذوف فيما أَرَىٰ، أي: كَانَ هٰؤُلَاءِ المهْلَكُونَ السَّابِقُونَ خَارِجِينَ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقّ وَعَنْ صِرَاطِهِ المستقيم، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَيْهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنَ الآيَاتِ الْمُنَزَّلَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الشَّاهِدَاتِ عَلَىٰ صِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا يُبَلِّغُونَ عَنْ رَبّهم، لَمْ يَقْبَلُوا الْعِلْمَ الرَّبَّانِيّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ اللهِ، فَرِحِينَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمٍ يَنْفَعُهُمْ فِي أُمُورِ مَآكِلهم وَمَشَارِبِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَمَنَاكِحِهِمْ وَأَمْنِهِمْ، وَسَائِرِ مَصَالِحِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةَ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ آخِرَتِهِمْ، وَمَصِيرِهِمْ الْأَبَدِيّ.

واسْتَمَرُّوا كَذَلِكَ حَتَّىٰ اسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللهِ بِتَعْذِيبِهِمْ، وَإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِإِنْذَارَاتِ رُسُلِهِمْ بِعَذَابِ اللهِ لَهُمْ وَإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ عِقَابِهِمْ بِحِكْمَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ، حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

حَاقَ بِهِمْ: أَيْ: أَصَابَهُمْ وَأَحَاطَ بِهِمْ، يُقَالُ لُغَة: «حَاقَ بِهِ الْعَذَابُ، يَحِيقُ، حَيْقاً، وَحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً» أي: أَصَابَهُ، وَأَحَاطَ بِهِ، وَلَزِمَهُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ.

■ قول اللهِ تَعَالىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ حَالِهِمْ حِينَ أَحَاطَتْ بِهِ وَسَائِلُ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، وَرَأَوهَا مُقْبِلَةً إِلَيْهِمْ:

● ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

البأسُ: الْعَذَابُ الشَّدِيد. والشِّدَّةُ فِي الحرب.

السُّنَّة: الطَّرِيقَةُ المتَّبَعَةُ.

أي: فَلَمَّا رَأَوْا إِقْبَالَ وَسَائِلِ عَذَابِنَا الشَّدِيدِ لَهُمْ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُم

مُعَذَّبُونَ وَهَالِكُونَ بِهَا، قَالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.

لَكِنْ بَعْدَ صُدُورِ قَضَاءِ اللهِ عَلَيْهِمْ بِالتَّعْذِيبِ وَالإِهْلَاكِ، وَبَعْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ إِقْبَالَ وَسَائِلِ مَا كَانُوا بِهِ يُكَذِّبُون، وَيَسْتَهْزِئُون، لَمْ يَكُنْ لإِيمَانِهِمْ أَثَرٌ يَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ وَإِهْلَاكَهُ لَهُمْ، إِذِ المَطْلُوبُ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ عَنهم، لَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْمَشْهُودِ لَهُمْ، وَحِينَ يَنْكَشِفُ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنَ الْغَيْبِ يَكُونُ قَدِ انْتَهَىٰ زَمَنُ الامْتِحَانِ والابْتِلَاءِ، وَجَاءَ زَمَنُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

• ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ...﴾: أي: فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَفِي إِيقَافِ إِهْلَاكِهِمُ الشَّامِلِ، لَمَّا رَأَوا وَسَائِلَ عَذَابِنَا الشَّدِيدِ مُقْبِلَةً بِعُنْفِهَا إِلَيْهِمْ، لانْتِهَاءِ زَمَنِ ابْتِلَائِهِمْ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا.

• ﴿..سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ..﴾: أي: أَجْرَىٰ اللهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ المُتَّبَعَةَ، الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَجْرَاهَا فِي عِبَادِهِ الْكَافِرِينَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَيْهِمْ.

• ﴿..وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾: أي: وَخَسِرَ هُنَالِكَ فِي المَكَانِ الَّذِي أَحَاطَتْ بِهِ وَسَائِلُ تَعْذِيبِ اللهِ وَإِهْلَاكِهِ الْكَافِرونَ.

لَقَدْ خَسِرُوا نُفُوسَهُمْ، وَأَمْنَهُمْ وَسَلَامَتَهُمْ وَرَاحَتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِي، وَخَسِرُوا نَجَاتَهُمْ وَفَوْزَهُمْ بِجَنَّاتِ النعيم.

وَلَا خَسَارَةَ أَشَدُّ وَأَخَسُّ مِنْ هَـٰذِهِ الْخَسَارَة.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الْأَخِير مِنْ دُرُوس سُورة (غافر).

والحمد للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٢٠)
ملحق: مستخرجات بلاغية من سورة (غافر)

في هَـٰذِهِ السورة اختياراتٌ بلاغيةٌ كثيرة، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا بِمَعُونَةِ اللهِ وَجُودِهِ ما يلي:

أولاً:

التَّعْبير عن المشاعر النفسيَّة بِعِبَارَةٍ مُطَابِقَةٍ لِهَـٰذِهِ المَشاعر، ولَوْ لَمْ يَكُنِ الْوَاقع كذلك، وهو ما يُعَبَّرُ عَنْهُ عِنْدَ المشتغلين بالأدب المعاصرين «بالصِّدْقِ الْفَنِّي».

ومن أمثلته في السورة قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

الآزفة: القريبة، والمرادُ بِها القيامة.

أي: الكافرونَ حينما يُبْعَثُونَ، ويُدْرِكونَ أَنَّهُمْ فِي الحياة الآخرة، الَّتي كانوا يُنْذَرُونَ بِهَا، يَشْتَدُّ خَوْفُهُمْ وَذُعْرُهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، فَتَنْشَمِرُ قُلُوبُهُمْ، حَتَّىٰ يُحِسُّوا كَأَنَّهَا قَدْ وَصَلَتْ إِلىٰ حَنَاجِرِهم، فَصَارَتْ بِمَثَابَةِ الْغُصَّةِ المؤلِمَة.

فجاء التعبير عن هـٰذا الشُّعُورِ النَّفْسِيّ، بِعِبَارَةٍ مُطَابِقَةٍ لِهَـٰذَا الشُّعُورِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَاقِعِ قَدِ ارْتَفَعَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَوَاضِعها، وَصَارَتْ لَدَىٰ الْحَنَاجر.

ثانياً:

في هَـٰذِهِ السورة إيجازٌ كثير، ومن إيجازِ الحذف فيها ما يلي:

المثال الأول: قولُ الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾: مُبْتَدأ، وخَبَرُهُ مَحْذُوف إيجازاً، دَلَّ عَلَيْهِ ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾.

المعنىٰ: الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أتَاهُمْ، مَمْقُوتُونَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، لانكِشَافِ مُرَاوغَاتِهِمْ وَحِيَلِهِم الجداليَّة، وَقَدْ دَلَّ عَلىٰ هٰذَا الْخَبَرِ عِبَارَةُ إِنْشَاءِ الذَّمّ فِي: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ إلىٰ آخرها.

المثال الثاني: قول اللهِ عزّ وجلَّ فيها بِشَأْنِ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ وَهم في النَّار:

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: فيقول الّذين كانُو فِي الدّنيا الضُّعَفَاءَ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا قَدِ اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِم.

المِثَال الثالث: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيها بِشَأْنِ جوابِ خَزَنَةِ جَهنَّم لِلْمُعَذَّبِينَ فِيهَا، إِذْ قَالَ الْمُعَذَّبُونَ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾:

الواو في ﴿أَوَلَمۡ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحذوف، والتَّقْدِير: أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ وأَجهِزَةُ إِدْراكٍ تُفَرِّقُ بَيْنَ الحقّ والْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الخير والشَّرّ، وَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ فِي الحياة الدُّنيا رُسُلُ رَبّكُمْ إِلَيْكُمْ، يُبَلِّغُونَكُمْ مَطْلُوب رَبِّكُمْ مِنكُمْ، مِنْ إِيمَانٍ وَإِسْلامٍ، وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ إِرَادَاتٌ حُرَّة؟

قالوا: بلىٰ.

فيقول الخزنة: لم يأذَنْ لَنَا رَبُّنَا بِأَنْ نَدْعُوَ بِهَـٰذَا الدُّعَاءِ الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ مِنَّا، فادْعُوا أَنْتُمْ رَبَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ، وَلَكِنْ نَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَافِرِينَ بِهِ، وَمَا دُعَاءُ الَّذِينَ كَانُوا أَيَّامَ امْتِحَانِهِمْ كَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ إِلَّا فِي ضَيَاعٍ، فَلا أَثَرَ لَهُ عِنْدَ اللهِ.

المِثَالُ الرَّابع: قَوْلُ اللهِ عزّ وَجلَّ فِيهَا بِشَأْنِ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الفاء في: ﴿فَلَمَّا﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلىٰ محذوف، والتَّقْدِير: كَانَ هٰؤُلَاءِ الْمُهْلَكُون السَّابِقُونَ خَارِجِينَ عَنْ دِينِ اللهِ الحقّ، وَعَنْ صِرَاطِهِ المستقيم، فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ اللهُ إِلَيْهِمْ بَالْبَيِّنَاتِ الوَاضِحَاتِ مِنَ الآيَاتِ الْمُنَزَّلَاتِ، وَالمعجزاتِ الشَّاهِدَاتِ عَلَىٰ صِدْقِ الرُّسُلِ، لَمْ يَقْبَلُوا الْعِلْمَ الرَّبَّانِيَّ، فَرِحِينَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُم وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةِ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ آخِرَتِهِمْ.

وأَخِيراً أَحَاطَ بِهِمْ الْجَزَاءُ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، وَلَا يُصَدِّقُونَ إِنْذَارَ رُسُلِهِمْ بِهِ.

ثالثاً: من القصر:

اهْتَمَّ البلاغيون بالْقَصْر، وعرَّفُوه بأنَّهُ جَعْلُ شيءٍ مَقْصُوراً علىٰ شيءٍ آخَرَ بواحدٍ من طُرُقٍ مَخْصُوصَةٍ مِنْ طُرُق القَوْلِ المفيد للقصر. وهو قصْرٌ حقيقيٌّ، وقَصْرٌ إضافيّ.

وفي هَـٰذِهِ السورة أمْثِلَةٌ كثيرة مِنْ أَمْثِلَةِ القصر، منْهَا الأمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قول اللهِ عزَّ وجل:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ المجادَلَةِ في آيَاتِ اللهِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا، والطَّرِيقُ الدَّالُّ عَلَىٰ الْقَصْرِ: النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصران:

(١) قَصْرُ إِرَاءَةِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ وَإِنْزَالِ الرِّزْقِ من السماء، علىٰ الله عزّ وجلّ، والطَّرِيق الدَّالُّ علىٰ القصر تَعْرِيفُ طَرَفي الإسناد. وهو قَصْرٌ حقيقي، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصوف.

(٢) قَصْرُ التَّذَكُّرِ النَّافِع فِي الإيمانِ والسُّلُوكِ عَلَىٰ مَنْ يُنِيبُ رَاجِعاً إِلَىٰ رَبِّهِ، كُلَّما ابْتَعَدَ عَنْهُ بِتَقْصِيرَاتِهِ وَمُخَالَفَاتِهِ، والطَّرِيقُ الدَّالُّ عَلَىٰ هَـٰذَا القصر: النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ، وهو قصر حقيقي من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصوف.

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجلَّ:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

في هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ السَّمْع الشَّامِلِ لِكُلِّ مَسْمُوع وَالْبَصَرِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، والطَّرِيقُ الدَّالُّ علىٰ الْقَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفي الإسْناد، وهو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمَلَئِه:

﴿... قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾:

في هَـٰذَا الْقَوْلِ يَدَّعِي فِرْعَوْنُ لِمَجْلِسِ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ أَنَّ مَا يُرِيهِمْ إِيَّاهُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ مَا يَرَاهُ هُوَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَّ مَا يَهْدِيهِمْ إِيَّاهُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ.

فَفِي عِبَارَتِهِ قَصْرَانِ، عَلَىٰ سَبِيل الادّعَاءِ الكاذِبِ مِنْهُ، والطّرِيقُ الدَّالُّ علىٰ القصر فيهما النَّفْي والاستثناء، وهما من قبيل قَصْرِ مَوْصُوفٍ وهو ما يريهم علىٰ صفة هي مَا يرىٰ، وما يهديهم علىٰ صِفةٍ هِيَ إلَّا أنه يهديهِم سبيلَ الرشاد.

المثال الخامس: قول اللهِ تَعَالَىٰ بشأن فَرعَوْنَ وَكَيْدِهِ:

﴿...وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ قَصْرُ كَيْدِ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ أَنَّهُ فِي خَيْبَةٍ عَنْ تَحْقِيقِ مَا أُرِيدَ بِهِ، والطَّرِيقُ الدَّالُّ عَلَيْهِ النَّفْيُ والاستثناء، وهو مِنْ قَصْرِ مَوْصُوف وَهُوَ كَيْدُ فِرْعَوْنَ عَلىٰ صِفَةِ التَّبَاب، وَهُوَ قَصْرٌ إضافي. إذْ كَيد فِرْعَونَ بالإضَافَةِ إلىٰ تَحقيق نتائِجِهِ هُوَ فِي تَبَاب.

وتُوجَدُ أَمْثِلَةٌ أُخرَىٰ أَعْرِضُها دُونَ تَحْلِيل لِيُعْمِلَ المتَدبِّر ذهْنَهُ في تَحْلِيلِها قياساً علىٰ ما سبق:

(١) ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ ... ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ... ﴿٤٠﴾﴾.

(٣) ﴿...وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

(٤) ﴿...إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ... ﴿٥٦﴾﴾.

(٥) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ... ﴿٦١﴾﴾.

(٦) ﴿...لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٦٢﴾﴾.

(٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ... ﴿٦٤﴾﴾.

(٨) ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٦٥﴾﴾.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ... ﴿٦٧﴾﴾.

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

(١١) ﴿...وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ... ﴿٧٨﴾﴾.

رابعاً: من خُرُوج الاستفهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ إلىٰ مَعانٍ أخرىٰ:

اعْتَنَىٰ عُلَمَاءَ المعاني بالتَّنْبيهِ علىٰ خروج الاسْتفهام عن أصْلِ دَلالَتِهِ وَهِيَ طَلَبُ الإفْهامِ إِلَىٰ مَعَانٍ أخرىٰ، وعَدُّوا مِنْهَا نَيِّفاً وَثَلاثِينَ مَعْنَىً.

ومن الاسْتِفْهَامِ الخَارِجِ عَنْ أَصْلِ دَلالَتِهِ فِي هَـٰذِهِ السورة الأمْثِلَةِ التالية:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ... ﴿٢١﴾﴾.

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ هُنا التَّلْويمُ والتَّثْريب.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ فيها في حِكَايَة قَوْل مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَون لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِشَأْنِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ... ﴿٢٨﴾﴾؟؟

المراد بالاسْتِفْهَام هنا الاسْتِنْكارُ والتعجّب.

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ فيها يَحْكِي أيْضاً قَوْلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْن:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾؟؟

يُرَادُ بالاسْتِفهام هُنَا التّعجّبُ مَعَ اسْتِنْكَارِ دَعْوَتِهِمْ.

المثالُ الرابع: قول الله عزَّ وجلّ بِشَأْنِ المشركين:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟؟

يُرَادُ بالاستفهام هُنَا الإنْكَارُ عَلَيْهم وبيان أَنَّ أَمْرَهُمْ يُثِيرُ العجب.

المثال الخامس: قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟

يُراد بالاسْتِفْهَامُ هُنا التَّعجِيبُ من أَمْرِ المُجادلين.

المثال السادس: قول الله عزّ وجل بشَأْن الكَفَرَةِ المعذّبين يَوْمَ الدّين:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾؟

يُراد بالاسْتِفهام هُنا تَحْسِيرُهُمْ وَتَنْدِيمُهُمْ علىٰ مَا كان مِنْهُمْ مِنْ شركٍ باطلٍ أَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَاب.

خامساً: التوكيد:

اعتنىٰ عُلَمَاءِ المعاني بتوكيد الجملَةِ الخبريَّة وعَدَمِه، وقَسَّمُوا الإخبار إلىٰ ابتدائي، وطَلَبي، وإنْكاري.

قالوا: ويَحْسُنُ في ابتداء الإخبار بِالخَبَر إيرادُهُ غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بِأَيَّةِ مُؤَكّدات.

وحين يَكُونُ لَدىٰ المخاطَبِ شَكٌّ فِي الخَبَرِ، أَوْ عَوَامِلُ شَكٍّ، أَوْ إِحْجَامٌ عَنْ قَبُولِ الخبر، فإِنَّ حَالَهُ تَكُونُ حَالَ طَالِبٍ يَسْأَلُ عَنْ صِحَّةِ الخبر، فَيَحْسُنُ أَنْ يُؤْتَىٰ لَهُ بِالْجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ مُقْتَرِنَةً بِمَا يُؤَكِّدُ صِحَّةَ مَضْمُونِ الخبر.

وَحِينَ يَصِلُ المخاطَبُ إلىٰ حَالَةِ الْإنْكَارِ يَكُونُ مِنْ بَلَاغَةِ الكلامِ الخَبَرِيّ وجوب اقترانِهِ بالمؤكّداتِ الَّتِي تُلَائِمُ حَالَةَ الإنكار.

وفي سُورَة (غافر) جُمَلٌ كَثِيرةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِمُؤَكِّدَاتٍ مَرَاعَاةً لِأَحْوَالِ المخاطبين، أو الَّذِينَ يُرَادُ التَّوْكِيدُ لَهُمْ تَبعاً أَوْ تَعْرِيضاً، فَقَدْ يَكُونُ الخطابُ مُوَجَّهاً لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ تَوْكِيداً، لَكِنْ يَكُونُ الخبر مُؤَكّداً مُرَعَاةً لِلْمُؤْمِنِينَ لأنَّ خِطَابَ اللهِ عزَّ وجلَّ لَهُ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يُرَاعَىٰ بالتوكيد الكافِرُونَ أَوِ المنافِقُونَ، لِمَا فِي الخِطَابِ مِنْ بَيَانٍ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، فَهُمْ مُخَاطَبُونَ بِهِ تَعْرِيضاً، فَمِنَ الْبَلَاغَةِ إيرادُهُ مُؤَكّداً، وَقَدْ يَكُونُ الدّاعِي للتوكيد التعبير عن الإيمان أَوْ شِدَّةِ الخضوع، أو شِدَّةِ الحاجَةِ والطلب، ونحو ذلك ممّا يكون في نفس مُسْتَعْمِلِ التوكيد.

والتوكيد يكونُ بِواحِدٍ فأَكْثَرَ مِنَ المؤكداتِ التاليات:

(١) تقديم مَا هو فاعل في المعنىٰ علىٰ فِعْله.

(٢) اختيار الجملة الاسميّة بَدل الجملة الفعلية ابتداءً.

(٣) كلمة «قد» الْحَرْفية حينما تَكُونُ للتحقيق.

(٤) القسم.

(٥) نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة.

(٦) لَامُ الابتداء.

(٧) لامُ الابتداءِ الَّتي تُزَحْلَقُ عَنْ صَدْر الجملة.

(٨) «إنَّ» و«أَنَّ» بِكَسْرِ الهمزة وفَتْحها.

(٩) ضمير الفصل.

(١٠) «إنَّما» و«أنَّما».

(١١) «إنْ» المخفّفة من الثقيلة.

(١٢) «أمَّا» الشَّرْطية.

(١٣) أدوات التنبيه، ومِنْها «ألَا».

(١٤) الأحْرُف الّتي تُضَافُ فِي الكلام، وتُسَمَّىٰ «زَائِدَة» ومنها «مَا» بَعْدَ «إذَا» و«مِنْ» الجارة الَّتي قَدْ تُزَادُ للتوكيد. والباء الجارة الّتي قد تزاد للتوكيد.

(١٥) تكرير النفي.

(١٦) السين وسوف الداخلتان علىٰ فعلٍ دَالٍّ علىٰ وعْدٍ أو وَعيد.

(١٧) «لَكِنَّ» وهي حَرْفٌ ينْصِبُ الاسم ويَرْفَعُ الخَبَر.

(١٨) «لَنْ» فالراجِحُ فيما أرَىٰ أَنَّها تفيد التوكيد، ولا تفيد التأبيد.

والجُمَلُ المؤكَّدَة في السُّورَة كَثِيرةٌ، ومن السَّهْلِ بالتَّأَمُّلِ القريب اسْتِخْرَاجُها، ومَعْرِفَةُ الدَّاعي إلَىٰ التوكيدِ فيهَا، ومنها:

(١) ﴿... إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ... ﴿١٠﴾﴾.

(٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ... ﴿١٣﴾﴾.

(٤) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

(٥) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

(٦) ﴿... وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

(٧) ﴿... فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

(٨) ﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ... ﴿٢٦﴾﴾.

(٩) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(١٠) ﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

(١١) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾.

(١٢) ﴿... وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

(١٣) ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ... ﴿٣٤﴾﴾.

(١٤) ﴿... وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ...﴾.

(١٥) ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

(١٦) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

(١٩) ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴿٦٦﴾﴾.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ... ﴿٧٨﴾﴾.

(٢١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ... ﴿٧٩﴾﴾.

وغيرها من الأمْثِلَة.

وأكتفي بهٰذِهِ المستخرجات البلاغية من السورة.

والحمد لله علىٰ معونته ومَدَدِهِ وفَتْحِهِ.

سورة فُصِّلَت

٤١ مصحف ٦١ نزول

وتُسَمَّى «حمَ السَّجْدةِ»

وتسمَّى بأسماء أخرى

وهي سورة مكيّة بلا خلاف

وهي الثانية من «الحواميم السبع»

(١)

نصّ السّورة وما فيها من فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ

١ ـ • سكت أبو جعفر علىٰ «حا» وعلىٰ «ميم» سكتة لطيفة.

١٠ ـ • قرأ أبو جعفر: **[سَوَاءٌ]** بالرَّفع، أي: هي سواءٌ.

وقرأها يعقوب: **[سواءٍ]** بالجرّ، صفةٍ لأيَّام.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿سواءً﴾** بالنصب، علىٰ أنها حال من «أربعة».

﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ

١١ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْيَ] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة:
﴿وهِي﴾ بِكَسْرِ الهاء.
وهما لغتان.
ووقف يعقوب بهاء السّكْت.

١٤ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ ضم الهاء وكسْرها لُغتان.

١٦ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكسر الهاء.

١٦ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمرو، ويَعْقوب: [نَحْسَاتٍ] بإسْكَانِ الحاء، جمع «نَحْسَةٍ».
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الحاء ﴿نحِسَاْتٍ﴾ جمع: «نَحِسَة» أي: ذَاتُ نَحْسٍ.
النَّحْسُ: الْجَهْدُ والضُر.

أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ

---

١٩ ـ • قرأ نَافع، ويعقوب: [وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللهِ] بضمير المتكلّم العظيم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ﴾: بالفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعله، و«أعداءُ» نائب فاعل.

٢١ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] ببناء الفعل للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿تُرْجَعُوْنَ﴾ ببناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتَيْنِ تَكامل، أي: يُرْجِعُهم اللهُ فَيَرْجِعُون.

٢٥ ـ • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمِ الْقَوْلُ] بِكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسَائي، ويعقوب، وخلَف: [عَلَيْهُمُ الْقَوْلُ] بضمّ الهاء والميم.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿عليهِمُ القول﴾ بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم. =

خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

= وهَـٰذِهِ القراءات وُجُوهٌ عَرَبِيَّة.

ووقف حمزة ويعقوب بضم الهاء، والباقون بكَسْرها.

٢٩ ـ • قرأ ابن كثير، والسُّوسي، وابْن عامر، وشعبة، ويَعْقُوب: [أَرْنا] بإسْكَانِ الرَّاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَرِنَا﴾ بكَسْرِ الراء. إلَّا الدُّوري عن أبي عَمْرو، فإنَّهُ قرأها باختلاس الكَسْرَة.

٢٩ ـ • قرأ ابن كثير: [اللَّذَيْنِّ] بِتَشْدِيدِ النون مع القصر والتوسُّط والمدّ في الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿اللَّذَيْنِ﴾ بكسر النُّون دُون تَشْدِيد.

٣٠ ـ • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمِ الْمَلاَئِكَةُ] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكِسَائِي، ويعقوب، وخلف: [عَلَيْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ] بضمّ الهاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عليهِمُ الملائكة﴾ بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

ووقف حمزة، ويعقوب بضمّ الهاء. والباقون بكَسْرِهَا.

وهَـٰذِهِ القراءات وُجُوهٌ عَرَبِيَّة.

تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ
غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي
ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُواْ
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن
كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ
وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي

---

٣٧ ـ • وقف يعقوب بهاء السكْتِ علىٰ ﴿خَلَقَهُنَّ﴾.

٣٨ ـ • وقف حمزة بنقْلِ حركة الهمزة إلىٰ السّين في: [لَا يَسْأَمُونَ].

٣٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [وَرَبَأَتْ]. يقال لغة: «رَبَأَتِ الأرض» أي: زَكَتْ وارْتَفَعَتْ زروعها.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَرَبَتْ﴾ من فعل «رَبَا الشيءُ يَرْبُو» بمعنىٰ: نَما وَزَاد.

فمؤَدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٤٠ ـ • قرأ حَمْزَة: [يَلْحَدُونَ] من فعل «لَحَدَ» بمعنىٰ مَالَ عن القصد. =

ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُلْحِدُوْنَ﴾ من فعل «أَلْحَدَ» بمعنىٰ عَدَلَ عَنِ الحقِّ وأدْخَل فِيه ما ليس منه.

فمؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٤٠ ـ ● قرأ السّوسي، وأبو جعفر: [شِيْتُمْ] بإبدال الهمزة ياءً. وقرأها كذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿شِئْتُمْ﴾.

٤٤ ـ ● قرأ ابْنُ كثير: [قُرَانًا] وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿قُرْآناً﴾.

وكلا القراءتين من النُّطْقِ العربي.

٤٧ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: ﴿من ثمرات﴾ بالجمع. =

أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ

= وقرأها باقي القراء العشرة بالإفراد: **[مِنْ ثَمَرةٍ]**.
ومؤدىٰ القراءتين واحد.

٤٧ ـ • قرأ يَعْقُوب **[يُنَادِيهُم]** بضمّ الهاء.
والباقون بكَسْرِها.

٤٧ ـ • قرأ ابن كثير: **[شُرَكَائِيَ قَالُوا]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بإِسْكَانِ ياء المتكلم.

٥٠ ـ • قرأ ورش، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، وقالون بخلف عنه: **[رَبِّيَ إِنَّ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَان ياء المتكلم، وهو الوجه الثاني لقالون.

٥١ ـ • قرأ ابْنُ ذَكْوان، وأبو جَعْفَر: **[وَنَاءَ بِجَانِبِهِ]** بمعنىٰ مَالَ وَتجافىٰ مُتَثاقلاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ]** بمعنىٰ ابْتَعَد.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد، فَمِنَ الناس من يميلُ مُتَثاقلاً، ومن الناس من يبتَعِد عن شكر ربّه.

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

٥٣ ـ • قرأ يعقوب: [سَنُرِيهُمْ] بضمّ الهاء، والباقون بكَسْرِها.

(٢)
ممّا ورَدَ في السُّنَةِ والأخبار بشأن سُورة (فُصّلت)

(١) رُوي عن أنس قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«الْحوامِيمُ ديباجُ القرآن».

الديباج: نوع من الثياب سَدَاهُ ولُحْمَتُهُ حَرِير، أي: الحواميم لَيِّنَةٌ ناعِمَةٌ فَاخِرَة، كالدِّيباج بالنسبة إلى سائر الثياب.

والحواميم: هي السُّوَرُ المبْدُوءَة بـ«حَم» وهي سبع متَتَاليات في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول: (غافر ـ فصّلت ـ الشُّورَىٰ ـ الزخرف ـ الدُّخان ـ الجاثية ـ الأحقاف).

(٢) أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يَعْلَىٰ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ، وابْنُ مَرْدَوِيه، وأبو نعيم، والبيهقي، وابْنُ عساكر، عن جابر بْنِ عبد الله، قال:

اجتمَعَتْ قُرَيشٌ يَوْماً، فقالُوا: انْظُروا أَعْلَمَكُمْ بالسِّحْر، والكَهانَةِ، والشِّعْر، فَلْيَأْتِ هـٰذا الرَّجُلَ «يَعْنُونَ محمّداً ﷺ» الّذي فَرَّقَ جَماعَتَنا، وشَتَّتَ أَمْرَنا، وعَابَ دِينَنا، فَلْيُكَلِّمْهُ، ولْيَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عليه.

فقالوا: مَا نَعْلَمُ أحداً غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَة.

فقالوا: ائْتِهِ يَا أَبَا الْوَلِيد.

فأتَاهُ فقالَ: يَا مُحَمّد، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عبْدُ اللهِ؟، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عبد المطّلب؟. فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ.

قال عتبة: فإنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَـٰؤلاءِ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَدْ عَبَدُوا الآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَ. وإنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّىٰ نَسْمَعَ قَوْلَكَ، أَمَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً أَشْأَمَ عَلَىٰ قَوْمِكَ مِنْكَ، فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا، وشَتَّتَ أَمْرَنَا، وعِبْتَ دِينَنَا، وفَضَحْتَنَا فِي العَرَبِ، حتَّىٰ لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيشٍ ساحراً، وأَنَّ فِي قُرَيشٍ كاهِناً، واللهِ مَا تَنْتَظِرُ إلّا مِثْلَ صَيْحَةِ الحبْلَىٰ أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بالسُّيوف. يَا رَجُلُ إنْ كَانَ إنَّما بِكَ الحاجَةُ جَمَعْنَا لَكَ حَتَّىٰ تَكُونَ أغْنَىٰ قُرَيشٍ رَجُلاً، وإِنْ كانَ إنَّما بِكَ الْبَاءَةُ فاخْتَرْ أيَّ نِسَاءِ قُرَيشٍ شِئْتَ، فَلْنُزَوِّجَنَّكَ عَشْراً.

فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَرَغْتَ»؟.

قال: نَعَمْ.

قال رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«بسم اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم. ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا

وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةٗ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

فقال عُتْبة: حَسْبُكَ، حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هـٰذا؟..

قال رسول الله ﷺ: «لَا» فَرجعَ عُتْبَةُ إِلَىٰ قُرَيشٍ فَقَالُوا مَا وَرَاءَكَ؟،

قال: مَا تَرَكْتُ شَيْئاً أَرَىٰ أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا كَلَّمْتُهُ.

فقالوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟.

قال: والَّذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً (يَعْنِي رَبَّ الكَعْبَة) مَا فَهِمْتُ شَيْئاً مِمَّا قَال، غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.

قالوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ الرَّجُلُ بالْعَرَبِيَّةِ وَمَا تَدْرِي مَا قَالَ.

قَال: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئاً مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرَ الصَّاعِقَة.

وجاء فِي رِوَايَةٍ عن ابْن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه، أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ قَال لِقُرَيشٍ: يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي فِي هـٰذا الْيَوْمِ واعْصُونِي بَعْدَه، فواللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ هـٰذا الرَّجُلِ كَلَاماً مَا سَمِعَتْ أُذُنِي قَطُّ كلاماً مِثْلَهُ، ومَا دَرَيْتُ مَا أَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِ.

(٣) وأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ في شُعَب الإيمان مِنْ طريق خَلِيلِ بْنِ مُرَّة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرأ: تَبارَكَ، وحمَ السَّجْدَة».

قال البخاري عَنْ خَلِيلِ بْنِ مُرَّة: هُو مُنْكَرُ الحَدِيث.

(٣)
موضوعُ سُورَة (فُصِّلَتْ)

يَدُورُ موضوع هـٰذه السُّورة حَوْل مُعَالَجَةِ الموقِفِ الَّذِي تَشَبَّثَ بِه، أو تَطَوَّرَ إلَيْهِ مُشْرِكُو مَكَّة، قُبَيْلَ نُزُولِهَا.

وتَشْتَمِلُ أيْضاً عَلَىٰ تَثْبيتِ المؤمِنينَ بالْمُرَغِّبَاتِ من ثواب اللهِ العظيم، وَتَوجِيهِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ لالْتِزَام الْعَمَلِ الصالح، وإعْلَانِ الاسْتِسَلامِ للهِ والخضوع لَهُ كَسَائر المسلمين، والدَّفْعَ بالَّتِي هي أَحْسَنُ.

وتَشْتَمِلُ عَلَىٰ التذكِيرِ بِبَعْضِ آياتِ اللهِ في كوْنه، والتَّحْذِيرِ مِنْ عقاب اللهِ الشّدِيد، وَتَقْدِيم لَقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين للترهيب بها.

وفيها عَرْضُ بَعْضِ صِفَاتِ الْإنْسَانِ الجحوديَّةِ، إضَافَةً إلى مَا جَاءَ مِنْ صِفَاتِهِ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ في مُخْتَلِفِ السُّور.

وفيها تَعْلِيمُ حِوَارٍ دَعَوِيّ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الحقِّ.

وفيها وعْدٌ بأنَّ اللهَ سَيُرِي الْكَافِرِينَ بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وهـٰذِهِ الآياتُ تَكْشِفُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ جُذُورِهَا مِنَ القاعدة الإيمانيَّةِ، وأَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ علماً.

(٤)
دروس سورة (فُصِّلَتْ)

من الأَفْضَل لحُسْنِ التّدبُّر تقسيم السّورة إلى دُروس، وقد ظَهَرَ لي أنّ مِنَ المناسبِ تقسيمَ هـٰذِهِ السّورَةِ إلى أحَدَ عَشَرَ دَرْساً.

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٨).

وفيه بيانٌ عَنِ القرآن مُضَافٌ إلى مَا سَبَقَ مِنْ بَيَانٍ عَنْهُ فِي نُجُوم

التنزيل السَّابقة، مَعَ بَيَانِ مَوْقِفِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّةِ مِنْه، إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، وَفِيهِ تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ عِلَاجاً لِبَعْضِ شُبَهِهِمْ، وَدَعْوَةً إِلَىٰ الاستقامَةِ في مَسِيرَتِهِمْ عَلَىٰ صِرَاط الله بَعْدَ الإيمانِ الحق، وتَحْذِيراً لَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وعَاقبَتِه، وتَرْغيباً لَهُمْ في الإيمانِ وَعَاقِبَتِهِ التي ينالُونَ فيها أجراً عظِيماً لَا يَنْقَطع.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ١٢).

وفي هذا الدَّرس تَعْلِيمٌ من اللهِ لِرَسُولِه ﷺ فلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ، حِواراً دَعَوِيّاً حَوْلَ قَضِيَّةِ الإيمانِ باللهِ الرَّبِّ وَحْدَه لَا شَرِيك لَهُ، مُقْتَرِناً بِبَيَانِ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الواحِدَةِ لِكَوْنِهِ كُلِّه، ويَلْزَمُ مِنْ هٰذَا عَقْلاً تَوْحِيدُهُ فِي إلٰهِيَّتِهِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الرَّبِّ لا شريكَ لَهُ فيها.

الدرس الثالث: الآيات من (١٣ ـ ١٨).

وفي هٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِه ﷺ أَنْ يُنْذِرَ الْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ، بِصَاعِقَةٍ مُهْلِكَةٍ لَهُمْ إهْلاكاً جَمَاعِيّاً شامِلاً، إنْ أَعْرَضُوا جَمِيعاً عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، وتَوَقَّفَ المتوافِدُونَ مِنْهُمْ للإيمان والدُّخُولِ في الإسلام. مع بَيَانٍ يتَعَلَّقُ بِكُفْرِ عَادٍ وثَمُود، وإهْلاكِ كُلٍّ مِنْهما، ونجاةِ الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُون.

الدرس الرابع: الآيات من (١٩ ـ ٢٥).

وفي هذا الدَّرْسُ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القِيامَةِ يتعَلَّقُ بالْكَافِرين، مَعَ بيَانِ بَعْضِ أحْوالِهِم الَّتِي كانُوا بِهَا ضَالِّينَ، في الحياةِ الدُّنيا، يَتَّبِعُونَ فيها قُرَنَاءَ السُّوء.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٦ ـ ٣٢).

وفي آياتِ هذا الدَّرْسِ بيانُ دَعْوةِ أئِمَّةِ الكُفْرِ في مَكَّة إبَّانَ التنزيل،

لِجَمَاهِيرِهِمْ أَنْ لَا يَسْمَعُوا لِلْقُرْآن، وإذَا تُلِيَ عَلَيْهِم أَنْ يَلْغَوْا فِيهِ لِيُشَوِّشُوا عَلَىٰ صَوْتِ التَّالِي، فَلَا يَصِلُ الكلامُ سَوِيّاً إِلَىٰ أَسْمَاعِ شُهُودِ التِّلَاوَة، رَجَاءَ أَنْ يَغْلِبُوا بِلَغْوِهِمْ دَعْوَةَ الدَّاعِي إلى اللهِ.

وفيها وعِيدٌ مِنَ اللهِ للّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّين، مع عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ وهُمْ يُعَذَّبُونَ في النار.

وفيها وَعْدٌ لِلّذينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، بما يَلْقَوْنَهُ مِنْ بُشْرَيَاتٍ في الحياة الدُّنْيَا، وَثَوَابٍ جَزِيلٍ يَوْمَ الدِّين.

الدرس السادس: الآيَات من (٣٣ ـ ٣٦).

وفي آيَاتِ هذا الدَّرْس تَرْغيبٌ للمؤهَّلِينَ أَنْ يكُونُوا دُعَاةً لله، فِي أَنْ يَقُومُوا بِوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ وَإلى صِرَاطِهِ المستقيم، مع تَوْصِيَتِهِمْ بأَنْ يَدْفَعُوا الَّذِينَ يُؤْذُونَهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَن، وأَنْ يَسْتَعِيذُوا باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيم مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ الدَّاعِي إلَى مُقَابلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بأَشَدَّ مِنْها.

الدرس السابع: الآيات من (٣٧ ـ ٣٩).

وفي هذا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علَى وحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبيَّتِهِ، المسْتَلْزِمَةِ وَحْدَانِيَّتَهُ في إلَهِيَّتِهِ، مع الدَّعْوَةِ إلى السُّجُودِ للهِ وَحْدَه. وعرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علَىٰ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ إحْيَاءِ الْموتَىٰ، الْمُمَاثِلِ لإحْيَاءِ الأرضِ بِالنَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتها.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٠ ـ ٤٥).

وَفي هذا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ بالإنْذَارِ للَّذِين يُلْحِدُونَ في آيَات الله، ولِلّذِينَ كَفَرُوا بالقرآن، وفيه تَسْلِيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ، ودَفْعٌ لِبَعْضِ أقْوَالِ الكافِرِينَ بِشَأْنِ القرآن، وتَعْلِيمٌ للرَّسُول ﷺ مَا يَقُولُه لهم.

الدرس التاسع: الآيات من (٤٦ ـ ٤٨).

وفيه بَيَانٌ مُجْمَلٌ بِشَأْنِ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وَمَنْ أَسَاء، وأنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ عِبادَهُ شيئاً.

وفيه بيانٌ عَنْ شُمُولِ عِلْم اللهِ مُضَافٌ إلَىٰ مَا سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزيل بشَأْنِ عِلْمِهِ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

وفيه عَرْضُ لَقْطَةٍ مِن مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين تَتَعلَّقُ بالمشْرِكين.

الدرس العاشر: الآيَات من (٤٩ ـ ٥١).

وفي هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَن بَعْضِ صِفَاتِ الْإنْسَانِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَأَنَّهُ دَائِمُ الطَّلَبِ لِمَا يَرَاهُ خيراً لَهُ في الحياة الدُّنيا، فإذا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً قَنُوطاً. وأنَّهُ كَفُورٌ جَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ عليه.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٥٢ ـ ٥٤) آخر السورة.

وفي هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ الله عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أُسْلُوباً مِنْ أَسَالِيب مُحَاجَّةِ الْكَافِرِينَ بالقرآن، وفيه بيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بأَنَّهُ سَيُرِي النَّاسَ في المسْتَقْبَلِ بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ أنَّ القرآن حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، ولَيْسَ مِنْ وَضْعِ بَشَر، فالبشر عاجزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ الآيَاتِ الْبَاهِراتِ الَّتِي سَيُرِيها اللهُ عَزَّ وَجلَّ للنَّاسِ فِي كَوْنِهِ، وقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهَا فِي القرآن.

(٥)
التدبر التحليلي للدَّرْس الأول من دُروس سورة (فُصِّلَت)
الآيات من (١ ـ ٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ

فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أَبُو جَعْفَر على «حَا» وعلى «مِيم» سَكْتَةً لَطِيفَة.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ القرآنِ مُضَافٌ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ بَيَانٍ عَنْهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَة، مَعَ بَيَانِ مَوْقِفِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ في مَكَّةَ مِنْهُ إِبَّانَ تَنْزِيل السّورُة، مَعَ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ عِلَاجاً لِبَعْضِ شُبَهِهِمْ، ومَعَ دَعْوَةٍ إِلَىٰ الاسْتِقَامَةِ في مَسِيرَتِهِمْ عَلَىٰ صِرَاطِ الله، بَعْدَ الإيمان بالحقّ، وَتَحْذِيرٍ لَهُم مِنْ الشّرْكِ وعاقِبَته، وتَرْغيب في الإيمان وعاقِبَتِهِ التَّي ينالُونَ فيها أَجْراً عظيماً لَا يَنْقَطِع.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ :

• ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾: سبَقَ بيانُ مَا يكْفِي بالنِّسْبَةِ إلى الحُروف المقطّعةِ الَّتِي جَاءَت في أوائل بَعْضِ سُوَرِ القرآن، في تَدَبُّر أوائِلِ سُورَة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: هَـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ لِسَانِ الرُّسُولِ محمَّدٍ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، وقد سبَقَ في أوائِلِ المجلّدِ الأوّل شَرْحٌ وافٍ لِهـٰذَينِ الاسْمَيْن من أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

تَنْزِيل: مَصْدَرُ فِعْل: «نَزَّل يُنَزِّلُ»، وقَدْ «أُطْلِقَ المصْدَرُ وأُرِيدَ بِهِ اسْمُ المفْعُول، أي: مُنَزَّلٌ من الرَّحْمٰن الرحِيم.

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُو الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، فَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ خَلْقٍ أَو بَيَانٍ هُو تَنْزِيلٌ مِنْهُ، إذْ لَا يُدَانِيهِ ولَا يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ مِنْ عُلُوِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

وفي الإعْلَامِ بأنَّ هَـٰذا القرآنَ تَنْزِيلٌ من اللهِ، دَفْعٌ لأَوْهَامِ الَّذِينَ يَرَوْنَهُ مِنْ صُنْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُعِينِينَ لَهُ مِن الإنْسِ أو الْجِنّ.

وقد جاءَ في سوابق نجوم التَّنْزِيل بيانُ:

(١) أنَّهُ تَنْزِيلٌ مَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ في الآية (٨٠) من سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) وفي الآية (١٩٢) من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول).

(٢) وأنَّهُ تنزيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيم في الآية (٥) من سورة (يَس/ ٤١ نزول).

(٣) وأنَّهُ تَنْزِيل من اللهِ الْعَزِيز الحَكيم في الآية (١) من سورة (الزمر/ ٥٩ نزول).

(٤) وأنَّهُ تَنْزِيلٌ من اللهِ الْعَزِيز العَلِيم في الآية (٢) من سورة (غافر/ ٦٠ نزول).

فَدَلَّ هـٰذا التنويعُ في الْبَيَانِ على المنْهَج التكامُلِيّ في القرآنِ بَيْنَ النُّصُوص.

• فكوْنُ مَا جَاءَ في القرآنِ قد اشتَملَ عَلَىٰ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِلْعَالَمِين، يُنَاسِبُهُ أنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرّحِيم.

• وكَوْنُ مَا جَاء في القرآن قد اشتملَ عَلىٰ أوامِرَ وَنواهِي وتكالِيف تقتضيها رُبُوبيَّة اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

• وكوْنُ مَا جَاءَ في القرآنِ يَشْتَمِل علىٰ إعْجَازٍ لَا يَسْتطِيعُ غَيْرُ اللهِ الْعَزِيز الْقَوِيّ الغالِبِ تَقْدِيمَهُ، مع اشتمالِهِ علَىٰ مَا فِيهِ رَحْمَةٌ للعباد، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ العزيز الرَّحِيم.

• وكَوْنُ مَا جَاءَ فِي الْقُرآن يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَعَارِفَ وعُلُوم غيبيَّة لَا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ تبارَكَ وتَعالَىٰ، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ الْعزِيزِ الْعَلِيم.

• وكَوْنُ مَا جَاءَ فِي القرآن يَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَيَانَاتٍ حَكِيمَةٍ، وتَكَالِيفَ حَكِيمَةٍ مُلَائِمَةٍ لِأَحْوَالِ العباد، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الْحَكِيم.

ونظراً إِلَىٰ القرآنِ كُلِّهِ مَا نَزَلُ مِنْهُ سَابِقاً، ومَا سَيَنْزِلُ مِنْهُ حتَّىٰ آخِرِ سُورَة، قال اللهُ تَعالَىٰ:

• ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾:

أي: هذا البَيَانُ الَّذِي تُلِيَ قِسْمٌ مِنْهُ، وسَيَنْزِلُ علَىٰ الرَّسُولِ ﷺ سَائِرُهُ، هُوَ ﴿كِتَٰبٌ﴾ تَجِبُ كِتَابَتُهُ وجَعْلُ صَفَحاتِهِ كِتَاباً مُدَوَّناً مَحْفُوظاً مِنَ التغيير والتَّبْدِيلِ والزِّيَادَةِ والنَّقْص، وهذا مَا تحقَّقَ بِفِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ والْخِيرَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ قادَة المؤمنين المسْلمين.

لفظ: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بَدَلٌ مِنْ مُبْتَدأ الْجُمْلَةِ السَّابِقَة أو مِنْ خَبَرِها.

• ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي: بُيِّنَت آياتُه بَيَاناً وَافِياً بالمقْصُودِ بها.
التَّفْصِيل: التَّبيِينُ، وكَشْفُ حُدُودِ الأجْزَاءِ المتلاصِقَةِ في الظَّاهِر، بإظْهَارِ مَا بَيْنَها من انْفِصالٍ، ولو لم يَكُنْ مَرْئِيّاً، لتمييز بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ فِي الإدْرَاكِ الفكْرِيّ.

إنَّ تَفْصِيلَ الْبَيَانِ يمْنَعُ اخْتِلَاطَ الأَفْكَارِ وَتَداخُلَ بَعْضِها بِبَعْضٍ،

ويَظْهَرُ تَفْصِيلُ البيانِ القرآني مِنْ جَمْعِ النُّصُوصِ القرآنية الموزّعَةِ في السُّور، وتَدَبُّرِهَا تَدبُّراً تَكامُلِيّاً.

• ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أُطْلِقَ لفظ القرآن في الاصطلاح الدِّينيّ عَلَىٰ الكَلامِ المنزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالمين علَىٰ مُحَمَّد ﷺ.

وَلفظ «قرآن» هو في الأصْلِ مَصْدَرُ فِعْلِ «قرأ» يُقَالُ لُغَةً: «قَرَأَ الكِتَابَ، يَقْرَؤُهُ، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كَلِمَاتِهِ نظراً، ونَطقَ بها. وهو هنا مَنْصُوبٌ على أنَّهُ «حال»، أي: حالَة كوْنِهِ قرآناً عَرَبياً.

واخْتِيرَ تَسْمِيَةُ كِتَابِ اللهِ الخاتِمِ «قُرْآناً» لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ الْحَثِّ علَىٰ قِرَاءَتِه مِنَ المصْحَفِ، فَأَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَحْفَظُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، حَتَّىٰ حُفَّاظُهُ يَحْتَاجُونَ إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ المصْحَفِ، حِمَايَةً لِتِلَاوَتِهِمْ مِنَ الْغَلَطِ والْخَطَأ والنِّسْيان.

وَوَصَفَ اللهُ هٰذا الكِتَابَ بأنَّهُ عَرَبّي، أي: أَنْزَلَهُ اللهُ بِلِسَانِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّة، ولَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ عَرَبيّاً عَدَمُ وَجُودِ كَلِمَاتٍ فِيهِ ذَاتِ أُصُولٍ غَيْرِ عَرَبِيَّة، إذْ قد اسْتَعْمَلَ الْعَرَبُ هٰذِهِ الكَلِمَاتِ، وطَوَّعُوها لِلُغَتِهِمْ وَأُصُولِهَا وَقَوَاعِدِها.

• ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: هذا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبيّاً، مُنَزّلاً ومُوَجَّهاً لِقَوْمٍ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ الْعِلْمِ واكْتِسَاب الْمَعْرِفَةِ المنَزَّلَةِ مِنْ رَبِّهِمْ آناً فآناً، ويَحْرِصُونَ على الْعِلْمِ واكْتِسَاب المَعْرِفَةِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، إذْ هُمْ يُدْرِكُونَ قِيمَةَ أجْهِزَةِ الْعِلْم الَّتِي آتاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إِيَّاها، فَيَسْتَعْمِلُونَهَا فيما خُلِقَتْ لَهُ، ويُدْرِكُون أَنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ.

• ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾:

الْبَشِيرُ: صِيغَةُ مُبالَغَة لِلْمُبَشِّر، وهو المخْبِرُ بما يَسُرُّ المبشَّرَ وَيُفْرِحُهُ.

النَّذِيرُ: اسْمٌ لِلإِنْذَارِ، مَصْدَرِ أَنْذَرَه. **الإنذار**: الإخبارُ بعَواقِبَ غَيْرِ سَارَّةٍ، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أو عُقُوبَةٍ عَلَىٰ مُكْتَسَبٍ إراديّ.

والنَّذِيرُ: يأتي بمعنىٰ المنْذِر.

ولمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مُشْتَمِلاً علَىٰ آيَاتٍ فيها تَبْشِيرٌ للمؤمنينَ المتَّقِين بثَوابٍ عَظِيمٍ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، وصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأَنَّهُ بَشِيرٌ.

ولمَّا كان مُشْتَمِلاً عَلَىٰ آياتٍ فِيهَا إنْذَارٌ بعِقَابٍ أَلِيمٍ، للكافِرينَ والْعُصَاةِ المسْرِفِينَ في مَعَاصِيهِمْ، وَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأَنَّهُ نَذير.

وبما أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، وكَلَامٌ مِنْ كَلامِهِ، فَهُو فِي الْحَقِيقَةِ الْمُبَشِّرُ والمنْذِرُ.

• ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾: أيْ: فَأعْرَضَ أَكْثَرُ الَّذِينَ بَلَّغَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ القرآنِ المجيد في الْبَلَدِ الأوّل لدَعْوَتِه وهو مكة.

الْإعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَال والإدْبَار، والْمُعْرِضُ يَنْصَرِفُ بِفِكْرِهِ وحَوَاسِّهِ عمَّا يُوَجَّهُ له، ولهذا قال تَعَالَىٰ:

• ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أَيْ: فَهُمْ لَا تَصِلُ الآيَاتُ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إلى مَرَاكِزِ السَّمْعِ فِي أَدْمِغَتِهِمْ، فَلَا يَفْهَمُونَها، ولا يَتَدَبَّرُون دَلَالَاتِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَوْقِفَ الكافِرِينَ المعالَجِينَ في السورة إبَّانَ تَنْزِيلِهَا.

• ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾:

أَكِنَّة: جمع «كِنٍّ» وهو المكان المحفوظ المحجوبُ ببناء أو بِغَيْرِه مِنَ الْحُجُب، وجمع «كِنان» وهو الغطاء، وكلُّ شيءٍ يقي شيئاً ويَسْتُرُه.

وقْرٌ: **الْوَقْرُ**: الصَّمَمُ، أو هو ثِقَلٌ فِي السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم.

اشْتَمَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ علىٰ أَرْبَعِ مَقَالَاتٍ قَالَهَا أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة، أو قَالَهَا بَعْضُهُمْ وأقَرَّهَا سائِرُهم، لِتَيْئِيسِ الرَّسُول محمد ﷺ مِنْ مُتَابعَةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وتِلَاوَةِ مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَلَيْهِمْ.

المقولَة الأولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾:

أرادوا بالْقُلُوبِ مَرَاكِزَ الْإِدْراكِ والتَّفْكِيرِ في أَدْمِغَتِهِمْ، فالْقَلْبُ يُطْلَقُ عِنْدَ العَرَب عَلَىٰ وَسْطِ كُلِّ شَيْءٍ ولُبِّهِ ومَحْضِهِ، والْعُمْقُ المدْرِكُ المفَكِّرُ المسْتَقْبِلُ لْلِمَعْرِفَةِ فِي الإنْسَانِ، هو مَا في دِمَاغِ رأْسِهِ من أجْهِزَةٍ تُدْرِكُ مَا يَصِلُ إِلَيْهَا من الصُّوَرِ والمعانِي والأقوالِ، وتُحَلِّلُ فِيهَا وتُفَكِّرُ، وتحْفَظُ في الذَّاكِرَة، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أعْمَالٍ فِكْرِيَّة.

وقَدْ عَبَّرُوا عَنْ عَدَمِ وُصُولِ مَا يَدْعُوهُمْ الرسولُ ﷺ إِلَيْهِ، بآيَاتِ القرآنِ وبِبَيَانَاتٍ مِن عِنْدِه، بأَنّ قُلُوبَهُمْ (وهي مَرَاكِزُ الإدْراك والتفكير في عُمْقِهِمْ) مُحاطَةٌ في أَكِنَّةٍ تَمْنَعُ وَصُولَ دَعْوتِهِ إِلَيْهَا، فَهِي محجوبَةٌ، عَنْهَا.

أي: فَهِيَ في شِبْهِ أَكِنَّةٍ مَانِعَةٍ مِنْ وُصُولِ دَعْوَتِكَ إليها. إنَّ رَفْضَهُمْ لِدَعْوَتِهِ في المراحِلِ الْأُولَىٰ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ فِيهم، جَعَلَ مَرَاكِزَ الإِدْرَاكِ فِي دَاخِلِهِمْ تُحْجَبُ بِحُجُبٍ نَفْسِيَّةٍ كَثِيفَةٍ خاصَّةٍ بِمَنْعِ وُصُولِ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ إِلَيْها، مَعَ مُرُور الزَّمنِ، حتَّىٰ قُبَيْلَ نُزُولِ سُورَةِ (فُصِّلَت).

[مِنْ] في ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ مَعْمُولٌ لمَحذُوفٍ من السَّهْلِ مُلَاحَظَتُهُ وتقديرُهُ، وهو صِفَةٌ لِلفْظِ ﴿أَكِنَّةٍ﴾ تقديرُه: في أكِنَّةٍ مَانِعَةٍ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ رَبَّانِيٍّ أَوْ بَيَانٍ مِنْكَ.

المقولَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾: أي: والأَدَاةُ النَّاقِلَةُ لِلصَّوْتِ وهِيَ آذانُنَا مُصَابَةٌ بالصَّمَم أو بِمَا هُوَ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا تَدْعُونَا إليه، فَنَحْنُ لَا نَسْمَعُ بأدَوَاتِ سَمْعِنَا أصْوَات دَعْوَتِكَ لَنَا.

إنَّ انْشِغَالَ أَفْكارِهِمْ بِمَا هُوَ مُضادٌّ أَوْ مُنَاقِضٌ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، يَجْعَلُ آذَانَهُمْ لَا تَسْمَعُ الكَلَامَ المتضَمِّنَ شَيْئاً مِنْ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانية، حَتَّىٰ كأَنَّها صَمَّاءُ أَوْ مُصَابَةٌ بمَا هُو قَرِيبٌ من الصَّمَم.

المقولَةُ الثالِثَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾: أي: والْأَرْضُ الفاصِلَةُ بَيْنَنا وبَيْنَك قَدْ قَامَ فِيهَا حِجَابٌ يَحْجُبُنَا عَنْكَ، فَنَحْنُ لَا نَرَاكَ ولَا نَشْعُرُ بِوُجُودِكَ فِي مُجْتَمَعِنا.

وهذا مِنْهُمْ إِمْعَانٌ فِي الْغُلُوّ الّذِي يُعَبِّرونَ فِيهِ عَنْ رَفْضِ دَعْوَتِه رَفْضاً كُلِّيّاً، فَلَا المعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا تِلَاوَاتُهُ وبَيَانَاتُهُ تَصِلُ إلى مَرَاكِزِ الإدْراكِ والتفكِير في عُقُولهم، ولَا الْأَصْوَاتُ المَشْتَمِلَةُ على أقواله في دَعْوته تَمُرُّ مِنْ آذَانِهم، إلى مَرَاكِزِ السَّمْعِ في أَدْمِغَتِهِمْ، ولَا المسَافَةُ الْأَرْضِيَّةُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ مَشَاهَدَتِهِ، ومن الشُّعُورِ بِوُجُودِهِ، لِوُجُودِ حِجَابٍ مَعْنَوِيٍّ قَائِمٍ فيها يَحْجُبُهُ عَنْهُمْ.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هَـٰذِهِ التَّعْبِيرَاتِ مِنَ الْغُلُوّ الدَّالِّ عَلَىٰ شِدَّةِ رَفْضِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، وسَمَاعِ أَقْوَالِهِ، وَحُضُورِهِمْ المكانَ الَّذِي يَكُونُ هو فيه لِئَلَّا يُشَاهِدُوا شَخْصَهُ.

هذا هو الموقف الّذي وصَلَ إِلَيْهِ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ قُبَيْلَ نُزول هذه السورة.

المقولَةُ الرَّابَعة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾:

إنَّهُمْ بهـٰذِهِ المقولَةِ يَتَحَدَّوْنَ الرَّسُولَ ﷺ باسْتِعْلَاءٍ واسْتِكْبَارٍ، أَنْ يَعْمَلَ مَا يَسْتَطِيعُ عَمَلَهُ لِدَفْعِ كَيْدِهِمْ وَمُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، فإنَّهُمْ سَيَعْمَلُونَ بكُلّ قُوَّاتِهِمْ لإيقافِ دَعْوَتِهِ، ومَنْعِ انْتِشَارِهَا، ولاضطهادِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ويَتَّبِعُونه، وللتخلُّصِ مِنْهُ بوسِيلَةٍ مِن الوسائل.

والمعْنَىٰ: فاعْمَلْ مَا شِئْتَ أَنْ تَعْمَلَ، فَنَحْنُ ذَوُو الْقُوَّةِ الْغَالِبُون، وَتَأَكَّدْ أَنَّنَا عَامِلُونَ ضِدَّكَ وَضِدَّ دَعْوَتِكَ، وَضِدَّ الّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ بما لَدَيْنَا مِنْ قُوىً غالِبَةٍ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَىٰ مَوْقف الكافِرِين الْمُعَالَجِينَ فِي السُّورَة، مَا جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ في المقالَاتِ الْأَرْبع السابقَاتِ، وَمَا لَمْ يَأْتِ التَّصْرِيحُ به وَلَكِنْ دَلَّ عَلَيْهِ مَا جَاءَ في التَّعْلِيم، مَعَ بيانِ دَعوِيّ:

● ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾:

في هَذَا التَّعْلِيم الرَّبَّانِيِّ للرَّسُولِ ﷺ، تَوْجيهٌ لِبَيانِ وشَرْحِ خَمْسِ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

هٰذا البيانُ التَّعْليميُّ قَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ المعَالَجِينَ في السُّورَةِ، مَا زَالُوا يَتَعَلَّلُون لِرَفْضِ الْإيمانِ بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِه وَعَدَمِ الاسْتِجابَةِ لِدَعْوَته بأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، زاعِمِينَ أَنَّ الْبَشَرَ غَيْرُ مُؤَهَّلِينَ لِتَلَقِّي الْوَحْي عَنِ اللهِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي نُجُوم التَّنْزِيلِ تَقْدِيمُ البراهِين على سُقُوط تَعِلَّتِهِمْ هٰذِهِ وَبُطْلَانِها، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُؤَكِّدَ لَهُمْ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ مِنْ جِهَةِ التَّكْوِينِ الْخَلْقِيّ، ولَكِنَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَاهُ بِحِكْمَتِهِ للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وَيُكَرِّرُ الْوَحْيَ إِلَيْهِ مُبَيِّناً وَمُكَلِّفاً إِيَّاهُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ إِنَّمَا إِلٰهكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

● ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: مَا أَنا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ مِنْ جِهَةِ التَّكْوِين الْجَسِديّ والنَّفْسِيِّ، فَلَسْتُ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ولَيْسَ لِي طَبِيعَةٌ فَوْقَ طبيعَةِ الْبَشَر.

في هـٰذِهِ الْعِبَارَة قَصْرٌ بأداةِ القصر «إنّما» وهو من قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْراً إِضَافِيّاً، أي: إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْبَلُونَ نبيّاً وَلَا رَسُولاً إِلَّا إِذَا كانَتْ لَهُ طَبِيعَةٌ غَيْرُ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، فَمَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، آكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَأَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُون، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاء، وَيَجْرِي عَلَيَّ نَظِيرُ مَا يَجْرِي عَلَىٰ سَائِرِ الْبَشَر.

• ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: وَاخْتَارَ اللهُ أَنْ يَصْطَفِيَنِي فَيَجْعَلَنِي نَبِيّاً وَرَسُولاً، فَهُوَ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُوحِي إِلَيَّ بتَتَابع أَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ هُو رَبُّكُمْ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِه، وهُو وَحْدَهُ صَاحِبُ الْحَقِّ فِي أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، ولَا شَيْئاً.

في عِبارة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرٌ بأداة الْقَصْرِ «أَنّما» وهُوَ مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوفٍ، وهُوَ قَصْرُ صِفَةِ الإلَٰهِيَّةِ عَلَىٰ إله مَعْبُودٍ واحِدٍ، ومَعْلُومٌ مِنْ سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ أَنَّ هـٰذا الإِلَٰهَ الْمَعْبُودَ الْوَاحِدَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِين، فَهُو بِرُبُوبيَّتِهِ لِعِبادِه، لَهُ وَحْدَهُ حَقُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً وَلَا شيْئاً.

هـٰذِهِ حقيقةٌ قَامَتْ عَلَيْهَا بَرَاهِينُ الْعَقْلِ، وَجَاء بالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا والأَمْرِ بِهَا جَمِيعُ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ في تَاريخ الْبَشَرِيَّة.

وهَلْ فِي اصطفاءِ اللهِ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ مُنَافاةٌ لِلْعَقْلِ، أَو مُنَافَاةٌ لِلْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّة، أو فِيْهِ نِسْبَةُ شَيْءٍ إِلَىٰ اللهِ لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِهِ لعِباده، وَقَدْ سَبَقَ أَنِ اصْطَفَىٰ جَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ ورُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام إِلَىٰ الْبَشَرِ مِنَ الْبَشَرِ أَنْفسِهِمْ، لِعِلْمِهِ بأَهْلِيَّتِهِمْ لهَـٰذَا الاصطفاء.

القضية الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِه ﷺ فِي التَّعْلِيم: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

الاسْتِقَامَة: الاعْتِدَالُ والاسْتِوَاءُ، وضِدُّه الْعِوَجُ وهُوَ عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ في الأمُور المعْنَوِيَّة.

وَلَمَّا كَانَ الموضُوعُونَ في الحيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُطَالَبِيْنَ بأَنْ يَسْلُكُوا صِرَاطَ اللهِ المستقيم، اعْتِقَاداً وعَملاً، ظَاهِراً وَبَاطِناً، نَفْسِيّاً وَجَسَدِيّاً، وَكَانَتْ حَيَاتُهُمْ مُتَوالِيَةَ الْأَزْمَانِ.

وَلَمَّا كَانُوا سَائِرِينَ فِي حَيَواتِهِمْ كَادِحِينَ إلَىٰ غَايَةٍ يَكُونُ عِنْدها حِسَابُ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وفَصْلُ قَضَائِهِ بشَأْنِهِمْ، ومُجَازَاتُهُمْ علَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَسْتَمِرُّوا مُسْتَقِيمينَ، إلَىٰ الغَايَةِ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَها حِسَابُهُمْ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِم، ومُجَازَاتُهُمْ.

إنَّ الاسْتِقَامَةَ علَىٰ صِرَاطِ اللهِ طَوالَ رِحْلَةِ الامتحان، من الأمُور الشَّاقَّةِ علَىٰ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّة، وَلِهَـٰذَا كَانَ مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِ الإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَمِرَّ مُسْتَقِيماً طَوَالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِه.

وَلِهَـٰذَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ أَنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَّاء، وأَنَّ خَيْرَ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ، فجاء في التعليم الأمْرُ باسْتِغْفَارِ اللهِ، وهو القضية التالية:

القضيَّة الثالِثَة: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ في التعليم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ﴾:

أي: وادْعُوا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ إذَا خَرَجْتُمْ عَنْ واجِبِ الاسْتِقَامَةِ على صِرَاطِ اللهِ، فَمِنْ صِفَاتِ اللهِ أَنَّهُ يَغْفِرُ ذُنُوبَ الْمُذْنِبِينَ مِنْ عِبَادِهِ إذَا اسْتَغْفَرُوه.

الاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ غُفْرَانِ الذُّنوبِ وهو سَتْرُها، ومِنْ لوازِمِ السَّتْرِ عَدَمُ المؤَاخَذَةِ عَلَيْهَا بِفَضْلِ اللهِ على عباده.

الْقَضِيّة الرابعة: دلَّ عليْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ في التَّعْلِيم:

﴿.. وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾:

وَيْلٌ: كَلِمَةُ عَذَابٍ، وفيها مَعْنَىٰ الوعِيدِ بحُلُولِ عِقَابِ الله. ووردَ أنَّ كَلِمَة «ويْل» اسْمٌ عَلَمٌ عَلَىٰ وَادٍ فِي جَهَنَّم.

وكَلِمةُ «ويل» تأتي مُبْتداً، والمجْرُورُ بَعْدَها باللَّام «خَبَرٌ»، وسَوَّغ الابتداء بها أنَّها تَحْمِلُ وَصْفاً مُقدّراً، أي: وَيْلٌ عظيمٌ، وإذا كانَتْ علماً على وادٍ في جَهَنم فهي مَعْرِفَةٌ لَا إشْكالَ في جَعْلِها مبتداً.

﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾: وهُمُ الَّذِينَ يَجعَلُونَ للهِ شَرِيكاً فِي رُبُوبيَّتِهِ، أوْ فِي إلهيَّتِهِ.

وأَبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في التَّعْلِيم أنَّ مِنْ صِفاتِ المشركين صِفَتَيْنِ شَدِيدَتَي الْقُبْحِ والْخِسَّة، وهُمَا:

(١) أنَّهُمْ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ مِنَ أمْوَالِهِمْ، لجَفَافِ عَاطِفَتِهِمْ عَلَىٰ ذوي الحاجَات مِنْ عِبَادِ اللهِ، ولِأَنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ نِعَمَ اللهِ الكَثِيرَةَ عَلَيْهِم، بِبَذْلِ شَيْءٍ مِنْهَا في السُّبُل الَّتِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بالْبَذْلِ فِيها، إذْ لَا يَتَوَقَّعُونَ أَنَّ اللهَ سَيُكَافِئُهُمْ عَلَىٰ مَا يَبْذُلُونَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، والمرادُ بالزَّكاة في هٰذه المرحَلَة المكيَّةِ مُطْلَقُ الْبَذْلِ لذَوِي الحاجات والضروراتِ في المجتمع، وذكرُها في هذه المرحلة هو من قبل التمهيد بتكليف عامٍ قبل تَنْزِيلِ مقدار الواجب.

(٢) أنَّهُمْ كافِرُونَ بالْآخِرَةِ، فَلَا هَمَّ لَهُمْ غَيْرُ حُظُوظِهِمْ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئاً لِيَوْم الدِّينِ، الذي سيكُونُ بَعْدَ الموْتِ والْبَعْثِ، إذْ هُمْ كَافِرونَ بِهِ، غَيْرُ مُصَدِّقِينَ بأنَّهُ يَوْمٌ قَادِمٌ لَا مَحَالَةَ.

القضية الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ في التعليم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾:

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي: مُتَتَابِعٌ غَيْرُ ناقِصٍ عَنْ رَغباتِ أَهْلِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ، وَغَيْرُ مَقْطُوعٍ في زَمَنٍ مَا مِنْ أَزْمَانِ الْأَبَد، إِذْ هُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم خَالِدُون.

يُقَالُ لغة: «مَنَّ الشَّيْءُ» أي: نَقَصَ.

ويُقَالُ لغة: «مَنَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: قَطَعَه.

وبِحَمْلِ اللّفظ على معْنَيَيْهِ يكونُ المعنى: غَيْر نَاقِصٍ ولَا مقْطُوع.

في مقابِلِ وَعِيدِ المشركين بالعذابِ الأليم، جَاءَ فِي التعليم التوجيه لِوَعْدِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وعَمِلُوا الصَّالِحَات الدَّالَّاتِ بالتطبيقِ الْعَمَلِي علَىٰ صِحَّةِ إيمانِهِمْ وفَاعِلِيَّتِهِ فِي السُّلُوكِ، بأنَّ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ أَجْراً عَظِيماً غَيْرَ نَاقِصٍ عَنْ رَغَبَاتِهِمْ وأَمَانِيهِمْ، وَغَيْرَ مقطوعٍ في زَمَنٍ مَا مِنْ أزْمانِ خلودهم الأبدي.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدّرس الأول من دُروس سورة (فصلت).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ ومِنَّتِهِ وتوفِيقِه وفتحه.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (فصّلت)
الآيات من (٩ ـ ١٢)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا

طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

القراءات:

(١٠) • قرأ أبو جعفر: [**سَواءٌ**] بالرّفع، أي: هِي سواءٌ.

وقرأها يعقوب: [**سَواءٍ**] بالجرّ، صِفة لـ«أيّامٍ».

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿**سَوَاءً**﴾ بالنَّصْبِ، علَىٰ أنَّها حالٌ من ﴿**أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**﴾.

(١١) • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [**وَهْيَ**] بإسْكانِ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَهِيَ**﴾ بكَسْرِ الهاء.

وهما لغتان عَربيتان. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس تعليم من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلّ داعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، حواراً دَعَوِيّاً حوْلَ قَضِيَّةِ الإيمان باللهِ الرَّبّ وحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ، مقترناً بِبَيَانِ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كونه الدَّالّات عَلَىٰ رُبُوبيّتِهِ الواحِدَةِ لِكَوْنِهِ كُلِّهِ، ويَلْزَمُ مِنْ هـٰذا عقلاً تَوْحِيدُهُ في إلَهِيَّتِه؛ لِأَنَّ العبادَةَ حَقٌّ من حُقُوقِ الرَّبّ لَا شَرِيكَ لَهُ فيها.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُوله ﷺ في التعليم الدَّعَويّ:

• ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾:

الأَنْدَادُ: جمع «النِّدّ»، وهُوَ المِثْلُ والنَّظِيرُ والكُفْء.

والاستفْهامُ الَّداخِلُ علىٰ الجملَة المؤكَّدَةِ بـ «إنَّ واللام المزحلقة» استفهامٌ فِيه معنَىٰ التَّعجُّبِ مِنْ فَرِيقٍ مِنَ المعَالَجِين، ومعنَىٰ التوبيخِ لِفَرِيقٍ آخر مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أدرَكُوا الحقَّ وَعَانَدُوه مُصِرِّيْنَ علَىٰ باطِلِهِم من الشِّرْكِ والكُفْرِ باللهِ الَّذِي خَلَقَ الأرْض، وَخَلَق كُلَّ كائِنٍ في الكَونِ مِنْ دُونه جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

أي: عجَبٌ لِأَمْرِكم وأنْتُمْ أَهْلُ الرَّأي والْعَقْلِ والْقُدْرَةِ عَلَىٰ إدْرَاكِ الْحَقِّ، كيْفَ تَجْعَلُونَ للهِ الرَّبِّ خَالِقِ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ أَمْثَالاً وَنُظَرَاءَ وأَكْفَاءَ فِي رُبُوبيَّتِهِ وَإلَهِيَّتِهِ فَتدْعُونَهُمْ وتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِه، وهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضرّاً.

والعالِمُونَ مِنكم بهٰذِهِ الحقيقَةِ يَسْتَحِقُّون التَّوبِيخ والتثريب، لمجافَاتِهِم الحقَّ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ، اتّباعاً لأهوائهم وشهواتِهِمْ وَتَقالِيدِهم العمياء.

وجاء في هذا التعليم أنّ الله خَلَقَ الْأَرْضَ بتَكَوْينها الأسَاسِيِّ في يَوْمَين، أي: فِي حِقْبَتَيْنِ زَمَنِيَّتَيْنِ اللهُ يَعْلَمُ مقدارهما؛ لِأَنَّ لفظ يَوْم قَدْ جاء في القرآنِ مُسْتَعْمَلاً للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أزْمانٍ مُتَفَاوِتَةٍ تفاوتاً عظيماً، حتَّىٰ الآخِرَةُ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لِزَمَنِها أُطْلِقَ عَلَيْها أنّها يومُ الدِّين.

وجاء في القرآن بيان أنَّ الأرض والسَّمَاواتِ كانَتَا رَتْقاً مُجْتَمِعَتَيْن ففتقَهُما الله، فَيَدُلُّ هذا عَلَىٰ أنَّ الكوْنَ كان بخلْقِ اللهِ كتلةً غازِيّةً ملْتَهِبَةً، ففَصَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُتْلَةَ الْأَرْضِ، وَجعَلَها خِلَالَ حِقْبَتَيْنِ من الزمانِ تَبْرُدُ مِنْ جِهَةِ أعْلَاهَا، ويَبْقَىٰ بَاطِنُهَا سَائلاً نَارِيّاً نافعاً، ودَلِيلاً يَدُلُّ عَلَىٰ مَا كانَتْ عَلَيْهِ، ولَمَّا بَرَدَ أَعْلَاهَا صَارَ صُخُوراً وتُرَاباً ومَعَادِنَ ونحوَ ذلِكَ، مُهَيَّأً للإنْبَاتِ والإقامَةِ والسُّكْنَىٰ والانتفاعِ بِكُنُوزِها مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وأَعْمَالِهِمْ ومَبَانِيهم ومَصَانِعِهم ومُبْتكراتِهِم.

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ في حقبَتَيْنِ زَمَنِيَّتَيْنِ هُو رَبُّ الْعالَمِينَ جَمِيعاً. والمرادُ بِالْعَالَمِينَ هُنَا كُلُّ مَا سَوَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه. الخطاب في هذه الجملة لكلّ صالح للخطاب إفراديّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً التعليم الدَّعويّ.

● ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

● ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾: أي: وَجَعَلَ فِي دَاخِلِ سَطْحِ الأَرْضِ جِبالاً رَوَاسِيَ ثابِتَاتٍ راسِخَاتٍ، وَصَاعِدَاتٍ أعالِيهَا وَظُهُورُهَا وأَسْنِمَتُهَا مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الْأَرْض، لتَحْقِيقِ مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ للنَّاسِ مِنها.

● ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: أي: وَجَعَلَ في الأَرْضِ زِيَادَاتٍ كثِيرَاتٍ نافِعَاتٍ للنَّاسِ، ما أقام النَّاسُ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا فِيها، مُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ حتَّىٰ قيامِ السَّاعَةِ.

البَرَكة: الكَثْرَةُ فِي كُلِّ خَيْر، والنَّماءُ والزِّيَادَةُ في الحسّيَّاتِ، أَوْ في المعنويات.

والْبَرَكَةُ الَّتِي جعَلَهَا اللهُ في الْأَرْضِ، يَتَوالَىٰ ظُهُورُها مَعَ الْأَزْمَانِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ، بِحَسَبِ نُمُوِّ عُلُومِهِمْ، وتكاثُر اكتِشَافَاتِهِمْ لِكُنُوزها وَمَا فِيهَا مِنْ قُوىٰ لَمْ تَكُنْ ظَاهِرَةً في الْقُرونِ السَّابقَة، كالكهْرباء والطَّاقَاتِ النَّوَوِيَّةِ وغَيْرِها.

● ﴿..وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: وجَعَلَ اللهُ في الأَرْضِ أَقْوَاتَ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ قُوتٍ من الأَحْيَاءِ والْأَشْيَاءِ فيها مُقدّراً بَحسبِ الطَّلب.

وإذا تَدَبَّرْنا قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿...وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: مُمِدّاً لَهُ بحَاجَتِهِ من الْقُوتِ، وَإِذَا أَدركْنا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ ذُو حَرَكَةٍ مَهْمَا كَانَ صغيراً، وهٰذِهِ الحركة تَحْتَاجُ إِلَىٰ قُوَّةٍ تُحرِّكُها، أَدْرَكْنا أنَّ الْقُوَّةَ المَحرِّكَةَ لَهَا هِيَ قُوتُ حَرَكَتِها، ولَدَىٰ التَّفكُّرِ التفصِيلِيّ نُدْرِكُ أَنَّ الْحَطَبَ أَو الموادَّ النِّفْطِيَّةَ هِيَ قُوتُ النَّارِ، وَأَنَّ النِفْط قُوتُ كَثِيرٍ مِن الآلَاتِ والْمَكَنَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بالنَّفْط، وأنَّ الكهربَاءَ قوتُ كثِيرٍ جدّاً مِنْ أَدَوَاتِ هٰذِهِ الْعُصُور الّتِي نَعِيشُها، وأنَّ الكَهْرباء لَا تُوجَدُ وَلَا تَظْهَرُ إِلَّا بِقُوتٍ من الحَرَكَةِ، ونُدْرِكَ أَنَّ الذَّرَّةَ وعَنَاصِرَهَا ذَوَاتُ حَرَكَاتٍ مُذْهِلَاتٍ، وَهٰذِهِ الحركاتُ لا بُدَّ لَهَا مِنْ طَاقَاتٍ تُحَرِّكُهَا، هي قوتُها، ولَا بُدَّ أَنْ نفهم أنَّ الله عَزَّ وَجلَّ هُوَ المقيتُ لها.

إذَا وَضَعْنَا فِي تَصوُّرِنَا كُلَّ مَا سَبَقَ فَهِمْنَا أبْعَادَ قول الله تَعَالَىٰ: ﴿..وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾، وَتَوَسَّعْنَا في فَهْمِ قول الله تَعالَىٰ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

تَقْدِير الشّيء: تَحْدِيدُ مَقَادِيرِ ذَاتِهِ وصِفَاتِه، وتَدْبِيرُهُ قَبْلَ إيجاده، وتَقْدِيرُ أَقْوَاتِ الأحْيَاءِ والْأَشْيَاءِ في الْأَرْضِ، هُوَ جَعْلُ مَقَادِيرِهَا وافِيَةً بِحَاجَاتِهَا عَلَىٰ تَوَالِي أَزْمَانِ بَقَاءِ الْأَرْضِ والْأَحْيَاءِ والأشْيَاءِ فيها. ويَتْبَعُ التقديرَ القضاءُ، ثُمَّ يأتي الخلْقُ التَّنْفِيذي علَىٰ وفْقِ القضاء والقدر .

وعبارَةُ: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي: مُسَاوِياً لِطَلَبِ طَالِبِي أَقْواتِهِمْ وَأَقْوات أَحْيَائِهِمْ وَأشْيَائِهِمْ، الّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْأَسْبَابَ الْكَوْنِيَّةَ لتحقيقِ مَطَالِبِهِمْ مِنْ خَزَائِنِ اللهِ في الْأَرْض.

فَطَالِبُو أقواتِهِمْ وَأقْواتِ أَنْعَامِهِمْ وَدوابِّهِمْ، يَتَّخِذُونَ أسْبَابَ إِنْبَاتِ

الزُّرُوعِ والأَشْجَار في الأَرَاضِي الصَّالِحَةِ لَهَا، فَيُنْبِتُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمُ الأَقْوَاتَ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا ضِمْنَ سُنَنِهِ الكَوْنِيَّة.

وطالِبُو أقواتِ الآلات الميكانيكيَّة مِنَ النِّفْط، يَتَّخِذُونَ أسْبَابَ استخراجِهِ مِن باطِنِ الأَرْضِ، ومُعَالَجَتِهِ بالتَّصْفِيَةِ والتَقْسِيمِ والتجزئة وغير ذَلِكَ، لتحقيق مَطَالِبِهِمْ الْمُسَيِّرَةِ لِآلَاتهم.

وطالِبُو أقْوَاتِ الآلاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بالكَهْرُبَاء، يَتَّخِذُونَ أسْبَابَ اسْتِخْرَاجِ الكَهْرُباء بالْحَرَكَةِ، وَتَسْيِيرِهِ في الأَسْلَاكِ، وَتَشْغِيلِ آلاتِهِمْ به.

وَهَكَذَا إِلَىٰ سَائِرِ الأَقْوَاتِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في خَزَائِنِ الأَرْضِ الظَّاهِرَةِ والخَفِيَّةِ، وَتَأْتِيهِمْ مُسَاوِيَةً لطلباتِهِمْ، إذا اتَّخَذُوا وَسَائِلَ الْحُصُولِ عَلَيْهِا ضِمْنَ سُنَنِ اللهِ الكَوْنِيَّة.

ويَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالأَيَّام الأَرْبَعَةِ الَّتِي تَمَّ فِيهَا تَقْدِيرُ أقْوَاتِ الأَرْضِ فِيها، يَدْخُلُ فِيهَا الْيَوْمَانِ الأَوَّلَانِ اللَّذَانِ خَلَقَ اللهُ فيهما هَيْكَلَ الأَرْضِ الأَوَّل، إذْ يَدْخُلُ في هَـٰذَا الْخَلْقِ بَعْضُ عَنَاصِرِ تَقَدِيرِ الأقواتِ، وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا: أَنَّ مَجْمُوعَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض قَدْ كانَ فِي سِتَّةِ أَيَّام (أي: في سِتَّةِ أحْقَابٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَفَاصِلَة)، وقَدْ جاء في البيان القرآني أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَزَّأ السَّمَاءَ إِلَىٰ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ في يَوْمَيْن، فَمَجْمُوعُ خَلْقِ الأَرْضِ وَتَقْدِيرِ الأَقْوَاتِ فِيها قَدْ كَانَ فِي أَرْبَعَةِ أيّامٍ يَعْلَمُ اللهُ مَقَادِيرَ أَزْمَانِها، وتسوية السماء سبعاً قد كان في يومين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ الدَّعَوِيَّ بِشَأْنِ خَلْقِ الأَرْضِ والسَّمَاوَاتِ:

• ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾:

الاستواء: هو في اللُّغَةِ الاستقامَةُ والاعْتِدَال، ويقال: «اسْتَوىٰ علىٰ

كذا» أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ فَوْقَه، ويقال: «اسْتَوىٰ إِلَىٰ فِعْلِ كذا» أي: اعْتَدلَ واسْتقامَ مُتَوَجِّهاً لِفِعْلِهِ قَاصِداً إِلَيْه، لا يَلْوِي عَلَىٰ شيءٍ آخر.

وأحْسَنُ بيانٍ حَوْلَ الاسْتِواء الّذي وصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مَا قَالَهُ الإمَامُ مَالِكٌ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقول، والاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُول، والإيمانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة».

وَوَصْفُ السَّمَاءِ بأَنَّهَا دُخَانٌ قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهَا غَازَاتٌ مُنْبَثَّةٌ في الْفَرَاغِ الْكَوْنِي، فهي كما يَعْلم الناسُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ عَنِ الدُّخَان، فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا دُخَانٌ مِنْ قَبِيلِ تَعْمِيمِ اللَّفْظِ عَلَىٰ الدُّخَانِ الَّذِي يَتَصَاعَدُ عَنِ النَّار ويَنْبَثُّ في الْفراغِ الكَوْنِي، وكانت حينئذٍ سَمَاءً وَاحِدَةً مُتَّصِلَةَ الْغَازَاتِ، غَيْرَ مُقَسَّمَةٍ إِلَى سَبْعِ سَمَاواتٍ.

• ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾:

إِذَا حَمَلْنَا هـٰذَا البيانَ عَلَىٰ ظَاهِرِه، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ في السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُدْرَاتِ فَهْمٍ وَإِجَابَةٍ كَمَا لِأَهْلِ الْعِلْمِ والنُّطْقِ والإِرَادَة، فَأَجَابَتَا إِجَابَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ والنُّطْق حِينئِذٍ.

وَإِذَا حَمَلْنَا هـٰذَا الْبَيَانَ علَىٰ أَنَّهُ مِنْ قَبيلِ الاستعارَةِ الْقَائِمَةِ على التشبيه، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ أَمْرَ التَّكْوِينِ الْجَبْرِيّ لِلْأَشْيَاء التِي لَيْسَ لَهَا عِلْمٌ وَلَا حَيَاةٌ وَلَا إرادَة، يَنْفُذُ فِيهَا وهِيَ طَائِعَةٌ غَيْرُ كَارِهَةٍ لِمَا يَجْرِي فيها، بِخِلَافِ الْأَحْيَاءِ ذَوِي الإرَادَةِ والْعِلْمِ والْأَحَاسِيسِ، فإِنَّ أَمْرَ التكوينِ قَدْ يَنْفُذُ فِيهِمْ وَهُمْ كَارِهُونَ، كَمَنْ يَنْفُذُ فِيهِمْ أَمْرُ التَّكْوِينِ بإِيلامِهِمْ، وتَعْذِيبِهِمْ.

والْمُرَادُ بإِتْيَانِ السَّمَاءِ والأَرْضِ، حُضُورُهُمَا لِتَحْدِيدِ مَوْقِعِ الْأَرْضِ، وَمَوْقِعِ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فِي مَوْقِعِهِ مِنَ الْكَوْنِ الْفَسِيحِ، بَعْدَ أَنْ قَدَّر الله لِكُلِّ جُزْءٍ مَوْقِعَهُ وقَضَاهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً التعليم الدّعَوِيّ بِشَأْنِ خَلْقِ الأَرْضِ والسَّمَاوات:

• ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾:

• ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾: أي: فقَدَّرَ وَقَضَىٰ أنْ يَجْعَلَ السَّماءَ ذَاتَ الطَّبقَاتِ الْمُرْتِفَعاتِ في الأبْعَادِ السَّحِيقَةِ من الفراغِ الْكَوْنِيّ، سَبْعَ سَمَاوَاتٍ مُتَفَاصِلَاتٍ، ولِكُلِّ سَمَاءٍ مِنْهَا نِظَامٌ خاصٌّ بِهَا ضِمْنَ وَحْدَةِ النظَام الكَوْنِيّ الشامل.

السَّماء: اسْمُ جِنْس يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلّ مَا ارْتَفَعَ فأظَلَّ وَاحداً أوْ مُتعَدِّداً. ولُوحِظَ تَعَدُّدُ طَبقَاتِ السَّمَاءِ وهي دُخَانٍ (أي: غازٌ مُنْتَشِرٌ) فأعِيدَ عَلَيْهَا الضَّمِير بالجمع في: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، ومَعْلُومٌ أَنَّ القضاء وهُوَ الإمْضَاءُ مَسْبُوقٌ بالْقَدَرِ، وهُوَ تَحْدِيدُ مَقَادِير الذَّواتِ والصِفَات، فَكَانَ لَنَا أَنْ نُقَدِّرَ مَحْذُوفاً، هو: فَقَدَّرهُنَّ، قَبْلَ قَضَاهُنَّ، فالفاء في ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ علَىٰ مَحْذُوف.

وضُمّن الفعل في «قَضَاهُنَّ» مَعْنَىٰ الفِعْلِ في «سَوَّاهُنَّ» أوْ «جَعَلَهُنَّ» فنَصَبَ لَفْظَ «سَبْعَ» على أنَّهُ مَفْعُولٌ به.

• ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾: أي: فِي حِقْبَتَيْنِ زَمَنِيَّتَيْنِ اللهُ يَعْلَمُ مِقْدَارَهما.

• ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾: أي: وأصْدَرَ بالْأَمْرِ التكْوِينيِّ الّذِي وَجَّهَهُ وَحْياً نَافِذَ الْأثَرِ في كُلِّ سَمَاءٍ، كُلَّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِها المتعَلِّقَةِ بذَوَاتِ عَنَاصِرِهَا وبصفاتها وبوظَائِفِها في الكَوْن، وبِمَنْ يَحُلُّ فيها من الملائكة، وغَيْرِ ذَلِكَ.

• ﴿... وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ...﴾:

التَّزْيين: التحسين والتجميل.

الْمَصَابِيحُ: جَمْعُ «المصْباح» وَهُو السِّرَاجُ الْمُضِيءُ.

وقد أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ النُّجُومِ وعلى الشُّهُبِ الَّتِي تُرَىٰ في السَّمَاءِ الدُّنيا اسْمَ «مَصَابِيحَ» لِمَا فيها من إضاءَةٍ ذَاتِ زِينَةٍ.

وجَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشُّهُبَ رُجُوماً للشَّيَاطِين، لِطَرْدِهِمْ عن اسْتراقِ السَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وهِيَ نَيازكُ مُنْبَثَّةٌ في الفراغِ فَوْقَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالْأَرْض، وهذه الشُّهُب ذَاتُ وَظِيفَتَيْن:

- وَظيفَةُ المشَارَكَةِ فِي تَزْيين السَّمَاءِ الدُّنيا، للناظِرِينَ في الأرض.
- ووظيفة مُلَاحَقَةِ شَيَاطِين الجِنّ الَّذِين يَصْعَدُونَ مَتَرَاكِبينَ إلى عَنانِ السَّماء لاسْتراق السَّمْعِ مِن الملائكة، وقد سَبَقَ بيانُ هـٰذا لَدَىٰ تَدبُّر سُورة (الجنّ/ ٤٠ نزول).

وقد أَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشُّهُبَ ضِمْنَ عُمُومِ الْمَصَابِيح لِمَا فِيها مِنْ زِينَة، وهِيَ الَّتِي جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ وَظائِفِها الغيبيَّةِ عن الناس أَنَّهَا رُجُومٌ لِلشَّيَاطين، وهِي المقصودَة بقول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَحِفْظًا﴾، أي: وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَصَابِيحِ السَّمَاوِيَّةِ شُهُباً حِفْظاً، أي: حَافِظَةً عَنَانَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يتَصَاعَدُونَ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنَ الملائكة عَلَيْهِم السَّلام.

أُطْلِقَ المصْدَرُ **[حِفْظاً]** بِمَعْنَىٰ اسْمِ الفاعل «حَافِظَةً»، أو هُوَ مفعولٌ لِأَجْلِهِ، أي: وجَعَلْنَا من المصابيح السّماوِيَّة شُهُباً لِأَجْلِ الحفظ.

ففي العبارة كَلَامٌ مطويٌّ قَبْل: **[حِفْظاً]**، يُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ بِمَا سَبَقَ بيانُهُ.

- ﴿..ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾:

المشَارُ إِلَيْهِ باسْمِ الإشَارَةِ في عِبَارَةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ بِصَرِيحِ لَفْظِها والمطويَّاتِ فيها مِنْ تَكْوِينٍ رَبَّانِيٍّ وَخَلْقٍ وَتَصارِيف، وَكُلِّ الْأُمُور المسْبُوقَةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ الَّذِي حَدَّدَ اللهُ بِهِ الذَّوَاتَ والصِّفَاتَ والْأَفْعَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ في الْأَرْضِ وفي السَّمَاوَاتِ صَغِيراً كَانَ أَمْ كَبِيراً.

الْعَزِيزِ: أي: ذِي الْقُوَّةِ النَّافِذَةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ مُعَانِدٍ مُقَاوِم.

الْعَلِيم: أي: ذي الْعِلْم الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، فَهُو بِعِلْمِهِ المحيطِ بكُلِّ شيءٍ يُقَدِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا يُلَائِمُهُ ضِمْنَ الْكَوْنِ الكَبير، وضِمْنَ وَحْدَةِ نِظَامِهِ الشَّامل.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُرُوس سورة (فُصِّلَت).

والحمد لله على معونَتِهِ وَمَدَدِه وَمِنَّتِهِ وَتَوفيقه وفتْحِه.

(٧)
التدبر التحليلي للدَّرس الثالث من دُرُوس سورة (فصلت) الآيات من (١٣ ـ ١٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

القراءات:

(١٤) • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضم الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ بِكَسْرِ الهاء.

ضمّ الهاء وكَسْرُها لغتان عَربيتان.

(١٦) • قرأ حمزة، ويَعْقُوبُ: [عَلَيْهُمْ] بضَمّ الهاء.

وقرأها باقِي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء: ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

(١٦) • قرأنا نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [نَحْسَاتٍ] بإسْكَانِ الحاء، جمع «نَحْسَةٍ».

وقرأها باقِي القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بِكَسْرِ الحاء، جمع «نَحِسَة»، أي: ذَات نَحْس.

النَّحْسُ: الْجَهْدُ وَالضُّرّ.

تمهيد:

في آيات هذا الدّرْس تَعْلِيمٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أنْ يُنْذِر المعالَجِينَ في السُّورَةِ، بِصَاعِقَةٍ مُهْلِكَةٍ لَهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً، كَصَاعقَةِ عادٍ وثمود، إنْ أعْرَضُوا جَمِيعاً عن الاستجابَةِ لِدَعْوَتِهِ، وتَوَقَّفَ المتوافِدُونَ مِنْهُمْ للإيمان والدُّخُول في الإسلام، مع بَيَانِ مَا يَتعلَّقُ بِكُفْرِ عَادٍ وَثَمُودَ، وإهْلَاكِ كُلٍّ مِنْهُما، ونَجَاةِ الَّذِينَ آمَنْوا وكانُوا يتَّقُونَ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَعْلِيم رَسُولِهِ ﷺ إنْذَارَ المعالَجِينَ في السُّورَة:

• ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الإعْرَاضُ: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْإقْبَالِ والإدْبَار.

الإنْذَار: الإعْلَامُ والإخْبَارُ بِعواقِبَ غَيْرِ سَارَّة، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أَوْ عُقُوبَةٍ عَلَى مُكْتَسَبٍ إرَادِيٍّ من قولٍ أَوْ عَمَلٍ أو اعتقاد.

يقال لغة: «أنْذَرَ فُلَانٌ فُلَاناً الشَّيْءَ» أي: أعْلَمَهُ بِهِ وخَوَّفَهُ مِنْهُ.

الصَّاعِقَة: تُطْلَقُ عَلىٰ النَّازِلَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ مَهْمَا كَانَ نَوْعُها أَوْ كانَتْ مَادَّتُها. وتُطْلَقُ عَلَىٰ جِسْمٍ نَارِيٍّ مُشْتَعِلٍ يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاء.

أي: فإنْ أَعْرَضَ الْمُعَالَجُون كُلُّهُمْ إعْرَاضاً كُلّيّاً شَامِلاً كُلَّ أفرادِهم، وتَوَقَّفَ تَتَابُعُ دُخُولِ أَفْرادٍ مِنْهُمْ في الإيمان والإسْلام، فَقُلْ لَهُمْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً تَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ أَوْ صَاعِقَةِ ثَمُودَ، فتُعَذِّبُكُمْ، وَتُهْلِكُكُمْ إهْلَاكاً جَماعيّاً شَامِلاً.

وجاء اسْتِعْمال «إنْ» لِأَنَّ إعْرَاضَهُمْ جَمِيعاً إعراضاً شَامِلاً غير مُتَوَقَّع الحصُول، وقَدْ أثبت الواقِعُ أنَّ دُخُولَ أفرادٍ وجماعَاتٍ مِنْهُمْ في الإسْلَام لَمْ يَنْقَطِعْ، فَلَمْ يَسْتَحِقُّوا الإهْلَاكَ الجماعيّ الشامِل، فَلَمْ يُنْزِلِ اللهُ عَلَيْهِمْ صَاعَقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عادٍ وثمُود، واقْتَصَرَ الإهْلَاكُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ المعانِدِينَ المجرمِينَ من أئمة الشِّرْكِ والكُفْرِ، بِصُورَةٍ إفرادِيَّة، أَوْ بِمَعَارِكَ قِتالِيَّةٍ، وأعْظَمُها غَزْوَةُ بَدْر، الّتي قُتِلَ فِيها سَبْعُونَ مِنْ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ القادِمِينَ من مَكَّةَ لِقِتَالِ المسْلِمِينَ. وعَادٌ وثَمُود سَبَقَ الحديثُ عَنْهُمْ فِي عَدَدٍ من نجوم التنزيل[1].

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبَبَ إهْلَاكه عَاداً وثَمُودَ إهْلَاكاً جماعِيّاً شَامِلاً، بقولِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

(١) وسبقت دِرَاسَةُ قِصّة كُلٍّ مِنْهما دِراسَةً تكامُلِيَّةً لجميع النصوص الّتي تَحدّثَتْ عنهما في القرآن المجيد.

• ﴿إِذْ﴾ هُنَا بمَنْزِلَة «لَامِ التَّعْلِيل» مع كَوْنِهَا ظَرْفاً للزَّمَانِ الماضي.

• ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ جِيلِ المُهْلَكِينَ من عَادٍ وَثَمُودَ.

• ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: أي: ومِنْ بَعْدِ تَكَوُّنِ جِيلِ المهْلَكِينَ إِذْ جَاءَ عَاداً رَسُولُهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وَجَاءَ ثَمُودَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وَسَبَقَتْهُمَا رُسُلٌ لِقَوْمِهِمَا.

فالمعْنَىٰ: أَهْلَكَ اللهُ عَاداً وَأَهْلَكَ ثَمُودَ؛ لِأَنَّهُمْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِ جِيلِهِمْ، وقَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَام لِعَادٍ، وقَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لِثَمُودَ، وكَانَتْ تَتَضَمَّنُ رِسَالَةُ الرُّسُلِ لَهُمَا إِحدَىٰ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الْكُبْرَىٰ، وَتَفْسِيرُهَا:

• ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾: إِذْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ أَوْثَاناً، فَرَفَضُوا دَعْوَة رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، وَقَالُوا لَهُمْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا، ونَحْنُ لَا نَقْبَلُ رُسُلاً بشَراً يُبَلِّغُونَنَا عَنِ اللهِ، لِعَدَم صَلاحِيَّةِ الْبَشَرِ أَنْ يَتَلَقَّوْا وَحْياً عَنِ اللهِ، وأَنْ يَخْتَارَهُمُ اللهُ رُسُلاً له، وَقَالُوا لَهُمْ: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا إِرْسَالَ رُسُلٍ يُبَلِّغُونَنَا عَنْهُ مَطْلُوبَهُ مِنَّا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مِن السَّمَاء، ولِهٰذَا فإِنَّا كَافِرُونَ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُكُمْ في قَوْلِكُمْ لَنَا: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ، ودَعُوا عِبَادَتَكُمْ لِآلِهَتِكُمْ، وشِرْكَكُم الّذِي تُؤْمِنُونَ به.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التعليم بِشَأْن عادٍ:

• ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

«أَمَّا» حَرْفُ تَفْصِيلٍ فِيهِ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ والتَّوْكِيد. وقوبِلَتْ في هذا الدَّرْس بِمِثْلِهَا لَدَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ ثَمُود.

• ﴿عَادٍ﴾ هُمْ قَوْمُ «عَادٍ» الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ تمَكُّنٌ فِي الأرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ أَوْلَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام.

• ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: تَكَبَّرُوا كِبْراً شَدِيداً فاحشاً فِي الْأَرْضِ علَىٰ مُعَاصِرِيهِم من الأقوامِ، وكَانَ اسْتِكْبَارُهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ بغَيْرِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بُغَاةً مُعْتَدِينَ ظَلَمَةً، وهُمْ كَفَرَةٌ مُشْرِكُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، ويَعْتَزُّون بِتَفَوُّقِهِمْ في الْقُوَّةِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ من الأقوام.

• ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟: أي: وصَارُوا يَتَفَاخَرُونَ مُعْلِنين بَيْنَ الْأَقْوامِ أَنَّهُمْ أشَدُّ قُوّةً مِنْ كُلِّ الْأَقْوَامِ في زمَانِهِم، ويَتَحَدَّوْنَ الناسَ في زَمَانِهِم قَائِلين بِأسْلُوبِ الاستِفْهامِ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟، أي: لَا يُوجَدُ قَوْمٌ هُمْ أَشَدُّ قُوّةً مِنّا.

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي: أعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ تَعْذِيبِهِمْ وَإهْلَاكِهِمْ، عُقُوبَةً لَهُمْ على اسْتِكْبَارِهِمْ في الْأَرْضِ بغَيْرِ الحقّ.

إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً فَخَلَقَهُمُ اللهُ، وهُو الّذِي يُمِدُّهُمْ دَواماً بالْبَقاء إلى آجالِهِمْ، ويُمِدُّهُمْ بعَطاءَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، وإنَّهُ إذَا شَاءَ سَلَبَهُمْ قُوَّاتِهِمْ، وأنْزَلَ بِهِمْ عِقَابَهُ وعذابَهُ، وأهْلَكَهُمْ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أحداً.

• ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾: وَصْفٌ يَدُلُّ بِمَضْمُونِهِ الْفِكْرِيّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

• ﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ فَصْلٍ جيءَ بِهِ لِلتَّوْكِيدِ.

• ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: كَانَ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ: «أَقْوَىٰ مِنْهم»، ولَكِنْ جَاءَ في العبارَةِ إِطْنَابٌ لِتُوَافِقَ عِبارَتَهُمْ الّتِي أطْنَبُوا فيها مُتَحَدِّينَ مُتَبَجِّحِينَ.

وقد جِيءَ بهـٰذَا الْبَيَانِ لِمُعَالَجَةِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ مِنْ قُرِيشٍ، إذْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَبَأْساً مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَمِنَ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَحَالَتُهُمْ تُشْبِهُ بِصُورَةٍ مَصَغَّرَةٍ حَالَةَ «عَادٍ» قَوْمِ الرَّسُول «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَام.

وجاءَ هَـٰذَا الْبَيَانُ مُعْتَرِضاً بَيْنَ الْجُمَلِ الْمَوْصُولَةِ بِبَعْضِهَا بحرف العطف «الواو».

• ﴿.. كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: فَأَمَّا عَادٌ فاسْتَكْبَرُوا، وتفاخَرُوا مُتَحَدِّين قَائِلِينَ: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَةً» وكانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ، أي: يُنْكِرُونَها مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّها حَقٌّ، وأَنَّهُمْ مُبْطِلُون بِمُخَالَفَتِهِمْ مَا تَدُلُّ عَلَيه.

والمرادُ بآيَاتِ الله، آيَاتُهُ الكَوْنِيَّة، وآيَاتُهُ الإعجازِيَّة وآيَاتُهُ البيانِيَّةُ المنزَّلَة، وآيَاتُهُ الجزائِيَّةُ، وآيَاتُهُ التَّذْكِيرِيَّة.

• ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾:

الرِّيحُ الصَّرْصَر: هي الرِّيحُ البارِدَةُ ذَاتُ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ المخيف الذي يُسْمَعُ مِنْهُ مَا يُشْبِهُ الصَّادَ والرَّاء.

• ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: أي: فِي أيَّامٍ قاسِيَاتٍ ذَوَاتِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَلَا خَيْرَ فيها.

النَّحْسُ: الْجَهْدُ والضُّرّ.

وجاء بيان هذه الأيَّام في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بقول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

• ﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: طَاغية متجاوزة حَدَّ السَّلَامَةِ والاحْتِمال، فهي مُدَمِّرَة.

• ﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتَابِعةً مُتوالِيَةً في الشّرِّ والتَّعْذِيبِ، فهي تَحْسِمُ مَادَّتَهُمْ، وتَقْطَعُ أَصْلَهُمْ. أَصْلُ مَعْنَى الْحَسْمِ: الْقَطْعُ.

• ﴿صَرْعَىٰ﴾: أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولِينَ مَطْرُوحِينَ.

• ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كأَنَّهُمْ أصُول نَخْلٍ فَارِغة، شُبِّهُوا بها لِتَصْوِير حَالَة بُطُونِهِم الّتِي بُقِرَتْ وَخَرَجَ مَا فِيها، فَصَارَتْ خَاوِيَة.

• ﴿.. لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ..﴾:

الْخِزْيُ: الوقُوعُ في الشّرّ والْبَلَايَا، والذّلُّ والْهوْان. وعَذَابُ الخِزْيِ هُو عذابٌ يرافِقُ كلَّ هَـٰذِهِ المؤلِمَاتِ للأجْسَادِ والنُّفُوس.

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ في الأيَّام النَّحِسَاتِ، لِيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْي في الحياة الدُّنيا، الشَّامِلَ لِلْعَذَابِ الْجَسَدِيِّ والنَّفْسِيِّ مُقَابِلَ اسْتِكْبَارِهِمْ عَلَىٰ النَّاسِ وَظُلْمِهُمْ لَهُمْ وَعُدْوانِهِمْ عَلَيْهِمْ.

• ﴿.. وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ..﴾: أي: ولَـعَـذَاب الآخِـرَة الَّـذِي سَوْفَ يُلاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينَ أشَدُّ إيلاماً لِأَجْسَادِهِمْ، ولِنُفُوسِهِمْ، وَأَبْقَىٰ زَمَاناً؛ لأَنَّهُمْ سَوْفَ يكونُونَ خَالِدِينَ فِيهِ جزاءً لَهُمْ علىٰ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وجُحُودِهِمْ آيَاتِهِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أنْوَاعِهَا وكَثْرَةِ أفرادِها.

• ﴿.. وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: وَهُـمْ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهُـمْ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ الْخِزْي فِي كُلِّ أَحْوالِهِمْ، في الدُّنْيا وفي الْآخِرَة، إذْ لَا حُكْمَ إلَّا للهِ، وَلَا قَضَاءَ إلَّا قَضَاءُ اللهِ، ولَا رَادَّ لِقَضَائِهِ عَنِ التَّنْفِيذِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً التَّعْلِيم وهُو بشَأْنِ ثُمودَ قَوْمِ الرَّسُول صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام:

• ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثَمُودُ﴾: قَوْمٌ نَشَؤُوا وتَكَاثَرُوا مِنْ سُلاَلاَتِ الَّذِينَ نَجَوْا مِنْ عَادٍ بسَبَبِ إيمانِهِمْ واتّباعِهِم رَسُول رَبِّهِمْ. وقَدْ دَخَلَ إلَىٰ ثَمُودَ الشِّرْكُ والْفَسَادُ والإفْسَادُ فِي الأَرْضِ، وَصَارَتْ أحْوَالُهُمْ مِثْلَ أحْوَالِ الَّذِينَ أُهْلِكُوا مِنْ «عَادٍ» أيّامَ هودٍ عَلَيْهِ السَّلاَم.

﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: أي: فَدَلَلْنَاهُمْ عَلَىٰ صِرَاطِ هِدَايَتِهِمْ اعْتِقَاداً وقولاً وَعَمَلاً، عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ من آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ بَلَّغَهُمْ إيَّاها.

• ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟﴾: أي: أحَبُّوا بِشِدَّةٍ طَاغِيَةٍ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهم. أُخِذ مَعنى الشّدَّةِ مِن «السين والتاء».

• ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾: أي: الكُفْرَ وَالضَّلاَلَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم الحقّ.

أُطْلِقَ عَلَىٰ الكُفْرِ والضَّلاَلِ لفْظُ الْعَمَىٰ علَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة؛ لِأَنَّ الْأَعْمَىٰ يَضِلُّ فِي مَسِيرِهِ، إذَا رَفَضَ هِدَايَةَ مِنْ يَهْدِيهِ طَرِيقَهُ.

• ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: أي: فَأَحَبُّوا الكُفْرَ والضَّلاَلَ عَنِ الْحَقّ والْخيرِ حُبّاً شَدِيداً، وآثَرُوهُ وَفَضَّلُوهُ عَلَىٰ الْهَدَىٰ الَّذِي بَلَّغَهُمْ إيَّاهُ رَسُولُ رَبِّهِمْ عَلَيهِ السَّلام؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ الكُفْرَ والضَّلاَلَ يُحَقِّقَانِ لَهُمْ مَا يَهْوَوْنَ وَيَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

• ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾:

﴿ٱلْهُونِ﴾: الْخِزْيُ والذّلّة.

أي: فَأَخَذَتْهُمْ أخذَ تَعْذِيبٍ وَإهْلاَكٍ شَامِلٍ، نَازِلَةُ الْعَذَاب الْمُهْلِكِ المخْزِي الْمُذِلِّ مِنْ رَبِّهِمْ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ جَرَائِمَ وآثَام، وَكُفْرٍ

وَفُسُوقٍ وَعُدْوانٍ، بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ أعْمَالاً ظَاهِرَةً وباطِنَة، جسَدِيَّةً وَنَفْسِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ، وَهٰذا يَتعلَّقُ بالنَّاجِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ مِن عَادٍ قَوْمِ الرَّسُول هود عَلَيْهِ السَّلام، وثمودَ قَوْمِ الرَّسُول صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام:

• ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وخَلَّصْنَا مِنَ التَّعْذِيب والإهْلَاكِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ رَبِّهِمْ مِنَ الْقَوْمَيْنِ وَآمَنُوا بما جَاءَهُمْ مِنْ بَلاغٍ عَنْه، وكَانُوا يُعَبِّرونَ عَنْ صِحَّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِهِمْ فِيهِ بسُلُوكٍ يتَّقُونَ فِيهِ عِقَابَ اللهِ المقرَّرَ علَىٰ تَرْكِ مَا أَمَرَ بِهِ وفِعْلِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ.

وبهذا انتهى تدبر الدّرس الثالث من دُروس سورة (فصلت).

والحَمد لله على معونته ومَدَدِه وتَوْفِيْقِهِ ومِنَّتِهِ وفتحه.

(٨)
التدبر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (فصّلت) الآيات من (١٩ ـ ٢٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ نافع، ويعقوب: [وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللهِ] بضمير المتكلّم العظيم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ﴾ بالفعل المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الآمِرَ بالْحَشْرِ هُو الله، و«أَعْدَاءُ» نائب فاعل.

(٢١) • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ] بِبِنَاء الفعل للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وبين القراءتين تكامل، أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ فَيَرْجِعُونَ بالجبر.

(٢٥) • قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ الْقَوْلُ] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: ﴿عَلَيْهُمُ الْقَوْلُ﴾ بضم الهاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم، ووقف حَمْزَةُ ويعقوب بضَمّ الهاء والباقون بَكَسْرِها.

تمهيد:

في آيَات هٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ، وهُوَ يتعَلّقُ بالْكَافِرين، مع بيانِ بَعْض أحْوَالِهِم الَّتِي كانُوا بها ضَالِّين فِي الحياة الدنيا، يَتّبِعُونَ فِيها قُرَنَاء السُّوءِ.

وعَرْضُ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ المتعلّقَةِ بالكافِرينَ أسْلُوبٌ مِنْ أسَالِيبِ التّرهِيبِ ذُو تَأْثِيرٍ بَالِغٍ في النُّفُوسِ الَّتِي لَمْ تتحجَّرْ باتّبَاعِ الأهواء والشَّهَوَاتِ، والتَعلُّقِ بزينَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وإيثار العاجلَةِ علىٰ الآجِلَة.

التّدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ أعْدَاءِ الله يَوْم الدّين:

• ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ...﴾:

الحشْرُ: الجمع والسَّوْق.

• ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: يُجْمَعُ وَيُسَاقُ جَمِيعُ الكَافِرِينَ أعْدَاءِ اللهِ، مَسُوقِينَ إلَىٰ مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ عِنْدَ أَبْوابِ النار.

• ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ، ويُرَتبُونَ صُفُوفاً وَيُسَوَّوْنَ، للقِيامِ مُنْتَظِمِينَ بِمَا يكلّفُونَ من أعمال.

أَصْلُ الوزعِ: الكفُّ والحبْسُ، والمرادُ كَفُّهُمْ - بتَرْتِيبهم وصَفِّهِمْ - عَنِ التفرُّقِ والانْتِشَار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾: «حتَّىٰ» هذه ابتدائيَّة، فهي حَرْفٌ تَبْتَدِئ بَعْدَهُ الْجُمَلُ الاسْمِيَّةُ والفعليَّة، وهي منتهىً لابْتداء الغاية، بمَنْزِلَةِ «إلَىٰ»، إلَّا أَنَّ مَا بَعْدَ «حتَّىٰ» جُزْءٌ مِمَّا قَبْلَها، أيْ: فهم يُحْشَرُونَ فَيُجْمَعُونَ، ويُسَاقُونَ، ويُرَتَّبُونَ صُفُوفاً حَتَّىٰ يَصِلُوا إلَىٰ مَوْقف حِسَابِهِمْ وفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ أَبْوابِ النَّار.

و«مَا» بَعْدَ إِذَا زَائِدَةٌ للتوكيد، فهي تفيد توكيد مَعْنَىٰ مَجِيئهمْ إلَىٰ قُرْبِ

أَبْواب النار، حَيْثُ يكُونُ مَوْقِفُ حِسَابِ الْكَافِرِينَ وَفَصْلِ القضاءِ بِشَأْنِهِمْ، إِذْ هُوَ الْمَكَانُ الملائِمُ للمحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الخاصَّةِ بهم.

وظاهِرٌ أَنَّ مَجيئَهُمْ إِلَىٰ النَّارِ يُرَادُ بِهِ مَجِيئُهُمْ إِلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ أَبْوابِ النَّار، إِذْ جَاءَ فِي النَّصِّ أَنَّ سَمْعَهُمْ وَأبْصَارَهُمْ وَجُلُودَهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ هـٰذَا الْمَجيء، ومَعْلُومٌ أَنَّ هـٰذِهِ الشَّهَادَةَ هِيَ مِنْ عَناصِرِ مُحَاكَمتِهِمْ، وَمُحَاكَمَتُهُمْ سَابِقَةٌ لإدْخَالِهِمْ فِي النَّارِ دَارِ عَذَابِهِمْ.

• ﴿..شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: إِنَّهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنْيَا، من جرائم وآثَام وَكُفْرِيَّاتٍ وشِرْكِيَّات، فَيُنْكِرُونَ، ولَا يَقْبَلُونَ إِلَّا شُهُوداً مِنْ أنفسهم، فَيَسْتَنْطِقُ اللهُ جَوارِحَهُمْ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بما كانوا يَعْمَلُونَ.

فَيشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ بِمَا كَانُوا قَدْ سَمِعُوهُ مِمَّا يُدَانُونَ بِهِ، وتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَبْصَارُهُمْ بِمَا كَانُوا قَدْ رَأَوْهُ بِهَا، مِمَّا يُدَانُونَ به، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا قَدْ أَحَسُّوهُ بها، مِمَّا يُدانُونَ بِهِ.

هذا البيانُ مُضَافٌ إِلَىٰ مَا جَاءَ حَوْلَ هذا الموضوع في الآية (٦٥) من سُورةِ (يس/٤١ نزول)[١].

• ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا...﴾؟!، أي: نَحْنُ نُدَافِعُ عَنْكُمْ لِئَلَّا تُلَاقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ، فأَنْتُمْ الْمُحِسُّونُ بأشدِّ الْعَذابِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ أَعْصَابِ الْحِسِّ مُنْتَشِرَةٌ في الْجُلُود.

(١) انظر تدبر الآية (٦٥) من سورة (يس/٤١ نزول)، في الصفحتين (١٧٤ ـ ١٧٥) من المجلد السَّادِس من هذا الكِتَاب، وَمَا جاء في السُّنَّةِ بشَأْنِ شَهادَةِ جوارحِ المنكرين عليهم في مَوْقف حسابِهِمْ يَوْم الدّين.

● ﴿... قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴿٢١﴾﴾: أي: مَا سَبَقَ أَنْ عَمِلْتُمُوه بنا في الحياةِ الدُّنْيَا مُسَجَّلٌ فِي دَاخِلِ خَلَايَانَا تَسْجِيلاً كامِلاً، وَقَدْ أَنْطَقَ اللهُ بِسُلْطَانِ قُدْرَتِهِ مَا هُوَ مُسَجَّلٌ فِي باطِنِ خَلَايَانَا، فَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا النُّطْقَ بِمَا هُوَ فينا مُسَجَّلٌ تَسْجِيلاً تَامّاً، وَيَجْرِي نُطْقُنا بالْجَبْرِ الرَّبَّانِي، كَمَا أَنْطَقَ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ بالتَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللهِ.

وهذا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةَ (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

فَدَلَّتْ هذه الآيَةُ علَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ بالْجَبْرِ بالتَّسْبيح بِحَمْدِ رَبِّهِ، فَجُلُودُ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ يُنْطِقُهَا اللهُ بِمَا هُوَ مَسَجَّلٌ فِيها مِنْ أَعْمَالِهِم فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، كَمَا تَنْطِقُ أَشْرِطَةُ تَسْجِيلِ الأَصْوَاتِ والصُّورِ بِمَا هُو مُسَجَّلٌ فِيها، وهُوَ مَا تَوَصَّلَ النَّاسُ إلى اكْتِشَافِهِ فِي هٰذَا الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُعَقِّباً علَىٰ هٰذا المشْهَدِ مِنْ مَشاهِدِ حِسَابِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَمُتَابعاً مُتَابَعَةَ تَصْدِيقٍ لِمَا قَالَتْهُ جُلُودُهم من أَنَّ اللهَ أَنْطَقَهُمْ، الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، ومُوَجّهاً بيانَهُ للكافِرين وهم في الدنيا، ثُمَّ في الآخرة:

● ﴿..وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿... وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: واللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شيْءٍ، هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْ عَنَاصِرَ لَا حَيَاةَ فيها وَلَا عِلْمَ لَها وَلَا تَنْطِقُ، فَجَعَلَكُمْ أَحْيَاءً ذوي عِلْمٍ تَنْطِقُونَ وَتَفْهَمُونَ النُّطْقَ الَّذِي يُوَجَّهُ لَكُمْ

وَتَعْلَمُونَ دَلاَلاَتِ كَلِمَاتِهِ، وجعلَكُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيا مُمْتَحَنِينَ وَمُكَلَّفينَ، وَمُلاحَقِين بالْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ وَتَنْفيذ الجزاء، وَرَتَّبَ في خُطَّتِهِ أَنْ تَمُوتُوا بَعْدَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ لَكُمْ، ثُمَّ تُبْعَثُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ لإكمالِ الْغَايَةِ من امْتِحَانِكُمْ، ومتىٰ رَجَعْتُمْ إلى الحياة بَعْدَ انْفِصَالِهَا عَنْ نُفُوسِكُمْ، فَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُونَ لِيُحَاسِبكُمْ وَيَفْصِلَ القضاء بَيْنَكُمْ، ويُجَازِيَكم علىٰ مَا أَسْلَفْتَمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ.

وقَدْ كُنْتُمْ تَحْتَ الْمُرَاقَبَةِ التَّامَّةِ المسْتَمِرَّة، فَرَبُّكُمْ مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وكَانَ عَلَيْكُمْ مُرَاقِبُونَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُسَجِلُونَ أَقْوَالَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ الظَّاهِرَةَ والباطِنَةَ، الْجَسَدِيَّةَ والنفْسِيَّة، وَكَانَتْ خَلاَيَا أَجْسَادِكُمْ وَجَوَارِحِكُمْ وَجُلُودِكُمْ تُسَجِّلُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْكُمْ، وهِيَ حِينَ تُسْتَنْطَقُ تَشْهَدُ عَلَيْكُمْ، وكُنْتُمْ تَسْتَخْفُونَ بمَعَاصِيكُمْ وَجرائِمكُمْ وآثَامِكُمْ بَعِيدِينَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاس، وَلَكِنْ مَا كُنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَتِرُوا لِئَلا يَرَاكُمْ رَبُّكُمْ وَمُرَاقِبُوكُمْ مِنْ مَلاَئِكَتِه.

• ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ . . .﴾:

أي: وَمَا كُنْتُمْ تسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَتِرُوا بِأَعْمالِكُمُ الإجْرَامِيَّةِ الكُفْرِيَّةِ عَنْ سَمْعِكُمْ وَلَا أَبْصَارِكُمْ وَلا جُلُودِكُمْ، فَهِيَ أَجْزَاءٌ مِنْ ذَوَاتِكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ تَتَوقَّعُونَ أَنْ تُسَجِّلَ فِيها أعْمَالُكُمْ، وأَنْ يُنْطِقَهَا رَبُّكُمْ شَاهِدَاتٍ عَلَيْكُمْ.

وتقدير العِبَارة للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ هـٰذه المطويَّاتِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ: وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَتِرُوا حَذَرَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ولَا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ؛ لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ ذواتِكُمُ الْكَاسِبَةِ، ولِأَنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ تَتَوقَّعُونْ أَنْ تَكُونَ شَاهِدَةً عَلَيْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ بِمَا هُوَ مُسَجَّلٌ فِيها، لَحْظَةً فَلَحْظَةً طَوَالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدُّنيا.

وَقَدْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ عِلْمَهُ غَيرُ مُحِيطٍ بِكُلِّ مَا تَكْسِبُونَ، فَهُوَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ، دَلَّ على هـٰذا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

المرادُ بالظَّنِّ هُنَا الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ السَّاقِطُ الَّذِي ليسَ لَهُ قيمةٌ في فِكْرٍ سليم.

- ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾: أي: أَسْقَطَكُمْ في أَوْدِيَةِ الآثامِ والجرائم والكُفْرِيَاتِ الَّتِي تَجْعَلُكُمْ من الخالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

أي: ولَكِنْ مَعَ إيمَانِكُمْ بأَنَّ اللهَ رَبَّكُمْ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ، لكن ظَنَنْتُمْ مُتَوهِّمِين أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كثيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ، فَهُو لَا يُحَاسِبُكُمْ وَلَا يُجَازِيكُمْ علَىٰ هـٰذَا الكَثِير، وَذَلِكُمْ الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ السَّاقِطُ الَّذِي ظَنَنْتُمُوهُ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ، فَأَسْقَطكُمْ فِي الأَوْدِيَةِ الَّتِي تُوصِلُكُمْ إلى الْخُلُودِ في عَذابِ النار يَوْمَ الْقِيامَة، فَأَصْبَحْتُمْ عِنْدَ مَوْتِكُمْ بَعْدَ لَيْلِ الكُفْرِ الطَّوِيل مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِين خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ كُلَّها، وَقَذَفُوا بِهَا إلَىٰ عَذَابٍ أبَدِيّ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَه عَلَيْهِم السَّلام، وتَكْذِيبِهِمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ عن اللهِ وَبَلَّغُوهُمْ إيَّاه.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَهُ عَنْ أعْدَاءِ اللهِ:

- ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ أعْداءِ اللهِ الْكَافِرين، ويَدْخُلُ فِيهِم المعالَجُونَ في السُّورَةِ إبَّانَ التَّنْزيل، إلى الحديث عَنْهُمْ بالْغَيْبَةِ، على اعْتِبَار أَنَّهُم بَعْد حِسَابِهِمْ وفَصْلِ القضاء بِشَأْنِهِمْ يَنْتَظِرُونَ تَنْفِيذَ قضاءِ اللهِ فِيهِمْ بأَنَّهُمْ خَالِدُونَ في دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ.

إِنَّهُمْ حِينَئِذٍ بَيْنَ أَمرَين:

• إمَّا أَنْ يَتَلَقُّوا قضاءَ اللهِ بِشَأْنِهِمْ صَابِرِينَ صَامِتِين، لِعِلْمِهِمْ بأنَّهَ لَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، وهٰذا الأَمْرُ يَكُونُ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهم، دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . . ﴾: أي: فإنْ يَسْكُتُوا يَائِسِينَ نَادِمِينَ صَابِرِينَ، فالنَّارُ مَكَانُ إقَامَتِهِمْ واسْتِقْرارِهم الأَبَدِيّ.

المثْوَىٰ: مَكَانُ الإقامَةِ والاستقرار. يقال لغة: «ثَوَىٰ بالمكان يَثْوِي، ثَوَاءً، وثُوِيّاً» أي: أقَامَ بِهِ واسْتَقَرّ.

• وَإِمَّا أَنْ يُعْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ ونَدَمَهُمْ وَيَسْأَلُوا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ كُفْرِيَّاتِهِمْ وَجَرائِمَهُمْ، وَهٰذَا الأَمْرُ قَدْ يَكُونُ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُقْبَلُ ذَلِكَ، فَهُمْ فِي حَيَاةِ الجزاء لَا فِي حَيَاة الابْتِلَاءِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا الأَمْرِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيةِ:

• ﴿ . . وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: وإنْ يَطْلُبُوا سَائِلِينَ اللهَ أَنْ يَرْفَعَ الْعَتْبَ وَالْمَلَامَ عَنْهُمْ، وَيَرْفَعَ عَنْهُمُ الجزاء الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِذُنُوبِهِمْ وَجَرائِمِهِمْ، فَمَا هُمْ مِنَ الَّذِينَ يَقْبَلُ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْمَلَامَ والمؤاخَذَةَ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللهِ وَكَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ كَافِرِينَ بِهِ، وَيُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام، وَيُكَذِّبُونَ بِمَا تَبَلَّغُوهُ عَنْهُ.

يُقَالُ لغة: «اسْتَعْتَبَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: اسْتَرْضَاهُ لِيَرْفَعَ الْمَلَامَ عنه. ويُقَالُ: «أعْتَبَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: قَبِلَ رَفْعَ الملَامِ والمؤاخَذَةِ وَالْعِقَابِ عنه.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ عَنْ أَعْدَائِهِ، بِشَأْنِ بَعْضِ أُمُورِهِمْ إذْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

• ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾: أَيْ: وَهَيَّأْنَا لَهُمْ ضِمْنَ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِم.

• ﴿قُرَنَآءَ﴾ جَمْع «قَرِينٍ»، وهو الصَّاحِبُ الْمُلَازِمُ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مَشْدُودٌ مَعَهُ بِقَرَنٍ، وهُو الحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْأَسِير.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: فَحَسَّنُوا لَهُم بزخرف أقوالهم كُفْريات وَجَرائم السابقين لَهُمْ من الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ عُلُوٌّ فِي الْأَرْضِ، وَقُصُورٌ عَظِيمَة وَجنَّاتٌ، وَجُنُودٌ وعبيد وَخَدَمٌ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ اسْتِمْتَاعَاتٌ وَاسِعَاتٌ كَانوا فيها فَارِهِينَ، وَحَسَّنُوا لَهُمْ بِزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ أَنْ يَرْتَكِبُوا جَرَائِمَ عُدْوَانٍ وَظُلْم وَطُغْيَانٍ، وَفِسْقٍ وَفُجُورٍ وَعِصْيَان، فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَوَاتِهِمْ الَّتِي هِيَ خَلْفَهُمْ، لِيَنَالُوا أَعْظَمَ نَصِيبٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

وَتَهْيِئَةُ هَؤُلَاءِ الْقُرَنَاءِ الْمُزَيِّنِينَ بِالْبَاطِلِ الشُّرُورَ والْآثَامَ، هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الامْتِحَانِ الْأَمْثَلِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَمِنْهُمُ الْقَرِينُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ، يَدْعُوهُ إِلَىٰ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ وَالْعِصْيَانِ.

وَقَدْ اسْتَجَابَ هٰؤُلَاءِ الْكَفَرَةُ أَعْدَاءُ اللهِ لِلْقُرَنَاءِ الْمُضِلِّينَ، وَكَانَ بَاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ لَا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ قَدْ مَنَحَهُمْ بِأَصْلِ تَكْوِينِهِمْ إِرَادَاتٍ حُرَّةً كَامِلَةَ الْحُرِّيَّةِ، لَا مُكْرِهَ لَهَا، وَلَا جَبْرَ مُسَلَّطٌ عَلَيْهَا، لَا مِنَ الرَّبِّ جلَّ جَلَالُهُ، وَلَا مِنْ بَعْضِ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَتَنْحَصِرُ أَعْمَالُ الشَّيَاطِينِ وَالْقُرَنَاءِ الْمُضِلِّينَ، بِالْوَسْوَسَةِ، والإغْرَاءِ وَالتَّزْيِينِ بِالْبَاطِلِ.

وَإِذَ اسْتَجَابُوا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ لِتَزْيِينَاتِ الْمُضِلِّينَ مِنْ قُرَنَاءِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَفَرَةٌ ضَالُّونَ مُجْرِمُونَ، كَانَ مِنَ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يَثْبُتَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين،

وَأَنْ يَدْخُلوا فِي زُمَرِ أُمَمٍ كَافِرَةٍ قَدْ خَلَتْ سَابِقَةً لَهُمْ فِي تَارِيخ الْمَوْضُوعَيْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، وَذٰلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي نِهَايَةِ مَرْحَلَةِ امْتِحَانِهِمْ خَاسِرِينَ كُلَّ نُفُوسِهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَبِجَرَائِمِهِمْ الْكُبْرَىٰ الْمعبِّرَة عَنْ كُفْرِهِمْ وَالتَّي دَمَغَتْهُمْ بِأَنَّهُمْ أَعْدَاءِ اللهِ، دَلَّ على هَـٰذَا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ وَبالمطْوِيَّاتِ فِيهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيَة:

﴿..وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: جاءت هَـٰذِهِ العبارة وأشباهُها في القرآن المجيد للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَحقُّقِ كَلِمَةِ اللهِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُ بِعَدْلِهِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَىٰ الْكُفْرِ وَلَوَازِم الْكُفْرِ فِي السُّلُوكِ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمْ كُلَّ مَا يَلْزَمُ لابْتِلَائِهِمْ الابْتِلَاءَ الأَمْثَلَ، وَأَمْهَلَهُمْ إِمْهَالاً كَافِياً، فَلَوْ بَقُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلىٰ الأَبَدِ لَبَقُوا كَافِرِينَ إِلَىٰ الأَبَدِ. وَجَاءَتْ كَلِمَةُ «عَلَىٰ» مُنَاسِبَةً لِقَرَارِ الْعِقَابِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ، تَعْذِيباً وَإِهْلَاكاً عَاجِلِينَ، أَوْ تَعْذِيباً أَبَدِيّاً فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللهِ بِالْعِقَابِ تَعْذِيباً أَوْ إِهْلَاكاً كَلِمَةٌ مَعلَّقَةٌ مَشْرُوطَةٌ سَبَقَتْ وَضْعَ الممتَحَنِينَ فِي مَجَالَاتِ ابْتِلَائِهِمْ، وَهي تَتَرَقَّبُ مَنْ يُحَقِّقُ مِنْهُمْ فِي نَفْسِهِ باخْتِيَارِهِ الحرِّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَجْعَلُهُ يَسْتَحِقُّ إِنْزَالَ الْعِقَابِ عَلَيْهِ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ فَقَدْ حَقَّ قَوْلَ رَبِّهِ عَلَيْهِ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِ وَاسْتَقَرَّ وَثَبَتَ، كَمَا تَنْطَبِقُ أَسْنَانُ المفتاح علىٰ أَسْنَانِ القفل.

﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾:

﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: أي: قَدْ مَضتْ وَذَهَبَتْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هَالِكَةً.

﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾: أي: من المُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوف الحياة الدُّنيا مِنَ الْجِنّ وَالإِنس.

وَقُدِّمَ الْجنَّ عَلَىٰ الإنْسِ هُنَا لِأَنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا قَبْلَ الإِنْسِ، وَفِيهِمْ زُمَرٌ كَافِرُونَ مُجْرِمُونَ، وَرَأْسُ كُفَّارِهِمْ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهِ.

المعنىٰ: وَثَبَتَ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللهِ الْكَافِرِينَ المذْكُورِينَ فِي الآيَةِ (١٩) مِنْ هَـٰذَا الدَّرْسِ، الْقَوْلُ بِأَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، دَاخِلِينَ ضِمْنَ زُمَرٍ مِنْ أُمَمٍ كَافِرَةٍ، قَدْ ذَهَبَتْ وَمَضَتْ مِنَ الحياةِ الدُّنْيَا هَالِكَةً مِنْ قَبْلِهِمْ، مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، فَهُمْ جَمِيعاً سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّم.

• ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: إِنَّ هٰؤُلَاءِ وَالَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، كَانُوا بَعْدَ أَنْ اجْتَازُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ خَاسِرِينَ نُفُوسَهُمْ خُسْرَاناً كَامِلاً، إِذْ جَلَبُوا لِنُفُوسِهِمْ عَذَاباً أَبَدِياً لَا خَلَاصَ لِذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِمْ مِنْهُ.

وَلَا يُوجَدُ خُسْرَانٌ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَخْسَرَ الإِنْسَانُ كُلَّ نَفْسِهِ، إِذْ يَقْذِفُ بِهَا إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ لَا خَلَاصَ لَهُ مِنْهُ أَبَدَ الآبِدِينَ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (فصّلت).

والحمدُ لِلَّهِ عَلىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوفِيقِهِ وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٩)
التّدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (فصلت)
الآيات من (٢٦ ـ ٣٢)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ

جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

القراءات:

(٢٩) • قرأ ابن كثير، والسُّوسيُّ، وابنُ عَامر، وشعبة، ويعقوب: [**أَرْنَا**] بإسْكَان الرَّاء.

وقرأها بَاقِي القرّاءِ العشرة: ﴿أَرِنَا﴾ بِكَسْرِ الرَّاء، إلَّا الدُّوري عن أبي عمْرو، فإنَّهُ قرأهَا باختلاسِ الكَسْرَةِ.

(٢٩) • قرأ ابْنُ كثير: [**اللَّذَيْنِّ**] بِتَشْدِيدِ النون، مع الْقَصْرِ والتوسُّطِ والْمَدِّ فِي الياء.

وقرأها باقِي القراء العشرة: ﴿**الَّذَيْنِ**﴾ بِكَسْرِ النُّونِ دونَ تَشْديد.

(٣٠) • قرأ أبو عمْرو: [**عَلَيْهِمِ الْمَلَائِكَةُ**] بِكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حَمْزَة، والكِسَائي، ويعقوب، وخلف: [**عَلَيْهُمُ الْمَلَائِكَةُ**] بِضَمّ الهاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ**﴾: بكسر الهاء وضَمّ الميم.

ووقف حمزة، ويعقوب بِضَمِّ الهاء، والباقون بكَسْرِها.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ الخَامِسِ بَيَانُ دَعْوَةِ أئِمَّةِ الكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ

التَّنْزِيلِ، لِأَوْلِيَائِهِمْ أَنْ لَا يَسْمَعُوا لِلْقُرْآنِ، وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَلغَوا فِيه لِيُشَوِّشُوا عَلَىٰ صَوْتِ التَّالِي، فَلَا يَصِلُ الْكَلَامُ سَوِيّاً إِلَىٰ أَسْمَاعِ شُهُودِ التِّلَاوَةِ، رَجَاءَ أَنْ يَغْلِبُوا بِلَغْوِهِمْ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ.

وفيها وَعِيدٌ مِنَ اللهِ لِلّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ.

وَفِيهَا وَعْدٌ لِلَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، بِمَا يَلْقَوْنَهُ مِنْ بُشْرَيَاتٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَثَوَابٍ جَزِيلٍ يَوْمَ الدِّين.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعالَىٰ مُبَيّناً مَوْقِفاً مِنْ مَوَاقِفِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ القرآنِ، وَمُحَاوَلَاتِهِم لإِيقَافِ تَأْثِيرِهِ عَلَىٰ الْجَمَاهِيرِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

اللَّغْو: كُلُّ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَأَصْوَاتٍ وَتَشْوِيشَاتٍ ونَحْوِ ذٰلِكَ.

رأىٰ أَئِمَةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مَا لِلْقُرْآنِ مِنْ تأثِيرٍ عَلَىٰ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ، وَهَـٰذَا التَّأْثِيرُ الْبَالِغُ يَجْعَلُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ وَلَاءٌ أَعْمَىٰ لَهُمْ، يَقْتَنِعُونَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ التوحِيدِ وَنَبْذِ عِبادة الأَصْنَام، وَدَعْوَةٍ إِلىٰ الْخَيْرِ وَفَضَائِلِ السُّلُوكِ وَمَحَاسِنِ الشِّيم، فَيَمِيلُونَ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِالْحَقِّ والدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَفكَّرُوا بِوَسِيلَةٍ شَيْطَانِيَّة يَمْنَعُونَ بِهَا تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ عَلىٰ الَّذِين لَمْ يُسْلِمُوا بَعْدُ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا لِأَتْبَاعِهِمْ الَّذِينَ أَعْطُوهُمْ كَامِلَ وَلَائِهِمْ: لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ لِئَلَّا تَشْغَلُوا أَفْكَارَكُمْ بِدَلَالَاتِ آيَاتِهِ، فَتَتَشَكَّكُوا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ

آبَاؤُكُمْ وَأَجْدَادُكُم أَهلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَالْحِكْمَةِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْقُرْآنَ يُتْلَىٰ عَلَىٰ جَمْعٍ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَأَحْدِثُوا لَغْواً مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَصْوَاتِ وَالْحَرَكَاتِ تَشْوِيشاً عَلَىٰ التَّالِي، وَبِهَـٰذَا لَا يَسْتَمِعُ حَاضِرُو تِلَاوَةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ اسْتِمَاعاً سَوِيّاً، فَمِنْ شَأْنِ هَـٰذَا اللَّغْوِ أَنْ يَمْنَعَ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِ وَنُفُوسِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، فَتَغْلِبُونَ بِتَشْوِيشِكُمْ بَيَانَاتِ الْقُرْآنِ ذَاتِ التَّأْثِيرِ الشَّبِيهِ بِتَأْثِيرِ السِّحْرِ.

هَـٰذَا الأَسْلُوبُ التَّشْوِيشِيُّ قَدِ اتَّخَذَتْهُ الدُّوَلُ المتحَارِبَةُ، لِمَنْعِ وُصولِ بَيَانَاتِ أَعْدَائِهَا الإِعْلَامِيَّةِ إِلَىٰ جماهِيرِ شَعْبِهَا، وَجَمَاهِيرِ الشُّعُوبِ الَّتِي تَرَىٰ مِنْ مَصْلَحَتِهَا عَدَمَ وُصُولِ بَيَانَاتِ أَعْدَائِهَا إِلَيْهَا.

وَيُطْلِقُونَ عَلَىٰ هَـٰذَا الْأُسْلُوبِ التَّشْوِيشِيِّ اسم «بَرَازِيت» إِذْ يُصْدِرُونَ أَصْوَاتاً مُشَوِّشَةً فِي الْمَوْجَاتِ الْإِذَاعِيَّةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمِهَا الْإِعْلَامُ الْإِذَاعِيُّ لِلدَّوْلَةِ أَو الدُّوَلِ المعَادِية.

وَكُنْتُ أُلْقِي مُحَاضَرَةً فِكْرِيَّةً قَيِّمَةً فِي إِحْدَىٰ قَاعَاتِ الْمُحَاضَرَاتِ الْكُبْرَىٰ، وَكَانَتْ غَاصَّةً بِالْحُضُورِ، فَأَخذَ بَعْضُ الْكَارِهِينَ لي وَلِمَوْضُوعِ الْمُحَاضَرَةِ يَعْبَثُ بِمَفَاتِيحِ المِنَصَّةِ الَّتِي أَمَامَهُ، وَالَّتِي يَكُونُ بِهَا تَحْوِيلُ تَرْجَمَةِ الْمُحَاضَرَةِ إِلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ، وَكَانَ لِهـٰذَا الْعَبَثِ المتوالي أَصْوَاتٌ مَسْمُوعَةٌ مُشَوِّشَةٌ، يَسْمَعُهَا كثيرٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ، وَتُحْدِثُ فِي آذَانِهِمْ تَشْوِيشاً يَمْنَعُ عَنْهُمْ مُتَابَعَةَ كَلَامِ الْمُحَاضِرِ، وَاسْتَمَرَّ هَـٰذَا الْكَارِهُ يَعْبَثُ عَبَثَهُ مُدَّةً غير قَصِيرَةٍ، حَتَّىٰ ضَاقَ صَدْرُهُ وَخَرَجَ مِنَ القاعةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أَفْضَحَهُ وَأَدْعوهُ إِلَىٰ تَرْكِ هَـٰذَا الْعَبَثِ، وَهُوَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْ مَقَاعِدِ الْحُضُورِ.

- ■ قول الله تَعَالَىٰ مُتَوَعِّداً الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ:

- ● ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟

يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا . . .﴾: يُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وَجلَّ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً.

جَاءَ التوكيد باللَّامِ الواقعة في جوابِ قَسَمٍ مَنْويّ كما يقول المعْرِبُونَ، وبنُونِ التوكيد الثقيلةِ.

وهَـٰذَا الْعَذَابُ الشّدِيدُ قَدْ يَكُونُ للمعنيِّين بالمعالَجَةِ فِي السورة في الدُّنيا وفي الآخرة، وأمَّا سَائِرُ الْكَافِرِينَ فَعَذابُهُمْ الشَّدِيدُ يكون يَوْمَ الدِّينِ.

واسْتُعْمِلَ الذَّوْقُ الَّذِي يَكُونُ بِاللِّسَانِ عَلَىٰ سَبِيلِ الاستعارة للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإِحْسَاسِ بِالْأَلَمِ فِي كُلِّ مَوْضِع يُحِسُّ بالأَلَم مِنَ الْجِسْمِ؛ لِأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ مِنْ أَشَدِّ الْمَوَاضِعِ إِحْسَاساً بِأَنْوَاعِ مَا يُلَائِمُها مِنْ مَذُوقات.

• ﴿. . . وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

الْجَزَاء: مُقَابَلَةُ الْعَمَل بِمَا يُلائِمُهُ مِن خَيرٍ أَوْ شَرّ، وَجزاءُ اللهِ بالثوابِ هُو فَضْلٌ مِنْهُ دواماً، وَجَزَاءُ اللهِ بالعقاب هو عَدْلٌ مِنْهُ دواماً، يَسْتَحِقُّهُ المسِيءُ بِعَمَلِهِ.

وأرىٰ أَنَّ لَفْظَ «أَسْوَأ» أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ علىٰ بَابِهِ؛ لِأَنَّ مُجازَاةَ الْكَافِرِينَ عَلَىٰ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الْكُفْرُ ولوازِمُ الْكُفْرِ مَعَ الدَّوَام إِذْ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، يَنْدَرِجُ فِيهِ الْعَذَابُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَىٰ مَا دُونَ ذَلِكَ، فَالْأَصْغَرُ يَنْدَرِجُ فِي الْأَكْبَرَ.

والْعِبَارَةُ عَلَىٰ تَقْدِير مُضَافٍ مَحْذُوفٍ قَبلَ لَفْظ ﴿أَسۡوَأَ﴾، أي: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ جَزَاءَ أسْوإِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنيَا.

• ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ذَلِكَ الْعَذَابُ الشّدِيدُ المعادِلُ أسْوَأَ مَا كَانوا يَعْمَلُونَ فِي الحياة الدُّنيا. «ذَا» مبتدأ، وخَبَرُهُ:

• ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾: أي: جَزَاءُ الَّذِينَ عَادَوْا الله رَبَّهُم بالكُفْرِ بِهِ، ومَعْصِيَتِهِمْ أوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ غَيْرَ مُبَالِينَ عِقَابَهُ، فَعَادَاهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ عِقَابُهُ وانْتِقَامُهُ.

• ﴿.. ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿جَزَآءُ﴾ أَوْ عَطْفُ بَيَان. وهو عَلَمٌ لِدَارِ الْعَذَاب الَّتِي اعْتَدَهَا اللهُ عزّ وجلّ لِلْمُجْرِمِينَ، إذَا أُطْلِقَ في الاصطلاح الدّينيّ كَانَ دَالًّا عَلَيْها.

• ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ﴾: أي: للكافِرِينَ أعْدَاءِ اللهِ في النَّارِ دَارُ الْخُلْد، فلَهُمْ فيها مَنْزِلٌ يَسْكُنُونَ فِيه، يَكُونُ مَحَلَّ إقَامَتِهِم الدَّائِمَةِ أَبَداً بِلَا نِهايَة.

الْخُلْدُ، والْخُلُودُ: هو في اللّغَةِ طُولُ البَقاء، وهُوَ في الإصْطِلَاحِ القرآنيّ: البقاءُ الدَّائِمُ بِلَا نِهايَةٍ أبداً.

• ﴿... جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: حَالَة كَوْنِ ذلك الجزَاءِ، وهو العذابُ في النَّارِ خَالِدِينَ فيها، جزَاءً بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَجْحَدُونَ بآيَاتِنَا.

الْجُحودُ: إنْكَارُ الشَّيْءِ مَعَ الْعِلْم بأَنَّهُ حَقٌّ، يُقَالُ لغة: «جَحَدَ الأَمْرَ، وَجَحَدَ بِهِ» أي: أَنْكَرَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَقّ.

وجُحُودُهم بآياتِ اللهِ يَشْمَلُ جُحُودَهُمْ بالآياتِ الكَوْنِيَّة، والآياتِ الإعجازِيَّة، والآيَاتِ الجزائِيَّةِ، والآياتِ البيانِيَّة المنزّلَةِ صُحُفاً وكُتُباً، والآيَات التَّذْكِيرِيَّة.

■ قول اللهِ تعَالَىٰ مُبيِّناً مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ وهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي دار العذاب النَّار:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وَقَالَ الَّذِينَ كَفرُوا وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ سَائِلِينَ رَبَّهُمْ: رَبَّنَا أَرِنَا الْفَرِيقَيْنِ الَّذيْنِ أَضَلَّانَا إضْلَالَ إغْوَاءٍ وتَزْيينٍ وإغْرَاءٍ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُمَا، وهُمَا مِنْ قُرَنَاءِ الإنْسِ والْجِنِّ، فإنْ رَأيْنَاهُمْ جعَلْنَاهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا، وَأَخَذْنَا نَرْفُسُهُمْ وَنَرْكُلُهُمْ وَنَضرِبُهُمْ بأرْجُلِنَا، حَتَّىٰ يَكُونَا في الأَسْفَلِينَ الْمُعَذَّبِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النار.

رَأيْتُ أنّ حَمْل لَفْظِ اللَّذيْنِ عَلَىٰ الْفَرِيقَيْنِ أَوْلَىٰ، لِيَشْمَلَ كُلَّ قُرَناءِ السُّوءِ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ، سواءٌ أكَانُوا أَفْراداً أَمْ أَكْثَر.

والْوَاقِعُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قُرَنَاءَ السُّوءِ مِنَ الإنْسِ، قَدْ يَكُونُونَ أَكْثَرَ مِنْ قَرِينٍ واحِد، أمَّا مِنْ الْجِنِّ فَالنُّصُوصُ القرْآنِيَّةُ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّ لِكُلِّ إنْسَانٍ قَرِيناً شَيْطَاناً مِنَ الجِنِّ يُوَسْوِسُ لَهُ، وهُوَ مُلَازِمٌ لَهُ، ولكِنْ قَدْ يُعَاوِنُهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ مُعَاوِنُونَ آخَرُونَ، في مُنَاسَبَاتٍ يَصْعُبُ فيها علَىٰ الْقَرِينِ الملَازِمِ أَنْ يُغْوِي مَنْ هُو قَرِينٌ لَهُ مِنَ الإنْسِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الَّذِينَ كَفرُوا، مُتَحَدِّثاً عَنْ فَرِيقِ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ مِنَ المؤمنينَ، ومَا قَيَّضَ اللهُ لَهُمْ مِنْ مَلَائِكَةٍ يُثَبِّتُونَ قُلُوبَهُمْ، وَيُبَشِّرُونَهُمْ بالْجَنَّةِ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهِمْ في الحياةِ الدُّنْيا:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾:

جَاءَ في الآية (٦) من هـٰذِهِ السُّورَة تكْلِيف الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَدْعُو المشْرِكين إلَىٰ التوحِيدِ والاسْتِقَامَةِ إلىٰ الله وإلىٰ الاسْتِغْفَار.

وَجَاءَ في هـٰذِهِ الآيَاتِ من (٣٠ ـ ٣٢) بَيَانٌ يَتعَلَّقُ بالْمُؤْمِنِينَ الموحِّدِينَ المستقِيمينَ عَلَىٰ صراطِ اللهِ.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ..﴾:

أي: إنَّ الَّذِينَ أَعْلَنُوا بألْسِنَتِهِم مُتحدِّينَ الطُّغَاةَ مِنْ أئمة الكُفر، أنَّ اللهَ رَبُّهُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَـٰهِيَّتِهِ، وَكَانَ هـٰذا الإِعْلَانُ تَعْبِيراً صَادِقاً يُطَابِقُ مَا في قُلُوبِهِمْ مِنْ إيمَانٍ رَاسِخٍ، بِدَلِيلِ اسْتِقَامَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ، مُطَبِّقِينَ مُقْتَضَيَاتِ إيمانِهِمْ بأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقد سَبَقَ بيانُ الاسْتِقَامَةِ لَدَىٰ تَدبُّر الآيَةِ (٦) من هـٰذِهِ السورة، ومَعْلُومٌ أنَّ الاسْتِقَامَةَ عَلَىٰ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ مِنْ أشَقِّ الأَعْمَالِ الدَّالَّةِ علىٰ الالْتِزَامِ بِمُقْتَضَيَاتِ الإيمَانِ الصحيحِ الصَّادِق.

ودَلَّ حَرْفُ «ثُمَّ» عَلَىٰ تَوَالِي اسْتِقَامَتِهِمْ في كَدْحِهِمْ عَبْرَ حياتِهِمْ، إلَىٰ الْغَايَةِ الَّتِي يُلاقُونَ فيها حِسَابَ اللهِ وفَصْلَ قضائِهِ بِشَأْنِهِم.

• ﴿.. تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾:

يُخْبِرُنَا اللهُ عزّ وجلّ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ المكلَّفِينَ أَنْ يُثَبِّتُوا المؤمنينَ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَتنزَّلُ عَلَيْهِمْ آناً فَآناً كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لمقلقاتٍ مُزْعِجَاتٍ بالْمَخَاوِفِ والمُحْزِنَاتِ، فتُلْقِي بِمَا يُشْبِهُ حَدِيثَ النَّفْسِ في قُلُوبِهِمْ مَعَانِي تَفْسِيرُهَا أَنْ لَا تَخَافُوا مِنْ مَكَارِه تَنْزِلُ بكُمْ؛ لأَنَّ المكارِه الَّتِي يَخْتَارُها رَبُّكُمْ لَكُمْ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ، فِي عَاجِلِ أمْرِكُمْ وآجِلِهِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ شَيْءٍ فَاتَكُمْ مِنْ مَحَابِّكُمْ؛ لأَنَّ اللهَ رَبَّكُمْ قَدْ اخْتَارَ لَكُمْ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَفْضَلُ، جَزَاءَ إيمانِكُمْ واسْتِقَامَتِكم.

هـٰذِهِ قناعَةٌ إيمانِيَّةٌ يُلْقِيهَا اللهُ عزّ وجلّ عَنْ طَرِيقِ فرِيقٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ في قُلُوبِهِمْ، لِيَنَالُوا بِهَا حَيَاةً طَيِّبَةً فِي دُنْيَاهُمْ.

أَمَّا عِنْدَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ فإِنَّ هؤلاءِ الفريقَ مِنَ الملائِكَةِ يَتَنَزَّلُونَ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ قَائِلِينَ لَهُمْ: لَا تَخَافُوا مِنْ شيءٍ قَادِمٍ، ولَا تَحْزَنُوا علىٰ شَيْءٍ تَرَكْتُمُوهُ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَا أُعِدَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَجَلُّ وأَعْظَمُ.

وأَمَّا بَعْدَ الْبَعْثِ فهـٰذا التَّثْبِيتُ أجَلُّ وأعْظَمُ، إذْ يَشْهَدُونَ مِنْ أَحْوَالِ الآخِرَةِ مَا يَفْرَحُونَ بِهِ.

ويَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ لَهُمْ: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: يَكُونُ عِنْدَ الموْتِ وبَعْدَ الْمَوْتِ، وَبَعْدَ الْبَعْث، طَمْأَنَةً لَهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَىٰ سَعَادَةٍ أَبدِيَّةٍ في نَعِيمِ الْجَنَّة، فعِبَارَة: ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: تُشْعِرُ بِمَا كَانُوا يُوعَدُونَهُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ قَبْلَ مَوْتِهِمْ، وهُوَ مَا كَانُوا يَقْرَؤُونَهُ أَوْ يَتْلُونَهُ، أَوْ يُقْرأُ أَوْ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فِي آيَاتِ كِتَابِ اللهِ المجيد، إذْ أكثر سُوَرِ القرآنِ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ هـٰذا الْوَعْدِ الرَّبَّانِيّ، وَكُلَّما قرأ المؤمِنُ أو تَلَىٰ، أَوْ قُرِأَتْ عَلَيْهِ أَوْ تُلِيَتْ سُورَةٌ فيها هـٰذا الْوَعْدَ، كَانَ ذٰلِكَ بِمَثَابَةِ تَجْدِيدِ وَعْدِ اللهِ لَهُ بالْجَنَّةِ وَنَعِيمَها، وَهـٰذا قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ استِعْمَالُ الفِعْلِ المضارِعِ الدَّالِّ علىٰ التَّكرِيرِ بِصُورَةٍ متَجَدِّدَة.

ويَقُولُ هـٰذا الْفَرِيقُ مِنْ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ لِلْمُؤْمنِينَ الَّذِينَ قَالُوا:

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أيْ: نَحْنُ نُصَراؤكُمْ عَلَىٰ أعْدَائِكُمُ الكَفرَةِ، وَالمحافِظُونَ عَلَيْكُمْ، نَحْمِيكُمْ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِمَّا خَلَقَ اللهُ في كَوْنِهِ، مَا لَمْ يَتِمَّ بِهِ قَضَاءُ اللهِ وَقَدَرُهُ لابْتِلاَئِكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهـٰذا يَظْهَرُ فِي حِمَايَةِ المؤمِنِينَ ذَوِي الاسْتِقَامَةِ علَىٰ صِرَاطِ اللهِ، مِنْ كَثِيرٍ مِنْ شُرُورِ مَا خَلَقَ اللهُ في كَوْنِه، إذْ

يُسَخِّرُ اللهُ عزّ وجلّ هـٰذا الفريق من مَلَائِكَتِهِ لِحِمَايَتِهِمْ والمحافَظَةِ عَلَيْهِمْ، ضِمْنَ نِظَامِ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ.

إنَّ المؤمنينَ ذَوِي الاسْتِقامَةِ، لَا يَسْمَعُونَ مَا يَقُولُهُ هـٰذا الفريقُ مِنْ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ، لَكِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ، فَيَشْعُرُونَ بأنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُصَاحِبُونَ لَهُمْ يَنْصُرُونَهُمْ، وَيَحْفَظُونَهُمْ بأمرِ اللهِ لَهُمْ، ضِمْنَ أَنْظِمَتِهِ السَّبَبِيَّةِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

أَمَّا في الآخِرَةِ فإنَّهُمْ يَسْمَعُونَ بأَجْهِزَةِ السَّمْعِ لَدَيْهِمْ قَوْلَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ: لَا تخافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلياؤكُمْ في الحياةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ أيضاً وَهُمْ يُبَشِّرُونَهُمْ بالْجَنَّةِ:

• ﴿.. وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ مِنْ مُشْتَهَيَاتٍ تَلَذُّكُمْ.

ولَكُمْ فِي الجَنَّةِ كُلُّ مَا تَدَّعُونَ، أي: كُلُّ مَا تَتَمَنَّوْنَ ممَّا هُوَ فِي حُدُودِ الأَمَانِي بَعِيدَةِ المنَالِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

يقال لغة: «ادَّعَىٰ الشيْءَ» أي: تَمَنَّاهُ وَطَلَبَهُ لِنَفْسِهِ.

وَهـٰذا يَكُونُ لَكُمْ نُزُلاً مِنْ رَبٍّ غَفُورٍ لِذُنُوبِكُمْ، رَحِيمٍ بِكُمْ، يَمْنَحُكُمْ عَطَاءَاتِهِ مِنْ فَضْلِهِ العظيم، أيْ: ضِيَافَةً لَكُمْ يُكْرِمُكُمْ بها.

النُّزُل: بضَمِّ الزَّاي وإسْكَانِها، مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لِضَيْفِهِ إذا نَزَلَ عَلَيْه.

وَجَاء اسْمُ اللهِ «غَفُور» أيْ: كَثِير المغْفِرَةِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المؤمنين ذَوِي الاسْتِقَامَةِ قَدْ يَكُونُونَ مِنْ مُرْتَكِبِي الذُّنُوب، وَقَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ.

وَجَاءَ اسْمُ اللهِ «رَحِيم» أي: كَثِير الرَّحْمَةِ وَوَاسِعها، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنَّ عَطَاءاتِهِ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ في جَنَّاتِ النَّعِيم هِي من آثَارِ رَحْمَتِهِ العظيمَةِ بعِباده، وهِيَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْهِم.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الخامس من دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وَتَوْفيقِهِ ومِنَّتِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٠)
التدبر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (٣٣ ـ ٣٦)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَات هٰذا الدَّرْسِ تَرْغِيبٌ لِلْمُؤَهَّلِينَ أَنْ يَكُونُوا دُعَاةً للهِ، فِي أَنْ يَقُومُوا بِوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَإِلىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، مَعَ تَوصِيَتِهِمْ بأَنْ يَدْفَعُوا الَّذِينَ يُؤْذُونَهُمْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، وأَنْ يَسْتَعِيذُوا باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ الدَّاعِي إلىٰ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بمَا هُوَ أَشَدُّ مِنها.

التدبُّر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْلٌ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ مَنْ دَعا

إِلَىٰ اللهِ، إِذَا كَانَ صَادِراً مِنْ إِنْسَانٍ مُكَلَّفٍ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً علىٰ وفْقِ مَا يَقْتَضِيهِ إِيمَانُهُ وَإِسْلَامُه:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾؟:

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ ذِي قَوْلٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ يَقُولُ قَوْلاً هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ بِشَرْطَيْنِ:

الشَّرْطُ الأَوَّل: أَنْ يَعْمَلَ هُو عَملاً صَالحاً مُطَابِقاً لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِمَا يَدْعُو إليه، غَيْرُ مُمْتَهِنٍ وَظيفَةً مَأْجوراً عَلَيْها، وهو لَا يُؤْمِنُ بِمَضْمُونِها.

الشَّرْطُ الثاني: أَنْ يُعْلِنَ صَرَاحَةً أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أَفْرَادِ المسْلِمِينَ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ دِينٍ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَنْتَمِي إِلىٰ الأُمَّةِ الَّتِي تَدِينُ بالإِسْلام.

هٰذانِ الشَّرْطَانِ لازِمَانِ لِبَيَانِ صِدْقِ الداعي إلىٰ اللهِ في دَعْوَتِهِ وصحَّةِ مَا يَقُولُ، حتَّىٰ يَكُونَ قَوْلُهُ أَحْسَنَ قَوْلٍ يَقُولُهُ قائِلٌ مَا مِنْ عِبَادِ الله.

فالَّذِي لَا يَعْمَلُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَدْعُو الناسَ إِلَيْهِ، إِنْسَانٌ مَشْكُوكٌ فِي أمْرِه، وفي دَعْوَتِهِ، إِذْ يَقُولُ النَّاسُ لَوْ كَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ حَقّاً وَخَيْراً، لَكَانَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِمَا يَدْعُو إِلَيْه، فَهُوَ إِذَنْ ذُو مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، فَدَعْوَتُهُ مَشْكوكٌ فيها.

والدَّاعي إِلىٰ الانْتِمَاءِ إِلَىٰ الإِسْلام، إِذَا لَمْ يُعْلِنْ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ المسْلِمِينَ، مَشْكُوكٌ فِي أَمْرِهِ وفِي دَعْوَتِهِ، إِذْ يَقُولُ النَّاسُ: لَوْ كَانَ الإِسْلَامُ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الدُّخُولِ فيهِ دِيناً صَحِيحاً لَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلىٰ الدُّخُولِ فِيه، وَلأَعْلَنَ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُو إِذَنْ مُنَافِقٌ مَأْجور، أَوْ ذُو مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، فَدَعْوَتُهُ مَشْكُوكٌ فيها.

وَبِفَقْدِ أَحَدِ هذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا لَا يَكُونُ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي إلىٰ اللهِ تَأْثِيرُهَا الْمَرْجُوُّ، وَقَدْ يَنْعَدِمُ تَأْثِيرُهَا، فَلَا يَظْهَرُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْلٌ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ.

إنَّ الْقَوْلَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الدَّعْوَةَ إلَىٰ اللهِ، يَتَّصِفُ بأفْضَلِيَّتِهِ لأَنَّهُ يَهْدِي إلىٰ النّجَاةِ مِنْ عَذَاب اللهِ، والْفَوْزِ بالخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، وَلَا يُوجَدُ في الأكْوانِ الَّتِي خلَقَهَا اللهُ أَعظَمُ مِنْ هـٰذا الْفَوْزِ العظيم، فالْقَوْلُ الَّذِي يَدْعُو إلَىٰ هـٰذا الْفَوْزِ العظيم لَا يُوجَدُ قَوْلٌ هُوَ أَعْظَمُ مِنْه ولَا أَحْسَنُ مِنْهُ، إذا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِ وَنَوْعِهِ.

والدّعْوَةُ إلَىٰ اللهِ تَشْمَلُ الدَّعْوَةَ إلىٰ كُلِّ مَا جَاءَ في الإسْلَامِ إيمَاناً وعَمَلاً، ظاهِراً وَباطِناً، جَسَدِيّاً وَنَفْسِيّاً.

▪ قول الله تَعَالَىٰ يُوصي الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ بأنْ يَدْفعَ أَذَىٰ من يُؤْذِيهِ وسيّئَاتِ مَنْ يُسيء إلَيْهِ بالَّتِي هِي أحْسَنُ، بَعْدَ بَيانِ قَاعِدَةٍ مِنْ الْقَوَاعِدِ الفِكْرِيَّة بِشَأْنِ الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ فِي السُّلُوكِ الإرَادِي، لِذَوِي الإرَاداتِ الْحُرَّة:

• ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

• ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾:

الْحَسَنَةُ: اسْمُ جِنْسٍ يُطْلَقُ عَلَىٰ مُفْرَدَاتٍ كَثِيرَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ بَعْضُهَا أَحْسَنُ مِنْ بَعْضٍ. فكُلُّ خَصْلَةٍ حَسَنَةٍ، وكُلُّ فعلةٍ حَسَنَةٍ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ حَسَنَةٍ، قَدْ يُوجَدُ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهَا حُسْناً، وقَد يُوجَدُ مَا هو أقَلُّ مِنْهَا حُسْناً، فَأَفْرَادُ الْحَسَنَةِ غَيْرُ مُسْتَوِيات.

والسّيِّئَةُ: اسْم جِنْسٍ يُطْلَقُ علىٰ مفرداتٍ كثِيراتٍ مُتَفَاوِتاتٍ بَعْضُهَا

أَسْوَأُ مِنْ بَعْض، فكُلُّ خَصْلَةٍ سَيِّئَةٍ، وكلُّ فعلةٍ سَيِّئَةٍ، وكُلُّ كَلِمَةٍ سَيئة، قَدْ يُوجَدُ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهَا سُوءاً، وَقَدْ يُوجَدُ مَا هُوَ أقَلُّ مِنْها سوءاً. فأفرادُ السّيئة غَيْرُ مُسْتَوِيَات.

فمن البدهيّ أنْ لا تستوي الحَسَنَاتُ والسَّيّئات.

والداعي إلَىٰ اللهِ الرَّشِيدُ العَامِلُ بوصَايا رَبِّه لَهُ، يَخْتَارُ دواماً أحْسَنَ الْخِصَالِ فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة، وأحْسَنَ الأَفْعَالِ، وأحْسَنَ الأَقْوال، رجَاءَ أنْ يَكُونَ تأْثِيرُهُ الدَّعَوِيُّ في الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ أكْثَرَ وَأَفْعَلَ وَأَفْضَلَ، فَالنَّاسُ تُؤَثِّرُ فِيهِم الْخِصَالُ والأفعَالُ والأقوالُ الحسَنَةُ الْحَمِيدَةُ تَأْثِيراً بالِغاً، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بَرِيئاً من الأمَراضِ الْقَلْبِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، الَّتِي يَقُومُ بِوَظِيفَتِها الدَّاعِي الرَّبَّانِيّ.

ولمَّا كَانَ الدَّاعي إلَىٰ اللهِ قد يَدْعُو مُخالِفِينَ لَهُ في الدِّينِ، وَذَوي الْتِزَامٍ بِمَبَادِئَ وَسُلُوكِيَّاتٍ مُرْضِيَاتٍ لأَهْوَائِهِم وَشَهَواتِهِمْ، وهؤُلاءِ قَدْ يُقَابِلُهُ بَعْضُهُمْ بِمَا يَسُوؤهُ وَيُؤْذِيهِ أَوْ يَضُرُّه، لإيقافِ نَشَاطِهِ الدَّعَوِيّ، أَوْصَاهُ اللهُ عزّ وجلّ بأنْ يَدْفَعَ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، فَيَدْفَعَ الخَصْلَةَ السَّيّئَةَ بالْخَصْلَةِ الحسَنَة، ويَدْفعَ الفِعْلَ السَّيءَ بالفِعْلِ الحَسنِ، ويَدفَعَ الْقَوْلَ السّيّئَ بالْقَوْلِ الْحَسَن.

فَقَالَ اللهُ تَعالَىٰ يُوصِي حَامِلَ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ وكُلَّ مُؤْمِنٍ مسلم:

• ﴿. . ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . .﴾، أي: ادْفَعْ مَنْ يُرِيدُ مُقَاوَمَةَ دَعْوَتِكَ بما يَضُرُّكَ أَوْ يُؤْذِيكَ وَيُقْبِلُ عَلَيْكَ بِشَرٍّ، بالْخَصْلَةِ التي هي أَحْسَنُ، مِنْ خُلُقٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فتوقيف حَرَكَاتِه بالخصلَة الأَحْسَنِ جعَلَهُ اللهُ مِنَ الدَّفعِ.

وأبانَ اللهُ عزّ وجلّ أَنَّ الدَّفْعَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، قَدْ يُفَاجِيءُ الدَّاعِي بِتَحوُّلِ الْعَدُوّ إلىٰ شبيهٍ بوليٍّ نَصِيرٍ، وصَدِيق حميم، فقال تَعالَىٰ:

• ﴿.. فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

الْوَلِيّ: النّصِيرُ الْمُعِينُ، والصَّدِيقُ الملازم.

الْحَمِيم: الْقَرِيبُ الّذِي تَوَدُّه وَيَوَدُّك.

البيانُ في هـٰذِهِ العِبارَةِ اخْتِيرَتْ فِيهِ الصُّورَةُ الأَشَدُّ مِنْ تَأْثِيرِ الدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِذْ قَدْ يَصِلُ إِلَىٰ تَحْوِيلِ الْعَدُوِّ إِلَىٰ شَبِيهٍ بالْوَلِيِّ الْحَمِيم، فَأَغْنَىٰ ذِكْرُهَا عَنْ ذِكْرِ مَا دُونها مِنَ الصُّور.

والسَّبَبُ في هـٰذا التحوُّلِ أَنَّ الْبَادِئَ بالإِسَاءَةِ إذَا قُوبِلَ بالإِحْسَانِ يَشْعُرُ بِحقَارَةِ نَفْسِهِ خُلُقِياً وسُلُوكِياً تُجَاهَ مَنْ قَابَلَ إسَاءَتَهُ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَيُحَاوِلُ تَغْطِيَةَ عَمَلِهِ السَّابِقِ لِيُحَسِّنَ صُورَةَ سُلُوكِهِ أَمَامَ نَفْسِهِ، وَأَمَامَ حَامِلِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ، بأَعْمَالٍ فيها مُبالَغَةٌ فِي التَّحْسِين، حتَّىٰ كأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، لَا يَحْمِلُ عداوةً ولَا كَرَاهِيَةً، بَلْ يَحْملُ وُدّاً وَوَلَاءً.

ولَمَّا كَانَ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْخِصَالِ الْفَاضِلَةِ ذَاتِ الامْتِياز الرَّفيع، والّتي لَا يَتَّصِفُ بِهَا إلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ مِنْ فَضَائِلِ الأَخْلَاق، قَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

• ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

• ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾: أي: وَمَا يُمْنَحُ تَلَقِّياً هـٰذِهِ الْخَصْلَةَ الْحَمِيدَةَ إلَّا الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِخُلُقِ الصَّبْرِ، وَإِلَّا الَّذِينَ لَهُمْ حَظٌّ عَظِيمٌ مِن الإيمانِ وابْتِغَاءِ رِضْوَانِ الرَّحِيم الرَّحْمنِ.

يُقَالُ لُغَةً: «تَلَقَّىٰ فُلَانٌ الشَّيْءَ مِنْ فُلَانٍ» أي: أَخَذَهُ مِنْهُ.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِعِبَارَةِ: ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالبِنَاءِ لَمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ للدَّلَالَةِ ضِمْناً علَىٰ أَنَّ هـٰذِهِ الْخَصْلَةَ الْعَظِيمَةَ تَأْتِي مِنْحَةً مِنَ اللهِ لِبَعْضِ عِبادِه، إِذا كَانُوا في حَيَوَاتِهِمْ مِنَ الصَّابِرِينَ، وَكَانَ لَهُمْ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنَ الإيمان، وابْتِغَاءِ رَضْوانِ وثَوَابِ الرَّحْمنِ الْوَهَّابِ المنَّانِ.

الْحَظُّ: النَّصِيبُ مِنَ الْخَيْر، سَوَاءٌ أكانَ من المادِّيَّاتِ أمْ من المعنويَّات.

وفي هٰذا البيانِ ثَنَاءٌ يُشْعِرُ بأنَّ مَنْ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بالّتي هِيَ أحْسَنُ، لَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

ولمَّا كانَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلأَذَىٰ وَلِمَا يَكْرَهُ مِنَ الّذِينَ يَدْعُوهُمْ إلىٰ الله، يُحَاوِلُ الشَّيْطَانُ أنْ يَنْزَغَ نَزَغَاتِهِ فِي صَدْرِه، لِتَحْرِيضِهِ عَلَىٰ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بِمَا هُو أشَدُّ مِنْها، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ تَعْلِيمُهُ أَنْ يُعَالِجَ نَزْغَ الشَّيْطَانِ بالاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيم، فَقَالَ اللهُ لَهُ:

- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾: **[إمَّا]** هي «إنْ» الشرطيَّة و«ما» زائدة لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه.

نَزْغُ الشَّيْطَان: وَسَاوِسُهُ وَتَسْوِيلاتُهُ الَّتِي يَحْمِلُ الإنسانَ بِها علىٰ ارتكَاب المعاصي والْمُخَالَفَات.

وأصْلُ النزغ في الحسّيّات النَّخْسُ والْغَرْزُ بإبْرَةٍ ونحوها، للإثَارَةِ والدَّفعِ لأَمْرٍ ما.

والنَّزْغُ: الكلام الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الإغْرَاءُ والإفسادُ بَيْنَ النَّاس.

فإذَا أحَسَّ المؤمنُ بنَزْغ الشَّيْطَانِ فَلْيَقُل: أعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم.

والوصِيَّةُ بالاسْتِعَاذَةِ باللهِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَان، قَدْ جَاءَتْ في الآية (٢٠٠) من سُورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول)، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

وَالْفَارِقُ بَيْنَ آيَتِي (الأعراف) و(فُصِّلَت) أَنَّ آيَةَ (الأَعْرَاف) جاء فيها: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَهُوَ تَعْبِيرٌ لَا قَصْرَ فيه. أمَّا آيَةُ (فُصِّلَت) فقد جاءَ

فيها: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وَقَدْ دَلَّ الْقَصْرُ فيها بِتَعْرِيف طَرَفِي الإسْنَادِ مَعَ ضَمِيرِ الفَصْل، عَلَىٰ أَنَّهُ لا يُوجَدُ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، وَلَا عَلِيمٌ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً إِلَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وبَلَغَتْ غَايَةَ العظَمَةِ صِفَاتُهُ.

فَعَلَىٰ المؤمِنِ الْمُسْلِم أَنْ يَسْتَعِيذ باللهِ السّمِيعِ الْعَلِيم مِنْ نَزْغِ الشيطان، كُلَّمَا خَطَرَتْ عَلَىٰ ذِهْنِهِ خَاطِراتٌ تَدْعُوهُ إلىٰ مَزَالِقَ تُزْلِقُهُ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ، أَوْ إِلَىٰ مُجافَاةِ مَا يُحِبُّ اللهُ مِنْه.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نُزُول) وَصِيَّةُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِسَائِرِ المؤمنين المسْلِمِينَ، بأَنْ يَدْفَعَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وبأَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين، فقال تَعَالَىٰ فيها:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

فَمِنَ الْخَيْرِ الاسْتِعَاذَةُ بالله وَفْقَ هٰذِهِ الْعِبارَةِ القرآنِيَّة، ومِنَ الخير أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صِيغَةِ الاسْتِعَاذَةِ السَّابِقة.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ السَّادسِ من دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وَتَوْفيقِهِ ومِنَّتِهِ وَفَتْحِهِ.

(١١)
التدبر التحليلي للدّرس السابع من دروس سورة (فُصّلت) الآيات من (٣٧ ـ ٣٩)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ

ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

القراءات:

(٣٧) • وقف يعقوب بهاء السّكت علىٰ: ﴿**خَلَقَهُنَّ**﴾.

(٣٨) • وقف حمزة بنقل حركة الهمزة إلىٰ السّين في: ﴿**لَا يَسْأَمُونَ**﴾.

(٣٩) • قَرأَ أَبُو جَعْفر: [**وربأَتْ**] يُقَال لُغَةً: «رَبأَتِ الأَرْض» أي: زَكَتْ وارْتَفَعَتْ زُرُوعُها.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: ﴿**وَرَبَتْ**﴾ مِنْ فِعْلِ «رَبا الشيءُ يَرْبُو» بمعنىٰ: نَمَا وَزَاد.

فَمُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ وَاحد.

تمهيد:

في آيَات هٰذا الدّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، المستَلْزِمَةِ وَحْدَانِيَّتَهُ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ، معَ الدَّعْوَةِ إِلىٰ السُّجُودِ للهِ وَحْدَهُ، والنَّهْيِ عَنِ السُّجُودِ للشَّمْسِ والْقَمَر لأَنَّهُما خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ.

وفيها عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علىٰ قُدْرَتِهِ عزّ وجلّ علىٰ إحياء الموْتَىٰ، الْمُمَاثِلِ لإحْيَاءِ الأَرْضِ بالنَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتها.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

تكرَّرَ في القرآنِ المجيد التَّنْبيهُ عَلَىٰ آيَتي اللَّيْلِ والنَّهارِ من آيَاتِ اللهِ في كوْنِهِ، وعَلَىٰ آيَتي الشَّمْسِ والْقَمَرِ مِنْ آيَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ، لِمَا فِي هـٰذِهِ الآيَاتِ مِنْ دَلَالَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ الكُبْرَىٰ وعِلْمِهِ المحيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، ومِنَّتِهِ عَلَىٰ عِبَادِه في الأَرْض، وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ لَدَىٰ تَدَبُّر الآيَاتِ القرآنِيَّةِ الَّتِي جاءَ فيها ذِكْرُ هـٰذِهِ الآيَاتِ الكَوْنِية، شَرْحُ وَتَفْصِيلُ مَا يَتعَلَّقُ بِهَا بِمِقْدَارِ مَا فَتَحَ اللهُ.

وقَدْ جَاءَ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَىٰ هـٰذِهِ الآيَاتِ، تَوْطِئَةً لِلنَّهْي عن السُّجُودِ لِلشَّمْسِ والْقَمَر، اللَّذَيْنِ يَرْتَبِطُ بِهِمَا اللَّيْلُ والنَّهارُ في الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّةِ الْخَاصَّةِ بالأَرْضِ وَسُكَّانِها.

وَلَمَّا كَانَ فِي النَّاسِ مَنْ يَسْجُدُ للشَّمْسِ أو الْقَمَر عِبَادَةً لَهُمَا، كَصَابِئَةِ الْعِرَاقِ، ويَمنِيّي سَبَأ في عَهْدِ بِلْقِيسَ وَقَبْلَهُ، وَرُبَّما اسْتَمَرَّ لَهُمْ وُجودٌ بَعْدَها، وكَانَتْ رِسَالَةُ الإسْلَام للنَّاسِ عَامَّةً، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ اشْتِمَالُ القرآنِ المَجِيدِ عَلَىٰ بَيانٍ يَتعَلَّقُ بالنَّهْي عَنِ عِبادَةِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ، وَمِنْ مَظَاهِرِهَا لَدَىٰ عُبَّادِهِمَا السُّجُودُ لَهُما، وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ بَيَانُ أَنَّهُمَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ، وكذلِكَ اللَّيْلُ والنَّهار.

● ﴿.. إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ تُفْرِدُونَ اللهَ بِعِبَادَتِه، وَلَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، بِمَعْنَىٰ: إنْ كُنْتُم تُرِيدُونَ نَجاة أَنْفُسِكُمْ مِنْ العذابِ عَلَىٰ الشِّرْكِ.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَقْدِيم المفْعُول بِهِ ﴿إِيَّاهُ﴾ علىٰ الْفِعْلِ الْعَامِلِ فِيهِ ﴿تَعْبُدُونَ﴾. والْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلَّذِينَ يَسْجُدونَ للشَّمْسِ أَوِ الْقَمَر، سَوَاءٌ أَكَانَ لَهُمْ وُجُودٌ في بَعْضِ قَبَائِلِ الْعَرَب أَوْ أفرادٍ مِنْهُمْ، أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْعَرَب، إذْ كَانَ لَهُمْ وُجُودٌ حَتْماً في أُمَمٍ أُخْرَىٰ كَصَابِئَةِ الْعِرَاق، وَمَنْ يُتَابِعُهُمْ عَلَىٰ مَذْهَبِهم الشِّرْكِيّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُلْتَفِتاً عَنْ خِطَابِهِمْ وَمُتَحَدِّثاً عَنْهُمْ بالْغَيْبَةِ:

• ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: فإن اسْتَكْبَرَ عُبَّادُ الشَّمْسِ والْقَمَر، فَلَمْ يَسْتَجيبُوا للدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، بِنَبْذِ السُّجُودِ للشَّمْسِ والْقَمَرِ، وبِالْتِزَام السُّجُودِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُمْ لَا يُغَيِّرُون بِسُلُوكِهِم الْكُفْرِيّ شَيْئاً مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ عزّ وجلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَإِنَّهُمْ بِسُلُوكِهِمْ الكُفْرِيِّ هـٰذا يَكُونُونَ شَاذِّينَ بِعِنَادٍ، وَخَارِجِينَ عَنْ صُفُوفِ مِلْيَارَاتٍ مَالِئَاتٍ لِلسَّمَاواتِ الْعُظْمَىٰ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ المطَهَّرِينَ مِنَ المعاصي والآثام وَخَبَائِثِ النُّفُوسِ، وَهُمْ جَمِيعاً يُسَبِّحُونَ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ باللَّيْلِ والنَّهَارِ، ويَسْجُدُونَ لَهُ وَيَرْكَعُونَ، لَا يَسْأَمُونَ، أي: لَا يَمَلُّونَ وَلَا تَضِيقُ نُفُوسُهُمْ مِنْ تَوَالِي العِبَادة وَطُولِ مُدَّتها. وجَاءَ فِي بَيَانٍ آخَرَ أَنَّهُمْ لَا يَفْتُرُونَ، بَلْ عِبَادَتُهُمْ مُتَواصِلَةٌ كأَنْفَاسِ النَّاسِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ حَيواتِهِم.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً مِنْ آيَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ آيَةَ إِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنَّ هـٰذا الإِحْيَاءَ يُشْبِهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ، وَأَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير:

• ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

الْخُشوعُ: هو في اللُّغَةِ الْخُضُوعُ، والسُّكُونُ، وقَدْ يَدُلُّ عَلَىٰ الخوفِ في الأَحْيَاء، أَمَّا إِطْلَاقُ الْخُشوعِ علىٰ الأَرْضِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيها، فالْمُرَادُ بِهِ تَشْبيهُهَا بالْخَاضِعِ الذَّلِيلِ الَّذي سَاوَىٰ جَسَدَهُ بالأَرْضِ، كَالْمَيِّتِ المنْبَسِطِ الَّذِي لَا حَرَكَةَ لَه، والخطابُ مُوَجَّهٌ لِكُلِّ فَرْدٍ صَالِحٍ للخطاب.

• ﴿.. فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ..﴾:

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم بَعْدَ الْحَدِيث بِضَمِيرِ الْغَيْبَة. فإذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْها (أي عَلَىٰ الأَرْضِ الْخَاشِعَةِ) الماءَ مِنَ السَّمَاءِ، تَفَجَّرَتِ الْبُزُورُ والْجُذُورُ فيها، فَنَبَتَتْ نَبَاتَاتُهَا مِنْ جَدِيدٍ وارْتَفَعَتْ فَوْقَ سَطْحِ الأَرْضِ، واهْتَزَّتْ هـٰذِهِ النَّبَاتَاتُ بالرِّياحِ الَّتِي تُحرِّكُها، وَرَبَتْ (أَيْ: نَمَتْ وَارْتَفَعَتْ خَضِرَةً نَضِرَةً ذَاتَ حَيَاة).

• ﴿.. إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: إنَّ الَّذِي أحيَا الأَرْضَ الْخَاشِعَةَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ فِيها نَبَاتٌ، لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ مِنَ الأَحْيَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَفَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ، بإِنْزَالِ مَطَرٍ خَاصٍّ تَتَفَجَّرُ نَوَيَاتُ أَجْسَادِهِمُ المحْفُوظَةِ في عَجْبِ ذَنَبِ كُلِّ مَنْ كَانَ ذَا حَيَاةٍ مِنَ النَّاسِ وأَشْبَاهِهِمْ من الأَحْيَاءِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ النَّبَاتَاتُ مِنْ نَوَيَاتِ بُزُورِها، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَيأْمُرُ اللهُ عزّ وجلّ كُلّ رُوح أَنْ تَدْخُلَ فِي الْجَسَدِ الَّذِي نَمَا عَلَىٰ مِثْلِ صُورَتِهِ السَّابِقَةِ، وَبِهـٰذا يَكُونُ الْبَعْثُ إِلَىٰ الحياةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ هـٰذا في بَيَانَاتٍ نَبوِيَّةٍ صَحِيحَة، تَفْصِيلاً لِمَا جَاءَ في القرآن المجيدِ مُجْملاً.

وقَدْ تَكَرَّرَ في القرآنِ تَشبيهُ خُرُوجِ أَجْسَادِ المَوْتَىٰ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القيامَةِ، بخُرُوج النَّبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِهَا فيمَا يُشَاهِدُ النَّاسُ دواماً، لِلإشْعَارِ بأَنَّ الْبَعْثَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ مُشَابِهٌ لإحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها، مَعَ بَيَانِ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاءُ خَلْقَهُ مِن الممْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ قَدِير.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السّابع من دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وتَوْفِيقه ومِنَّتِهِ وفَتْحِه.

(١٢)
التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثامن من دُروس سورة (فُصّلت) الآيات من (٤٠ ـ ٤٥)

قَال اللهُ عزَّ وجَلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (٤١) لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ (٤٣) وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ (٤٤) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (٤٥)﴾.

القراءات:

(٤٠) ● قرأ حمزة: [يَلْحَدُون] مِنْ فعل «لَحَدَ» بمعنىٰ مَالَ عن القصد.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ مِنْ فِعْلِ: «أَلْحَدَ» بمَعْنىٰ عَدَلَ عَنِ الحقّ، وأدخَلَ فيه ما ليس مِنْه.

فمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

(٤٠) ● قرأ السُّوسِي، وأبُو جَعْفَر: [شِيتُمْ] بإبْدَال الهْمزَة ياء.

وقرأها كذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿شِئْتُمْ﴾ بالهمزة.

(٤٤) • قرأ ابْنُ كثير: [قُرانًا]. وكذلِكَ حَمْزَةُ في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿قُرْآنًا﴾.
وكِلَا القراءتَيْنِ مِنَ النُّطْقِ الْعَرَبي.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْس مُعَالَجةٌ بالإنْذار للّذين يُلْحِدُونَ في آيَاتِ اللهِ مَائِلين عن الحقّ فيها، ولِلّذينَ كَفَرُوا بالقرآن، وفيها تَسْلِيَةٌ للرَّسُول ﷺ، ودفْعٌ لِبَعْضِ أقوال الكافِرين بشَأْنِ القرآن، وتَعْلِيمٌ للرَّسُول ﷺ ما يَقُولُهُ لهم.

التدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشأنِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ في آيَاتِهِ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ..﴾ وفي قراءة حمزة: [يَلْحَدُونَ]. أي: إنَّ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ عَنِ الْحَقِّ في تَفْسِيرِ آيَاتِنَا الكونيَّة، والتّرْبَوِيَّة، والجزائية، والإعجازيَّة، وآيَاتِنَا المنزَّلاتِ عَلَىٰ رُسُلِنا، مَعْلُومُونَ لَنَا عِلْماً تامّاً ظَاهِراً وَبَاطِناً، جسَداً وَنَفْساً، وخَواطِرَ ونِيَّات، فَهُمْ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا، وهُمْ يُعرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ لِعُقُوبَاتِنَا بالْعَدْلِ عَلَىٰ كُفْرِهم، وتَلَاعُبِهِمْ فِي تَفْسِيرِ الآيَات، ففي عبارة ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ عِقَابِ اللهِ لهم.

وَمِنَ الإلْحَادِ فِي آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة، والتَّرْبَوِيَّة، وَالجَزائِيَّة، تَفْسِيرها بِأَنَّها ظَوَاهِرُ طَبِيعيَّةٌ لِحَرَكَاتٍ ذَاتِيَّةٍ فِي عَنَاصِرِ الْكَوْن.

ومِنَ الإلْحَادِ فِي آيَاتِ اللهِ الإعْجَازِيَّة تَفْسِيرُهَا بأنَّها نَوْعٌ مِنْ أنواعِ السِّحْر، كإلْحادِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بالنِّسْبَةِ إلى آيَاتِ اللهِ الَّتي أجْرَاهَا لِرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن الإلْحادِ في آيات اللهِ البيانيَّةِ المنزَّلاتِ تَحْرِيفُها وَتَأْوِيلُها تَأْويلاتٍ بَاطِلَاتٍ عَلَىٰ غَيْرِ المرادِ بها، كتَتَبُّع الْمُتَشَابِهَاتِ والتَّلاعُبِ في دَلَالَاتِها، وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ هؤُلاءِ الْمُحَرِّفين بقولِهِ تعالَىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً لرسُولِه ﷺ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ... ﴿٧﴾﴾.

وقَدْ كَانَ للقَرامِطَةِ الْبَاطِنِيّينَ الْمُوَجَّهِينَ مِنْ قِبَلِ أَخبَاث الْيَهودِ تَلاعُبَاتٌ كثيراتٌ شنيعَاتٌ في آيَاتِ اللهِ البيانِيَّةِ، وتَحْرِيفَاتٌ عَنْ دَلَالَاتِها الحقّ.

وظَهَر في عَصْرِنَا الْحَاضِرِ مُتَلاعِبُونَ كَثِيرُونَ مُوَجَّهُونَ مِنْ قبل أَعْدَاءِ الإسْلام «الْيَهُودِ، والنصارىٰ، والملاحِدَة، وغَيْرِهم» يَكْتُبُونَ مُؤَلّفَاتٍ مَشْحُونَةً بِأَرْجَاسِ تَأْوِيلَاتِهِمْ الباطلاتِ لآيَاتِ كِتَابِ اللهِ الْقُرآن، ابْتِغَاءَ فِتْنَةِ النَّاس عَنْ دِينِ اللهِ الحقّ.

● ﴿.. أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ..﴾؟:

الاستِفْهَامُ فِي هـٰذِهِ العبارَةِ فِيهِ إِشْعَارٌ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ وهُوَ يَدْخُلُ فِي التَّعْرِيض، بأَنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللهِ سَوْفَ يُلْقَوْنَ يَوْمَ الدِّينِ فِي النَّارِ، بِخِلَافِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْحَقِّ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ دَالَّةٍ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُون سُعَداء أبداً فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

● ﴿.. ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

الخطابُ فِي هـٰذِهِ العِبارَةِ مُوَجَّهٌ لِلَّذِينَ يُلْحِدُونَ في آيَاتِ اللهِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ فِرَقِهِمْ وَزُمَرِهِمْ، وفِيه إِنْذَارٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ بإِلْحَادِهِمْ في آيَاتِ اللهِ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ إِيَّاه في دَارِ الْعَذَاب النَّار.

فالأمْرُ في عِبَارَةِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ أَمْرُ تَهْدِيدٍ وَوَعِيد.

والْخَبَرُ في عِبَارَةِ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خَبَرٌ فِيهِ كِنَايَةٌ عَنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ بعَذَابٍ شَدِيدٍ، بِسَبَبِ إلْحَادِهِمْ في آيَاتِه، كُفْراً بِهَا وَابْتِغَاءَ فِتْنَةِ النَّاسِ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بِتَحْرِيفاتِهِمْ وَتأْوِيلاتِهِمُ الباطِلَاتِ الْفَاسِدَاتِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقُرْآنِ لَمَّا جَاءَهُمْ بَلَاغاً عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾: أيْ: بالْقُرآنِ، سَمَّاهُ اللهُ عزّ وجلّ ذِكْراً، للإشْعَارِ بأنَّ المطْلُوبَ أنْ يَتَلَقَّاهُ الموضُوعُونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَأَنْ يَتَدَبَّروهُ، وأَنْ يَخْتَزنُوا مَعَانِيَهُ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وأَنْ يَذْكُرُوا مِنْها عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بها، وَلِيَعْمَلُوا بِمَا يُوجِبُ القرآنُ الْعَمَلَ به، ويَعْتَقِدُوا مَا يُوجِبُ اعْتِقَادَهُ، ويَهْتَدُوا بما دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ هِدَايَة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ أي: وَإِنَّهُ لَمَطْلُوبٌ مِنَ المؤمنين الْمُسْلِمينَ أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَاب مَحْفُوظٍ، مَحْمِيٍّ مِنَ التحريفِ، والتَّبْدِيل، والزِّيَادَة، والنَّقْص.

﴿عَزِيزٞ﴾ أي: قَوِيٌّ غَالِبٌ بِبَيَانِهِ وحُجَجِهِ وبَرَاهِينِهِ، وكَرِيمٌ ذُو كَرَامَةٍ عُظْمَىٰ لِمَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ وهِدَايَةٍ عَظِيمَة.

فالعزيزُ في اللُّغَةِ الْقَوِيُّ الْغَالِب. وذُو الكَرامَةِ الَّذِي يُمَجَّدُ بها.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ ..﴾: أي: لَا يَأْتِيهِ مَا يُبْطِلُ شَيْئاً فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ سَابِقَةٍ لِتَنْزِيلِهِ، ولَا مِنْ حَقَائِقَ مُكْتَشَفَةٍ أَوْ كائِنَةٍ بَعْدَ تَنْزِيلِهِ، فَشَمَلَ هٰذا التعبيرُ الأزمَانَ كُلّها، وتَدْخُلُ لحظَةُ التَّنْزِيلِ في عُمُوم مَا قَبْلَهَا أَوْ عُمُوم مَا بَعْدَها عُرْفاً، وهو أيضاً محفوظٌ بِحِفظِ اللهِ من التغيير والتَّبديل والزيادة والنقص، فهٰذا من الباطل.

• ﴿.. تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ومِنْ صِفَاتِ القرآن أنَّهُ كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمُنَزَّلٌ علىٰ الرَّسُول ﷺ مِنْ لَدُنْهُ.

ولمَّا كَانَ اللهُ عزّ وجلّ حَكيماً كَانَ كَلَامُهُ المنزَّلُ مِنْ لَدُنْهُ حَكيماً، فالْقُرآنُ من صِفَاتِهِ أَنَّهُ حَكِيمٌ.

الحكيم: هو الّذي يضَعُ الأَشْيَاءَ في مَوَاضِعِها، ويخْتَارُ أَفْضَلَ الأشياءِ وأتْقَنَها وأحْسَنَهَا في الأُمُور المختلفة، لِمَا يُعْطِي أحْسَنَ النَّتَائِجِ وَأفْضَلَها.

ولمَّا كَانَ اللهُ عزّ وجلّ حَمِيداً، أيْ: مَحْمُوداً لَهُ كُلُّ الْحَمْدِ، كَانَ كَلَامُهُ المنزَّلُ مِنْ لَدُنْهُ حَمِيداً أَيْضاً، إذْ لَا يُنَزِّلُ الْحَمِيدُ في كُلِّ صِفَاتِهِ إلَّا كلاماً حَمِيداً.

المعْنَىٰ: إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالْقرآنِ الّذِي يَجِبُ علىٰ مُتَبَلِّغِيهِ أنْ يَجْعَلُوهُ ذِكْراً لَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَة، حِينما جَاءَهُمْ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، والْحَالُ أنَّهُ لَكِتَابٌ رَبَّانِيٌّ قَوِيٌّ غَالِبٌ بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، وذُو كَرَامَةٍ عظيمة، وَلا يَأْتِيهِ مَا يُبْطِلُ شيئاً فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ سَابِقَةٍ لِتَنْزِيله، وَلَا مِنْ حَقَائِقَ أخرىٰ مُكْتَشَفَةٍ أَوْ كَائِنَةٍ بَعْدَ تَنْزِيلِهِ، وَهُوَ حَكِيمٌ وَمَحْمُودٌ بِكُلِّ صِفَاتِهِ، لَهُمْ عَذَابٌ في نَارِ جَهَنَّمَ كَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ بإلْحَادِهِمْ فِي آيَاتِ رَبِّهم، الذين جَاء في الآية (٤٠) الحديثُ عنهم.

لَمْ يُذْكَرْ في الآيتينِ (٤١) و(٤٢) خَبَرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بَلْ جَاءَ مَطْوِيّاً اكْتِفَاءً بِمَا جَاءَ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بإلْحَادِهِمْ في آيَاتِ الله، نظراً إِلَىٰ أَنَّ الْكَافِرِينَ سَوَاءٌ في الْحُكْم عَلَيْهِمْ في عَذَاب النَّارِ، وَإنِ اخْتَلَفَتْ دَرَكَاتُهُمْ فِيها بِحَسَبِ جرائِمِ كُلٍّ مِنْهم.

ويُدْرَكُ هـٰذا المطْوِيُّ بالْقَرِينَةِ أوْ بالْقِيَاس، أو بدُخُولِ الجميع تَحْتَ عُمُومِ الْكَافِرِينَ، مَعَ اقْتِرَانِ الْفَرِيقَيْنِ في دَرْسٍ واحد، وهـٰذا مِنْ أَسَالِيبِ القرآنِ الإيجازِيَّة البديعة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرسُولِهِ ﷺ:

● ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

الأعجميُّ: المتكلِّم الّذي لَا يتكلَّمُ بالْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَىٰ، واللِّسَانُ المخالِفُ لِلْعَرَبِيَّة الفُصْحَىٰ، والكِتَابُ المكتُوبُ بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ الفصحىٰ.

يقال لغة: فُلَانٌ أَعْجَميٌّ، ولِسَانٌ أعْجَمِيٌّ، وَكِتَابٌ أَعْجَميٌّ.

جاء في أوَّلِ السُّورَةِ بَيَانُ أَنَّ القرآنَ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عَرَبيّاً لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الرَّغْبَةُ في أَنْ يَعْلَمُوا، وأَنَّهُ بَشِيرٌ لِمَنْ يُؤْمِنُ وَنَذِيرٌ لِمَنْ يَكْفُرُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ مُتَبَلِّغِيهِ من مُشْركي مَكَّةَ، وَصَرفوا أَسْمَاعَهُمْ عَنْهُ، وقَالُوا للرَّسُولِ ﷺ: قُلُوبُنَا في أكِنَّةٍ، فَهِيَ مَحْجُوبَةٌ بأَغْطِيَةٍ وسُتُورٍ وحُجُبٍ لَا يَصِلُ إلَيْها مَا تَدْعُونَا إليه. وفي آذَانِنَا وقْرٌ (أي: صَمَمٌ أوْ شِبِيهٌ بالصَّمَم)، فهي لَا تَسْمَعُ الآيَاتِ الَّتِي تَقُولُ: إنَّها مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ يُنَزَّلُ عَلَيْك. وتُوجَدُ في المَسَافَةِ المكانِيَّةِ بَيْنَنَا وبَيْنَكَ حِجابٌ، فَنَحْنُ لَا نَراكَ اسْتِهَانَةً بِكَ، فَكَأَنَّكَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي بَلَدِنا وَلَا فِي بيئَتِنا.

وَجاء في الآية (٢٦) من السُّورَة بَيَانُ وَصِيَّةِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة لأَوْلِيَائِهِمْ قَائِلِينَ لَهُمْ: ﴿..لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وجَاءَ في نُجُوم التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ لِنُزُول سورة (فُصِّلَتْ/ ٦١ نزول) بَيَانُ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا بِشَأْنِ الْقُرْآنِ إِنَّهُ سِحْر، وإِنَّهُ مِنْ قَبِيل الشعر، وقَالُوا: إِنَّ مُحمَّداً ـ ﷺ ـ يَفْتَريهِ عَلَىٰ رَبِّهِ، ويُعِينُه علىٰ تَأْلِيفِهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، وَيَنْقُلُهُ مِنْ أَسَاطِيرِ الأَوَّلين.

وَجَاءَ في هـٰذا الدَّرْسِ الثامِنِ بَيَانٌ عَنْ مَجْدِ القرآن، وأَنَّهُ غَالِبٌ

بِحُجَجِهِ وبَراهِينِهِ، وأنَّهُ لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وأنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَمِيد.

فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنَّ مَوْقِفَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ مِنْ قَوْمِهِ، مُمَاثِلٌ لِمَوْقِفِ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ تُجَاهَ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلام، وتُجَاهَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلام، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، وتَشَابَهَ كُفْرُهم، وتَشَابَهَتْ أقوالُهُمْ، فَقَالَ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ... ﴿٤٣﴾﴾:

في هـٰذَا الْبَيَانِ يُهَوِّنُ اللهُ عزّ وجلّ عَلَىٰ رسُولِهِ ﷺ، مِنْ وَقْعِ أقوالِ الّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ، بِشَأْنِ القرآنِ، وبِشَأْنِ تَكْذِيبِهِ واتِّهَامِهِ بالافْتِرَاءِ عَلَىٰ رَبِّه، بِأَنَّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ قَدْ قَالُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ لَهُمْ مِثْلَ مَا يُقَالُ لَكَ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِكَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا يَقُولُهُ الْكَافِرُون، وَلَا تَكْتَرِثْ لَهُ، وَلَا تُبَالِ به.

وَأَطْمَعَ اللهُ عزّ وجلَّ الّذِينَ يَتُوبُونَ وَيُؤْمِنُونَ بالمغْفِرَة، وأَنْذَرَ الّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم بِعِقَابٍ أَلِيم، فَقَالَ تَعالَىٰ فِي الشَّطْرِ الثاني مِنَ الآيَةِ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿... إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: مَا زَالَ بَعْضُ قَوْمِكَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ الْيَأْسِ مِنْ تَوْبَتِهِمْ وإِيمَانِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِهؤُلَاءِ، فَلَيْسَ مِن الْحِكْمَةِ تَعْجِيلُ الْعِقَابِ الشَّامِلِ لهم جَميعاً.

لوحظ في توكيد الجملة بـ(إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسميّة ـ واللّام المزَحْلَقَة) حَالُ الّذِين لَمْ يَصِلوا إلىٰ دَرَكَةِ الميؤُوسِ مِنْ إيمانهم، إطْمَاعاً لَهُمْ بأَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا.

وَأَمَّا الميؤوسُ مِنْ تَوْبَتِهِمْ، فَلَهُمْ عِقَابٌ أَلِيمٌ سَيَأْتِيهم لَا مَحالَة. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو عِقَابٍ أليمٍ، أَيْ: شَدِيدِ الإِيلَامِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّه مِنْ عِبَادِه.

وَمُتَابَعَةً لِمَا جَاءَ في صَدْرِ السُّورَةِ مِنْ أَنَّ هـٰذا الْبَيانَ الرَّبَّانِيَّ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، جَاءَ في الآية (٤٤) بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ فِي إِنْزَالِهِ عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ عَرَبٍ أَقْحَاحٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدادُ لِتَلَقِّيهِ وَفَهْمِ كَثِيرٍ مِنْ دَلَالَاتِ آيَاته، وَحَمْلِهِ وَتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ مِنْ غَيْرِ الْعَرَب، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ . . .﴾؟:

أي: لَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ عَرَبٍ أَقْحَاحٍ، فَمَنَحْنَاهُمْ بهـٰذا الإِنْزَالِ شَرَفَ هـٰذا الذِّكْرِ الْعَظِيم المنَزَّلِ بِلُغَتِهِمْ، فَقَابَلُوا هـٰذِهِ الْمِنَّةَ الْعَظِيمَةَ بِالْجُحُودِ والكُفْرَانِ، وبالأَقْوَالِ الْبَاطِلَةَ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ، فَمَاذَا كَانُوا يَقُولُونَ لَوْ جَعَلْنَاهُ كِتَاباً أعْجَمِيّاً يُقْرأُ بِلِسَانٍ مَا غير اللِّسَانِ الْعَرَبي، إِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: هَلَّا أنزِلَ كِتَاباً عَرَبياً مُفَصَّلَ الآيَاتِ، واضِحَ الدَّلَالَاتَ، وكَانُوا يَقُولُونَ أيضاً: أَكِتَابٌ أعْجَمِيٌّ وَمُبَلَّغٌ بِهِ عَرَبِيٌّ لَا يَعْرِفُ اللُّغَةَ الَّتِي يُخَاطَبُ بها؟!!. إنَّ هـٰذا مُنَافٍ لِلْحِكْمَة.

إِنَّهُ أُنْزلَ بِلُغَةِ الْعَرَب، وهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِبَلَاغَتِهِ وأفَانِينِ إعجازِهِ الْبَيَانِيِّ، فَقَالَ الْكَافِرُونَ بِهِ من الْعَرَب الأَقْحَاحِ: هُو سِحْرٌ، هُوَ شِعْرٌ، هُوَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين، هُوَ كِتَابٌ مُفْتَرَىٰ علَىٰ اللهِ، من صُنْعِ الْبَشَرِ.

كَيْفَ يُرِيدُون أَنْ يُنْزِلَ اللهُ لَهُمْ كِتَاباً، وهُمْ لَا يَقْبَلُونَهُ أَعْجَمِيّاً، ولَمْ يَقْبَلُوهُ عَرَبِيّاً؟؟.

هـٰذا الْبَيَانُ يَدْمَغُهُمْ بالْجُحُودِ، والكُفْرَانِ، والْعِنَادِ، والْتِزامِ الباطِلِ والإِصرار عَلَيْهِ.

فعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لهم:

● ﴿... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أَيْ: قُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ عَنِ القرآن أقوالَكُمُ الْبَاطِلَةَ، فَتَقُولُونَ: هو سحر، هو شِعْر، هو مُفْتَرىً علىٰ الله، هُو أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، ونحو ذلِكَ؛ لأَنَّكُمْ لَمْ تُؤْمِنُوا بأَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَنْزَلَهُ لِهِدَايَةِ النَّاسِ وشِفَاءِ مَا في صُدورِهِمْ مِنْ باطِلٍ وضَلَالٍ عَنِ الحقّ، ورَغَبَاتِ إثْم وعِصْيَانٍ، وَظُلْم وعُدْوان، وَمَا في صُدُورِهِمْ مِنْ كِبْرٍ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، وتَعَلُّقٍ بزينات الحياة الدُّنيا، وحُبٍّ لِلْعَاجِلَةِ الحقيرة، وتَرْكٍ للآخِرَةِ الباقية ذَاتِ الخير العظيم.

القرآنُ: هو لِلّذِينَ آمَنُوا به هُدىً كُلُّهُ، يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ سَعَادَتِهِم الأَبَدِيَّةِ عقيدةً وَخُلُقاً وَسُلُوكاً. وهو لَهُمْ شِفَاءٌ يَشْفِي ما في صُدُورهم مِنْ دَاءٍ، وهـٰذا الشِّفَاءُ يُحَقِّقُ لَهُمْ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّةَ، مَعَ مَا يَنالُونَ من طِيبِ عَيْشٍ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

والقرآن: هُو لِلّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ آذَانِهِمْ كَانَ بمَثَابَةِ الصَّمَمِ فيها؛ لأَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ لَدَىٰ قُلُوبِهِمْ أَنْ يَنْفُذَ إِلَيْها.

إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ يَحْجُبُهَا عَنِ الاسْتِمَاعِ لِلْقُرْآن، فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ القرآنَ إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ آذَانِكُمْ كَانَ هو بمَثَابَةِ الْوَقْرِ (أي: الصَّمَم) فيها؛ لأَنَّ قُلُوبَكُمْ كافِرَةٌ رَافِضَةٌ الاسْتِمَاع لَهُ وَفَهْمَ دَلَالَاتِهِ.

وإِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فالمسَافَةُ المكانِيَّةُ بَيْنَنَا مَحْجُوبَةٌ بِسُتُورٍ، فَنَحْنُ لَا نَرَاكَ وأَنْتَ تَتْلُو الْقُرْآن، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّد: إِنَّ الْقُرْآنَ حينما أَتْلُوهُ وأَنْتُمْ شُهُودٌ، يكُونُ بمَثَابَةِ الْعَمَىٰ فِي عُيُونِكُمْ؛ لأَنَّ تَالِيَهُ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مَقْبُولٍ لَدَىٰ قُلُوبِكُمْ أَنْ تَرَوْا ذَاتَهُ، لِكُفْرِكُمْ بِهِ وَكَرَاهِيَتِكُمْ دَعْوَتَه.

وَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ بِشَأْنِهِمْ:

﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ مُوغِلُونَ فِي تِيهِ الكُفْرِ والضَّلال عَنْ صِرَاطِ الحقِّ والْهداية، فَهُمْ بَعِيدُونَ جدّاً عَنْ دَاعِي الْحَقِّ بُعْداً شَاسِعاً، فَلَا يَسْمَعُونَ نِداءَهُ لَهُمْ حِينَمَا يَدْعُوهُمْ إلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ.

وَهٰـذِهِ العبارَةُ وَارِدَةٌ فِي الكناياتِ المسْتَعْمَلَةِ عِنْدَ الْعَرَب، قَالَ الفرّاء: تَقُولُ للرَّجُلِ الَّذِي لَا يَفْهَمُ كَلَامَكَ: أَنْتَ تُنَادَىٰ مِنْ مَكَانٍ بَعِيد.

وَلمَّا كانَ مِنْ سُنَّةِ الله عزَّ وَجلَّ أَنْ لَا يُعَجّلَ الْعُقُوبَاتِ عَلَىٰ الكُفْرِ في الحياة الدُّنْيا، بَلْ يُؤَخِّرُ ذَلِكَ إلَىٰ يَوْم الدِّينِ، تَنْفِيذاً لِكَلِمَةٍ عَبَّرَ اللهُ بها عَنْ تَقْدِيره وَقَضَائِهِ بهٰذا الشَّأْنِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَضْرِبَ اللهُ مَثَلاً عَنْ كُفْرِ بَعْضِ بَنِي إسْرَائِيلَ بالتَّوْراةِ، وَتَأْجِيلِ مُعَاقَبَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ إلَىٰ يَوْمِ القيامَة، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ هٰذا الدَّرْسِ بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، فَاخْتَلَفَ فِيهِ بَنُو إسْرَائِيلَ، فآمَنَ بِهِ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَكَفَرَ بِهِ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ نَقْضِ بَيْنَ مُؤْمِنِيهِمْ وَكافِرِيهِمْ في الحياةِ الدُّنْيا، بَلْ أَخَّرْنَا ذَلِكَ لِيَوْمِ القِيامَةِ تَنْفِيذاً لِكَلِمَتِنَا الَّتِي سَبَقَتْ بهٰذا الأَمْرِ.

وَكَذَلِكَ الْحَال تَكُونُ مُعَامَلَتُنَا لِلْمُكَذِّبينَ الكافِرينَ بالقرآنِ مِنْ أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّد، إذا اقتصَرَ أَمْرُهُمْ علىٰ التَّكْذِيبِ والكُفْر، وَلَم يَرْتَكِبُوا شُرُوراً كُبْرَىٰ تَسْتَدْعِي تَطْهِيرَ المجْتَمَعِ الْبَشَرِيّ مِنْهُمْ، لِتَأْثِيرِهِمْ عَلَىٰ إرَادَاتِ النَّاسِ الحرَّةِ، الْمَوْضُوعِينَ بمُقْتَضَاهَا مَوْضع الامْتِحَانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا.

- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: تَتَضَمَّنُ تَأْجِيلَ عِقَابِ الكافِرِينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَهِيَ كلمةٌ عَبَّرَتْ عَنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه بهٰذا الشَّأن.

• ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: لَقُضِيَ بَيْنَ كُفَّارِ قَوْمِكَ بالْقُرْآنِ وبَيْنَ مُؤْمِنِيهِمْ بِهِ، فَأُهلِكَ الْكَافِرُونَ إهْلَاكَ إبادَة، ونُصِرَ المؤمِنُونَ نَصْراً يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلَا كَسْبَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِوَسَائِلَ مَادِّيَّةْ.

• ﴿..وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾: أي: وَإِنَّ مُكَذِّبِي كُفَّارِ قَوْمِكَ بِالْقُرْآنِ لَوَاقِعُونَ فِي شَكٍّ مِنَ أَنَّ القرآنَ كَلامُ رَبِّهِمْ، وَهٰذا الشَّكُّ مِنْهُم شَكٌّ ضَعِيفٌ، لَا تَسْمَحُ لَهُمْ مَوَازِينُ الْفِكْرِ السَّلِيم والْعقْلِ الصّحيح بأَنْ يَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ، رَافِضِينَ الأَدِلَّةَ الْوَاضِحَةَ الَّتِي تُرَجِّحُ أَنَّهُ كَلامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِمْ، فَهُوَ شَكٌّ مُرِيب، أَيْ: يَجْعَلُ النَّاظِرَ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ، والمتفَحِّصَ في أَمْرِهِمْ يَتَّهِمُهُمْ بِأَنَّهُمْ عَالِمُونَ بِالْحَقِّ وَجَاحِدُونَ لَه، اتِّبَاعاً لأَهْوَائِهِم وَشَهَوَاتِهِم، وَرَغَبَاتِهِمْ من الحياةِ الدُّنيا.

يُقَالُ لُغَةً: «ارْتَابَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ» أي: اتَّهَمَهُ.

فَالشَّكُّ الَّذِي هُمْ فِيهِ يُوقِعُ فِي تُهْمَتِهِمْ بِأَنَّهُمْ جَاحِدُون عِناداً، لِضَعْفِ شَكِّهِمْ، وَقُوَّةِ حُجَجِ مَا هُمْ شَاكُّونَ فِيه.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامِن من دُروس سُورَة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقه، ومنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٣)
التدبُّر التحليلي للدَّرْسِ التاسِعِ من دُروس سورة (فُصِّلت) الآيَات من (٤٦ ـ ٤٨)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا

تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

القراءات:

(٤٧) • قرأ نَافع، وٱبْنُ عامر، وحفص، وأَبُو جعفر: ﴿مِن ثَمَرَاتٍ﴾ بالجمع.

وقرأها بَاقي الْقُرَّاء العشرة بالإفراد: [مِنْ ثَمَرَةٍ].

ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، ففي الإفراد هُنَا معْنَىٰ كُلِّ ثَمَرَة.

(٤٧) • قرأ يعقوب: [يُنَادِيهُمْ] بِضَمّ الهاء.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ بِكَسْرِ الهاء.

(٤٧) • قرأ ٱبْنُ كثيرٍ: ﴿شُرَكَائِيَ قَالُوا﴾ بفَتْحِ ياءِ المتَكَلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ بإسْكانِ ياءِ المتكلم.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرسِ بَيَانٌ مُجْمَلٌ بِشَأْنِ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وبِشَأْنِ مَنْ أَسَاءَ، وأنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ عباده شيئاً.

وفيها بيانٌ عَنْ شُمُولِ عِلْم اللهِ، مُضَافٌ إلَىٰ مَا سَبَقَ فِي نجوم التنزيل بِشأنِ عِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُم سُلْطَانُه.

وفيها عَرْضُ لقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، تَتَعَلَّقُ بالمشْرِكين.

التدبُّر التحليلي:

في هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ خَمْسِ قَضَايَا هِيَ مِنْ أُسُسِ المفهوماتِ الدِّينيَّة، وبَيَانُ مَشهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ يَتَعَلَّقُ بالمشركين.

● أمّا القضايا الخمس فهِي مَا يلي:

الْقضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾: أي: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً مَبْنِيّاً عَلَىٰ قَاعِدَةٍ إيمَانِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، مُطَابِقَةٍ لِمَا جاءَ في الإسْلَام، مِمَّا جَاءَ في الإسْلَام دِين الله لعباده، بأنَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ عزّ وجلّ، فَلِنَفْع نَفْسِهِ وَخَيْرِها عَمِلَ هٰذا الْعَمَل؛ لأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ سَوْفَ يُثِيبُهُ عَلَيْهِ ثَوَاباً جَزِيلاً يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُثِيبُهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَجْرٍ عَاجِلٍ في حَيَاةٍ طَيِّبَة، وهٰذِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ قواعِدِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ.

الْقَضِيَّةُ الثانِيَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾: أي: وَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً سَيِّئاً باخْتِيَارِهِ الحرِّ، ممَّا جاءَ في الإسْلَام دِينِ اللهِ لِعِبادِهِ، بأنَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي رَتَّبَ اللهُ عزّ وجلّ عُقُوبَةً عَلَيْها، فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ إذْ عَرَّضَ نَفْسَهُ بإسَاءَتِهِ لِعُقُوبَةِ اللهِ لَهُ، وهٰذِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ قواعِدِ الجزاءِ الرَّبَّاني.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ فَلِكُلِّ صَالحٍ لِلْخِطَابِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادِيّ: ﴿..وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: وَمَا رَبّكَ الْمُقدِّر الْقَاضِي بِعِقَابِ المسِيئِينَ يَظْلِمُ أَحداً مِنْهُمْ، بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِمْ إذِ ارْتَكَبُوا السَّيِّئَاتِ وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا، ضِمْنَ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّاني.

وجَاءَتْ صيغَةُ «ظلَّام» الّتي هي مِنْ صِيَغ المبالَغَةِ مُرَاعَاةً لِجَمْع الْعَبِيد، فَلَوْ ظَلَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَقلَّ ظُلْمٍ لَكَانَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ جَمِيعاً ظَلَّاماً. ولِهٰذا جَاءَ فِي بَيانٍ آخر قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ في سورة (يُونس/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وقول اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (الكهف/ ٦٩ نزول):

﴿... وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾.

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (النساء/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾:

الْقَضِيَّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾:

أي: لَا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إلّا اللهُ، فإذا سُئِلَ رَسُولٌ أَوْ مَلَكٌ: مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ قَالَ: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي لَا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إلّا هُو.

وقد جاء في القرآنِ الْمَجيدِ عِدَّةُ نُصُوصٍ فِيهَا بَيَانُ قَصْرِ عِلْمِ وَقْتِ السَّاعَةِ علَىٰ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وأَنَّهَا لا تَأْتِي إلّا بَغْتَةً، فَلا يَعْلَمُ متىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ رَسُولٌ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَته، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَوْ كَانَ مِنَ الكَرُوبِيِّينَ، ومِنْهُمْ جبريل، ومِيكائِيل، وإسْرَافِيلُ عَلَيْهِمُ السّلام.

القضية الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ...﴾:

هٰذِهِ القضيَّةِ مِنْ تَفْصِيلَاتِ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، وَهٰذِهِ الإحَاطَةُ جَاءَ بَيانُها بصِيَغٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ كُلِّيَّةٍ، وَصِيَغٍ فيها تَفْصِيلٌ لِمُفْرَدَاتٍ كثيراتٍ مِنْهَا، فِي نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ كَثِيرَة، لِتَرْسِيخِ عَقِيدَةِ المؤمِنِينَ بِشُمُولِ عِلْمِ اللهِ كُلَّ شيءٍ، وإحَاطَةِ عِلْمِ اللهِ بِكُلِّ شيءٍ.

أَكْمَام: جَمْع «كِمّ» بِكَسْرِ الْكَافِ وضَمِّهَا، هو الْوِعَاءُ الْخَارِجِيُّ الَّذِي تَخْرُج مِنْهُ الثَمَرات.

«مِنْ» في ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ وفي ﴿مِنۡ أُنثَىٰ﴾ زِيدَتْ لِتَوْكيد عُمُوم النَّفْي والتَّنْصِيصِ عَلَيه.

أي: وَمَا تَخْرُجُ ثَمَرَةٌ أَوْ ثَمَراتٌ بالاسْتِغْرَاقِ الشَّامِلِ مِنْ أَوْعِيَتِها فِي شَجَرَتِها وَنبَاتِها إلَّا مَصْحُوبَةً بِعِلْمِ اللهِ الْمُحيطِ بكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتها.

ومَا تَحْمِلُ أُنْثَىٰ مِنَ النَّاسِ والْحَيَوانِ والحشَرَاتِ وَالميكْرُوبَاتِ والْفَيْرُوساتِ، وَلَا تَضَعُ حَمْلَها إلَّا مَصْحُوبَةً بِعِلْمِ اللهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ أطْوَارِهَا مَعَ أصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّة.

• وأمَّا بَيَانُ المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ المتَعَلِّقِ بالمشْركين، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿.. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾:

• ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: أي: أَعْلَمْنَاكَ، وقد يكونُ هـٰذا لَدَىٰ مُحَاسَبَتِهِمْ.

• ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾: أي: مَا مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بأنَّ لَكَ رَبَّنَا شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ.

• ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: أي: وغَابَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَجِدُوا لِمَا غَابَ عَنْهُمْ أَثراً.

• ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: **الْمحِيصُ**: الْمَحِيد، والمعْدِل، والْمَهْرَب.

يقالُ لغة: «حَاصَ عَنِ الشيءِ، يَحِيصُ، حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيصَاناً» أي: حَادَ عَنْهُ، وعَدَلَ عَنْه.

يَظْهَرُ لي أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ يُنَادِي المشْرِكينَ بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ أفراداً، نداءً عَامّاً يَسْمَعُهُ أَهْلُ الْمَحْشَر: أَيْنَ شُرَكَائِي، أي: الَّذِينَ كُنْتُم تَدَّعُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَائي في الرُّبُوبيّة أوْ في الإلَـٰهِيَّة؟؟.

قَالُوا: آذَنَّاكَ رَبَّنَا، أيْ: أعْلَمْنَاكَ ربَّنَا بِأَنَّنَا كُنَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضَالِّين، نَدَّعِي أَنَّ لَكَ شُرَكَاءَ، دُونَ أَنْ تَكُونُ لَنَا أَدِلَّةٌ تُثْبِتُ أَنَّ لَكَ شُرَكَاءَ،

وَقَدِ اعْتَرَفْنَا بِذَنْبِنَا وَكُفْرِنا حِينَ حَاسَبْتَنَا أفراداً، فَمَا مِنَّا الْيَوْمَ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بأَنَّ لَكَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءُ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُنَادِي المشركين علىٰ رُؤوسِ أَهْلِ الموقِف، لإِعْلَامِ الْجَمِيعِ بأَنَّ أَحْكَامَهُ الإفراديَّة عَلَىٰ المشْرِكِينَ بالْكُفْرِ وبالْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ، قَدْ كَانت مُطَابِقَةً لِقَانُونِ الجزاءِ الْعَامّ، فَلَمْ يَظْلِمِ اللهُ أحداً.

وَجَاءَ التَّعْبِير بـ﴿قَالُوٓاْ﴾ اسْتِقْطَاعاً مِنْ أَحْدَاثِ المسْتَقْبل، للإِشْعَارِ بأَنَّ هـٰذا الخبَرَ حَقٌّ، فَكَأَنَّهُ حَدَثٌ وَقَعَ وَمَضَىٰ.

والاستِقْطَاعَ مِنَ الماضِي أو المسْتَقْبَل أَحَدُ الأَسَالِيبِ القرآنِيَّةِ الْبَدِيعَة.

ويَقُولُ اللهُ عزّ وجلّ تَعْقِيباً عَلَىٰ هـٰذِهِ اللَّقْطَةِ مَنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾: أي: وَغَابَ عَنْهُمُ الشُّرَكاءَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اتَّخَذُوهم شُرَكَاءَ للهِ افْتِراءً عَلَيْهِ، في الحياةِ الدُّنيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُحَاسَبُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ يَوْمَ الدّين، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ شُرَكَاءَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

- ﴿يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾: أي: يَعْبُدونَ مِنْ قَبْلِ يَوْمِ الْحِسَاب، أُطْلِقَ الدُّعَاء علىٰ العبادةِ في كثير من النصوصِ القرآنية.

وَيَقُولُ اللهُ عزّ وجلّ أَيْضاً فِي التَّعْقِيب: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي: وَظَنُّوا ظَنّاً رَاجحاً أَنَّهُمْ لا خَلاصَ لَهُمْ مِنَ العَذَابِ الَّذِي حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ خُلُوداً فِي جهَنَّمَ، مَعَ طَمَعِهِمْ بأَنْ يَرْحَمَهُمُ اللهُ بالتَجاوُزِ أَوْ بالتَّخْفِيف، وَهـٰذا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُمْ وَهُمْ في دَارِ العذابِ يَسْأَلُونَ الخُروجَ مِنْها أَوِ التخفيفَ مِنْ عَذَابِها.

لَمْ أَجِدِ الظَّنَّ في النُّصُوص القرآنِيَّةِ مُسْتَعْملاً بمعْنَىٰ الْيَقِين، عَلَىٰ خِلَافِ المشْهُورِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ طُلَّابِ الْعُلُومِ الإسْلَامِيَّة، وفي كِتَابَاتِ كَثِيرٍ من المؤلفين.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع من دُروس سُورَة (فُصِّلَت).

والحمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقه، ومنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٤)
التدبّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (فُصّلت) الآيَات من (٤٩ ـ ٥١)

قالَ اللهُ عزّ وجلّ:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

القراءات:

(٥٠) • قرأ ورشٌ، وأَبُو عمْرو، وأَبُو جَعْفر، وقَالُونُ بِخُلْفٍ عَنْه: ﴿رَبِّيَ إِنَّ﴾ بِفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأَهَا باقي القرَّاء العشرةِ بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم، وهو الوجْهُ الثاني لِقَالُون.

(٥١) • قرأ ٱبْنُ ذَكْوَان، وأَبُو جَعْفر: [**وَنَاءَ بِجَانِبِهِ**] بمَعْنَىٰ مَال وتَجَافَىٰ مُتَثَاقِلاً.

وقرأَهَا بَاقي القراء العشرة: ﴿**وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ**﴾ بمَعْنَىٰ ابْتَعَدَ.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، إذْ من النَّاسِ مَنْ يَمِيلُ مُتَثَاقِلاً عن القيام بواجِبِ شُكْرِ رَبِّه، ومِنَ الناسِ مَنْ يَبْتَعِدُ ابْتِعاداً كُلّيّاً.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْس بَيانٌ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ الإنْسَانِ بِوَجْهٍ عَامّ، وأَنَّهُ دائِمُ الطَّلَبِ لِمَا يَرَاهُ خَيْراً لَهُ فِي الحياةِ الدُّنيا، فإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً قَنُوطاً. وَأَنَّهُ كَفُورٌ جَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ عَلَيْه.

وقد سَبَقَ في نجوم التنزيل وَصْفُ الإنْسَانِ بما يلي:

(١) إِنَّهُ لِرَبِّهِ لَكَنُود، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ الدنيويّ لَشَدِيد (العاديات/ ١٤ نزول).

(٢) إِنَّهُ يَدْعُو بالشَّرِ دُعَاءَهُ بالخير. إنَّهُ عَجُول. مُعَرِضٌ عَنْ رَبِّهِ كَفُور. إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ أَعْرَض وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ. إِنَّهُ قَتُور. (الإسراء/ ٥٠ نزول) الآيات (١١ ـ ٦٧ ـ ٨٣ ـ ١٠٠).

(٣) إِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كان يَدْعُو إِلَيْه وجَعَلَ للهِ أَنْدَاداً (الزُّمر/ ٥٩ نزول) الآية (٨).

(٤) لَا يَسْأَمُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ، وَلَئِنْ أَذَاقَهُ اللهُ رَحْمَةً مِنْهُ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذا لي. (فُصِّلَتْ/ ٦١ نزول).

وَسَيأْتِي فِي نُصُوصِ أُخْرَىٰ إِضَافَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ الإنْسَان.

التّدبُّر التحليلي:

جَاءَ في هٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ خَمْسِ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَهِي في الواقِعِ تَنْطَبِقُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ، فهي صِفَاتٌ لِلنِّسْبَةِ الْغَالِبَةِ مِنْهُم:

الصِّفَةُ الأُولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ . . .﴾: أي: لَا يَملُّ الإنْسَانُ مِنْ طَلَبِ الْخَيْرِ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ دَاعِياً رَبَّهُ، وَسَاعِياً دَائِباً لِلْحُصُولِ عَلَيْهِ بوسائله.

والمرادُ بالخير هنا مَا يَراهُ الإنْسَانُ في دُنْيَاهُ خيْراً، وهو المالُ، وكُلُّ مَا يَرىٰ الإنْسَانُ مُتْعَةً لَهُ فِيهِ، مِنْ مَآكِلَ، وَمَشَارِبَ، وَمَسَاكِنَ، وَحَدَائِقَ، وَمَنَاكِحَ، وزِينَاتٍ، وتُحَفٍ يَتَفَاخَرُ بِهَا، ومَرَاكِبَ، وسُلْطَانٍ وعُلُوٍّ في الأَرْضِ، ونَحْوِ ذَلِك.

والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ نَفْسَهُ وَشَهَواتِهِ وأهواءَه مُتَعَلِّقَاتٌ بِلَذَّاتِهِ وَمَسَرَّاتِهِ مِنْها، ورَغَبَاتِ اسْتِكْبارِه بها.

الإضافة في ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ هي من نوع الإضافَةِ غَيْرِ المحضَةِ، فَدُعَاء مَصْدَرٌ يَعْمَلُ عَمَلَ فِعْلِهِ، وهُو مَضَافٌ إِلَىٰ المفْعُولِ به.

الصِّفَة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾: أي: وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ عَلَىٰ سَبِيلِ النُّدْرَةِ كَانَ شَدِيدَ الْيَأْسِ وشَدِيدَ الْقُنُوط.

الْيَأْسُ: انْقِطَاعُ الأَمَلِ مِن الشَّيْءِ الْمَرْغُوبِ فِيه، **والْيَؤُوسُ**: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعل «يائِس».

الْقُنُوطُ: أَشَدُّ اليأْسِ، **والْقَنُوطُ**: صيغَةُ مُبَالَغَة لاسم الفاعِلِ «قَانط».

وجَاءَ فِي الْعِبَارَةِ الْجَمْعُ بَيْنَ «يَؤُوسٍ» و«قَنُوطٍ» للدَّلَالَة عَلَىٰ شِدَّةِ الْحَالَةِ الَّتِي تُصِيبُ مَشَاعِرَه النَّفْسِيَّة إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ مَسّاً.

وجاء استعمال لفظ: «إِنْ» للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ مَسَّ الشَّرِّ في حَيَاةِ الإنسانِ حَالَةٌ أَقَلُّ مِنْ حَالاَتِ اسْتِمْرار الْخَيْرِ.

والْمُرَادُ بِالشَّرِّ، هو مَا يَرَاهُ الإِنْسَانُ في الحياة الدُّنْيَا شَرّاً، كَمَصَائِبِ الأَمْرَاض، وَالمصائِبِ فِي الأَمْوالِ، والأَنْفُسِ، والْمُمْتَلَكَاتِ، وكالْمُحْزِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَكارِهِ.

إِنَّ الإِنْسَانَ بِحَسَبِ النِّسْبَةِ الْغَالِبَةِ مِنْ أَفْرَادِهِ لَا يَتَصَوَّرُ أَنَّ الحياةَ الدُّنْيَا حَيَاةُ امْتِحَانٍ، والامْتِحَانُ يَكُونُ بِمَا يَسُرُّ لاخْتِبَارِ مِقْدَارِ شُكْرِهِ لِرَبِّهِ، أَوْ كُفْرِهِ بِهِ، وَيَكُونُ بِمَا يُؤْلِمُ مِنَ المكاره لاختبار مَدَىٰ صَبْرِه، وَرِضَاهُ عَنْ رَبِّه فِيمَا ابْتَلَاهُ بِهِ، وإِنَّمَا يَتَصَوَّرُ أَنَّها لِمَسَرَّتِهِ وَإِسْعَادِهِ، وأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِكَدْحِهِ واجْتِهادِهِ ووَسَائِلِه، فَإِذَا لَمْ يَتَحَقَّقْ لَهُ مَطْلُوبُهُ فيها، كَانَ حَزِيناً مُتَأَلِّماً ضَجِراً يَؤُوساً قَنُوطاً، مُنْقَطِعَ الآمَالِ بائِساً.

الصِّفةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعالَىٰ متحدّثاً بضمير المتكلم العظيم: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ . . .﴾:

• ﴿وَلَئِنْ﴾ اللّامُ مُوطِّئَةٌ لِلْقَسَم، فالعبارة مُؤكَّدَةٌ بالْقَسَم.

• ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾: أي: جَعَلْنَاهُ بِفَضْلٍ مِنَّا يَسْتَمْتِعُ بآثارِ رَحْمَةٍ مِنَّا، فَيُحِسُّ بِلَذَّةِ مَا وَهَبْنَاه. أُطْلِقَ علَىٰ الإحْسَاسِ بآثارِ النِّعْمَةِ مَعْنَىٰ الذَّوَاقِ الَّذِي يَكُونُ بالْفَم؛ لأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ أكْثَرُ الْحَوَاسِّ إدْرَاكاً لاخْتِلَافِ الْمُحَسَّاتِ، وهـٰذا من الاستعارة.

• ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾: أيْ: آثَارَ رَحْمَةٍ صَادِرَةً مِنْ فَيْضِ عَطَائِنَا لابْتِلَاءِ إيمانِهِ وَشُكْرِه.

• ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾: أي: وهـٰذِهِ الضَّرَّاءُ قَدْ أنْزَلْنَاهَا بِهِ، لِتَذْكِيره بِرُبُوبيّتِنا، وابْتِلَائِهِ بِبَعْضِ مَصَائِبِ الحياة الدُّنيا.

• ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: أيْ: لَيَقُولَنَّ: هـٰذا الَّذِي أصَبْتُهُ مِنْ نِعْمَةٍ هُوَ لِي، مَلَكْتُهُ بِعِلْمِي، واكْتَسَبْتُهُ بمَهارَتِي، وَظَفِرْتُ بِهِ بِسَعْيِي، وَلَا يَنْسُبُهُ إلَىٰ فَضْلِ اللهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ، وَتَنْطَلِقُ مِنْهُ تَعْبِيرَاتٌ مُمَاثِلَاتٌ لِمَا عَبَّرَ بِهِ قَارُون، إذْ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[1].

• ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: أي: وَيَتَمَادَىٰ فِي جُحُودِهِ، فَيُعْلِنُ شَكَّهُ بِيَوْمِ القيامَة، وبِحِسَابِ اللهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِه.

• ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾: أي: وَيَقُولُ أَيْضاً: وأُقْسِمُ لَئِنْ كَانَ خَبَرُ الرُّجُوع إلىٰ الحياةِ بَعْدَ الموْتِ خَبَراً صَحِيحاً، وَتَحَقَّقَ هـٰذا الرُّجُوع المسْتَبْعَدُ جدّاً، فَإِنَّ رَبِّي الّذي أَنْعَمَ عَلَيَّ فِي هـٰذِهِ الْحَيَاةِ،

---

(١) القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول (الآية/٧٨).

سَوْفَ يُنْعِمُ عَلَيَّ فِي الحياةِ الأُخْرَىٰ؛ لأَنَّنِي أَسْتَحِقُّ هـٰذا الإنْعَام والإِكْرَامَ، بِمُقْتَضَىٰ تَكْوِيني، وَسَوْفَ تَكُونُ لِي الْمَعِيشَةُ الْحُسْنَىٰ بَعْدَ الْبَعْثِ للحياةِ الأُخْرَىٰ، إذْ تَكُونُ أَفْضَلَ لي من هـٰذِهِ الحياة.

الْحُسْنَىٰ: مُؤَنَّثُ «الأَحْسَنِ» فَهِيَ صِيغَةِ أَفْعَلِ التَّفْضِيل للمؤنّث.

وَجَاءَ التعقِيبُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هـٰذِهِ الصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ الّذِي جَعَلَ فَرِيقاً مِنْ أَفْرَادِهِ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ وَبِيَوْمِ الدّين:

• ﴿. . فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾:

يُؤَكّدُ اللهُ عَزّ وَجلّ لِهـٰذا الْفَرِيقِ الْكَافِرِ مِنْ أَفْرَاد الإنْسَانِ، بأَنَّهُ سَوْفَ يُحَاسِبُهُمْ، ويُنبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا في حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وهِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وسَوْفَ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، بِمُقْتَضَىٰ كُفْرِهِم.

وَقَدْ جَاءَتِ الكِنَايَةُ عَنْ هـٰذِهِ العَواقِبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لأَنَّ هـٰذا التَّنْبِيءَ جُزْءٌ مِنَ الْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، فَهُو كِنَايَةٌ عَنْ مُرَافِقَاتِهِ ولوازِمِه.

ويُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأَنَّهُ سَوْفَ يُذِيقُهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِنْ نَوْعِ عَذَابٍ غَلِيظ.

الْعَذَابُ الْغَلِيظُ: هو الصَّعْبُ الشّدِيدُ الإيلَام.

وَهـٰذا إنْذَارٌ شَدِيدٌ بالْعَذَاب الأَلِيم لأَصْحَابِ هـٰذِهِ الصِّفَةِ من صِفَاتِ الإنْسَانِ، الَّذِينَ أَفْضَتْ بِهِمْ إلىٰ الكُفْر بالله وباليَوْمِ الآخر.

الصِّفَةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ . . .﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: **[وَنَاءَ بِجَانِبِهِ]**:

هـٰذا البيان يَكْشِفُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ الْجَحُودِ لِنَعَم اللهِ عَلَيْهِ، الَّذِي يَشْغَلُهُ الاسْتِمْتَاعُ بنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ عَنْ مُرَاقَبَتِهِ، وتَأْدِيَةِ مَا فَرَضَ اللهُ

عَلَيْه، والابْتِعَادِ عَمَّا نَهاهُ اللهُ عَنْه، أَوْ تَرْكِهِ طاعَةً لَهُ، فَهُوَ يَسْتَعْمِلُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ فِي مَعْصِيَتِهِ، فَيَتْرُكُ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ، وَيَفْعَلُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ، وَهٰذا غَايَةٌ في نُكْرَانِ نِعْمَةِ الْمُنْعِمِ، وَغَايَةٌ فِي مَقَابَلَةِ الإنْعَامِ بالْجُحودِ والكُفْرَان والعصيان.

هٰذا الْفَرِيق الكَبِيرُ من أَصْنَافِ أفْرَادِ الإنْسَانِ يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمين:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مَنْ إذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعَمٍ وَاسِعَةٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، أَعْرَضَ ولَمْ يتَّجِهْ بِصَدْرِهِ لمقابَلَةِ نِعَم اللهِ عَلَيْهِ بطاعَتِهِ لَهُ، وَالْعَمَل بِمَا يُرْضِيهِ مِنْهُ، بَلْ مَالَ وأَخَذَ يَتَجَافَىٰ بِتَثَاقُلٍ شَيْئاً فَشَيْئاً، رَاغِباً فِي أَنْ يَخُوضَ فِي مَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَاتِهِ مَعَ الْخَائِضِيْنَ، وَجَاءَتْ قِراءَةُ **[وَنَاءَ بِجَانِبِهِ]** دَالَّةً عَلَىٰ هٰذا الْقِسْم.

القِسْمُ الثَّانِي: نَظِيرُ الْقِسْمِ الأَوَّلِ، إلَّا أَنَّهُ يُعْرِضُ عن مَقَابَلَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ بِطَاعَتِه لَهُ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ منه، وَيُتْبِعُ إعْرَاضَهُ بالنَّأْيِ والابْتِعَادِ بِخِفَّةٍ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، والْخَوْضِ السَّرِيعِ في أَوْحَالِ المعاصِي والمخالَفَات، وجَاءَت قراءَةُ: ﴿وَنَـَا بِجَانِبِهِۦ﴾ دَالَّةً عَلَىٰ هٰذا القِسْمِ.

ويُوجَدُ قِسْمٌ ثَالِثٌ سَكَتَ النَّصُّ عَنْهُ لأَنَّهُ أَقَلُّ عَدَداً مِنَ القِسْمَيْنِ السَّابقَيْن، وَهُوَ قِسْمُ الْمُدْبِرِينَ إدْبَاراً كَامِلاً عَنِ اللهِ، فَهُوَ لَا يَكْتَفِي ابْتِداءً بالإعْرَاض، وهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَار، بَلْ هُوَ يُدْبِرُ إدْبَاراً كامِلاً، كافراً بِرَبِّهِ وَبِنِعَمِهِ عَلَيْهِ، وغَارِقاً في أَوْحَالِ الجرائِمِ الكُبْرَىٰ.

الصِّفَةُ الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾: أي: وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسّاً فَآلَمَهُ هٰذا المسُّ، كَانَ ذَا دُعَاءٍ عَرِيضٍ لِرَبِّهِ، بأَنْ يَصْرِفَ اللهُ عَنْهُ الشَّرَّ الذي مَسَّهُ.

وسَبَقَ آنِفاً بَيَانُ المراد بالشَّرّ. وَوَصَفَ اللهُ عزّ وجلّ دُعَاءَهُ بأَنَّهُ عَرِيضٌ، للدَّلَالَة علىٰ أَنَّ صَوْتَهُ وَهُوَ يَدْعُو يَمْتَدُّ بِقُوَّتِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَات

الشِّمَالِ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ عَرِيضاً مَسْمُوعاً علَىٰ عَرْضِ امْتِدَادِهِ يَمِيناً وَشِمَالاً، فَهُوَ يَجْأَرُ بِهِ مُبَالِغاً فِي التعبير عَنْ مَشَاعِرِ أَلَمِهِ وَضَجَرِهِ مِمَّا مَسَّهُ مِنْ شرّ.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ العاشِرِ مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحمْدُ للهِ علَىٰ معونَتِه، ومَدِه، وتَوْفِيقهِ، ومِنَّتِهِ وفَتْحِهِ.

(١٥)
التّدبُّر التحليلي للدَّرْسِ الحادي عشر من دُروس سورة (فُصِّلَتْ) الآيَات من (٥٢ ـ ٥٤) وهو الدرس الأخير

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٣) • قرأ يعقوب: [سَنُرِيهُمْ] بِضَمِ هاء الضمير.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاء العشرةِ بكَسْرِ الهاء.

تمهيد:

في آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أُسْلُوباً من أسَالِيبِ مُحَاجَّةِ الْكَافِرِينَ بالْقُرْآن.

وفيها بَيَانٌ مِنَ الله عزّ وجلّ بأَنَّهُ سَيُري النَّاسَ في المستقبل بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وهِي آيَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ

عزّ وجلّ، ولَيْسَ مِنْ وَضْعِ بَشَر، فالْبَشَرُ عَاجِزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ الآيَاتِ الْبَاهراتِ الَّتِي سَيُريها اللهُ عزّ وجلّ للنَّاسِ في كَوْنِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهَا فِي القرآن المجيد.

التدبُّر التحليلي:

▪ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ أسْلُوباً مِنْ أَسَالِيب إِقْنَاعِ الْكَافِرِين بأنَّ القرآنَ كَلَامٌ مِنْ كَلَامِ اللهِ، ومُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾:

جَاءَ في أوَّلِ هـٰذِهِ السُّورَةِ بَيَانٌ يَتعَلَّقُ بالْقُرْآنِ وَبَعْضِ صِفَاتِهِ وإعْرَاضِ أَكْثَرِ مُتبَلِّغيهِ فِي مَكَّة عنه.

وجَاءَ فِي أَثْنَائِها بَيَانُ بَعْضِ مَوَاقِفِ أئِمَّةِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ المضَادَّةِ لاسْتِمَاعِ آيَاتِهِ، وبَيَانُ مَوْقِفِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ في آيَاتِه، وَهـٰذا الدَّرْسُ الْخِتَامِيُّ مِنْ دُروس السُّورَةِ فِيهِ تَعْلِيمٌ إقْنَاعِيٌّ يُوَجَّهُ لِلْكَافِرِينَ بالقرآن، مع وَعْدٍ من الله عزّ وجلّ بأنَّهُ سَيُري الناسَ في الآفَاقِ مِنْ آيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العالمين.

وَفِي هـٰذِهِ الآية (٥٢) يُعَلِّمُ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ دَلِيلاً إقْنَاعِيّاً يَجْعَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بالْقُرْآنِ يُحْجِمُونَ عَنْ كُفْرِهِم به، إذَا كَانُوا يَخَافُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَذَاب الأَلِيم الَّذِي يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لَهُ، مُجَازِفِينَ غَيْرَ مُبَالِينَ سُوءَ الْعَاقِبَة.

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أي: قُلْ لِلْكَافِرِينَ بالْقُرآنِ: أفكَّرْتُمْ فَرَأَيْتُم بِعُقُولِكُم:

- ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾: أي: إنْ كَانَ الْقُرْآنُ

الَّذِي يُبَلِّغُكُمْ إِيَّاهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللهِ حَقّاً، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَوَالَىٰ عَلَيْكُمْ إِنْزَالُ سُورِهِ وآيَاتِهِ الْبَلِيغَةِ المعْجِزَةِ لَكُمْ، والدَّاعِيَةِ إِلَىٰ الحق والْهُدَىٰ والخير، كَفَرْتُمْ بِهِ، أَفَكَّرْتُمْ بالْمَصِيرِ الَّذِي أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ اخْتَرْتُمُ الضَّلالَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمُشَاقَّةَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ بِوُقُوفِكُمْ فِي شِقِّ الْمُحَارِبِ الْمُعَانِدِ، وقَدْ دَمَغَتْكُمْ بَرَاهِينُ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟؟.

أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَضَلُّ مِمَّنْ يَقِفُ مَوْقِفَ الْمُشَاقِّ للهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وأَنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعَذَابٍ أَلِيمٍ خُلُوداً في دار العذابِ يَوْمَ الدِّينِ؟!. تَفَكَّرُوا وَأَخْبِرُونِي:

• ﴿..مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾؟؟: استفهامٌ يُرَادُ به انتزاعُ اعْتِرَافِ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ، أَوْ إِشْعَارُهُمْ في داخِلِهِمْ بأَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَضَلُّ مِمَّنْ هو في شقاقٍ بَعيدٍ عَنِ اللهِ ورسُوله ﷺ.

الشِّقَاقُ: العداوة والخلاف، يُقَالُ لغة: «شَاقَّهُ مُشَاقَّةً وشِقَاقاً» أي: خالَفَهُ وعاداه. قال الزّجّاج: «الشِّقَاق: العداوَةُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، والخلافُ بَيْنَ اثْنَيْن، سُمِّيَ ذَلِكَ شِقَاقاً؛ لأَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْ فِرْقَتَي العداوة قَصَدَ شِقّاً، أي: ناحِيَةً غَيْرَ شِقّ صَاحِبِه».

وجاء وَصْفُ الشِّقَاقِ بأَنَّهُ بَعِيدٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ الشّقِّ الَّذِي فِيهِ الحقُّ والْهُدَىٰ وَالخير، فَاصِلٌ بَعِيدٌ عَنِ الشِّقِّ الَّذِي يَحْتَلُّهُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بأنَّ القرآنَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ وَاعداً بإِظْهَارِ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي الآفَاقِ، وبَعْضِ آيَاتِهِ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ، وَهٰذِهِ الآيَاتُ تُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا فِي الآفَاقِ وَعَمَّا فِي الأَنْفُسِ حَدِيثَ عَلِيمٍ خَبِيرٍ بالظَّوَاهِرِ والبواطِنِ بَصِيرٍ بِكُلِّ شيء:

• ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾:

• ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: سَنُريهِمْ في الحياة الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَة مِنْ آيَاتِنَا الكَوْنِيَّةِ، والضّميرُ يَعُودُ علَىٰ الَّذِين لا يُؤمِنُونَ مِنَ النّاس أنَّ القرآن كلامُ اللهِ.

• ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾: **الآفَاق**: جَمْعُ «الأُفُقِ». وهِيَ الأَبْعَادُ الْعُلْيَا الْمُحِيطَةُ بِالأَرْضِ.

• ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي: وفِي تَكْوِينِ أَنْفُسِهِمْ من النَّاحِيَتَيْنِ الْجَسَدِيَّةِ وَغَيْرِ الْجَسَدِيَّة، كالْفِكْرِيَّاتِ، والْعَاطِفِيَّاتِ، والْوِجْدَانِيَّاتِ.

• ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: حتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْقُرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، إذْ يَجِدُونَ الْمَطَابَقَةَ تَامَّةً بَيْنَ الْحَقَائِقِ في الآفَاقِ وَفِي الأَنْفُسِ وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَدِيثٍ عَنْها، وَذلِكَ حِينَ يَتَوصَّلُونَ بِوَسَائِلِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ إلىٰ إدْرَاكِ هٰذِهِ الْحَقَائِقِ، إدْرَاكاً جَلِيّاً تَقُولُ عُلُومُهُمْ فِيهِ كَلِمَتَهُمُ الأَخِيرَة.

• ﴿. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾: أي: أَلَمْ يَخْلُقْ رَبُّكَ أَيُّها المتَلَقِّي المتفكّرُ هٰذا الكَوْنَ كُلَّهُ مِنْ أصْغَرِ جُزءٍ فِيهِ إلَىٰ أكْبَرِ كائِنٍ فيهِ؟؟، أَوَلَمْ يَكْفِ بِهِ لِيُخْبِرَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ في الْكَونِ إخْبَاراً مُطَابِقاً لِمَا هُوَ عَلَيْهِ في الْوَاقِعِ: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مِنْ فَوْقِ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، يَعْلَمُ دَوَاماً كُلَّ مَا يَجْرِي فيهِ مِنْ حَرَكَاتٍ وسَكَنَاتٍ وَأطوارٍ وَتَغَيُّرَاتٍ وَصِفَاتٍ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الكَوْنِ كُلِّهِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ.

الشّهِيدُ: هُوَ الْحَاضِرُ الْمُعاينُ لِمَا يُخْبِرُ به، وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ حَاضِرٌ دَواماً، مُعَايِنٌ دَوَاماً مِنْ فَوْقِ كلِّ شيءٍ مَهْمَا دَقَّ أَوْ جَلَّ، فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ في الْوُجُودِ خافِيَة من أقْصَاهُ إلَىٰ أَقْصَاه، ويُحيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيءٍ إحَاطَةً كامِلَةً تَامَّةً مِنْ عُمْقِهِ إلىٰ ظَاهِرِه.

وَقَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ في مجالَاتِ الْبُحُوثِ العلميّة الكونيَّة في الآفَاقِ وفي الأَنْفُسِ، المطابقاتُ بَيْنَ دَلَالَاتِ بَعْضِ النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ، وَبَيْنَ الحقائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتي قَالَ فيها عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ كَلِمَاتِهِمْ الأَخِيرَة، الَّتي لَا تَقْبَلُ التَّعْدِيلَ والتَّغييرَ، لِوُصُولِهِمْ فِيها إلَىٰ حَقَائِقَ جَلِيَّة.

وَمِنْهَا مَا جَاءَ في القرآنِ مِنْ وَصْفِ الأَجِنَّةِ، ومَا جَاءَ في القرآنِ مِنْ بَيَانِ أَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها، وبَيَانِ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ، وَمِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ السُّورَةِ مُبَيِّناً سَبَبَ كُفْرِ الكَافِرِينَ بالقرآنِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي شَكٍّ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ القيامَة، لِمُحَاسَبَتِهِمْ وفَصْلِ قَضَائِهِ بِشَأْنِهِمْ، وَمُجَازَاتِهِمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا، فَهُمْ لَا يَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِهِ، لِيَسْتَمِرُّوا مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَواتِهِمْ وَمَطَالِبَ نُفُوسِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا:

- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾:
- ﴿أَلَآ﴾: أداة اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيق.
- ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ﴾: أي: في شَكٍّ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء وتَنفيذ الجزاء.

ولِلرَّبْطِ بأَصْلٍ اعْتِقَادِيٍّ مِنَ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ أي: مُحِيطٌ عِلْماً وقُدْرَةً وسُلْطَاناً وقضاءً وَقَدَراً وَتَصَارِيفَ وامْتِحَاناً وجزاءً.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأخيرِ مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ للهِ علَىٰ معونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ وفَتْحِهِ.

(١٦)
ملحق: مستخرجَات بَلَاغِيّة مِنَ السّورة

توجَدُ في سورة (فصّلت/ ٦١ نزول) اختيارات بَلاغياتٌ نَفِيسات، ومِنْها الاختيارات التاليات:

أولاً: من الاستقطاع

الاستقطاع: وَهُو تَقْدِيمُ الأقوالِ أو الأحداثِ من الماضي، أو المستقبل كأنَّها تجرِي عِنْدَ تَقْدِيم البيانِ، أَوْ كَأَنَّ المستقْبَلَ مِنْهَا أَمْرٌ قَدْ حَدَثَ وَوَقَعَ فِعلاً، لِتَوْكِيدِ أنَّهُ سَوفَ يَحْصُلُ حَتْماً، وهَـٰذَا فَنٌّ إِبْدَاعِيٌّ رائع، لم يَكُنْ مَعْرُوفاً فِي بَيَانِ بُلَغَاءِ النَّاسِ قَبْلَ القرآن.

ومِنْ أَمْثِلَةِ الاسْتِقْطاع في هـٰذِهِ السُّورَة ما يلي:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الكَافِرِينَ يَوْمَ القيامَة:

• ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... ۝٢١﴾:

عبارةُ: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ ...﴾ وعِبارَة: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ...﴾ مُسْتَقْطَعَتَانِ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ القيامة بفَنِّيَّةٍ بَدِيعَة، تُشْعِرُ بأَنَّهَا سَوْفَ تَحْدُثُ حَتْماً.

المثال الثاني: قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ نِدَائِهِ المشركينَ يَوْمَ الدِّين:

﴿... وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۝٤٧ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨﴾:

﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ ..﴾ إلىٰ آخِرِ البيانِ هنا كَلامٌ مُسْتَقْطَعٌ ممَّا سَوف يَكُون.

ثانياً: من الكنَاية

اعتنىٰ عُلَماءُ البيان بالكناية، وهي اللّفظ المستَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاحِ بِهِ التَّخاطب، للدّلَالةِ بِهِ علىٰ معْنًىٰ آخَرَ لازمٍ لَهُ، أَوْ مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الملابَسَةِ بوجْهٍ مِنَ الْوُجوه.

والكِنَايَات مِنْ نَفِيسِ التعبير غَيْرِ المباشِرِ عَنِ المقصود.

ومن الكِنَايَاتِ في السُّورَة كُلُّ عبَارَةٍ يُفْهَمُ مِنْ لَازِمِهَا مَقْصُودٌ آخَرُ غَيْرُ المصَرَّحِ بِهِ في العبارة، ومِنْ جَلِيِّ الكِنَايَات فيها ما يلي:

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها بِشَأْنِ الَّذِينَ حَجَبُوا أَسْمَاعَهُمْ عَنْ تَلَقِّي آياتِ الْقُرْآنِ المجيد، مَعَ وُصُولِ صَوْتِ التَّالِي إِلَيْها:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: والَّذِي يُنَادَىٰ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُ لَا يَسْمَعُ مَا يُوَجَّهُ لَهُ من كَلَامٍ، ومَعْلُومٌ أَنَّ بُعْدَهُمْ بُعْدٌ نَفْسِيٌّ، ولَوْ كَانُوا قَرِيبِينَ بأَجْسَادِهِمْ.

ثالثاً: مِنَ الإيجاز

ومن الإيجاز بالحذف في السُّورَة مَا يلي:

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾:

حُذِفَ فِي هـٰذَا الْبَيَـان خَبَـرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لإمْكَـانِ إدرَاكِهِ وتَقْدِيرِه بدون صُعُوبَةٍ، وهو نَحْوُ: سَوْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في دار عَذَابِ المجْرِمِينَ الكافِرِينَ يَوْم الدِّينِ.

رابعاً: من الْقَصْر

اعْتَنَىٰ عُلَماء عِلْمِ المعاني بالقَصْر، وأركانِهِ وأقْسَامِهِ، وطُرُقه.

وعرَّفوا الْقَصْر بأنَّهُ تَخْصِيصُ شيءٍ بشيْءٍ بعِبَارَةٍ كَلاَمِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْه.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الْقَصْرِ في السُّورَةِ مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ علىٰ كُفَّارِ قومِهِ به لِأَنَّهُ بَشر:

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾:

فِي هـٰذِهِ الآية قصران:

الأول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: مَا أنَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَلَسْتَ مَلَكاً وَلَا ذَا طَبيعَةٍ غَيرِ بَشَرِيَّة، وَلَكِنْ يُوحَىٰ إليّ.

وهو مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة، وهُو إضَافِي، أي بالإضافَةِ إلىٰ ما تَطْلُبُونَ مِنْ أَنْ يكُونَ الرَّسُولُ مَلَكاً.

وأداة القصر هنا ﴿إِنَّمَآ﴾، وهي تَنْحَلُّ مِنْ جِهَةِ المعنىٰ إلىٰ «ما» و«إلّا».

الثاني: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: مَا إلَـٰهُكُمُ الحقُّ إلّا إلَـٰهٌ وَاحِدٌ هو رَبُّ العالمين.

وهـٰذا مِنْ قَصْرِ صِفَةِ الإلَـٰهِيَّةِ عَلَىٰ الْمَعْبُودِ الواحِدِ الَّذي هو رَبُّ الْعَالَمين.

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ. وأداة القصر فيه ﴿أَنَّمَآ﴾ بفتح الهمزة.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بيان بَعْضِ صِفاتِهِ جَلَّ جَلَالُه:

- ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ... ۝٤٧﴾:

فِي هٰـذِهِ الآيةِ قصران:

الأول: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: أي: إِلَيْهِ وَحْدَهُ يُرَدُّ عِلْمُ زَمَنِ قيامِ السَّاعَة.

استفيد القصر مِنْ تقديم المعمول ﴿إِلَيْهِ﴾ علَىٰ عَامِلِهِ ﴿يُرَدُّ﴾، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ من قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

الثاني: قَصْرُ خُرُوج الثمرات من أكمامِها، وحَمْلُ كُلِّ أُنْثَىٰ وَوَضْعُهَا علىٰ الاقترانِ بِعِلْمِ الله جلَّ جلالُهُ، وهو من قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة، وهو قَصْرٌ إضافِيٌّ، أي: بالإضَافةِ إلىٰ كَوْنِهِ مَعْلُوماً أَوْ غَيْرَ مَعْلُوم.

والأَدَاةُ فِيهِ النفيُ والاسْتِثْناء.

خامساً: مِن إسْنَادِ الشيءِ إلىٰ غيرَ ما هو له

مِنْ فُنُونِ البلاغَةِ إسْنَادُ الشَّيْء إلىٰ غير ما هو لَهُ لعلاقَةٍ مِنْ عَلاقات المجاز. ومِنْ أَمْثِلَتِهِ فِي السّورَة ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ بِشَأْنِ القرآنِ:

• ﴿... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ... ﴿٤٤﴾﴾:

أُطْلِقَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ علَىٰ القرآنِ أَنَّهُ هُدىً وشِفَاءٌ لِلَّذِينَ آمنُوا به؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِلْهِدَايَةِ والشفاءِ بِهِ.

وأُطْلِقَ عَلَيْهِ بالنِّسْبَة إِلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَنَّهُ وَقْرٌ وأَنَّهُ عَمىً؛ لِأَنّ سَمَاعَهُمْ لَهُ وَهُمْ كَافِرُونَ بِهِ كَانَ سَبباً فِي إِصَابَةِ آذَانِهِمْ بِالْوَقْرِ عَنْ مُتَابَعَةِ سَمَاعِهِ. وَسَبباً في إِصَابَةِ عُيُونِهِمْ بالْعَمَىٰ عَنْ مُشَاهَدَةِ مَنْ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ.

سادساً: مِن الاسْتِعَارَة

من فنون البلاغَة في الكلام الاستعارة، وهي عند عُلَمَاءِ البيان:

استعمال لفظٍ مَا فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ فِي اصْطِلَاحٍ بِهِ التخاطب، لعلاقَةِ المشابهَة، مع قَرينَةٍ صَارِفَةٍ عن إرادة المعنىٰ الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.

ومن أمثلة الاستعارة في السورة ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْن «ثمود» قَوْمِ الرَّسُولِ صَالِح عليه السلام:

- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾:

اسْتُعِير لفظ ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ للدلالَةِ بِهِ عَلَىٰ الضَّلَالِ الفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِي؛ لِأَنَّ هَـٰذَا الضَّلَالُ يُشْبِهُ الْعَمَىٰ فِي كَوْنِهِ سَبَباً للانْحِرَافِ عَن صِرَاطِ النَّجاةِ والسَّعَادة.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ... ﴿٣٩﴾﴾:

أَطْلِقَ في هَـٰذِهِ الآيَة «الْخُشُوعُ» وَهُو الْخُضُوعُ، والذُّلُّ، حَتَّىٰ السُّجود، للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ خُلُوّ الْأرْضِ مِنَ النَّبَاتَاتِ الَّتِي تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا وَقَامَاتِها مُتَعَالِيَةً فِي اتّجاه السَّمَاء؛ لِأَنَّ خُلُوَّ الأَرْضِ مِنَ النَّبَاتَاتِ يُشْبِهُ حَالَ الخَاضِعِ الذَّلِيلِ السَّاجِدِ.

سابعاً: من خُرُوج صيغةِ فِعْلِ الْأَمْرِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ

ومِنْ أَمْثِلَةِ هَـٰذَا الخروجِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخاطِبُ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياته:

﴿... ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

صيغة فعل الأمر ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ في هـٰذِهِ الْعِبارَةِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَلَيْسَتْ لِطَلَبِ أَنْ يَعْمَلُوا مَا يَشَاءُونَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِبَاحَةِ.

ثَامِناً: مِنْ خُرُوجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ التي هي طَلَبُ الإفْهَام

في هـٰذِهِ السُّورَة مِنْ خُرُوج الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ أَمْثِلَةٌ كَثيرة، منها ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ أُسْلُوباً مِنْ أَسَالِيبِ الْحِوَارِ الدَّعَوِيّ للكافرين:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾:

الاستفهام في هـٰذَا التعليم اسْتِفْهَامٌ تَعجُّبيٌّ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَتَثْرِيبيٌّ لَهُمْ.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ عَادٍ مُتَفَاخِرِينَ بِقُوَّتِهم:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ .. ۝١٥﴾:

يُرِيدُونَ بِهـٰذَا الاستفهام التفاخُرَ بِقُوَّتِهِم، وبَيَانَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّة.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللهِ:

- ﴿... أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ... ۝٤٠﴾:

يُرَادُ بِهـٰذَا الاسْتِفْهَامِ إِنْذَارُهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ مِنْ زُمَرِ الَّذِينَ يُلْقَوْنَ فِي النَّار، وَفِي مُقَابِلِهِم المؤمِنُونَ الَّذِينَ يأتُونَ يَوْمَ القيامَةِ آمِنينَ بِسَبَبِ إيمانهم.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشرِكِينَ وَبَعْضِ أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ:

• ﴿... وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ في هَـٰذَا النَّصِّ التَّشْهِيرُ بِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَحْشَرِ، وَبيَانُ أَنَّ خُلُودَهُمْ فِي عَذَابِ جَهَنَّم كَانَ بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ برَبِّهِمْ، وَيُرَادُ بِهِ اسْتِنْطَاقُهُمْ بَاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ حِوَاراً دَعَوِياً يُوَجِّهُهُ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ:

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ فِي هَـٰذَا الْحِوَارِ انْتِزَاعُ اعْتِرَافِ الْمُحَاوِرِينَ، أَوْ إِسْكَاتُهُمْ بِدَمْغِهِمْ بِالْحُجَّةِ.

المثال السادس: قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ:

﴿... أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؟!:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ انْتِزَاعُ اعْتِرَافِ الْمُخَالِفِ الجَاحِدِ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد.

تاسعاً: مِنَ التَّوْكِيدِ لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّة

توجَدُ فِي السُّورَةِ جُمَلٌ مُؤَكَّدَة لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّة، وَمِنْهَا الْأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأَوَّل: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ مِنْ قَوْمَي عَادٍ وَثمود:

• ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أَكَّدُوا عِبادَتَهُمْ الدَّالَّةَ عَلَىٰ كُفْرِهم بـ «إِنَّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة» لِقَطْعِ أَمَلِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام بِمُعَالَجَتِهِمْ رَجاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ إِذْ يُسَاقُونَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِلىٰ جِهَةِ أبوابِ جَهَنَّم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

زِيدَت «مَا» بَعْدَ «إِذَا» لِتَوْكِيدِ الرَّبْطِ الشَّرْطِيّ، بَيْنَ مَجِيئِهِمْ وَشَهَادَةِ أَعْضَائِهِمْ عَلَيْهِم، إِذْ هُم كَافِرُونَ يَحْتَاجُونَ أَنْ يُؤَكَّدَ لَهُمْ البيانُ المتعلِّقُ بأحداثِ يَوْمِ الدِّينِ.

المثال الثالث: قولُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿...وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾:

زِيدَتْ «الباء» فِي «بِظَلَّام» لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النفي، والمقْصُودُونَ بالتوكيد الشَّاكُّونَ أو المنكِرُونَ، وَلَوْ كَانَ الْخِطَابُ خِطَاباً إِفْرادِياً لِكُلِّ مَنْ يَصْلُح للخطاب.

المثال الرابع: قول اللهِ عزّ وجَلَّ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ وحَالِهِمْ فِي بَعْضِ المواقف يَوْمَ الدّين:

﴿...وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾:

زِيدَتْ «مِنْ» في: ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ للتَّنْصِيصِ عَلَىٰ عُمُومِ النفي.

المثال الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ الْإِنْسَان:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

مَعْظَمُ جُمَلِ هَٰذِهِ الآيَةِ جُمَلٌ مُؤَكَّدَةٌ لِدَوَاعٍ بَلاَغِيَّةٍ أَتْرُكُ تَحْلِيلَها لتفكّرِ القارئ.

وبهَٰذا انتهىٰ هَٰذا الملْحق، والحمْدُ لِلّهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

سورة الشُّورَى

٤٢ مصحف ٦٢ نزول

وقد أطلق عليها سورة «حم عسق»
عند بعض السَّلف
وهي مكيَّة كلُّها
وقيل إلَّا الآيات (٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٧)
وهي الثالثة من «الحواميم السَّبْع»

(١)
نصّ السُّورة وَمَا فِيها من فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ

---

١ و٢ ـ • سكت أبو جعفر علىٰ «حا» و«ميم» و«عَيْن» و«سين» و«قاف» سكتات لطيفات بدون تنفس.

٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير: [يُوحَىٰ] بالمبني لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُوحِي] المبنيّ للمعلوم.
أي: اللهُ يوحي إليكَ، فأنْتَ يُوحَىٰ إليك.

٥ ـ • قرأ نافع، والكسائي: [يَكَادُ] بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَكَادُ]. وهما وجْهَانِ عَرَبيَّان جائزان.

٥ ـ • قرأ أبو عمْرو، وشعبة، ويَعْقُوب: [يَنْفَطِرْنَ] من فعل «انْفَطَرَ».
وقرأها باقي القراء العَشَرَة [يَتَفَطَّرْنَ] من فعل: «تَفَطَّرَ»، وفي هَـٰذِهِ القراءة معنىٰ تتابُعِ التفطُّر.

شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

١١ ـ • قرأ قَالُون، وأبُو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر [وَهْوَ] بإِسْكَانِ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضَمّ الهاء. ووقف يعْقُوب بهاء السَّكْت.

١٣ ـ • قرأ هشام: [إِبْرَاهَام].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وهُمَا نُطْقَانِ عِنْدَ الْعَرَبِ لاسْمِه.

مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾
يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ
مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى
ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ
ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ
فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ
ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ

---

١٦ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [وَعَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ بِكَسْرِ الهاء.

٢٠ ـ • قرأ قالون، ويعقوب، وهِشَام بِخُلْف عنه: ﴿نُؤْتِهِ﴾ بِكَسْرِ الْهاءِ مِنْ غَيْرِ صِلَة.
وقرأها باقِي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الهاء مع الصِّلَةِ: ﴿نُؤْتِهِ منها﴾ وهُوَ الوجْهُ الثّاني لِهِشَام.

مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي

٢٢ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: **[وَهْوَ]** بإسْكَانِ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿وَهُوَ﴾** بِضَمِّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٢٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأَبو عَمْرو، وحمْزَة، والكِسَائي: **[يَبْشُرُ]** من فعل: «بَشَرَهُ بالأَمْرِ يَبْشُرُه».
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿يُبَشِّرُ﴾** مِنْ فعل «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ» المضعَّف. وفي المضعف معنىٰ التوكيد، وهُوَ يُناسِبُ قِسماً من المؤمنين.

٢٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **﴿تفْعَلُونَ﴾** بتاء المخاطبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[يفْعَلُونَ]** بياء الغائبين.
وبين القراءتين تَكَامُلٌ في الأداء البياني.

٢٧ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: **[يُنْزِلُ]** من فِعْلِ «أَنْزَلَ» المهموز. =

يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ

= وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُنَزِّلُ﴾ من فعل «نَزَّل» المضعف والقِراءتان متكافئتان.

٢٨ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ من فعل «نَزَّل» المضعف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يُنْزِلُ الْغَيْثَ] من فعل «أَنْزَلَ».

٣٠ ـ • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر: [بِمَا كَسَبَتْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ بالفاء قَبْلَ «بِمَا».

٣٢ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [الْجَوَارِي] بإثبات الياء وَصْلاً. وكذلك ابن كثير، ويَعْقُوب، وَصلاً وَوَقفاً.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿الْجَوَارِ﴾ بِحَذْفِ الياء، وهما وجْهَانِ جَائِزَانِ فِي النطق.

٣٣ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر: [الرِّيَاحَ] بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد، وهو اسم جنسٍ يَشْمَلُ كُلَّ أَنواعِ الرِّياح.

٣٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [وَيَعْلَمُ] بالرفع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنَّصب.

﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ
كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟
سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن
سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ
وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ
إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ
ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ
يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾
ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ

٣٧ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [كَبِيرَ الإِثْم] بإِفْرادِ لَفْظِ «كَبِير».
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ بالْجَمْعِ للفظ «كَبِيرَة». والمؤدَّىٰ واحد.

مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

٥١ ـ • قرأ نافع، [أَوْ يُرْسِلُ] بالرفع، أي: أو هو يُرْسِلُ.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بالنَّصْبِ، وهما وجهان عَربيان جائزان.

٥١ ـ • قرأ نافع: [فيُوحِي] أي فهو يوحي. وقرأها باقي القراء العشرة: [فيوحِيَ] بالنصب عطفاً علىٰ «يُرْسِلَ».

٥٢ و٥٣ ـ • قرأهما قُنْبل، ورُويس: [سِرَاطٍ] بالسّين، وقرأهما بالصّاد مُشَمَّةً صَوْت الزاي خلفٌ عن حَمْزَة.
وقرأهما باقي القراء العشرة بالصاد الخالصة ﴿صِرَاطٍ﴾، وهي وُجوهٌ في النُّطْقِ العربي.

(٢)
مما ورَدَ بِشَأْنِ هَـٰذِهِ السُّورَة

هَـٰذِهِ السُّورَة من «الحوامِيم السَّبْع» التي سَبَقَ الحديث عَنْهَا في الفقرة (٢) مِنْ تَدَبُّر سورة (غافر/ المؤمن/ ٦٠ نزول)، ومِنْ تَدبُّر سورة (فصلت/ ٦١ نزول).
وَجَاءَ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْحَوَامِيمَ دِيباجُ القرآن، أي: فيها زينة، ونفاسَةٌ ولِينٌ.

(٣)
موضوع سورة (الشورىٰ/٦٢ نزول)

ظهر لي أنّ الحواميم السَّبْع: (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) و(فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) و(الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) و(الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) و(الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) و(الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) و(الأحْقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) ذَاتُ خَطٍّ رَئِيس هو خَطُّ الحديثِ عن القرآن ومَوْقِفِ الكافِرِينَ إِبَّانَ التنزيل مِنْه. وهَـٰذَا الخطّ قَدِ اسْتَدْعَىٰ الحديثَ عَنِ اللهِ عزّ وَجَلَّ مُنَزِّلِ القرآنِ وَعَنْ مَوْقِفِ الكافِرينَ مِنْهُ في خَطٍّ. والحَدِيثَ عَنِ الرَّسُولِ مُبَلِّغ القرآنِ، وَمَوْقِفِ مُكَذِّبِيهِ، في خَطٍّ. والحديثَ عَنِ الجَزَاءِ المُعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا، والمُؤَجَّلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَالإِنْذَارِ بِهِمَا مَعَ تَنوِيعِ الْحَدِيثِ، وَتَنْوِيعِ التَّرهيبِ بِعَرْضِ مَشاهِدَ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ التَّرْغِيبِ للمؤمنين بثوابٍ عظيم في خطٍّ.
وَاسْتَدْعَىٰ أَيضاً الْحَدِيثَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَصِفَاتِ مُعْظَم أَفْرَادِهِ فِي خَطّ.

وَرَافَقَ هَـٰذِهِ الْخُطُوطَ بَيَانَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ مُتَّصِلَاتٌ بِهَـٰذِهِ الخُطُوط مِنَ الفكر الدِّيني، ومن آيات اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ فِي تَصَارِيفِهِ بِعِبَادِهِ، وَشَوَاهِدَ مِنَ التَّارِيخِ لِقَضَايَا تَحْتَاجُ بِحِكْمَةِ اللهِ شَواهد.

وَتَكَادُ هَـٰذِهِ الْخُطُوط وَمُرَافِقَاتُها تُسَايِرُ سُوَرَ الحواميم السَّبْع، فَهِيَ بِمَثَابَةِ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ مُفَصَّلَةٍ إِلَىٰ سَبْعِ سُوَر، مَبْدُوءَةٍ بـ(حم)، وَقَدْ أُنْزِلَتْ فِي مَكَّة مُتَتَابِعَةً.

(٤)
دروس سورة (الشورىٰ/٦٢ نزول)

دُرُوسُ هَـٰذِهِ السُّورَةِ دُرُوسٌ مُتَشَابِكَةٌ يَصْعَبُ تَمْيِيزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، وَآيَاتُهَا تَسِيرُ عَلَىٰ الْخُطُوطِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا لدىٰ بيانِ موضوعِهَا الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ الحواميم السَّبْعِ.

ولتسهيل التَّدَبُّر بَدَا لِي أَنْ أُقَسِّمَهَا إلىٰ (١٢) درساً:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ الْوَحْيَ إلىٰ رَسُولِ اللهِ محمد ﷺ والْوَحْيَ إِلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مُتَمَاثِلَانِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأرْضِ، وَأَنَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيم. وَبَيَانُ أَنَّ السَّمَاوَات تَكَادُ تَتَشَقَّقُ غَيْظاً مِنْ أَقْوالِ الْأُمَمِ الْمُشْرِكَةِ الشِّرْكِيَّةِ، الَّتِي يَزْعُمُونَ فِيهَا أَنَّ للهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَٰهِيَّتِهِ.

الدرس الثاني: الآيات من (٦ ـ ١٢).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُكَلَّفاً أَنْ يُحَوِّلَ المشْرِكِينَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ الإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ حَفِيظاً وَلَا وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُبَلِّغَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَبِأَنْ يُنْذِرَ النَّاسَ بَدْءاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بِأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ ذَلِكَ، أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّار حَتْماً، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، بِخِلَافِ فَرِيقِ المؤمنين الَّذِينَ يُجَازَوْنَ فِي الْجَنَّةِ بِنَعِيمٍ خَالِدٍ فِيهَا.

وفِيهَا بَيَانُ أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً لَسَلَبَهُمْ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةَ، وَلَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ والْإِسْلَام وَالطَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ شَاءَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ، فَمَنْ آمَنَ

وَأَطَاعَ أَدْخَلَهُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ ظَلَمَ بِكُفْرِهِ وَعِصْيَانِهِ جَعَلَهُ اللهُ خَالداً فِي دَارِ الْعَذَابِ، وَلَمْ يَجِدْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً يُنَجِّيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلّ دَاعٍ إِلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُعَالِجَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أولياء، بِبَيَانِ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الْوَلِيُّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوتىٰ، وأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وأَنَّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وأَنْ يَقُولَ لَهُمْ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْهِ أُنِيب.

وَأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ طَائِفَةً مِنْ مَظَاهِرِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ كُلَّ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكُهُ، إِذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ يَمْنَحُ عِبَادَهُ بِحِكْمَتِهِ مِنْ خَزَائِنِهِ مَا يَشَاء، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم.

الدرس الثالث: الآيَاتُ من (١٣ ـ ١٦).

وفي آيات هٰذا الدَّرسِ بَيَانُ وَحدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي أُصُولِهَا الاعْتِقَادِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَفِي أُصُولِ وَقَوَاعِدِ المعاملات.

وَفِيهَا مُطَالَبَةُ النَّاسِ بِأَنْ يُقِيمُوا الدِّينَ، وَلَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ.

وبَيَانُ أَنَّ اللهَ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ.

وبيانُ أَنَّ الناسَ تَفَرَّقُوا إِلىٰ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ بَعْدَمَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ، بَلَاغاً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام، وَقَدْ كَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَغْياً، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ عِقَابَهُ فِي الْكَافِرِينَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدَّرَ وَقَضَىٰ تَأْجِيلَ الْعِقَابِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِيهَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ لِمَا شَرَعَ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَبِأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ كَمَا أَمَرَهُ، وَأَنْ لا يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ الكافِرِينَ، وَأَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ إيمانَهُ، وَمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ.

وَفِيهَا بَيَان سُقُوطِ حُجَجِ الْكَافِرِينَ بعد تَكَاثُرِ المؤمنين المسلمين.

الدرس الرابع: الآيَتَانِ (١٧، ١٨).

وفي آيَتَيْ هٰذا الدَّرسِ حَدِيثٌ عَنِ الْقرآن، وَعَنِ السَّاعَةِ، وَعَنْ حَالٍ مِنْ أَحْوَال غَيْرِ المؤمنين بها، وحالٍ آخرَ مِنْ أَحْوَالِ المؤمنين بها.

الدرس الخامس: الآيتان (١٩، ٢٠).

وفي آيَتَيْ هٰذا الدَّرس بيانٌ عن بَعْضِ صفَاتِ اللهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ الرازق، تَمْهيداً للْحَدِيثِ عَنْ قَانُونِ اللهِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ، وَإِلَىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الدنْيا فقط.

الدرس السادس: الآيات من (٢١ ـ ٢٦).

وفي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ ترهِيبُ المشْرِكِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَحْكَامٌ لَمْ يَأْذَنْ بِها اللهُ، بعذاب أليم يَوْمَ الدِّين، وتَرْغِيبُ المؤمنين الذين آمنوا وعَمِلُوا من الصَّالِحَاتِ، بأنَّ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي رَوْضَاتِ الجنَّاتِ.

وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ، مَا يَقُولُهُ للّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، وَلَهُ مَعَ أَكْثَرِهِمْ قُرْبَىٰ، مَعَ إطْمَاعِهِمْ بأَنْ يَزِيدَ اللهُ في ثَوَابِهِمْ إِذَا آمَنُوا وَاكْتَسَبُوا مِن الحَسَنَاتِ شَيئاً.

وفِيها بَيَانُ اتّهَامِ الّذِينَ كَفَرُوا الرَّسُولَ ﷺ بافترائِهِ الكَذِبَ عَلىٰ اللهِ، مَعَ الْمُعَالَجَةِ بالإقْنَاعِ، وإطْمَاعِ المؤمنين بأنْ يَزِيدَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِنْذَارِ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ.

الدرسُ السَّابع: الآيتان (٢٧، ٢٨).

في آيَتَي هٰذَا الدَّرس بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ في عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ لِعباده، وأَنَّهُ هُو الَّذِي يُهَيِّئُ للنَّاسِ أَسْبَابَ أَرْزَاقِهِمْ، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَوِلَايَتِهِ لَهُمْ، وَصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَهُ بِهَا كَمال الْحَمْدِ.

الدرس الثامن: الآيات من (٢٩ ـ ٣٥).

وفي آيات هـٰذا الدَّرس عَرْض بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، مع بيان حِكْمَتِهِ في بَعْضِ تَصارِيفِهِ مِنَ المكارِهِ، وَتَحْذِيرِ الكافِرِينَ من نِقْمَتِهِ، إنْ شَاءَ أَنْ يُعَجِّلَ عِقَابَهُمْ.

الدرس التاسع: الآيات من (٣٦ ـ ٤٣).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرسِ تَزْهِيدٌ بِمَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وإطْمَاعٌ بما عِنْدَ اللهِ يوْمَ الدّين.

وفيها حَثٌّ عَلَىٰ الْتِزَام بَعْضِ فَضَائِلَ مِنَ السُّلُوكِ الإسلامي ابْتِغَاءَ مَرْضَاةَ اللهِ، وَبيَانُ أَنَّ أَخْذَ الْحَقِّ بالْعَدْلِ لَا يُلَامُ المسْلِمُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ الْعَفْوَ والإصْلَاحَ وَالصَّبْرَ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ، وَلِمَنْ اخْتَارَ ذَلِكَ ثَوابٌ جَزِيلٌ عِنْدَ رَبّه.

الدرس العاشر:الآيات من (٤٤ ـ ٤٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٤٧ ـ ٥٠).

وفي آيَات هَـٰذَا الدَّرْس تَوْجِيهُ أَمْرٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للنَّاسِ، أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِرَبّهم، مَع تَحْذِيرِهِ لَهُمْ مِنْ يَوْمِ الدّينِ الَّذِي لا مَرَدَّ لَهُ، وَلَا مَلْجَأَ فِيهِ يَلْجَأُ إِلَيْهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا للخَلاصِ مِنْ عَذَابِ رَبّهم.

وفيها بَيَانُ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأنَّهُ مُبَلّغٌ، وَلَيْسَ مُكَلَّفاً أَنْ يَكُونَ حَفِيظاً عَلَىٰ النَّاسِ.

وفيها بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الإنْسَانِ تُجَاهَ مَا يَنالُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، أَوْ يُصِيبُهُ مِمَّا يَكْرَهُ بِحِكْمَةِ اللهِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض، وأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ يَهَبُ الْأَوْلَادَ للآبَاءِ وَالْأُمَّهاتِ، مِنْ إناثٍ وذُكُور علىٰ ما

يَشَاءُ، وقدْ يَجْعَلُ بَعْضَ عِبَادِهِ مَحْرُومِينَ مِنَ الذُّرِّيَّةِ، وَكُلُّ ذٰلِكَ عَلىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بعبادِهِ.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٥١ ـ ٥٣) آخِر السورة.

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ وُجوهِ الكَلامِ الَّذِي يُوَجِّهُهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ لِأَنْبيائِهِ ورُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ محَمَّد ﷺ ضِمْنَ هَـٰذِهِ الْوُجُوهِ القرآنَ وَتَعَالِيمَ الدِّينِ الَّتِي هِيَ رُوحُ سَعَادَةِ النَّاسِ، ونُورُ هِدَايَةِ مَنْ شَاءَ الْهِدَايَةَ مِنْهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَصِيرُ الْمَوْضُوعِيْنَ فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

(٥)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُرُوس سورة (الشورىٰ) الآيات من (١ ـ ٥)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

القراءات:

(١) و(٢) • سَكَتَ أَبُو جَعْفَر علىٰ (حَا) و(مِيم) و(عَيْن) و(سِينْ) و(قَاف) سَكَتَاتٍ لَطِيفَات بدون تنفس.

(٣) • قرأ ابْن كَثِير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بالمبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.

وقرأها باقي القراء العشرَة [يُوحِي] بالمبْني للمعلوم.

أي: اللهُ يُوحِي إِلَيْكَ فأنْتَ يَا مُحَمَّد يُوحىٰ إِلَيْكَ، بِمَعْنَىٰ يَتحقَّقُ لَدَيْكَ وَحْيُ اللهِ.

(٥) • قرأ نَافع، والكِسَائي: [يكَادُ] بالْيَاء.

وقرأها بَاقي الْقُرَّاءِ العشرة ﴿تكَادُ﴾ بالتاء.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَانِ.

(٥) • قرأ أبُو عمْرو، وَشُعْبَة، ويَعْقُوب: [يَنْفَطِرْنَ] مِنْ فِعْل: «انْفطَرَ» أي: انْشَقَّ.

وقَرَأها بَاقِي القراء العشَرة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ من فعل: «تَفَطَّر»، وفي هَـٰذِهِ القراءة مَعْنَىٰ تَتابُعِ التَّفَطُّر وهو الانْشِقَاق.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أداءِ المعنَىٰ المراد؛ لِأَنَّ بَعْضَ أَقْوَالِ المشْرِكِينَ أَشَدُّ مِنْ بَعْض، فالأشدُّ يقتضِي التَّفَطُّر، والأخف يَقْتَضِي الانْفِطار.

التدبّر التحليليّ:

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾:

سبق بَيَانُ مَا يَكْفِي بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الحروف المقطَّعةِ الموجودَةِ فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّور، لَدَىٰ تَدبُّر أَوَّلِ سُورَة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

■ قول الله تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بُغْيَةَ إِسْمَاعِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الوَحْيَ إِلَىٰ الْبَشَرِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ:

• ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾:

وفي قراءة ابن كثير [يُوحَىٰ] بالمبني لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، وَسَبَق بَيَانُ التكامُلِ بَيْنَ القراءَتَيْنِ. و[اللهُ] علىٰ هَـٰذِهِ القراءةِ فَاعل لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، تَقْدِيرُهُ: يوحي إليك الله.

سَبَقَ في سُورَةَ (فصلت/ ٦١ نُزُول) النَّازِلَةِ قَبْلَ سُورَةِ (الشُّورىٰ/ ٦٢ نُزُول) بَيَانٌ عَنِ الْقُرْآنِ وأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، وأَنَّ مُحمَّداً ﷺ بَشَرٌ يُوحىٰ إِلَيْهِ، وأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَبِمَا أَنَّ خُطُوطَ عَناصِرِ مَوْضُوع (الحواميم السَّبْع) تَسِيرُ فِيهَا جَمِيعاً، ويَأْتِي لَاحِقُهَا مضافاً إِلَىٰ سَابِقِهَا إِضَافَاتٍ تَكْمِيلِيَّة، فَالَّذِي أراه أَنَّ عبارة ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا جَاءَ فِي الآيَةِ (٦) مِنْ سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٦١ نزول) وَهِيَ قَوْلُ اللهِ عزّ وَجَلَّ فِيهَا لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

وَالْمَعْنَىٰ: كَذَلِكَ الَّذِي أَعْلَمْتهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّكَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ يُوحَىٰ إِلَيْكَ، يُوحِي إِلَيْكَ اللهُ الْعَزِيزُ بِقُدْرَتِهِ الْغَالِبَةِ، الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، إِذِ اصْطَفَاكَ نَبِياً وَرَسُولاً، وَهُوَ جَلَّ جَلالُهُ يُوحِي إِلَيْكَ مَا دُمْتَ تَتَلَقَّىٰ وَحْياً مِنْ رَبِّكَ وَأَنْتَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ كَانَ يُوحِي إِلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ قَبْلِكَ، بِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

العزيز: القويُّ الغالب.

الحكيم: الذي يضعُ الأشياءَ فِي مواضِعها، ويَخْتارُ أَفْضَلَ الاحْتِمَالَاتِ من كُلِّ الأشياء ذوات الاحتمالَات المختَلِفَات.

■ قول اللهِ تعالىٰ:

● ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾:

أي: لِلَّهِ العزيز الحكيم كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِما خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَلَا شَيْءَ فِيهما يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ شَرِيكاً لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَـٰهِيَّتِهِ، فَاتِّخَاذُ الْمُشْرِكِينَ أَنْدَاداً لله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ ظُلْمٌ كَبِيرٌ، وَكُفْرٌ جَسِيمٌ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً.

وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مِلْكاً لَهُ، وَخَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْعَلِيَّ الْعَظِيمَ، إِذْ هُوَ الْعَلِيُّ فَوْقَ كُلِّ ذِي وُجُودٍ فِي الْكَوْنِ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي يَمْلِكُ بِعَظَمَتِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ بِعَظَمَتِهِ كُلَّ مَا سِوَاهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خَطَّ الْحَدِيثِ عَنِ اللهِ وَكُفْرِ الْأُمَمِ الْمُشْرِكَةِ بِهِ، بِاتِّخَاذِهَا شُرَكَاءَ أَنْدَاداً، وهـٰذَا الْخَطُّ مُسْتَمِرٌّ في الْحَوَامِيمِ السَّبْعِ الْمُتَتَالِيَاتِ تَنْزِيلاً:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

التَّفَطُّر: التَّشَقُّقُ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَزُّقِ مِنَ الْغَيْظِ تَأَثُّراً مِنْ كَبِيرَةِ مَقَالَاتِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا لله أَنْدَاداً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَـٰهِيَّتِهِ.

إِنَّ الْكَلَامَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي غَيْرِ الْأَحْيَاءِ ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، إِذَا لَمْ يُوجَدْ مَانِعٌ يَمْنَعُ تَأْثِيرَهُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَمِنْ هَـٰذَا التأثِيرِ مَا هُوَ تَأْثِيرٌ حَمِيد، فَلَوْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ وَخَشَعَ، وَمِنَ الْكَلَام مَا يُؤَثِّرُ فِي الشِّفَاءِ مِنَ الْأَمْرَاضِ، كَالتِّلَاوَاتِ وَالْأَدْعِيَةِ وَالرُّقَىٰ. وَمِنَ الْكَلَام مَا يَجْعَلُ الجامِدَاتِ غَيْرَ الْحَيَّةِ تَتَفَطَّرُ وَتَتَشَقَّقُ إِذَا لَمْ يَحْمِهَا اللهُ مِنْ ذَٰلِكَ بِقُدْرَتِهِ، وَهَـٰذَا تَأْثِيرٌ سَيِّئٌ فِيها غير حَميد، كَتَأْثِير الْأَشْيَاءِ المادِّيَّةِ في مَادِّيَّاتٍ أُخْرَىٰ، مثل تأثير الْحَرَارَةِ فِي التَّجْفِيفِ أو الإِحْرَاقِ.

وَقَدْ يَكُونُ هـٰذا الْبَيَانُ تَعْبِيراً عَنْ حَالَةِ السَّمَاوَاتِ لَوْ كَانَتْ ذَوَاتَ إِحْسَاسٍ، تُدْرِكُ أَقْوَالَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ الصَّادِرَةِ عَنْهُمْ وَهُمْ فِي الْأَرْضِ، مِمَّا يُسْخِطُ رَبَّ الْعَالَمِينَ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ كَبِيراتٍ شَنِيعَاتٍ، إِذْ تَنْفِرُ مِنْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهَا فِي أَجْرَامِهَا، فَتَرْتَفِعُ مِنْ أَوَاسِطِ أَسْفَلِهَا ارْتِفَاعاً يُشْبِهُ بَاطِنَ الْقَوْسِ، وَهـٰذَا الارْتِفَاعُ الكَرِيهُ يَجْعَلُ أَعْلَاهَا يَتَفَطَّرُ وَيَتَشَقَّقُ، بِتَأْثِيرِ تَمَدُّدِهَا إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، فَهِيَ تَتَفَطَّرُ مِنْ فَوْقِهِنَّ تَفَطُّرَ الْعَجِينِ إِذَا انْتَفَخَ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ.

وَهـٰذَا تَمْثِيلٌ عَلَىٰ تَقْدِيرِ أَنَّ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ ذَوَاتُ إِحْسَاسٍ، يَتَأَثَّرُ بِمَعَانِي أَقْوَالِ الْكُفْرِ الصَّاعِدَةِ مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْأَرْضِ.

وَعَلَىٰ هـٰذَا يَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾: تَقْتَرِبُ السَّمَاوَاتُ لو كَانَتْ تُحِسُّ، مِنْ حَالَةِ تَفَطُّرِهِنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ، بِتَأْثِيرِ أَقْوَالِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ بِرَبِّهَا المسْخِطَةِ لَهُ، إِذْ تَصْعَدُ إِلَىٰ أَجْرَامِها مِنَ الْأَرْضِ، فَتَضْغَطُ عَلَيْهَا ضَغْطاً كَرِيهاً مُؤْلِماً مِنْ أَسْفَلِهَا، فَتَبْتَعِدُ أَوَاسِطُها إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ نَافِرَةً وَمُتَجَافِيَةً عَمَّا يُؤْلِمُهَا، فَيَتَفَطَّرُ أَعْلَاهَا مُتَشَقِّقاً غَضَباً للهِ رَبِّهَا.

• ﴿.. وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

أي: والْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاوَاتِ (وَهُمْ مَالِئُونَ لَهَا أَخْذاً مِنْ بيانِ الرَّسُول ﷺ) يَقُومُونَ بأَدَاءِ وَظِيفَتَيْنِ:

الوظيفة الأولىٰ: أَنَّهُمْ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي: يُنَزِّهُونَ اللهَ رَبَّهُمْ عَنْ كُلّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَهـٰذَا التَّنْزِيهُ مُقْتَرِنٌ بِحَمْدِهِ والثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي هِيَ لَهُ، مَا عَلِمَتِ الْخَلَائِقُ مِنْهَا وَمَا لَمْ تَعْلَمْهُ، فَاللهُ لَهُ الحَمْدُ كُلُّه.

الوظيفة الثانية: أَنَّهُمْ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أَيْ: يَسْأَلُونَ اللهَ رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَ لِجَمِيعِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَيَسْتُرَ ذُنُوبَهُمْ وَلَا يُعَجِّلَ بِعِقَابِهِمْ عَلَيْهَا، رَجَاءَ أَنْ يَتُوبُوا وَيَعْمَلُوا صَالِحاً.

وهَـٰذَا الاسْتِغْفَارُ مِنَ الْـمَلاَئِكَةِ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، مِمَّا أَمَرَهُمُ اللهُ بِه، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمُ اللهُ بِهِ. وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لِعُصَاةِ المؤمنين، طَمَعاً فِي أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لِلْكُفَّارِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ عَدَم تَعْجِيلِ عِقَابِهِمْ عَلَىٰ كُفْرِيَّاتِهِمْ، رَجَاءَ أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا فَيَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، أَمَّا الَّذِينَ مَاتُوا كَافِرِينَ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ مَاتَ كَافِراً.

• ﴿... أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاةَ اسْتِفْتَاحٍ، وَتَنْبِيهٍ، وَتَوْكيد.

أي: انْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا أَيُّها المتَلَقُّونَ، واعْلَمُوا هَـٰذِهِ الحقيقة عَنْ رَبِّكُمْ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، فَهُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ الْغَفُورُ غُفْرَاناً عَظِيماً لَا يُدَانِيهِ فِيهِ أَحَدٌ، وَهُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ الرَّحِيمُ الَّذِي لَا تُدَانِي رَحْمَتَهُ بِعِبَادِهِ كُلُّ الرَّحَماتِ الْمُوَزَّعَاتِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ.

الغَفُور: صيغَةُ مبالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعِلِ «غافر»، وهو الساتِرُ للذُّنوب.

الرَّحيم: أي: الْعَظِيمُ الرَّحْمَة بِعِبَادِهِ، وَهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، من آثارِهَا الْعَطَاءُ، والْعَفْوُ، وَالْعَوْنُ.

وبهـٰذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (الشورىٰ).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفتحه.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من دروس سورة (الشورىٰ)
الآيات من (٦ ـ ١٢)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ

لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾.

القراءات:

(١١) • قرأ قالُون، وأَبُو عَمْرُو، والكِسَائِي، وأبو جَعْفَر: [وَهْوَ] بإسْكَانِ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء، ووقف يَعْقُوب بهاء السَّكْت.

تمهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بِأَنَّهُ لَيْسَ مُكَلَّفاً أَنْ يُحوِّلَ المشْرِكِينَ مِنَ الشِّرْكِ إِلىٰ الْإِيمَان؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ حَفِيظاً، وَلَا وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يُبَلِّغَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إِلَيْهِ، وَمَأْمُورٌ بِأَنْ يُنْذِرَ النَّاسَ بِدْءاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بِأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ لِعَذَابِ اللهِ المعَجَّل، إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمْ جُزْءاً مِنْ عَذَابِهِمْ، أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ حَتْماً، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، بِخِلَافِ فَرِيقِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُجَازَوْنَ يَوْمَ الدِّينِ بِالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وفيهَا بَيَانُ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلّ لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدةً لَسَلَبَهُمُ إراداتِهِمْ الحرَّة، وَلَجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الإِيمان والإِسْلَام وَالطَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ شَاءَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ وَأَطَاعَ بإِرَادَتِهِ الحُرَّةِ أَدْخَلَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي رَحْمَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ تَفَضُّلاً مِنْهُ عَلَيْه، وَمَنْ ظَلَمَ فَكَفَرَ وَتَمَرَّدَ وَعَصَىٰ، بإرَادَتِهِ الحرَّة، وَمَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ، جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَالِداً فِي دَارِ العذابِ النّار، وَلَمْ يَجِدْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وفِيها تَعْليمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، أَنْ يُعَالِجَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ، بِبَيَانِ أَنَّ اللهَ هُوَ وحْدَهُ الْوَلِيُّ فِي الْوُجُودِ كُلّه، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَأَنَّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مُطْلَقاً.

وَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ للنَّاسِ: ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَعَلَّمَ اللهُ عزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِ طَائِفَةً مِنْ ظَاهراتِ خَلْقِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ كُلَّ خزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَفَاتِيحَها مِلْكُهُ، وَهِيَ تَحتَ سُلْطَانِهِ وَتَصرُّفِه، إِذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَمَشْمُولَةٌ دَوَاماً بِرُبُوبيَّتِهِ، وَأَنَّهُ يَمْنَحُ عِبَادَهُ مِنْ خزَائِنِهِ مَا يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

التدبُّر التحليلي:

□ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾:

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محَمَّدٍ ﷺ: مَا أَنْتَ عَلَىٰ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ بِوَكِيلٍ مَسْؤُولٍ عَنْ كُفْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا مُمْتَحنُونَ، وَأَنْتَ تُبَلِّغُهُمْ مَطْلُوبَ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَتُبَشِّرُهُمْ وَتُنْذِرُهمْ.

وَلَسْتَ مَسْؤُولاً عَنْ حِفْظِهِمْ حِفْظاً جَبْرِياً مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي يَصِيرُ بِهِمْ إِلَىٰ عَذَابِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ، فَالْحَفِيظُ المُجْبِرُ ذُو السُّلْطَانِ عَلَىٰ عِبَادِهِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ، فِيمَا شَاءَ أَنْ يَكُونَ حَفِيظاً لَهُ بِسُلْطَانِهِ الْجَبْرِي.

أي: فَلا تَحْمِلْ فِي قَلْبِكَ هَمَّ تَحْوِيلِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَىٰ الهِدَايَةِ.

الحفيظ: الحارِسُ علىٰ الشيءِ، المُوَكّلُ بِحِفْظِهِ مِمّا قَدْ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ شَرّ.

الْوَكِيل: مَنْ يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا وَيُكْتَفَىٰ بِهِ فِي اخْتِيَارِهِ أَوْ عَمَلِهِ.

جَاءَ فِي القرآن فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْعَلْ رَسُولَهُ مُحمَّداً ﷺ عَلَىٰ أُمَّتِهِ حَفِيظاً، مِنْهَا قول اللهِ عزَّ وَجلَّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) خطاباً لِرسوله ﷺ:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٩٢ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿. . . وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

وجاء في القرآن في عدّة نُصوصٍ بَيانُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ رَسُولَهُ ﷺ عَلىٰ أُمَّتِهِ وَكيلاً، منها ما جاء في آيةِ (الأنعام) الآنِفَةِ الذِّكْرِ، ومِنْهَا قول الله تَعَالَىٰ فِي سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿. . . وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

وجاء في القرآن بيانُ أَنَّ اللهَ هو الحفِيظُ وَهُوَ الْوَكِيلُ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَكُلِّ كَوْنِهِ.

فالمرادُ بِكَوْنِ الله حَفِيظاً علىٰ عِبَادِهِ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِسُلْطَانِهِ الْجَبْرِي، يَحْفَظُهُمْ مِمَّا فِي كَوْنِهِ مِمَّا يَسُوءُهُمْ أَو يُؤْذِيهِمْ أَوْ يَضُرُّهُمْ أَوْ يَكُونُ شَرّاً لَهُمْ مِنْ عَوَارِضِ مَا فِي كَوْنِهِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ قَضَاءٌ وَقَدَر. ويَحْفَظُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ أَعْمَالِ اخْتِيَارِيَّةٍ تَدْخُلُ فِي مُحَاسَبَتِهِمْ بِعِلْمِهِ، وَبِمَا يُسَجِّلُ الْمَلَائِكَةُ المكلَّفُونَ أَنْ يَكْتُبُوا أَعْمَالَ العِبَادِ الموضوعِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَبِمَا جَعَلَ فِي أَجْسَامِ الْعِبَادِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُسَجِّلَاتٍ تَشْهَدُ بِهَا أَعْضَاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ حِفْظِ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ بِسُلْطَانٍ جَبْرِيٍّ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، بَلْ هُوَ مُبَلِّغٌ مَا أَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ الرَّحْمٰنُ، وَنَاصِحٌ وَمُرْشِدٌ، وَمُبَشِّرٌ وَمُنْذِر، ثُمَّ هُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْ إِرَادَاتِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

والمرادُ بِكَوْنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَكِيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَّهُ هُوَ الْقَائِمُ دَوَاماً بِحِفْظِ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ تَصَرُّفاً يَشْمَلُ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، إيجاداً وَإِعْدَاماً، وإِمْدَاداً، وَتغييراً، ويَشْمَلُ ابْتِلَاءَ مَنْ مَنَحَهُمُ الإرادة الْحُرَّةَ، وَيَشْمَلُ التَّرْبِيَةَ والجزاء.

فَمَا مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، إِلَّا هُوَ خَاضِع لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّة اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

فَمَعْنَىٰ كَوْنِ اللهِ عزّ وَجلَّ وَكيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ صَارَ فِي الاصْطِلَاحِ الدّينيّ يَشْمَلُ هٰذِهِ المفهومات.

والرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنْهَا، فَهُوَ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ.

□ قولُ الله تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾:

جاء في سورة (فُصّلت/ ٦١ نزول) قول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾:

وَمُتابَعَةً لِخَطِّ الْحَديثِ عَنِ الْقرآنِ فِي الحَوامِيمِ السَّبْعِ» جاءَتْ هَـٰذِهِ الآية (٧) من سُورَةِ (الشُّورَىٰ/ ٦٢ نزول).

أي: وَكَذَلِكَ الْوَحْي الَّذِي يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَكَانَ يُوحَىٰ إِلَىٰ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، مِنْ قَبْلِكَ، أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً.

أَطْلَقَ اللهُ عزّ وَجلَّ عَلَىٰ الْبَعْضِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ الْكِتَابِ المقْضِيّ أَنْ يُنْزِلَ سَائِرَهُ عُنْوَانَ «قُرْآن» للدَّلالَةِ عَلىٰ أَنَّ البَعْضَ مِنْهُ قُرْآنٌ أَيْضاً، نَظَراً إِلَىٰ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ أَنْ يُكْتَبَ وَيُقْرأ، وهُو جُزْءٌ مِنْ كُلّ.

وجاءت عِبارَةُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ تَوْطِئَةً وَتَمْهِيداً لِقَوْلِ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: لِتُبلّغ وَتُبيِّنَ وَتُبَشِّرَ وَتُنْذِرَ النَّاسَ فِي أُمّ الْقرَىٰ الْمُعَاصِرينَ لَكَ، وَكُلَّ سُكَّانِ الأَرْضِ الْمَوْجُودِينَ حَوْلَ أُمِّ الْقُرَىٰ، مُبَاشَرَةً، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَيَحْمِلُونَ رِسَالَةَ تَبْلِيغِ دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِكَ، مَا تَتَابَعَتِ الأَيَّامُ، حَتَّىٰ آخِرِ الأَجْيالِ المتتابِعَةِ فِي الأَرْضِ.

أُمّ الْقُرَىٰ: هِيَ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَة، وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا أُمُّ الْقُرَىٰ لِأَنَّهَا سُرَّةُ الأَرْضِ، وَأَوَّلُ مَكَانٍ فِي الأَرْضِ سَكَنَتْهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ النَّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدم عَلَيْهِ السَّلام.

يُطْلَقُ لَفظِ الْقَرْيَةِ عَلَىٰ كُلِّ أَرْضٍ فِيهَا مَسَاكِنُ وَبُيُوتٌ مُجْتَمِعَة سواءٌ أَكَانَتْ قَلِيلَةً أَمْ كَثِيرَة، وَلَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عُظْمَىٰ، وَإِطْلَاقُ أمّ القرىٰ علىٰ سكانها من إطلاق المحلِّ وإِرَادَةِ الحَالّينِ فِيهِ. وَتَوْطِئَةً وَتَمْهيداً لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ.

• ﴿.. وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾.

فِعْلُ «أَنْذَرَ» يَتَعَدَّىٰ إِلىٰ مَفْعُولَيْنِ، يُقَالُ لُغَةً: «أَنْذَرَ فُلَانٌ فُلاناً مَكْرُوهاً» أَيْ: أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ.

يَوْمُ الْجَمْع: أي: يَوْمُ القيامَة، سُمِّيَ يَوْمَ الجَمْعِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَجْمَعُ فِيهِ الْخَلَائِقَ مِنْ أَوَّلِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِهِمْ، وَفِيهِ يجري الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، ثُمَّ تَنْفِيذُ الجزاء.

لَا رَيْبَ فِيهِ: أي: خَبَرُ يَوْمِ الْجَمْعِ خَبَرٌ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فَهَـٰذَا الْيَوْمُ أَحَدُ عَنَاصِرِ خُطَّةِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيَّة، وَعَدَ اللهُ بِهِ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد؛ لِأَنَّهُ قَدِيرٌ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وفَعَّالٌ لِمَا يَشَاء، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ.

وَإِذْ كَانَ يَوْمُ الْجَمْعِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجَزاءِ وَإِذْ كَانَ النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا فَرِيقَيْنِ: مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ أَخْياراً، وَكافِرِينَ مُسْتَكْبِرِينَ فُجَّاراً، وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ ذَا فَضْلٍ وَذَا عَدْلٍ، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْم أَنْ يَكُونَ الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ فِي الجَنَّة، وَأَنْ يَكُونَ الْفَرِيقُ الآخَرُ فِي السَّعير، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةَ:

• ﴿... فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾:

السَّعِير: هو في اللُّغَةِ النَّار، وقيل: لَهَبُ النَّارِ. ويقالُ لغة: «سَعَرَ النَّار، وأَسْعَرَهَا، وَسَعَّرَهَا» أي: أَوْقَدَهَا وَهَيَّجَهَا.

فَمَعْنَىٰ الآية: بِإبْرازِ المطْوِيَّاتِ فِيها: وَكَذٰلِكَ الْوَحْي الَّذِي يُوحَىٰ

إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَكَانَ يُوحَىٰ نَظِيرُهُ إِلَىٰ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً، لِتُبَلِّغَ وَتُبَيِّنَ وَتُبَشِّرَ وَتُنْذِرَ أَهْلَ مَكَّةَ أُمِّ الْقُرَىٰ الْعَرَب، وَمَنْ حَوْلَ مَكَّةَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، عَرَباً وَغَيْرَ عَرَبٍ، إِمَّا بِالْمُبَاشَرَة، وإِمَّا عَنْ طَرِيقِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَيَحْمِلُونَ رِسَالَةَ تَبْلِيغ دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِكَ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، مَا تَتَابَعَتِ الأَيَّامُ حَتَّىٰ آخِرِ الأَجْيَالِ المتتابِعَةِ فِي الأَرْضِ.

وَمَضْمُونُ إِنْذَارِكَ فِي رِسَالَتِكَ يَشْمَلُ إِنْذَارَيْنِ:

الأَوَّل: أَنْ تُنْذِرَ الْكَافِرِينَ عِقَابَ اللهِ الْمُعَجَّلَ فِي الدُّنْيا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمْ شَيْئاً مِنَ الْعِقَابِ.

الثَّانِي: أَنْ تُنْذِرَ الْكَافِرِينَ وَالْعُصَاةَ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ الذي سَوْفَ يَكُونُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْجَمْعِ، بَعْدَ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِمْ، إِذْ يَكُونُ فَرِيقُ الْكَافِرِينَ فِي السَّعِير، أَمَّا فَرِيقُ المؤمنين فَيَكُونُ فِي الْجَنَّةِ مُنَعَّماً بِنَعِيمِهَا.

وَعِبَارة الإِنْذَارين هي فيما أَرَىٰ علىٰ الوجهِ التالي: لِتُنْذِرَ كُفَّارَ أُمِّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا عِقَاباً مُعَجّلاً إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ رَبِّكَ ذَلِكَ، وَتُنْذِرَ عِقَابَ اللهِ المحقَّقَ يَوْمَ الْجَمْعِ الذي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَالَّذِي يَكُونُ فِيهِ النَّاسُ فَرِيقَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَفِي الجَنَّة، وأَمَّا الآخَرُ فَفِي السَّعِير.

■ قول الله عزَّ وَجلَّ مُبَيّناً أَنَّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَلَيْسُوا مَجْبُورِينَ، وَلَوْ كَانُوا مَجْبُورِينَ لَجَعَلَهُمُ اللهُ أُمَّةً وَاحِدَةً مُؤْمِنَةً:

● ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ الناسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، لَا يَكُونُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ

فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ آخَرُ مِنْهُمْ فِي السَّعِيرِ، لَسَلَبَهُمْ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّة، وَلَجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وَلَوْ جعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الإِيمانِ والإِسْلَامِ والطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْرَ والْعِصْيَانَ، وَلَكَانُوا حِينئذٍ كَالْمَلَائِكَةِ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَلَكَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمُ اللهُ بِهِ آناً فآناً.

وَلَكِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْنَحَ كُلَّ مَنْ وَضَعَهُ مِنْ عِبَادِهِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ إرَادَةً حُرَّةً، يُرِيدُ بِهَا لِنَفْسِهِ طَرِيقَ الحَقِّ وَالْخَيْرِ والْهُدَىٰ، أَوْ يُرِيدُ بِهَا لِنَفْسِهِ طَرِيقَ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ والضَّلَالِ، تَلْبِيَةً لِرَغَبَاتِ نَفْسِهِ وَأَهْوَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا مِنَ الدُّنْيَا العَاجِلَةِ، وَيَأْتِي بَعْدَ هَـٰذَا الامْتِحَانِ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَنْفِيذُ الجَزَاءِ الملائِم لِمَا قَدَّمَ كُلُّ مُمتَحَنٍ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ اخْتَارَهُ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّة. فاللهُ يُدْخِلُ فِي رَحْمَتِهِ الَّتِي مِنْ آثَارِهَا النَّعِيمُ المقِيمُ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ، عَلَىٰ وَفْقِ مَشِيئَتِهِ الَّتِي لَا مُجْبِرَ لَهَا، بَلْ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ المسلمين من عباده، وأَمَّا الظَّالِمُونَ بِكُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي دَارِ الْعَذَابِ النّار خَالِدِينَ فِيهَا، وحِينئذٍ لَا يَكُونُ لَهُمْ وليٌّ مَا يَرْحَمُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ وَيُؤْوِيهِمْ، وَلَا نَصِيرٌ يَنْصُرُهُمْ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَداً مِثْقَالَ ذَرَّة. «مِنْ» فِي: «مِنْ وَلِيٍّ» للتنصيص علىٰ استغراق عُمُوم النفي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّهِمْ أَرْبَاباً وَآلِهَةً شُرَكَاءَ لله فِي رُبُوبِيَّتِهِ أو فِي إِلَهِيَّتِهِ:

● ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾:

﴿أَمِ﴾ تَنْحَلُّ إِلَىٰ إِضْرَابٍ واسْتِفْهَامٍ. أي: بَلْ تَوَهَّمَ المشْرِكُون أَنَّ

آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ سَوْفَ يَكُونُونَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ. أَهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ سَوْفَ تَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، يَوْمَ لا يَكُونُ لَهُمْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ مِنْ دُونِ اللهِ، إِنَّهُمْ ضَالُّونَ ضَلَالاً بَعِيداً، يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ التَّأْنِيبِ وَالتَّلْوِيمِ وَالتَّوْبِيخِ والإنكار.

• ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾: أي: فَاللهُ وَحْدَهُ هو الْوَلِيُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ لِكُلّ عِبَادِهِ، فَلَا حَامِيَ إِلَّا هُوَ، وَلَا نَاصِرَ إِلَّا هُوَ.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإِسْنَادِ مَعْ تَوْكِيدِهِ بِضَمِيرِ الْفصل.

• ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ متىٰ شَاءَ إِحْيَاءَ مَا يَشَاءُ إِحْيَاءَهُ مِنَ الْمَوْتَىٰ، وَهُوَ يُحْيِي الموتىٰ يَوْمَ الْبَعْثِ، لِتَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنِ امْتِحَانِ الموضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَهِيَ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضاءِ وَتَنْفِيذُ الجَزَاءِ، بِالْفَضْلِ أَوْ بِالْعَدْلِ.

• ﴿...وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾:

أي: وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاءُ إِيجَادَهُ، أَوْ إِعدَامَهُ، أو إِجْرَاءَ أَيّ تَصرُّفٍ فِيهِ: قَدِيرٌ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ»، فَهُوَ يَكُونُ بأَمْرِهِ التَّكْوِينِي جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلّمُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، بَيَاناً دَعَوِياً يُوَجِّهُهُ لِمَنْ يُلَائِمُهُمْ تَوْجِيهُهُ لَهُمْ مِنَ الْمَدْعُوِّينَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ:

• ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾:

يَشْتَمِلُ هَـٰذَا التعليم الدَّعَوِي عَلَىٰ (١١) قَضِيَّةً مِنْ قَضَايَا كُبْرَيَاتِ المَفْهُومَاتِ الدِّينيَّة.

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُوله ﷺ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾:

«ما» مَوْصُولٌ مُبْهَمٌ. «مِنْ شَيْءٍ» بَيَانٌ لَهُ. أي: وكلُّ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ، الشَّامِلَةِ لِلْعَقَائِدِ، وَالأَخْلَاقِ، وَالْمُعَامَلَاتِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ، فَحُكْمُهُ إِلَىٰ الله، هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَحْكُمُ فِيهِ بِأَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ، صَوَابٌ أَوْ خَطَأٌ، خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ، حَسَنٌ أَوْ قَبِيحٌ، طَاعَةٌ لِلَّهِ أَوْ مَعْصِيَةٌ لَهُ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ مَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ، وَسَيُنْزِلُ سَائِرَهُ، وَفِيهِ بَيَانُ أُمَّهَاتِ قَضَايَا الدِّينِ، لِتُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ، وَلَا تُخَالِفُوا أَحْكَامَه، فَمَا اخْتَلَفْتُمْ عَنْهُ بِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ حُكْمِهِ هُوَ، لَا بِحَسَبِ حُكْمِ أَهْوَائِكُمْ، وَلَا بِحَسَبِ أَحْكَامِ أَهْلِ الضَّلَالِ مِنْكُمْ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَكُمْ اتِّبَاعَ غَيْرِ مَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ لِتَتَّبِعُوهَا وَتَعْمَلُوا بِهَا، وَزَيَّنُوا لَكُمْ اتِّخَاذَ آلِهَةٍ مِنْ دُونَ اللهِ رَبِّكُمْ.

فَحُكْمُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا هُوَ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا دِينُ اللهِ رَبِّكُمْ، وَجَعَلَكُمْ مَسْؤُولِينَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ إيماناً وَعَملاً، سَوفَ يَكُون يَوْمَ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ آمَنَ بِالْحَقِّ وَأَسْلَمَ لِلَّهِ وَأَطَاعَ نَجا وَفَازَ، بالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ الْخَالِدَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعيم، وَمَنْ كَفَرَ بِالْحَقِّ وأَبَىٰ أَنْ يُسْلِمَ لِلَّهِ وَيُطِيعَ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، خَسِرَ كُلَّ نَفْسِهِ، وَأَدْخَلَهُ اللهُ بِعَدْلِهِ دَارَ الْعَذابِ النَّار يَوْمَ الدِّين، خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً.

القضِيَّة الثَانِيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾:

أي: ذَلِكُم الْعَظِيم الْجَلِيل الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ الَّذي إِلَيْهِ يَكُونُ حُكْمُ جَمِيعِ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُجَازيكُمْ عَلَيْهِ بِحَسَبِ حُكْمِهِ خَيْراً أَوْ شَرّاً، هُوَ اللهُ رَبّي، الَّذِي جَعَلَني نَبِياً وَرَسُولاً، وَكَلَّفَنِي أَنْ أُبَلّغَكُمْ مَا أَنْزَلَ وَيُنْزِلُ عَلَيَّ مِنْ كِتَابِهِ الْقُرْآن، وأَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ قَضَايَا الدِّين، الَّذِي جَعَلَكُمْ مَسْؤُولِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ واتّبَاعِ أَحْكَامِهِ، فَلَا تَسْتَهِينُوا بِهَـٰذِهِ الْحَقَائِق الّتي تَرْتَبِطُ بِهَا مَصَايِرُكُمْ، فِي آخِرَتِكُمْ.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

أَيْ: فَإِذَا لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِي، وَحَاوَلْتُمْ مُقَاوَمَةَ دَعْوَتِي، أَوْ حَاوَلْتُم التَّخَلُّصَ مِنِّي، وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي، فاعْلَمُوا أَنّي عَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلْتُ، فَهُوَ الْكَفِيل بِحِمَايَتِي وَنُصْرَتِي وَحِمَايَةِ مَنْ آمَنَ بِي وَاتَّبَعَني، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ إِظْهَارِ دِينِهِ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهِ الْكَافِرُونَ بِهِ.

التوكُّلُ عَلَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو المتوكِّلُ إِليه، مَعَ قِيامِ المتوكّلِ عَلَىٰ اللهِ بالْأَسْبَابِ المستطاعَةِ لَهُ، المادّيَّة والمعنويّة، طَاعَة لِأَمْره وَنَهْيِه.

وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ مَعَ طَاعَتِهِ لَهُ كَفَاهُ، فَحَمَاهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ الَّتِي تُرْضِيه.

القضيّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

أي: وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ أَرْجِعُ فِي أُمُورِي كُلِّهَا، طَاعَةً لَهُ، وَاتّبَاعاً لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَوَصَايَاهُ، واسْتِعَانَةً بِهِ، وَلُجُوءاً إِلَيْهِ وَاسْتِعَاذَةً بِهِ، وَأَرْجِعُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي دُعَائِي وَعِبَادَاتِي، وَمَا يُفْتِينِي بِهِ، فِي كُلّ أَمْرٍ لَا أَعْلَمُ بِشَأْنِهِ عِلْماً تَلَقَّيْتُهُ عَنْهُ، فَأَنَا لَا أَسْتَجِيبُ لَكُمْ بِشَيْءٍ عَلَىٰ خِلَافِ طَاعَةِ رَبِّي.

الإنابةُ: الرُّجوع مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، يُقَالُ لُغَةً: «أَنَابَ فُلانٌ إِلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رَجَعَ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً، وَهٰكَذَا بِعَادَةٍ مُتَتابِعَةٍ.

والمنيب إلىٰ الله: هو ذُو الرُّجُوعِ إِلىٰ اللهِ آناً فَآناً، بِقَلْبِهِ، وَنَفْسِهِ، وفِكْرِهِ، وَعَمَلِهِ.

القضية الخامِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَه ﷺ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي: هُوَ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَلَىٰ نِظَامِ الْفَطْرِ وَهُوَ الشَّقُّ مِنْ عُمْقِ بَاطِنِ الأشْيَاءِ، مِنْ نُقْطَةِ مَرْكَزِ كُلِّ أَصْغَرِ جُزْءٍ فِي الْوُجُودِ، وَهِيَ نُقْطَةُ الْعَدَمِ، فَاللهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِنَ الْعَدَمِ.

الأرض: هِيَ الكُرَةُ الكَوْكَبِيَّةُ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

السَّماوَات: هِي السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ الْمُلْتَفَّاتُ حَوْلَ بَعْضِهَا، فِي الأَبْعَادِ السَّحِيقَةِ، الَّتِي تُقَدَّرُ بِمِلْيَارَاتِ مِلْيَارَاتِ السَّنَوَاتِ الضَّوْئِية، وَالْوَهْمُ الإِنْسَانِيُّ لَا يَسْتَطِيعُ تَخَيُّلَ أَبْعَادِها، وَهِيَ مَلِيئَةٌ بِمِلْيَارَاتِ الْمَجَرَّاتِ.

فَمَا أَعْظَمَ الْخَالِقَ الْفَاطِرَ وَمَا أَجَلَّهُ؟!!.

القضية السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ:

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾:

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾: أَيْ: يُكَثِّرُكُمْ فِيهِ بِطَرِيقِ التَّزَاوُجِ الذي تَكُونُ فِيهِ الذُّرِّيَّة، تَنَاسُلاً مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ. وَمَعْنَىٰ «ذَرَأَ» خَلَقَ، قَالُوا: وَكَأَنَّ الذَّرْءَ مُخْتَصٌّ بِخَلْقِ الذُّرِّيَّة.

أي: وَتَفَضَّلَ اللهُ رَبِّي وَرَبُّكُم فَجَعَلَ لَكُمْ اشْتِقَاقاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً، فَتَتَلاقَوْنَ تَلاقي مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ وَشَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ، فَيُخْرِجُ لَكُمْ فِيهِ ذُرِّيَّةً

مِنْ أَصْلَابِ ذُكُورِكُمْ وَبُطُونِ إِنَاثِكُمْ، فَيُكَثِّرُكُمْ، وَيَجْعَلُكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ وأُمماً.

وَكَذَلِكَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً، فَهُوَ يُكَثِّرُهَا لَكُمْ بالتَّزَاوُجِ بَيْنَ ذُكُورِهَا وَإِنَاثِهَا، وَبِتَنَاسُلِهَا.

الزَّوْج: خلافُ الفرد، وجَمْعُهُ «الْأَزْواج».

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجاً مُشْتَقَّةً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَحَوَّاءُ الْأُمُّ الْأُولىٰ قَدْ خَلَقَهَا اللهُ اشْتِقَاقاً مِنْ ضِلَعٍ مِن أَضْلاع آدَمَ الْأَب الْأَوَّلِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ خَلَقَهُ اللهُ عزّ وجلَّ مِنْ طِينٍ، وَتَتَابَعَتْ ذُرِّيَّاتُ النَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهَا تَنَاسُلاً، فَصِفَاتُهُمُ التَّكْوِينِيَّة الْعَامَّة تَرْجِعُ إِلَىٰ نَوْعٍ وَاحِدٍ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ صِنْفَيْنِ: ذَكَر، وَأُنْثَىٰ. ثُمَّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ، تُمَيِّزُهُ عَنْ سَائِرِ أَفْرَادِ النَّاسِ.

وتقديرُ العبارَة: جَعَلَ لَكُمْ متفَضلاً عَلَيْكُمْ بِحِكْمَتِهِ اشْتِقَاقاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَشْبَاهاً لَكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلَ لَكُمْ كَذٰلِكَ مِنَ الْأَنْعَامِ ذَاتِ المنَافِعِ الكثيرَةِ لَكم أزْوَاجاً تَتوالدُ وَتَتَنَاسَلُ، فَهُوَ يُكَثِّرُكُمْ ضِمْنَ عَنَاصِرَ النِّظَامِ التَّزَاوُجِيِّ، وَيُكَثِّرُ أَنْعَامَكُمْ.

الْقَضِيَّة السَّابِعة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: مِثْل، ومَثَل: بمعنىٰ واحد.

جَاءَتْ فِي القرآن لَفْظَةُ «مَثَلٍ» بِمَعْنىٰ: «وَصْفٍ» وَمِنْهُ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: وَصْفُ الجنَّة. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾: أي: وَصْفُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ، والْمُرَادُ وَصْفُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِهٰذا المعنىٰ أَصْلٌ فِي لُغَةِ العرب.

فَمَعْنَىٰ الْعِبَارَةِ: لَا يُشْبِهُ وَصْفَ اللهِ عزّ وجلَّ فِي شيءٍ مِنْ صِفَاتِهِ

شَيْءٌ، تَعَالَىٰ جَلَّ جَلالُهُ، وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يُشْبِهَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَبِهَـٰذَا الفَهْمِ نَكُونُ فِي غَنَاءٍ عَنْ تَأْوِيلاتِ الْمُفَسِّرِينَ، الْقَائِمَةِ عَلَىٰ اعْتِبَارِ كَافِ التَّشْبِيهِ وَكَلِمَةِ «مِثْل» بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، أخذاً مِنَ الْمَتَبَادِرِ الَّذِي سَبَقَ إِلَىٰ أَذْهَانِهِمْ، وَهُوَ: لَيْسَ مِثْلَ مِثْلِهِ شَيْءٌ.

أي: فَإِذَا كَانَ نِظَامُ اللهِ فِي الْكَائِنَاتِ الحيَّةِ قَائِماً عَلَىٰ التَّزَاوُجِ وَالتَّنَاسُلِ، فَإِنَّ اللهَ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَيْسَ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا وَلَد، وَهُوَ مُنْفَرِدٌ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ، لَا تُشَابِهُ صِفَةُ أَحَدٍ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ.

وَفِي هَـٰذَا بَيَانٌ لِأَصْلٍ عَظِيمٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْعَقِيدَةِ الإِيمَانِيَّةِ، فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ.

أَمَّا عَقَائِدُ الْمُشْرِكِينَ فَكُلُّهَا تَقُومُ عَلَىٰ تَوَهُّم أَنَّ مَن اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، يُشْبِهُونَ فِي بَعْضِ صِفَاتِهِمْ مَا لِلرَّبِّ الخَالِقِ الْفَاطِرِ مِنْ صِفَاتٍ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِلَّهِ وَلَداً أَوْ أَوْلَاداً، وَالَّذِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَالَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً أَوْ زَوْجَةً أَوْ أَكْثَرَ، قِيَاساً عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

الْقَضِيَّةُ الثامِنَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَعْلِيمِ رَسُولِهِ ﷺ.

﴿.. وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾:

أي: وَهو جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ الْمُنْفَرِدُ بِأَنَّهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ فِي الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا، الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَسْمُوعَاتِ كُلِّهَا شَيْءٌ مَهْمَا كَانَ خَافِتَ الصَّوْتِ، وَعَلِيمٌ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَسْمُوعَات، إِذَا كَانَتْ ذَوَاتَ دَلَالَات، وَهُوَ المنفرد بِأَنَّهُ الْبَصِيرُ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَىٰ فِي الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا، الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرْئِيَات كُلِّهَا شَيْءٌ، مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، وَعَلِيمٌ بِكُلِّ صِفَاتِهِ مَهْمَا كَانَتْ دقيقةً، لِأَنَّ مِنْ لَازِمِ الرُّؤْيَةِ الْمُحِيطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ الْعِلْمَ بِصِفَاتِهِ كُلِّها، مَعَ دَلَالَة الْبَيَانَاتِ الْأُخْرَىٰ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الْقَضِيَّةُ التَّاسِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

مَقَالِيدُ: جَمْعُ «مِقْلَادٍ» وَهُوَ فِي اللُّغَةِ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْخِزَانَةِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْمِفْتَاحِ، فَالْمَقَالِيدُ: الخَزَائِنُ، والمفاتيح.

أي: لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، جَمِيعُ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ، وَجَمِيعُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَجَمِيعُ مَفَاتِيحِ هَـٰذِهِ الْخَزَائِنِ.

فَمَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ مِنْ نَبَاتَاتٍ هُوَ مِنْ خَزَائِنِها، وَمَفَاتِيحُ إِخْرَاجِهَا هِيَ مَمْلُوكَةٌ لَهُ وَخَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِهِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَاءٍ أَوْ نِفْطٍ أَوْ مَعَادِنَ، أَوْ عَنَاصِرَ نَافِعَةٍ هُوَ مِنْ خَزَائِنِهَا، وَهِيَ وَمَفَاتِيحُها مِلْكٌ لَهُ، وَهُوَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يَمْنَحُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاء، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ فِي الابْتِلَاءِ وَالكَرَامَةِ والجزاء.

وَمَا يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ أَوْ ضِيَاءٍ أَوْ طَاقَاتٍ وَنَحْوِهَا هُوَ مِنْ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ، واللهُ عزَّ وَجَلَّ يُمِدُّ بِهَا سُكَّانَ الْأَرْضِ عَلَىٰ وِفْقِ حِكْمَتِهِ، وَهِيَ وَمَفَاتِيحُهَا مِلْكٌ لَهُ، إِذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

القضية الْعَاشِرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُوله ﷺ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾:

الْبَسطُ: التَّوسِعَةُ والتكثير.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ ويُلْبَسُ حَتَّىٰ الْهَواء، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الحيُّ لحياته.

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ وَيُقَلِّلُ عَنْ حَاجَةِ الْحَيِّ إِلىٰ الرِّزْقِ.

أي: وَاللهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ فَيُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِباده، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي نُفُوسهم، وَمَا هُوَ

الْأَحْكَمُ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ. وَيُضَيّقُ وَيُقَلِّلُ الرِّزْقَ بِالنِّسْبَةِ إلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَمَا هُوَ الْأَحْكَمُ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

القضيّة الحادِيَة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلّم رَسُولَهُ ﷺ: ﴿.. إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾:

أي: إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعْلُومَةٌ مِنْ كُلِّ مَا يُدْرَكُ بِالْعِلْم، مَهْمَا كَانَ شَأْنُهُ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، من الْوَاجِبَاتِ، وَالْمُسْتَحِيلَاتِ، والجَائِزَاتِ عقلاً، مَا هُوَ مَوْجُودٌ وَمَا هُوَ مَعْدُوم، وَعِلْمُهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مُطَابِقٌ مُطَابَقَةً تَامَّةً لِلْمَعْلُوم بِكُلِّ صِفَاتِهِ، حَتّىٰ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنَ الْمَعْلُومِ، وَحَتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ مِنَ الصِّفَاتِ وَفُرُوقِهَا وَتَفَاوُتِ مَا بَيْنَهَا.

عَلِيم: صيغَةُ مُبَالغَةٍ لاسم الفاعِلِ «عَالم». ولفظ «عليم» بالنّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَدُلُّ عَلَىٰ الْغَايَةِ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا غَايَة، وَكَذلِكَ كُلُّ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ الْعُلَا.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس الثاني مِنْ دُرُوسِ سورة (الشورىٰ).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(٧)

التدبّر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (١٣ ـ ١٦)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى

ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ هشام: [**إِبْرَاهَامَ**].

وقرأها بَاقي القرَّاءِ العشرة: ﴿**إِبْرَاهِيمَ**﴾.

وهما نُطْقَانِ عَربيّان لاسم إبراهيم عليه السلام.

(١٦) • قرأ حمزة، ويعقوب: [**وَعَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَعَلَيْهِمْ**﴾ بِكَسْرِ الهاء.

تمهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي أُصُولِهَا الاعْتِقَادِيَّة، والأَخْلَاقِية، وفي أُصُولِ وقَواعِدِ المعامَلات.

وفيها مُطَالَبَةُ النَّاسِ بأنْ يُقِيمُوا الدِّينَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدنيا، وبأنْ لَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيب.

وفيها بَيَانُ أَنَّ النَّاسَ تفرَّقُوا إلىٰ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ بَعْدَ التَّارِيخِ الْأَوَّلِ لِلْبَشَرِيَّةِ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ بَلَاغاً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام، وَقَدْ كَفَرَ مَنْ كَفر مِنْهُمْ بَغْياً.

وفِيها بَيَانُ أَنَّ الله عزَّ وَجلَّ لَمْ يُنْزِلْ عِقَابَهُ فِي الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ قَدَّرَ وَقَضَىٰ بِحِكْمَتِهِ السَّنِيَّةِ تَأْجِيلَ الْعِقَابِ عَلَىٰ الْكُفْرِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ لِلْحَيَاةِ الآخِرَةِ.

وفِيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، بِأَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ مَا شَرَعَ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَبِأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ كَمَا أَمَرَهُ، وَبِأَنْ لَا يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ الْكَافِرِينَ، وبأَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ إيمانَهُ، وَبِأَنْ يُعْلِنَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ.

وفِيهَا بَيَانُ سُقُوطِ حُجَجِ الْكَافِرِينَ بَعْدَ تَكَاثُرِ الْمُؤْمِنِينَ المسْلِمِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا اسْتِنَاداً إِلَىٰ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ بَرَاهِينِ الْحَقّ الَّتِي تُظْهِرُ أَنَّ هَـٰذَا الدِّينَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فَالْكَافِرُونَ بِهِ يَسْتَحِقُّونَ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهِم، وَعَذَابَهُ الشّدِيدِ.

التدبّر التحلِيلي:

في آيات هذا الدَّرْسِ بَيَانُ (١٨) قَضِيَّةً، سَبْعٌ مِنْهَا خِطَابٌ مِنَ اللهِ عزَّ وَجلَّ للنَّاسِ، و(١١) قَضِيَّة فِيهَا أَوَامِرُ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، تَرْبَوِيَّةٌ، وَدَعَوِيَّةٌ، وَتَعْلِيمِيَّة:

القضيَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ خِطَاباً للنَّاسِ وخطاباً لرسوله ﷺ:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ . . ﴿١٣﴾﴾:

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ خِطَاباً للنَّاسِ بَعْدَ بِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ، حَتَّىٰ آخِرِ مُكَلَّفٍ مِنْ أَجْيَالِ النَّاس في الأرض.

الشَّرِيعَةُ والشِّرْعَةُ: في كلام العرب، هي مَشْرَعَةُ الماء، أي: مَوْرِدُ الشّارِبة الّتي يَشْرَعُهَا النَّاسُ، فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا وَيَسْتَقُون. ورُبَّمَا شَرَّعُوها دَوَابّهُمْ حَتَّىٰ تَشْرَعَها وَتَشْرَبَ مِنْهَا بأفوَاهِها.

يُقَالُ لغة: «شَرَعَ الوارِدُ يَشْرَعُ شَرْعاً» أي: تَناول الماء بفيه.

والعربُ لَا تُسَمِّي مَوْرِدَ الْمَاءِ شَرِيعَةً حَتَّى يَكُونَ الماءُ فَيضاً لَا انْقِطاعَ لَهُ، وَيَكُونَ ظَاهِراً مَعِيناً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْضَحَ بالدِّلَاء.

ويقال: «شرَعَ الأَمْرَ يَشْرَعُهُ شَرْعاً» أي: أَبَانَهُ وَأَظْهَرَهُ وَجعَلَهُ قَرِيبَ التَّناوُلِ لِلْقاصِدِينَ. وَيُقَالُ: «شَرَعَ فُلانٌ الطَّرِيق» أيْ: مَدَّهُ وَمَهَّدَهُ، وَجعَلَهُ صَالِحاً للسَّيْرِ فِيهِ وَمُيَسَّراً للسَّالكين.

الدِّين: الطَّاعَةُ والانْقِيادُ، ومِنْهُ: «دَانَ نَفْسَهُ» أي: أَذَلَّهَا واسْتَعْبَدَهَا وَطَوَّعَها. **والدّين**: العادَةُ والشَّأْن. **والدِّينُ لِلَّهِ**: الطَّاعَةُ لَهُ، والتَّعَبُّد، وَصِدْقُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ والخُضُوع والذُّلّ له.

وَيَأتي الدِّين بمَعْنَىٰ الجزَاء، وَمِنْهُ «يَوْمُ الدِّينِ» وَهُوَ يَوْمُ الجزَاءِ عَلَىٰ أَعْمَالِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِيْنَ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ.

ويُطْلَقُ الدِّينُ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْقَهْرِ.

وَصارَ الدِّينُ بالاسْتِعْمَالِ الْعَامِّ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَطْلُوب اللَّهِ مِنْ عِبادِهِ في رِحْلَة امْتِحَانِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا. ويُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الْأَنْظِمَةِ وَالْأَحْكَام والقوانين الَّتي تَجِبُ طَاعَتُهَا لَدَىٰ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْ هَـٰذَا الإِطْلَاقِ قول اللهِ تَعالَىٰ في سورة (يوسف/٥٣ نزول): ﴿... مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٧٦﴾﴾.

مِنْ هَـٰذِهِ التَّحْلِيلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالاسْتِعْمَالَاتِ لِمَادَّةِ «شَرَع» ولفظةِ «الدِّين» تَرَجَّحَ لَدَيّ أَنَّ المُرَادَ بِعِبَارَةِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ خِطاباً للنَّاسِ

أَجْمَعِينَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّد خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ والتَّسْلِيم: حَدَّدَ وَبَيَّنَ وَأَظْهَرَ لَكُمْ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ الْكُبْرَىٰ، صِرَاطاً وَاضِحاً مُشْرَعاً مُبَيَّنَ الْمَعَالِمِ وَالْحُدُودِ، مَمْدُوداً مُمَهَّداً، لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ ذِي إِدْرَاكٍ فِكْرِي، وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْهَدَ حُدُودَهُ وَمَعَالِمَهُ لِظُهُورِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَانْكِشَافِهَا بِأَدِلَّتِهَا الْبُرْهَانِيَّة، وَمُلَاءَمَتِهَا لِفِطَرِ النُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّة.

وهَـٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ أُصُولِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّة، والمبادئ الْأَخْلَاقِيَّة، وَالْقَوَاعِدِ الْكُبْرَىٰ لِلْمُعَامَلَاتِ الْحُقُوقِيَّةِ بَيْنَ النَّاس، وَالْقَوَاعِدِ الْكُبْرَىٰ لِفَضَائِلِ السُّلُوكِ الْفَرْدِي والجَمَاعِيِّ فِي الحياة.

فَهَـٰذِهِ الْأُصُولُ والمبادئُ والْقَوَاعِدُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهَا الْعُقُولُ السَّوِيَّة، وَالنُّفُوسُ الزَّكِيَّة، وَهِيَ بِمَثَابَةِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ الماء فِيهَا فَيْضاً لا انْقِطَاعَ لَهُ، وَيَكُونُ ظَاهِراً مَعِيناً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْضَحَ بِالدَّلَاءِ، وَيَشْرَبُ الْأَحْيَاءُ بِأَفْوَاهِهِمْ مُبَاشَرَة مِنْهُ.

أَمَّا أَحْكَامُ الْفُرُوعِ فَتَحْتَاجُ اسْتِنْبَاطَاتٍ وَاجْتِهَادَاتٍ مِنْ أَهْلِ الاجْتِهَاد، وَلَيْسَتْ مُشْرَعَةً وَلَا ظَاهِرَةً وَلَا قَرِيبَةَ التَّنَاوُلِ لِكُلِّ وَارِدٍ، فَهِيَ لَا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ عِبَارَةِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

﴿مَا وَصَّىٰ﴾: لفظ «وَصَّىٰ» و«أَوْصَىٰ» بِمَعْنَىٰ «أَمَرَ» و«أَوْجَبَ». يُقَالُ لغة: «وَصَّىٰ فُلَانٌ فُلَاناً بالشَّيءِ وَأَوْصَاهُ بِهِ» أَيْ: أَمَرَهُ بِهِ، وَفَرَضَهُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ فِعْلُهُ، وَنَهَاهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عليه، إِذَا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ تَرْكُهُ.

والوصِيَّة: بيانٌ مَقْرُونٌ بِنُصْحٍ مُؤَكَّدٍ بِعَهْدٍ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ بَيَانٍ عَابِرٍ، أَوْ نُصْحٍ فَاتِرٍ، بَلْ هِيَ نُصْحٌ مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ بِعَهْد.

يَظْهَرُ لِي أَنَّ قَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِنُوحٍ

أَبي الْبَشَرِ الثَّانِي، والَّذِي جعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَبقِيَ مَا شَرَعَهُ اللهُ لَهُ مُتَّبعاً فِي الرِّسَالَاتِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ، كَرِسَالَةِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَام، وَرِسَالَةِ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَام، لَمْ يَزِدِ اللهُ فِيهَا شَيْئاً.

وَلَكِنْ جَاءَتْ زِيَادَاتٌ عَلَيْهَا فِي رِسَالَةِ «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ بِعْثَتِهِ مِنْ شِيعَةِ نُوح وَمُتَّبعاً مَا وَرِثَهُ النَّاسُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي وَصَّاهُ اللهُ بِهَا. ثُمَّ جَاءَتْ زِيَادَاتٌ عَلَيْها فِي رِسَالَةِ «مُوسَىٰ» عَلَيْهِ السَّلَام بِحَسَبِ تَطوُّرِ الْفِكْرِ الإنْسَانِيِّ وَقَابِلِيَّاتِهِ. ثُمَّ جَاءَتْ بَعْضُ زِيَادَاتٍ أُخْرَىٰ فِي رِسَالَةِ «عِيسَىٰ» عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَخيراً جَاءَتْ زِيَادَاتٌ فِي رِسَالَةِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّد ﷺ تُلائِمُ مَا يَحْتَاجُهُ الْبَشَرُ مِنْهَا إِلَىٰ آخِرِ جِيلٍ مِنَ النَّاسِ فِي الأَرْض.

فَذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ الثَّانِي، وَمَا وَصَّىٰ اللهُ بِهِ «نُوحاً» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ الْكُبْرَىٰ لَمْ يَزِدِ اللهِ عَلَيْهَا شَيْئاً فِي الرِّسَالَاتِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّىٰ رِسَالَة «إِبْرَاهِيم» عَلَيْهِ السَّلَام، وَذَكَرَ عَقِبَ ذِكْرِ مَا وَصَّى بِهِ «نوحاً» عَلَيه السَّلام مَا وَصَّى بِهِ مُحَمّداً ﷺ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ هَـٰذِهِ الْوَصَايَا أَوْ سَيَنْزِلُ عَلَىٰ محمَّد ﷺ هُوَ خِتَامُ هَـٰذَا النَّوْعِ مِنْ وَصَايَا اللهِ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ، أَمَّا الزِّيَادَات الَّتِي جَاءَتْ بَيْنَهُمَا مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَىٰ اللهُ بها إبراهيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمْ السَّلَام، فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْوَصَايَا لِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، فَجَاءَ تَرْتِيبُ ذِكْرِ هَـٰؤُلَاءِ الرُّسُلِ الْخَمْسَةِ، وَمَا وَصَّاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ، تَرْتِيباً مُحْكماً دَالّاً بإِيجَازٍ بَدِيعٍ عَلَىٰ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيَّ مِنْ فَهْمٍ لِهذه الْعِبَارَةِ الْقُرْآنِيَّة.

• ﴿. . أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . .﴾: أي: وَنُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْخَاتِمَةِ لِرِسَالَاتِ رَبّكم بأَنْ تُقِيمُوا الدِّين، وَلَا تَتفرَّقُوا فِيهِ.

• ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾: أي: الْزَمُوا الدِّينَ الَّذِي أَوْصَىٰ اللهُ بِهِ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَوَاظِبُوا عَلَىٰ أَدَاءِ مَا فَرَضَ اللهُ فِيهِ، وَعَلَىٰ تَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ، وَاجْعَلُوا دِينَكُمْ (أي: طَاعَتَكُمْ وَانْقِيَادَكُمْ) مُسْتَقِيماً عَلَىٰ مَا شَرَعَ لَكُمْ رَبُّكُمْ، وَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيم، وَلَا تَنْحَرِفُوا عَنْهُ، وَلَا تَجْعَلُوا طَرِيقَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ طَرِيقاً عِوَجاً.

إِقَامَةُ الشَّيْءِ: تَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ جَعْلِهِ مُسْتَقِيماً لَا عِوَجَ فِيهِ، وَتَأْتِي بِمَعْنَىٰ مُدَاوَمَتِهِ وَالْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهِ.

وهذه المعاني صَالِحَةٌ لِتَفْسِيرِ ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ بها.

• ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾: أي: واجتَمِعُوا مُتَّحِدِينَ فِي التَّمَسُّكِ بِشَرَائِعِ دِينِ اللهِ لَكُمْ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، إِلَى أَحْزَابٍ وَفِرَقٍ وَمَذَاهِبَ؛ لِأَنَّ مَا شَرَعَهُ اللهُ لَكُمْ، مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الْكُبْرَىٰ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمَسَالِكِ الْحَيَاةِ، أُمُورٌ واضِحَةٌ لَا تَحْتَمِلُ الْخِلَافَ وَلَا التَّفَرُّقَ إِلَىٰ مَذَاهِبَ وَطَوَائِفَ وَفِرَق.

وفي هَـٰذَيْنِ الأَمْرَين: إقامة الدين وعدم التفرُّق فيه تَعْرِيضٌ بِأَتْبَاعِ رِسَالَاتِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، إِذْ لَمْ يَلْزَمُوا الدِّينَ الَّذِي أَوْصَاهُمُ اللهُ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ، وَلَمْ يَكُونُوا فِيهِ مُتَّحِدِينَ، بَلْ تَفَرَّقُوا فِيهِ إِلَىٰ أَحْزَابٍ وَفِرَقٍ وَمَذَاهِبَ، فَخَرَجُوا بِتَفَرُّقِهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. ﴿١٣﴾﴾:

أي: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ تَدْعُو المشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِكَ إِلَىٰ مَا وَصَّىٰ اللهُ رَبُّهُمْ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَهِيَ أُصُولُ الدِّينِ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي لَا يَشُكُّ فِيهَا ذُو عَقْلٍ رَشِيدٍ، فَكَبُرَ عَلَى نُفُوسِهِمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

أي: لَمْ يَدْخُلْ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ يَقْبَلُوهُ وَيَسْتَجِيبُوا لَهُ؛ لِأَنَّهُ كَبُرَ عَلَيْهَا وَعَظُمَ، وَشَقَّ وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ تَحَمُّلُهُ، لِكِبَرِهِ وَعِظَمِهِ وَثِقَلِهِ.

يُقَالُ لُغة: «كَبُرَ الْأَمْرُ عَلَىٰ فُلَانٍ يَكْبُرُ» أي: شَقَّ وَثَقُلَ عَلَيْهِ.

وَسَبَبُ ثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ كَرَاهِيَتُهُمُ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَظِيماً مِنْ عُظَمَاءِ الْحِجَازِ، وَكَرَاهِيَتُهُمْ تَرْكَ مَا أَلِفُوهُ مِنْ دِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَتَرْكَ مَنَافِعِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالتَّنَازُلَ عَنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَكَرَاهِيَّتُهُمْ الالْتِزَامَ بِأَحْكَامِ الدِّين، وَتَرْكَ الْمُحَرَّمَاتِ، كَالْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقّ، والرِّبَا، وَالزِّنَا، وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَالْعُدْوَانِ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَنَحْوِ هذه الْأُمُورِ.

الْقَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾:

الاجتباء: الاصطِفَاءُ والاخْتِيَارُ، يُقَالُ لُغَةً: «اجْتَبَىٰ اللهَ عَبْدَهُ» أَيْ: اصْطَفَاهُ واخْتَارَهُ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِعْلُ اجْتَبَىٰ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ اصْطِفَاءِ اللهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام لِنُبُوَّتِهِ، وَرِسَالَتِهِ، وَعَلَىٰ اصْطِفَاءِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ لِحَمْلِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَبْلِيغَها للنَّاسِ جِيلاً بَعْدَ جِيل، فَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنَ هذه الْأُمَّةِ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ يُبَلِّغُونَ دِينَ اللهِ للنَّاسِ، طَائِفَةً فَطَائِفَةً، وهذه الطَّائِفَةُ لَا يَخْلُو مِنْهَا عَصْرٌ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا أُمَّةٌ مُجْتَبَاةٌ مِنَ اللهِ لِتَبْلِيغ دِينِ اللهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

وَضُمِّنَ فِعْلُ: «يَجْتَبِي» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «يُقَرِّب»، فَعُدّي بِحَرْف «إِلىٰ»، فَصَارَتِ الْعِبَارَةُ: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾: أي: يَصْطَفِي مُقَرِّباً إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

وَلَمَّا كَانَ مِنْ دَوَافِعِ كُفْرِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، اعْتِرَاضُهُمْ عَلَىٰ اصْطِفَاءِ الله مُحَمّداً ﷺ لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِه، وَجَعْلِهِ مُقَرَّباً إِلَيْهِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يُعْلِمَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ المعترضين أَنَّهُ يَجْتَبِي مُقَرِّباً إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاء، وَلَمَّا كَانَتِ اخْتِيَارَاتُهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي

كُلِّ تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ مُوَافِقَةً كَمَالَ الْحِكْمَةِ، فَاجْتِبَاؤُهُ لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، هُوَ الاجْتِبَاءُ الحكيم، وَكَذٰلِكَ تَقْرِيبُهُ إِلَيْهِ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ هُوَ الْأَمْرُ الحكِيمُ؛ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلِيمٌ بِنُفُوسِ عِبَادِهِ. وَمَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ النَّاسِ، وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

فَرَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَفْضَلُ عِبَادِهِ، وَلِعِلْمِهِ بِهِ، اصْطَفَاهُ بِحِكْمَتِهِ لِيَكُونَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلام، وَجَعَلَهُ أَقْرَبَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيهِ، شَاءَ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ المعتَرِضُونَ أَمْ أَبُوا.

الْقَضِيَّةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿...وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَهْدِي بِتَعْلِيمِهِ وَتَفْهِيمِهِ وَتَوْفِيقِهِ، إِلَىٰ سُلُوكِ السَّبِيلِ الموصِلِ إِلَىٰ رِضْوَانِهِ وَحُبِّهِ وَمَنَازِلِ الْقُرْبِ عِنْدَهُ، مَنْ يُنِيبُ رُجُوعاً إِلَيْهِ آناً فَآناً حُبّاً بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَحِرْصاً عَلَىٰ الْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ.

المنيبُ إلىٰ اللهِ: هُوَ المتَّصِفُ بِأَنَّهُ ذُو رُجُوعٍ إِلَىٰ اللهِ آناً فَآناً، بِقَلْبِهِ، وَنَفْسِهِ، وَفِكْرِهِ، وَعَمَلِهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، مَا عَاشَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدنيا.

الإنابة: هِيَ الرُّجُوعُ مَرَّةً فَمَرَّةً بِصُورَةٍ مُتَتَابِعَة. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِمَرَاضِيهِ رُجُوعاً إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَمْرَ تَكْوِينِ عَبْدِهِ ذِي الْإِرَادَةِ الْحُرَّة صَادِرٌ عَنْهُ، وَقَدْ جَعَلَتِ الإرَادَةُ الْحُرَّةُ الْعَبْدَ يَبْتَعِدُ عَنْ نِظَامِ الطَّاعَةِ الْجَبْرِيَّةِ للرَّبِّ الخالِقِ، فالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَرَاضِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ هِيَ من قبيل الرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

القضيَّة الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى بِشَأْنِ اتباع الرُّسُلِ السَّابِقِينَ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ... ﴿١٤﴾﴾:

أي: وَتَفرَّقَ أتْبَاعُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ عَنِ الَّذِي وَصَّاهُم الله بِهِ مِنَ الدِّينِ، وَمَا تَفَرَّقُوا فِيهِ إِلَّا مِنْ بَعْدِمَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ بِمَا أَنْزَلَ الله وَفَهِمُوهُ وَوَعُوه، وَكَانَ سَبَبُ تَفَرُّقِهِمْ الْبَغْيَ الَّذِي اسْتَشْرَىٰ دَاؤُهُ بَيْنَهُمْ.

البغي: تَجَاوُزُ الْحَدِّ المأذُونِ بِهِ فِي السُّلُوكِ الإرَادِيّ، وَالْعُدُول عَنِ الْحقّ. وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْكِبْرِ، والظُّلْمِ، والْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَأَصْل الْبَغْيِ الْحَسَدُ، ثُمَّ سُمِّيَ الظُّلْمُ بَغْياً؛ لِأَنَّ الْحَاسِدَ يَظْلِمُ الْمَحْسُودَ جَهْدَهُ، وَاتَّسَعَتْ دَلَالَةُ الْبَغْي حَتَّىٰ صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ تَجَاوُزٍ لِلْحَدِّ المأْذُونِ بِهِ فِي السُّلُوكِ الْإِرَادِيّ، إِلَىٰ مَا هُوَ ضَارٌّ أَوْ مُؤْذٍ أَوْ فِيهِ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عزَّ وَجلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ.

فَتَفَرُّقُهُمْ عَمَّا وَصَّىٰ بِهِ الله رُسُلَهُمْ عَلَيْهِم السَّلام مِنَ الدِّينِ، واتِّخاذُهُمْ فِرَقاً وَمَذَاهِبَ وَطَوَائِفَ شَتَّى لَمْ يَأْذَنْ بِهَا الله، قَدْ كَانَ بِسَبَبِ أَنَّ الْبَغْيَ بَيْنَهُمْ اسْتَشْرَىٰ حَتَّىٰ فَرَّقَ وَحْدَتَهُمْ، وَمَزَّقَ جَماعَاتِهِمْ، وَاخْتَلَفَتْ عَنْ دِينِ الله أَدْيَانُهُمْ.

أي: فَلَا تَتَّبِعُوا سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَا أُمَّةَ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، وَسَيِّدَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله النَّبِيِّ الرَّسُولِ الْأَمِينِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وأَتَمُّ التَّسْلِيم.

القضيَّة السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿...وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ.. ﴿١٤﴾﴾:

أي: ولَوْلَا كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ رَبِّكَ المحدِّداتِ قضاءَهُ وَقَدَرَهُ، سَبَقَتْ بِتَأْخِيرِ مُعَاقَبَةِ الَّذِينَ يَتَفَرَّقُونَ فِي الدِّينِ بَغْياً بَيْنَهُمْ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ وَيَفْهَمُوه، إِلى يَوْم القيامَة، مَعَ تَحْدِيدِ أَجَلِ الحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، وَجَعْلِهِ أجلاً مُسَمًّى مَعْلُومَ الْوَقْتِ لَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهِ ـ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيا، عَقِبَ تَفَرُّقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ

بِدِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَلَنُفِّذَ فِيهِمْ عِقَابُ اللهِ الخالِدِ فِي النّارِ.

ولٰكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يُؤَخِّرَ عِقَابَ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَصَدَرَتْ بِهٰذَا التأجِيْلِ كَلِمَتُهُ الْمُبْرَمَة.

فَلَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّ تَرْكَ اللهِ عِقَابَ الْكَافِرِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا حِسَابَ وَلَا جَزَاءَ، إِنَّ هٰذَا عَبَثٌ تَنَزَّهَ اللهُ الْبَارِئُ الْحَكِيمُ عَنْهُ.

القضيَّة السَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَول الله تَعَالَىٰ: ﴿ . . وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾:

أي: وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ (وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصارَىٰ فِيمَا يَظْهَر) مِنْ بَعْدِ رُسُلِ رَبِّهِمْ الَّذِينَ تَلَقَّوا عَنْ رَبّهِم وَصَايَاهُ، لَمُنْغَمِسُونَ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ الْكِتَابِ الذي أُورِثُوهُ عَنْ أَسْلَافِهِمْ فِي أَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَنِ اللهِ، وَمِنْ صِحَّةِ البيانَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبارَاتُه، وَشَكُّهُمْ هٰذَا يُوقع في الرَّيْبِ والتُّهْمَةِ بأَنَّ دَوَافِعَهُمْ إِلَىٰ الشَّكِّ نَابِعَةٌ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِ نُفُوسِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وهٰذَا بالنظر إِلَىٰ النِّسْبَةِ الْغَالِبَةِ مِنْهُمْ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبالنظر إلى جَميعهِمْ بَعْدَ بِعْثَتِهِ وَفُشُوِّ رِسَالَتِهِ وَمَبَادِئِهَا في الناس، ومن شَكِّهِمْ شَكُّهُمْ بِالْبِشَارَاتِ بمحمَّدٍ ﷺ التي جاءت في كُتُبِهِمْ.

الْقَضِيَّة الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ . . ﴿١٥﴾﴾؛

أي: فادْعُ يَا مُحَمَّدُ لِذَلِكَ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لِلنَّاسِ مِن الدِّين بَعْدَ بِعْثَتِك.

يقال لُغَةً: «دَعَا فُلَانٌ فُلَاناً إِلَىٰ أَمْرٍ مَا» أي: طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَقْصِدَهُ «وَدَعَاهُ إِلَىٰ الدِّينِ، أَوْ إِلَىٰ عَمَلِ الْخَيْرِ» أَيْ طَلَبَ مِنْهُ اعتقاده، أو فعله.

وفي فِعْل: «دَعَا يَدْعُو» مَعْنىٰ الْحَثّ والطَّلَبِ بِشِدَّة.

وَوُضِعَتِ اللَّامُ في: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ بَدَلَ «إِلَىٰ» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ دُعَاءَهُ أَلْصَقَ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ مَعَ كُلِّيَّاتِهِ الْكُبْرَىٰ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ، مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى فُرُوعِ الدِّين، فَدَلَالَةُ اللَّام عَلَىٰ الالْتِصَاقِ أَقْوَىٰ مِنْ دَلَالَةِ «إلى».

أَمَّا الدَّعْوَةُ إِلَىٰ سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ جَاءَتِ العبارة فِيهِ باستِخْدَام حَرْف «إلى» فَقَال تَعالى في سورة (النحل/ ٧٠ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ... ﴿١٢٥﴾﴾.

لِأَنَّ سُلُوكَ سَبِيلِ اللهِ يَشْمَلُ أُصُولَ العقَائِدِ وَكُلِّيَاتِ الدِّينِ الكُبْرَىٰ، وَيَشْمَلُ أَيْضاً الْفُرُوعَ، فَكَانَ اسْتِخْدَامُ حَرفِ «إِلَىٰ» أَكْثَرَ مُلَاءَمَة.

وَيُلَاحَظُ أَنَّ العِنَايَةَ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتي نَزَلَتْ فِيها سُورَة (الشُّورَى) كَانَتْ مُوَجَّهَةً لِأُصُولِ الدِّينِ الاعْتِقَادِيَّةِ، وَقواعدِهِ الكُبْرَىٰ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَفَضَائِلِ السُّلُوك.

الْقَضِيَّةُ التَّاسِعَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾:

أي: واعْتَدِلْ فِي مَسِيرَتِكَ فِي حَيَاتِكَ بِكُلِّ أُمُورِكَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، كَمَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، واحْذَرْ أَنْ تَمِيلَ عَنْهُ، فَقَدْ جَعَلَكَ رَبُّكَ فِي سُلُوكِكَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِأُمَّتِكَ. وَإِذَا انْحَرَفْتَ وَتَرَكْتَ مَا فَرَض اللهُ عَلَيْكَ مِن اسْتِقَامَةٍ اتَّبَعَتْكَ أُمَّتُكَ فِي الاعْوِجَاجِ مُعْتَذِرَةً بِأَنَّهَا تُطِيعُ اللهَ فِي تَقْلِيدِكَ والاقْتِداءِ بِكَ.

الاسْتِقَامَة: الاعْتِدَالُ وَعَدَمُ الاعْوجاج والانحراف عَنِ الْخَطِّ الْمُستقيم، والاسْتِقَامَةُ فِي الدِّينِ الْتِزَام صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَدَمُ الانحرافِ عَنْهُ، فِي مَسِيرَةِ حَيَاةِ الابْتِلَاء.

القضيَّة العاشرة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾:

أي: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ النَّاسِ فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ، وفِيمَا يُزَينُونَهُ لَكَ، سَوَاءٌ أَكَانُوا مُشْرِكِينَ، أَمْ أَهْلَ كِتَابٍ، أَمْ أَصْحَابُ أَهْوَاءٍ مِنْ بَعْضِ أَتْبَاعِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ زَيَّنَتْ لَهُمْ أَهْوَاؤُهُم أَشْيَاءَ وَهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّها تُسَاعِدُ عَلَىٰ نَشْرِ الدِّين، وَانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَرَبُّكَ لَا يَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا هُوَ الْأَحْكَمُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

الْأَهْوَاء: جَمع «الْهَوَىٰ»، وَهُوَ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي وَلَوْ كَانَ فِيهِ ضُرٌّ وَشَرٌّ. وَفِي الْهَوَىٰ مَعْنَىٰ السُّقُوطِ وَالْهُبُوطِ مِنْ عُلُوٍّ إلى سُفُولٍ.

وَلَا يَخفَىٰ مَا في هذه الوصِيَّةِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ مِنْ حِمَايَةٍ لَهُ مِنِ اسْتِدْرَاجِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، مِنَ الْكَافِرِينَ وَعَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَحْذِيرٍ لِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَفُقَهَائِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ مِن ذَوِي السُّلْطَانِ، وَذَوِي الْغِنَىٰ وَالثَّرَاءِ، وَذَوِي الْمَكَانَةِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، لِإِصْدَارِ أحْكَامٍ دِينِيَّةٍ وَفتَاوىٰ بَاطِلَةَ.

القضيَّة الحادية عشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾:

أي: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ مُعْلِناً للنَّاس أَجْمَعِينَ، وَلَا سِيَّمَا المنتَمُونَ إِلَىٰ أَدْيَانٍ سَالِفَةٍ: آمَنْتُ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ أَيِّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلام مِنْ كِتَابٍ.

«مِنْ» فِي: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ لِبَيَانِ الْإِبْهَام فِي «مَا» من: ﴿بِمَآ أُنزِلَ﴾، والْإِيمَانُ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ وَبِجَمِيعِ رُسُلِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِم السَّلام من أركَانِ الإيمَان في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ للنَّاسِ وَأَوْصَىٰ بِهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمِيعاً، وَهُوَ مِنْ بَدَهِيَّاتِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ فِي الْإِسْلَامِ الدِّينِ الخاتم.

القضيَّةُ الثانيَةَ عشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾:

أي: وَأُمِرْتُ بِأَوَامِرَ كَثِيرَةٍ تَتَعَلَّقُ بأَحْكَامِ الحقُوقِ وَالْمُعَامَلاتِ المَالِيَّةِ وَنَحْوِهَا، لِأَجْلِ أَنْ أَحْكُمَ بِالْعَدْلِ بَيْنَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، ولِيَحْكُمَ الْحُكَّامُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِي بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونُوا خَاضِعِينَ لِحُكْمِي بأَمْرِ رَبِّي، ولِحُكْمِ حُكَّامِهِمْ مِنْ بَعْدِي الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطَبِّقُوا أَحْكَامَ رَبِّهِمْ.

وأَمَّا غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فَإِذَا خَضَعُوا لِسُلْطَانِ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ، فَالْمَطْلُوبُ مِنِّي وَمِنْ خُلَفَائِي مِنْ بَعْدِي أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ.

اللَّام في: ﴿لِأَعْدِلَ﴾ لَيْسَتْ مُتَعَلِّقَةً بِفِعْلِ: «وَأُمِرْتُ»، إِذِ الْعِبارَة علىٰ تَقْدير: «وَأُمِرْتُ بأَوَامِرَ تَتَعَلَّقُ بأَحكَامِ الْحقوق لِأَجْلِ أَنْ أَحْكُمَ بِالْعَدْلِ بَيْنَكُم».

القضيّة الثالثة عَشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خطابَهُ لرسُوله ﷺ: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

أي: وَقُلْ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَتِكَ: اللهُ رَبُّنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ وَرَبُّكُمْ، إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا رَبٌّ وَاحِدٌ، هُوَ الْمُتَصَرِّفُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ بِكُلِّ الْكَوْنِ، مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ فِيهِ، حَتَّىٰ أَكْبَرِ شَيْءٍ فِيهِ، لَا يَخْرُجُ عَنْ سُلْطَانِهِ وَتَصَارِيفِهِ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، فَلَهُ بِمُقْتَضَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ: الإِلٰهِيَّةُ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا شَيْءٌ، فَمَنْ اتَّخَذَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ كَانَ كَافِراً، وَجَازَاهُ اللهُ بِعَدْلِهِ فَجَعَلَهُ يَوْمَ الدِّينِ خَالِداً فِي دَارِ عَذَابِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ.

القضيَّة الرابعة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ الدَّعوي: ﴿.. لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ .. ﴿١٥﴾﴾:

أي: وقُلْ لَهُمْ: تَخْتَصُّ بِنا أَعْمالُنا، فَنَحْنُ الَّذِينَ نُحاسَبُ عَلَيْها عِنْدَ رَبِّنَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يُحاسَبُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، إِذْ نَأْتِي إِلَىٰ حِسَابِ رَبِّنَا فُرَادَىٰ. وَكَذَلِكَ تَخْتَصُّ بِكُمْ أَعْمالُكُمْ، فَأَنْتُمُ الَّذِينَ تُحاسَبُونَ عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّكُمْ الَّذِي هُوَ رَبُّنَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يُحاسَبُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، إِذْ تَأْتُونَ إِلَىٰ حِساب رَبِّكُم فُرَادَىٰ، وَيَقْضِي اللهُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

القضيَّة الخامِسَة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ الدَّعَوِيِّ: ﴿... لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ .. ﴿١٥﴾﴾:

أي: وَقُلْ لِلْمُكَابِرين الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ قَدَّمتَ لَهُمْ الْحُجَجَ الْبُرْهَانِيَّةَ الدَّامِغَةَ لَهُمْ، فَرَفَضُوهَا، مَعَ ظُهُور أَنَّ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ: لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ نُقَدِّمُهَا لَكُمْ بَعْدَ أَنْ رَفَضْتُمْ كُلَّ حُجَجِنَا الْبُرْهَانِيَّة، وَلَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ تُقَدِّمُونَهَا لَنَا إِذْ لَيْسَ لَدَيْكُمْ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، فَمِنَ الْخَيْرِ وَالْعَقْلِ السَّوِيّ قَطْعُ الْجِدَالِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.

القضيَّةُ السَّادِسة عشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعليم الدَّعَوِيِّ: ﴿... اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا .. ﴿١٥﴾﴾:

أي: وَقُلْ لِلَّذِينَ وَجَّهْتَ لَهُمُ الْبَيَانَ السَّابِقَ: اللهُ الَّذِي هُو رَبُّنَا وَرَبُّكُم، سَوْفَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا يَوْمَ الجَمْع بَعْدَ الْبَعْثِ لِلْحَياةِ الأُخرىٰ، الَّتِي يَكُونُ فِيها الحسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضاءِ، وَتَنْفِيذُ الجَزاءِ، ويَوْمَئِذٍ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مُبْطِلِينَ كَافِرِينَ مُجْرِمِينَ، تَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ بِالْعَدْلِ. وَتَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّنَا كُنَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُؤْمِنِينَ بِالْحَقِّ، الَّذِي فَرَضَ عَلَيْنَا رَبُّنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَكُنَّا بِالإِسْلامِ إِلَىٰ رَبِّنَا نَتَّقِي عَذَابَ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

الْقَضِيَّةُ السَّابِعَةَ عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ الدَّعوِي: ﴿... وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾:

أَيْ: وَقُلْ لِلَّذِينَ وَجَّهت لَهُمُ الْبَيَانَ الدَّعوِيَّ السَّابِقَ: وَإِلَىٰ اللهِ الَّذِي هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ سَوْفَ يَكُونُ الْمُنْتَهَىٰ وَالْعَاقِبَةُ، إِذْ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ كُلُّ أَمْرٍ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُحَاسِبُ عِبَادَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمْ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُجَازِي عِبَادَهُ بِالْفَضْلِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، أَوْ بِالْعَدْلِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

الْمَصِير: مَصْدَرُ «صَارَ»، والموضِعُ الَّذِي تَصِيرُ إِلَيْهِ المياه. وَمَصِيرُ الْأَمْرِ مُنْتَهَاهُ وَعَاقِبَتُهُ، وَهَـٰذَا الْمَعْنَىٰ هُو الملائِمُ هُنَا.

يُقَالُ لغة: «صَارَ الْأَمْرُ إِلَىٰ كَذَا، يَصِيرُ، صَيْراً، وَمَصِيراً، وصَيْرُورَةً».

أي: انْتَهَىٰ إِلَىٰ كَذَا، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَذَا.

القضِيَّةُ الثامِنة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً لِكُلِّ مَنْ يَتَلَقَّىٰ بَيَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾: أي: والَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي رُبوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ أَوْ يُجَادِلُونَ فِي إِلٰهِيَّةِ الله الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَيُقَدِّمُونَ فِي مُجَادَلَاتِهِمْ حُجَجاً.

- ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ﴾: أي: مِنْ بَعْدِمَا اسْتَجَابَ كَثِيرُونَ مِنْ عُقَلَاءِ النَّاسِ وَأَذْكِيَاءِهِمْ، لِدَعْوَتِهِ الَّتِي بَلَّغَهَا رَسُولُهُ ﷺ، عَنِ اقْتِنَاعٍ بِبَرَاهِينِ الْحَقِّ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، وَظُهُورِ بُطْلَانِ مَعَاذِيرِ غَيْرِ الْمُسْتَجِيبِينَ الَّتِي يُقَدِّمُونَهَا مُوهِمِينَ أَنَّهَا حُجَجٌ.

- ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أَيْ: مَا يُقَدِّمُونَ مِنْ تَلْبِيسَاتٍ يُوهِمُونَ

أَنَّهَا حُجَّةٌ لَهُمْ هِيَ سَاقِطَةٌ تَزْلَقُ فِي أَوْحَال الباطِلِ، وَلَا ثَبات لَهَا عَلَىٰ مَوْقِعٍ صُلْبٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

وَإِذَا كَانَتْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً مُنْزَلِقَةً، فَهُمْ إِذَا صَارَعُوا بِهَا أَصْحَابَ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ انْزَلَقُوا وَلَمْ يَثْبُتُوا، وَسَقَطُوا فِي أَوْحَالِ الْخَيْبَةِ وَالْهَزِيمَةِ.

دَاحِضَة: أيْ: مُنْزَلِقَةٌ تَسْقُطُ مُنْهَزِمَةً خَائِبَةً خاسِرَةً لدَىٰ أَيِّ مُقَابَلَةٍ لَهَا مِنْ بُرْهَانٍ مِنْ بَرَاهِينِ الْحَقّ. شُبِّه ظُهُورُ بُطْلَانِهَا بالانْزِلَاقِ، فأُطْلِقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا دَاحِضَةٌ.

يُقَالُ لُغَةً: «دَحَضَتْ رِجْلُ الرَّجُل: تَدْحَضُ، دَحْضاً وَدُحُوضاً» أي: زَلِقَتْ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَىٰ مَوْقِعِهَا، واشْتَهَرَ: «حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ» بمَعْنَىٰ بَاطِلَةٍ لَا ثَبَاتَ لَهَا.

• ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾: أي: وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ آثَارُ غَضَبٍ مِنَ اللهِ.

الغَضب: صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثَارِهَا إِرَادَةُ الانْتِقام، يُقَالُ: «غَضِبَ عَلَيْهِ، يَغْضَبُ، غَضباً»، أي: سَخِطَ عَلَيْهِ، وَأَرَادَ الانْتِقَامَ مِنْهُ، وَمُعَاقَبَتَهُ، فَهُوَ: «غَضِبٌ» و«غَضْبَان».

• ﴿... وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾: أي: وَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي نَارِ جَهَنَّم، دَارِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ.

وَالسَّبَبُ فِي غَضَبِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي جَهَنَّمَ، أَنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرُ جُحُودٍ، إِذْ قَدْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَجَحَدُوهُ وَكَذَّبُوا بِهِ، وَتَحَايَلُوا لِسَتْرِ جُحُودِهِمْ بِزُيُوفِ أَقْوَالٍ زُخْرُفِيَّةٍ بَاطِلَةٍ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَهَا.

وبهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالِثِ مِنْ دُرُوس سورة (الشورىٰ).

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٨)
التّدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الشورىٰ) وهو الآيتان (١٧ و١٨)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

تمهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ الْقرآنِ مُضَافٌ إلىٰ مَا سَبَقَ أَنْ أُنْزِلَ بِشَأْنِهِ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَبيانٌ عَنِ السَّاعَةِ وَعَنْ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بها، وَحَالٍ آخَرَ مِنْ أَحْوَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بها.

التدبّر التحليليّ:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِخِطَابٍ مُوَجَّهٍ لِكُلِّ مَنْ هُوَ مَوْضُوعٌ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ..﴾:

أي: اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الكِتَابَ الْخَاتِمَ لِكُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا رَحْمَةً بِعِبَادِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ صِرَاطَ نَجاتِهِمْ، وَفَوْزِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وهَـٰذَا الْكِتَابُ مُتَّصِفٌ بِالْحَقّ، وَهُوَ الأَمْرُ الثَّابِتُ الَّذِي لا شَكَّ فِيهِ، ومن الحقّ البيانُ المطابِقُ لِلْوَاقِعِ، والإرْشادُ لِمَا يَنْفَعُ وَيُفِيد، ومن الحقّ ما هُوَ مُطَابِقٌ لمطلُوبِ اللهِ مِنْ عباده فِي امْتِحَانِهِم، وَمِنَ الحقّ عَمَلُ شيءٍ لِغَايَةٍ نَافِعَةٍ حَكِيمَةٍ، أَمّا الْعَمَلُ لِغَيْرِ غَايَةٍ حَكِيمَةٍ فَهُوَ من الْعَبَثِ، وهُوَ مُنَافٍ لِلْحَق.

والقرآنُ وَكَذلِكَ كُتُبُ اللهِ السَّابِقَةُ، مُتَّصِفَةٌ بِالْحَقِّ لاشْتِمالِهَا عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيانُهُ مِنْ مَعْنَىٰ الْحَقّ وامْتِدَادِ دَلَالَتِه، وَقَدْ جاءَ فِي القرآن بَيانُ هٰـذا، فقال الله تعالىٰ في سورة (الحديد/ ٩٤ نزول):

• ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

• ﴿وَٱلْمِيزَانَۖ﴾: أَيْ: وأَنْزَلَ الْمِيزَانَ.

الْمِيزَان: يُطْلَقُ علىٰ الآلَةِ الّتي يُوزَنُ بها، وهي معروفَةٌ، وَيُطْلَقُ عَلىٰ المثاقيل ذَاتِ المقادير المَعْلُومَة الَّتي تُوضع عَادَةً فِي إِحْدَىٰ كِفَّتي الميزان، لتُوزَنَ بِهَا الْأَشْيَاء ذَوَاتُ المقادير المَجْهُولَة.

ويُطْلَقُ الميزانُ ويُرَادُ بِهٰـذَا الإِطْلَاقِ عَمَلِيَّةُ الْوَزْنِ، وَهو من إطْلَاقِ الْأَدَاةِ عَلىٰ الْمَصْدَرِ الَّذي يَدُلُّ عَلىٰ الْحَدَثِ.

وَلَمَّا كَانَ الْمِيزَانُ الْأَدَاةَ الَّتِي يُقَدَّرُ فِيهَا بِالْحَقِّ المَوْزُونُ الْمُعَادِلُ لِحَقِّ مَنْ يُوزَنُ لَهُ، أُطْلِقَ لَفْظُ الميزانِ عَلَىٰ الْعَدْلِ، وَعَلَىٰ النُّظُم وَالْقَوَاعِدِ وَالْوَصَايَا وَالْأَحْكَام الَّتِي يُوصِلُ اتّبَاعُهَا إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ، الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الْعَامَّة، ضِمْنَ اسْتِطَاعَةِ النَّاس، فَهُمْ مُطَالَبُونَ بِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ أو الاقتراب مِنْهُ علىٰ مِقْدَارِ اسْتِطَاعَاتِهِم، فَأَنْزَلَ اللهُ النُّظمَ والْقَوَاعِدَ وَالْوَصَايَا وَالْأَحْكَامَ، الَّتِي يُوصِلُ اتّبَاعُهَا إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ، أو إِلَىٰ الاقْتِرَابِ مِنْهُ عَلَىٰ مِقْدَارِ الاسْتطاعَةِ الْبَشَرِيَّة.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِفِعْلِ ﴿أَنزَلَ﴾ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنِ اللهِ مِنْ خَلْقٍ أَوْ بَيَانٍ أَوْ أَمْر أَوْ أَيِّ شَيْءٍ هُو إِنْزَالٌ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ وَمَنْ سِوَاهُ هُوَ مِنْ دُونِهِ، وَلَا يُفِيدُ الْإِنْزَالُ مِنَ اللهِ دَوَاماً مَعْنَىٰ إِنْزَالِ الشيءِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، كَإِنزَالِ الْحَدِيدِ، وإِنْزَالِ الْأَنْعَامِ، فَخَلْقُ اللهِ لَهَا فِي الْأَرْضِ هُوَ إِنْزَالٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ السَّاعَةِ مُتَابِعاً خِطَابَهُ السّابِق:

● ﴿. . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: أَيُّ شَيْءٍ يُعْلِمُك أَيُّهَا المتَلَقِّي مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَها الْبَعْثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّهُ لَا أَحَدَ يُعْلِمُكَ بِهَـٰذَا، وَقَدْ أَخْفَىٰ اللهُ الْعِلْمَ بِقِيَامِ السَّاعَةِ عَنْ كُلِّ عِبَادِهِ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، فَقَدْ ثَقُلَتْ في السماوات والأرض فَلَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، وَجَاءَ وصف السَّاعة بـ«قَرِيب» لِأَنَّ صيغة «فَعيل» يجُوز أن يَسْتَوِي فيها المذكر والمؤنث، والمفرد وغيرُهُ، ولو كانت بمعنىٰ اسم الفاعل[(١)].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؟: أي: وَأَيُّ شَيْءٍ يُعْلِمُك؟ يقالُ لُغَة: «دَرَىٰ فُلَانٌ الشيءَ، وَدَرَىٰ بِهِ، دَرْياً، ودِرَايَةً» أي: عَلِمَه. ويُقَالُ: «أَدْرَاهُ بالشّيْءِ» أي: أَعْلَمَهُ بِهِ.

الْمُرَادُ بالاسْتِفْهَام فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ نَفْيُ الْعِلْمِ، أَيْ: أَنْتَ لَا تَدْرِي أَيُّهَا المتَلَقِّي أَيّاً كُنْتَ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ، فَقَدْ أَخْفَىٰ اللهُ الْعِلْمَ بِهِ عَنْ كُلِّ عِبَادِهِ، حَتَّىٰ الْمَلَائِكَةِ المقَرَّبين.

﴿. . . لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وَلَكِنْ ضَعْ فِي تَوَقُّعِكَ احْتِمَالَ أَنَّ وَقْتَ قِيَام السَّاعَةِ قَرِيبٌ، بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ عُمْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، فَرَبُّكَ مُقَدِّرُ وَقْتِهَا يُشْعِرُكَ بِقُرْبِهِ، فَلَا تَتَصَوَّرْ أَنَّ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِ الحيَاةِ الدُّنْيَا، نَظِيرُ مَا سَبَقَ مِنْهُ فِي المدَّةِ.

أقول: وَيُشْعِرُ بِهَـٰذَا الْقُرْب تَطَوُّرُ الْبَشَرِيَّة فِي المكْتَشَفَاتِ الْعِلْمِيَّة،

---

(١) هـٰذا ما صَحَّ عِنْدِي أخذاً مر الاستعمالات القرآنية.

وَتَكَاثُر النَّاسِ تَكَاثراً عَظِيماً، ووصُولُ النَّاسِ إلىٰ زَخْرَفَةِ الْأَرْض وَإلَىٰ تَصْنِيعِ أَسْلِحَةِ الدَّمَارِ الشَّامل، ودَلَالَةُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورة (يونس/ ٥١ نزول):

• ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد سَبَقَ تَدبُّر هَـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْقِعِهَا مِنْ تَدبُّرِ سُورَةِ (يونس).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ حَالَي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالسَّاعَةِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهَا:

• ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾:

يَسْتَعْجِلُ: أي: يَسْتَحِثُّ طَالِباً تَعْجِيلَ قِيَامِ السَّاعَة.

وَأَصْلُ فِعْلِ «عَجِلَ» و«اسْتَعْجَلَ» فعل لازمٌ بمعْنَىٰ: «أَسْرَعَ». وفي «اسْتَعْجَلَ» معنَىٰ طَلَبَ التَّعْجِيل.

فمَعْنَىٰ العبارة القرآنِيَّة فيما أرىٰ: يَطْلُبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالسَّاعَةِ وَلَا بِالْجَزَاءِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، مِنَ الرَّسُولِ ﷺ الإسْرَاعَ بِقِيَامِ السَّاعَةِ، اسْتِهْزَاءً بِخَبَرِ قِيَامِهَا واسْتِهَانَةً بِهِ.

فَفِعْلُ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ فاعِلُهُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾: أي: بالسَّاعَةِ طَالِبينَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ تَعْجِيلِ قيامها.

وَلفظ ﴿بِهَا﴾ عَقِبَ فِعْلِ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ مُتَعلِّقٌ بِعَامِلٍ مَحْذوف، تَقْدِيرُه: اسْتِهْزَاءً بِخَبَرِهَا، أَو اسْتِهَانَةً بِهِ.

والفِعْلُ فِي: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ الْحالِ والاستقبالِ: أي: لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقبلاً، ولهَٰذا فَهُمْ يَسْتَهْزِئُون بِنَبأ قيام السَّاعَةِ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾:

أي: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِأَرْكَانِ الإيمان في الْإِسْلَام، وَمِنْهَا إيمَانُهُمْ بالسَّاعَةِ، والْبَعْثِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْجزَاءِ، يَخافُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِيهَا، وَيَحْذَرُونه.

يُقَالُ لُغَةً: «أشْفَقَ فِلَانٌ مِنْ أَمْرٍ مَا» أي: خَافَهُ وَحَذِرَ مِنْهُ.

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾: أَيْ: خَائِفُونَ حَذِرُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِيهَا دَواماً، فَهُمْ يَبْتَعِدُونَ عَنْ مُسَبِّبَاتِ هَٰذَا العذاب.

اسمُ الفاعل «مُشْفِقُون» يَحْمِلُ دَلَالَةَ الْفِعْلِ المضارع علىٰ الْحَالِ والاستقبال.

وَجاءَ اسْتِعْمَال الفِعْلِ الماضي في عِبارة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَحقُّقِ إيمانِهِمْ، في مُقَابِلِ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: الَّذينَ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقبلاً.

وَسَكَتَ النَّصُّ عَنِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَظْهَرْ حَالُهُمْ بَعْدُ، وَهؤُلَاءِ لَا يَسْتَهْزِئُونَ غَالباً بِنَبَإِ قِيَامِ السَّاعَةِ، بَلْ هُمْ يَتَرَيَّثُون.

وَالَّذِينَ آمَنُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاعَةَ وَمَا يَجْرِي بَعْدَهَا مِنْ بَعْثٍ وَحِسَابٍ وَفَصْلِ قَضَاءٍ وَجزاءٍ: هُوَ الْحَقُّ، أَمَّا إِنْكَارُهَا أَوِ الشَّكُّ فِيهَا فَهُوَ بَاطِلٌ حَتْماً.

في عِبَارة: ﴿أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ قَصْرٌ اسْتُفِيدَ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفِي الإسْنَاد، وَهُوَ قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إِلَىٰ مَا يُضَادُّ الحقَّ مِنْ عَقَائِدِ المخالفين، وهُوَ مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ.

• ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاة استفتاح، وتَنْبِيهٍ، وَتَوْكِيد.

﴿يُمَارُونَ﴾: أي: يُجَادِلُونَ، والَّذِينَ يُمَارُون فِي السَّاعَةِ: أَي: يُجَادِلُونَ بزُخْرُفِ أقْوَالِهِمْ للإيْهَامِ بِأَنَّ نَبَأَ قِيَامِ السَّاعَةِ نَبَأٌ كَذِبٌ لَا يُطَابِقُهُ وَاقِعٌ سَوْفَ يَكُون.

الْمُمَارَاة: هِي الْمُجَادَلَةُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الشَّكِّ والرِّيبَةِ، للإيهَامِ بأنَّ مَا يدَّعِيهِ الْمُمَارِي مِنْ بَاطِلٍ هو حَقٌّ، وللإيهَامِ بِأَنَّ مَا يُخَالِفُهُ بَاطِل.

وسُمِّيَتْ هَـٰذِهِ المجادَلَةُ مُمَارَاةً؛ لأَنَّ صَاحِبَهَا يُحَاوِلُ اسْتِخْرَاجَ اعْتِرَافِ مَنْ يُنَاظِرُه، كَمَا يَمْتَرِي الحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضَّرْعِ لاسْتخراجه مِنَ الحَلَمات، أي: يَمْسَحُ أعلىٰ الضَرْعِ بِرِفْقٍ ليستَرْخِيَ وَيَسْمَحَ بخروجِ اللَّبَنِ.

﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾: أي: لَفِي ضَيَاعٍ فِي قَفْرٍ بَعِيدٍ عَنْ مَوْقِعِ الْحَقّ، فَهُوَ فِيهِ مُعَرَّضٌ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ، وَشَقَاءٍ مَدِيد.

جَاءَ فِي هَـٰذَا البيان تَوْكيد أَنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ضَالُّونَ ضَلَالاً بَعِيداً بِالْمُؤكدات التاليات: «أداة الاستفتاح - وإِنَّ - والجملَة الاسْمِيَّة - واللَّام المزَحْلَقَة».

وَوَصَفَ اللهُ ضَلَالَهُمْ بِأَنَّهُ ضَلَالٌ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ إِنْكَارَ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا الْجَزَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُمَارِسُ كُلَّ القبائِحِ وَالشُّرُور، والظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، والْبَغْي والْعِصْيَانِ، بِوَقَاحَةٍ وَجُرْأَةٍ، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ جَبَّارٍ فِي الْأَرْضِ وَمُجْرِمٍ عَظِيم، وَشَيْطَانٍ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابعِ مِنْ دُرُوس سورة (الشُّورىٰ).

والحمدُ لِلَّهِ عَلىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٩)

التدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من دُروس سورة (الشورىٰ) الآيتان (١٩ و٢٠)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

القراءات:

(٢٠) • قرأ قَالُون، ويَعْقُوب، وهِشَامٌ بخُلْفٍ عنه: **﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾** بِكَسْرِ الهاء من غَيْرِ صِلَة.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء مع الصّلَة **﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾**، وهُو الوجْهُ الثاني لِهِشَام.

تمهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عباده مَا يَشَاءُ، تَمْهِيداً لِلْحَدِيثِ عَنْ قَانُونِ اللهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة، وَقَانُونِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرثَ الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾:

• ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: أي: اللهُ رَفِيقٌ رَؤوفٌ بَعِبَادِهِ، يَرْفُقُ بِهِمْ، وَيَرْأَفُ بِهِمْ، وهَـٰذَا الوصْفُ مِنْ فُرُوع صِفَةِ الرَّحْمَةِ، وثبتَ أنَّ رَحْمَةَ اللهِ وسِعَتْ كُلَّ شيء.

وَيُطْلَقُ وَصْفُ اللَّطِيفِ عَلَىٰ الَّذِي يُجْرِي تَدَابِيرَهُ وَأَعمالَهُ برفْق، فَلا يَكُونُ عَنِيفاً وَلَا خَشِناً، ويطلقُ علىٰ الَّذِي يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ بِرِقَّةٍ دُونَ أَنْ يُحَسَّ بِدُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ.

والملائكَةُ مِنَ الْأَجْسَادِ اللَّطِيفَةُ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ اللَّطِيفَةِ: النّسِيم، وَالْأَشِعَةُ، والرُّوح.

ومعنَىٰ الرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ هو المناسِبُ لِعِبَارَةِ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

• ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: أي: ومِنْ آثارِ لُطْفِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ، أَنَّهُ يَرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ.

وَلِهَـٰذِهِ العبارة تَكْمِيلٌ جَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ، وَمِنْ هَـٰذَا التكْمِيلِ أَنَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وأَنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَقْدِرُ الرِّزْقَ وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ، لِيَبْلُوَ كُلّاً فيما آتَاهُ. وَكُلَّ تَصَارِيفِهِ بِعِبَادِهِ حَكِيمَةٌ.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِه، فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ عَطَاءَاتِ اللهِ لعباده، مَا يُدْرَكُ مِنْهَا بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، وَمَا لَا يُدْرَكُ مِنْهَا بِها، وَيُطْلَقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا أَشْيَاءُ مَعْنَوِيَّة أَوْ نَفْسِيَّة أَوْ رُوحِيَّة، وَمِنْ هَـٰذِهِ المعنويَاتِ الْعِلْمُ، وُجودَةُ الرَّأْيِ، وَحُسْنُ التدبير والتفكير.

واللهُ عزّ وَجَلَّ هُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ كَوْنِهِ، وَالْخَالِقُ لِكُلِّ مَا يَجْرِي فِيهِ، دُونَ أَنْ يَسْلُبَ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة، فَهُوَ بِحِكْمَتِهِ يَرْزُقُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، والمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ فَهُمْ جميعاً في ظروفِ حياة الامتحان، ـ وهو جلَّ جلالَهُ وعظم سُلْطَانُهُ ـ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتٌ، فَبَقَاءُ كُلّ ذِي حَيَاةٍ حَيّاً يَحْتَاجُ رِزْقاً، وَلَوْ كَانَ فَيْرُوساً، واللهُ يَهْدِيهِ لَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَلَوْ كَانَتْ جُزْءاً من الثانيَةِ، مَهْمَا قَلَّ هَـٰذَا الْجُزْءُ.

• ﴿..وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾: أي: وَمَع كَوْنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَطِيفاً بِعِبَادِهِ يُعْطِيهم الرِّزْقَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، هُوَ أَيْضاً قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَهُوَ

وَحْدَهُ كَامِلُ الْقُوَّةِ وَكَامِلُ الْعِزَّةِ لَا يُشَارِكُهُ فِي كَمَالِهِمَا أَحَدٌ، وَكُلُّ ذِي قُوَّةٍ مَا وَعِزَّةٍ مَا، فَقُوَّتُهُ وَعِزَّتُهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ يُمِدُّهُ بِهِمَا، وَإِذَا شَاءَ سَلَبَهُمَا مِنْهُ بِأَقَلَّ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ.

وبِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ تَبارَكَ وَتَعَالىٰ يُعَاقِبُ الكافِرينَ والمجرمين، ويُهْلِكُ الْجَبَّارِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ رِزْقٍ فِي: الْبَغْي وَظُلْمِ عِبَادِ اللهِ، وَفِي كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفُجُورِ وَفِي كُلِّ مَا يَحْلُو لَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْجَرَائِم كَافِرين بِإِنْعَامِ الْمُنْعِم.

القوي: اسمٌ من أسْمَاء الله الحسْنَىٰ، وَمَعْنَاهُ: ذُو الْقُوَّةِ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا قُوَّةٌ، وَالَّتِي يَفْعَلُ اللهُ بِهَا مَا يَشاء.

الْعَزِيزُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وَمَعْنَاهُ: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلّ الْقُوىٰ، وَإِذَا شَاءَ سَلَبَ بِعِزَّتِهِ قُوَّةَ كُلِّ ذِي قُوَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

■ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾:

الناسُ فَرِيقَانِ فِي الحياةِ الدُّنيا:

الفريقُ الأول: فَرِيقُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الآخِرَةَ مُؤْمِنِينَ بها، وَلَا يُهْمِلُونَ إِرَادَةَ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وَهُمْ بِمُقْتَضىٰ إِرَادَتِهِمْ هَـٰذِهِ يَجْتَهِدُونَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَبْتَغُونَ بِهَا مَرْضَاةَ اللهِ وَثَوَابَ الآخِرَةِ سَاعِينَ لَهَا سَعْيَهَا، وهؤُلَاءِ يَزِيدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَعْمَالِهِمْ للآخِرَةِ، وَيُضَاعِفُهَا لَهُمْ، وَيَزِيدُ فِي ثَوَابِهِمْ عَلَيْهَا زِيَادَاتٍ فَوْقَ مَا يَتَمَنَّوْنَ وَيَحْلُمُونَ بِهِ.

وَيُعْطِيهِمُ اللهُ حُظُوظَهُمْ مِنَ الْحياة الدُّنْيا بِحَسَبِ مَا قَسَمَ لَهُمْ أَنْ يَنالُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

الفريق الثاني: فَرِيقُ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلَا يَسْعَوْنَ لَهَا سَعْيَهَا، وَهٰؤُلَاءِ لَا يَجْعَلُ اللهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَصِيباً مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الْجَحِيمِ.

جَاءَ فِي الْآيَةِ التَّعْبِيرُ عَنِ الْعَمَلِ لِلظَّفَرِ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي الآخِرَةِ، وَلِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا بِكَلِمَةِ الْحَرْثِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ بَذْلِ الْجَهْدِ فِي الْعَمَلِ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ ثَمَرَاتِهِ، نَظَراً إِلَىٰ أَنَّ الْحَرْثَ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ ثَمَرَاتِ الإِنْتَاجِ الزِّرَاعِيِّ، أَكْثَرُ التَّعْبِيرَاتِ شَبَهاً بِالْأَعْمَالِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا ثَوَابُ الْآخِرَةِ، وَبِأَعْمَالِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَنَالُوا أَكْثَرَ مَا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحياةِ الدُّنيا.

فَكَلِمَةُ «حَرْثٍ» عُبِّرَ بِهَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ عَنْ بَذْلِ الْجَهْدِ فِي الْعَمَلِ لِلآخِرَةِ وَلِلْعَمَلِ فِي الدُّنيا.

الْحَرْثُ: الْعَمَلُ فِي الْأَرْضِ لاسْتِنْبَاتِ زَرْعِهَا، أَوْ غَرْسِ شَجَرِها.

وقد جاء في القرآن عِدَّةُ نُصُوصٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هٰذَا النَّصّ تكَامُل، وتَدَبُّرُ تكَامُلِهَا فِيمَا بَيْنَهَا يَحْتَاجُ جَمْعاً وَنَظَراً وَتَأَمُّلاً شاملاً لَهَا.

وبهٰذا تم تدبُّر الدَّرْسِ الخامس من دُروس سورة (الشورىٰ).

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتوفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٠)
التدبُّر التحليلي للدّرْسِ السّادس من دُروسِ سُورَة (الشورى)
الآيات من (٢١ ـ ٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ

مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ قَالُون، وأبُو عمْرو، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفر: **[وَهْوَ]** بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَهُوَ**﴾ بضمّ الهاء، ووقَفَ يَعْقُوبُ بهاء السَّكْت.

(٢٣) • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وحمزة، والكِسَائي: **[يَبْشُرُ]** مِنْ فِعْل «بَشَرَهُ بالأمْرِ يَبْشُرُهُ» أي: أخبره بما يَسُرُّه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**يُبَشِّرُ**﴾ من فعل «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» المضعّف، وفي المضعّفِ معنى التوكيد، وهو يُنَاسِبُ قِسْماً مِنَ المؤمنين.

(٢٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَفْعَلُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأهَا باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿**يفْعَلُونَ**﴾ بياءِ الْغَائِبِينَ. وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرسِ تَرْهِيبٌ للمشْرِكِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أحْكَامٌ جاهِلِيَّةٌ لَمْ

يَأْذَنْ بِها اللهُ، بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ، وتَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمنينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ، بِأَنَّ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ في رَوْضَاتِ الجنَّاتِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، مَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، ولَهُ مَعَ أَكْثَرِهِمْ قُرْبَىٰ، مَعَ إِطْمَاعِهِمْ بأَنْ يَزِيدَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ثوابَهُمْ إِذَا آمَنُوا واكْتَسَبُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ شيئاً.

وفيها بَيَانُ أنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّهَمُوا الرَّسُولَ ﷺ بافْتِرَائِهِ الكَذِبَ علَى الله، مَعَ المعالَجَةِ بالإقْنَاعِ، وإطْمَاعِ المؤمنينَ بأَنْ يَزِيدَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وإِنْذَارِ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ شَدِيد.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْمُشْرِكِين وأحْكَامِهِم الجاهِلِيَّةِ:

• ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾:

جاء في الآية (١٣) بيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ شَرَعَ لِلنَّاسِ في الرِّسَالَةِ الخاتِمَةِ، مَا شَرَعَهُ فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقَاتِ مع إضَافَاتٍ عَلَيْها، تُلَائِمُ أَحْوَالَ النَّاسِ إلى قيامِ السَّاعَة.

وبما أَنَّ السُّورَةَ تُعَالِجُ المشْرِكِينَ في كُفْرِيَّاتِهِمْ وأَحْكَامِهِمْ المخالفة لِمَا شَرَعَ اللهُ، جَاءَ في الآية (٢١) حَدِيثٌ يَتَعَلَّقُ بما لَدَيْهِمْ مِنْ شرائِعَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ، ولَهُ الأَمْرُ، ولَهُ التَّشْرِيعُ، وَلَا حَقَّ لِأَحَدٍ في أَنْ يَشْرَعَ مِنَ الدِّينِ حُكماً لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ.

وسَبَقَ في نُجُوم التَّنْزِيلِ بَيَانُ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَحْكَاماً فاسِدَةً لَمْ يَأْذَنْ بها اللهُ، وتَشْرِيعَاتٍ باطِلَاتٍ مِنْ افْتِرَاءاتِ شياطِين الجنِّ

والإنْسِ علىٰ الله، ومِنْ أَوْضَاعِ الكَهَنَةِ وَسَدَنَةِ الأَصْنَامِ، لِجَلْبِ مَنَافِعَ لَهُمْ مِنْ عُبَّادِها.

فيَقولُ اللهُ بشَأْنِهِمْ:

• ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ . . .﴾:

﴿أَمْ﴾ يُعَبَّرُ عَنْها بِحَرْفِ «بَلْ» مع همزة اسْتِفْهام. والإضرابُ بحرف «بَلْ» انْتِقَالي.

أي: وَنَنْتَقِلُ مِمَّا سَبَقَ ونَقُول: أَلِلْمُشْرِكِينَ آلِهَةٌ هِي أَرْبَابٌ تَسْتَحِقُّ الإلَهِيَّة بِرُبُوبِيَّتِها، فَهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ، شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ شرائِعَ لَمْ يَأْذَنْ بها اللهُ، الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا رَبَّ غَيْرُه، فَهُوَ الإلَهُ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ الَّذِي لَا إلَه غَيْرُه.

والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ لَهُمْ دُونَ مُواجَهَةٍ لَهُمْ بالْخِطاب.

ويُتْبِعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذا الاسْتِنْكَارَ التوبيخِيَّ بِقَوله:

• ﴿. . وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾:

الْفَصْل: الفرْقُ والتّمْييزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَو الْأَشْيَاء. ويُطْلَقُ الْفَصْلُ علىٰ الْحُكْم والقضاء، يُقَال: فَصَل الحاكم بَيْنَ الْخَصْمَيْن، أي: حَكَمَ وقَضَىٰ قَضاءً بَتَّهُ وأَبْرَمَه. والقولُ الْفَصْلُ هو: القولُ الْبَيِّنُ الواضحُ الْمُبْرَمُ المقْطُوعُ به.

والمرادُ بِكَلِمَةِ الْفَصْلِ هُنَا أَخْذاً مِنَ السِّيَاقِ والسِّبَاق: الْكَلِمَةُ الَّتِي أَبْرَمَ اللهُ بِهَا قَضَاءَهُ وقَدَرَهُ بِإِمْهَالِ الْكُفَّارِ مِنْ عِبادِهِ، وتَأْجِيلِ حِسَابِهِمْ، وفَصْلِ القضاءِ بَيْنَهُمْ، وَتَنْفِيذِ مُجَازَاتِهِمْ، إلَىٰ يَوْم الدِّينِ، الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ، إذْ يَقُومُ الموتَىٰ أَحْيَاءً إلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُون.

أي: وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ الَّتِي أَبْرَمَ اللهُ بِهَا تَقْدِيرَهُ وقَضَاءَهُ، بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ الْوَافِي إلى يَوْمِ الدِّينِ، لقَضَىٰ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ تَجْرِي مُعَالَجَتُهُمْ في السُّورَة، ولَنَفَّذَ جَزَاءَهُ فِيهم فِي الحياة الدُّنيا؛ لِأَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِم الحرَّة، وَصَارُوا مُسْتَحِقِّينَ العقاب.

• ﴿..وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾: أي: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ كُلَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، والمشْرِكُونَ المتَحَدَّثُ عَنْهُم مِنْهُمْ؛ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ بِقَضَاءٍ وَأَمْرٍ تَنْفِيذِيّ من اللهِ رَبّ العالَمِين عَذَابٌ أَلِيمٌ شَدِيدُ الإيلام، ودَلَّتْ نُصُوصٌ أخْرَىٰ علَىٰ أَنَّهُم خالِدُون في دار الْعَذابِ النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ لَقْطَةً مِنْ لَقَطاتِ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة، مُسْتَقْطَعَةً مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ حَتْماً، والمخاطَبُ: كُلُّ صَالِحٍ للخطاب، بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي:

• ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ..﴾:

• ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أَيْ: لَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ حُضُورِ هَـٰذَا المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَيُّها المُتَلَقِّي لِهَـٰذَا الْبَيانِ، لَكُنْتَ تَرَىٰ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ، ولَكُنْتَ ترىٰ أمْثَالهم:

• ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾: أَيْ: خَائِفِينَ مِنْ جَزَاءِ مَا كَسَبُوا عَذَاباً أَلِيماً، وهَـٰذَا الْجَزاءُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، لِكُفْرِهِمْ ولافْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهم بِشَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾:

رَوْضَات: جَمْعُ «رَوْضَةٍ» وهي الأَرْضُ المكْسُوَّةُ خُضْرةً وأَزْهَاراً، والبُسْتَانُ الْحَسَنُ، فالرَّوْضَاتُ: جَنَّاتٌ ضِمْنَ دَارِ النَّعِيمِ الكُبْرى، الَّتِي تُسَمَّىٰ الجنَّةِ، وهي ضِمْنَ جَنَّاتٍ نَفِيسَاتٍ بَدِيعَاتٍ فيها المسْعِدَاتُ من كل شيء.

أي: ولكُنْتَ تَرَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً صحيحاً صَادِقاً بما أوجَبَ اللهُ الإيمانَ به، وَعَمِلُوا الصَّالِحَات المعبِّراتِ عَنْ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ طَلَباً لِرِضْوَانِهِ، وَثوابِهِ العظيم الذي أعَدَّهُ للمُسْلِمينَ الْمُتَّقِينَ، يَتَنَعَّمُونَ في روضاتٍ رائِعَاتٍ، ضِمْنَ جَنَّاتٍ نَفيسَاتٍ، فِيها مِنْ وَسَائِلِ النعيم العظيم الخالد، ما لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر.

ولَهُمْ فيها مَا يَشَاءُونَ مَهْمَا بَالَغُوا في أَمَانِيهِمْ، وهٰذا يَكُونُ لَهُمْ في مَنَازِلِ الْقُرْب من ربِّهِمْ ورِضوانهِ عَلَيْهِم، وَفِي رحْمَتِهِ، وفُيُوضِ مِنَنِهِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ، تَسْبِقُ عَطَايَاهُ خَوَاطِرَهُمْ، حتَّىٰ تعجزَ خَوَاطِرُهُمْ عَنْ طَلَبِ أَمَاني جَدِيدَةٍ.

﴿.. ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾:

المشارُ إِلَيْهِ بِعِبَارَةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدَّالَّةِ على ارْتِفَاع مَنْزِلَةِ وعَظَمَةِ الْجَزَاءِ الَّذِي يَسْعَدُ بِهِ الَّذِينَ يُكَرِّمُهُم اللهُ يَوْمَ الدِّينِ بالْقُرْبِ الكَثِيرِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَجْعَلَهُمْ عِنْدَهُ، هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ، الَّذِي يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

الْفَضْلُ: هو الإحْسَانُ ابْتِدَاءً دُونَ مُقَابِلٍ، ودُون تَرَقُّبِ مُكَافَأَةٍ أَوْ شُكْر.

جاءَتْ عِبارَةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ مُعَرَّفَةَ طَرَفَي الإِسْنَادِ، ومُؤَكَّدَةً بِضَمِيرِ الْفَصْلِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فَضْلٌ كَبِيرٌ إِلَّا مَا يُعْطِيهِ اللهُ في الْجَنَّاتِ يَوْمَ الدِّينِ، لِلَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، عَلَىٰ تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ من الْفِرْدَوسِ الأَعْلَىٰ حَتَّىٰ أَدْنى مَا في الجناتِ.

ذلِكَ الَّذي هو الْفَضْلُ الكبيرُ، يُبَشِّرُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

حُذِفَتْ عِبَارَةُ: «بِهِ» إِيجازاً، ويَسْهُلُ إِدْرَاكُهَا وتَقْدِيرُها.

وجاءت عِبَارَةُ: ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ مع إمكان الاستغناء عنها بالضّمِير كأنْ يُقَالَ: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ الَّذِي يُبَشِّرُهُم بِهِ» لِأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ إِطْنَابٍ يَقْتَضِيهِ إِطْمَاعُ النَّاسِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، لِيَنَالُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ هـٰذا الْفَضْلَ الكَبِير.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقُولُهُ لِمُشْرِكِي مَكَّة، وهُمْ فِي أَغْلَبِهِمْ أَصْحَابُ قُرْبَىٰ لَهُ:

● ﴿..قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ .. ﴿٢٣﴾﴾:

جاء هـٰذا التعْلِيمُ مُعْتَرِضاً في أسْلُوبِهِ، لَكِنَّهُ ذُو صِلَةٍ قَوِيَّةٍ فِي مَضْمُونِهِ بِمُعَالَجَةِ المعْنِيِّينَ بالْمُعَالَجَةِ في السُّورَةِ، وهُمْ مُشْرِكو مكّة، فَكَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَهُمْ: مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَىٰ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ، فَلِمَ تُعَادُونَهُ وتُعَادُونَ مَنْ آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ مِنْكُمْ، وتريدُونَ التَّخَلُّصَ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ؟.

أَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْقَرَابَةِ في مَفْهُومَاتِكُمْ أَنْ تُعامِلُوهُ بالْمَوَدَّةِ، ولَوْ كَانَتْ مَوَدَّةً ضَعِيفَةً، لا بِالمشَاقَّةِ والْعِداءِ، وَتَدْبِيرِ المكايِدِ لِحَرْبِه؟؟.

وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُوصِلَ إِلَيْهِمْ هـٰذَا المعْنَىٰ.

أمّا عبارة: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالَهَا لَهُمْ بَعْدَ إِنْزَالِ اللهِ عليه قَوْلَهُ في سورة (الأنْعام/ ٥٥ نزول):

﴿..قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

وجَاءَ تَكْرِيرُ هـٰذا التَّكْلِيفِ في سُورَة (الشورى/ ٦٢ نُزُول) تَوْطِئَةً لعبارة: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾:

﴿إِلَّا﴾: هُنَا أدَاة اسْتِدْرَاكٍ بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» وليست أداة استثْناء، لِأَنَّ المودَّة في الْقُرْبَىٰ لَيْسَتْ مِنَ الأجْر.

الْمَوَدَّة: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِر: «وَدَّ» كالْوِدّ، وهو مثلَّثُ الواو، وهو نوعٌ من الحبِّ الهادِئ الّذي يَكُونُ بَينَ الْأَصْحَابِ والإخوان، وذوي القرابَاتِ، وذوي الصّدَاقات، ولَا يُطْلَقُ علَىٰ المشْبُوبِ بالْعَوَاطِفِ الثائرة.

الْقُرْبَىٰ: هِيَ الْقَرابَة، وهِيَ الْقُرْبُ وَالدُّنُوُّ فِي النَّسَب.

أي: لَكِنْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُعَامِلُوني مُعَامَلَةَ الْمَوَدَّةِ الَّتِي تكُونُ بَيْنَ الْأَقْربَاءِ وَلو كانَتْ قرابَاتُهُمْ بَعِيدَةً، ومِنْ عَادَات أَهْلِ الْقُرْبَىٰ في القبائل العربيَّةِ، أَنْ يَنْصُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِمَوَدَّةِ الْقَرَابَةِ بَيْنَهُمْ، لَا أَنْ يُعَادِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ويُشَاقَّ بَعْضَهُمْ بَعْضاً. فَرَاعُوا هـٰذِهِ الْمَوَدَّةَ، فَدَعُونِي وَمَسِيرَتِي في دَعْوَتي وَلَا تُعَادُوني، وَلَا تُدَبِّرُوا المكايِدَ ضِدِّي، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني.

هـٰذا المعنىٰ هو الذي صَحَّ عَنِ ابْنِ عبَّاس رضي اللهُ عَنْهُ، فقد جاء في صحيح البخاري وغيره، أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وكَانَ هـٰذا بِحَضْرَةِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَابْتَدَرَ سَعِيدٌ فَقَالَ: قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّد ـ ﷺ ـ. فقال لَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ (أي: لَيْسَ هـٰذا هُوَ المراد) لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيشٍ إلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرابَة، فقالَ لهم: إِلَّا أنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَهُ السَّابِقَ لِلْجُمْلَةِ الاعْتِراضِيَّة:

● ﴿. . وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾:

الاقتراف: الاكْتِسَاب، يُقَال لغة: «اقْتَرَفَ حَسَنَةً، أَوْ سَيِّئَةً، أو مَالاً» أي: اكْتَسَبَهُ، بإرَادَةٍ واعِيَةٍ وَتَكَلُّف.

حَسَنَةً: أي: مُكْتَسَبَةً حَسَنَةً، مِنْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أو بَاطِنٍ.

• ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾: أي: نُسَجِّلُهَا زَائِدَةً عَلَىٰ المِقْدَارِ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ بِإِرَادَتِهِ، لِنُثِيبَهُ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ مَا زِدْنَاهُ فِيهَا الثوابَ المضَاعَفَ عَشْرَ مَرَّات. وسبَقَ أنْ جاء في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) قول اللهِ تَعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

أي: وَمَنْ يَكْتَسِبْ حَسَنَةً بِإِرَادَتِهِ الحرَّةِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، نَزِدْ لَهُ فِي حَسَنَتِهِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا حُسْناً، لِنَزِيدَ لَهُ عَلَيْهَا ثَوَاباً.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾: أي: إنَّ الله كَثِير المغفرة لخطايا عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، كَثِيرُ الشُّكْرِ لِلْأَعْمَال الصَّالِحَة الَّتِي يَعْمَلُهَا عِبَادُه المؤمِنُون.

المغْفِرَةُ: سَتْرُ خَطَايَا المذْنِبِ، وَيَلْزَمُ مِنْ سَتْرِ الْخَطَايا عَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْها. **والغفور**: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «غافِر».

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الحَسَنِ بِمَا يُرْضِي الْعَامِل. **والشَّكُور**: صِيغَة مبالَغَةٍ لاسْم الفاعل «شاكر».

والْغَفُور والشَّكُور مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسنىٰ الملَائِمَةِ هُنَا في النَّصِّ للحَدِيثِ عَنْ ثَوَاب الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَمَعْلُومٌ ذِهْناً أَنَّهُمْ لا يَخْلُون مِنَ ارْتِكَابِ الْخَطَايا، فَهُمْ يَسْأَلُونَ الله أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ بِرَحْمَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديثَ عَنِ المشْرِكِينَ، وَعَنْ كَبَائِرِهِمُ الشَّنِيعَةِ، الّتي هي مِنْ ظواهِرِ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ الله ﷺ:

• ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿أَمۡ﴾ للإضْرَاب والاسْتِفْهَام مَعاً، والاسْتِفْهَامُ هُنَا للتَّثْرِيبِ والتَّوْبِيخِ،

عَلَىٰ اتِّهَامِهِمْ رَسُولَ اللهِ مُحَمَّداً ﷺ بِأَنَّهُ يَفْتَرِي الْقُرْآنَ عَلَىٰ اللهِ، ويَدَّعِي كَذِباً أَنَّهُ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَيَدَّعِي كَذِباً أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ ورَسُولُه لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ عَنْ عَمْدٍ.

أي: بَلْ. أَيَقُولُونَ مُكَرِّرِينَ تَكْرِيراً دِعَائِيّاً إعْلَامِيّاً، أخذاً مِنْ صِيغَةِ الفعل المضارع: مُحَمَّدٌ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً بِادّعَائِهِ النبوَّةَ والرِّسَالَة، وادِّعَائِهِ أَنْ مَا يَتْلُوهُ مِنْ كَلَامٍ عَلَيْنَا هُوَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هٰذا التَّرْوِيجِ الْإِعْلَامِيِّ صَدُّ النَّاسِ عن الاستجابَة لِدَعْوَتِهِ، وَالْإِيمانِ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وعَنِ الدُّخولِ في الإسلام.

وَيَرُدُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ تَعْرِيضاً واسْتِهَانَةً بِهِمْ، بِأُسْلُوبِ خِطَابِهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَتَفْرِيعاً على مَا يَقُولُونَ لِلصَّدِّ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ:

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾:

الْخَتْمُ عَلَىٰ الشَّيْءِ: مَنْعُ وُصُولِ شَيْءٍ إِلَىٰ دَاخِلِهِ، وَمَنْعُ خُرُوجِ أَيِّ شيءٍ مِنْهُ، والمراد بالْقَلْبِ هُنَا جِهَازُ الْإِدْرَاكِ والتَّفْكِير، والْعِلْمِ والتَّعْبِيرِ، والْخَتْمُ عَلَيْهِ مَنْعُ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ، وَعِنْدَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ المخْتُومُ عَلَىٰ قَلْبِهِ أَنْ يَفْهَمَ شيئاً، أَوْ يُدْرِكَ شيئاً، وَلَا يَسْتَطِيعُ لِسَانُهُ أَنْ يَقُولَ كَلَاماً صَحِيحاً سَوِيّاً.

وَبِمَا أَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بأَمْرِ التَّكْوِينِ، فَإِنَّهُ لَا يَدَعُ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ يَفْتَرِي عَلَيْهِ بَيَاناً، أَوْ كَلَاماً يَزْعُمُ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وَمِنْ وَسَائِلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَخْتِمَ خَتْماً تَامّاً عَلَىٰ جِهَازِ الْإِدْرَاكِ والتَّفْكِيرِ، والْعِلْمِ والتَّعْبِيرِ فيه، فيَمْنَعَهُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، لِئَلَّا يَفْتَتِنَ النَّاسِ بِهِ وَهُوَ يَفْتَرِي علَىٰ رَبِّهِ، ومِنْ وَسَائِلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ أَنْ يُمِيتَهُ إِمَاتَةَ عُقُوبَةٍ فيها إهَانَةٌ

وعُنْفٌ وَإذْلَالٌ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ بِشَأْنِ رَسُولِهِ محمّد ﷺ في سُورَة (الحاقَة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

الْوَتِين: الشِّرْيانُ الرئيسُ الّذي يُغذِّي جِسْمَ الإنسانِ بالدَّمِ النَّقِيّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ.

فَعَدَمُ حُدُوثِ الْخَتْمِ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَعَدَمُ قَتْلِهِ بِقَطْعِ وَتِينِهِ، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَفْتَرِ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً مَا، وَعَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَوَّلْ عَلَىٰ اللهِ بَعْضَ الْأَقَاوِيل.

كَيْفَ يَفْتَرِي ﷺ عَلَىٰ اللهِ رَبِّهِ، وَقَدِ اصْطَفَاهُ مِنْ عِبَادِهِ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، وَعَصَمَهُ بِعِصْمَتِهِ، وَأَمَرَ المؤمِنِينَ بأَنْ يَكُونَ قُدْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: أي: وَمِنْ صِفَاتِ اللهِ وَسُنَّتِهِ الثَّابِتَةِ، أَنَّهُ كُلَّمَا ظَهَرَ لِلْبَاطِلِ بُرُوزٌ أزالَهُ حَتَّىٰ يَمْحُوَهُ، ويُزِيلَ أَثَرَهُ الضَّارَّ، إذْ تَسْقُطُ بالتَّجْرِبَةِ دَعَاوَاهُ الّتِي كانَ الْمُبْطِلُونَ يَخْدَعُونَ النَّاسَ بِهِا لِيَفْتِنُوهم عَنِ الحق.

ومِنْ صِفَاتِهِ تَعالَىٰ أَنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ، أَيْ: يَجْعَلُهُ ثابتاً في واقِعِ الحياة، كَما هُوَ ثَابِتٌ فِي الْعِلْم، وبإحْقَاقِ الحقِّ يَخِيبُ الْمُبْطِلُونَ.

﴿وَيَمْحُ﴾ فِعْلٌ مَرْفُوعٌ حُذِفَتْ مِنْهُ الواو لالْتِقَاءِ السَّاكِنين، ورُسِمَتْ بِحَذْفِ الْوَاوِ مُجارَاةً لِلنُّطْقِ، أي: واللهُ يَمْحُو بِوَسَائِلِهِ الخفيَّةِ الباطل، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كَوْنِهِ.

وهُو سُبْحَانَهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ ويُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَكَلِمَاتُ اللهِ تَشْمَلُ كَلِمَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةَ، الّتِي يُنَفِّذُ بِهَا مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَكَلِمَاتِهِ الْبَيَانِيَّةَ الّتِي يَهْتَدِي بِهَا أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ، فَيُدْرِكُونَ الْحَقَّ وَيُعْلِنُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ، فَيَكُونُ هُوَ

الظَّاهِرَ والثَّابِتِ، أَمَّا الْبَاطِلُ فَيَضْمَحِلُّ شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّىٰ يَكُونَ زَاهِقاً زَائِلاً، أَوْ بِمَثَابَةِ الزّائل.

• ﴿. . إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾: أي: إِنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ عَلِيمٌ بِصَاحِبَةِ الصُّدُور، وهِيَ الْأَعْمَالُ وَالنِّيَّاتُ وَالْحَرَكَاتُ الإِرَادِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ في دَاخِلِ الصُّدُور، ومِنْهَا الحبُّ والكراهِية والحِقْدُ والتدابِيرُ الكَيْدِيَّةُ، وكُلُّ مَا فِي عُمْقِ النُّفُوسِ.

فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَىٰ مَا في قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِمَّا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُطْمِعُ عِبَادَهُ مَهْمَا كَانَتْ مَوَاقِعُهُمْ فِي الضَّلَالِ، بأَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ مِنْهُم، وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ آناً فَآناً، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

التَّوْبَة: هِي في اللُّغةِ الرَّجُوع، يقال لغة: «تَابَ، يَتُوب، تَوْباً، وَتوبةً، ومَتابَةً، وَتابَةً» أي: رجع.

ويقال: «تَاب العبد إلى ربّه» أي: عزَمَ على الرُّجوع إلى الطَّاعة، والاستقامَة بعد المعصية.

ويقال: «تَاب اللهُ على عَبْدِه» أي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فرجَعَ إِلَيْهِ بالغفران والْعَفْو وفَضْلِ الْعَطاء.

فالمعْنَىٰ: واللهُ هُو الّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبادِهِ الْكَافِرِينَ إذا تَابُوا فآمَنُوا وأسْلَمُوا، ويَتَجاوَزُ عَنْ خَطَايَاهُمْ وَجَرائِمِهِم السَّابِقَةِ الَّتِي فَعلُوهَا قَبْلَ الإسلام؛ لِأَنَّ الإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.

وهُو تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الَّتِي تَكُونُ مِنْهُمْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ.

يَعْفُو: أي: يَمْحُو ويُزِيلُ الأَثَرَ، يُقَالُ لُغَةً: «عَفَتِ الريحُ الأَثَرَ» أي: مَحَتْهُ وَدَرَسَتْهُ، فَلَمْ تُبْقِ في مَكَانِهِ شيئاً يدُلُّ عَلَيْهِ.

فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَتفَضَّلُ عَلَىٰ عِبادِهِ فيَمْحُو سَيِّئَاتِهِمْ مَحْواً كَامِلاً، فَلَا يُبْقِي لَهَا أثراً.

وضُمِّنَ فِعْلُ: «يَعْفُو» مَعْنَىٰ فِعْل: «يَتَجَاوَزُ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «عَنْ» أي: فاللهُ يَمْحُو أَثَرَ سَيِّئَاتِ عِبَادِهِ المؤمِنين التائبينَ مُتَجَاوِزاً عَنْهَا.

والْعَفْوُ: دَرَجَةٌ أَعْلَىٰ مِنْ دَرَجَةِ المغْفِرَةِ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ مَحْوٌ، أَمَّا المغْفِرَةُ فَسَتْرٌ. **والسَّيِّئَاتُ**: تَشْمَلُ صُغْرَىٰ المعاصِي وكُبْراها، ويُرادُ بِها في كثير من النصوص صُغْرَاها.

والْتَفَتَ الْبَيَانُ مِن الْغَيْبَةِ إلى الْخِطَابِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لعباده: ﴿.. وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: وهُوَ جَلَّ جَلالُهُ وأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ كُلَّ مَا تَفْعَلُونَ، مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرةٍ وَأَعْمَالٍ باطِنَةٍ، جَسَدِيَّةٍ وَنَفْسِيَّة، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَة.

وفِي القراءَةِ الْأُخْرَى دُون الْتِفَات: ﴿.. وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ﴾، فَتَكَامَلتِ القِرَاءَتَانِ في الْأَدَاءِ البياني خِطاباً وغَيْبَةً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ فَرِيقَي المؤمنين والْكَافِرِين:

• ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَالَّذِين تَابُوا فآمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ المعبِّراتِ عن صحَّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِهِمْ فيه، يَسْتَجِيبُونَ لِمَا يَتَلَقَّوْنَ تِباعاً مِنْ أوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، آناً فآناً، وكانَ هٰذا الْبَيَانُ بِمَثَابَةِ إِعْدَادِ نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، لاِسْتِقْبَالِ مَا سَيَنْزِلُ من أَحْكَامٍ وأوامِرَ وَنَوَاهِي بَعْدَ سُورَةِ (الشُّورىٰ) مِنْ سُوَر.

يَسْتَجِيبُونَ: أي: يُطِيعُونَ، والْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطِيعُون اللهَ ورَسُولَهُ ﷺ، بِفِعْلِ الواجباتِ وَتَرْكِ المحرَّماتِ.

وَهـٰؤُلَاءِ يَزِيدُهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَيُوَفِّقُهُمْ لِأَدَاءِ نوافِلِ الطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ بِدَوَافِعَ مِنْ قُلُوبهم، ليضاعِفَ أُجُورَهم، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ثَوَاباً، بِمُضَاعَفَةِ الْأُجُور المقرَّرَةِ عَلَىٰ الأعْمَالِ الّتي يَعْمَلُونَها طَاعَةً لِرَبِّهِمْ وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِه.

أَمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا فَلَمْ يُؤْمِنُوا ولَمْ يُسْلِمُوا فَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ شَدِيد.

العذاب: اسْمٌ لِلْعِقَاب والنَّكَالِ الّذِي يُحْدِثُ في أجْهِزَةِ الإحْسَاسِ آلَاماً. وهو اسْمُ مَصْدَر: «عَذَّبَهُ تَعْذِيباً».

وأصْلُ الْعَذَاب كُلُّ مَا يَشُقُّ عَلَىٰ النَّفْسِ وَيُؤْلِمُها.

الشّديد: الْقَوِيُّ، الصَّعْبُ، ذُو المقْدَارِ الزَّائِدِ المؤلِمِ أَلَماً كبيراً.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السادس من دُروس سورة (الشورى). والحمد للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١١)
التدبّر التحليليّ للدّرْس السَّابع من دُروس سورة (الشورى) الآيتان (٢٧ و٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

(٢٧) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، ويَعْقُوب: [يُنْزِلُ] مِنْ فعل «أَنْزَلَ» المهموز.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يُنَزِّلُ﴾ مِن فعل «نَزَّل» المضعف.

القراءتان مُتكافئتان، فالمضعَّفُ أخو المهموز.

(٢٨) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وعاصم، وأَبُو جعفر: ﴿يُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾ من فعل «نَزَّلَ» المضعَّف.

وقرأها بَاقِي الْقُرّاء العشرة: [يُنْزِلُ الْغَيْثَ] من فِعْلِ «أَنْزَل».

والقراءتان مُتكافِئَتانِ.

تمهيد:

في آيَتَيْ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ في عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ لعباده، وأنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ هُوَ الَّذِي يُهَيِّئُ لِلنَّاسِ أسْبَابَ أَرْزَاقِهِمْ على وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَوِلَايَتِهِ لَهُمْ، وصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَهُ بِها كَمَالُ الْحَمْد. وأنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَبِيرٌ بَصِيرٌ بعِبَادِهِ.

وأنَّهُ حِينَ يُمْسِكَ الغيث بِحِكْمَتِهِ فإنَّهُ قَدْ يُمْسِكُهُ حَتَّى يَقْنَطُوا، وبَعْدَ أَنْ يَصِلُوا إلَىٰ القُنُوطِ يُغِيثُهُمْ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ.

التدبّر التحليلي:

ربطاً بما جاء في الآية (١٢) من هـٰذه السُّورة بشَأْنِ الرِّزْق، إذْ جَاءَ فيها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

جاء في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ السَّابعِ، بَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْسُطِ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ في حَيَاة الابْتِلَاءِ، وبَيَانُ أَنَّهُ قَدْ يُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَقْنَطُوا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَفْتَحُ لهم أبْوابَ الرِّزْقِ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾:

بَسْطُ الرِّزْق: تَوْسِعَتُه.

الْبَغْيُ: الكِبْرُ والظُّلْمُ والْفَسَادُ والإفْسَادُ فِي الأَرْض.

• ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾: أي: لَا يَبْسُطُ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِه بَسْطاً يَجْعلُهُمْ يَبْغُونَ بَغْياً طُغْيَانِيّاً فَاحِشاً، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَشَاءُ، بِقَدَرٍ تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه.

فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ خَبِيرٌ بعِبَادِه بَصِيرٌ بهم.

الْخَبِير: الْعَالِمُ بالشَّيءِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسة. ولفظ «الْخَبِير» اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ الشَّامِلِ لِكُلِّ أجْزَاءِ الْأَشياءِ وصِفَاتِها الثَّابِتَةِ والْمُتَحَرِّكَةِ، ومَا بَيْنَهَا مِنْ تَلاؤُمٍ أَوْ عدمِ تَلاؤُم، وهُوَ صيغة مبالغة لاسم الفاعلِ «خابر».

البصير: ذو الْبَصَرِ الّذِي يُدْرِكُ بِبَصَرِهِ المرْئِيَّاتِ. ولَفْظُ «البصير» اسْمٌ من أَسْمَاءِ الله الحسْنَىٰ، فهو تبارك وتعَالَىٰ يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ يُمْكِنُ أنْ يُرَىٰ.

المعنى: إنَّ اللهَ لَمْ يُوسِّع الرِّزْقَ لِعِبادِه مُؤْمِنِيهم وَكَافِرِيهِمْ، تَوْسِعَةً دَائِمَةً تُوصِلُهم إلَىٰ حَدِّ الْبَغْيِ الطَّاغِي طُغْيَاناً فَاحِشاً في الأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ في حَيَاةِ الابْتِلَاءِ ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ هـٰذا الْبَغْي الطَّاغي.

ولَوْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِم الرِّزْقَ تَوْسِعَةَ فَيْضٍ، لَبَغَوْا في الأَرْضِ بَغْياً

شَنِيعاً، قَدْ تقتضي الحِكْمَةُ مِنْ بَعْدِهِ إِبَادَتَهُم، لِتَطْهِيرِ الأَرْضِ مِنْ شُرُورِهِم.

وَلَكِنْ جَعَلَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ إمْدَادَهُمْ بالرِّزْق مُقَدَّراً بالمقادِير الَّتِي تَقْتَضِيهَا مَشِيئَتُهُ الْحَكِيمة، إِذْ هُوَ عَلِيمٌ بِنُفُوسِ عِبَادِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ عِلْمَ خِبْرَةٍ، وَبَصِيرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي كَوْنِهِ، فَلا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شيءٌ مِمَّا يُمْكِنُ إبْصَارُهُ بالإمكان العقلي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾:

الغيث: المطر، وقيل: الخاصُّ بالْخَيْرِ من المطر، **أقول**: هذا هُوَ الْأَظْهَرُ، واللهُ أعلم.

القُنوط: أَشَدُّ الْيَأْسِ. يُقَالُ لغة: «قَنَطَ، يَقْنُطُ، وَيَقْنِطُ، قُنُوطاً، وقَنَاطَةً» أي: يَئِسَ أشَدَّ الْيَأْس. ويقالُ أيْضاً: «قَنِطَ، يَقْنَطُ».

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: أي: وَيَنْشُرُ آثَارَ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِه، بَعْدَ إِنْزَالِ الغَيْثِ، أَرْزَاقاً وَإِنْعَامَاتٍ كَثِيرَاتٍ عَلَىٰ مَسَاحَاتٍ واسِعَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ يَسْتَمْتِعُ بِها الْعِبَادُ.

الْوَلِيُّ: هُنَا بِمَعْنَىٰ الرَّبّ المنْعِمِ، من معانيه الكثيرة، وهو اسْمٌ مِنْ أَسْماء اللهِ الحسنى.

الحميد: أي: المحمُودُ حَمْداً كثيراً عَظِيماً عَلَىٰ كُلِّ صِفَاتِهِ وأفْعَاله، إذْ لَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ الْحَمْدُ كُلُّهُ.

أي: وَمِنْ سُنَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا ضَيَّقَ الرِّزْقَ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَنْ يَحْبِسَ الْغَيْثَ، وبِحَبْسِهِ يَحْدُثُ قَحْطٌ فِي الأَرْضِ، حتَّىٰ تَحْدُثَ مَجَاعَاتٌ، وَقَدْ يُطِيلُ اللهُ زَمَنَ الْقَحْطِ علَىٰ الْعِبَادِ، حَتَّىٰ يَشْتَدَّ يَأْسُهُمْ وَيَقْنَطُوا مِن اسْتِئْنَافِ إِمْدَادِ اللهِ لَهُمْ بِالْغَيْث.

عِنْدَئِذٍ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يُغِيثَهُمْ، وَيَنْشُرَ آثَارَ رَحْمَتِهِ رِزْقاً نَافِعاً، يَسُدُّ حَاجَاتِهِم الْمُخْتَلِفَاتِ مِنْه.

وَهو ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الرَّبُّ الْمُنْعِمُ، وَهُوَ المحْمُود الَّذِي لَهُ الْحَمْدُ كُلُّه، في كُلِّ صِفَاتِهِ وأفْعَالِهِ، وَتَصَارِيفِهِ، ومِنْهَا تَقْدِيرُ الْأَرْزَاقِ وَتَوْسِعَتُها بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ في امْتِحَانِ عِبَادِه فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

ومِنَ الثَّابِتِ في براهِينِ الْعَقْلِ وَدَلَالَاتِ النُّصُوصِ، أَنَّ مَشِيئَتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فِي كُلِّ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرسِ السّابع من دُروس سورة (الشورى). والحمد لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وَفَتْحه.

(١٢)
التدبّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (الشورى) الآيات من (٢٩ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

القراءات:

(٣٠) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعْفر: [**بِمَا كَسَبَتْ**].

وقرأهَا بَاقي القرّاء العشرة: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ بالفاء قبل «بما».

(٣٢) ● قرأ نَافع، وأبو عَمْرو، وَأبو جعفر: [الْجَوَارِي] بإثْبَاتِ الْيَاءِ وَصْلاً، وكَذَلِك ٱبْن كثير ويَعْقُوب وَصْلاً وَوَقفاً.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿الجوار﴾ بحَذْفِ الياء وصْلاً ووقْفاً.

وهُمَا وَجْهَانِ جَائِزَانِ في النُّطْقِ.

(٣٣) ● قرأ نَافع، وأبُو جعفر: [الرِّيَاحَ] بالجمع.

وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد، وهو اسْمُ جنْسٍ يَشْمَلُ كُلَّ أَنْوَاعِ الرِّيَاحِ.

(٣٥) ● قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وَأبو جَعْفر: [وَيَعْلَمُ] بالرَّفع.

وقَرأَهَا بَاقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنَّصب.

تمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، مَعَ بَيَانِ حِكْمَتِهِ فِي بَعْضِ تَصَارِيفِهِ مِنَ الْمَكَارِه، ومَعَ تَحْذِير الكافِرينَ مِنْ نِقْمَتِهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُعَجِّلَ عِقَابَهُمْ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وأنَّهُ كَمَا خَلَقَ الْأَحْيَاء في الأرْضِ، هُوَ حِينَ يَشَاءُ إِحْيَاءَهُمْ بَعْدَ الموتِ فإنَّه قَدِيرٌ عَلَىٰ إِحْيَائِهِمْ، وَجَمْعِهِمْ يَوْمَ الحشْرِ:

● ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

آيَاتُ اللهِ: الْعَلَامَات الدَّالَّاتُ عَلَىٰ وُجُودِهِ مِنْ خِلَالِ إِدْرَاكِ صِفَاتِه،

الَّتِي بِهَا خَلَقَ هـٰذا الكَوْنَ الْعَجِيبَ المتْقَنَ، الَّذِي دَلَّت صِفَاتُهُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ بِخَلْقِ خَالِقٍ قَدِير مُتْقِنٍ حكيم.

السَّماواتُ: كُلُّ الْكائِنَاتِ العظيماتِ، الْمُحِيطَاتِ ـ في الْبُعْدِ الّذِي لَا يُدْرِكُ الناسُ لَهُ نِهَايَةً ـ حَوْلَ الأَرْض، فلفظ السَّماءِ في اللُّغَةِ كلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ.

الأَرْض: الكَوْكَبُ الَّذِي يَعِيشُ عَلَيْهِ النَّاس.

• ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾: أي: وَمَا نَشَرَ في السَّمَاوَاتِ والأرض مِنْ دَابَّةٍ هِيَ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُحَاطَةٌ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

الْبَثُّ: النَّشْرُ والتَّفْرِيقُ، يقال لغةً: «بَثَّ الشيءَ، يَبُثُّهُ، بَثّاً» أي: فَرَّقَهُ ونَشَرَهُ في مُخْتلِفِ الْجِهَات.

دَابَّة: لفظٌ يُطْلَقُ علىٰ كُلِّ مَا يَمْشِي عَلَىٰ أَرْضٍ ما، وأرىٰ أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ ذي حَيَاةٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فَكُلُّ ذِي حَيَاةٍ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لَه مَشْيٌ عَلَىٰ شيء مَا فيهما، والْمَلَكُ بهـٰذا المعنَىٰ دَابَّةٌ، والجِنيُّ دَابَّة، والطُّيُورُ وحَيَوَانَاتُ الأَرْضِ دَوَابُّ.

وصَحَّ في دَلَالَاتِ النُّصُوصِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ يَوْم القيامَةِ الإِنْسَ والجنَّ والملائِكَةَ وَالْبَهائِم، والْغَرَضُ مِنْ حَشْرِ الْبَهَائِمِ إِقَامَةُ الْعَدْلِ بَيْنَهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهَا كُوني تُراباً.

فقول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَبارَكَ يَبْعَثُ كُلَّ ذِي حَيَاةٍ يَوْمَ القيامَةِ، ويَجْمَعُهُمْ فِي الْمَحْشَرِ يَوْم الْجَمْعِ حِينَ يَشَاءُ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ شيئاً، فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يكُونُ بأمْرِ التَّكْوِين الرَّبَّاني.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِعِبَادِه:

• ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾:

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**] دُون «فاءِ» قبل «بما».

الْمُصِيبَة: كُلُّ مَكْرُوهٍ يَنْزِلُ بالْحَيِّ ذي الإحْسَاسِ بألَمِ المَكْرُوهِ، وَجَمْعُها «الْمَصَائِب» عَلَىٰ غَيْرِ قياسٍ، إذِ القياس «المصاوِب».

أي: وَمَا أَصَابَكُمْ أيُّهَا الْعِبَادُ مُصِيبَةٌ عَامَّةٌ، لِمُجْتَمَعٍ مِنْ مُجْتَمَعَاتِكُمْ، إلَّا بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ مِنْ آثَامٍ كُبْرَىٰ، جزاءً، أَوْ تَرْبِيَةً، أَوْ تَذْكِيراً بالْجَزاءِ الْأَكبر.

أمَّا المصائِبُ الْفَرْدِيَّةُ غَيْرُ الْجَمَاعِيَّةِ فَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَىٰ أَنَّها قَدْ تَكُونُ للابْتِلَاء، وقَدْ تَكُونُ لِلتَّرْبِية، وقد تَكُونُ للجزاء.

ومن الْحَقَائِقِ الثَّابتَةِ، أَنَّ تَصَارِيفَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادَهِ كُلَّهَا حَكِيمَة، وأنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَحْكَمُ الْحَاكِمِين، وأنَّ مَشيئَاتِهِ كلَّها حَكِيمَة.

• ﴿..وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وَيَمْحُو مِنْ سِجِلِّ المؤاخَذَةِ كثيراً مِنَ الذُّنُوب، مُتَجاوِزاً عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْهَا.

والتقدير على قراءة [**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**]: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ عَامَّةٍ فَهِي عُقُوبَةٌ لَكُمْ بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للمشركين الّذِين جَرَتْ معالَجَتُهُمْ في السُّورة، ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَشْبَاهُهُمْ:

• ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾:

• ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أَيْ: وَمَا أَنْتُمْ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الإفْلَاتِ مِنْ عَذَابِ رَبِّكِمْ، إذَا قَضَتْ حِكْمَتُهُ بأَنْ يُنْزِلَ بِكُمْ عَذَابَهُ، عُقُوبَةً لَكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَجَرَائِمِكُمْ.

• ﴿..وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾: أي: وَلَا يُوجَدُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ يَتَوَلَّىٰ حِمَايَتَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ رَبِّكُمْ؛ لأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ وَلِيٌّ مَهْمَا كَانَ مُحِبّاً لَكُمْ، أَنْ يُوقِفَ شَيْئاً مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، وَلَا يَسْتَطِيعُ نَصِيرٌ أَنْ يَنْصُرَكُمْ فَيَمْنَعَ نُزُولَ عَذَابِ اللهِ فيكم.

«مِنْ» في: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مَزِيدَةٌ للتوكيد. وهي دَاخِلَةٌ على المبْتَدَأ، والخبر مُقَدَّم وهو: ﴿وَمَا لَكُم﴾، وعبارَةُ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في مَوْقِعِ حَالٍ مُقَدَّمٍ على «وَليّ ونصير».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ عَرْضَ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

• ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾: وفي القراءة الأُخرى: **[وَيَعْلَمُ]** بالرَّفْع.

• ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: بِحَذْفِ الياء إيجازاً في اللَّفْظ، وقُرِئ بإثْباتِها كما سبَقَ: «الجواري»، وَهِي جَمْعُ «الجارية»، والمراد بالجواري السُّفُنُ العظيمَةُ الّتي تَجْرِي في الْبَحْرِ، وهي صِفَةٌ لموصوفٍ مَحْذُوف.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أَيْ كَالْجِبَال. مُفْرَدُهَا «الْعَلَمُ»، فَمِنْ مَعَانِيهِ في اللُّغة الجبل، وجَمْعُهُ الْأَعْلَام، وتَشْبِيهُ السُّفُنِ بالأعْلَامِ هُو المراد هُنَا بِقَرِينَةِ أَنَّها تَجْرِي في الْبَحْرِ بِتَأْثِيرِ الرِّيَاحِ في أَشْرِعَتِها.

• ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: أي: يَبْقَيْنَ رَوَاكِدَ، يُقَالُ لغة: «ظَلَّ فُلَانٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ» أي: اسْتَمَرَّ يُدَاوِم عَلَىٰ طَاعَتِه، ويُقال: «ظَلَّ فُلَانٌ يَفْعَلُ كذا» أي: اسْتَمرَّ يَفْعَلُهُ نَهَاراً، لَا يُقَالُ هٰذا إلَّا في عَمَلِ النَّهَار. والمرادُ هُنَا المعنَىٰ الأوّل؛ لِأَنَّ رُكُودَهَا لَا يَقْتَصِرُ على النَّهار.

• ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾: أي: سَواكِنَ ثوابِتَ لَا تَجْرِي إلى حَيْثُ يُرِيدُ

رُبَّانُها أوَ رُكَّابُهَا. وجَاءَ التعبيرُ عَنِ الْمَاءِ الأَعْلَىٰ فِي الْبَحْرِ بأَنَّهُ ظَهْرُهُ، تَشْبيهاً بِظَهْرِ الدَّابَّةِ الَّتِي يُرْكَبُ عَلَيْها، وبُنِيَتْ عَلَىٰ هَـٰذَا التَّشْبِيهِ الاسْتِعَارَة.

• ﴿.. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: إنَّ في طَفْوِ السُّفُنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِي كالْجِبَالِ عَلَىٰ سَطْحِ الماء، وفي جَرَيَانِهَا بالرِّيَاحِ قَدِيماً، وبالطَّاقَةِ الحراريَّة بَعْدَ ذَلِكَ، وَقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ إسْكَانِ الرِّيَاحِ إنْ شَاءَ، وَتَعْطِيلِ الْمُحَرِّكَاتِ الأُخْرَىٰ الَّتِي تَعْمَلُ بالطَّاقَةِ الْحَرَارِيَّة، لآيَاتٍ هي عَلَامَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ لِكَوْنِهِ، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ: وَإِتْقَانُ الصُّنْعِ يَدُلُّ عَلَىٰ عِلْمِهِ الْعَظِيمِ المحيطِ بِكُلِّ شيءٍ، وَعَلَىٰ قُدْرَتِهِ الَّتِي يَخْلُقُ بِها مَا يَشَاءُ. وَعِنَايَتُهُ بِعِبَادِه تَدُلُّ عَلَىٰ رَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ بِهِمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، الَّتِي تَقْتَضِي مِنْهُمْ أَنْ يُؤَدُّوا وَاجِباتِ شُكْرِه.

وَلَكِنَّ الإِدْرَاكَ الْعِلْمِيَّ لِلنِّظَامِ السَّبَبِيِّ، الَّذِي نَتَجَتْ عَنْهُ ظَوَاهِرُ الطَّفْوِ، وَإِجْرَاءِ السُّفُنِ بالرِّيَاحِ الخاضِعَةِ لِأَمْرِ اللهِ وَتَدْبِيرِه، لَا يَصِلُ إلَيْهِ إلَّا صَبَّارٌ في الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، يَعْمَلُ مُجْتَهِداً بِدَأَبٍ لِبُلُوغِ الْمَعْرِفَةِ الحقّ.

ولَا يَنْتَفِعُ مِنْ إِدْرَاكِ عَظِيمِ صِفَاتِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِه، في سُلُوكِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا، إلَّا شَكُورٌ لِرَبِّهِ سَابِقٌ في الخيراتِ بإذْنِ اللهِ.

• ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: أَوْ يُهْلِكِ السُّفُنَ بالأَمْوَاجِ والرِّيَاحِ، تَكْسِيراً وَتَحْطِيماً، وَقَدْ يَفْعَلُ فِيهِنّ شَيْئاً دُونَ ذَلِكَ، كَحَبْسِهِنَّ فِي صُخُورٍ عَلَىٰ الشَّوَاطِئِ أو في البحر، وَكَصَدْمِهِنَّ وَإِذْلَالِهِنَّ وَتَعْطِيلِهِنَّ عَنِ الْحَرَكَة، فَهَـٰذِهِ الاحْتِمَالَاتُ يَدُلُّ عَلَيْهَا فعل «أَوْبَقَهُ».

يُقَال لُغَةً: «أَوْبَقَهُ» بمعنى «أَهْلَكَهُ» وبمعْنَىٰ «حَبَسَهُ» وبمعْنَىٰ «ذَلَّلَهُ».

• ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَسَبَ رُكَّابُهَا مِنْ كُفْرِيَاتٍ وجَرَائِمَ،

فَهُوَ إنْ يَشَأْ يَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ هـٰذِهِ الاحْتِمَالاَتِ في سُفُنِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ جَرَائِمِهِمْ.

• ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: أي: وَمَعَ مَا يُعَاقِبُ بِهِ، فإنَّهُ بِرَحْمَتِهِ إنْ يَشَأْ مُعَاقَبَتَهُمْ يَعْفُ عَنْ كثيرٍ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، مَاحِياً مِنْ سِجِلّ الْعِقَابِ المؤاخَذَةَ عَلَيْها.

• ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾:

هـٰذِهِ الآيَة مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي سورة (غافر/ ٤٠ نزول) أُولَىٰ «الْحَوَامِيم السَّبْع» في الآيات (٤) و(٣٥) و(٥٦) و(٦٩) بِشَأْنِ الَّذِين يُجَادِلُون فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أتَاهُم، نَظراً إلَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ السُّوَرَ تَكادُ تَكُونُ سُورَةً واحِدَة ذَاتَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وهِيَ بِحِكْمَةِ اللهِ مُنْفَصِلَةٌ إلَىٰ سَبْعِ سُوَر.

﴿وَيَعْلَمَ﴾ وفي الْقِرَاءَة الأُخْرَىٰ: **[وَيَعْلَمُ]** معْطوف بالواو، أو الواو حَرْف اسْتِئْنَافٍ، وفي كلِّ الأَحْوَالِ ليْسَ المعْنَىٰ عَلَىٰ أَنَّهُ تَابِعٌ لِجَوَاب الشَّرْط. ويجوزُ في الْفِعْلِ هُنَا الجزْمُ، والرَّفْعُ، والنَّصْبُ. فالْجَزْمُ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ العطف على لفظ الجواب دُون اشْتِراكٍ في المعنى، والرَّفْعُ يَكُونُ من قبيلِ الاسْتِئنَاف، والنَّصْبُ يَكُون بِأَنْ مُضْمَرَة وُجُوباً، وَجَازَ النَّصْبُ لِشَبَهِ الشَّرْطِ بالاسْتِفْهَام فِي عَدَمِ التحقُّق، والتقدير في حالة النَّصْبِ: ونُجْرِي هَـٰذِهِ التصاريف لِيَعْلَمَ الَّذِينَ يجادِلون في آياتِنا ما لهم مِنْ محيص.

• ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي: مَا لَهُمْ مِنْ مَهْرَبٍ، ولا مَعْدِلٍ، ولَا محيد.

يُقَالُ: لُغَةً: «حَاصَ عَنِ الشّيْءِ، يَحِيصُ، حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً» أي: حَادَ عَنْهُ، وعَدَلَ، وحَاوَلَ الْهَرَب.

وَ«مِن» في ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ زِيدَتْ فِي المبتَدأ المتأخِّرِ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي.

فالمعنى: وَمِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ أَنَّهُ جعَلَ مِنْ قَوَانِينِهِ، أَنْ تَطْفُوَ السُّفُنُ الكُبْرَىٰ المشْبِهَةُ لِلْجِبَالِ، وَتَجْرِيَ بالرِّيَاحِ عَنْ طَرِيقِ تَوْجِيهِ أَشْرِعَتِهَا، وَيُقَاسُ عَلَيْهَا السُّفُنُ الَّتِي تَجْرِي بالطَّاقَةِ الْحَرارِيَّةِ المُحَرِّكَةِ لِمَكَناتِهَا وَدَوَالِيبِهَا.

وَهُوَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بأمْرِهِ، وَبإسْكَانِ الرِّيحِ تَتَوَقَّفُ السُّفُنُ، فَتَكونَ رَوَاكِدَ سَوَاكِنَ لَا تَجْرِي. ويُقَاسُ عَلَىٰ إِسْكَانِ الرِّيحِ تَعْطِيلُ الْآلَاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بالطَّاقَةِ الْحَرارِيَّة، وَلَمْ يَتَعَرَّض النَّصُّ لَهَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَوَصَّلَ إلى اكْتِشَافِها عِنْدَ إِنْزَالِ القرآن.

إنَّ فِي هـٰذِهِ الْقَوَانِينِ الكونِيَّةِ الدّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعَاً، والدَّالَّةِ عَلَىٰ عِنَايَةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِعِبَادِهِ، لَآيَاتٍ كَثِيرَاتٍ ذَوَاتِ دَلَالاتٍ عَظِيمَات عَلَىٰ عِلْم اللهِ الْمُحِيطِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَة، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وَلَا يَصِلُ إلى إِدْرَاكِ دَقَائِقِ إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ وَتَدَابِيرِه السَّنِيَّةِ إِلَّا كُلُّ صَبَّارٍ في البَحْثِ الْعِلْمِي، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا لِدِينِهِ وَلِآخِرَتِهِ إِلَّا كُلُّ شَكُورٍ يَشْكُرُ الله مِنْ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ أو مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

فإنْ لَمْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَمِنَ الاحْتِمَالَاتِ أَنْ يَخْتَارَ تَحْطِيمَ السُّفنِ، أَوْ حَبْسَها، أو تَعْطِيلَها وَجَعْلَها غَيْرَ صَالِحَةٍ لِأَنْ تَجْرِي في الْبَحْرِ، لِتَأْدِيَةِ النَّاسِ مَصَالِحَهُمْ مُسافِرِينَ عَلَىٰ ظُهُورِها.

وإِنْ أَنْزَلَ اللهُ هـٰذا الْعِقَابَ لِرَاكِبِي السُّفُن عَلَىٰ بَعْضِ جرائِمِهِمْ يَعْفُ عَنْ كثير مِنْها، وَلَا يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا كُلِّهَا، رَحْمَةً بِهِمْ وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

وَحِينَ يُنْزِلُ اللهُ هـٰذا الْعِقَابَ بالمذنِبِينَ المجْرِمِين، وحِينَ يَعْرِض في كِتَابِهِ هـٰذا الْبَيَانَ، فَمِنْ الْأَغراضِ أَنْ يَعْلَمَ الّذِينَ يُجَادِلُون في آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، والَّذِينَ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ في سُورَة (غافِر/ ٤٠) أُولَىٰ

(الْحَوَامِيم السَّبْع) أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ، فَمَا لَهُمْ مِنْ مَهْرَبٍ يَهْرُبُونَ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ مَعْدِلٍ يَمِيلُونَ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَلْجَؤونَ إِلَيْه، فالْكَوْنُ كُلُّهُ مِلْكُهُ، وهُمْ مُحَاطُونَ بِسُلْطَانِهِ، وَوُجُودُهُمْ وَقُواهُمْ إِمْدَادٌ مِنْهُ، مَتَىٰ شَاءَ سَلَبَ مَا شَاءَ مِنْهُمْ، أَوْ أَنْزَلَ بِهِمْ مَا شَاءَ، مِنْ تَعْذِيبٍ فإِهْلَاك.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثامن من دُروس سورة (الشورى). والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١٣)
التدبر التحليلي للدّرْس التاسع من دُروس سورة (الشورى) وهو الآيات من (٣٦ ـ ٤٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

القراءات:

(٣٧) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وَخَلَف: [**كَبِيرَ الإِثْم**] بإفراد لفظ «كَبِير»، أي: كلَّ كبير الإثم.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ بالجمع للفظ «كَبِيرة»، ومُؤَدَّىٰ القراءَتَيْنِ وَاحد.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ تَزْهِيدٌ بمَتَاعَاتِ الحياة الدنيا، وإطْمَاعٌ بِمَا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها حَثٌّ على الْتِزَامِ بَعْضِ فَضَائِلَ مِنَ السُّلُوكِ الإسلاميّ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ.

وفيها بيانُ أنَّ أَخْذَ الْحَقِّ بالْعَدْلِ لَا يُلامُ عَلَيْهِ المُسْلِمُ، لَكِنَّ الْعَفْو والصَّفْحَ وَالإِصْلَاحَ والصَّبْرَ خَيْرٌ وأفْضَلُ عند الله، ولِمَنِ اخْتَارَ ذَلِكَ ثَوَابٌ جَزِيلٌ عِنْدَ رَبِّه، فاخْتِيَارُ هـٰذِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِرَادَةً قَوِيَّةً مِنْ مُسْتَوىٰ الْعَزْمِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابَعَةً لقضيَّةِ بَسْطِ الرِّزْقِ وتضييقه:

● ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾:

مُتابَعَةً في الْبَيَانِ لِقَضِيَّةِ الرِّزْقِ الَّتي سَبَقَ الحدِيث عَنْهَا في الآية (١٢)

وفي الآية (٢٧) من هـٰذه السُّورَة، وهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ الإنْسَانُ في الحياة الدُّنيا أو يَنْتَفِعُ به، جاء هُنَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

أي: إتْبَاعاً لِقَضِيَّةِ الرِّزْقِ الَّتِي سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهَا، بأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِر، فاعْلَمُوا أيُّهَا النَّاسُ أَنَّ مَا تَتَنَافَسُونَ فِي جَمْعِهِ وَامْتِلَاكِهِ والانْتِفَاعِ بِهِ مِنْ زِينَاتِ الحياةِ الدُّنْيا، أَمْوالِهَا، وقُصُورِهَا، ومَزَارِعِهَا، ومَرَاكِبِها، ومَطَاعِمِها ومَشَارِبِها، وَمَنَاكِحِهَا، وَسَائِرِ مَا يَسْتَهْوِيكُمْ مِنْ لَذَّاتِها وشَهَوَاتِها وَمَا تَتَفَاخَرُونَ بِهِ مِنْها، حَتَّىٰ الْمُلْكِ والسُّلْطَانِ فيها، وَيُؤْتِيكُمُ اللهُ بِتَقْدِيره وقضائِهِ وحِكْمَتِهِ شيئاً مِنْ ذَلِكَ، فَكُلُّه مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيا.

وصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُ «مَتَاعٌ» تَزْهِيداً فِيهِ، إِذِ المتَاعُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقَّتاً وَهُوَ سَرِيعُ الزَّوالِ، وقَلِيلُ الْقِيمَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ نَعِيمِ الآخِرَة، مَهْمَا كَانَ مَتَاعاً عظيماً فِي نَظَرِ الناس.

وَجَاءَ في بَيَانَاتٍ أُخرَىٰ، أَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي عِبَادَهُ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا بِحِكْمَتِهِ، لِيَبْلُوَ كُلّاً مِنْهُمْ فيما آتَاهُ مِنْها، إِذِ الحياةُ الدُّنْيا حَيَاةُ ابْتِلَاء واخْتِبَارٍ، لَا حَيَاةُ إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ واسْتِقْرار، أمَّا الآخِرَةُ ففيها يَكُونُ الْخُلُودُ والْقَرارُ في سعادةٍ دائِمَةٍ للمؤمنين المتقين، أو عَذَابٍ أَلِيمٍ لِلْكَفَرَةِ والْفُجَّار.

وأَبَانَ اللهُ تَعالَىٰ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ المؤمنينَ المتَّقِين خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، فَقَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿. . وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . .﴾:

أَيْ: وَمَا عِنْدَ اللهِ مِمَّا أَعَدَّهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ المؤمنين المتقين، خَيْرٌ فِي قِيمَتِهِ، بِعَنَاصِرِ ذاتِهِ كُلِّها، وبِصِفَاتِهِ كُلِّهَا، مِنْ كُلِّ مَتاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا،

وَهُوَ أَبْقَىٰ، أي: أَكْثَرُ بَقَاءً لِأَنَّهُ خَالِدٌ بِتَجَدُّدِه دَواماً، وَعَدَمِ انْقِطَاعِ أَجْنَاسِهِ وأَنْوَاعِهِ وأَصْنَافِهِ، والتَّنعُّم بِهِ.

وأَبَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طَائِفَةً مِنْ صِفَاتِ مُسْتَحِقِّي المقْدَارِ العظيم مِنْ هٰذا الْجَزاءِ الرَّبَّانِي يَوْمَ الدِّينِ، فَذَكَرَ مِن صِفَاتِهِمْ عشْرَ صِفَاتٍ، تُشْعِرُ بأَنَّهُمْ ارْتَقَوْا فَوْقَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ كامِلِي التَّقْوىٰ، وَتَرَقَّوْا فِي دَرَجَاتِ الْأَبْرَارِ، بالأعْمَالِ الصالِحَةِ مِنَ النوافل:

الصِّفَةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النصّ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: لِلَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً صَحِيحاً صَادِقاً بِمَا أَوْجَبَ اللهُ الإيمان بِهِ، فِيمَا اصْطَفَىٰ لِعِبَادِهِ من الدِّين.

الإيـمان: هُو التصديقُ الإراديُّ الْقَلْبِيُّ المحَرِّكُ للعاطفة بِمُقْتَضَىٰ عَنَاصِرِه، والموجِّهُ للسُّلُوكِ.

الصِّفَةُ الثَّانِيَة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ فِي النَّصِّ: ﴿.. وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ وَحْدَهُ يَتوَكَّلُون فِي أُمُورِهِمْ كُلِّهَا، مَعَ قِيَامِهِمْ بالْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْجَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ دَعَا إِلَىٰ اتِّخاذِها.

التَّوَكُّلُ علَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الأمُور وتحقِيقِ مَا يَرْجُو المتوكِّلُ إِلَيْه، مَعَ قِيَامِهِ بالْأَسْبَابِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ المسْتَطَاعَةِ، طَاعَةً لِأَمْرِهِ ونَهْيه.

الصِّفَةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النصّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ..﴾:

اجْتِنَابُ الشَّيْءِ: الابْتِعَادُ عَنْهُ، وعَدَمُ الاقْتِرَابِ مِنْهُ، والأمْرُ باجْتِنَابِ عَمَلٍ مَا أَشَدُّ مِنَ النَّهْي عَنْ فِعْلِهِ؛ لأنَّ الاجْتِنَاب يَسْتَدْعِي وُجود فَاصِلٍ بَيْنَ المأمُورِ بالاجْتِنَابِ، وبَيْنَ الشَّيْءِ أو الْعَمَلِ المأمُور باجْتِنَابِه، بخلاف النَّهْي عَنِ الْعَمَل فإنَّهُ لَا يَسْتَدْعِي وُجُود فَاصِلٍ ما.

كَبَائر: جَمْعُ «كَبِيرَة».

الإِثْمُ: الذَّنبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُهُ الْعُقُوبَة عَلَيْه، وجمْعُهُ: «الْآثَام».

وجاء في القرآن بَيَانُ أنَّ المعاصِي الَّتِي يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْها لَفْظ «الإثم» مِنْهَا مَا هُو مِنَ الكبائر، وَمِنْهَا مَا هُو دُونَ ذَلِكَ بالتَّدَرُّجِ، حَتَّىٰ الصَّغَائِرِ الصُّغْرَىٰ.

فَمِنْ صِفَاتِ هـٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْم، ومِنْ هـٰذِهِ الكبائر ما يلي: «الشِّرْكُ ـ أَكْلُ الرِّبا ـ أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بالباطل ـ كِتْمَانُ الشَّهادَةِ الَّتِي يُضَيِّعُ كِتْمانُهَا حَقّاً لِلْعِبَادِ ـ قَذْفُ أَهْلُ الْعِفَّة ـ شربُ الخمر ـ افْتِرَاء الكذِبِ على الله ـ الظُّلْمُ والعدوان ـ قَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْر حَقّ ـ الْغِيْبَةُ والنَّمِيمَة».

الصِّفَةُ الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا فِي النّصّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: وَيَجْتَنِبُونَ الْفَوَاحِشَ كُلَّها.

الفواحِش: جَمْعُ «الْفَاحِشَة»، وهِي في اللُّغَةِ الْقَبِيحُ من الْقَوْلِ والفِعْلِ، وكُلُّ خَصْلَةٍ قَبِيحَة.

وقَدْ نَظَرْتُ في الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنِيَّة لهـٰذِهِ المادَّةِ اللُّغَوِيَّة، فَوَجَدْتُ أَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَ الكَبَائِرِ المُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، ومنها الزِّنَا، وَعَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَإِتْيَانُ الْبَهَائِم.

الصِّفَة الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا في النصّ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: «ما» زائدة لِتوكيد ارْتباطِ الشَّرْطِ بالْجَزاء.

أي: وَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْهِمْ مُسِيءٌ، أو اسْتَثَارَ غَضَبَهُمْ مُؤْذٍ أَوْ ذُو عُدْوَان فَأَغْضَبَهُمْ، فإِنَّهُمْ يَسْتُرُونَ إساءَتَهُ أَوْ إيذاءَهُ، وَيَتَجَاوَزُونَ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِ.

الصِّفَةُ السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا في النَّصّ قولُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟

لِرَبِّهِمْ ..﴾: أي: والَّذِينَ أَطَاعُوا رَبَّهُمْ فَحَقَّقُوا بِطَاعَتِهِمْ لَهُ مَا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُحَقِّقُوهُ، مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ.

وهَـٰذا يَشْمَلُ الاسْتِجَابَةَ لِكُلِّ أَوَامِرِه، وَلِكُلِّ نَوَاهِيهِ، الْجَسَدِيَّة والنَّفْسِيَّة، ولَوْ كَانَ لَا يَقْتَضِي التَّكْرَارَ والمواظبَة.

الصِّفَةُ السَّابِعة: دَلَّ عَلَيْها في النَّصِّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أَدُّوا الصَّلاةَ المفْرُوضَةَ مُدَاوِمِينَ ومُوَاظبِينَ عليها في أَوْقَاتِها، علىٰ الوجْهِ الشَّرْعي المطْلُوبِ فيها.

يقال لغة: «أَقَامَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ» أي: أَدَّاهُ مُدَاوِماً علىٰ أَدَائِه، ومُواظباً عليه، وَمُوَفِّياً حَقَّهُ.

وخُصَّتْ إِقامَةُ الصلاةِ بالذِّكْرِ للدَّلَالَة عَلَىٰ وَجُوبِ الاهْتِمَام بها، والعِنَايَةِ بالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا أُولَىٰ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ إِعْلَانِ الشَّهَادَتَيْن.

الصِّفَة الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا في النَّصّ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: **الشُّورَىٰ**: اسْمٌ لِلتَّشَاور. ويُطْلَقُ عَلَىٰ الْأَمْرِ الّذِي يَتَشَاوَرُ الْمُتَشَاوِرُونَ فيه.

يُقَالُ لغة: «شَاوَرَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ فِي أمْرٍ، مُشَاوَرَة، وشِواراً» أي: طَلَبَ رَأْيَهُ فيه. ويُقَال: «اشْتَوَرَ الْقَوْمُ، وتَشَاوَرُوا» أي: شَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. ويُقَال: «اسْتَشَارَ المرْءُ حَكِيماً فِي أَمْرٍ» أي: طَلَبَ رَأْيَهُ فيه.

مِنْ مَفَاخِرِ الإِسْلَامِ في نُظُمِهِ، أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ مَتْرُوكٍ لِتَنْظِيمَاتِ الْمُسْلِمِين وَتَدْبِيرَاتِهِمْ، وإِصْدَارِ الْقَرَارِ فِيه، خَاضِعٌ لنظامِ الشُّورى، أي: لِتَشَاوُرِ أَهْلِ الْحَلِّ والْعَقْدِ في الأمْرِ الموضوع للتَّشَاوُر، ولاتّخاذ قرارٍ بِشَأْنِه.

والْأَكْثَرِيَّةُ في هَـٰذِهِ الْأُمُور أَكْثَرِيَّةٌ مُلْزِمَةٌ، بِخِلَافِ مَا لِلَّهِ أو لِرَسُولِهِ ﷺ

فِيهِ حُكْمٌ، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ إلَّا الْعَمَلُ بِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِيهِ.

والرَّسُولُ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، يُشَاوِرُ أَهْلَ الْحَلِّ والْعَقْدِ في الأُمُور الإدَارِيَّة والسِّيَاسِيَّة والْحَرْبِيَّة ونَحْوِهَا، طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ لَهُ بأنْ يُشَاوِرَهُمْ تَكْرِيماً لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُلْزَم بِأَنْ يأْخُذ بِرَأْيِ الأكْثَرِية، بَلْ إذَا عَزَمَ عَلَىٰ أَمْرٍ نَفَّذَهُ مُتَوَكِّلاً عَلَىٰ اللهِ؛ لِأَنَّهُ مُسَدَّدٌ بالْوَحْي.

وقَدْ أَوْفَيْتُ هَـٰذا الأَمْرَ بَحْثاً، فِي كِتَاب «كواشِفُ زُيُوفٍ في المذاهِب الفكريَّة المعاصِرَةِ»، في الباب الثالث من الْقِسْم الثَّالِثِ من الكتاب: «النُّظُم السِّيَاسِيَّة المعاصرة» فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ، فَفِيهِ تَفْصِيلَاتٌ وَبَيَانَاتٌ كافِيَاتٌ مَعَ الأدِلَّة مِنَ النُّصوص، ومَعَ التَّعْلِيلِ وَالتحليل.

الصِّفَةُ التاسِعة: دَلَّ عَلَيْها من النّصّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وَيُنْفِقُونَ بَعْضاً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ إِيَّاه، بِحَسَبِ حَاجَةِ المسْلِمِينَ في المرحَلَةِ المكيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها سُورَة (الشورى) إذْ لم يَكُنْ قَدْ حُدِّدَتْ نِسْبَةُ الزَّكَاةِ المفْرُوضَة علىٰ الأَمْوَال.

«مِنْ» في «مِمَّا» للتَّبْعِيضِ. والفِعْلُ في «يُنْفِقُونَ» فِعْلٌ مُضَارِعٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ آناً فآناً مِنَ الْفَائِضِ عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَحَاجَاتِ أُسَرِهِمْ، في الخَيْرَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ.

أَصْلُ الإنْفَاقِ إفْنَاءُ المال وإنْفَادُه، وَجَرَىٰ الاسْتِعْمَالُ مُنْذُ عَهْدِ التَّنْزِيلِ على مَعْنَىٰ بَذْلِ المالِ أَوْ قِسْمٍ مِنْهُ في أمْرٍ ما، سَواءٌ أَكَانَ طَاعَةً أَمْ مَعْصِيَة.

ولكِنَّ المرادَ هُنَا بَذْلُ الْمَالِ في طَاعَةِ اللهِ، وفي مُقَدِّمَتِها فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَمَسَاكِينُهُمْ، ومَا يُحَقِّقُ تَأْيِيدَ الإسْلَامِ وانْتِشَارَه، ومَا تَقُومُ بِهِ مَصَالِحُ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّة.

الصِّفَة الْعَاشِرَة: دَلَّ عَلَيْهَا مِنَ النَّصّ قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

الْبَغْي: الاعْتِداءُ، والظُّلْمُ، في الأَنْفُسِ أو فِي الأَمْوَالِ أو نَحْوِهِما.

ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هَـٰذَا الْوَصْفَ، مِنْ أَوْصَافِ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرٌ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ مِنْ كُلِّ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، وفيهِ إِذْنٌ لَهُمْ بأَنْ يَنْتَصِرُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، في حُدُودِ قولِهِ تعالَىٰ عَقِبَ ذَلك:

• ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾: أي: وَلَوْ كان المعْتَدِي الباغِي كافراً، فَجزَاءُ الْباغِي بِسَيِّئَةٍ أَنْ لا يَكُونَ زَائداً علَىٰ سَيِّئَتِهِ، إِلْزَاماً بالْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ به.

وَرَغَّبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الَّذِينَ أَصابَهُمُ الْبَغْيُ في أنْ يَعْفُوا وَيُصْلِحُوا، وَوَعَدَهُمْ بِأَجْرٍ خَاصٍّ زَائِدٍ عَلَىٰ أَجْرِ أَمْثَالِهِمْ الّذِينَ يَنْتَصِرُونَ لِأَنْفُسِهِم، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعالَىٰ فِي النَّصِّ:

• ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

في هذا الْبَيَانِ تَرْغِيبٌ فِي الْعَفْوِ عَنْ إسَاءَاتِ المسِيئِينَ مِنَ المشْرِكينَ في الْعَهْدِ المكّي لِلمُؤْمِنينَ المسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ هـٰذا الْعَفْوَ يُخَفِّفُ مِنْ حِدّةِ الصِّرَاعِ، ويُبَيِّنُ لِجُمْهُور الْكَافِرِين أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أصْحَابُ فَضَائِلَ خُلُقِيَّةٍ تَعَلَّمُوهَا مِنَ الإسْلَام، فَهُمْ لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَاتِ بِمِثْلِهَا، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ، وَهـٰذا يُمَثِّلُ دِعَايَةً وَدَعْوَةً عَمَلِيَّةً لِلإِسْلَام، مَعَ قُدْرَةِ المظْلُوم الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ عَفَا لِأَنَّ دِينَهُ يُرَغِّبُهُ في هـٰذا الْعَفْو، وَيأْجُرُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِ، وفيهِ وَعيد للظَّالِمِينَ بالْعِقَابِ أخذاً مِنْ كنايَةِ أَنَّ اللهَ لا يُحِبّهم.

وَعِبَارَةَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ذاتُ دَلَالَتَيْن:

الدَّلَالَةُ الأُولىٰ: أَنَّهُ بِعَفْوِهِ يُصْلِحَ نُفُوسَ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا

لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، إِذْ كَوْنُهُ مَظْلُوماً، وَقَادِراً عَلَىٰ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، يَجْعَلُ قُلُوبَهُمْ تَعْطِفُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ، وَتُكْبِرُ خُلُقَهُ الإسْلَامِيَّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ، فَيَمِيلُونَ إِلَىٰ الدُّخُولِ في الإِسْلَامِ، وَهـٰذا إِصْلَاحٌ عَظِيمٌ لِنُفُوسهم.

الدَّلَالَةُ الثَّانِيَةُ: دَعْوَةُ المظْلُوم المؤمِنِ الْمُسْلِمِ إِلَىٰ إِصْلَاحِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظَالِمِهِ، إِذَا كَانَتْ بَيْنَهُمَا خُصُومَةٌ مَالِيَّةٌ أَوْ غَيْرُهَا، بِوَسَائِلِ الإِصْلَاحِ المَعْرُوفَةِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ، مَعَ عَفْوِه عمَّا نَالَهُ مِنْ أذىً.

وفي كِلْتَا الدَّلَالَتَيْنِ عَمَلٌ دَعَوِيٌّ يُسَاعِدُ عَلَىٰ انْتِشَارِ الإِسْلَام، وَتَحْبِيبِ قُلُوبِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ به، وهـٰذا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ بانْتِصَارِ الْمُسْلِمِ لِنفْسِهِ، وَمُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا.

وَلِتَأْكِيدِ حَقِّ المظْلُومِ بِأَنْ يَنْتَصِرَ بالْعَدْلِ لِنَفْسِهِ، قَالَ اللهُ تَعالَىٰ في النَّصّ:

- ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾:

«مَنْ» فِي ﴿وَلَمَنِ﴾ شَرْطِيَّة رُوعِيَ لَفْظُها المفرد في جُمْلَةِ الشَّرْط، ورُوعِيَ مَعْنَاهَا الْجَمْعِيُّ في جُمْلَة جَوَابِ الشَّرْطِ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

أي: وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ كُلَّ مَنِ انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ فِي حُدُودِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فَأُولَـئِكَ الْفُضَلَاءُ لَا يُوجَدُ سَبِيلٌ يُوصِلُ إِلَىٰ لَوْمِهِمْ أَوْ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَىٰ انْتِصَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بالْعَدْلِ، إِذْ هُمْ يَمْلِكُونَ الْحَقَّ الدِّينِيَّ والْعَقْلِيَّ المقْبُولَ لَدَى الْعُقُولِ وَفِطَرِ النُّفُوسِ في أَنْ يَنْتَصِرُوا لِأنفسهم.

وَجَاءَت عِبَارَةُ: ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾: أي: مِنْ بَعْدِ أَنْ يَظْلِمَهُ ظَالِمُهُ قَيْداً لَازِماً، وَالْغَرَضُ مِنْهُ أَنْ لَا يُبَادِرَ الْمُسْلِمُ بالانْتِقَام تَخَوُّفاً مِنْ أَنْ يُظْلَمَ؛ لِأَنَّهُ بهـٰذا يَكُونُ هُوَ البادِئَ بالظُّلْم.

وَأَبَانَ اللهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ هَـٰذا أَنَّ السَّبِيلَ الموصِلَ إلى اللَّوْمِ،

والمؤاخَذَةِ، والْعِقَابِ، مُنْحَصِرَةٌ فِي السَّبِيلِ المُسَلَّطَةِ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاس، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: مَا السَّبِيلُ الموصُوفُ بالحقِّ والْعَدْلِ، الْمُوصِلُ إلى إقَامَةِ الجزَاءِ الْعِقَابِيِّ علَىٰ مُسْتَحِقِّه، إلَّا السَّبِيلُ المُسَلَّطُ بِسُلْطَانِ الْحَقِّ والْعَدْلِ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ، وَيَعْتَدُونَ بُغَاةً فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أُولَئِكَ الْمُنْحَطُّونَ الْمُجْرِمُونَ الْبُغَاةُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَذابٌ أَلِيم، ولَهُمْ بِأَحْكَام الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ في الدِّينِ عَذابٌ أَلِيمٌ، يُجْرِيهِ السُّلْطَانُ الزَّمَنِيّ الَّذي يُنَفِّذُ أَحْكَامَ اللهِ الْعَدْلِيَّة، بِحَسَبِ جرائم المجْرِمِينَ، وبَغْيِ الْبُغَاةِ الظَّالِمِينَ.

وَمَعَ تَأْكِيدِ حَقِّ المظْلُومِ المعْتَدَىٰ عَلَيْهِ بأنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ بالْعَدْلِ دُون زِيَادَةٍ عَلَىٰ حَقِّهِ، ضِمْنَ قاعدة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَضْلَ مَنْ يَصْبِرُ وَيَغْفِرُ، وأنَّهُ مِنْ ذَوِي الإرَادَة الْقَوِيَّةِ جِدّاً، ومِنْ ذوي الْقُدْرَةِ عَلَىٰ ضَبْطِ نَفْسِهِ عِنْدَ مُثِيراتِ غَضَبِهِ، فقال اللهُ تَعَالَىٰ في النَّصّ:

• ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾:

• ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾: يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُؤَكِّداً بلام الابتداء، وباختيار الجملة الاسميَّة، أنَّ مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ إسَاءَةِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، وَظُلْمِ مَنْ ظَلَمَهُ، فَلَمْ يَجْزِهِ بِمِثْلِ سَيِّئَتِهِ، وَلَمْ يُطَالِبْ بِحَقِّهِ في الجزاء.

الصَّبْر: قُوَّةٌ خُلُقِيَّةٌ مِنْ قُوَىٰ الإرَادَةِ، تُمَكِّنُ الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لِتَحَمُّلِ المتاعِب والمشقّات والآلام، وضَبْطِهَا عَنِ الانْدِفَاعِ بِعَوَامِلِ الضَّجَرِ أَوِ الْجَزَعِ أو السَّأَمِ أو الْمَلَلِ أو الْعَجَلَةِ أو الرُّعُونَةِ، أو الْغَضَبِ أو الطَّيْش، أو الْخَوْفِ أو الطَّمَعِ، أو الْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والغرائز.

﴿وَغَفَرَ﴾: أي: وَغَطّىٰ إساءَةَ مَنْ أَساءَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَنْشُرْها، وتَجاوَزَ عَنْ مُجَازَاتِهِ بِمِثْلِ سَيِّئَتِهِ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾: أي: إِنَّ ذَلِكَ الْخُلُقَ الرَّفِيعَ، وَالسُّلُوكَ الْبَدِيعَ، لَمِنْ إرادَةِ الْأُمور الصَّعْبَةِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، الَّتِي تَحْتَاجُ إرادَةً قَوِيَّةً جِدّاً هِيَ مِنْ مُسْتَوىٰ الْعَزْمِ، وهُوَ أَقْوَىٰ الإرادَاتِ الَّتِي تَتَفَاضَلُ فِي قُوَّاتِها، مِنْ أَدْنَىٰ الإرادَاتِ الصَّالِحَةِ لِبَذْلِ جُزْءٍ مِنْ دِرْهَمٍ في الصَّدَقَاتِ، إِلَىٰ أقْوَىٰ الإرادَاتِ الَّتِي يَبْذُلُ بِهَا الْمُتَصَدِّقُ كُلَّ ما يَمْلِكُ، أَوْ يُضَحِّي بِهَا الْمُجَاهِدُ بِحَيَاتِهِ كُلّها.

وَلِهٰذَا جَاءَ وَصْفُ بَعْضِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام بأَنَّهُمْ أُولُو الْعَزْمِ؛ لِأَنَّهُمْ صَبَرُوا علَىٰ أَشَدِّ المؤلِمَاتِ في مَسِيراتِهِم الدَّعَوِيَّة، وتَحَمَّلُوا أَشَدَّ المؤذِيَاتِ والمتاعِبِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا المثَلَ الْأَعْلَىٰ فِي عَزْمِ الْأُمُورِ بِإِرَادَاتٍ هِيَ مِنْ أَسْمَىٰ الإرادَاتِ الْبَشَرِيَّةِ قُوَّةً[1].

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس التاسع من دُروس سورة (الشورى). والحمدُ لله على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، ومِنَّتِه، وفَتْحِه.

(١٤)
التدبر التحليلي للدَّرسِ العاشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٤٤ ـ ٤٦)

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ

---

(١) انْظُرْ «الفصل الرابع» من «الباب الأول» من كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

تمهيد:

في آيَات هـٰذا الدَّرس بَيَانُ أَنَّ مَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، فَلَا وَلِيَّ لَهُ مِنْ بَعْدِ اللهِ يَسْتَطِيع أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بالْهِدَايَةِ، لِيُنْجِيَهُ مِنْ عَذَاب اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِين يَوْمَ القيامَةِ وهُمْ أَذِلَّاء خَاشِعُونَ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَمَاكِنِ عَذَابِهِمْ وَإِلَىٰ كُلِّ مَنْ فِي المَحْشَرِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، رَهْبَةً من الْعَذَابِ، وَخَجَلاً مِنَ الْخِزْيِ الَّذِي هُمْ فيه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْحُكْمَ بالضَّلَالِ والْهِدَايَةِ لَهُ وَحْدَهُ:

● ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ .. ﴿٤٤﴾﴾:

أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ، ويَقْضِي بِمُعَاقَبَتِهِ بِحَسَبِ ضَلَالَتِهِ، فَمَا لَهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِنْ وَلِيٍّ مُحِبٍّ لَهُ مِنْ بَعْدِ اللهِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بالْهِدَايَةِ، وأَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ عِقَابَ اللهِ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ عَلَيْهِ، إِذِ الْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شريك لَهُ.

والمُتَسَرِّعُونَ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الأَلْفَاظَ بِحَسَبِ مَا يَتَبَادَرُ إلى أَذْهَانِهِمْ، دُونَ أَنَاةٍ وَتَفْكِيرٍ عَمِيقٍ، قد يَفْهَمُونَ مِنْ عِبَارةٍ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْجَبْرِيِّينَ، أي: يَخْلُقُهُمْ ضَالِّين، وَهـٰذَا فَهْمٌ فاسِدٌ مُعَارِضٌ لِمَا يُؤْخَذُ مِنْ مِئَاتِ النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ، وَمَنْطِقِ الْعَقْلِ السّدِيد والْفَهْمِ الرَّشيد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَة:

• ﴿.. وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ...﴾:

يخاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ بأُسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي، عَطْفاً عَلَىٰ خِطَابِهِ لَهُ في الآية (٢٢): ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾:

أي: وَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ حُضُورِ هٰذا المشْهَدِ الآخرِ من مَشَاهِدِ يَوْمَ القيامَةِ، أَيُّها المُتَلَقِّي لِبيَانَاتِ رَبِّكَ في هٰذِهِ السُّورَة، لَكُنْتَ تَرَىٰ الظَّالِمِينَ الَّذِين سَبَقَ الحديثُ عَنْهُمْ، ولَكُنْتَ تَرَىٰ أَمْثَالهم:

يَقُولُونَ: هَلْ إِلَىٰ رُجُوعٍ إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلاءِ مِنْ سَبِيلٍ، وذَلِكَ لَمَّا رأَوْا مَكَانَ عَذَابِهِم ووسائِلَهُ فِي جَهَنَّمَ، رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّقُوا إذا رَجَعُوا.

الْمَرَدّ: الرُّجُوع، وهو مَصْدَرٌ مِيميّ من فعل «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً» بمعنى: أَرْجَعَهُ وَأَعَاده.

يُطْلَقُ لَفْظُ «السَّبِيلِ» وهو بِمَعْنَىٰ: «الطريقِ» لُغَةً، وُيرادُ بِهِ وسيلَةٌ مَا، تُوصِلُ إلى تحقِيق المطْلُوب، وهٰذا من التَّعْمِيمَاتِ المجازِيَّةِ في الاستعمال، ولَهُ أَشْبَاهٌ وَأَمْثَالٌ كثيرة.

ولَكُنْتَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ جهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ يَوْمَ القيامَة، خَاشِعِينَ خَاضِعِينَ خَائِفِينَ سَاكِنِين مُنْكَسِرين مِنَ الذُّلِّ الَّذِي هُمْ فيه، يَرْمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَيَنْظُرونَ إلى مَوَاقِعِ عَذَابِهِمْ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وكذلِكَ إلى مَنْ يُشَاهِدُهُمْ أَذِلَّاء مِنْ أَهْلِ المحشر خَجلاً.

الْخُشُوعُ: الخضُوعُ، والْخَوْفُ، والسُّكُونُ.

وَعَرْضُهُمْ عَلَىٰ دَارِ عَذَابِهِم يَدُلُّ عَلَىٰ تَقْدِيمِهِمْ إِلَيْهَا لِيَرَوْا دركَاتِهِمْ فيها.

مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ: الطَّرْفُ: الْعَينُ، وتَحْريكُ الْجَفْنِ. **فالطَّرْف الْخَفِيُّ**: هُوَ تَحْرِيكُ الْجَفْنِ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ لَا يَرَاهَا النَّاظِرُونَ، بِرَفْعِهِ إِلَىٰ الأَعْلَىٰ، لِتَرَىٰ الْعَيْنُ بِسُرْعَةٍ، مَا يُرِيدُ النَاظِرُ أَنْ يَرَاهُ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ مُشَاهِدُوهُ؛ لِأَنَّ جَفْنَهُ مُنْخَفِضٌ مُنْكَسِرٌ مِنَ الخوف والذّلّ. وقَدْ يَفْعَلُ مِثْلَ هٰذا الْخَجُولُ في بَعْضِ حَالَاتِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النَّصِّ يَحْكِي مَقَالَةً يَقُولُهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي مَوْقِفِ الحشْرِ، إِذْ يَرَوْنَ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ قَرِيبونَ مِنْ أبواب جَهَنَّمَ، خَاشِعِينَ أَذِلَّاءَ، يَتَرَقَّبُونَ أَنْ يُقْذَفُوا فِيها:

﴿.. وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ .. ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَقَالَ الَّذِين آمَنُوا فِي مَوْقِفِ الحشْرِ، بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ الْبُشْرَىٰ بأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا أَهْلَ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيهَا علَىٰ أبوابِهَا أَذِلَّاءَ خَاشِعِين: إنَّ أَخْسَرَ الْخَاسِرِينَ وَأَشَدَّهُمْ خُسْراناً هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وأَهْلِيهِمْ.

إِنَّ الحقيقَةَ تَنْكَشِفُ يَوْمَئِذٍ لجميعِ أَهْلِ المَحْشَرِ، وبانْكِشَافِهَا يَشْعُرُ المؤمنُونَ النَّاجُونَ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَاب النَّارِ بِنِعْمَةِ اللهِ وفَضْلِهِ عليهم، ولَوْ كَانُوا مِنْ مُرْتَكِبِي كَبَائِر الإِثْم، إِذْ سيَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَو ذَاقُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِحَسَبِ كبائِرِهم الكُبْرَىٰ، فَيرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَإِنْ عُذِّبُوا لَا يَصِلُونَ إلىٰ دَرَكَةِ الأَخْسَرِينَ، فَيَقُولُونَ مُؤَكِّدِين: إِنَّ الْخَاسِرِينَ حَقًّا كُلَّ شيءٍ، هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَلَا خُسْرَانَ أَعْظَمُ مِنْ هٰذا الْخُسْران، وَخَسَارَتُهُمْ أَهْلِيهِمْ تَكُونَ بِحِرْمَانِهِمْ مِنَ الأُنْسِ بِهِمْ وَلَوْ في دَارِ الْعَذَاب.

كَيْفَ لَا يَكُونُ الْكَافِرُونَ هِمُ الأَخْسَرِينَ يَوْمَ القيامة، وقَدْ خَسِرُوا كُلَّ

مَا يَمْلِكُونَ فِي وُجُودِهم الأَبَدِيّ، خَسِرُوا ذَواتهم، وصفاتهم، والْخَلَاصَ مِن الآلَامِ في أزْمانِهم الأَبَدِيّة؟!!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النّصِّ يُبَيِّنُ سَبَبَ كَوْنِ الظّالِمِينَ الكافِرين أَخْسَرَ الخاسِرين يوم الدّين:

• ﴿... أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أداةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتوكيد.

المقيم: الْبَاقي في مَكَانِهِ لَا يَرْتَحِلُ عَنْه، فالْعَذَابُ المقيم هُوَ الْعَذَابُ الدَّائِمُ المسْتَمِرُّ فِي شِدَّتِهِ مَعَ توالِي الأَزْمان.

فِي هٰذه الْعِبَارَة بَيَانُ سَبَبِ كَوْنِ الْكَافِرِينَ الظّالِمِينَ أَخْسَرَ الْخَاسِرِينَ، وَهٰذا يَظْهَرُ يَوْمَ الدِّين، وهُوَ أَنَّهُمْ بَاقُونَ فِي عَذَابٍ دائِم، لَا يَرْحَلُ عَنْهم وَلَا يَتحوَّل، إذْ كَانُوا في الحياةِ الدُّنيا كَافِرِينَ كُفْراً أَبَدِيّاً، فلَوْ أَحْيَاهُمْ رَبُّهُمْ في الدُّنْيا أَبداً لَاسْتَمَرُّوا كَافِرِينَ أَبداً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ أنَّ الْكَافِرِينَ الظّالمين حِينَ مُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَصْلِ القضاء بِشَأْنِهِم، والْحُكْم عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ في عَذَاب النَّارِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ دُون اللهِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ سبيلٌ لِلْخَلاصِ مِنْ حُكْمِ اللهِ عَلَيْهِمْ بالضَّلَال:

• ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: وَمَا كان لهم حِينَ مُحَاسَبَتِهِمْ وَالْحُكْم عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ أَوْلِياءُ مِنْ دُونِ الله مُحِبُّونَ لَهُمْ، يَنْصُرُونَهُمْ فَيَدْفعُونَ عَنْهُم حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِم بالعذاب الأَبَدِي.

وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلالِ والْعَذَابِ الأَبَدِي فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ

يُوصِلُهُ إِلَىٰ الْخَلاصِ والنَّجاة، بَلْ عَذَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاقِعٌ فِيهِ لَا مَحالَة.

«مِن» في: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وَ«مِنْ» في: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ مَزِيدةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النفي والتَّنْصِيصِ عَلَيْه.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس العاشر من دُروس سورة (الشورى). والْحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١٥)

التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٤٧ ـ ٥٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

تمهيد:

في آيَاتِ هٰذا الدَّرسِ تَوْجِيهُ أَمْرٍ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلنَّاسِ، أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِربِّهِمْ، مَعَ تَحْذِيرِهِ لَهُمْ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي لَا دَفْعَ لَهُ، وَلَا مَلْجَأَ فِيهِ يَلْجَأُ إِلَيْهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِلْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم.

وفيها بيان وَظِيفَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ، ولَيْسَ مُكَلَّفاً أَنْ يَكُونَ حَفيظاً علَىٰ النَّاس.

وفيها بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الإنْسَانِ تُجاهَ مَا يَنالُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، أَوْ يُصِيبُهُ مِمَّا يَكْرَهُ بِحِكْمَةِ الله.

وفيها بَيَانُ أَنَّ لِلَّهِ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشاء، وَأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ يَهَبُ الْأَوْلَادَ للآبَاءِ والْأُمَّهاتِ، مِن إنَاثٍ وَذُكُورٍ علَىٰ مَا يَشَاء، وقَدْ يَجْعَلُ بَعْضَ عِبادِهِ مَحْرُومِينَ مِنَ الذُّرِيَّة، وكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِعِبادِه، ورُبُوبِيّتِهِ لِكُلِّ مَا سِوَاه، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ عِبَادَهُ الموضوعِينَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان:

• ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾:

• ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾: أي: أَطِيعُوهُ فيما دَعَاكُمْ إِلَىٰ الإيمَانِ بِهِ، وإِلَىٰ فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ إلْزاماً، بِتَعْبِيرٍ مُحقِّقٍ لِصِحَّة إيمانِكُمْ وصدْقِكُمْ فيه.

واختِيرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ هُنَا اسْمُ الرَّبِّ، لِلدَّلَالَةَ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِم، بأَنَّهُ رَبُّهُمْ المتَصَرِّفُ بِهِمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، خَلْقاً وإِمْدَاداً، وحَيَاةً وَمَوْتاً، وَكُلَّ مَا يَجْرِي فِيهِمْ وفي الكَوْنِ كُلِّهِ مِنْ حَوْلِهِم. ومِنْ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ: امْتِحَانُهُمْ، وتَكْلِيفُهُمْ، وَحِسَابُهُمْ، والحكْمُ عَلَيْهِمْ، وَجَزَاؤهم، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتعَلَّقُ بهم.

• ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يَوْمُ حِسَابِكُمْ وَجَزائِكُمْ الَّذِي يَبْدَأُ بِمَوْتِ كُلِّ واحِدٍ مِنْكُم، وتَكُونُ قِمَّتُهُ الْمُثْلَىٰ بَعْدَ بَعْثِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَاب الْأَكْبَر، وفَصْلِ القضاء وَتَنْفِيذِ الجزَاءِ، في دار العذاب، أو دَارِ النّعيم.

وَهـٰذا الْيَوْمُ لَا دَفْعَ لَهُ وَلَا مَنْعَ لَهُ، إِذْ هُوَ مِنَ اللهِ تَقْدِيراً وقضاءً مُبْرَماً، وخَلْقاً وتصاريف، فَلا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ دَفعه.

الْمَرَدّ: مَصْدَر ميمي لفعل «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً» بمعنى: دَفَعَهُ وصَرَفَهُ ومَنَعَهُ. وسبَق بيان أنَّ هـٰذا الفِعْل يأتِي بِمَعْنَىٰ: أرْجعَهُ.

جَاءَ وَصْف هـٰذا الْيَوْم بِصِفَتَيْن:

الْأُولى: أَنَّهُ لَا دَفْعَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ دَافِعٍ ما.

الثّانية: أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ، تقديراً، وقضاءً، وخَلْقاً.

• ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: ما لَكُمْ مِنْ مَعْقِلٍ وَلَا مَلَاذٍ تَلْجَؤُونَ إِلَيْه، لِيَقِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَجَرَائِمِكُمْ.

• ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾: كَلِمَة «نَكِير» تَأْتِي وَصْفاً لِلْحِصْنِ الْحَصِين.

يقال لغة: «حِصْنٌ نَكِيرٌ» أي: حِصْنٌ حَصِين. وَتأتي بمعنى: «الإنْكَار».

فَعَلَىٰ المعْنَى الأوّل: تكونُ العبارة بمعنى: وَمَا لَكُمْ مِنْ حِصْنٍ حَصِينٍ تَحْتَمُونَ فِيهِ، لِتَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ تَعْذِيبَ اللهِ لَكُمْ.

وعَلَىٰ المعْنَىٰ الثاني: تكُونُ العِبَارَةُ بمَعْنَىٰ: وَمَا لَكُمْ مِنْ إنْكَارٍ لِمَا يُنْزِلُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ مِنْ جَزَاءٍ بالْعَدْل.

ويُمْكِنُ حَمْلُ الْعِبَارَةِ علَىٰ المَعْنَيَيْنِ مَعاً، وهـٰذا هُوَ الْأَحَقُّ بالْفَهْم، لِمَا فِيهِ مِنْ دَلَالَةٍ أَكْثَرَ امْتِدَاداً وَعَطَاءً فِكْرِيّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ الَّذِين تَجْرِي مُعَالجتُهُمْ في السُّورة، وهم المشركون الكافِرُونَ الظَّالِمُون إِبَّانَ التَّنْزِيل:

• ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ .. ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا فَلَمْ يُطِيعُوا بِالْإِيمان والعمل لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَبُّهُمْ، وَدَعْوَتَهُمْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ إِلَيْهِ بَلَاغاً عَنْ رَبّك.

جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ بِالإِعْرَاضِ، الَّذِي هُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الإِقْبَالِ والإِدْبار؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي يُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِهِ، وَلَا يُقَابِلُهُ بِهِ، وَهَـٰذا أَخَفُّ حَالَاتِ عَدَمِ الاسْتِجَابَة، وأَشَدُّ مِنْهُ الإِعْرَاضُ مَعَ النَّأْيِ، فالإِدْبَارُ، فَالتَّوَلِّي إِدْباراً وابْتِعَاداً، فالْمُشَاقَّةُ وإظْهَارُ الْعَدَاوَةِ، فإعْلَانُ المقاومَةِ بالْحَرْب.

• ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: أي: فَلَسْت مُكَلّفاً أَنْ تُحَوِّلَهُمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمان والإسلام، ومِنَ الْعِصْيَانِ إِلَىٰ الطَّاعَة.

الْحَفِيظُ: المطالَبُ بِحَرَاسَةِ وَحِفْظِ مَا هُو مَأْمُورٌ بِحِفْظِهِ مُطَالَبَةً شَدِيدَةً، وَلَوْ بأسْلُوبِ الإِلْزَامِ والْقَهْر، كالْحَفِيظِ المطالَبِ بِحِفْظِ بُسْتَانٍ بِكُلِّ مَا فيه، أَوْ حِفْظِ قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ أو الْبَقر، أو نَحْوِهِمَا، إِذْ هـٰذا الْحَفِيظُ مُطَالَبٌ بِأَغْذِيَتِها، وبإيوائها، وحِمَايَتِهَا مِنَ الْعَوَادِي عَلَيْها، وَرَدِّ شَوَارِدِهَا إلى حَظَائِرِها، وَمُعَالَجَةِ مَرْضَاهَا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

إِنَّ الْحَفِيظَ حَارِسٌ مُكْرِهٌ مُجْبِرٌ، ولَمْ يُرْسِلِ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ لِيَكُونَ عَلَىٰ النَّاسِ حفيظاً بهـٰذا المعْنَىٰ، إِذْ هُمْ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَقَدْ وَهَبَهُمُ اللهُ جِهَازَ الإِدْرَاكِ والْفَهْم، والتَّحْلِيلِ والتركيب، وأَعْطَاهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الْعَقْلِ الْعِلْمِيِّ والْعَقْلِ الإرَادي، فالرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ مُجْبِراً وَلَا مُكْرِهاً، ولَيْسَتْ وَظِيْفَتُهُ وَظِيفَةَ حَارِسٍ حَفِيظ.

• ﴿.. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ..﴾: أي: مَا عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَهُوَ تَوْصِيلُ مَا أمرَكَ رَبُّكَ بِإِبْلَاغِهِ إِلَىٰ الناس، بالبيانِ الْكَلَامي، والْبَيَانِ الْعَمَلِيِّ، والْقُدْوَةِ الْحَسَنَة.

البلاغ: اسمٌ بمَعْنَىٰ المصْدَرِ الَّذِي هو الإبْلَاغُ أو التبليغ، وهُوَ إيصَالُ رِسَالَةٍ كَلَامِيَّةٍ أَوْ غَيرِ كَلَامِيَّةٍ إلَىٰ مَنْ أُرْسِلَتْ إلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنْ صِفَاتِ الإنسانِ التي جاءَ بيانُها في سُورَةِ (فُصّلت/٦١ نزول) في الآيات من (٤٩ ـ ٥١)، وفي سُوَرٍ أخرى قَبْلَها في نجوم التنزيل:

• ﴿..وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ بضَمِيرِ المتكلِّمِ العظيمِ بأنَّ مِنْ سُلوكِ الإنْسَانِ بالنَّظَرِ إلَىٰ مُعْظَمِ أَفْرَادِهِ أَنَّ لَهُ حَالَتَيْن:

الحالَة الْأُولى: أَنَّهُ إذا ذَاقَ بِفَضْلِ اللهِ نِعْمَةً هِيَ مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ، وفُيوضِ عَطاءاتِهِ لِعِبَادِه، فَرِحَ بها فَرَحَ بَطَرٍ واسْتِكْبَارٍ وَتَفَاخُرٍ وَتَعَالٍ علَىٰ النَّاس، وَهٰذا قد يَجُرُّه إلَىٰ الطُّغْيَان، وقد دَلَّ على هٰذه الحالة قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾، والمرادُ بالفرحِ الْبَطَرُ والْأَشَرُ، والاسْتِكْبَارُ والتفاخُرُ والتَّعَالي على الناس، وهِي تَدْعُو إلى الْفُجُورِ والطُّغْيَان.

الحالة الثانية: أنَّهُ إنْ تُصِبْهُ سَيِّئَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَبَبِ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنْ سَيِّئَاتٍ كُبْرَيَاتٍ، كَانَ يَؤُوساً قَنُوطاً، وَكَانَ ذَا دُعَاءٍ عَرِيض، كما جاء في سُورَة (فُصّلت/٦١ نزول) في الآيتَيْن: (٤٩) و(٥١)، وَلَمْ يُذْكَرْ جَزَاءُ الشَّرْطِ هُنَا اعْتِمَاداً على ما سَبَقَ بيانُهُ في سُورَةِ (فُصِّلَتْ)، إذْ مَوْضُوعُ سُورَةِ (الشُّورَىٰ) امتِدادٌ لِمَوْضُوعِ سُورَة (فصّلت).

فالْعِبَارَةُ في سُورَة (الشُّورى): ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هي عَلَىٰ تَقْدِير: فَهُمْ يَؤُوسُونَ قَنُوطُون، وَذَوو دُعاءٍ عَرِيضٍ. وجَاءَ هُنَا التَّعْبِير بالْجَمْعِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بالإنْسَانِ بِعِبَارَةِ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا

ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ..﴾ مُعْظَمُ أَفْرَادِ الْإِنسان، وللدَّلالَة عَلَىٰ أَنَّ التَّعْمِيمَ بالْجَمْعِ يَكْفِي فِيهِ انْطِبَاقُهُ علَىٰ الْأَغْلَبِ من الْأَفْراد.

وَلَمَّا كَانَ الإنْسَانُ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ فَرِحاً بَطِراً طاغياً، كافراً بأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَفي حَالَةِ المصِيبَةِ يَؤُوساً قَنُوطاً ضجراً وَذَا دُعَاءٍ عَرِيض، ولَوْ كانَ هُوَ بمَعَاصِيهِ سَبَباً في مُعَاقَبَتِهِ بِمَا يَسُوؤُه، كَانَ مِنْ مُطَابَقَةِ الواقِعِ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ:

• ﴿.. فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾: أي: فمِنَ المؤَكَّدِ حقّاً أَنَّ الإنْسَانَ بالنظر إلى غالِب أَفْرادِ جِنْسِهِ كَثِيرُ الْكُفْرِ، كثير الجحود، يُنكِرُ الحقَّ وهُوَ عَالِمٌ بأَنَّهُ حَقٌّ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الرِّزْقِ الَّذِي تَكَرَّرَ الْحَدِيثُ عَنْهُ في هـٰذِهِ السُّورَةِ، وَفِي سُوَرٍ نَزَلَتْ قَبْلَها، ومِنْها سورَة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول)، وسورة (سبأ/ ٥٨ نزول)، وسورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول)، وهي صُورَةُ الرِّزْقِ بالذُّرِّيَّة بنِينَ وَبَنات:

• ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾:

• ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أَيْ: كُلُّ السَّمَاوات والأَرْضِ وَكُلُّ مَا فِيهما مَمْلُوكٌ لِلَّهِ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وهُوَ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي كُلِّ شيء، خَلْقاً، وإمْدَاداً، وإعْدَاماً، وَحَيَاةً، وَمَوْتاً، وابْتِلاءً وَجَزاءً، وهَكَذَا إِلَىٰ سَائِرِ التَّصَارِيفِ فِي كُلِّ شيءٍ مِنْ أصْغَرِ جُزْءٍ في الذَّرَّةِ، إِلَىٰ أَكْبَرِ شيءٍ في الكَوْنِ، أحْيَاءً وَغَيْرَ أحْياء.

• ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: أي: يَخْلُقُ فِي الْوُجُودِ الحادِثِ كُلِّهِ ما يَشاءُ أَنْ يَخْلُقَهُ، إيجاداً مِنَ الْعَدَمِ وإبْداعاً، أو إيجاداً لكائِنَاتٍ جَدِيداتٍ مِنْ

مَوْجُوداتٍ سَابِقَاتٍ، كَمَا خَلَقَ جَسَدَ آدمَ مِنْ تُرَاب، وكَمَا خَلَقَ الملائكة مِنَ النُّور، وكَمَا خَلَقَ الجانَّ مِنَ النَّار.

وَمَشيئاتُ اللهِ مُقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَتِهِ المقْتَرِنَةِ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شيء، المقتَرِنِ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشاء.

وَمِنْ خَلْقِهِ خَلْقُ الذُّرِّيَّاتِ الإنْسَانِيَّةِ، ضِمْنَ نِظَامِ التَّنَاسُل، وقد جَعَلَ اللهُ في فِطَرِ النَّاسِ حُبَّ الذُّرِّيَّةِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْ أَجْسَادِهِم، وَإِذَا مَلَكُوا بَعْضَ الْأَسْبَابِ فإنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ خَلْقَ الذُّرِّيَةِ لِأَنْفُسِهِمْ، بَلْ هُمْ يَتَرَقَّبُونَ أنْ يَهَبَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الذُّرِّيَّةِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه.

والْقِسْمَةُ الْعَقْلِيَّةُ في تَوزيعِ هِبَةِ الذُّرِّيَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ أَوِ الْحِرْمَانِ منها، دُونَ النَّظَرِ إِلَىٰ نِسْبَةِ عَدَدِ الْأَوْلَاد الموْهُوبِينَ، تَنْحَصِرُ فِي أَرْبَعَةِ احْتِمَالَات:

الاحْتِمَالُ الأَوَّل: هِبَةُ الإنَاثِ فقط: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا﴾.

الاحتِمَالُ الثَّانِي: هِبَةُ الذُّكُور فَقَط: ﴿.. وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

جاءَ لَفْظُ الذُّكُور هُنا مُعرَّفاً بأداة التَّعْرِيفِ «ال» لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ النَّاسَ يُؤْثِرُونَ أَنْ يَهَبَهُمُ اللهُ الذُّكُور، فَهُمْ يُفَضِّلُونَ مَوَالِيدَ الذُّكور على مَوَالِيدِ الْإِنَاث، وَلا سِيمَا القبائلُ الْعَرَبِيَّة، فَقَدْ كَانَ كثيرٌ مِنْهُمْ إِذَا بُشِّرَ بالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كظيم.

الاحْتِمَالُ الثالث: هِبَةُ الذُّكورِ والإناثِ معاً: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا﴾: التَّزْوِيجُ قَرْنُ شيءٍ بشَيْءٍ آخر، والمراد هُنَا قَرْنُ صِنْفِ الذُّكُور بصِنْفِ الإناث، وَلَوْ لَمْ تَتَسَاوَ الْأَفْرادُ عَدَداً.

الاحْتِمَالُ الرَّابعُ: الْحِرْمَانُ من الذُّرِّيَّةِ، ومِنْ صُوَرِهَا الْعُقْمُ في الزَّوْجَيْن أَوْ في أَحَدِهِما: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾: **الْعَقِيمُ**: مَنْ كَانَ فِيهِ داءٌ أَوْ حَائِلٌ يَمْنَعُ التَّنَاسُلَ في الذَّكَرِ أَو الْأُنثى، يُقَالُ: رَجُلٌ عَقِيمٌ،

ورِجَالُ عُقْمَاءُ، وعِقَام. ويُقَالُ: امْرأَةٌ عَقِيمٌ، ونِسَاءٌ عَقَائِمُ، وَعُقُم.

وَلَمَّا كَانَتْ هٰذه الاحْتِمَالَاتُ الْأَرْبَعَةُ صَادِرَةً عَنِ الرَّبِّ الْخَالِقِ وَمَشِيئَتِهِ الحكِيمَة، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ فِي البيانِ التَّذْكِيرُ باسْمَيْنِ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، هُمَا: «عَلِيمٌ» و«قَدِير»، فقال تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾: أي: كَامِلُ الْعِلْمِ وَكَامِلُ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ مَا يَشاء.

وَبِهٰذا تمّ تَدَبُّرُ الدَّرْس الحادي عَشَرَ مِنْ دُروس سورة (الشورى). والحمد لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِه، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِه، وفَتْحِه.

(١٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الشُّورَىٰ) الآيات من (٥١ ـ ٥٣) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

القراءات:

(٥١) • قرأ نافع: **[أوْ يُرْسِلُ]** بالرّفع، أي: أوْ هُو يُرْسِلُ.

وقرأَهَا بَاقِي القراء العشرة: **﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾** بالنَّصْبِ.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَان.

(٥١) ● قرأ نَافع: [**فَيُوحِي**] بالرَّفع، أي: فَهُو يُوحِي.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿**فَيُوحِيَ**﴾ بالنَّصْبِ عَطْفاً على ﴿**أَوْ يُرْسِلَ**﴾.

(٥٢) و(٥٣) ● قرأ قُنْبُل، وَرُوَيس: [**سِرَاطٍ**] و[**سِرَاطِ**] بالسِّينِ في الموضِعَيْن. وقرأهما بالصّاد مُشَمَّةً صَوْت الزاي: خلفٌ عن حَمْزَة.

وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة بالصَّادِ الْخَالِصَة: [**صِرَاطٍ**] و﴿**صِرَاطِ**﴾.

وهي وجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النُّطْقِ.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ وُجُوهِ التَّكْلِيم الَّذِي يُوَجِّهُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لأنبيائِه ورُسُلِه عَلَيْهِم السَّلام، وَبَيَانُ أَنَّهُ تباركَ وَتَعَالَىٰ أوحَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ضِمْنَ هـٰذِهِ الْوُجُوهِ القرآنَ وتَعَالِيمَ الدِّين، الَّتِي هِي رُوحُ سَعَادَةِ النَّاسِ، ونُورُ هِدَايَةِ مَنْ شَاءَ الْهِدَايَةَ مِنْهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الّذي لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَصِيرُ الْمَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحان، لِلْحِسابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

التَّدَبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في تَحْدِيدِ أَنْوَاعِ تَكْلِيمِ اللهِ لِلْبَشَرِ وأفْضَلُهُمْ رُسُلُهُ وأَنْبِيَاؤه عَلَيْهِم السَّلام:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾:

هـٰذِهِ الْآيَةُ مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي صَدْرِ السُّورة عَنِ الْوَحْي، وأَنَّ الْوَحْيَ إِلَىٰ الرَّسُولِ محمّدٍ ﷺ مُشَابِهٌ للوَحْي إلى الرسُلِ والْأَنْبياء عَلَيْهِم السَّلام مِنْ قَبْلِهِ.

وموصولَةٌ بِمَا جاء في الآيةِ (١٣) عَنِ الوحْيِ، وبما جاء في سُوَرِ «الْحَوامِيم» السَّابقَةِ عَنِ الوحْيِ، إذْ هِيَ فيما ظَهَرَ لِي سَائِرَةٌ عَلَىٰ خَطِّ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ.

وَفِي هـٰذِهِ الآيَةِ بَيانُ أنْواعِ تَكْلِيمِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِبَشَرٍ مِنْ عِبادِه، وأنَّهَا تَكُون عَلَىٰ أَنْواعٍ ثَلاثَة، فَيُكَلِّمُ اللهُ مَنْ أَرادَ تَكْلِيمَهُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا أوْ أكْثَر، بِحَسَبِ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ جَلَّ جَلالُه:

• ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾: أي: ومَا جَعَلَ اللهُ بتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ الْحَكِيم، أنْ يُكَلِّمَ بَشَراً تَكْلِيماً مَا فِي الحياة الدُّنيا، إلّا مَا جَاءَ اسْتِثْنَاؤُهُ فِي الْبَيَانِ التالِي:

• ﴿.. إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ..﴾:

جاء في هـٰذه العبارة بَيانُ الْأَنْواعِ الثَّلاثَةِ، الَّتِي يُكَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بواحِدٍ مِنْهَا أَوْ أَكْثَرَ، مَنْ شَاءَ أَنْ يُكَلِّمَهُ مِنَ الْبَشَر:

النَّوْعُ الْأَوَّل: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾: أي: إلّا أَنْ يُلْقِي اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي عُمْقِ فُؤَادِ مَنْ أَرادَ تَكْلِيمَهُ، الْكَلامَ الّذِي شَاءَ أَنْ يُكَلِّمَهُ بِهِ، بِطَرِيقَةٍ تُعْلِمُهُ بِيَقِينٍ لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ هـٰذا الْكَلَامَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، انْطَبَعَ فِي عُمْقِ قَلْبِهِ، دُونَ كَسْبٍ مِنْهُ وَلَا اخْتِيَارٍ، وَلَا سَوابِقِ إرادَةٍ وَعَمَلٍ فِكْرِيّ.

النَّوع الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: أي: أَوْ أَنْ يُكَلِّمَهُ كَلاماً يَسْمَعُهُ بِأُذُنَيْهِ نَافِذاً إِلَىٰ عُمْقِ فُؤادِه مِنْ وَراءِ حِجابٍ.

وَمِنْ هـٰذا النَّوع تَكْلِيمُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، كَلَاماً سَمِعَهُ بِأُذُنَيْهِ وَوَعَاهُ بِقَلْبِهِ وَعْياً تامّاً، وأَكَّدَتْ قرائِنُ آيَةِ الْعَصَا الَّتِي انْقَلَبَتْ حَيَّةً تَسْعَىٰ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الَّذي يُكَلِّمُهُ حَقّاً، مَعَ شُعُورِهِ بِكِيَانِهِ كُلِّهِ أَنَّ الحدَثَ أَمْرٌ رَبَّانِيٌّ لَا تَدَخُّلَ فِيهِ لِقُوَّةٍ أُخْرَىٰ.

النوع الثالث: دلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾:

أي: أو أَنْ يُرْسِلَ رَسُولاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَيُوحِيَ هٰذا الرَّسُولُ إِلَىٰ الْبَشَرِ المختَارِ لإيصَالِ كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ إِلَيْهِ، بإِذْنِ اللهِ وتَمْكِينِهِ، مَا يَشَاءُ اللهُ تِبَاعاً أَنْ يُوْحِي بِهِ إِلَيْهِ حَرْفاً بحَرْف، وكَلِمَةً بِكَلِمَة.

وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بالتَّذكير بِاسْمَيْنِ من أسمائه الحسنىٰ فقال جَلَّ جَلَالُهُ:

- ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾:

عَلِيٌّ: أي: لَهُ الْعُلُوُّ الَّذي لَا يُدَانِيهِ وَلَا يُقَارِبُهُ عُلُوّ، إِذْ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ هُوَ مِنْ دُونِهِ، وهُوَ مَخْلُوقٌ ومَمْلُوكٌ له، فَهُوَ عَالٍ عَلَىٰ كُلِّ مَا خَلَقَ، وبَائِنٌ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقَ في ذاته وفي صِفَاته.

حَكِيم: أي: يَضَعُ الْأَشياءَ في مَواضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لَهَا، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الأَشْيَاءِ وأَفْضَلَ الاحْتِمَالَاتِ وأَحْسَنَهَا فِي الأمُورِ المختلفة، لِمَا يُحَقِّقُ أَفْضَلَ الْعَمَلِ ويُحَقِّقُ أَحْسَنَ النَّتَائج.

واخْتِيَارُ هٰذَيْنِ الاسْمَيْنِ هُنَا، لِيُشِيرَ وَصْفُ اللهِ بأَنَّهُ عَلِيٌّ إلَىٰ أَنَّ عُلُوَّ ذَاتِهِ وَعُلُوَّ صِفَاتِهِ، لَا تَحْتَمِلُ الْمَخْلُوقَاتُ في ظُرُوفِ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، إِدْرَاكَ شيءٍ مِنْ تَجلِّيَاتِ أَنْوَارِهِمَا، وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يُغَيِّرَ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَةُ المصْطَفَىٰ مِنْهُمْ في هٰذا الوجُودِ الأوَّل.

وهُنَا يَأْتي وَصْفُ اللهِ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ مُتمِّماً فِي هٰذا الموضوع لِكَوْنِهِ عَلِيّاً، ولاخْتِيَارِ احْتِمَالَاتٍ أُخْرَىٰ فِي تَكْلِيمِهِ لِبَشَرٍ ما غَيْرِ احْتِمَالِ التَّكْلِيمِ المباشر الْمَعْرُوفِ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ وَسَامِعٍ مِنَ الحوادث.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ وَإِسْمَاعاً للمكَذِّبين بطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشر:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: المشار إلَيْهِ أَنْوَاعُ تَكْلِيمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِبَشَرٍ ما، والخطاب لِلرَّسُولِ ﷺ مع إسماعِ غَيْرِه.

● ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾: **الرُّوحُ**: مَا بِهِ يَكُونُ غَيْرُ الحيّ حَيّاً، وسَبَقَ لَدَىٰ تدبُّر الآيَةِ (٨٥) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) بَيَانُ أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا غَيْرُ الْحَيِّ حَيّاً، يُخْلَقُ بِأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينيِّ المباشِرِ، دُونَ اسْتِخْدَامِ عَنَاصِرَ سَابِقَةِ الْإيجادِ فِي الكَوْنِ، كالنّور، أو النّار، أو الطِّين.

والمرادُ بالرُّوحِ هُنَا مَا تَكُونُ بِهِ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ السَّعِيدَة، من إيمانٍ وإسْلَام والْتِزَامِ بشَرَائِعِ اللهِ وَوَصَايَاهُ لِعِبادِه، أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظ «الرُّوحِ» لِأَنَّهُ نَظِيرُ الرُّوحِ الَّتِي إِذَا الْتَقَتْ بِالنَّفْسِ الميِّتَةِ صَارَتْ حَيَّةً. والمؤْمِنُونَ المتَّقُون هُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ القِيامَةِ أَحْياءً حَيَاةً حَقِيقِيَّةً، أَمَّا الْكَافِرُونَ فَهُمْ مُعَذَّبُونَ لَا يَمُوتُونَ مَوْتاً مُرِيحاً، وَلَا يَحْيَوْنَ حَيَاةً فِيهَا أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الرَّاحَة، فَهُمْ مَحْرُومُونَ مِنَ الحياةِ الّتي يُرْغَبُ فِيها، ومحرومون من الموت المريح لهم من عذابهم.

وسبق في الآية (١٥) من سُورة (غافر/ ٦٠) إطلاق لفظ الرُّوحِ على ما أُطْلِقَ عليه هنا في (الشورى).

وَجاءَتْ عبارَةُ: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم، نظِيرَ مَا جَاءَ بِشَأْنِ الرُّوحِ الَّتِي تَحْيَا بِها النفوسُ في آية سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهِيَ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴿٨٥﴾﴾:

أي: فكَمَا أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي تكونُ بِهَا حَيَاةُ النُّفُوسِ في الأحْيَاءِ كُلِّها، يَبْتَدِئُ خَلْقُهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مُبَاشَرَةً، دُونَ اسْتِخْدَام عَنَاصِرَ سَابِقَةِ الإيجادِ في الكَوْنِ، كَذَلِكَ الْعُلُومُ الرَّبَّانِيَّةُ المنزَّلَةُ لِبَيَانِ صِرَاطِ اللهِ المستقيم للموضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِع الابْتِلَاء، هِي بمَثَابَةِ رُوحِ الحياةِ الْأَبَدِيَّةِ السَّعِيدَةِ لِمَنْ آمَنَ بِهَا، واجْتَهَدَ في سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ المُبيَّنِ بها.

والْقُرْآنُ المجيدُ هُوَ المشْتَمِلُ عَلَىٰ زُبْدَةِ الْعُلُوم الرَّبَّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ لِبيَانِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، وَالمُشْتَمِلُ عَلَىٰ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الكُبْرى، ويُلْحَقُ بِالْقُرْآنِ مَا صَحَّ مِنْ بَيَانَاتِ الرَّسُول ﷺ.

ولِإِقْنَاعِ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَبأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ؛ قال اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿..مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ .. ﴿٥٢﴾﴾:

أي: مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ قَبْلَ أَنْ نُوحِيَ إِلَيْكَ تَعْلَمُ جَوَابَ سُؤَال: «مَا الْكِتَابُ»؟، وَلَا كُنْتَ تَعْلَمُ جوابَ سُؤَالِ «مَا الإيمَانُ»؟.

وصَارَ عُمْرُكَ فِي قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْكَ بَيَانٌ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَضْمُونِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي نُوحِي بِهِ إِلَيْكَ. وَدُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْكَ شيءٌ ما، يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الإيمان وأَرْكَانِهِ، كَتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَتَوْحِيدِ إِلَـٰهِيَّتِه، وَصِفَاتِهِ وأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَكَالْيَوْم الآخِرِ، والْبَعْثِ والْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، ودَارٍ فيها نَعِيمُ المؤمِنِينَ، ودَارٍ فِيها عَذَابُ الْكَافِرِينَ والْعُصَاةِ المجرمين.

وَلَكِنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وعَلَّمْنَاكَ الإيمانَ وأَرْكَانَهُ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ مَا نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآن، وسَنُنَزِّلُ عَلَيْكَ سَائِرَهُ، وَجَعَلْنَا الْقُرآنَ عِلْماً حَقّاً كَالنُّورِ

الْكَاشِفِ، نَمْحُو بِهِ ظُلُمَاتِ الضَّلاَلاَتِ الْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ، وَهَـٰذا النُّورُ الْعِلْمِيُّ نَهْدِي بِهِ إِلَىٰ سُلُوكِ صِرَاطِنَا الْمُسْتَقِيم، مَنْ نَشَاءُ هِدَايَتَهُ، لِأَنَّهُ آمَنَ بِهِ، وأَرَادَ أَنْ يَظْفَرَ بِحَيَاةٍ خَالِدَةٍ سَعِيدَةٍ يَوْمَ الدِّين، أَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرَسُولِنَا ـ ﷺ ـ وَلَا بالْقُرْآنِ الَّذِي يُنَزَّلُ عَلَيْهِ، ولَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْلُكَ صِرَاطَنَا، فإِنَّنَا لَا نَشَاءُ هِدَايَتَهُ، لِأَنَّ مَشِيئَتَنَا لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا.

مَنْ آمن وأَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ بِسُلُوكِ صِرَاطِنَا الْمُسْتَقِيم هَدَينَاهُ بِحِكْمَتِنَا، وَمَنْ كَفَرَ وَلَمْ يُرِدِ السَّعَادَةَ الأبَدِيَّة الَّتِي يوصلُ إِلَيْها سُلُوكُ الصِّرَاطِ المستقيم، مَكَّنَّاهُ مِنْ أَنْ يَضِلَّ بِحِكْمَتِنَا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، ثُمَّ حَكَمْنَا عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ يَوْمَ الدِّينِ وَأَنَّهُ مِنَ الخالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، لِأَنَّهُ اختار لِنَفْسِهِ الضَّلَالَ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ فيها مَجْبُوراً بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسُولَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ في آخِرِ الْآيَة:

• ﴿. . وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾:

أي: وَإِنَّك يا مُحمَّد لتَهْدِي هِدَايَة دَعْوَةٍ وتبليغ، بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَسَنُوحِي مِنْ قَضَايَا الدِّين، فِي الْقُرآنِ وَفِي غَيْرِ الْقُرْآن، إِلَىٰ صِرَاطِ رَبِّكَ المسْتَقِيم الّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ، فَمَنْ آمَنَ وَسَلَكَهُ وَمَاتَ عَلَىٰ إيمانٍ صَحِيحٍ، كَانَ مِنَ الظَّافِرِينَ بِالْحَيَاةِ الخالِدَةِ السَّعِيدَةِ يَوْمَ الدّين.

• ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ . . ۝٥٣﴾:

أي: وَهَـٰذَا الصِّراطُ الّذِي تَهْدِي إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ لَيْسَ صِرَاطاً مِنْ وَضْعِكَ، وَلَا مِنْ وَضعِ فَرْدٍ أَوْ أَكْثَر، في الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ، بَلْ هُوَ اصْطِفَاءٌ حَكِيمٌ مِنَ اللهِ الَّذِي لَهُ مِلْكُ ومُلْكُ كُلِّ مَا وَمَنْ فِي السَّموَاتِ والْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، والْقَدِيرُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ.

فَلَا اخْتِيَارَ أَحْكَمُ مِنِ اخْتِيَارِه، ولَا اصْطِفَاءَ أَفْضَلُ مِن اصْطِفَائِهِ، وَلَا

يُوصِلُ إِلَىٰ الحياة الأَبَدِيَّةِ السَّعِيدَةِ الَّتِي يَجْزِي بِهَا إِلَّا صِرَاطُهُ المستقيم.

وَخَتم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السُّورة بقوله:

• ﴿..أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾:

﴿أَلَآ﴾: أداةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنبيهٍ، وتَوْكيد.

أي: انْتَبِهُوا وَأَصْغُوا إِلَىٰ هَـٰذا الْخِتَامِ يَا مَنْ تَحْرِصُونَ عَلَىٰ حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ سَعِيدَة:

إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصِيرُ كُلُّ الْأُمُور، في السَّمَاوَاتِ وفي الْأَرْضِ، صِغَارُها وَكِبارُهَا، ولَا سِيَّما مَا يَخْتَصُّ بِالْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلاء، وهُوَ الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الْجَزَاء يَوْمَ الدّين.

مَصِيرُ الْأَمْر: هو في اللُّغَةِ مُنْتَهَاهُ، وعَاقِبَتُهُ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدّرْسِ الْأَخِيرِ من دُرُوس سورة (الشورى). والحمدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٧)
ملحق: مُستَخْرَجَات بلاغِيَّة من سورة (الشورى/٦٢)

تشتمل سورة «الشورى» على اختياراتٍ بَلاغيَّةٍ نَفيسة، وقَد اسْتَخْرَجْتُ مَا يلي منها:

أوّلاً: الْإيجازُ بالْحَذْفِ الَّذِي يُدْرَكُ مَعْنَىٰ المحْذُوفِ فيه بالتَّدبُّر:

ومنْ أَمْثِلَةِ هـٰذا الإيجاز ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾:

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الْوَحْيِ الَّذِي كَانَ يُوْحَىٰ إِلَى الرُّسُلِ والأَنْبِياء عَلَيهِم السَّلام مِنْ قَبْلِكَ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ لِتُبَلِّغَهُ، وتُبَيِّنَهُ، ولِتُبَشِّرَ مَنْ آمَنَ واتَّقَىٰ بِنَعِيم خَالِدٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، و﴿لِّتُنذِرَ﴾ الْكَافِرِينَ السَّاكِنِينَ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ عَذَابَ اللهِ الْمُعَجَّلَ إِنْ شَاءَ إِنْزَالَهُ عَلَيْهِمْ، ﴿وَتُنذِرَ﴾ الْكافِرِين أَيْضاً عَذَابَ اللهِ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ الَّذِي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُحَاسِبُ اللهُ فِيه الموْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، ويَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، وَيَأْمُرُ فيه بِجَزَاءِ أَهْلِ الإيمانِ وأَهْلِ الكُفْرِ بِحَسَبِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُم، إِذْ يُؤْخَذُ ﴿فَرِيقٌ﴾ مِنْهُمْ وهُمُ المؤمِنُونَ المتَّقُونَ فَيَكُونُونَ ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، وَيُؤْخَذُ فَرِيقٌ آخَرُ مِنْهُمْ وَهُمُ الْكَافِرُونَ المجْرِمُونَ، فيكُونونَ ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُؤْمِنَةً مُسْلِمَةً لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، ﴿وَلَٰكِن﴾ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ بَلْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ذَوِي إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَبْلُوَهُمْ فِيما آتاهُمْ، وَبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، وَهِيَ الْجَنَّةُ دَارُ نَعِيمِ المتَّقِينَ، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ دَارَ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، و﴿مَا لَهُم﴾ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ يَحمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْده.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها بِشَأْنِ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام السَّابقين، وتَفَرُّقِهِمْ فِي الدِّينِ الَّذِي أَوْصَىٰ بِهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلام:

• ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾:

أي: وَتَفَرَّقَ أتْبَاعُ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام السَّابِقِينَ عَنِ الَّذِي وَصَّاهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الدِّين، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ فِيهِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ الرَّبَّانِيُّ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام، وفَهِمُوهُ، وَوَعَوْهُ، وَكانَ سَبَبُ تَفرُّقِهِمْ ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ﴾ مِنَ الْكَلِمَاتِ المحَدِّدَاتِ المبيِّنَاتِ مَا تَمَّ بِهِ تقديرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ، وهٰذِهِ الْكَلِمَة ﴿سَبَقَتۡ﴾ بِتَأْخِيرِ مُعَاقبَةِ الَّذِينَ يَتفرَّقُونَ في الدِّينِ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وهٰذِهِ الْكَلِمَةُ صَادِرَة ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، هو زَمَنُ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء؛ ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وَلَنُفِّذَ عِقَابُ اللهِ فيهِمْ في الحياة الدُّنيا.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿. . . وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ . . (١٥)﴾:

أي: وَأُمِرْتُ بأوَامِرَ تَتَعلَّقُ بِأَحْكَامِ الْحُقُوقِ ﴿لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ فِي أَحْكَامِي وَأَقْضِيَتِي أيُّها النَّاس.

المثال الرابع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها:

- ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ . . (٢٢)﴾:

أي: تَرَىٰ الظالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ خَائِفين مِن جَزَاءِ مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، وهٰذا الجزاءُ سَيَقَعُ بِهِم لَا مَحَالَة، حِينَ يُسَاقُونَ زُمَراً إِلَىٰ دارِ عَذَابِهِمْ.

المثال الخامس: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها بِشَأْنِ نَعِيمِ الّذين آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ في رَوْضَاتِ الجنَّات:

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ . . (٢٣)﴾:

أي: ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ بِهِ ﴿عِبَادَهُ﴾ . . .

المثال السّادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَهُوَ الَّذِي يقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِه، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ جَرَائِمِهِم الَّتِي كانَتْ قَبْلَ الإسلام، ويَعْفُو مُتَجَاوِزاً عَنِ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تكُونُ بَعْدَ الإسْلام.

المثال السَّابع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: لمَّا رَأوْا مَكَانَ وَوَسَائِلَ تَعْذِيبِهِمْ في جَهَنَّم يَقُولُونَ: هَلْ إلى رُجُوعٍ إلى حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْ سَبِيلٍ، لِنَسْتَأْنِفَ امْتِحَانَنا، وَنُصْلِحَ أَحْوَالَنَا بِالْإِيمَانِ والإسْلَام والْأَعْمَالِ الصَّالِحة.

ومِنَ الإيجاز بالْحَذْفِ مَا يُسَمَّى عِنْدَ البلاغِيِّين «التَّضْمِين»، وهُوَ تَضْمِينُ كَلِمَةٍ مَعْنَىٰ كَلِمَةٍ أُخرَىٰ، وجَعْلُ الْكَلَام بَعْدَهَا مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْكَلِمَةِ غَيْرِ المذكُورَةِ، كالتَّعْدِيَةِ بِالْحَرْفِ المناسِبِ لِمَعْنَاها، فتَكُونُ الْجُمْلَةُ بِهـٰذَا التَّضْمِينِ بِقُوَّةِ جُمْلَتَيْنِ، وهـٰذا التَّضْمِينُ مِنْ نَفَائِسِ الإيجاز في القرآن.

ومِنْ هـٰذا التضمين في السُّورَة، قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ .. ﴿١٣﴾﴾:

أي: اللهُ يجتَبي مُقَرِّباً إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، ضُمِّنَ فعل «يَجْتَبي» معنى فعل «يقرب» فعُدّيَ تعديته.

وقولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿.. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا .. ﴿١٨﴾﴾:

أي: يَسْتَعْجِلُ مُسْتَهْزِئاً بِهَا الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ نَفْسِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بها، ضُمِّنَ فعل «يَسْتَعْجل» معنى فعل «يَسْتَهْزِئ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ.

ثانياً:

ومن الفنونِ البلاغية النّفِيسَة في القرآن: الاستقطاعُ مِن الماضِي أو المسْتَقْبَلِ، وَتَقْدِيمُ الْبَيَانِ كَأَنَّهُ يَجْرِي الآنَ عِنْدَ التكلُّم.

ومن أمْثِلَةِ هـٰذا الاستقطاعِ في السورة ما يلي:

المثالُ الأوّل: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها خِطَاباً لِكُلِّ صالح للخطاب بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي، بِشَأْن مَشْهَدٍ مِن مَشاهِدِ يوم القيامَة:

• ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾:

لَمْ يَأْتِ البيانُ بِأُسْلُوبِ: سَوْفَ تَرَىٰ، بَلْ جَاءَ بأسْلُوبِ تَقْدِيم المَشْهَدِ كَأَنَّهُ يَجْرِي الآن، وهـٰذا مِنَ الإبْدَاعِ فِي البيانِ بِمَكَانٍ، مَعَ مَا فِيه مِنْ تَوكِيدِ أَنَّ المشْهَدَ سَوْفَ يَجْرِي لَا مَحالَة، وتَحَقُّقُ وُقُوعِهِ مُسْتَقْبَلاً يَسْمَحُ بأَنْ يُعبَّرَ عَنْهُ بأنَّهُ يَجْرِي مَعَ زَمَنِ التكلُّم.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها أيضاً بشَأْنِ المتحدَّثِ عنهم في الآية السّابقة، ولَكِنْ بَعْدَ (٢١) آية في السُّورة:

• ﴿.. وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾:

هـٰذا النصّ شَبيهٌ بِسَابِقِهِ، مَعَ حِكَايَةِ أَقْوالٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَيْهِ بِأُسْلُوبِ الحديثِ عَنْ أَمْرٍ مَضَىٰ، إِذْ جَاءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ . . .﴾، و﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ . . .﴾، فَكَأَنَّ المشْهَدَ قَدِ انْتَهَىٰ عَرْضُهُ، وجَاءَتْ بَعْدَهُ أقوالٌ وبياناتٌ تتعلَّقُ بِهِ، تَحْكِي أَمْراً مَضَىٰ وانْقَضَىٰ، وفي هـٰذا تصويرٌ إبْداعِيٌّ آخر.

ثالثاً:

اهْتَمَّ عُلَمَاءُ المعاني بالْقَصْرِ، وهُوَ تَخْصِيصُ شَيْءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَلَىٰ وَجْهَين:

الوجه الأول: الْقَصْرُ الحقِيقيُّ، وهو أنْ يَكُونَ المقْصُورُ عَنْهُ جَمِيعَ مَا سِوَى المقْصُورِ عَلَيْهِ.

الوجه الثاني: الْقَصْرُ الإضَافي، وهو أنْ يَكُونَ المقْصُورُ عَنْهُ شيئاً خَاصّاً وَاقِعاً في دَائِرَةٍ مُعَيَّنَة، لَا كُلَّ مَا سِوَىٰ المقْصُورِ عَلَيْهِ.

ومن أمْثِلَةِ الْقَصْرِ في السّورَةِ مَا يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿..وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ④﴾:

أي: وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَا يُسَاوِيهِ في عُلُوِّه وعَظَمَتِهِ، وَلَا يُدَانِيه فيهما أحَدٌ سِوَاه.

وهٰذا مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ علَىٰ مَوْصُوفٍ، وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، وأَدَاةُ الْقَصْرِ فِيهِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الْإسْنَاد.

المثال الثاني: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿..أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾:

هٰذا المثالُ نظيرُ سَابقه. وأداة القصر فيه تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ، مع ضَمِيرِ الفصل.

المثال الثالث: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿..فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ .. ⑨﴾:

هٰذا الْقَصْرُ نظير سَابقه.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿..ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾:

في هٰذا البيانِ ثَلاثَةُ أمْثِلَةٍ مِنْ أمْثِلَةِ القصر.

١ - ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: أي: لَا رَبَّ لي غَيْرُه، وأداة الْقَصْرِ فيه تَعْرِيف طَرَفَي الإسْناد.

٢ - ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ توَكَّلْتُ. وأَداة الْقَصْرِ هُنَا تَقْدِيمُ المعْمُول ﴿عَلَيْهِ﴾، عَلَىٰ عَامِلِهِ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾.

٣ - ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: القصر هُنَا نظير سابِقِهِ.

المثال الخامس: قول اللهِ تَعَالَىٰ بشَأْنِ بَعْضِ صِفَاته:

• ﴿..وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾: أي: وهُو وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، الْبَصِيرُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَىٰ في الوجود كُلّه.

وأداة الْقَصْرِ هنا تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْناد.

المثال السادس: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿..وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾: أي: وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ مَصِيرُ كُلِّ الْأُمور.

وأداة القَصْر فيه تَقْدِيم المسْنَدِ في: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ علَىٰ المسْنَدِ إليه: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾.

المثال السابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿..وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ .. ﴿١٨﴾﴾:

في: ﴿أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ قَصْرٌ أداتُهُ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ، والقصر هنا إضافي. أي: بالإضافَةِ إلَىٰ مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ خَبَرَ السَّاعَةِ خَبَرٌ كَاذِبٌ.

المثال الثامن: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾:

في عبارة: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ قَصْر، أداتُهُ تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ، وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إذ اللهُ وَحْدَهُ الْقَوِي العزيز، المتفرّدُ بكَمَالِ الْقُوَّةِ والْعِزَّة.

المثال التاسع: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في وَصْفِ نَعِيم أَهْلِ الجنَّة:

• ﴿..ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾:

أداة القصْرِ في هـٰذا المثال تَعْرِيفُ طَرَفِي الإسْنَاد، وسَبَق تحليلُ نظيره.

المثال العاشر: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَة قصران أداة الْقَصْرِ فيهما تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَاد:

(١) فاللهُ وَحْدَهُ هو الّذي يُنَزّلُ الْغَيْثَ.

(٢) واللهُ وَحْدَهُ هو الْوَلِيّ الْحَمِيدُ.

وكِلَاهُمَا مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الحقيقي، وهُمَا مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصُوف.

وَأَكْتَفِي بهـٰذِهِ المستَخْرَجَات الْبَلَاغِيَّة مِنْ سورة (الشورى). والْحَمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

سورة الزُّخرف

٤٣ مصحف ٦٣ نزول

وهي مكيةٌ كلُّها

وهي الرابعة من «الحواميم السبع»

وسُمِّيَتْ «سورة الزّخرف»

لأنّ في الآية (٣٥) منها كلمة «زُخْرُفاً»

(١)

نصّ السورة ومَا فيها مِنْ فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

---

١ ـ • سكت أبو جعفر علىٰ: «حا» و«ميم» سَكْتَةً لطيفة من غير تنفس.

٤ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [فِي إِمِّ] بِكَسْرِ الهمزة، في الوصل، أمَّا عِند البدء بكلمة «أمّ» فبضمِّ الهمزة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِي أُمِّ﴾ وَصْلاً وَعِنْدَ البدء بكلمة «أُمّ».

٥ ـ • قرأ نافع، وحَمْزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: [إِنْ كُنْتُمْ] بِكَسْرِ همزة «إِنْ» علىٰ أنَّها شَرْطِية.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بفتح همزة «أَنْ» علىٰ أنَّها مخففة من الثقيلة، أي: لِأَنْ كُنْتُم.

٧ ـ • قرأ أبو جعفَر: [يَسْتَهْزُونَ] وصلاً ووقفاً، وكذٰلِكَ قرأَهَا حَمْزَةُ فِي الوقف، ولَهُ تَسْهِيلُ الهمزة بَيْنَهَا وَبَيْنَ الواو، وإِبْدَالُها يَاءً خَالِصَة.

وقرأها باقي القراء العَشرةِ: ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ

١٠ ـ • قرأ عاصِم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: ﴿مَهْداً﴾.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِهاداً].
ومُؤدَّىٰ القراءتَيْن واحدٌ، إذ المراد أنَّ اللهَ جَعَلَ الأرض مُمَهَّدَة كالفِراش المُوطَّأ الممهَّد، صالِحَةً للرَّاحَةِ وَالْعَمَلِ عَليها، ولم يَجْعَلْ ظَهْرَهَا كَأَشْوَاكِ القُنْفُذ.

١١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مَيْتاً﴾ بإسكان الياء.
وهما نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ للكلمة.

١١ ـ • قرأ ابْنُ ذكْوان، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [تَخْرُجُون] بالبناء للمعلوم.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه.
وبين القراءتين تَكَامُلٌ فِي أداءِ المعنىٰ المراد، أي: يُخْرِجُكُمُ اللهُ بالْبَعْثِ فأَنْتُمْ تَخْرُجُون.

١٥ ـ • قرأ شُعْبَةُ: [جُزُءاً].
وقرأها أبو جعفر: [جُزّاً].
وقرأها باقي القُراء الْعَشَرَة: ﴿جُزْءاً﴾. ووقف حمزة بحذْفِ الْهَمْزَةِ وَنَقْلِ حَرَكَتِهَا إلىٰ الزّاي.
وهي وجوه عَرَبيّة في نُطْق الكلمة.

وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ

١٨ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [يُنَشَّأُ] بضم الْياءِ وتَشْدِيدِ الشين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَنْشَأُ] بفتح الياء وفتح الشين دون تشديد.

١٩ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْن عامرٍ، وأبو جعفر، ويعقوب: [عِنْدَ الرَّحْمٰنِ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [عِبَادُ الرَّحْمٰن].
وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

١٩ ـ ● قرأ نَافع، وأبو جعفر: [أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَشهِدُوا خلْقهُمْ﴾.
وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ. أي: أَأَشْهَدَهُم اللهُ خَلْقَهُمْ فَشَهِدُوه.

٢٤ ـ ● قرأ ابْن عامر، وحفص: ﴿قالَ أَوَلَوْ﴾.
وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلْ أَوَلَوْ].

٢٤ ـ ● قرأ أَبُو جَعْفَرَ: [جِئْنَاكُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿جِئْتُكُمْ﴾.

أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾

٢٧ ـ • أثبت ياء ﴿سَيَهْدِينِ﴾ وصلاً ووقفاً يعقوب. ولم يُثْبِتْهَا الْبَاقُونَ.

٣٣ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة [لِبِيُوتِهِمْ] بسكر الباء.

وهما لغتان عربيتان.

٣٣ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [سَقْفاً] بالإفراد اسم جنس، وقرأها باقي القراء العشرة: [سُقُفاً] بالجمع.

والمؤدّىٰ واحد.

٣٤ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لِبِيُوتِهِمْ] بِكَسْرِ الباء.

وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ

٣٥ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، وهشام بخُلْفٍ عنه، وابْنُ جَمَّاز: ﴿لَمَّا مَتَاعُ﴾ بِتَشْدِيدِ الميم من «لمَّا».
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَمَا مَتَاعُ] دون تشديد ميم «لما».

٣٦ ـ • قرأ يعقوب: [يُقَيَّضْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.
وقرأها باقي القراء العشرة: [نُقَيِّضْ] بضمير المتكلّم العظيم.

٣٧ ـ • قرأ ابنُ عَامِر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بفتح السِّين.
وقرأها باقي القراء العشرة [وَيَحْسِبُونَ] بِكَسْرِ السّين.
وهما لغتان.

٣٨ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابْنُ عامر، وشعبة، وأَبُو جَعْفر: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانا] أي: الذي كان يَعْشُو وقَرِينُهُ الشيطان.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: الَّذِي كانَ يَعْشُو.

٤١ ـ • ٤٢ ـ• قرأ رُويس: [نَذْهَبَنْ] و[نُرِيَنْك] بنون التوكيد الخفيفة، وإذا وقَفَ علىٰ [نَذْهَبَنْ] وقف بالألف علىٰ الأصل.
وقرأهُما باقي القراء العشرة: ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ و﴿نُرِيَنَّكَ﴾ بنون التوكيد الثقيلة.

تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

٤٥ ـ • قرأ ابن كثير، والكسائي، وأبو جعفر: [وَسَلْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَاسْأَلْ].

٤٥ ـ • قرأ أبو عمرو: [رُسْلِنَا] بإسكان السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿رُسُلِنَا﴾.

٤٨ ـ • قرأ يعقوب: [نُرِيهُمْ] بضم الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء.

٤٩ ـ • قرأ ابن عامر ﴿يا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾ بضم الهاء وصلاً، وقرأها الباقون بفتحها.

٥١ ـ • قرأ نافع، والبزّي، وأبو عمرو، وأَبُو جعفر: ﴿مِنْ تَحْتِيَ أَفَلَا﴾ بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ يَاء المتكلم.

٥٣ ـ • قرأ حفص، ويعقوب: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَسَاوِرَةٌ].

مُّقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾

---

٥٦ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [سُلُفاً] بضمّ السّين واللام، جمع «سَلِيفٍ» وهو اسم للفريق الذي سلف ومضىٰ.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَلَفاً﴾ جمْعُ «سَالِف» وهو مَنْ يَسْبِقُ غيره.

٥٧ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: [يَصُدُّونَ] بضم الصاد:
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بِكَسْرِ الصاد.

٦١ ـ • قرأ يعقوب: [واتَّبِعُوني] بإثبات الياء في الوصل والوقف. وكذلِكَ قرأها أبو عمرو، وأبو جعفر في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿واتَّبِعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

٦٣ ـ • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلِّم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكۡوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ

---

٦٨ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: [يَا عِبَادِي لَا] بإثباتِ ياء المتكلم سَاكِنَةً في الوصل والوقف.

وقرأها شعبة بفتح يَاء المتكلّم وصلاً، وبإسْكانها وقفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يَا عِبَادِ لَا﴾ بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

٦٨ ـ • قرأ يَعْقُوب: [لَا خَوْفَ] بفَتْح الفاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ بضمّ الفاء مع التنوين، وهما وَجْهَانِ إعرابيانِ جائزان.

٧١ ـ • قرأ نافع، وابْنُ عَامِر، وحفْصٌ، وأبو جعفر: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات هَاءِ الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مَا تَشْتَهِي] بحذف هاء الضمير.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

---

٨٠ ـ • قرأ ابن عامر وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ بفتح السين، والباقون بكسرها.

٨٠ ـ • قرأ أبو عمرو: [وَرُسْلُنَا] بإسكان السين.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَرُسُلُنَا﴾.

٨٠ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [لَدَيْهُمْ] بضم الهاء وقرأها باقي القرّاء العشرة بكَسْرِ الهاء.

٨١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [وُلْدٌ] بالجمع. وقرأها باقي القُراء العشرة: ﴿وَلَدٌ﴾ بالإفراد، والمؤدىٰ واحد.

٨١ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ﴾ بإثبات ألف «أنا» وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة بحَذْف ألف «أَنَا» وصلاً، وإثباتها وقْفاً.

٨٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَلْقَوْا] مِن فعل «لَقِيَ» وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُلاقُوا﴾ مِنْ فعل: «لَاقَىٰ»، والمؤدىٰ واحد.

٨٥ ـ • قرأ ابن كثير، وحَمْزة، والكسائي، وخلف: [يُرْجَعُونَ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.
وقرأها رُوَيس [يَرْجِعُونَ] وقرأها رَوح: [تَرْجِعُونَ]. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

٨٨ ـ • قرأ عاصم، وحمزة: ﴿وَقِيلِهِ﴾ بالجرّ وكسْر هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَقِيلَهُ] بالنَّصْب، وضمّ هاء الضمير.

٨٩ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [تَعْلَمُونَ] بضمير المخاطبين.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بضمير الغائبين. وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٢)
مما ورَد بشأن سورة (الزخرف)

روي عن أنس قال: قال رسُولُ اللهِ ﷺ:

«الحوامِيم دِيباجُ القرآن».

الحواميم: هي السّور المبْدوءَةُ بِـ «حَم» وهي سبع سُور مرتّبة في المصحف علىٰ وِفْقِ تَرْتِيبِ نزولها: «غافر ـ فُصِّلَتْ ـ الشورىٰ ـ الزُّخرف ـ الدُّخان ـ الجاثية ـ الأحقاف).

الدِّيباج: نَوْع من الثياب، سَداهُ وَلُحْمَتُه حرِير، أي: هـٰذِهِ السُّور نفيسَةٌ لَيِّنَةٌ نَاعِمَةٌ كَالدِّيباجِ بَيْنَ الثّياب.

والمُدَبَّجُ فِي اللُّغَةِ: المزيَّنُ، يقال لغة: «دَبَّجَ فلانٌ الشيء» أي: زيَّنَهُ وَنَقَشَهُ. ويقال: «دَبَّجَ الْغَيْثُ الأرض» أي: سَقَاها فاخْضَرَّتْ وَازْدَهَرَتْ.

وجاءت تسْمِية هـٰذِهِ السُّوَرِ السَّبْعِ «آلَ حَم» كأنَّها مِنْ عَائِلَةٍ شَرِيفَةٍ وَاحِدَة.

(٣)
موضوع سورة (الزُّخرف)

ظهر لي أنّ «الحواميم السّبع» ذَاتُ خَطٍّ رَئِيسٍ وَاحِدٍ، هو خَطُّ الحديثِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَمَوْقِفِ الكافِرِينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ.

وَهِيَ تَدُور حَوْلَ مُعَالَجَةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِهَا، تُجَاهَ مَوَاقِفِهِم الكُفْرِيَّةِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَىٰ وَمَفْهُومَاتِهِ، وهـٰذِهِ المواقف منها ما جاء عِلَاجُهُمْ بِشَأْنِهِ تَكَامُلِيّاً فِي السُّور، وَمِنْهَا مَا انْفَرَدَتْ بِهِ بَعْضُ السُّوَرِ مِنْهَا، وَتَكَادُ تَكُونُ «الحواميمُ السَّبْعُ» عائلةً وَاحِدَةً مُفَصَّلَةً إلىٰ سَبْعِ سُور، ذواتِ مَلامحَ وَقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا شَرِيفَاتُ أُسْرَةٍ وَاحِدَة.

(٤)
دُروس سورة (الزُّخرف)

تَفَكَّرْتُ في هـٰذِهِ السُّورَةِ فَظَهَرَ لِي أَنْ أُقَسِّمَها إلىٰ (١٢) دَرْساً، كما يلي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٨).

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إشْعَارٌ بأنَّ القرآن المجِيدَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ مؤهَّلٌ لِأَنْ يُقْسِمَ اللهُ بِهِ لاشْتِمَالِهِ عَلَىٰ مَعَانِي كَلِمَاتِهِ الجليلة وَلِعَجْزِ الْخَلَائِقِ منفردين ومُجْتَمِعِينَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وفيهَا تَلْوِيحٌ بِإِنْذَارِ المشْرِكينَ الْكَافِرِينَ بالْقُرْآن، بِأَنَّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ، مُشَابِهٍ لِمَا حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، من كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ١٤).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضٌ جَدَلِيٌّ وإقْنَاعِيٌّ حَوْلَ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا سِوَاهُ، فِي الْوُجُودِ كُلِّه.

وفِيهَا تَشْبِيهٌ لِبَعْثِ الموتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِنْبَاتِ الزُّروعِ وإحياء الأرض الميِّتة بمَاءٍ يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّ اللهَ هو الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاج كُلَّهَا.

وفيها امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِأَنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا يَرْكَبُونَ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرّ، مُقْتَرِنٌ بِتَوْجِيهِهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّهِم عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُوا إذا اسْتَوَوْا عَلَىٰ ظَهْرِ مَرْكُوبِهِم: ﴿..سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

الدرس الثَّالث: الآيات من (١٥ ـ ١٩).

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرس مُعَالَجَةُ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ عَقِيدَتِهِمْ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

الدرس الرابع: الآيات من (٢٠ ـ ٢٥).

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرسِ مُعَالَجَةُ المشْرِكِينَ، بِشَأْنِ تَعَلُّلِهِمْ لِتَسْوِيغِ عِبادَاتِهِمُ الشِّرْكِيَّة بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ الْجَبْرِيِّ، وإبطالِ هَـٰذَا التَّعَلُّلَ الْكَاذِب.

وفِيها مُحَاصَرَتُهُمْ فِكْرِيّاً بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ فِي عبادَتِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ الَّذِي لَا رَبَّ فِي الوجود سِوَاه، يَأْذَنُ لَهُمْ فِيهِ بِأَنْ يَعْبُدُوا آلِهَتَهُمْ الَّتِي اتَّخذُوها مِنْ دُونِ اللهِ، وَإِنَّمَا هُمْ يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ تَقْلِيداً أَعْمَىٰ بِعَصَبِيَّةٍ مَقِيتَةٍ.

وَفيها بَيَانُ انْتِقامِ اللهِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي القرون السَّالفة.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٦ ـ ٢٨).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرس بَيَانُ تَبَرُّؤ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَدِّ الْقُرَشِيِّينَ، فَهُوَ أَبُو جَدِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، مِمَّا كَانَ يَعْبُدُ أَبُوهُ

وَمُشْرِكُو قَوْمِهِ مِنْ دُونِ اللهِ. أي: فإنْ كَانُوا عَلَىٰ آثَارِ آبَائِهِمْ سَائِرِينَ مُقْتَدِين، فَلْيَتَّبِعُوا جَدَّهم إبراهِيمَ، وابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَا عَلىٰ الْحقِّ، وَلْيَنْبِذُوا الشِّرْكَ الَّذِي دَخَلَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِقُرُونٍ.

الدرس السادس: الآيات من (٢٩ ـ ٣٥).

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرْس مُعَالَجَةُ مُشْرِكي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزيل، بِشَأْن كُفْرهم بِالقرآن وادّعَائِهِمْ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ، واعْتِرَاضِهِمْ عَلىٰ تَنْزيل القرآنِ عَلَىٰ مُحَمَّد ﷺ، دُونَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَىٰ رَجُلٍ عَظِيمٍ مِنْ مَكَّةَ أَوِ الطَّائِف.

وَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ الوفْرَةَ الماليَّةَ الَّتِي تَجعَلُ صَاحِبَهَا عَظِيماً بَيْنَ النَّاسِ، لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ دَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِ كِتَاباً لِهِدَايَةِ النَّاس.

الدرس السابع: الآيات من (٣٦ ـ ٣٩).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ مَنْ يَكُفُّ بَصَرَ بَصِيرَتِهِ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِ اللهِ، يُهَيِّءِ اللهُ لَهُ قَرِيناً مِنَ الشَّيَاطِينِ، يَصُدُّهُ عَنْ سَبيل اللهِ، وَيَكُونُ حِينَ لِقَائِهِ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ نَادِماً.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٠ ـ ٥٦).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس ما يلي:

(١) التيئيسُ مِنْ إِسْمَاعِ الصُّمّ، ومِنْ هِدَايَةِ الْعُمْي، أي: مِنْ تَرَقُّبِ اسْتِجَابَةِ الَّذِينَ أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَاتُ المتكَرِّرَاتُ، أَنَّهُمْ غَيْرُ مَطْمُوعٍ بإيمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّة.

(٢) إِنْذَارُ الميْؤُوسِ مِنْ إيمَانِهِمْ بِأَنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاة الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ بَعْدَ وَفاته.

(٣) تَكْلِيفُ اللهِ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِمَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ علىٰ صراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

(٤) بيانُ اللهِ عزّ وجلّ بأنَّ القرآن شَرَفٌ لَهُ وَلِقَوْمِهِ، إذْ أَنْزَلَهُ عَرَبِيّاً بِلِسَانِهِم.

(٥) أَمْرُ اللهِ عَزَّ وجلَّ رسُولَهُ بأنْ يَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ مِنْ قَبْلِهِ، أَجَعَلَ اللهُ فِي رِسَالَاتِهِمْ إِذْناً بِعبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ الرَّحْمٰن، والْغَرَضُ تَكْلِيفُ الشَّاكِّين أَنْ يَبحثوا فيما صحَّ عن الرُّسلِ السابقين.

(٦) عَرْضُ مُوجَزٍ مِنْ رِسَالَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَاتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ سَاحِرٌ، فانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ، فَأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِينَ.

وفي هَـٰذَا الْعَرْضِ إِنْذَارٌ لِمُشْرِكِي قُرِيشٍ المعانِدِينَ إبَّانَ التَّنْزِيل، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لانْتِقَامِ اللهِ مِنْهُمْ، إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ.

الدرس التاسع: الآيات من (٥٧ ـ ٦٥).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ إشارَةٌ إلىٰ جَدَلٍ جَرَىٰ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ كُفَّارِ قُرَيْش، مَع رَدّ اللهِ عَلَيْهِمْ بإثبات أَنَّ عِيسَىٰ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ أنعمَ اللهُ عَلَيه.

وفيها بيانٌ بِشَأْنِ الملائكة الَّذِينَ زَعَمَتْ بَعْضُ قَبَائِلِ العرب أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ، مع بَيَانِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ بَدَلَ النَّاسِ فِيهَا، وَلَيْسَ جَعْلُهُمْ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ مُغَيِّراً لِكَوْنِهِمْ عِباداً لِلَّهِ فَالْأَرْضُ والسَّمَاوَاتُ مِلْكٌ لِلَّهِ يُسْكِنُ فِيهما مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

وفيها بيانُ أَنَّ عِيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَشْرَاطِ وَعَلَامَاتِ السَّاعَةِ.

وفيها تَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مَا يَقُولُهُ للمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جادَلُوا بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الدرس العاشر: الآيات مِنْ (٦٦ ـ ٧٧).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس مُعالَجَةٌ للذين لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ بالتَّرهِيبِ والترغيب.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٧٨ ـ ٨٠).

وفي آيات هـٰذَا الدّرْس بَيانُ وَاقِعِ حَالِ مَجْمُوعِ الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّة، مع إعْلَامِهِمْ بِأَنَّ كُلَّ مَا يُبْرِمُوْنَهُ مِنْ أَمْرٍ مَعْلُومٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ اللهَ يُبْرِمُ ضِدَّهُمْ مَا يُعَاقِبُهُمْ بِهِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ إليهم.

وفيها إعْلَامُهُمْ بأنّ اللهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَا يُسِرُّونَهُ، وَسَمِيعٌ لِنَجْوَاهُمْ.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٨١ ـ ٨٩) آخر السورة.

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرْس تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ بَعْضَ مَا يُعَالَجُ بِهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ إبَّانَ التَّنْزِيل.

وفي هَـٰذَا التَّعْلِيمِ وَعِيدٌ وإقْنَاعٌ حَكِيم، وَتَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ بأَنْ يَصْفَحَ عَنْ سَيِّئَاتِ المشْرِكِينَ، وَأَنْ يُنْهِيَ الكلامَ مَعَهُمْ بِكَلِمَة «سَلام» وَبأَنْ يُنْذِرَهُمْ بأَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ جَزَاءهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَسوف يَذُوقونَهُ فِي الجحيم.

❀ ❀ ❀

(٥)

التدبُّر التحليليّ للدرس الأول من دُروس سورة (الزخرف) الآيات من (١ ـ ٨)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ

ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

القراءات:

(١) • سكت أبو جعفر علىٰ «حا» و«ميم» سَكْتَةٌ لَطيفة من غير تَنَفُّس.

(٤) • قرأ حمزة، والكِسَائي: [**فِي إِمِّ**] بِكَسْرِ الهمزة في الوصل، أمَّا عِنْدَ البدْءِ بِكَلِمَةِ: «أُمّ» فبِضَمّ الهمزة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**فِي أُمِّ**﴾ وَصْلاً وعند البَدْءِ بِكَلِمَةِ «أم».

(٥) • قرأ نَافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: [**إِنْ كُنْتُمْ**] بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنْ» عَلَىٰ أَنَّهَا شَرْطِيَّة.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿**أَنْ كُنتُمْ**﴾ علىٰ أَنَّهَا مُخَفَّفَةٌ مِن الثقيلة، أي: لِأَنْ كُنْتُمْ.

(٧) • قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**]وَصْلاً ووقفاً. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ تَسْهِيلُ الهمزة بينها وبَيْنَ الواو، ولَهُ إبْدَالُهَا ياءً خالصة.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ: ﴿**يَسْتَهْزِئُونَ**﴾.

تمهيد:

في آيَات هَـٰذَا الدَّرس إشْعارٌ بِأَنَّ القرآنَ المجِيدَ يَشْتَمِلُ علىٰ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُقْسِمَ اللهُ بِهِ، لاشْتِمَالِهِ عَلَىٰ مَعَانِي كَلِمَاتِهِ جَلَّ جَلالُه، ولِعَجْزِ الْخَلَائِقِ مُجْتَمِعِينَ وَمُنْفَرِدِينَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

وفيها تَلْوِيحٌ بإنْذارِ الْمُشْرِكينَ الكافِرينَ بالْقُرآنِ، بأنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ مُسْتَأْصلٍ، مُشَابِهٍ لِمَا حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السالِفَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، واسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ.

التدبّر التَّحْلِيلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿حمٓ ۝١﴾: حَرْفانِ مِنَ الْحروف المقطعة الواردة في أوائِلِ بَعْضِ سُوَرِ القرآنِ المجيد، وقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لدىٰ تَدَبُّرِ أوَّلِ سُورَة (القلم/ ٤ نزول).

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾: يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُرْآنِ المجيد، فالواو هي واو الْقَسم، وذكَرَهُ اللهُ هُنا بعُنْوَانِ «الْكِتَاب» لِتَأْكِيدِ تَكْلِيفِ المؤمنينَ المسلمينَ بأَنْ يُدَوِّنُوه، وَيَجْعَلُوهُ كِتَاباً مَصُوناً مَحْفُوظاً مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ والتحريف والضَّياع. وقَدْ تَمَّ هَـٰذَا بأَمْرٍ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لِكُتَّابِ الوحي، ثمَّ بِمَا قَامَ بِهِ خُلَفَاؤُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ، عَلَىٰ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي التَّاريخ.

ووَصَفَهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: أي: الظَّاهِرِ الواضِحِ الَّذِي لَا غُمُوضَ فِي كَلِمَاتِهِ وَتَرَاكِيب جُمَلِهِ، والمظهِر الموضِحِ للمعانِي المقْصُودَةِ مِنْ تَنْزِيلِهِ.

فالمعنىٰ الأول: هو من فعل: «أبَانَ» اللازم، بمعْنَىٰ ظَهَرَ واتَّضَحَ.

والمعنَىٰ الثاني: هو من فعل: «أبَانَ» المتَعَدِّي، بمعنىٰ أَظْهَرَ وأوضَحَ.

وكلا المعْنَيَيْنِ يَنْطَبِقَانِ عَلىٰ وَاقِعِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ القرآنُ المجيد، فَهُوَ ظَاهِرٌ وَاضِحٌ، وَمُظْهِرٌ مُوضِحٌ، وَالْقَسَمُ بالقرآنِ يَدُلُّ عَلىٰ أَنَّهُ آيَةٌ كُبْرَىٰ من آياتِ اللهِ الـمُعْجِزَةِ، وإِعجازُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ العزيز الحكيم.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

هَـٰذَا الْبَيَانُ هُوَ جوابُ الْقَسَمِ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ الَّذِي هُوَ القرآنُ المجيد.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم فَيُبَيِّنُ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْمُبِينَ قُرْآناً عَرَبياً، أي: يُقْرَأ بِلِسَانٍ عَرَبِيّ، وَخَاطَبَ اللهُ الناطِقينَ بِاللِّسَانِ العربيّ بِقَوْلِهِ:

• ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ تَعْقِلُوا.

كَلِمَةُ «لَعَلَّ» للتَّرَجِّي، وَلَمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيماً بِمَا سَيَكُونُ مِنْ عِباده، فإِنَّ مَعْنَىٰ «التَّرَجِّي» يُنَافِي صِفَةَ تَحَقُّقِ الْعِلْم عنده، لَكِنَّ هَـٰذَا المَرْجُوَّ مَرْغُوبٌ فِيهِ، إِذْ هُوَ مَطْلُوبُ التحقُّقِ، فَكَانَ حَمْلُ لفظ «لَعَلَّ» عَلىٰ مَعنَىٰ الرَّغْبَةِ هُوَ الْمُلَائِمُ هنا، فالمرغوبُ فِيه مَطْلُوبٌ يُرْجَىٰ، وحينَ يَسْقُطُ الرَّجاء تَبْقَىٰ الرَّغْبَة.

والعقل عَقْلَان: عَقْلٌ عِلْمِيّ، وعَقْلٌ إراديٌّ.

فَالْعَقْلُ الْعِلْمِيّ: مَا تُدْرَكُ بِهِ مَسَائِلُ المعرفة، وتُحْفَظُ مَعْقُولَةً فِي الذَّاكِرَةِ، وَتُسْتَدْعَىٰ إلىٰ سَاحَةِ التَّذَكُّرِ الحاضِرِ عِنْدَ الحاجة.

والعقل الإرادي: مَا تُضْبَطُ بِهِ النَّفْسُ عن اتباع الأهواء والشهواتِ

والنَّزعَات والنَّزَغَاتِ الجانحات، المؤدِّيَاتِ إلىٰ عِقاب اللهِ وعَذَابه، وعن الاستجابَةِ لِوَساوسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلَاتِهم، وعَنِ اتّباعِ خُطُوَاتِهِمْ.

وكُلٌّ مِنَ الْعَقْلِ العلميِّ وَالْعَقْلِ الإرَادِيِّ مُرَادٌ بعبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

• ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

أُمُّ الكِتَابِ: أصْلُ كُلِّ مَعْلُومَةٍ كُتِبَتْ فِي كِتَابٍ، بَعْدَ التَّعْبِيرِ عَنْهَا بِكَلِمَاتِ اللهِ، **والكِتَابُ**: جِنْسٌ يَشْمَلُ كُلَّ الكُتُب، فأُمُّ الكِتَاب يَنْطَبِقُ عَلَىٰ اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وهَـٰذَا المعنَىٰ مطابِقٌ لِقَوْلِ اللهِ عزَّ وَجلَّ فِي سورة (الْبُرُوج/ ٢٧ نزول):

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

وأُمُّ اللَّوْحِ المحفُوظ عِلْمُ اللهِ عزَّ وَجلَّ فِي نَفْسِهِ.

فَالْقُرْآنُ مَكْتُوبٌ بِكِتَابَةٍ يَعْلَمُها اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَه، وَهُوَ فِي هَـٰذَا اللَّوْحِ الْمحفُوظِ، فِي مَكَانٍ عَلِيٍّ ذي مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ، هُوَ فِيهَا «عَلِيٌّ» لأنَّ دَلَالَاتِهِ تَتعلَّقُ بِكُبْرَيَاتِ الْحقَائِقِ المُبيّنَاتِ لصِفَاتِ اللهِ، والمبيّنَاتِ لمَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنَ عِبادِهِ الَّذِينَ خَلقَهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وهُمْ مُطَالَبُونَ بِهَا فِي رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ، والمشتَمِلَاتِ عَلَىٰ بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ دَارَي الْجزَاءِ يَوْمَ الدّينِ، أعْظَمِ دَارَيْنِ خَلقَهُمَا اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فِي كَوْنِهِ، مَع مَا فِيهِ مِن آيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ مُعْجِزَة.

وهو أَيْضاً ﴿حَكِيمٌ﴾: لِأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ بَيَانٍ، مُشْتَمِل عَلَىٰ حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ غَايَةَ الْحِكْمَةِ فِي مَعَانِيهِ وَفِي مبانِيهِ.

الْحِكْمَةُ: اخْتِيَارُ أَحْسَنِ الاحْتِمَالَاتِ المُمْكِنَةِ وَأَفْضَلِهَا، وَوَضْعُ كُلِّ مُخْتَارٍ مِنْهَا فِي أَفْضَلِ المواضِعِ الملائِمَةِ لَهُ. ولفظ «الحكيم» يَصْلُحُ وَصْفاً

لِذِي الاخْتِيَارِ الحكيم، وللشَّيْءِ المتْقَنِ عَلَىٰ وَفْقِ الْحِكْمَةِ، فَهُوَ مُحْكَمٌ.

■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْمُعَالَجِينَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَيَنْطَبِقُ عَلَىٰ أَمْثَالِهِمْ دَوَاماً، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ الحقِّ، بَعْدَ مَسِيرَةِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيها (٦٢) سورة:

• ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [**أَفَنضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً إِنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ**]: بِكَسْرَةِ هَمْزَةِ «إِنْ» وَجَعْلِهَا شَرْطِيَّة.

أَصْلُ مَعْنَىٰ الضَّرْبِ: تَوجِيهُ شَيْءٍ وَإِيقَاعُهُ عَلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّة. وَحَصَلَ تَوَسُّعٌ فِي اسْتِعْمَالِ مَادَّةِ «الضَّرْبِ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الضَّرْبُ، كَضَرْبِ النُّقُودِ، وَضَرْبِ الأَمْثَالِ.

وَيضْرَبُ الثَّوْرُ لِصَرْفِهِ وَإِبْعَادِهِ عَنِ إِنَاثِ الْبَقَرِ إِذَا عَافَتِ السِّفَادَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ «أَنَسِ بْنِ مُدْرِكَة الْخَثْعَمِي»:

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكاً ثُمَّ أَعْقِلَهُ ... كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقَرُ

فاسْتُعْمِلَ الضَّرْبُ عَنِ الشَّيْءِ بِمَعْنَىٰ الصَّرْفِ والإبْعَادِ عَنْهُ، فَيُقَالُ: ضَرَبَ عَنْهُ جَمَاعَتَهُ وأتْبَاعَهُ، أي: أَبْعَدَهُمْ عَنْهُ بِقُوَّةٍ وَعُنْف.

﴿ٱلذِّكْرَ﴾: أي: تَبْلِيغَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، والتَّذْكِيرَ بِهَا.

﴿صَفْحًا﴾: أي: إعْرَاضاً عَنْكُمْ وإهْمَالاً لَكُمْ، لِعَدَمِ جَدْوَىٰ تَبْلِيغِكُمْ وَتَذْكِيرِكُمْ فِيمَا خَبَرْنَاهُ سَابِقاً مِنْكُمْ.

الصَّفْحُ: أَصْلُ الصَّفْحِ فِي اللُّغَةِ الجنْبُ، وصَفْحُ كُلِّ شيءٍ جَانِبَاه، واسْتُعْمِلَ «الصَّفْحُ» بمَعْنَىٰ «الإعْرَاض» ومِنْهُ: الإعراضُ عن الذَّنْبِ وَعَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْهِ، وهو مأخوذ من إعْطَاءِ الجانب إعراضاً.

والمرادُ بِهِ هُنا الإِعْرَاضُ عَنْ تَبْلِيغِ الذِّكْرِ، وعن التَّذْكِيرِ بِهِ.

الإِسْرَافُ: الْغُلُوّ فِي تَجاوُزِ الحُدُودِ المحْتَمَلَةِ مِنْ أخْطَاءِ النَّاسِ وخطاياهم، في تَصرُّفَاتِهِمْ الإرادِيَّة.

فالمعنىٰ: أَنَتْرُكُكُمْ فِي غَوَايَاتِكُمْ، فَنَصْرِفُ عَنْكُم تَبْلِيغ آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيم والتَّذْكِيرَ بها بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ، إعْرَاضاً عَنْكُمْ وَيَأْساً من اسْتِجَابَتِكُمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِكُمُ الْحُرَّة، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قوماً مُسْرِفِينَ، ذوي غُلُوٍّ فِي الْمُكَابَرَةِ بِالْبَاطِلِ وَالْعِنَادِ، وَرَفْضِ دَعْوَةِ الْحَقِّ، وَهُوَ مَا ظَهَرَ مِنْكُمْ فِي تَجْرِبَاتٍ كَثِيرَاتٍ فِي مَسِيرَةِ دَعْوَةِ رَسُولِنَا بَيْنَكُمْ، وهَـٰذَا يَتَضَمَّنُ إِنْذارهمْ باسْتِحقَاقِهِمْ عَذَابَ الاستئصال.

ورُوعي في القراءَةِ الْأُخْرَىٰ مَنْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلىٰ دَرَكَةِ الْإِسْرَافِ وَالْغُلُوِّ فِي رَفْضِ دَعْوَةِ الْحَقِّ، فجاءَتْ فِيها العبارة باسْتِعْمَالِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّة الَّتِي تَدْخُلُ عَلَىٰ غَيْرِ المتحقَّقِ وُقُوعُهُ مُسْتَقْبلاً.

فالمعْنَىٰ علىٰ هـٰذِهِ القراءة: أَنَتْرُكُكُمْ فَنصْرِفُ عَنْكُم تَبْلِيغَ آياتِ الذِّكْرِ الْحَكِيم، وَالتَّذْكِيرَ بِهَا بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ، إعْرَاضاً عَنْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ فِي وَاقِعِ حَالِكُمْ قَوْماً مُسْرِفِين.

أي: احْذَرُوا أَنْ تَصِلُوا إِلَىٰ هـٰذِهِ الدَّرَكَةِ، لِئَلَّا نَتْرُكَكُمْ فِي غَوَايَاتِكُمْ فَنَصْرِفَ عَنْكُمْ تَبْلِيغَ آياتِ الذّكْرِ الحكِيم، والتَّذْكِيرَ بِهَا بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ إعْرَاضاً عَنْكُمْ وَيَأْساً مِنِ اسْتِجَابَاتِكُمْ لِدَعْوَةِ الْحقّ، وفي هَـٰذَا إِنْذَارٌ ضِمْنِي باسْتِحْقَاقِ الْغُلَاةِ المُسْرِفِينَ عَذَاباً مُعَجّلاً وإهلاكاً مُسْتَأْصِلاً.

وهَـٰذَا الْعَذَابُ المُعَجّلُ وَالإهْلاكُ باسْتِئْصَالٍ، مُشَابِهٌ لإهْلاكِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ الْمُسْرِفَةِ في كُفْرِها وَعِنَادِها الَّتي أَهْلَكَهَا رَبُّكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ يُقَدِّمُ مَثَلاً مِنَ الْمهْلَكِينَ السَّابِقِين.

• ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾:

أي: وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ رُسُلاً لَنَا فِي الْأَوَّلِينَ مِنَ الأُمَمِ وَالْأَقْوَامِ، وَكَانَ مِنْ حَالِ هٰؤُلَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ رَسُولاً يُبَلِّغُهُمْ دِينَ اللهِ الحقّ، وَمَطْلُوبَ اللهِ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، إِلَّا كَانُوا يَسْتَهْزِؤُونَ بِهِ، وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، ولا سِيَّمَا الحياة الْأُخْرَىٰ بَعْدَ الموْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ وَالْبَعْثِ.

وَيَقُولُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ مُتَحَدِّثاً عَنِ الْمُعَالِجِينَ فِي السُّورَةِ، الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ فِي الآية الخامِسَةِ السَّابِقَةِ، وَمُلْتَفِتاً عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ:

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾:

أي: فَأَهْلَكْنَا أَقْوَاماً كَثِيرِينَ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشاً مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السلام، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَأَهْلِ سَدُومَ، وَأَهْلِ مَدْيَنَ، وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَفِرْعَونَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهم.

الْبَطْشُ: التَّنَاوُلُ الشَّدِيدُ عِنْدَ الصَّوْلَة، السَّطْوُ فِي سُرْعَة، الْأَخْذُ القويُّ الشديد. تَقُول لغة: «بَطَش، يَبْطُشُ، وَيَبْطِشُ، بَطْشاً».

• ﴿...وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾: أي: وَمَضَىٰ فِيمَا سَبَقَ أَنْ أُنْزِلَ مِنْ سُوَرٍ فِي نُجُوم التَّنْزِيلِ، قَبْلَ سُورَةِ (الزخرف/ ٦٣ نزول) ذِكْرُ وَصْفِ كُفْرِ المهْلَكِينَ الأَوَّلِينَ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَعِنَادِهِمْ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ دَعَوَاتِ الحقّ، وَذِكْرُ إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ واسْتِئصَالِهِمْ.

المَثَلُ: يأتي بِمَعْنَىٰ الْوَصْفِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ قِصَصَ الْأَوَّلِينَ هِيَ وَصْفٌ بَيَانِيٌّ لِمَا جَرَىٰ مِنْهُمْ، وَلِمَا جَرَىٰ عَلَيْهِمْ أَوْ لَهُم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ سورة (الزُّخْرف).

والحمد لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)

التدبّر التحليليّ للدرس الثاني مِنْ دُروس سورة (الزخرف) الآيات من (٩ ـ ١٤)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

(١٠) • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **﴿مَهْداً﴾**.

وقرأها باقي القرّاء العشَرةِ: **[مِهَاداً]**.

ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ وَاحد، إذِ المرادُ أَنَّ اللهَ جعَلَ الْأَرْضَ مُمَهَّدَةً كَالْفِرَاشِ الْمُوَطَّإِ الْمُمَهّدِ، صَالِحَةً للراحَةِ وَالْعَمَلِ عليها، وَلَمْ يَجْعَلْ ظَهْرَهَا كَأَشْوَاكِ الْقُنْفُذ.

(١١) • قَرَأ أَبو جعفر **[مَيِّتاً]** بِتَشْدِيدِ الياء.

وقرأها باقِي القراءِ الْعَشَرَةِ: **﴿مَيْتاً﴾** بإسْكَانِ الياء. وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ لِلْكَلِمَةِ.

(١١) • قرأ ابن ذَكْوَانِ، وحمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: **[تَخْرُجُونَ]** بالبناءِ لِلْمَعْلُوم.

وقرأها باقِي القراء العشرة: **﴿تُخْرَجُونَ﴾** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وبين القراءتين تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعنىٰ المراد، أيْ: يُخْرِجكُمُ اللهُ بِالْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّين، فَأَنْتُمْ تَخْرُجُونَ بِالْجَبْرِ.

تَمْهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدرس عَرْضٌ جَدَلِيٌّ وإقْنَاعِيٌّ، بِشَأْنِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا سِوَاهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وَمِنْهَا بَعْضُ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ.

وفيها تَشْبِيهٌ لِبَعْثِ الموتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِإِنْبَاتِ الزُّرُوعِ وإِحْيَاءِ الْأَرْضِ الميتة بمَاءٍ يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ، مَع بيان أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا.

وفيها امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ علىٰ النَّاسِ بأَنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا يَرْكَبُونَ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرّ، مُقْتَرِنٌ بِتَوْجِيهِهِمْ لِأَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ رَبِّهِم عَلَيْهِمْ، وَيَقُولوا إذا اسْتَوَوْا عَلَىٰ ظَهْرِ مَرْكُوبِهِم:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

التَّدبُّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِلرَّسُولِ ﷺ بِشَأْنِ المعالَجِينَ فِي السُّورَة:

- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

«ولَئِنْ» اللّام مُوطّئة للقسم، وهي تُؤْذِنُ بأنَّ الجواب بَعْدَها مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ قَبْلَهَا.

أي: نُؤَكِّدُ بِالْقَسَم، لَئِنْ سَأَلْتَ مُشْرِكي مَكَّةَ الَّذِينَ تَجْرِي مُعَالَجَتُهُمْ فِي السُّورَةِ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ أفراداً، وَجَمَاعَاتٍ، بِتِلْقَائِيَّةٍ وَبِتَتَابُعٍ: خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوىٰ.

الْعَلِيمُ: أي: ذُو الْعِلْمِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ.

كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ عِنْدَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُؤْمِنُونَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ عزّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ بِشُؤُونِ حَيَوَاتِهِم، كَالنَّصْرِ، والرِّزْقِ، وَالأَمْنِ، والتَّوْفِيقِ فِي الأَسْفَارِ، ومَنْحِ الذُّرِّيَّةِ، ونَحْوِ ذَلِكَ(١).

فأبَانَ اللهُ عزّ وجَلَّ لَهُمْ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ شَامِلَةٌ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ، فَهُوَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَمِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي الأَرْضِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ لَهُمُ الأَرْضَ مَهْداً، وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا سُبُلاً، وأَنَّهُ يَرْزُقُهُمْ فَيُنْزِلُ لَهُمُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ، وَيُخْرِجُ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ مِنَ الأَرْضِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحُبُوبِ والثمار وغَيْرِهَا، وأَنَّهُ خَلَقَ الأَزْوَاجَ التَّكَامُلِيَّةَ فِي الأَشْيَاءِ، مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ، ومِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَمِنَ الأَنْعَام مَا يَرْكَبُونَ، وهَـٰذِهِ مِنْ عِنَايَةِ اللهِ بِهِمْ وَمِنَنِهِ عَلَيْهِمْ فِي الأَرْضِ، فالرُّبُوبِيَّةُ كُلُّهَا فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِلَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض:

• ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾: وفي القراءة الأخْرَىٰ **[مِهاداً]**:

أي: الَّذِي تُؤْمِنُون بأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، لَمْ يُشَارِكْهُ فِي خَلْقِهِمَا شَرِيكٌ ما، هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَمِهَاداً.

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبُّر سورة (فاطر/٤٣ نزول) ـ «توحيد الرُّبوبيَّة وتَوْحيد الإلٰهيَّة في الدَّلالاتِ القرآنية».

المهْدُ: السَّريرُ الَّذي يُهَيَّأُ لِلطِّفْلِ الصَّغِير، ويُوَطَّأُ لِينَامَ، أي: جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِمَثابَةِ الْمَهْدِ، صَالِحَةً لِتَجِدُوا عَلَيْهَا رَاحَتَكُمْ، إقَامَةً، وَجُلُوساً، واضطجاعاً، وَمَناماً، فَوِدْيانُهَا وُسُهُولُها تُشْبِهُ المَكَانَ الَّذي يَنامُ عَلَيْهِ الطِفْلُ فِي بَاطِنِ السَّرِيرِ، وَجِبالُهَا تُشْبِهُ حَافَّتي السَّرِيرِ الْمُرْتَفِعَتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

وَيُقَالُ لُغة: «مَهَدَ الْفِرَاشَ، يَمْهَدُهُ، مَهْداً» أي: بَسَطَهُ، وَوَطَّأَهُ، وَجَعَلَهُ مُرِيحاً لِلْجُلُوسِ أَوِ الاضطجاعِ عَلَيْهِ.

المِهَادُ: يَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ الْفِرَاشِ، وبِمَعْنَىٰ الْأَرْضِ الْمُنْخَفِضَة المسْتَوية، وبمعنىٰ قاعِ الْبَحْرِ أَوْ قَاعِ النَّهْرِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي الْأَرْضِ أَمْكِنَةً كَثِيرَةً جدّاً، وبقاعاً فِي سُهُولِهَا، وَبَعْضِ مُرْتَفَعَاتِها، صَالِحَةً مَنَازِلَ للإقَامَةِ والسَّكَنِ، والاضطجاعِ والرَّاحَةِ عَلَيْهَا.

فالْمَهْدُ والْمِهَادُ يَدُلَّانِ بِتَكَامُلٍ بَيْنَهُمَا عَلَىٰ مَا جَعَلَ اللهُ للنَّاسِ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْكِنَةِ إقَامَةٍ وَرَاحَةٍ وَسَكَنٍ مُطْمَئِنٍّ آمِنٍ.

وهَـٰذَا مِنْ عِنَايَةِ اللهِ عزَّ وَجلَّ بالنَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

وَلَيْسَ فِي الْمَهْدِ وَالْمِهَادِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عُمُومَ الْأَرْضِ كَالْفِرَاشِ أَوْ كَالْبِسَاطِ، بَلْ هِيَ كَكُرَةٍ أَوْ كَصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ تَدُور حَوْلَ نَفْسِهَا، عَلَىٰ مَسِيرٍ فِي الْأُفُق، ضِمْنَ نظامٍ رَبَّانِيٍّ لَا تَخْرُجُ عَنْهُ.

• ﴿..وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وَجَعَلَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ طُرُقاً، صَالِحَةً لِأَنْ تَسْلُكُوهَا فِي تَنَقُّلَاتِكُمْ وَأَسْفَارِكم، وبهَـٰذِهِ السُّبُل تُحَقِّقُونَ مَنَافِعَ كَثِيرَة لَكُمْ.

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها أيضاً سُبُلاً مَعْنَوِيَّةً كَثِيرةً، تُحَقِّقُونَ فِيهَا كَثِيراً مِنْ مَنَافِعِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ مِنْ دُنْيَاكُمْ، وَهِيَ تَشْمَلُ سُبُلَ الزِّرَاعَاتِ،

وَالصِناعَاتِ، والتجارات، وسُبُلَ الْحِمَايَةِ وَالْحِفْظِ وَالْأَمْنِ، فِي السِّلْمِ وَالحرْب، وغَيْرَ ذَلِكَ.

فلفظ «السُّبُل» في الاستِعْمَالِ القرآنِيِّ يَشْمَلُ السُّبُلَ المادِّيَّة والمعنوية.

■ قولُ اللهِ تَعالىٰ مُتابِعاً بَيَانَهُ فِي عَرْضِ أمْثِلَةٍ مِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ:

• ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾:

أي: وهُوَ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ فَلَا تَرْزُقُكُمْ آلِهَتُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونه، وَمِنْ ظاهِرَاتِ رِزْقِهِ لَكُمْ، أَنَّهُ نَزَّلَ كَمَا تَعْلَمُونَ مِنَ السَّحَابِ إِذْ هُوَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ سَمَاءٌ (إِذْ كُلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ فَهُوَ سَمَاء) نَزَّل مَاءً بِقَدَرٍ اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، لِرِزْقِ عِبادِهِ وَسَائِرِ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ.

وَدلَّ عَلَىٰ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ بإِنْبَاتِ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ فِي الْأَرْضِ، فَالْتَفَتَ مُتَكَلِّماً بِضَمِيرِ المتكَلِّم الْعَظِيم فقَالَ تَعالىٰ: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ﴾: أَيْ: فَأَحْيَيْنَا بِالْمَاءِ إِذْ جَعَلْنَاهُ بِخَلْقِنَا سَبَباً، بَلْدَةً قَاحِلَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا، فَصَارَتْ ذَاتَ حَيَاةٍ بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجناهُ فِيهَا خَضِراً نَضِراً.

الْبَلْدَةُ، وَالْبَلَدُ: المكانُ الواسِعُ من الأرض، ويُطْلَقُ لفظ «الْبَلْدَةِ» علىٰ الْأَرْضِ، تَقُولُ العرب: «هَـٰذِهِ بَلْدَتُنا» أي: أَرْضُنا.

وَوُصِفَتِ «الْبَلْدَة» ولَفْظُها مؤنَّث، بلفظ «مَيْت» أو «مَيِّت» إلحاقاً بما يَسْتَوي فيه المذكّر والمؤنَّثُ مِنْ صِيَغ. قال الزَّجّاج: «المَيْتُ والميّتُ» بالتخفيف والتَّشْدِيد، وَيَسْتَوي فِيهِ المذكَّر والمؤنث.

ولِتَقْرِيب قَضِيَّةِ إِحْيَاءِ الموتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ أَذْهَانِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾: أَيْ: كذَلِكَ الَّذِي تُشَاهِدُونَهُ

مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِهَا، تُخْرَجُونَ أَحْيَاءً يَوْمَ الْبَعْثِ مِنْ بِزْرَةٍ صَغِيرَةٍ مَحْفُوظَةٍ فِي عَجْبِ الذَّنَبِ، فَتَخْرُجُونَ بِنَمَاءٍ تَكَامُلِيٍّ، حَتَّىٰ تَصِيرُوا أَجْسَاداً كَامِلَةً، وتُزَوَّجَ بأَرْوَاحِهَا الَّتِي كَانَتْ دَاخِلَةً فِيهَا فِي الحَيَاة الدُّنْيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ فِي عَرْضِ أمْثِلَةٍ مِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ:

• ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الأَزْواجُ: جَمْعُ الزَّوْجِ، وهو خِلَافُ الْفَرْدِ، وَكُلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ يُقَالُ لَهُمَا زَوْجَانِ، وَلَوْ كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ غَيْرَ مُتَشَاكِلَيْن. وَيُطْلَقُ الزَّوْجُ عَلىٰ الصِّنْفِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَالْأَزْوَاجُ عَلَىٰ هَـٰذَا: الْأَصْنَافُ.

وَتُطْلَقُ الْأَزْوَاجُ بِمَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَهُ زَوْجٌ مِنْ جِنْسِهِ أَوْ مِنْ نَوْعِهِ، فَهُمَا يَتَكَامَلَانِ فِي أَدَاء وَظِيفَتَيْهِما فِي الْوُجُود:

وَلَا أَرَىٰ مَانِعاً مِنْ حَمْلِ الْأَزْوَاجِ هُنَا عَلَىٰ:

(١) مَعْنَىٰ الْأَصْنَافِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، كأَصْنَافِ الزُّرُوعِ والثمار.

(٢) ومَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَهُ زَوْجٌ مِنْ جِنْسِهِ أَوْ مِنْ نَوْعِهِ، فَهُمَا يَتَكَامَلَانِ فِي أَدَاء وَظِيفَتَيْهِمَا فِي الْوُجُودِ، كالذَّكر والأُنْثَىٰ فِي الْأَحْيَاءِ، وَكالسَّالِبِ والموجِب فِي الْكَهْرُبَاء، وَفِي الذَّرَّاتِ، وفي المغناطيس، وفي غَيْرِ ذَلِكَ، وقد دَلَّ عَلىٰ هَـٰذَا قولُ اللهِ عزَّ وجلّ في سورة (يسٓ/ ٤١ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّرُ هَـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ سُورة (يس) وجَاءَ فِي تَدبُّرِهَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَ أَنْ يَجْعَلَ أَجْنَاسَ خَلْقِهِ، وأَنْوَاعَهُمْ، وأَصْنَافَهُمْ، وأفرادَهُمْ جَمِيعاً خَاضِعَةً لِنِظَامِ الزَّوْجِيَّة، لِئَلَّا يُشَارِكَ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فِي صِفَةِ الْأَحَدِيَّةِ أَحَد.

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الواحِدِ، والاثْنَيْنِ والجمع، ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فَيُقَال: هِيَ الْفُلْك، وهُوَ الْفُلْك.

الأنْعَام: هي الأمْوالُ الراعية، وهي الْإِبِلُ، والبقر، والغنم، ولفظ «الأنعام» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، وَالمركُوبُ منَ الْأَنْعَامِ الْإِبِلُ، وهي فِي الصحراء بِمَثَابَةِ الْفُلْكِ فِي الْبَحْر. وقَدْ قِيل: «الْإِبِلُ سَفَائِنُ الْبَرّ».

- ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾: أي: لِتَكُونُوا رَاكِبِينَ باعْتِدَالٍ واسْتِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُهُورِ مَا تَرْكَبُونَ مِنْ فُلْكٍ وَأَنْعَام، وَفِيمَا دُونَ ظُهُورِ الْفُلْكِ إِذَا كَانَتْ لَهَا بُطُونٌ يَسْتَوِي عَلَيْهَا الرَّاكِبُونَ بِاعْتِدَالٍ واسْتِقَامَةٍ، وهَـٰذَا يُفْهَمُ بِاللُّزُومِ الذِّهْنِي.

- ﴿..ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾: أَيْ: ثُمَّ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَىٰ مَا تَرْكَبُونَ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَام، وَسَارَ بِكُمْ آمِنِينَ، تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، إِذْ سَخَّرَ لَكُمْ أَنْ تَحمِلَكُمْ وَأَحْمَالَكُمْ سُفُنُ الْبَحْرِ بِنِظَامٍ مُتْقَنٍ عَجِيب يَجْعَلُهَا تَجْرِي فِي الْمَاءِ، فَتَصِلُونَ بِرَحْمَةِ اللهِ إِلَىٰ بِلَادٍ لَمْ تَكُونوا بَالِغِيهَا إِلَّا بِشقّ الْأَنْفس، وَسَخَّرَ لَكُمْ أَنْ تَحْمِلَكُمُ الإبِلُ فِي الْفَيَافِي وَتَحْمِلَ أَحْمَالَكُمْ كَذَلِكَ، وَيُقَاسُ عَلَيْهما سَائر المركوبَات.

- ﴿..وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

التَّسْخِير: التَّذْلِيلُ وَالتَّطْوِيعُ لعَمَلٍ مَا أَوْ أَمْرٍ مَا، وَجَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ، وهَـٰذِهِ المطاوعَةُ قَدْ تَكُونُ بِالطَّبع، كَتَسْخِيرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا حَيَاةَ لَهَا، وقد تَكُونُ بِالْقُوَّةِ مَعَ التَّذْلِيل،

كَتَسْخِيرِ العجماوات، وقَدْ تَكُونُ بالاختيار الحرّ، لِمَا فِي المطاوعَةِ مِنْ مصْلَحَةٍ للمُطاوعِ.

• ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾: أي: وَمَا كُنَّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أَنْ سَخَّرَهُ اللهُ لَنَا، يُقَالُ لغة: «أَقْرَنَ للشَّيْءِ» أي: أطاقَهُ وقَوِيَ عَلَيْهِ.

• ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: أي: وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَراجِعُونَ بَعْدَ المَوْتِ وَالْبَعْثِ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الجزاء.

يقال لغة: «انْقَلَبَ، يَنْقَلِبُ» أي: رَجَعَ يَرْجِع.

جاء توكيد هَـٰذِهِ العبارة بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة» والْغَرَضُ الإعْلَانُ عَنْ صِدْقِ إِيمَانِهِمْ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَمَا سَوْفَ يَجْرِي فِيهِ، مِمَّا صَحَّتْ بِهِ الْأَخْبَارُ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

وقَدْ عَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ أَنْ يَذْكُرُوا هَـٰذَا الذِّكْرَ الْعَظِيمَ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَنْزِيهٍ لِلَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَحَمْدٍ ضِمْنِيٍّ يَسْتَلْزِمُهُ التَّنْزِيهُ بِكَلِمَةِ «سُبْحَانَ» مَعَ دَلَالَةِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بِتَسْخِيرِ المرْكُوبِ، وَلِمَا فِيهِ مِنَ اعْتِرَافِ المؤمِنِ بِعَجْزِهِ لَوْلَا تَسْخِيرُ اللهِ لَهُ مَا سَخَّرَ فِي كَوْنِهِ لِعِبَادِهِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ إِعْلَانِ الإيمانِ بِيَوْمِ الدِّينِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الرَّجْعَةُ الكُبْرَىٰ إِلَىٰ اللهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الابْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، وفِي الْعِبَارَةِ طَيُّ الرَّغْبَةِ فِي الرَّجْعَةِ إِلَىٰ مَكَانِ الْإِقَامَةِ، بَعْدَ رِحْلَةِ السَّفَرِ عَلَىٰ الْمَرْكُوبِ إِلَىٰ غَيْرِ مَكَانِ الإقَامَةِ، لِقَضَاءِ مَصَالِحَ وَتَحْقِيقِ مَنَافِعَ.

فَكَأَنَّ العِبَارَةَ مَع المطْوِيِّ فِيهَا: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا الْمَرْكُوبَ، وَمَا كُنَّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أَنْ سَخَّرَهُ اللهُ لَنَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُعِيدَنَا بَعْدَ قَضَاءِ حَاجَاتِنَا فِي سَفَرِنَا آمِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ حِسَابِ رَبِّنَا، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَحقِيقِ جَزَائِهِ، لَرَاجِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُعَدَاءَ بإيمانِنَا.

وبهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (الزُّخرف).

والحمد لله علىٰ معونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٧)
التدبّر التحليليّ للدّرْس الثالث من دُرُوس سورة (الزُّخرف) الآيات من (١٥ ـ ١٩)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

القراءات:

(١٥) • قرأ شُعْبة: **[جُزُءاً]**. وقرأها أبو جعفر: **[جُزّاً]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**جُزْءاً**﴾.

ووقف حمزة بِحَذْفِ الهَمْزَةِ وَنَقْلِ حَرَكَتِهَا إلىٰ الزَّاي، وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ فِي نُطْقِ الْكَلِمَةِ.

(١٨) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: **[يُنَشَّأُ]** بضَمِ الياء، وَتَشْدِيدِ الشِّين.

وقرأها باقي القراء العَشَرَةِ: **[يَنْشَأُ]** بِفَتْحِ الياء وفَتْحِ الشِّين دُونَ تَشْدِيد.

وفي القراءتَيْن تَعْبِيرٌ عَنْ حَالَتَيْنِ للنَّاشِئَاتِ بِرَفَاهِيَةٍ وَدَلَال، بِمُبَالَغَةٍ أو بغَيْرِ مبالغة.

(١٩) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، وأبو جَعْفر، ويعقوب: **[عِنْدَ الرَّحْمٰنُ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عِبَادُ الرَّحْمٰن].

وَبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعنَىٰ المراد، إذ المَلائِكَةُ عِنْدَ الرَّحْمٰن، وَهُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ.

(١٩) • قرأ نَافِع، وأَبُو جَعْفَر: [أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي المعنىٰ، أي: أَأَشْهَدَهُمُ اللهُ خَلْقَهُمْ، فَشَهِدُوه، فَهُمْ يُخْبِرُونَ عَمَّا شَهِدُوا، أَمْ هُمْ يَفْتَرُونَ؟

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدرس مُعَالَجَةُ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ عَقِيدَتِهِمْ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ[(١)].

التدبُّر التحليليّ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ كُفْرِيَّةٍ كُبْرىٰ مِنْ كُفْرِيَّاتِ المشركين، وَهِيَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا خَلَقَ وَلَداً، زَاعِمِينَ أَنَّهُ جُزْءٌ مُنْفَصِلٌ مِنْ ذَاتِهِ، قِيَاساً عَلَىٰ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَأَنَّهُمْ أَجْزَاءُ مِنْ ذَوَاتِهِمْ:

• ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلّ صَمَدٌ، فَلَا يَدْخُلُ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْفَصِلُ مِنْ ذَاتِهِ شَيءٌ، فَهُوَ واحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، بَالِغٌ غَايَةَ الكَمَالَاتِ كُلِّهَا فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُكَافِئَهُ أَوْ يُنَاظِرَهُ أَوْ يُسَاوِيَهُ أَحَدٌ.

---

(١) سبقت دراسة عقيدة مُشركي العرب في الجاهلية بشَأْن الملائكة، من خلال تسعة نصوص قرآنية في ثماني سور، في الملحق الثاني من ملاحق سورة (النجم/ ٢٣ نزول). المجلّد الثاني، الصفحات من (١٧٢ ـ ١٩٣) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

وَيَلْزَمُ مِن انْفِصَالِ جُزْءٍ مِنْ ذَاتِهِ لِيَكُونَ وَلَداً لَهُ، أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا الْجُزْءُ مُتَّصِفاً بِبَعْضِ صِفَاتِ أَصْلِهِ فِي أَدْنَىٰ الْحُدُود، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا، وإِلَهِيَّةٌ مَا، لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا وَالِدَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنِ المثيلِ وَالشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ، وَعَنْ أَنْ يَكُونَ جُزْءاً مُنْفَصِلاً عَنْ غَيْرِه، وَعَنْ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْهُ جُزْءٌ بالاشْتِقَاقِ أَوْ بَالتَّوَلُّدِ وبِالتَّنَاسُلِ، أَوْ بِغَيْرِ ذٰلِكَ، وَمَنْ زَعَمَ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ كَانَ بِرَبِّ الْكَوْنِ كُلِّهِ كَافِراً، لِأَنَّ مَا زَعَمَهُ مُخَالِفٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ كُلَّ ذِي حَيَاةٍ فِي الوجودِ كُلِّهِ سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، مَخْلُوقٌ لِلَّهِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، فَكَيْفَ يَكُونُ وَلَداً لَهُ وَجُزْءاً مُنْفَصِلاً عَنْ ذَاتِهِ.

لَكِنَّ مُتَّبِعِي أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، يُرِيدُونَ أَنْ يَصْطَنِعُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ عَلَىٰ مَا يَشْتَهُونَ، وَأَنْ يَجْعَلُوا لِهٰؤُلَاءِ الْأَرْبَابِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْمَطَالِبِ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَ نُفُوسِهِمُ الجَانِحَةِ الجامِحَةِ، وهَـٰذَا مِنْهُمْ غُلُوٌّ فِي الْكُفْرِ لِسَتْرِ الْحَقِّ الرَّبَّانِي، وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ أَفرادِ الإِنْسَانِ مِنْ هَـٰذَا الصِّنْفِ الجاحِدِ الكَفُور الْغَالِي فِي الضَّلَالِ، كان من المناسِبِ وَالْأَمْرِ الْحَكِيم وَصْفُ الإِنْسَانِ بأَنَّهُ كَفُورٌ مُبِينٌ، أَيْ: كفُورٌ ظَاهِرُ الْغُلُوِّ فِي الْكُفْرِ وَالْجُحُود.

الكَفُور: صِيغَة مُبَالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعِلِ «كافر».

الكُفْر: يَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ جُحُودِ النِّعْمَة، وَهُو ضِدُّ الشُّكْر، وَأَصْلُ «الكَفْرِ» فِي اللُّغَةِ تَغْطِيَةُ الشيءِ تَغْطِيَةً تَسْتَهْلِكُهُ، وَكُلُّ مَنْ كَفَرَ شَيْئاً فَقَدْ سَتَرَه، ولهَـٰذَا يُقَالُ للزَّارِعِ «كافر».

فالكَافِرُ فِي الدِّينِ هُو الَّذِي سَتَرَ أَدِلَّةَ الإِيمَانِ وَجَحَدَهَا بَعْدَ أَنْ وَضَحَتْ له.

وبَعْدَ بَيان أَنَّ انْفِصالَ جُزْءٍ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ مَرْفُوضٌ عَقْلاً، لِأَنَّ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ لا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ تَغَيُّرٌ فِي ذَاتِهِ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ وَمَقَايِيسِها، أَبَانَ اللهُ تَبارَكَ وَتعالَىٰ فَسَادَ احْتِمَالِ أَنْ يَتَّخِذَ اللهُ لِنَفْسِهِ مِمَّا يَخْلُقُ أَوْلَاداً بِالتَّبَنِّي، مِنْ خِلَالِ اسْتِنْكَارِهِ الشَّدِيدِ عَلىٰ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، فَقال اللهُ تَعالَىٰ:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هَـٰذِهِ «أم» المنقطعة بمَعْنىٰ «بَلْ» وَتَدُلُّ علىٰ الإضراب الانْتِقالِي، ويُلازِمُها مَعْنَىٰ الاسْتِفْهَامِ، والاستفهام إنْكارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ هنا.

أي: بَلْ. أَتَّخَذَ اللهُ مِمَّا يَخْلُقُ فِي كَوْنِهِ بَنَاتٍ، وتَبَنَّاهُنَّ أَوْلَاداً لَهُ، وَهُنَّ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعِبادٌ مِنْ عِبادِهِ؟!!!

• ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾: أي: وآثَرَكُمْ بِالْبَنِينَ؟؟! تقولُ لُغَةً: «أَصْفَيْتُ فُلَاناً بِكَذَا» أي: آثَرْتَهُ بِهِ عَلىٰ نَفْسِكَ.

وأَعْرَضَ اللهُ عزّ وجلَّ عَنْ مُخاطَبَتِهِمْ، فَقَالَ مُلْتَفِتاً عَنْهُمْ، للتَّعْجِيبِ مِنْ أَمْرِهِم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: يَجْعَلُونَ أَوْلَادَ اللهَ رَبِّهِمْ مَلَائِكَةً إِنَاثاً، مَعَ أَنَّ الواحِدَ مِنْهُمْ إِذَا بُشِّرَ بِمَوْلُودَةٍ أُنْثَىٰ لَهُ، ظَلَّ طُولَ نَهارِهِ كَالِحَ الْوَجْهِ، شَاعِراً بِأَنَّهُ كالمسَخَّم وَجْهُهُ بِالسَّوادِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ.

• ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وهُوَ مُمْسِكٌ عَلَىٰ مَا امْتَلأَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْظٍ وَغضَب، وَيقُولُ فِي نَفْسِهِ عَنِ الْمَوْلُودِ مِنَ الإِنَاث:

• ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾:

أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا تَعْبِيرٌ عَنْ تَصوّرَاتِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ قَبْلَ الإِسلام.

أي: أَأُبَشَّرُ بِمَنْ لَا يَكْسِبُ لِي رِزْقاً وَلَا يُدافِعُ عَنِّي فِي قِتَال، وَلَا أَفتخِرُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يُنُشَّأُ أَوْ يُنْشَأُ فِي الحِلْيَةِ (الْحِلْيَةُ: مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ مَصُوغ المعادِنِ وَغيْرِها وَمِنَ الْحِجَارَةِ الكريمة) وَهُوَ فِي الْخِصَامِ (أي: الْمُخَاصَمَة) غيرُ مُبِينٍ بِحِجَّةٍ دَامِغَةٍ يَقْبَلُهَا أَهْلُ الْفِكْرِ والرُّشْدِ وَالْبَيَانِ.

هَكَذَا كَانَ حَالُ النِّسَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّة عِنْدَ الْعَرَب، فَالْجَاهِلِيُّ كَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ الأُنْثَىٰ مِنْ خِلَالِ هَـٰذَا الْوَاقِعِ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ المرأةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَام، لِذَلِكَ فَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تُولَدَ لَهُ أُنْثَىٰ.

واللهُ عَزَّ وَجلَّ يُؤَنِّبُ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُنَّ بَنَاتُ اللهِ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ تُولَدَ لَهُمُ الإِنَاثُ، لِأَنَّهُنَّ لَا يَحْمِينَهُمْ وَلَا يَزِدْنَ فِي ثَرَوَاتِهِمْ، بَلْ يُحَمِّلْنَهُمْ أَعْبَاءَ حَيَوَاتِهِنَّ.

وَيقُولُ تَبَارَكَ وَتعَالَىٰ أَيْضاً بِشَأْنِ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ دَلِيلٌ خَبَرِيٌّ عَنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَدُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شُهُودٌ حِسِّي لَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ و[**أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ**] في القراءة الأُخْرَىٰ، فَعَرَفُوا مِنْ مُشَاهَدَتِهِمْ الْبَصَرِيَّة أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاث؟!

هَـٰذَا مِنْهُمُ ادِّعَاءٌ عَجِيبٌ لِمَا فِيهِ مِنْ كَذِبٍ مَفْضوحٍ.

سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ إِنْ شَهِدُوا بِأَنَّهُمْ رَأَوْهُمْ إِنَاثاً بِشُهُودٍ بَصَرِيٍّ، وَيُسْأَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ شَهَادَتِهِمُ الْكَاذِبَةِ وَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا وَيُجَازُونَ.

وبهَـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثَّالث من دُروس سورة (الزُّخْرُف).

والحمد للهِ علىٰ معونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَنِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٨)
التدبُّر التَّحليلِيُّ للدَّرْس الرابع من دُرُوس سورة (الزُّخرف)
الآيات من (٢٠ ـ ٢٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

القراءات:

(٢٤) • قرأ ابن عامر، وحفص: [**قَالَ أَوَلَوْ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**قُلْ أَوَلَوْ**﴾.

(٢٤) • قرأ أَبُو جَعْفَر: [**جِئْنَاكُمْ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**جِئْتُكُمْ**﴾..

تمهيد:

في آيات هٰذا الدرس معالَجَةٌ لِلْمُشْرِكين بِشَأْنِ تَعَلُّلِهِمْ لِتَسْوِيغِ عباداتِهم الشِّرْكِيَّةِ، بأَنَّهُ حَاصِلٌ بتقديرِ اللهِ وقضائِهِ الْجَبْرِي، وإبْطَالِ هٰذا التَّعَلُّلِ الكاذِب.

وفيها مُحَاصَرَتُهُمْ فِكْرِيّاً بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَدَيْهِم حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ في عبادتِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ كتابٌ مِنْ رَبِّهِم الَّذِي لَا رَبَّ في الوجود سواه، يأْذَنُ لَهُمْ فِيه بأنْ يَعْبُدوا آلِهَتَهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وإِنَّمَا هُمْ يُقَلِّدُونَ آباءَهُمْ تَقْلِيداً أَعْمَىٰ بِعَصَبِيَّةٍ مَقِيتَةٍ.

وفيها بَيَان انتقام اللهِ مِنْ أمْثَالِهِمْ في الْقُرُونِ السَّالِفَة، فَهُمْ يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُمْ بِشِرْكِيَّاتِهِمْ لِانْتِقَامِ اللهِ مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ تَعَلُّلَ المشْرِكِينَ لِتَسْوِيغِ شِرْكِيَّاتِهِمْ بالْقَضَاءِ والْقَدَر، مع الرَّدِّ عَلَيْهِم بأنَّهُمْ كَذَّابُون يَخْرُصُون:

● ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

● ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾: يُرِيدُونَ بِهَـٰذا الْقَوْلِ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِآلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ، إنَّمَا هِي أمْرٌ جَبْرِيٌّ سَبَقَ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُه، والْأُمُورُ الْجَبْرِيَّةُ بِقَضَاء اللهِ وَقَدَرِهِ لَا تَخْضَعُ لِإِرَادَاتِ النَّاسِ، فَلَا مَسْؤُولِيَّةَ عَلَيْهِمْ فِيها، فإنْذَارُهُمْ بِعَذَابِ اللهِ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِم مُخَالِفٌ لِمَنْطِقِ الْعَقْلِ وأحْكَامِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، ولهـٰذَا رَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بِرَدَّين:

الرَّدُّ الأوّل: أبانَهُ تبارَكَ وتعالىٰ بقوله:

● ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾:

أي: لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ مِنْ بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ، يُثْبِتُ أَنَّهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مَجْبُورُونَ فَلَيْسَ لَهُمْ إرَادَةٌ حُرَّة يُرِيدُونَ بِهَا مَا يَعْبُدُونَ وَمَا لَا يَعْبُدُونَ، بَلِ الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ والتَّجْرِيبِيُّ يُثْبِتُ أَنَّهُمْ ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ يُرِيدُونَ بها مَا يَشَاؤُونَ مِنْ كُلِّ مَا يَخْضَعُ لِتَصرُّفَاتِهِم الإرادِيَّة، وَهُمْ مَسْؤُولُونَ عَمَّا يَفْعَلُونَ بإرَادَاتِهِم الحرَّة.

وَإنْ هُمْ بادِّعَائِهِمْ هَـٰذَا إِلَّا يَخْرُصُونَ. «إنْ» حَرْفُ نَفْي بمعنى «ما».

الْخَرْصُ: يأتي بمَعْنَىٰ الكَذِبِ، يُقَالُ لغة: «خَرَصَ يَخْرُصُ» أي:

كَذَب. وَيَأْتِي بمَعْنَىٰ الظَّنِّ الَّذِي لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ لإثْبَاتِ أو نَفْي حَقَائق عِلْمِيَّة.

وقِسْمٌ مِنَ المشركين يَخْرُصُونَ بمعْنَىٰ: «يَكْذِبُون» لِأَنَّهُم يَشْعُرُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَتَعَلَّلُونَ تَعلُّلاً جَدَلِيّاً، وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كاذِبون.

وقِسْمٌ مِن المشْركين يُسَوِّغُونَ الْعَمَلَ بتَقَالِيدِهِمْ، بالاستنادِ إِلَىٰ ظُنُونِ تَوَهُّمِيَّةٍ، وَيَصْرِفُونَ عَنْ تَصَوُّرَاتِهِمْ الأَدِلَّةَ الْبُرْهَانِيَّةَ المخالِفَةَ لها، إرْضَاءً لِأَهْوَائِهِمْ، وَالْتِزَاماً بِتَقَالِيدِهم الْعَمْيَاءِ لِآبَائِهِمْ وأجْدَادِهِم.

وَقَدْ سَبَقَ في سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) بَيَانُ أَنَّ المشْرِكينَ سيتعَلَّلُونَ بالقضاءِ والْقَدَرِ على معْنَىٰ الْجَبْر، لِتَسْويغِ شِرْكِهِمْ، وَأَحْكَامِهِم الباطلةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطَان، وأبانَ اللهُ فيها كَذِبَهُمْ فيما يَتَعَلَّلُونَ به، فقالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذا النصّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (الأنعام).

الرَّدُّ الثاني: أبانَهُ اللهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ:

- ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هُنَا مُنْفَصِلَة بمعنى الإضراب مع اسْتِفْهَام. أي: بَلْ أآتَيْنَاهُم كِتَاباً مُنزَّلاً عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ قَبْلِ إنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وفي هٰذا الكِتَابِ أمْرٌ مِنَّا أوْ إذْنٌ بأَنْ يَعْبُدوا شُرَكَاءَهُم الَّذِينَ اتَّخَذُوهُم آلِهَةً مِن دُونِ اللهِ رَبِّهِمْ، فَهُمْ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ هٰذا الكِتَابُ مُسْتَمْسِكُون؟!.

اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ أيضاً عَلَيْهِمْ، إذْ لَمْ يُنْزِلِ اللهُ على رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ

يأمُرُ فِيه أَوْ يَأْذَنُ بِعِبادَةِ غَيْرِه، بَلْ كُلُّ الرُّسُلِ كَانُوا يَأْمُرُونَ أقوامَهُمْ وَأُمَمَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وكانُوا يُبَلِّغُونَ وَعِيدَ اللهِ الشَّدِيدَ بِعَذَابٍ خالدٍ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، لِكُلِّ مُشْرِكٍ يَمُوتُ عَلَىٰ شِرْكِهِ، مِنَ الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، من الإنْسِ أَوِ الجنّ.

وَأَبَانَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ المشْرِكِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ مُسْتَنِدٌ إِلَىٰ مَنْطِقٍ عَقْلِيٍّ أو حِسِّيٍّ مَشْهُود، ولَيْسَ لَدَيْهِم كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ يأمُرهُم فِيهِ أو يأْذَنُ لَهُمْ فيهِ بِعِبَادِةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ، بَلِ التَّعِلَّةُ الَّتِي تَذَرَّعُوا بِهَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا آباءَهُمْ عَلَىٰ مِلَّةِ الشِّرْكِ، فَهُمْ سَائِرُونَ فِي دِينِهِمْ عَلَىٰ آثَارِ آبَائِهِمْ، وهُمْ مُهْتَدُونَ بِهٰذَا الاتِّبَاع التَّقْلِيدِيّ، فقال تَبارَكَ وَتَعالَىٰ:

• ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

الأُمَّة: تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الطَّرِيقَةِ، والملَّةِ، والدِّين، وتأتي بمَعْنَى المجموعَةِ مِنَ النَّاسِ الَّتِي تَجْمَعُها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ أو رَوَابِطُ مُتَمَيِّزَة، والمعنى الأول هُوَ المرادُ هُنَا.

أي: إنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا سَائِرِينَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ومِلَّةٍ وَإِنَّا نَسِيرُ على آثَارِهِمْ، مُقْتَدِينَ بِهِمْ، ونُؤْمِنُ بأَنَّنا مُهْتَدُونَ بهٰذا الاقْتِدَاء.

وبَعْدَ هٰذا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، فَأَبَانَ لَهُ أَنَّ أقْوَامَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِ قَوْمِهِ أهْلِ قَرْيَتِهِ مَكَّةَ، قَالُوا لِرُسُلِهِمْ مُتَذَرِّعِينَ لِتَسْوِيغِ شِرْكِيَّاتِهِم الَّتِي كانُوا عَلَيْها مِثْلَ الَّذِي قَالَهُ مُشْرِكو مَكَّةَ لَهُ، فَذَرِيعَةُ المشْرِكِينَ التَّعَلُّلِيَّةِ قُدَمائِهِمْ وَمَنْ جاؤُوا بَعْدَ الْقُدَمَاءِ السَّابِقِينَ وَاحِدَةٌ، إذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ ما يَتَذَرَّعُونَ بِهِ غَيْرُها، فقال اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾: القريَةُ تُطْلَقُ في اللُّغَةِ علَىٰ كُلِّ أَرْضٍ فِيها بُيُوتٌ ومَسَاكِنُ مُجْتَمِعَةٌ، سواءٌ قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، ولَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جدّاً، ومَعَها مُلْحَقَاتُهَا في الإِدَارةِ والحكم.

• ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾: «مِنْ» زِيدَتْ في المفْعُول بِهِ لتوكيد عُمُومِ النفي. أطْلِقَ لَفْظُ «نَذيرٍ» اعْتِبَاراً بآخِرِ وَظَائِفِ رِسَالَتِه، إذْ هو مُبَلِّغٌ، وَمُعَلِّمٌ، وَمُذَكِّرٌ، ومُبَشِّرٌ، وَنَذِير.

• ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: أي: إلَّا قَالَ كُبَرَاؤُها الْمُوَسَّعُ عَلَيْهِم في الرِّزْقِ والأَمْوَالِ، تَوْسِعَةً جعَلَتْهُمْ ذَوي رَفَاهِيَةٍ زَائِدَةٍ كانُوا بِهَا فِي مُجْتَمِعِهم مُسْتَكْبِرين بَطِرين.

• ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: أي: عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ومِلَّةٍ.

• ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: أي: وَإِنَّا سَائِرُونَ عَلَىٰ آثَارِ مِلَّةِ آبائِنَا، ومُقْتَدُونَ بِهِمْ، ومُهْتَدُونَ فِي مَسِيرَتنا.

جاء في الآية (٢٢) ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ وجاءَ فِي الآية (٢٣) ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ في مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، ليَفْهَمَ المتَدَبِّرُ أَنَّ كُلًّا مِن المشْرِكِينَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ والمشْرِكِين في الأُمَمِ السَّالِفَة، قالُوا: وإِنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، وَمُهْتَدُون، وهٰذا مِنَ الإيجاز في المتناظِرَات.

وَجاء ذِكْرُ المتْرَفِينَ دُونَ الَّذِينَ هُمْ دُونَهُمْ في شَرَائِح المجتمع، لِأَنَّ مَنْ دُونَهُمْ في مُجْتَمَعَاتِهِمْ تَبَعٌ لَهُمْ غَالباً.

وَأَخيراً أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ تَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ تَعْلِيمَ مَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُون وَمُهْتَدُون، وَكَانَ الرَّسُولُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاه، فقال تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ . . ﴿٢٤﴾﴾:

وَفِي القراءَة الأُخْرَىٰ: ﴿**قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ** ...﴾، وفي قراءة أبي جَعْفَر: [**قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ**]:

أي: أَمَرَ اللهُ كُلَّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، أَنْ يَقُولَ هَـٰذَا الْقَوْلَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ سَائِرِ رُسُلِ الله. فَقَالَ كُلُّ رَسُولٍ لِقَوْمِهِ مَا جَاءَ في هـٰذا التعليم.

أي: أَتَسْتَمِرُّونَ مُتَّبِعِينَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، ومُحَافِظِينَ عَلَىٰ تَقْلِيدِهِمْ والسَّيْرِ عَلَىٰ آثَارِهِمْ، ولَوْ جِئْتُكُمْ، ولَوْ جِئْنَاكُم مَعْشَرَ رُسُلِ الله بِأَفْضَلَ هِدَايَةً إِلَىٰ نَجاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ مِنَ الدِّينِ الّذِي وَجَدْتُم عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ.

فَكَانَ جَوَابُ مُتْرَفِي المشركينَ المسْتَكْبِرِينَ مِنْ أَقْوَامِ الرُّسُلِ، مَا أبانَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: قَالَ المشركُونَ الْمُتْرَفُونَ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الإلَـٰهِيَّةِ لِلَّهِ، وجَعْلِ أَحْكَامِ الدِّينِ قَاصِرَةً عَلَىٰ اللهِ الرَّبِّ لَا شَرِيكَ له، إِنَّا بِكُلِّ هَـٰذا كافِرُون، وكافِرُونَ بأَنْبَاءِ الْبَعْثِ ويَوْمِ القيامَةِ، وكافِرُونَ بالجزاء، وَبِكُلِّ مَا تُبَشِّرُونَ بِهِ مِنْ وَعْدٍ في جَنَّاتِ النَّعِيم، وبكُلِّ مَا تُنْذِرونَ بِهِ مِنْ وَعِيدٍ في الجحيم.

كُلُّ هـٰذا وَكُلُّ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لِتُبَلِّغُونا إِيَّاهُ عَنِ اللهِ لَا نُؤْمِنُ به بَلْ نَحْنُ بِهِ كافِرُون.

وَبَعْدَ عَرْضِ حَالِ المشْرِكِينَ السَّابِقِينَ الَّذِين كَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بالتَّعْذِيبِ والإهْلاكِ المسْتأْصِلِ، فقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي فَعَاقَبْنَاهُمْ عَلَىٰ مَا كانَ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ بمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبٍ لَهُمْ، مَع تكذِيبهِم بمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ شَاهِدَاتٍ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ حَقّاً وَصِدْقاً، وبأَنَّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ.

وآيَاتُ هٰذا الانْتِقَام الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ، مَوْجُودَةٌ فِي آثَارِ المهْلَكِينَ السَّابِقين، في أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ بُلْدَانِ الْأُمَمِ السَّالِفَة.

وَلِهٰذا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مُؤَهَّلٍ للنَّظَرِ التَّفَكُّرِي في آثَارِ المهْلَكِينَ السَّابِقِين، بقوله تَعَالَىٰ:

• ﴿.. فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

عَاقِبَةُ عَمَلِ الْعَامِلِ: الجزاء الّذِي يَكُونُ بَعْدَهُ، مُبَاشَرَةً، أَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ.

وبـهـٰذا تَـمَّ تَـدَبُّـر الـدَّرْسِ الـرابـع مـن دُروس سـورة (الـزُّخـرف). والحمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتحه.

(٩)
التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الزّخرف)
الآيات من (٢٦ ـ ٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

(٢٧) • أثبت ياءَ المتكلّم مِنْ: [**سَيَهْدِينِي**] يَعْقوبُ وصْلاً ووقْفاً.

وحَذَفَهَا باقِي القراء العشرة: ﴿**سَيَهْدِينِ**﴾ وصلاً ووَقفاً.

تَمْهيد:

فِي هٰذِهِ الآياتِ مُعالَجَةٌ لمشْرِكِي مَكَّةَ بِشَأْنِ قولِهِم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ بالإشَارَة إلى أَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَجْدٍ دِينيٍّ بَيْنَ قَبائِلِ الْعَرَبِ، سَبَبُهُ جَدُّهم إبْرَاهِيمُ عليه السلام بانِي الكَعْبَةِ هُوَ وَابْنُهُ جَدُّهُمْ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلام.

وقد كَانَ مِنْ شَأْنِ جَدِّهِمْ إبراهِيمَ أَنَّهُ قَال لِأَبِيهِ ولِقَوْمِهِ إنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدونَ مِنْ آلِهَةٍ جَعَلْتُمُوهم شُرَكاءَ للهِ.

فإنْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ عَلَىٰ تَقْلِيدِ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ فَقَلِّدُوا إبراهِيمَ مُؤَسِّسَ أُمَّتِكُمْ فِي مَكَّةَ، وَبَانِيَ كَعْبَتِكُمْ، وَمُعَلِّمَكُمْ عَنْ رَبِّهِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ في أَرْضِكُمْ، وبِسَبَبِهِ اكْتَسَبْتُمْ مَجداً بَيْنَ قَبائِلِ الْعَرَبِ جَمِيعاً، إذْ يَحُجُّونَ إلَىٰ بَلَدِكُمْ، وَيَعْتَبِرُونَكُم أَهْلَ بَيْتِ اللهِ وَحَرَمِهِ الآمِنِ، ومِنْكُم سَدَنَةُ الْبَيْتِ، وأَنْتُمْ سُقَاةُ الْحُجَّاجِ، والْقَائِمُونَ بِمَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ في بَلَدِكُمْ، والشِّرْكُ دَخيلٌ عَلَيْكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ أَصْلِ مِلَّتِكُمْ.

التدبُّر التحليليّ:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾: أي: إنَّنِي بَرِيءٌ. **بَرَاءٌ**: مَصْدَرٌ يُخْبَرُ به، ويُوصَفُ بِهِ، مِثْل «بَرِيء».

الْبَرِيء: هُو الْمُبْتَعِدُ كُلَّ الْبُعْدِ، المطَّهَّرُ غَايَةَ الطَّهَارَة، مِمَّا تَبَرَّأَ مِنْهُ. واسْتَبْرأَ مِنَ النَّجَاسَةِ، أي: تَطَهَّرَ مِنْهَا فأبْعَدَها عَنْهُ كُلَّ الْبُعْد.

والشِّرْكُ مِنْ أشْنَعِ النَّجَاسَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فالمؤْمِنُ الحريصُ علَىٰ نَجَاتِهِ وعلَىٰ فَوْزِهِ بالسَّعَادَة الْأَبَدِيَّة، يَتَبرأُ مِنْ آلِهَةِ الْمُشْرِكِين الَّذِينَ اتَّخذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ كُلَّ الْبُعْدِ، أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَبرِئُ مِنَ النَّجاسَاتِ المادِّيَّة.

﴿إِذْ﴾: ظَرْفُ زَمَانٍ مَعْمُولٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف تَقْدِيرُهُ هُنَا: واذْكُرُوا الْحدَثَ الَّذِي جَرَىٰ يَا أَبْنَاءَ إسْمَاعِيلَ بْنِ إبراهيمَ حِينَ قَالَ إبْرَاهِيمُ جَدُّكُمْ لِأَبِيهِ وَلِقَوْمِهِ إنَّنِي بَرَاءٌ مِنْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ، إلَّا من عِبَادةِ الَّذِي فَطَرَنِي فَخلَقَنِي بَعْدَ أَنْ لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وإِذْ هَداني إلَىٰ الإيمان بِهِ رَبَّاً لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي إلى صِرَاطِ عِبَادَتِي لَهُ، وَإلَىٰ أَعْمَالِ الْعِبادَاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ مِنْ عِبَادِهِ، الْمُبَايِنَةِ لِعبَادَاتِ المشْرِكين لِآلِهَتِهِمْ، الَّتِي اتَّخذُوها مِنْ دُونِ اللهِ زُوراً وَبُهْتَاناً، وافْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ.

وجاء ذِكْرُ ﴿لِأَبِيهِ﴾ قَبْلَ ذِكْرِ ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ مع أنَّهُ مِنْهُمْ، لبيان أَنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، الْتَزَمَ بِتَبليغ وإنْذَارِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِيْن قَبْلَ أَوْ مَعْ تَبْلِيغِ وَإِنْذَارِ سَائِرِ قَوْمِهِ، وهو الْأَمْرُ الَّذِي أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِقَوْلِهِ لَهُ في سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول):

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

● ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾: أي: في ذُرِّيَّتِهِ، **الْعَقِبُ**: يأتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ: وَلَدِ الرَّجُلِ، وَوَلَدِ وَلَدِهِ الْبَاقِينَ بَعْدَهُ، **والولَدُ** في اللُّغة يُطْلَقُ عَلَىٰ الذكَرِ

والْأُنْثَىٰ، والمفْرَدِ والمثَنَّىٰ والجمع، فَتَعْرِيفُ «الْعَقِبِ» بالذُّرِّيَّةِ هُوَ المناسِبُ هُنا، وهُو الأخْصَر.

وَالضَّمِيرُ في: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ هي قَوْلُهُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهـٰذِهِ الْعِبَارَةُ ذَاتُ لَوَازِمَ فِكْرِيَّةٍ، وفي مُقَدِّمَتِهِا الإيمانُ بأَنَّ اللهُ وَاحِدٌ أحَدٌ في رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، وَوَاحِدٌ أَحَدٌ فِي إِلَـٰهِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، فَلَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَـٰهَ في الْوُجُودِ كلّه غَيْرُه، ثُمَّ إِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ الْعِبَادَاتِ، وطاعَتُهُ بِفِعْلِ أوامره، واجْتِنَابِ نَواهيه.

وَيُفْهَمُ من جَعْلِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هـٰذِهِ العبارة كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، أَنَّهُ وَصَّىٰ بِهَا وَبِلَوَازِمِهَا مَنْ كَانَ حَيّاً مِنْ أَوْلَادِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَأَوْصَاهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا وَصِيَّةً يَنْقُلُهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ، رَاجِياً بهـٰذِهِ الْوَصِيَّةِ أَنْ تَرْجِعَ ذُرِّيَّاتُهُ إِلَىٰ تَذَكُّرها جِيلاً بَعْدَ جيلٍ، وأَنْ يَلْتَزِمُوا بِمَضْمُونِها، وَأَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً تَهْدِي إِلَىٰ الرُّجُوعِ إلى مَضْمُونِهَا مَنْ خَرَجَ عَنْ صراطِ اللهِ إِلَىٰ شيءٍ من الشِّرْكِيَّات، أو كبائر الإثم.

وبهـٰذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الخامس من دُروس سورة (الزُّخرف).

والحمد لله على معونتِهِ، ومَدَدِه، وتوفيقه، ومنّته، وفَتْحِه.

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السادس من دُروس سورة (الزّخرف) الآيات من (٢٩ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ

مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

القراءات:

(٣٣) • قرأ ورْشٌ، وأَبُو عمْرو، وحفْص، وأبو جَعْفر، ويعقوب: ﴿**لِبُيُوتِهِمْ**﴾ بِضَمِّ الباء.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**لِبِيُوتِهِمْ**] بِكَسْرِ الباء.

وهما لغتان عَرَبِيّتَان.

(٣٣) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [**سَقْفاً**] بالإفراد، اسْمَ جنْسٍ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**سُقُفاً**﴾ بالجمع.

ومُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحِدٌ.

(٣٤) • قرأ وَرْشٌ، وَأَبُو عَمْرو، وحَفْصٌ، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿**لِبُيُوتِهِمْ**﴾ بضمِّ الباء.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**لِبِيُوتِهِمْ**] **بِكَسْرِ الباء**.

وهما لغتانِ عَرَبِيّتَانِ.

(٣٥) • قرأ عَاصم، وحمزة، وهِشَام بخُلْفٍ عنْهُ، وابنُ جمّاز: ﴿**لَمَّا مَتَاعُ**﴾ بِتَشْدِيدِ الميم مِنْ «لَمَّا» وهي هنا بِمَعْنَىٰ «إِلَّا» حَرْفُ اسْتِثْنَاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَمَا مَتاعُ]** دُون تَشْدِيدِ «الميم» مِنْ «لَمَا» واللام فيها هي اللّام الفارقة، المسْبُوقَةُ بـ«إِنْ» المخفَّفَةُ من الثقيلة، و«مَا» زائدة للتوكيد. والمعنى: وإِنَّ كُلّ ذَلِكَ لَمَتاعُ الحياة الدُّنيا.

تمهيد:

فِي آيَات هـٰذا الدَّرْس مُعَالَجَةٌ لمشركي مكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بِشَأْنِ كُفْرِهِمْ بالقرآن، وادِّعَاءِ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ، واعْتِرَاضِهِمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ علَىٰ محمّد ﷺ، دُونَ أنْ يَنْزِلَ عَلَىٰ رَجُلٍ عظيم فِي مَفَاهِيمِ النَّاسِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ مَكَّةَ أَوِ الطَّائف.

وفِيها بَيَانُ أَنَّ الْوَفْرَةَ الْمَالِيَّةَ، الَّتِي تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عظيماً بَيْنَ النَّاسِ، فِي مَفْهُومَاتِهِم الْقَاصِرَاتِ، لَيْسَتْ في الحقيقة دَلِيلاً علَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُنْزِلَ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ كِتَاباً لِهِدَايَةِ النَّاسِ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْن مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ هم مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بنِ إبراهيمَ عَلَيْهِما السَّلام، والَّذِينَ أَوْصَى إبراهيم أجدادَهُمْ بالمحافَظَةِ علَىٰ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، والْبَرَاءَةِ مِنْ شِرْكِ المشركين، فَلَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ وَصِيَّتِهِ الَّتِي كانَتْ بَاقِيَةً فِيهم، ولَمْ يَرْجِعُوا إلى تَعْلِيمَاتِها في أجيالِهِمُ المتَأَخِّراتِ، ونبَذُوا مَا جَاءَ فيها، وعَبَدُوا الأَوْثَانَ الَّتِي جَلَبَهَا لَهُمْ مِنَ الشَّام «عَمْرو بْنُ لُحَيّ» فَأَمْهَلَهُمُ اللهُ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ، ولَمْ يُعَاقِبْهُمْ، بَلْ مَتَّعَهُمْ في حَيَواتِهِمْ إِلَىٰ آجالِهِم المقدّرَةِ لَهُمْ، حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولَهُ محمّداً فِيهِمْ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ تَجْدِيدَ تَعَالِيم مِلَّةِ إِبْرَاهِيم، ويُنْزِلُ عَلَيْهِ القرآنَ تِباعاً نَجماً بَعْدَ نَجم.

• ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: لَمْ أنْتَقِمْ مِنْهُمْ إذْ أهْمَلَتْ أجْيَالُهُم المُتَأخِّرَةُ وَصِيَّةَ جَدِّهِمْ إبْرَاهِيمَ وَنَبَذُوا الْعَمَلَ بها، بَلْ مَتَّعْتُهُمْ مَتاعَاتِهِمُ المقْسُومَةَ لَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَمْ أُعَاقِبْهُمْ علَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمُ الَّتِي أَدْخَلُوهَا إلَىٰ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، إمْهَالاً لَهُمْ في ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، حتَّىٰ تَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ فِي الشِّرْكِ والجاهِلِيَّاتِ المختَلِفَات، واقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ أُرْسِلَ خاتم المرسَلِينَ محمّداً رَسُولاً مِنْهُم مُبيناً لِلْحَقِّ بِلُغَتِهِمْ، فأبَانَ لَهُمُ الْحَقَّ الَّذِي كَانَ قَدْ وَصَّىٰ بِهِ جَدُّهُمْ إبْرَاهِيمُ أَوَائِلَ أَجْدَادِهِم، وأَوْصَاهُمْ بأَنْ يَتَوَارَثُوهَا جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، وأَنْ يُوصِيَ بِهَا كُلُّ جِيلٍ سَابِقٍ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْأَجْيَالِ.

وَلَمَّا جاءَ قُرَيشاً الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ بِبِعْثَةِ مُحمَّدٍ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ قُرْآنٍ نَجْماً بَعْدَ نَجْمٍ، وأَدْهَشَتْهُمْ بَلَاغَتُهُ وَكَمَالُ بَيَانِهِ، قالُوا: هـٰذَا سِحْرٌ.

وَلَمَّا كَانَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآنُ مُخَالِفاً لِأَهْوَائِهِمْ، وانْطِلَاقِهِمْ فِي فُجُورِهِمْ، ورَغَبَاتِهِمْ في الظلْم والْعُدْوَانِ، والإثْمِ والْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ، قَالُوا: إنَّا بِهِ كَافِرُونَ.

• ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾: أي: جَعَلْتُ هؤلَاءِ الأحْيَاءَ مِنْ قُرَيشٍ وَآبَاءَهُمُ المشركينَ مِثْلَهُمْ، يَنَالُونَ مَا قَسَمْتُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَلَمْ أُهْلِكْهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً مُسْتَأْصِلاً، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةِ الإهْلَاكِ الْعَامّ المسْتَأْصِلِ في الدنيا، أَمَّا كُفْرُهُمْ بالْحَقِّ فَسَوْفَ يَنَالُونَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَة.

• ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: واسْتَمَرَّ إمْدَادِي لَهُمْ بِمَتَاعَاتِهِمْ مِن الحياة الدُّنيا، حَتَّىٰ بَعَثْتُ رَسُولِي مُحمّداً، وَجَاءَهُمُ الْحَقُّ بَلاغاً عَلَىٰ لِسَانِهِ، وَهُوَ مَا سَبَقَ أَنْ أَوْصَىٰ أوائِلَ أَجْدَادِهِمْ بِهِ رَسُولِي إبراهيم بَلَاغاً عَنّي.

• ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: أي: وَحتَّىٰ جاءَهُم رَسُولٌ مُبِينٌ أرْكَانَ الإيمَانِ، وتَعْليمَاتِ الإسْلَام، وَيَتْلو عَلَيْهِمْ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الكِتَابِ الْعَرَبِيّ الْمُبين، وفِيهِ بَيانَاتُ الْحَقِّ الدِّينيِّ الَّذي يجب عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَعْمَلُوا بأَحْكَامِهِ.

• ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أيْ: ولَمَّا جاءَهُمُ الكِتَابُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، بَلاغاً عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مُحمّد ﷺ، وأَدْهَشَتْهُمْ بَلاغَتُهُ وكَمالُ بَيانِهِ، وَعَجزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

• ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾: أي: إنَّ تَأْثِيرَهُ في نُفُوسِهِمْ وَفي قُلُوبِهِمْ وَعقُولِهِمْ نَاتِجٌ عَمَّا اقْتَرَنَ بِهِ مِنْ سِحْرٍ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ بِذَاتِهِ بَيانٌ مِنَ اللهِ عَظِيمٌ مُعْجِزٌ، وَلَيْسَ لِأَنَّ بَلَاغَتَهُ أَسْمَىٰ مِنْ كُلِّ كَلَامٍ بَلِيغٍ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الإنْسُ والْجِنُّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

ولَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا يُخَالِفُ تقالِيدَهُمُ الدِّينِيَّةَ، ويُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَكَثيراً مِنْ مَطَالِبِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا الظَّالِمَةِ الآثِمَةِ الفاجِرَة، أعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بِهِ وَهُمْ يَعْلَمُون أنَّهُ الْحَقُّ، فَقَالوا:

• ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾ وَكُفْرُهُمْ هٰذا كُفْرُ جُحُودٍ لَا كُفْرُ جَهْلٍ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُبيِّنُ دَافِعاً مِنْ دَوَافِعِ كُفْرِهِمْ بالْقُرآن، وهُوَ كِبْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ محمَّداً، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ عَظِيماً مِنْ عُظَمَاءِ أَهْلِ الدُّنيا والمال والجاه، في مَكَّةَ أَوِ الطَّائِفِ هُو الأَحَقُّ بِأَنْ يَخْتَارَهُ اللهُ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِ القرآن:

• ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾:

﴿لَوْلَا﴾: أَدَاة تَحْضِيضٍ بمَعْنَىٰ «هَلَّا».

• ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾: هُمَا مَكَّةُ والطَّائِف.

• ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: أي: عَلَىٰ رَجُلٍ عَظِيمِ الْجَاهِ واسِعِ الْمَالِ، ذي مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ في مَكَّةَ أو الطَّائِف.

جاء عِنْدَ المفسّرين ذِكْرُ بَعْضِ عظماء مَكّة، ومنهم: «الوليدُ بْنُ المغيرة، عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَة» وذِكْرُ بَعْضِ عظماء الطائِف ـ ومِنْهُمْ «عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثقفي ـ عُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلَ الثَّقَفِي ـ حَبِيبُ بْنُ عمْرو الثَّقَفِيّ».

ورَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا جَاءَ في سَفَاهَتِهِم الَّتِي اقْتَرَحُوها عَلَىٰ رَبِّهِمْ، الْقَائِمَةِ عَلَىٰ اعْتِبَارِ السَّعَةِ فِي الْمَالِ، وامْتِلَاكِ زُخْرُفِ الحياةِ الدُّنْيَا، وَاسْتِكْبَارِ الإنْسَانِ فِي مُجْتَمَعِهِ هِي المؤهِّلاتُ لاصْطِفَاءِ اللهِ بَعْضَ عِبَادِهِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وَإِنْزَالِ كِتَابِهِ.

■ فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ خِطاباً لِكُلِّ صَالح للخطاب بأُسْلُوبِ الخطاب الإفراديِّ:

• ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

• ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: عَطَاءَاتُ اللهِ المادِّيَّةُ والمعْنَوِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ وَمِنْ فَضْلِهِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه، وَهُوَ يَقْسِمُ مِنْ فُيُوضِ عَطَاءَاتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، ولَيْسَ لِأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَقْتَرِحَ عَلَىٰ رَبِّهِ مَا يَشَاءُ مِنْ عَطَاءٍ وَمَنْعٍ، وَبَسْطٍ أَوْ تَقْدِيرٍ، وَاصْطِفَاءٍ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، أَوِ الْحِرْمَانِ مِنْ ذَلِكَ، فَاللهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِعِبادِه وَبِصِفَاتِهِمْ وَخَصَائِصِهِمْ، وما هُمْ مُؤَهَّلُونَ لَهُ أوْ لَيْسُوا بِمُؤَهَّلِينَ لَهُ.

• ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم، مُبَيِّناً أَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ الْجَلِيلَةِ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ مَعِيشَتَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَجَعَلَ النَّاسَ الموسَّعَ

عَلَيْهِمْ في الرِّزْقِ عَلَىٰ دَرجاتٍ مُتَفاضِلاتٍ، وجَعَلَ المقدَّرَ عَلَيْهِمْ في الرِّزْقِ على دَرَجات مُتَنازِلَات.

الْمَعِيشَةُ: مَا يُعَاشُ بِهِ، وجَمْعُها «الْمَعَايِش».

• ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾:

أي: ونَحْنُ رَفَعْنَا بَعْضَ النَّاسِ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ في الْهِبَاتِ والْخَصَائِصِ المادّيَّةِ والمعنويَّة، الْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، ومِنْهَا الفِكْرِيَّةُ وَالعقلِيّة، والْخُلُقِيَّة، لِيَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ مُسَخَّراً لِبَعْضٍ بِحَسَبِ خَصَائِصِ كُلٍّ مِنْهُمْ، ويَحْصُلُ بهـٰذا تبادُلُ الخدماتِ، وَتَكَامُلُ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ الحياةِ وَمَعَايِش النَّاسِ.

وَهـٰذا ظَاهِرٌ في كُلِّ صِفَاتِ النّاسِ، في الْقُوىٰ الْجَسَدِيَّة، وفي الْخَصَائِصِ الْفِكْرِيَّة، وفي الْقُدُرَاتِ وإمْكَانَاتِ المهَارَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ، وفي الصِّفَاتِ الْخُلُقِية، وغَيْر ذلِكَ مِنْ صِفَاتٍ وَخَصَائِص يَعْسُرُ إحْصَاؤها.

وبِسَبَبِ هـٰذا ظَهَرَ الْعُلَمَاءُ الْمُبْدِعُونَ، وظَهَرَ المخْتَرِعُونَ، وذَوُو إمْكَانَاتِ الْمَهارَاتِ الصِّنَاعِيَّة، وَمَنْ هُم دُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ دَرَجَةِ الْعُمَّالِ الَّذِينَ لَا يَصْلحُونَ إلَّا لِلْحَمْلِ والنَّقْلِ والْأَعْمَالِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضِ الْقُوىٰ الْجَسَدِيَّة.

سُخْرِيّاً: أَيْ: مُسَخَّراً في حُدُودِ قُدْرَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ ومَهَارَاتِه، ولَا أَرَىٰ مَعْنَى السُّخْرِيَة (أي: الاسْتِهْزَاءِ) مُراداً هُنَا في النَّصّ واللهُ أعلم.

• ﴿.. وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾: أي: ورحْمَةُ رَبِّكَ الْخَاصَّةُ بالاصْطِفَاءِ للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وَإِنْزَالِ الكِتَابِ، الَّتِي يُرِيدُهَا المشركُونَ لِرَجُلٍ عَظِيم مِنْ عُظَمَاءِ مَكَّةَ والطَّائف، هِيَ خَيْرٌ وَأَجَلُّ وأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُ عُظَمَاءُ النَّاسِ مِنْ أَمْوالٍ، وَمَتَاعَاتٍ، وزِينَاتٍ، مِنْ مظاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنيا. وَعَطَاءَاتُ هَـٰذِهِ الرَّحْمَةِ الخاصَّةِ لَا تَكُونُ بِحِكْمَةِ اللهِ إلَّا لِمَنْ هُوَ

مُؤَهَّلٌ لَهَا بِخَصَائِصِهِ الفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، وبِمَا لَدَيْهِ مِنْ خُلُقٍ عَظِيم، وَإِذْعَانٍ لِلْحَقِّ، وَقُدْرَةٍ عَلَىٰ ضَبْطِ نَفْسِهِ عن الْجُنُوح والميْلِ إِلَىٰ مَرَاتِعِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ والشَّهَواتِ، وَلَا يَعْلَمُ مَنْ هُوَ مُؤَهَّلٌ إِلَّا الْعَلِيمُ الخبيرُ بِخَصَائِصِ النفوسِ وخبايَاها، وعَوَاطِفِها، وحَرَكَاتِها الإرادِيَّة، ومَا فيها مِنْ مَطَالِب وَتطَلُّعَاتٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ يَتَقَاتَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَيتَنَافَسُونَ فِيهِ، حَقِيرٌ لا قِيمَةَ لَهُ فِي الحقيقة، ولَوْلا أَنْ يَفْتَتِنَ النَّاسُ ويَكْفُرُوا جَمِيعاً، لَخَصَّ الْكَافِرِينَ بِهِ فَجَعَلَ لَهُمْ أعْظَمَ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعَاتٍ وَمُمْتَلَكَاتٍ وَزيناتٍ وزُخْرُف:

• ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وَلَوْلَا أَنْ يَفْتَتِنَ أَكْثَرُ النَّاسِ بمظَاهِرِ الحياة الدُّنيا وزيناتِها، فَيكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً كَافِرَةً، لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ الْمُمِدِّ بِعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، مِنْ أَقَلِّ مَا يَسُرُّهُمْ مِنْ دُنياهُمْ إِلَىٰ أعْظَمِ مَا يَتَقَاتَلُونَ عَلَيْهِ، وَيَتَنَافَسُونَ فِيه، أَفْخَمَ المظاهِرِ والزِّينَاتِ والمتاعَاتِ، لَكِنْ لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَافْتُتِنُوا فَكَفَرُوا، إِذْ تَدْفَعُهُمْ أهْواؤُهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ وحُبُّهُمْ للتَّفَاخُرِ والتَّكَاثُرِ، فَتُوَجِّهُ إرَادَاتِهِم الحرَّةَ لِطَلَبِ هٰذِهِ المظاهِرِ الْخَادِعَةِ الْفَاتِنَة، وَلَوْ كانَ الكُفْرُ بالرَّحْمٰنِ هُوَ السَّبيلَ الموصِلَ إِلَيْهَا.

ولِهٰذَا لَمْ نَخُصَّ الْكَافِرِينَ بالتَّفْضِيلِ بِمظَاهِرِ الحياة الدُّنيا وزينَاتِها، بَلْ كُلاً نُمِدُّ هٰؤُلاءِ وهٰؤلاءِ مِنْ عَطَاءَاتِنَا مِنَ الدُّنْيَا، بِحَسَبِ حِكْمَتِنَا فِي امْتِحَانِ عِبَادِنَا فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا دَار الابْتِلاء.

• ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: أي: لَجعلْنَا لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بالرَّحْمٰنِ، وخُصَّ هُنَا اسْمُ «الرَّحْمٰنِ» مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ بالذِّكْرِ، لِأَنَّ عَطَاءَاتِ اللهِ في الدُّنيا مِنْ مَتَاعَاتِهَا هِيَ مِنْ تَجلِّيَاتِ اسْمِهِ «الرَّحْمٰن».

• ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾: أي: لَجَعَلْنَا لِبُيُوتِ الَّذِينَ يَكْفُرُون بالرَّحْمٰنِ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ، بَدَلَ الْخَشَبِ والطِّين، أَوْ بَدَلَ الحجَارَةِ والصُّخُورِ، فَالسُّقُفُ مِنَ الْفِضَّةِ مِمَّا يَتَفَاخَرُ بِهِ النَّاسُ فِي بِنَاءِ بُيُوتِهِمْ، لِأَنَّ الْفِضَّةَ غَالِيَةُ الثَّمَنِ بالنِّسْبَةِ إلى الحجارَةِ وكثيرٍ مِنَ المعادِنِ، باسْتِثْنَاءِ الذَّهَبِ الَّذِي هو أنْفَسُ جَوْهراً، وأغْلَىٰ قِيمَةً، لَكِنَّهُ أَقَلُّ وُجُوداً في الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِه.

سُقُفاً: جَمْعُ «سَقْفٍ» وهو البناء الذي يُغَطِّي الْبَيْتَ مِنْ أعْلَاهُ، والمعتَمِدُ على الْجُدْرَان.

• ﴿.. وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: وَلَجَعَلْنَا لَهُمْ مَعَارِجَ مِنْ فِضَّةٍ أيضاً، فَهُمْ عَلَىٰ هٰذِهِ المعارِجِ الفِضّيَّةِ يَرْقَوْنَ ويَصْعَدُونَ إلَىٰ الْغُرَفِ الْعُلْيَا فِي بُيُوتِهِمْ، وَإِلَىٰ أعَالِيهَا وَسُطُوحِها.

يُقَالُ لُغَةً: «ظَهَرَ عَلَىٰ الجِدَارِ أَوِ السَّطْحِ، يَظْهَرُ» أيْ: عَلَاهُ.

الْمَعَارِجُ: أَيْ: المصَاعِدُ، والسَّلَالِمُ، وَنَحْوُهَا، ويُمْكِنُ أَنْ تُطْلَقَ عَلَىٰ المصَاعِدِ الْآلِيَّةِ الكهربَائيّة.

أي: وَمَعَارِجَ مِنْ فِضَّةٍ بالصُّعُودِ عليها يَعْلُونَ، حَتَّىٰ يَظْهَرُوا عَلَىٰ مَا يُرِيدون أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ وَيَعْلُو عَلَيْهِ.

• ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾:

أي: وَلَجَعَلْنَا لِبُيوتِهِمْ أبواباً وسُرُراً مِنْ فِضَّةٍ، ولجعَلْنَاهُم مُرَفَّهِينَ يَتَّكِئُونَ عَلَىٰ سُرُرِهم، وَلَجَعْلَنَا لَهُمْ زُخْرُفاً يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِحُسْنِهِ وَبِمَا فِيهِ مِنْ زِينَاتٍ سَارَّاتٍ للنَّاظِرِين.

السُّرُرُ: جَمْعُ «السَّرِير» وهو المضْجَعُ ذو القوائم الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الْأَرْضِ، ونَحْوُهُ، ويُبْسَطُ عَلَيْهِ الْفِرَاشُ اللَّيِّنُ عَلَىٰ قَدْرِ المسَطَّحِ مِنْهُ.

يَتَّكِئُونَ: أي: يَجْلِسُونَ بتَمكُّنٍ عَلَىٰ السُّرِرِ المَكْسُوَّةِ بالْفُرُشِ الْوَثِيرَةِ، وَيُصَاحِبُ هٰذا الْجُلُوسَ بتمكُّنٍ في الغالِبِ، وضْعُ الْيَدِ أو الْيَدَينِ علَىٰ مَا يَحْملُهُمَا لِلرَّاحَة.

الزُّخْرُف: يُطْلَقُ علَىٰ الزِّينَةِ، وَعَلَىٰ كَمالِ حُسْنِ الشيء، ويُطْلَقُ على الذَّهَبِ. يُقالُ لغة: «زَخْرَفَ الشيْءَ» أي: زَيَّنَهُ وكَمَّلَ حُسْنَه. ومِنْ تَزْيينِ الأشْيَاءِ جَعْلُهَا مِنَ الذَّهب، أَوْ تَغْلِيفُهَا بِالذَّهَبِ، أَوْ تَطْعِيمُها به.

• ﴿..وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ..﴾: أَيْ: وَمَا كُلُّ ذَلِكَ وأشْبَاهُهُ إِلَّا مَتَاعُ الْحَياةِ الدُّنيا، يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقَّتاً في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ، وَهُوَ ضَئِيلُ الْقِيمَةِ، ومَصِيرُهُ إِلَىٰ الْبِلَىٰ والْفَنَاءِ والزَّوَالِ.

المتاع: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقّتاً، ومَصِيرُهُ إلى الفناء والزَّوال، وهو في جَوْهَرِهِ بِمِنْظَارِ الحقيقَةِ ضئيلُ القيمَة.

وسبَقَ تَوجيه قراءَة **[لَمَا]** بفتح الميم دُون تَشْدِيد.

• ﴿..وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: والآخِرَةُ الْعَظِيمَةُ الْخَالِدَةُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، هِيَ عِنْد رَبِّكَ أَيُّها المتَلَقِّي بَيَانَاتِهِ، وَقَدْ جَعَلَها اللهُ جَزَاءَ المؤمِنِينَ المتّقِينَ يَوْمَ الدين.

وبهٰذا تَمَّ تَدبُّرُ الدَّرْسِ السَّادِس من دُروسِ سورة (الزُّخرف). والحمدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١١)
التدبر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الزخرف) الآيات من (٣٦ ـ ٣٩)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي

وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

الْقِراءات:

(٣٦) • قرأ يَعْقُوب: [يُقَيَّضْ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُقَيِّضْ﴾ بضمير المتكلّم العظيم.

وقراءة يَعْقُوبُ تُفْهَمُ عَلَىٰ أَنَّ المقيّضَ هو اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، إذْ هُو وَاضِعُ سُنَنِ كَوْنِهِ العامّة، والمهَيْمِنُ عَلَيْهَا، والمتصّرف بِكُلِّ أَحْدَاثِ كَوْنه.

(٣٧) • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بِفَتْحِ السين.

وقرأهَا بَاقي القراء العشرة: [وَيَحْسِبُونَ] بِكَسْرِ السّين.

والقراءتان لُغَتَان عَرَبِيَّتَان، يُقَالُ لُغَةً: «حَسِبَ الشيءَ كذَا يَحْسَبُهُ، وَيَحْسِبُهُ» أي: ظَنَّهُ، وكُلُّ مَا جَاءَ فِي القرآن مِنْ هٰذا الفِعل فَهُوَ بمعنىٰ الظَّنِّ التوهُّمِيِّ الضّعِيف الَّذِي لَا يَصِحُّ الاعْتِمَادُ عَلَيه.

(٣٨) • قرأ نافع، وابْن كثير، وابْنُ عَامِر، وشعبة، وأبُو جَعْفر: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا]: أي: الَّذِي كانَ يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وقرينُهُ الشيطان.

وقَرَأها باقي القراء العشرة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنا﴾: أي: الَّذِي كان يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحمٰن.

تمهيد:

في آيَات هذا الدَّرسِ بَيَانُ أَنَّ مَنْ يَكُفّ بَصَرَ بَصيرَتِهِ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِ الله، فَمِنْ سُنَّةِ اللهِ في عِبَادِهِ أَنْ يُهَيِّئَ لَهُ قَرِيناً مِنَ الشَّيَاطِينِ يَصُدُّهُ عَنْ

سَبِيلِ اللهِ، ويَكُونُ عِنْدَ لِقَائِهِ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ في مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ نَادِماً.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ في عِبَادِه:

• ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾:

• ﴿وَمَن﴾: الواو حَرْفُ عَطْفِ مَوْضوعٍ على مَوْضوعٍ، وهي مَوْضوعات تَتَعَلَّقُ بالقُرآنِ، الّذي بدأتِ السُّورَةُ بالْحَدِيثِ عَنْه.

و«مَنْ» اسم شرْطٍ جازم.

• ﴿يَعْشُ﴾ فِعْلُ الشَّرْط، وهو مجزومٌ بحَذْفِ حَرْفِ الْعِلَّةِ مِنْ آخِره، يقالُ لُغَةً: «عَشَا، يَعْشُو، عَشْواً» أي: سَاءَ بَصَرُهُ ليلاً. ويقال: «عَشَا، يَعْشُو عَنِ الشَّيْءِ، عَشْواً» أي: أعْرَضَ عَنْهُ وَمَضَىٰ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ، وأفْهَمُ مِنْ إعراضِهِ وانِصرَافه، أنَّهُ غَشَّى عَلَىٰ بَصَرِ بَصِيرَتِه، بِعَمَلٍ إرَادِيٍّ مِنْهُ، فَصَارَ كَالْأَعْشَىٰ، فَلَمْ يَتَدَبَّرْ ذِكْرَ الرَّحْمٰنِ فِي القرآنِ وَغَيْره، وانْطَلَقَ يَتَّبعُ أهْواءَ نَفْسِهِ وشَهَواتِها، وَلَذَّاتِها مِنَ الحياة الدُّنيا.

• ﴿نُقَيِّضْ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[يُقَيِّضْ]** هذا جوابُ الشَّرْطِ مجزومٌ بالسُّكون. ومَعْنَىٰ: «نُقَيِّضْ» نُهَيِّئُ ضِمْنَ سُنَنِنَا السَّبَبِيَّة، الَّتِي تَأْتِي بأسْبَابٍ مِنْ إرَادَاتِ الموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاءِ والامْتِحَان.

• ﴿شَيْطَٰنًا﴾: الشَّيْطَانُ في اللُّغَةِ: كُلُّ عَاتٍ مُتمرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ والإنْسِ والدَّواب، والمراد بالشَّيْطَانِ هُنَا الْعَاتِي المتمرِّدُ مِنَ الْجِن، وقَدْ يَكُونُ مِنَ الإنْسِ أيْضاً.

• ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: **الْقَرِينُ**: المصاحِبُ الملازم، كأنَّهُما مَشْدُودَانِ بِقَرَنٍ، وَهُوَ الحبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِه الأَسِيرُ.

فالمعْنَىٰ: وَمَنْ يَجْعَلْ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ عَلَىٰ بَصَرِ بَصِيرَتِهِ غِشَاوَةً، تَجْعَلُهُ كَليلاً ضعيفاً عَنِ الرُّؤْيَةِ فِي ظُلُمَاتِ أهوائِهِ، فَيُعْرِضُ بَسَببِ ذَلِكَ عَن التَّفَكُّرِ في آيَاتِ الذِّكْرِ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّحْمٰن لِهِدَايَةِ عِبَادِهِ، ويَنْصَرِفُ عَنْ مَوَاطِنِ تَدَبُّرِهَا، مُتَّبِعاً أَهْوَاءَهُ وَشَهواتِهِ ولَذَّاتِهِ مِنْ دُنْيَاه، نُهَيِّئُ لَهُ ضِمْنَ مَجَارِي سُنَنِنَا فِي عِبَادِنا الموضُوعين في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، شَيْطَاناً مِنْ شَيَاطِينِ الجنِّ، وقَدْ يَكُونُ مِنْ شياطِين الإنْسِ أيضاً، فَهُو لَهُ مَصَاحِبٌ مُلَازِمٌ، كَأَنَّهُ مَشْدُودٌ بِهِ بِالْحَبْلِ الّذِي يُشَدُّ بِهِ الْأَسِيرُ، فَيَأْنَسُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِقَرِينِهِ، ويَسْتَمْتِعُ به، وَيَشْتَرِكَانِ في الْبُعْدِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ، وفي الانْغِمَاسِ في مَعْصِيَتِه، وثبت في صحيح مسلم وغيره، أنَّ مع كلِّ إنسان قَرِيناً مِنَ الجنّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ تَأْثِيرِ الْقُرَنَاءِ من الشَّيَاطِين في الَّذِينَ يَعْشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن:

● ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

جَاءَ التَّعْبِيرُ هُنَا عَنْ جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ، الّذِينَ يَكُونُونَ قُرَنَاءَ لِلَّذِينَ يَعْشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، لِلتَّنْوِيعِ فِي الْبَيانِ، ولِتَوْكِيدِ اتّصَافِهِمْ بِصِفَةٍ مُشْتَرَكَةٍ عَامَّة.

وَجَاءَ البيانُ مُؤَكّداً بـ«إنَّ ـ والجملة الإسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة» أي: وإنَّ الْقُرَنَاءَ مِنَ الشَّيَاطِين، لَيَمْنَعُونَ وَيَصْرِفُونَ قُرَنَاءَهُم الَّذِينَ عَشَوْا بإرادَاتِهِم الحرَّةِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، عَن السَّبِيلِ الذي هُو سَبِيلُ اللهِ، الموصِلُ إلى النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

يُقَالُ لُغةً: «صَدَّهُ عَنْ كَذا» أي: مَنَعَهُ وَصَرَفَهُ عَنْهُ.

والْمَصْدُودُونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ يَظُنُّونَ ظَنّاً ضَعِيفاً سَاقِطاً لا قِيمَةَ لَهُ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، إلى مَا يُحَقِّقُ سَعَادَاتِهِمْ.

والسَّبَبُ في تَأَثُّرِهِمْ بهـٰذا الظَّنِّ الضَّعِيفِ التَّوَهّمِيِّ، أَنَّهُ مُقْتَرِنٌ بِمَا يُرْضِي أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وَزِيناتِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ حَالِ مَنْ يَعْشُو عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وَمُنْتَقِلاً إِلَىٰ يَوْمِ القيامَة:

● ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[حَتَّىٰ إِذَا جاءَانا]** أي: مَنْ كَانَ يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وقرِينُهُ الشَّيْطان.

والمعنى: ويَسْتَمِرُّ الَّذِي كانَ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، يَعْشُو عَن تَدَبُّرِ آياتِ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ فِي كِتَابِهِ الْمبين القرآن، مُصَاحِباً قَرِينَهُ الشَّيْطَانَ، ويَحْسَبُ أَنَّهُ مُهْتَدٍ باتِّباعِهِ مَا يُوَسْوِسُ فِي صَدْرِه الشَّيْطان، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ حَيَاةُ امْتِحَانِهِ بالمْوتِ، وَيَلْقَىٰ رَبَّهُ، وَيَعْلَمَ مَصِيرَهُ التَّعِيسَ، وأَنَّهُ كَانَ ضَالاً ضَلَالاً بَعِيداً عَنِ الصِّرَاطِ الْحَقِّ الَّذِي في سُلُوكه النجاةُ، والْفَوْزُ الأَبَدِيُّ بجنَّاتِ النعيم خالِداً فيها أَبَداً، عِنْدَئِذٍ يُعْلِنُ تَحَسُّرَهُ وَنَدَمَهُ وتَفَجُّعَهُ، فَيَقُولُ مُخَاطِباً قَرِينَهُ الشَّيْطان: يَا مَنْ وَسْوَسْتَ إِلَيَّ حَتَّىٰ سَلَكْتُ مَسْلَكَ الْغَوَايَةِ، وتَوَغَّلْتُ فِي سُبُلِ الضَّلالِ، أَتَمَنَّىٰ نَادماً مُتَحَسِّراً لَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدٌ كَبُعْدِ مَا بَيْنَ المشْرِقِ إِلَىٰ الْمغْرِب، ولَمْ تَكُنْ قَرِيناً مُصَاحِباً مُلَازِماً لي، فَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ في الدُّنيا وفي الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي: عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِهِ فِي الْحيَاةِ الدُّنْيا، وذَاقَتْ نَفْسُهُ الْموْتَ، وانْكَشَفَ لَهُ عِنْدَ الموتِ وبَعْدَهُ مَصِيرُهُ الَّذِي هُو صَائِرٌ إِلَيْهِ فِي دَرَكَاتِ جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

ودَلَّت قِرَاءَةُ: **[حَتَّىٰ إِذَا جاءَانا]** بالتَّثْنية، علَىٰ أَنَّ الْقَرِينَ الشَّيْطَانَ يَمُوتُ مَعَ مَوْتِ الكافِرِ الَّذي كان في الحياة الدُّنيا يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ مَجِيئَهُمَا إِلَىٰ رَبِّهِما يَكُونُ بَعْدَ مَوْتِ مَنْ كَانَ يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ

الرَّحْمٰن، فَقَدْ صَحَّ في بَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّ الْإنْسَانَ يُكْشَفُ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، أَوْ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّة، أَمَّا الْكافِرُ فَيكْرَهُ لِقَاءَ اللهِ فَيكْرَهُ اللهُ لِقَاءَه، وأَمَّا المؤمِنُ فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ فيُحِبُّ اللهُ لِقَاءَه.

• ﴿..قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ..﴾:

﴿يَٰلَيۡتَ﴾: لَيْس بَعِيداً أَنْ يَكُونَ حَرْفُ النداء هُنَا «يَا» مُوَجّهاً لِلْقَرِينِ الشَّيْطانِ، والمنادَىٰ مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾.

أَمَّا عِبارَةُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ وأَمْثَالُها فَأَرَىٰ أن «يَا لَيْتَني أَوْ يَالَيْتَنا» هِيَ مِنْ صِيَغِ التّفَجُّعِ، والتَّوَجُّعِ والتَّحَسُّرِ، وحَرْفُ «يَا» يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ حَرْفَ نُدْبَة، أو هو مُسْتَعْمَلٌ بَدَلَ حرف النُّدْبَةِ على سبيلِ الاستعارة.

ويُرَادُ بلفظ [**المشْرِقيْنِ**] المشْرِقُ والمغْرِب، والتثْنِيةُ هِي مِنْ بَابِ تَغْلِيبِ المشْرِقِ عَلَىٰ المغْرِب، لِأَنَّ الشُّرُوق أَحَبُّ مِنَ الْغُرُوب لانْتِشَارِ الضِّياء بَعْدَه، وهو نظير عبارة «الْقَمَرَيْن» أي: الشَّمْس والْقَمَر، وعِبَارة «الأبَوَيْنِ» أي: الأب والأمّ.

وعبارَة «الْأَسْوَدَيْن» أي: التَّمْر والماء، ولِهَذِهِ التَّثْنِية نَظَائِر، كُلُّها مِنْ بَابِ التَّغْلِيب.

المشْرِق: هو المكانُ الَّذِي تُشْرِقُ عِنْدَهُ الشمسُ حِينَ طُلُوعها.

المغْرِب: هو المكان الذي تَغْرُبُ عِنْدَهُ الشَّمْسُ حِينَ أُفُولِها.

• ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾: أيْ: يَالَيْتَهُ كَانَ بَيْنِي وبَيْنَكَ بُعْدٌ كَبُعْدِ المشْرِقِ عَنِ المغْرِب، وبُعْدُ المشْرِقَيْن، هو الْبُعْدُ الخاصُّ بهما. ولفظ «بُعْدَ» مَنْصُوبٌ علَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُشَبَّهٌ به.

• ﴿...فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾: أي: فَبِئْسَ الْقَرِينُ أنْتَ.

«**بِئْسَ**»: فِعْلُ جامِدٌ لإنْشاءِ الذَّمِّ على سَبِيلِ المبالَغَة.

«**الْقَرِينُ**» فاعل «بِئْسَ» والمخصُوصُ بالذَّمّ مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ به، أي: بِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً خِطَابَهُ يَوْمَ الدِّينِ، لِلّذِي كَانُوا يَعْشُونَ فِي حياةِ الامْتِحَانِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، ولِقُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِين:

• ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

فِي هٰذِهِ الآيَةِ انْتِقَالٌ مِنْ خِطَاب المفْرَدِ وَعَوْدٌ إِلَىٰ خِطَابِ جَمَاعَةِ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَعْشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، وجَمَاعَةِ قُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطين:

وَجَاءَ الْبَيَانُ مُقْتَطعاً مِنَ الْحَدَثِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، وكأنَّهُ يَجْرِي الآنَ عِنْدَ التكلُّم به.

والمعْنَىٰ: لَا يُخَفَّفُ عَنْكُمُ الْعَذَابُ مَهمَا دَعَوْتُمْ، ولَنْ يَنْفَعَكُمْ فِي هٰذا الْيَوْمِ الّذِي هُوَ يَوْمُ الدِّينِ الممتدُّ إِلَىٰ الْأَبدِ، إِذْ سَبَقَ أَنْ ظَلَمْتُمْ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفرِ، أَنَّكُمْ مُلْتَصِقُونَ بِقُرَنَائِكُمْ، وَتَنْزِلُ عَلَيْكُمْ وَسَائِلُ تَعْذِيبِكُمْ نَزْلَةً وَاحِدَةً، تَكُونُونَ فِيهَا مُشْتَرِكِين، بَلْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ نَصِيبُهُ الْخَاصُّ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَذُوقُهُ، ولَوْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ أَنَّ قَرِينَهُ مُشارِكٌ لَهُ فِي تَلَقِّي وَسَائِلِ التَّعْذِيب، فالْفَرِيقَانِ فِي عَذَابِ النَّارِ الْمَجْمُوعَانِ فِي قَرَنٍ وَاحِدٍ، يَنَالُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْعَذَابِ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا قَضَىٰ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ، إِنَّ الإحْسَاسَ بالْأَلَمِ يَكُونُ بِحَسَبِ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِيِّ بِهِ، لَا بِحَسَبِ عُنْفِ الْوَسِيلَةِ وشِدَّتها.

﴿إِذ﴾ ظَرْفٌ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَىٰ التعليل، أي: لِأَنَّكُمْ كُنْتم ظلمتم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرْس السابع من دُروس سورة (الزُّخْرُف).

والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١٢)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثامن من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٤٠ ـ ٥٦)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

القراءات:

(٤١) و(٤٢) ● قرأ رُويس: [**نَذْهَبَنْ**] و[**وَنُرِيَنْكَ**] بنونِ التوكيد الخفيفة، وإذا وقف على [**نَذْهَبَنْ**] وقف بالألِفِ على الأَصْل.

وقرأهُما باقي القراء العشرة: ﴿**نَذْهَبَنَّ**﴾ و[**وَنُرِيَنَّكَ**] بنُونِ التوكيد الثقيلة.

(٤٥) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفر: [وَسَلْ].

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [وَاسْأَلْ].

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبيان.

(٤٥) • قَرَأ أبُو عَمْرو: [رُسْلِنَا] بإسْكَانِ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رُسُلِنَا﴾.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبيان.

(٤٨) • قرأ يعقوب: [نُرِيهُم] بضَمّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُرِيهِمْ﴾ بِكَسْرِ الهاء.

وهما وَجْهان عَرَبيان.

(٤٩) • قرأ ابن عامر: [يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ] بضمِّ الهاء وصْلاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ بفَتْحِ الهاء.

(٥١) • قرأ نافع، والْبَزِّي، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جَعْفر: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَ أَفَلَا﴾ بفتح يا المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بِإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(٥٣) • قرأ حَفْص، وَيَعْقُوب: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جِمع «سِوار» وهو الْحِلْيَةُ الَّتِي تُلْبَسُ فِي المِعْصَمِ.

وَقرأها بَاقِي القرَّاءِ العشرة [أَسَاوِرَةٌ] جَمْع «أَسْوِرَة» فهو جَمْعُ جَمْعٍ.

(٥٦) • قرأ حمزة، والكِسَائيّ: [سُلُفاً] بضمّ السِّينِ واللَّامِ، جمْعُ «سَلِيف» وهُو اسْمٌ لِلْفَرِيق الذي مَضَىٰ وَسَلَفَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَلَفاً﴾ جمْعُ «سَالِفٍ» وهُوَ مَنْ يَسْبِقُ غَيْرَه.

ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ وَاحِدٌ.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْس مَا يلي:

(١) التَّيْئِيسُ من إسْمَاعِ الصُّمّ، وَمِنْ هَدَايَةِ الْعُمْي، أي: التَّيْئِيسُ مِنْ تَرقُّبِ اسْتجابَةِ الَّذِين أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَاتُ المتكَرِّرَاتُ، أَنَّهُمْ غَيْرُ مَطْمُوعٍ بإيمانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ، عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الْحُرَّة.

(٢) إِنْذَارُ المَيْؤُوسِ مِنْ إيمانِهِمْ بِأَنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ بَعْدَ وَفَاتِه.

(٣) تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، أَنْ يَسْتَمْسِكَ بمَا أَوْحَىٰ اللهُ إلَيْه، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم.

(٤) بَيَانُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّ الْقُرْآنَ المجيد شَرَفٌ للرَّسُولِ ولقَوْمِه، إذْ أَنْزَلَهُ عَرَبيّاً بِلِسَانِهِمْ.

(٥) أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بأَنْ يَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ مِنْ قَبْلِهِ، أجَعَلَ اللهُ فِي رِسَالَاتِهِمْ إذْناً بِعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ الرَّحْمٰن، والمقْصُودُ بتوجيه هذا الأمْر الشَّاكُّون.

(٦) عَرْضٌ مُوجَزٌ مِنْ رَسَالَةِ مُوسَىٰ عَليه السلام إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، واتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ سَاحِرٌ، فانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ، فَأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِين.

وفي هذا العرض إنْذَارٌ لمشْركي قُرَيشٍ المعانِدِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُمْ لانْتِقَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنادِهِم وَكُفْرِهِم، وتكذيبهِمْ رَسُول رَبّهِم، وَعَلَىٰ تَدْبيراتِهِم لِلْخَلَاصِ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ، ومن الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ عَدَمَ جَدْوَىٰ تَذْكِيرِ الميؤُوسِ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمِ

لدعْوَةِ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إرَادَتِهِم الحرَّةِ بَعْدَ مُعالَجَتِهِمْ الطَّوِيلة، لِأَنَّهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بِمَثابَةِ الصُّمّ الْعُمْي:

• ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾؟:

الخطابُ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ مُوجَّهٌ بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادِيّ للرَّسُولِ ﷺ أَوَّلاً، فَلِكُلِّ صَالِحٍ للخِطَابِ مِنَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَهْتمُّونَ بدعْوَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إلى الدُّخُولِ في دِينِ اللهِ الْحَقّ.

وَفي هذا الْخِطَابِ إشْعَارٌ للجاحِدِينَ المعانِدِينَ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَسْتَجيبُوا للدَّاعي إِلَىٰ الْحَقِّ، بَعْدَ مُعَالَجَاتٍ مختلفاتٍ بأَسَالِيب الإقناع، والجدالِ بالَّتِي هي أحْسَن، والتَّرْغيبِ والتَّرهيبِ، بأَنَّهُمْ بِمَثَابَةِ الصُّمِّ الْعُمْي، المتوغِّلِينَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

والاسْتِفْهَامُ في هـٰذا البيان، فيهِ مَعْنَىٰ الإرْشَادِ إِلَىٰ تَوْجِيهِ جِهَادِ الدَّعْوَةِ لِغَيْرِ الميْؤُوسِ مِن اسْتِجابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة. حرْصاً عَلَىٰ عَدَم إنْفَاقِ طَاقَةِ الْمُجَاهَدَةِ فِيمَا لَا جَدْوَىٰ مِنْهُ، وعَلَىٰ تَوْجِيهِهَا لِلَّذِينَ تُلاحَظُ لَدَيْهِمْ مَخَايِلُ الاسْتِجَابَةِ، أَوْ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ عُولِجُوا بأسَالِيبِ الدَّعْوَةِ عِلَاجاً طَوِيلاً، مُقْنِعاً بأَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

أي: لَا تُحَاوِلْ إسْمَاعَ الصُّمِّ، وَهِدَايَةَ الْعُمْي، وهِدَايَةَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، سَائِرٍ في سُبُلِ الضَّلَالِ بجُحُود ومُكابَرَةٍ وَمُعَانَدَةٍ لِلْحَقّ.

شُبِّهَ الَّذِينَ يُدْبِرُونَ وَيَتَوَلَّوْنَ عَنِ اسْتِماعِ الْبَيَانَاتِ الدَّاعِيَاتِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، بالصُّمّ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ صُمٌّ على سَبِيلِ الاسْتِعَارَة.

وشُبِّهَ الَّذِين يُدْبِرُونَ وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ تَفَهُّم آيَاتِ اللهِ المشْهُودَةِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، بالْعُمْي، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ عُمْيٌ على سَبِيلِ الاسْتعَارَةِ أيضاً.

أمَّا مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَهُوَ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ جاحِدٌ يَعْلَمُ الْحَقَّ، وَيَسِيرُ في طَرِيقِ الباطل عَالماً به، وَيَعْلَمُ صِرَاطَ الْهُدَىٰ، ويَسْلُكُ سُبُلَ الْغَوَايَةِ عَالماً بها، فَهُوَ مِنْ فِئَةِ الْمغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، لَا مِنْ فِئَةِ الصُّمِّ الْعُمْيِ، فَلَا جَدْوَىٰ مِنْ مُعَالَجَتِهِ، إذْ هُوَ في ضَلَالٍ ظاهِرٍ لَهُ كَوْنُهُ ضَلالاً.

الصُّمُّ: جمع «الأصَمّ» وَهُوَ مَنْ لا سَمْعَ له.

الْعُمْيُ: جمع «الْأَعْمَىٰ» وهو مَنَ لَا بَصَرَ لَهُ.

«**مُبِين**»: مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» اللّازم، وهُوَ بمَعْنَى: «ظاهِرٍ وَاضِحٍ» يَقَالُ لُغَة «أَبَانَ الشَّيْءَ فَهُو مُبِينٌ» أي: ظَهَرَ وَوَضَحَ، فَهو ظاهِرٌ واضح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ وَإِسْمَاعاً لِلْمُكابِرِينَ الجاحِدِينَ إبَّانَ التَّنْزيل من مُشْرِكي مَكَّة، ومُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ العظيم:

● ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

● ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

● ﴿فَإِمَّا﴾ الْفَاءُ حَرْف عَطْفٍ. «إِمَّا» أَصْلُها «إِنْ» الشَّرْطِيّة، وَ«مَا» الزَّائِدَة لِتَوْكيد معْنَىٰ الشرط.

● ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فِعلُ الشَّرْطِ مجزوم، وهُوَ مُؤَكَّدٌ بِنُونِ التوكيد الثَّقِيلَة، وفي القراءة الأخرى، مؤكَّدٌ بنونِ التوكيد الْخَفِيفَة.

والمرادُ بالذَّهاب بِهِ وَفَاتُهُ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ من المكابِرينَ المعاندين، الصُّمّ الْعُمْي، والَّذِينَ هُمْ في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

● ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: الْفَاءُ وَاقِعَةٌ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ جوابُ

الشَّرْطِ وَجزاؤُه، ويَجبُ اقترانُ هـٰذا الجواب بالفاء، لِأَنَّ هـٰذِهِ الجملة اسْمِيَّةٌ لَا يَصِحُّ جَعْلُهَا شَرْطاً.

مُنْتَقِمُون: أي: مُعَاقِبُونَ. يُقَالُ لُغَةً: «انْتَقَمَ اللهُ مِنَ المذْنِب» أي: عَاقَبَه. **فالانتقام:** الْعُقُوبَة.

• ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَعَدْنَٰهُمْ﴾: أي: وَعَدْنَاهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابٍ، لِكُفْرِهِم الْعِنَادِيّ الْجُحُودِي، ولِمُعَادَاتِهِمْ لَكَ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ، ومُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَتِك.

الْوَعْدُ: هُوَ الإِخْبَارُ بِمَا تَمَّ الْعَزْمُ عَلَىٰ فِعْلِهِ في المستقبل، يَكُونُ فِي الْخَيْر ويَكُونُ في الشّرّ، يُقال لُغَةً: «وَعَدَهُ بِنَفْعٍ، وَوَعَدَهُ بِضرّ».

أَمَّا الْوَعِيد والإيعادُ فَهُمَا في الشَّرِّ خاصَّةً.

مُقْتَدِرُونَ: أي: شَدِيدُو الْقُدْرَةِ عَلَىٰ الانْتِقَام مِنْهُمْ، وَعَلَى تَنْفِيذِ مَا وَعَدْنَاهُمْ إيَّاهُ مِنْ عُقوبَةٍ مُؤْلِمة. فِعْل: «اقْتَدَرَ» أَبْلَغُ مِنْ فِعْلِ «قَدَرَ» وهُوَ يُلاَئِمُ عَظَمَةَ الْعَظِيم الْقَدِير عَلَىٰ مَا يَشَاءُ.

في هاتين الآيتين تَصَاعُدٌ فِي تَهْدِيد أئمة المشْرِكِينَ فِي مَكَّة عمَّا جَاء (في الآية (٤٦) من سورة يونس/ ٥١ نزول).

المعنى: يُخَاطِبُ اللهُ العظيم الْجَلِيلُ الْمُقْتَدِرُ رَسُولَهُ، فَيُعْلِمُهُ بِشَأْنِ الْمُكَابِرِينَ المعانِدِينَ الْجَاحِدِينَ، بَعْدَ أَنْ أَيْأَسَهُ مِنْ صَلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرادِاتِهم الْحُرَّة، لِسَبْقِ مُعَالَجَتِهِ لَهُمُ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لم تُؤَثِّرْ في اسْتِجَابَتِهِمْ، بِأَنَّهُ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ في الدُّنْيَا فِي حَيَاةِ رَسُولِهِ أَوْ بَعْدَ مَوْتِه.

فإِنْ أَمَاتَهُ قَبْلَ أَنْ يُعاقِبَهُمْ، فَسَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِنْ عَاقَبَهُمْ قَبْلَ مَوْتِهِ فَسَيَرَىٰ تَحْقِيقَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ عِقَابٍ، وهُوَ على إِنْزَالِ عِقَابِهِ فِيهِمْ مُقْتَدِرٌ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

وَقَدْ حقَّقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِقابَ المسْتَهْزِئينَ مِنْهُمْ قَبْلَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ المْدِينَة، فَأَرَاهُ بَعْضَ مَا وَعَدَ بِهِ المكَابِرينَ المعانِدِين الجاحِدِين، وقد سبق بيانهم لدى تدبر الآية (٩٥) من سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول).

وَحَقَّقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِقابَ سَائِرِ المكابرين المعاندين الجاحِدِينَ، بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ المدينَةِ، فَأَرَاهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَا أَنْزَلَ بِسَبْعِينَ عَاتِياً مِنْ عُتَاتِهِمْ، وَجَبَّاراً مِنْ جَبابِرَتِهِمْ، ثُمَّ مَا أَنْزَلَ بأَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلٍ وهَزَائِمَ مُنْكَرَة، حَتَّىٰ فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ مَكَّةَ مُعَزَّزاً مَنْصُوراً.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ:

● ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

مَسْكُ الشيء: القبض عَلَيْهِ باليد، ويأْتي على سبيل الاستعارة للدَّلَالَة عَلَىٰ الْإيمَانِ بِفِكْرَةٍ ما، أَوِ الْعَمَلِ بِمَطْلُوبٍ مَا.

ومَسَّك، واسْتَمْسَكَ: أي: أمْسَكَ بِقُوَّةٍ وشِدَّة.

● ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: أي: أمْسِكْ بِقُوَّةٍ وشِدَّةٍ، مُؤْمِناً وعَامِلاً بِكُلِّ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّك، وفي مُقَدِّمَتِهِ الْقُرْآن.

● ﴿. . . إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: إِنَّكَ بإيمَانِكَ وعَمَلِكَ بالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ تَسِيرُ فِي حَيَاتِكَ على صراطٍ مُسْتَقيم.

الصِّرَاط، والسِّراط: الطريق الواضح. قيل: وسُمِّي سِراطاً لِأَنَّهُ يَسْتَرِط مَنْ يَمُرُّ فيه، أي: يَبْتَلِعُهُمْ بِيُسْرٍ وسُهُولَةٍ دُونَ تَزَاحُمٍ.

والصراط المستقيم: الطريق الواضح الْجَلِيُّ الواسِعُ الْمُمَهَّدُ، الَّذِي لَا عِوَجَ فيه وَلَا مُعْثِرَات.

وأُطْلِقُ فِي الإسْلام على تعليماتِ الحقّ والْعَدْلِ وَمَا يجب فعله وما

يجب تركه، وعَلَىٰ الْبِرّ والإحْسَان والخير، وفضائِلِ السُّلُوكِ ومَكَارِمِ الْأَخلاق.

• ﴿..وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ..﴾: أي: وَإِنَّ الذي أوحِيَ إلَيْكَ وفِي مُقَدِّمَتِهِ القرآن لَذِكْرٌ لَكَ وَلقَوْمِكَ.

الذِّكْرُ: يَأْتي بمَعْنَىٰ حِفْظِ الشَّيْءِ في الذَّاكِرَة، وبِمَعْنَىٰ اسْتِحْضَارِهِ في سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْحاضِرِ، وبِمَعْنَىٰ نُطْقِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامٍ باللِّسَان.

وَيَأْتِي الذِّكْرُ بِمَعْنَىٰ الصِّيتِ الْحَسَنِ الَّذِي يَكْتَسِبُ النَّاسُ بِهِ الشَّرَفَ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهِ.

• ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾: عِبَارَةٌ صَالِحَةٌ لِإرَادَةِ أُمَّةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ كُلُّ المكَلَّفِينَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْي، وأَنْ يَعْمَلُوا بما أمَرَ اللهُ بِه، وأَنْ يَتْرُكُوا مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ في هذا الدِّين الخاتم.

وَكَوْنُ القرآنِ وسَائِرِ مَا أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إلى رسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ ذِكْراً لَهُمْ، هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتبَلَّغُوهُ وَيَفْهَمُوهُ، ويَضَعُوهُ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وَيسْتَدْعُوهُ إلَىٰ ساحَةِ التَّذَكُّرِ الْحَاضِرِ، لِيكُونَ دَافِعاً لِتَحْقِيقِ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْهُمْ فِيه، كلّما دعَت المناسَبَة.

وهِيَ صَالِحَةٌ أَيْضاً لِإِرَادَةِ قَوْمِهِ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ الرَّبَّانِيُّ وفي مُقَدِّمَتِهِ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ، وَهٰذا شَرَفٌ عَظِيمٌ لَهُمْ، وِصيتٌ حَسَنٌ بَيْنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَوْ لا نُزُولُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ المعجزِ، وَسَائِرِ مَا أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إلى رسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ، باللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ صِيتٌ وَشَرَفٌ عَظِيمٌ بَيْنَ أُمَمِ الأَرْضِ الكُبْرى، وَلَمَا كَانَتْ لَهُمْ جامِعَةٌ تَجْمَعُهُم.

وَهذا الشَّرَفُ الْعَظِيمُ يَنْبَغِي أن يَكُونَ دافِعاً لِلْعَرَبِ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وأَنْ يؤْمِنُوا بالْقُرْآنِ، ويَكُونُوا رُسُلَ تَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، لَا

أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُكَذِّبوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فِيما جَاءَ بِهِ عَنْهُ، ويَحْرِمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ المجْدِ الْعِظِيمِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَدْفَعَهُمْ إلى الافْتِخَارِ بِهِ إِذْ أَنْزَلَهُ اللهُ بِلُغَتِهِمْ.

ورُوِي عن ابْنِ عباس في تَفْسِيرِ قَول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أنَّهُ قال: شَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ.

أقول: هذا المعْنَىٰ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ، وقَدْ عَرَفْنا أَنَّ العبارَاتِ الْقُرْآنِيَّة، والْأَلْفَاظ الْقُرْآنِيَّة يُمْكِنُ حَمْلُها علَىٰ مَعْنَيَيْنَ فَأكْثَر، إِذَا كانَتْ مُلَائِمَةً وَلَا تَعارُضَ بَيْنها، وكانَ اللَّفْظُ قابِلاً عَرَبِيّاً للدَّلَالَةِ عَلَيْها، وهذا مِنْ ثَرَاءِ الْإِيجاز القرآني.

وأرَىٰ أَنَّ الخطابَ للرَّسُولِ ﷺ بِقَوْلِ اللهِ تعالى:

- ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾﴾ هُو خِطَابٌ لَهُ باعْتِبَارِهِ رَسُولَ الْأُمَّةِ الْمُمْتَحَنَةِ الْخَاتِمَةِ لِلأُمَم، وبَاعْتِبَارِه قَائِدَها وَقُدْوَتها، والْخِطَابُ لَهُ خِطَابٌ لِكُلِّ أُمَّتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَخِطَابٌ أَيْضاً لِكُلِّ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ مِنْ بَعْدِ بِعْثَتِهِ، إِذْ هُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِه وَأَنْ يَتَّبِعُوه، فَمَا أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، هُوَ مُوحًى بِهِ عِنْ طَرِيقِهِ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ من أُمَّةِ دَعْوَتِه.

فالْعِبَارَة تَتَضَمَّنُ الْمَعْنَىٰ التالي:

يَا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أمَّةِ بَلَاغِ الرسُولِ الْخَاتِمِ لِلْأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِين، اسْتَمْسِكْ بالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رسُولِكَ، إِنَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَذِكْرٌ لَهُ ولِكُلِّ قَوْمِهِ الَّذِينَ أُرْسِل إليهم عَرَبٍ وغَيْر عَرَبٍ إِلَىٰ أَنْ تنتهِي مُدَّةُ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي هـٰذِه الحياة الدُّنيا، أُطْلِقَ عَلَيْهِم أَنَّهُمْ قَوْمُهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُمْ قَوْمُ دَعْوتِهِ، لا قَوْمُ لُغتِه.

دَلَّنِي عَلَىٰ هـٰذا المعنىٰ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في آخِرِ الآيَةِ (٤٤) خِطَاباً لِكُلِّ قَوْمِهِ الَّذِينَ أُرْسِلَ رَسُولاً إليهم وهُمْ النَّاسُ جَمِيعاً، وَالْجِنُّ أيضاً:

﴿... وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: وسَوْفَ تُسْأَلُونَ يَوْمَ القيامَةِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، عَنِ اتِّخَاذِ القرآنِ وسائِرِ ما أَوْحَىٰ اللهُ إلَىٰ رَسُولِهِ ذِكْراً، وعَنِ الاسْتِمْسَاكِ به، والسَّيْرِ في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ علَىٰ صِراطِهِ المستقيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ باعْتِبَارِه رَسُولَ الأمَّةِ الممتَحَنَةِ الْخَاتِمَةِ لِلْأُمَمِ، وباعْتِبَارِهِ قَائِدَهَا وقُدْوَتَها، فَخِطَابُهُ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خِطَابٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِها بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادِيّ:

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

هَـٰذَا الْأَمْرُ صيغَتُهُ عَامَّةٌ مُوَجَّهَةٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفْرادِ أُمَّةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَكِنَّ المقْصُودَ بِهِ مَنْ كَانَ لَدَيْهِ شَكٌّ أوْ تَوَهُّمٌ، باحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرَ اللهُ أَوْ أَذِنَ فِي رِسَالاتِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، أَوْ فِي بَعْضِها، بِعِبَادَةِ مَعْبُودِينَ مِمَّنْ خَلَقَ مِنْ عِبادِه، من مَلائِكَةٍ، أَوْ أَنْبِيَاءَ أَوْ مُرْسلين.

فَإِذَا أَرادَ أَنْ يَدْفَعَ شَكَّهُ أَوْ تَوَهُّمَهُ، فَلْيَسْأَلِ النُّصُوصَ الصَّحِيحَةَ الثابِتَةَ عَنِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ مِن قَبْلِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، فَسُؤَالُ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ عَنْهُمْ هُو بِمَثَابَةِ سُؤَالِهِمْ أَنْفُسِهِمْ.

لَكِنَّهُ لا يُوجَدُ نَصٌّ صَحِيحٌ ثَابِتٌ عَن رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِينَ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ أَذِنَ بِعِبادَةِ أَحدٍ مِنْ دُونِهِ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، واتِّخاذِهِ إلَهاً يُعْبَدُ.

بَلْ كُلُّ رُسُلِ اللهِ كَانُوا يأمُرُونَ أَقْوَامَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

أَمَّا الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ، فإنَّهُ لا يَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَ الرُّسُلَ السَّابقِينَ عَنْ قَضِيَّةٍ مَا أَوْحَىٰ اللهُ بها إِلَيْه، فإيمانُهُ بِمَا يُوْحِي اللهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ أعْلَىٰ مَراتِبِ الإيمانِ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ ما أَوْ تَوَهُّمٌ ما.

ولِكنْ خُوطِبَ الشَّاكُّ مِنْ أُمَّةِ دَعْوَتِهِ، مِنْ خِلَالِ خِطَابِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إذْ هُوَ رَأْسُ هٰـذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ بِعْثَتِهِ، إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ بالنسبة إلى اللهِ، ولَوْ جَحَدَهُ مَنْ جَحَدَهُ مِنْهُمْ، والْخِطَابُ الَّذِي يُرَادُ بِهِ بَعْضُ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ، قَدْ يَحْسُنُ فِي أَسَالِيبِ الْبَيَانِ الْحَكِيمِ تَوْجِيهُهُ لِرَأْسِها، كخطاب رئيس الدَّوْلَةِ والمراد أفرادُ حُكومَّته.

ونَجِدُ نَظِير هذا كثِيراً في أسْفَارِ الْيَهُودِ مِنْ أَهْلِ الكتاب، إذ يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها إسرائيل، وهُوَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام، والْمُرَادُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ بَنِي إِسْرَائيل، ومن أَمْثِلَة هذا:

(١) مَا جَاءَ في الإِصْحَاح الرابع من سِفْرِ التَّثْنِيَة:

«١ ـ فالآنَ يا إِسْرَائِيلُ اسْمَعِ الْفَرائضَ والْأَحْكَامَ.

وجاءَ في هٰذَا السِّفرِ النَّهْيُ الْمُشَدَّدُ عَنْ اتّخَاذِ الْأَوْثَانِ وعِبَادَتِها.

(٢) ومَا جاء في الإصْحَاحِ الخامِسِ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَةِ أَيْضاً خطاباً لإسرائيل:

«٧ ـ لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخرَىٰ أَمَامِي. ٨ ـ لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً صُورَةً مَا مِمَّا في السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا في الْأَرْضِ مِنْ أسْفَلُ ومَا فِي الماء مِنْ تَحْتِ الْأَرْض. ٩ ـ لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ لِأَنّي أنا الرَّبُّ إلٰهُكَ..».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَادئاً بعَرْضٍ موجَز من قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ مع فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، إنْذاراً لِأئِمَّةِ مُشْرِكِي مَكَّة بِأنَّهُم بإصْرَارِهِمْ على الكُفْر، ومُعَاداتِهم رَسُولَ رَبِّهِمْ وَدَعْوَتِهِ، يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعقَابٍ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَا عاقَبَ فِرْعونَ ومَلَأَهُ وجُنُودَهُمْ:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠)﴾.

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٦)﴾:

التوكيد بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ مُوَجَّهٌ للمعنيِّينَ بالْمُعَالَجةِ مِن مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ التنْزيل.

يَتحدَّثُ رَبُّنا بضَمِير المتكلّم العظيم، بِكَلامٍ مُوجَّهٍ للمعالَجين إيَّانَ التَّنْزِيلِ مِنْ مُشْرِكي مَكَّة.

أي: نُؤَكِّدُ لَكُمْ بِعِبَارَةٍ شَدِيدَةِ التوكيد، أنَّنا أَرْسَلْنَا نَبِيَّنَا مُوسَىٰ مَصْحُوباً بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ وَالإعْجَازِيَّةِ، إلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وهم عِلْيَةُ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكُمْ.

الملأ: أشْرَافُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهُمُ الَّذِين يُمْلَؤُونَ عُيُونَ الْعَامَّة.

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾:

أي: فَحِينَ جَاءَهم موسَىٰ بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الدَّاعِيَةِ إلَىٰ دِينِ الله الْحقِّ، ونَبْذِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ وكُفْرِيَّاتٍ، فاجَؤوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالضَّحِكِ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ، إذْ كَانُوا يَعْتَقِدُون أنَّ الدِّينَ الَّذِي هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِهِ دِينٌ حَقٌّ مَوْرُوثٌ عَنْ آبَائِهِمْ بالتقليد لا بحجَّةٍ عقلية.

وَطَلَبَ فِرْعَوْنُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يُقَدِّمَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَرَاهُ آيَتَي الْعَصَا وَالْيَدِ، فَاتَّهَمَهُ بأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَدعَاهُ إلَىٰ مُبَارَاةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كِبَارِ سَحَرَةِ الْمِصْرِيِّين، فنَصَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ

السَّلام، وأَعْلَنَ السَّحَرَةُ إيمَانَهُمْ بموسَىٰ وَهَارُونَ رَسُولَيْنِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكانَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَىٰ تَدبُّر سُورَة (طه/ ٤٥ نزول).

وأجرىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لموسى بقيَّة الآيَاتِ التِّسع: وهي: «الطوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدَّمُ، وسنواتُ الجدْبِ والْقَحطِ، ونقصُ الثَّمرات».

■ وَهُنَا يَظْهَرُ مَوْقِع قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَة (الزُّخرف):

● ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: وَمَا نُرِيهِمْ مِن آيَةٍ إعْجَازِيَّةٍ مِنْ بَقِيَّةِ الآيَات التِّسْعِ الَّتِي آتَيْنَاهَا مُوسَىٰ، إِلَّا هِي أَكْبَرُ مِنْ أخْتِهَا السَّابِقَةِ لَهَا، أخْذاً بِحِكْمَةِ التَّدرُّجِ الارْتِقَائي، فالآيَاتِ الإعْجَازِيَّةُ كَانَتْ أَخَوَاتٍ بمعَنَىٰ متشابهاتٍ، لأنَّها صَادِرَاتٌ مِنْ أَصْلٍ إعْجَازِيٍّ واحِدٍ مُخَالِفٍ للسُّنَنِ المعتادة.

وكَوْنُ اللَّاحِقَةِ أكْبَرَ مِنْ السَّابِقَةِ، قَدْ يَكُونُ مِنْ جِهَةِ اتِّسَاعِ مَدَاهَا، أَوْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهَا.

وفي آخِرِهَا أَخَذَ اللهُ فِرْعَوْنَ وآلَهُ وسَائِرَ الْمِصْرِيِّين بِعَذَابٍ، وجاءت تَسْمِيَةُ هـٰذا العذاب رِجْزاً في الآية (١٣٤) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول)، فَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ هنا في الزّخرف/ ٦٣ نزول):

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: وقَبَضْنَا عَلَيْهِم قبضاً شَدِيداً بِعَذَابِ الرِّجزِ، وكَانَ قَبْضاً مُؤْلِماً لَهُمْ، رغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِمْ إلى أَصْلِ فِطْرَتِهِم الإيمانيَّة، فَيُؤْمِنُوا بموسَىٰ وَهَارُونَ، وَبما جاءَا بِهِ بَلَاغاً عَنَّا، لَكِنَّهُمْ أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ.

● ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ مُصِرِّين على أنَّهُ فِي نظرهم سَاحِرٌ: يَا أَيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لنَا رَبَّكَ بما عَهدَ عِنْدَكَ فإِذَا اسْتَجَابَ رَبُّكَ لَكَ بِدُعَائِكَ فَرفَعَ عَنَّا عَذَابَ الرِّجْسِ فإِنَّنا نَعِدُكَ بأَنْ نكونَ مُهْتَدِينَ بالْإِيمانِ بِكَ نَبِيّاً وَرَسُولاً، وبالإيمان بِمَا جِئْتَنَا بِهِ بَلَاغاً عَنْ رَبّك، وبالإسلام لَكَ، ونُؤكِّدُ لَكَ هذا الْعَهْد.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي: بِلَفْظِ الدُّعَاء الَّذِي عَهِدَ بِهِ إِلَيْكَ وأَوْصَاكَ باسْتِعْمالِهِ لِيُجيبَ دُعَاءَك، وجَعَلَهُ عِنْدَكَ.

يُقَالُ لُغَةً «عَهِدَ فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ بالأَمْرِ»: أي: أَوْصَاهُ بحِفْظِهِ[1].

• ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾: أي: فَلَمَّا أَزَلْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي أَخَذْنَاهُمْ بِهِ أَخْذاً شَدِيداً مُؤلماً، إِذَا هُمْ يُفَاجِئُونَ بِمَا لَا يُتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِ الرأي والْعَقْل، وهُوَ نَكْثُ عُهُودِهِمْ وَأَيْمَانِهِمُ الَّتِي أَقْسَمُوها.

النَّكْثُ: هُو نَقْضُ الْعَهْدِ وعَدَمُ الْوَفَاءِ بِه، مَأخُوذٌ مِنْ نَكْثِ الْحَبْلِ، وَهُوَ نَقْضُهُ بَعْدَ إِبْرَامِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَوْقِفَ فِرْعَوْنَ، بَعْدَ أَنِ اسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَاء مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكَشَفَ مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ مِصْرَ مِنْ عَذَاب.

• ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا

---

(١) انظر تدبر الآية (١٣٤) من سورة (الأعراف/٣٩ نزول:) الصفحات من (٥١٣ ـ ٥١٦) من المجلد الرابع.

ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

• ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾: يظْهَرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ عَلِمَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ بَدؤوا يَتَأَثَّرُونَ بِمُوسَىٰ وَبالآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا الله له، فَحَشَدَ حَشْداً عَاماً كَبِيراً، وَخَطَبَ فِيهِمْ خُطْبَةَ الْعَرْشِ الْفِرْعَوْنِي، فَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِي خُطْبَتِهِ لِتَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وإبْعَادِ تَأَثُّرِ جماهِيرِ قَوْمِهِ بِمُوسَىٰ وبالدِّينِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، وأَرَادَ بِمَكْرِهِ أَنْ يَجْعَلَ خِلَافَهُ مَعَ مُوسَىٰ تَنَافُساً عَلَىٰ الْمُلْكِ، فَحَاوَلَ أَنْ يَسْتَعْطِفَهُمْ لإِخْلَاصِ وَلَائِهِمْ لِمُلْكه وسُلْطَانِهِ فِي مِصْرَ:

(١) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾:

﴿يَٰقَوْمِ﴾ يَسْتَعْطِفُهُمْ بِهذا النِّدَاء بِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ، هو مِصْرِيٌّ وِهُمْ مِصْرِيُونَ، أَمَّا مُوسَىٰ فَهُوَ إِسْرَائِيلِيٌّ مَهَاجِر، ومِنْ قَوْمٍ هُمْ عَبِيدٌ لَكُمْ. وذُكِرَ أَنَّ هٰذا الْمَلِكَ كانَ «منفطاح الثاني» بن «رَعْمَسِيس الثاني».

• ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾: اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ النَّفْي، وَجَوابُهُ: «بَلَىٰ» المثْبِتَةُ أَنَّ لَهُ مُلْكَ مِصْرَ، وأَنَّ الأَنْهَارَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ قَصْرِه الملَكِيِّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قَصْرِه، وَيَظْهَرُ أَنَّها فُرُوعٌ مِنَ النِّيلِ أَجْرَاهَا لَهُ المهندسُونَ والْبَنَّاءُونَ تَحْتَ شُرُفَاتِ قَصْرِهِ.

أي: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ مِيراثاً عَنْ آبَائِي الْمُلُوكِ الْمُؤَيَّدِينَ بالْقُوىٰ الغيبيَّة، فَلَا تَتَأَثَّرُوا بِمَا يُجْرِيهِ مُوسَىٰ مِنْ سِحْرِيَّاتٍ، لِيَنْتَزِعَ الْمُلْكَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقِّ فِيهِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُلُوكٍ عِظَامٍ.

وَمِنْ مَوَارِيثِ مُلْكِي الْعَظِيم قَصْرِي العظيم الَّذِي تَجْرِي الأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ شُرُفَاتِهِ.

• ﴿.. أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾؟: أي: أَفَلَا تُبْصِرُونَ هٰذِهِ الأَدِلَّةَ الملَكِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلَنِي وأُسْرَتِي أَصْحَابَ الْحَقِّ فِي مُلْكِ مِصْرَ، الَّذِي لَا حَقَّ لِأَحَدٍ أَنْ يُنَازِعَنِي فِيهِ، مَهْمَا قَدَّمَ مِنْ سِحْرِيَّاتٍ كَبِيرَاتٍ.

فأوْهَمَ المِصْرِيِّينَ أَنَّ مُوسَىٰ يُرِيدُ انْتِزَاعَ الْمُلْكِ مِنْهُ بأعْمَالِهِ السِّحْرِيَّةِ، وَأَنَّهُ يَتَسَتَّرُ بِدَعْوَةٍ دِينِيَّةٍ إلى مَا يُسَمِّيهِ رَبَّ العالمين.

٢ ـ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

«أمْ» هي المنْقَطِعَةُ لِلْإِضْرَاب، بمعنى: «بل». أي: بل مَا يَدَّعِيهِ مِنْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ هُو ادِّعَاءٌ كَاذِبٌ. كَيْفَ يَكُونُ رَسُول رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنَا بِصِفَاتِي خَيْرٌ مِنْهُ؟!

- ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾: أي: هو حَقِيرٌ ضَعِيفٌ مِنْ قَوْمٍ هُمْ عَبِيدٌ لَكُمْ.
- ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: أي: وفي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ، فَإِذَا نَطَقَ يُرِيدُ التعبيرَ عَنْ مُرَادِهِ تكَلَّم بِكُلْفَةٍ وَصُعُوبَة.

كَادَ: هِيَ بمعنىٰ «قَارَبَ» يُقَالُ لغة: «كَاد فُلَانٌ أَنْ يَعْمَلَ كذا» أيْ: قَارَبَ أَنْ يَعْمَلَهُ. وَظَاهِرُ عِبَارَةِ: مَا كَادَ يَفْعَلُ كذا، هِي بِمَعْنَىٰ: مَا قَارَبَ أَنْ يَفْعَلَهُ، فَهِيَ تَنْفِي مُقَارَبَةَ الْعَمَلِ، لَكِنَّ الاسْتِعْمَالَ جَارٍ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: أَنَّهُ قَارَبَ أَنْ لَا يَفْعَلَ الْفِعْلَ لَكِنَّهُ فَعَلَهُ.

وَالتعبيرُ الْمُلَائِمُ: وَيَكَادُ لَا يُبين، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ جَرَى عَلى أَلْسِنَتِهِمْ للدَّلَالَةِ عَلَى هَـٰذَا الْمَعْنىٰ اسْتِعْمَالُ: وَلَا يَكَادُ يُبيِّن، فَجرَىٰ عَلى وَفْقِهِ الاسْتِعْمَالُ القرآني. ورُبَّمَا كَانَ قَصْدُ فِرْعَوْنَ أَنَّ مُوسىٰ لَا يَقْتَرِبُ مِنَ الْإِبَانَةِ عَنْ مُرَادِهِ فِي الْكَلَامِ بَلْ يَعْجِزُ كلامُهُ عَنْهُ، وَيُقَصِّرُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ الاقْتِرَابِ مِنَ الإِبَانَةِ.

٣ ـ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

«لَوْلَا» حرف تحضيض بمَعْنَىٰ «هَلَّا». «أَسْوِرَة» جمع «سِوار».

أي: فَهَلَّا إِنْ كَانَ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا يَزْعُمُ أَغْنَاهُ فَجعَلَهُ مِنْ ذَوِي الثَّرَاءِ العظيم، بآيَاتٍ بَاهِرَاتٍ مُعْجِزَاتٍ مِنْ عِنْده، وَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسْوِرَةً

مِنْ ذَهَبٍ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا وادَّعَىٰ أَنَّهُ مُبَلِّغُ دِينٍ فَقَطْ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهَلَّا جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ يُبَلِّغُونَ دِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَعَهُ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ فِرْعَوْنَ اعْتَمَدَ أُسْلُوبَ الْمُغَالَطَاتِ فِي إِقْنَاعِ قَوْمِهِ الْمِصْرِيِّينَ بِأَنَّ مُوسَىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ، يَسْعَىٰ إِلى انتزاعِ الْمُلْكِ مِنْ أَصْحَابِهِ الشَّرْعِيِّينَ فِرْعَونَ وَأُسْرَتِهِ مِنْ قَبْلِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ، وَأَنَّ قَضِيَّةَ الدِّينِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ قِنَاعٌ يَسْتَخْفِي بِهِ، وَأَنَّ الخوارِقَ وَالْعَجَائِبَ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ.

وَمِنَ الظَّاهِرَ أَنَّهُ وَجَدَ جَمَاهِيرَ قَوْمِهِ مِنَ المصْرِيِّينَ لَيْسَ لَهُمْ وَزنٌ فِكْرِيٌّ ثَقِيلٌ، يَسْتَطِيعُونَ بِهِ إِدْرَاكَ سَفْسَطَاتِهِ وَمُغَالَطَاتِهِ، وَمِنَ الظَّاهِرِ أَيْضاً أَنَّهُ نَشَرَ أَعْوَانَهُ لِاسْتِرْضَاءِ زُعَمَاءِ قَوْمِهِ بِمَا يُحِبُّونَ مِنْ أَهْوَاءٍ وَشَهَوَات، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ أَنَّهُمْ عَبِيدُ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فَهُمْ يَنْجَذِبُونَ إِلَيْهَا بِخِفَّةٍ، وَيَنْبِذُونَ مَنْطِقَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ والرُّشْدِ وَالْفَضِيلَة.

■ فَجَاءَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً هَـٰذَا الواقِعَ:

● ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: فَعمِلَ فِرْعَوْنُ بِحِيَلِهِ المغَالَطِيَّة، وَوَسَائِلِهِ الإغْرَائِيَّة، الَّتِي جَعَلَ بِهَا قَوْمَهُ غَيْرَ ذَوِي أَوْزَانٍ فِكْرِيَّة، وَغَيْرَ ذَوِي أَوْزَانٍ اتِّئَادِيَّة، تَرَيُّثِية، مُتَأَنِّيَةٍ، تَتَرَبَّصُ حَتَّىٰ تُفَكِّرَ وَتُدْرِكَ غَرَضَ فِرْعَوْنَ مِنْ حِيَلِهِ وَوَسَائِلِه.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فِكْرِيّاً وَنَفْسِيّاً، فَانْجَذَبُوا إِلَيْهِ، فَأَعْلَنُوا طَاعَتَهُمْ لَهُ، طَمَعاً بِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ مُغْرِيَاتٍ، وَفَتَحَ أَبْوَابَ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَأَطْلَقَهُمْ فِي أَوْحَالِ الْفِسْقِ، فَتَبِعُوهُ مُنْطَمِسَةً بَصَائِرُهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِين.

الْفَاسِقُ: هوَ الَّذِي مِنْ عَادَتِهِ الخُرُوج عَنِ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ ورَغَبَاتِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

• ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾: أي: فَحِينَ أَغْضَبُونا، يُقَالُ لغة: «آسَفَهُ» أي: أَغْضَبَهُ.

• ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي: عَاقَبْنَاهُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ وَجَرَائِم.

• ﴿.. فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فَأَغْرَقْنَا فِرْعَوْنَ وآلَهُ وَمَلأَهُ، وَجُنُودَهُم أَجْمَعِينَ عِقَاباً لَهُمْ، وَسَبَقَ بَيَانُ قِصَّةِ إغْرَاقِهِمْ فِي سُورَةِ (الأَعْرَاف/ ٣٩ نزول) وفي سورة (طه/ ٤٥ نزول).

• ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

السَّلَف: جمع «السَّالِفِ» وهُمْ مَنْ تَقَدَّمُوا فِي الأجيال السَّابِقَةِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ذُو أثرٍ مَا، بَلْ هَلَكُوا مَعَ الهالكينَ السَّالِفِينَ.

﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: وَجَعَلْنَاهُمْ فِي ذَاكِرَاتِ تَارِيخ النَّاسِ حَدِيثاً يُمَثَّلُ بِهِ، لِيُقَاسَ عَلَيْهِمْ أَمْثَالَهُمْ فِي الْكُفْرِ والْعِنَادِ وَجُحُودِ الْحَقِّ، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ انْتِقَامٍ مُسْتَأْصِلٍ، فَسُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَة.

فَهُمْ مَثَلٌ مِنَ الأَمْثِلَةِ الْكَثِيرَةِ، لِسُنَّةِ اللهِ فِي عِقَابِهِ الْكَافِرِينَ المعاندين الجاحِدِين، الَّذِينَ بَلَغُوا دَرَكَةَ اسْتِحْقَاقِ عِقَابِ الاسْتِئْصَالِ فِي الحياة الدنيا، والْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامن من دُروس سورة (الزخرف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٣)
التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الزّخرف) الآيَات من (٥٧ ـ ٦٥)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

القراءات:

(٥٧) • قرأ نَافع، وابْنُ عامر، والكِسَائي، وأبو جَعْفر، وخَلَف: **[يَصُدُّونَ]** بضَمِّ الصاد.

وقَرَأها بَاقي الْقُرّاء العشرة: **﴿يَصِدُّونَ﴾** بِكَسْرِ الصاد.

(٦١) • قرأ يَعقوب: **[وَاتَّبِعُونِي]** بِإِثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ والوقف، وكذَلِكَ قرأها أبو عَمْرٍو، وأبو جَعْفَرٍ في الوصل فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿واتَّبِعُونِ﴾** بحَذْف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٦٣) • قرأ يعقوب: **[وَأَطِيعُوني]** بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وأَطِيعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

تمهيد:

في آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ إشَارَةٌ إلىٰ جَدَلٍ جَرَىٰ بشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، مِنْ قِبَلِ بَعْضِ كُفَّارِ قُرَيش، مع رَدِّ اللهِ عَلَيْهِمْ بإثْبَاتِ أَنَّ عيسَىٰ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَنْعَمَ اللهُ عليه.

وفيها بَيَانٌ بِشَأْنِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ زَعَمَتْ بَعْضُ قَبَائِلِ الْعَرَب أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الملائِكَةَ يَسْكُنُونَ الأَرْضَ بَدَلَ النَّاسِ فيها، ولَيْسَ جَعْلُهُمْ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ مُغَيِّراً لِكَوْنِهِمْ عِبادَ اللهِ، فالأَرْضُ والسَّمَاوَاتُ مِلْكٌ للهِ يُسْكِنُ فيهما مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

وفِيهَا بَيَانُ أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ وأَشْرَاطِهَا.

وفيها تَعْلِيمٌ لِلرَّسُول محمّد ﷺ مَا يَقُولُهُ للمشركين الَّذِينَ جَادَلُوا بِشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السلام.

وفيها بَيَانٌ من اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وهُوَ مُوَجَّهٌ من اللهِ مُبَاشَرَةً لِكُلِّ صَالِحٍ لأَنْ يَتَلَقَّىٰ بَيَانَاتٍ مِنَ اللهِ تباركَ وتعالىٰ.

التدبر التحليلي:

■ قول اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ اعْتِرَاضٍ اعْتَرَضَ بِهِ بَعْضُ مُشْرِكي مَكَّةَ، عَلَىٰ فِكْرَةِ كَوْنِ آلِهَةِ المشْرِكِينَ سَوْفَ يَكُونُونَ مَعَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، فقالَ للرَّسُولِ ﷺ: النَّصَارَىٰ يَعْبُدُونَ عِيسَىٰ فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَ عَابِدِيهِ فِي النَّارِ؟:

• ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

وفي القراء الأخرىٰ [**يَصُدُّونَ**] بضمّ الصَّاد.

«**يَصِدّونَ**» بكَسْرِ الصَّادِ وبِضَمِّها مَعْنَاهَا هُنَا يَضِجُّونَ ويَصِيحُونَ فَرِحينَ بِتوجِيهِ هـٰذا الاعْتِرَاضِ للرَّسُولِ ﷺ. قال الكِسَائي، والفرَّاء، والزَّجَاجُ، والأَخْفَشُ: يَصِدُّون، ويَصُدُّونَ، لغتان ومَعْنَاهُمَا يَضِجُّون. وقال الْجَوْهَرِي: «صَدَّ يَصِدُّ صَدِيداً» أي: ضَجَّ.

يَظْهَرُ أَنَّ المشْرِكِينَ سَمِعُوا مِمَّا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ قَبْلَ نُزُول سُورَة (الزُّخرف) قوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (الصَّافات/ ٥٦ نزول):

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾.

فَتوَهَّمُوا مِنْ هـٰذا البيان الرَّبَّانِيّ، أنَّ هـٰذا الْحشْرَ مع السُّؤَال يَقْتَضِي تَعْذِيب الظالِمِينَ مِنْ دركَةِ الكُفْرِ الشِّرْكِيّ، وتَعْذِيبَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فقالَ قَائِلُهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ: هـٰذا عِيسَىٰ يَعْبُدُهُ النَّصَارَىٰ، فَهَلْ هُوَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ مَعَ الَّذِينَ يَعْبُدونه.

ورُبَّما سَمِعُوا مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّ مَعْبُودَاتِ المشْرِكِينَ سَتَكُونُ مَعَهُمْ في جَهنَّم، وهِيَ مَعْبُودَاتُهُمْ مِنَ الأَصْنَام، فَوَجَّهُوا هـٰذا الاعْتراضَ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السّلام.

وَمِنَ الْبَدَهِيِّ أَنَّ اعْتِرَاضَهُمْ سَاقِطٌ لَا قِيمَةَ لَهُ، لأَنَّ لَفْظَ «ما» في عبارة: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ يَنْطبِقُ عَلَىٰ مَا لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا عِلْمَ ويرادُ بِهِ الأَصْنَامُ الَّتِي لَا حَيَاةَ لَهَا ولا إِحْسَاس. ولأنَّ الحشْرَ والسُّؤَالَ قُرْبَ أَبْوَابِ جَهنَّم لَا يَقْتَضِي إِدْخالَ كُلِّ مَنْ حُشِرَ فِي دَارِ الْعَذَابِ، بلْ قَدْ يَكُونُ الحشْرُ والسُّؤَالُ لإِدَانَةِ الْمُجْرِمِينَ بِشَهادَةِ الْمَعْبُودِينَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بِعِبَادَةِ عَابديهِمْ أصلاً، أَوْلم يَكُنْ مِنْهُمْ تَسَبُّبٌ مَا فِي عِبادَتِهِم لَهُمْ، فَلا مَسْؤُولِيَّة عَلَيْهِم.

قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وَحِينَ وَاجَهَكَ بَعْضُ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ بِضَرْبِ مَثَلٍ بِعِيسَىٰ بْنِ مَرْيم، عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي مَعْبُودِي مَنْ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ الله، فَسَوْفَ يَكُونُ مُعَذَّباً مَعَ عَابِدِيه في النَّارِ يَوْمَ القيامَة، أَخْذاً مِنْ قَوْلِكَ: إنَّ الْعَابِدِينَ وَمَا يَعْبُدونَ سَوْفَ يَكُونُونَ مَعَاً فِي النار يَوْمِ القِيامَة، وَرَأَىٰ كُبَرَاءُ مُشْرِكي مَكَّةَ أَنَّ هٰذا الاعْتِرَاض اعْتِراضٌ قَوِيٌّ ضِدَّ أَقْوَالِكَ، ضَجُّوا وَصَاحُوا مُبْتَهِجِينَ مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ مُحَمَّداً لَا يَجِدُ جَواباً عَلَىٰ هٰذا الاعْتِرَاضِ، وكَانَ هٰذا الضَّجيجُ وَالصِّيَاحُ مِنْهُمْ مُفَاجِئاً، فِيهِ إشْعَارُ فَرْحَةٍ بِالانْتِصَار.

• ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ.. ﴿٥٨﴾﴾؟:

أي: إنْ كَانَ عيسَىٰ فِيمَا تَزْعُمُ سَوْفَ يَكُونُ مُعَذَّباً مَعَ عَابِدِيهِ في النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ آلِهَتِنَا الَّتِي نَعْبُدُهَا، والّتي هِيَ مِنَ الحجارَةِ ونَحْوِها مِنْ مَعَادِنِ الأَرْض، فَلَا ضَيْرَ أَنْ نَكُونَ مَعَ آلِهَتنا.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هٰذا تَكْذِيبُ بَيَانَاتِهِ بِشَأْنِ الآخِرَةِ وَدَارَي الجزَاءِ: الجنَّة والنار.

• ﴿..مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ.. ﴿٥٨﴾﴾:

أي: مَا ضَرَبُوا عِيسَىٰ لَكَ مَثَلاً يَشْمَلُهُ أَنَّهُ مَعَ عابِدِيهِ في النارِ يَوْمَ القيامَة، إلّا لِاسْتِدْرَاجِكَ لِمُجادلَتِهِمْ، وهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ سَوَابِقِ مَا نَزَلَ فِي القرآنِ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، ومِنْهُ مَا جاء في سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول) في الآيات من (٢٧ ـ ٣٤).

• ﴿...بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: لَيْسَ مَا قَدَّمُوهُ مِن اعْتِراضٍ أَمْراً صَالِحاً للاعْتِرَاضِ بِهِ مُطْلَقاً، إذ الكَلَامُ يَتَعَلَّقُ بالْمَعْبُودَاتِ الْوَثنيَّةِ وَهِيَ من الحجارَةِ، وذكرَتْ تَحْتَ عُنْوانِ «ما» لَا تَحْتَ عُنْوَانِ «مَنْ».

وَوَقُودُ النَّارِ يَوْمَ القيامَةِ النَّاسُ الْكَافِرُون والحجارَةُ، أَمَّا الْمَعْبُودُونَ الَّذِينَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، فقد يَكُونُونَ في الْفِرْدَوسِ الأَعْلَىٰ مِنْ جَنَّاتِ النّعِيم.

فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ مُطْلقاً فِي الاعْتِرَاضِ الَّذِي قَدَّمَهُ بَعْضُهُمْ، وَضَجَّ بِهِ وَصَاحَ كثير مِنْ أئِمّتِهِمْ، ﴿..بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾: أي: بل هُمْ قَوْمٌ شَدِيدُو الْخُصُومَةِ بالْبَاطِلِ، وهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُون، وإنَّمَا يُخَاصِمُونَ لِمُجَرَّدِ مُضادَّةِ مَنْ يُخَاصِمُونَهُ مَهْمَا كَانَ مَا يَقُولُهُ حَقّاً وَصِدْقاً.

خَصِمُونَ: جَمْعُ «خَصِم» وهو مَنْ كَانَ شَدِيدَ الْخُصومَة والمجادلَة ولَوْ بالباطِلِ ضِدَّ الْحَقّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ رَدّاً عَلَيْهِمْ بِشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: مَا عِيسَىٰ بإلَهٍ، ولَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، ولَمْ نَأْذَنْ لأَحدٍ بِعِبَادَتِهِ، مَا هُوَ إلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِنَا أنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وأنْطَقْنَاهُ وَهُوَ صَبِيٌّ، وآتَيْنَاهُ بَعْضَ آيَاتِنَا، تَصْدِيقاً لَهُ بأنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مِنْ أَنْبِيَائِنَا وَرُسُلِنَا، وَلَا يُجْرِي آيَاتِهِ إلَّا بإذْنِنا، فَنَخْلُقُ لَهُ الآيَةَ الخارقَة.

وَجَعَلْنَاهُ إذْ خَلَقْنَاهُ مِنْ أُمٍّ بِلَا أب، مَثَلاً مِنْ أَمْثِلَةِ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ الْخَلْقِ، دُونَ اتِّخَاذِ الأَسْبَابِ الّتي اعْتَادَ النَّاسُ أَنْ يَشْهَدُوا آثَارَها في المتكَرِّرَاتِ من تَجرِبَاتِهِمْ، ولِيَعْلَمَ بَنُو إسْرَائيل أَنَّنَا إذا أَرَدْنَا شيئاً فإنَّمَا نَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون، فَنَخْلُقُهُ مِن خِلَالِ قَنَوَاتِ الأَسْبَابِ وَمِنْ غَيْرِ اتِّخاذ قَنواتِ الأَسْباب، وذِكْرُ بَني إسْرَائيل لَيْسَ لِقَصْرِ رِسَالَتِهِ عَلَىٰ بَنِي إسْرَائيل، بَلْ لِمُعَالَجَةِ أفْكَارٍ مُخَالَفَةٍ لِهَـٰذِهِ الحقيقة لَدَىٰ بَعْضِ بَنِي إسْرَائيلَ يَتَشَبَّثُ

أَصْحَابُهَا بالأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّة، باعْتِبَارِ أَنَّ مَرْيَمَ أَمَّ عيسَىٰ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهِيَ إِسْرَائِيلِيَّة، فَوِلَادَةُ عيسَىٰ من امْرَأَةٍ منَ الإِسْرَائيليين عَلَىٰ خِلَافِ النِّظَام السَّبَبِيِّ المعتادِ، مَثَلٌ من الأَمْثِلَةِ الَّتِي تَدُلُّهُمْ علَىٰ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنْ قَنواتِ الأَسْبَاب الَّتِي وَضَعَهَا هُو، ومِنْ غَيْرِ اتّخاذِ الأَسْبَابِ، وَلَا سَتْرِ أَفْعَالِهِ بِها، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ اعْتِقَادِ بَعْضِ المشْرِكِينَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، لأَنَّهُ جَعَلَ الملائِكَةَ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ عِنْدَه، قِيل: وهُمْ بَنُو مُلَيح، فَعَالَجَهُمْ بِمَا يَدْفَعُ تَوَهُّمَهُمْ:

● ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿مِنكُم﴾: أي: بَدَلَكُمْ، فمَعْنَىٰ «مِنْ» الجارَّة هُنَا الْبَدَل، وهو أَحَدُ مَعَانِيها.

﴿يَخْلُفُونَ﴾: أي: يَكُونُونَ خَلَفاً لِسُكَّانِ الأَرْض.

المعنىٰ: لَا تَتَوَهَّمُوا أَنَّ إِسْكَانَنَا الْمَلَائِكَةَ في السَّمَاوَاتِ لأَنَّهُمْ بَنَاتُنَا، بَلِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا فِي التَّوْزِيع إِسْكَانَ الْمَلَائِكَةِ في السَّمَاوَات، وَإِسْكَانَ الجنِّ والإِنْسِ في الأَرْض، فالْمَلَائِكَةُ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِنَا إِذْ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا بَدَلَكُمْ مَلَائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَكُمْ وَيَخْلُفُونَ كُلَّ سُكَّانِ الأَرْضِ، فَالأَرْضُ مِثْلُ السَّمَاواتِ صالِحَةٌ لإِسْكانِ الملائِكَةِ فيهَا، كَمَا هِيَ صَالِحَةٌ لإِسْكَانِ الْجنِّ والإنسِ فيها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً حَدِيثَهُ عَنْ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، بَعْدَ دَفْعِ مَفْهُومَاتِ بَعْضِ الْعَرَبِ بِشَأْنِ الْمَلَائِكَةِ إِذْ سَبَقَ الحديثُ في السُّورَةِ عَنِ اتخاذِ بَعْضِ العَرَبِ الملائكَةَ بَنَاتٍ للهِ في الآيَاتِ منْ (١٥ ـ ٢٢).

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

يَظْهَرُ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، مُطَالَبَةُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنْ يَقُولَ مَا جَاءَ فِيهِما مِنْ بَيَانٍ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُعَالَجِينَ في السُّورة، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾:

أَبَانَتْ الأَحاديثُ المتَواتِرَة عَنِ النبيّ ﷺ، أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، سَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ، ويُنْهِي ما قُدِّرَ لَهُ مِنْ حَيَاةٍ فِيها، وَأَنَّ نُزُولَهُ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ وأَشْرَاطِهَا الْقَرِيبَةِ جِدّاً مِنْ قِيَامِهَا.

ومِنْ هَـٰذِهِ الأَحَادِيث، ما رَوَاهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَن سَعِيد بن المسَيّب، عَنْ أَبي هُرَيرَة، أَنَّ النبيّ ﷺ قَال:

«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ٱبْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، ويَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْحَرْبَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أحَدٌ، حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الواحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها».

وَوَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، وعن الْحَسَنِ الْبَصْرِي، وعَنْ قَتَادَة، تَفْسِيرُ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بأَنَّ نُزُولَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ الزَّمَانِ، عِلْمٌ لِبَيَانِ اقْتِرَابِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فإذَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، وحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بالعَدْلِ وَكَسَرَ الصَّلِيبَ، وقَتَلَ الْخِنْزِيرَ، وَوَضَعَ الْحَرْبَ، كَانَ نُزُولُهُ هـٰذا عِلْماً مَشْهُوداً مُفِيداً اقْتِرَابَ قِيام السَّاعَةِ، إِذْ مَعَهُ مِنَ الْقُوَىٰ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالتأييدِ مِنَ اللهِ مَا يُحَقِّقُ نَصْرَ الْحَقِّ الإسْلَامِيّ عَلَىٰ بَاطِلِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ وغَيْرِهِم، يُضَافُ إِلَىٰ هـٰذا مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَمَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ في القرآنِ، وعلىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

• ﴿. . فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا . .﴾: أي: فَلَا تَشُكُّنَّ بِقِيَام السَّاعَةِ، واعْلَمُوا أَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، فَهِيَ آتِيَةٌ لَا مَحالَة، تَبْدأ بإنْهاءِ ظُرُوف الحياةِ الدُّنيا، ثُمَّ تَكُونُ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِيَوْم الدِّين، لِيَوْم الحساب وفَصْلِ القضاء والجزاء.

• ﴿. . وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾: أي: وسِيرُوا عَلَىٰ أَثَرِي،

واقْتَدُوا بِي في اعْتِقَادِكُمْ، وفي أَقْوالِكُمْ، وفي أَعْمَالِكُمْ، وفي أخْلاَقِكُمْ، وَفي كُلِّ مختَلِفَاتِ سُلُوكِكُمْ فِي الحَيَاة، فَأَنَا أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَكُمْ، بِعِنَايَةٍ لِي مِنْ رَبِّكُمْ، وبِمَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَأَمَرَني باتّبَاعِهِ، وبِعِصْمَتِهِ لِي عَمَّا يُنَافِي كَوْنِي أُسْوَةً لَكُمْ مُطَالَبُونَ مِنْهُ باتِّبَاعِي.

وَهـٰذا الَّذِي أُوحِيَ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي الشَّامِلُ لِلْقُرآنِ، ولِغَيْرِهِ مِمَّا عُلِّمْتُهُ عَنْ طَرِيقِ الوحْي، هُوَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا اعْوِجَاجَ فيه وَلَا مُعْثِرات، وهُوَ وَاضِحٌ جَلِيٌّ مَكْشُوفٌ بالأَنْوَارِ الرَّبَّانِية.

هـٰذِهِ الْعِبَارَةُ مُرْتَبِطَةٌ فِكْرِيّاً بالآية (٤٣) من السّورة، وهِيَ قَوْلُ اللهِ لِرَسُولِهِ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

• ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: وَلَا تُمكِّنُوا الشَّيْطَانَ بِوَسَاوِسِهِ مِنْ أنْفُسِكُمْ، حَتَّىٰ يَجْعَلَكُمْ تَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَتُعْرِضُونَ عَنْ سُلُوكِ هـٰذا الصِّرَاطِ المستقيم، فِي حَيَواتِكُمْ، فَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُوصِلُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ العظْمَىٰ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين.

وَاتِّخَاذُ الشَّيْطَانِ وَسَائِلَهُ الإغْوَائِيَّةَ والإغْرَائِيَّة، لِمَنْعِكُمْ عَنْ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، أَوْ لإِخْرَاجِكُمْ مِنْهُ جَذْباً أَوْ تَحْوِيلاً أَوْ دَفْعاً، هُوَ بِسَبَبِ كَوْنِهِ عَدُوّاً لَكُمْ وَاضِحَ الْعَدَاوَة، وَقَدْ ظَهرَتْ عَدَاوَتُه لأَبَوَيْكُم إِذْ وَسْوَسَ لَهُمَا فأَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَعْطَىٰ الْعَهْدَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنْ يُغْوِي ذُرِّيَّاتِهِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلَصِينَ والمخْلِصِينَ، وباعِثُ عَدَاوَتِهِ كِبْرُهُ عن السُّجُودِ لآدَمَ طَاعَةً لأَمْرِ رَبِّهِ، فَجَلَبَ لَهُ هـٰذا الْكِبْرُ حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِ بِالْغَوَايَةِ، فقال لِرَبِّهِ كَمَا جَاءَ في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وَجَنَّدَ إِبْلِيسُ ذُرِّيَّتَهُ لإِغْوَاءِ ذُرِّيَّاتِ آدَمَ، بَعْدَ أَنِ اسْتَوْثَقَ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُ

سَيُنْظِرُهُ حيّاً إلَىٰ قِيَام السَّاعَةِ الّتِي يَكُونُ بِها إنْهاءَ ظُرُوفِ الْحيَاةِ الدُّنيا.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السلام وَبِعْثَتِهِ فِي بَنِي إسْرائيل:

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: وَحِينَ جاءَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيّاً وَرَسُولاً، دَاعِياً إلَىٰ اللهِ في مُجْتَمَع بَنِي إسْرَائيلَ، وَمَصْحُوباً بالْبَيِّنَاتِ الباهراتِ المعجزاتِ الشَّاهِدَاتِ لَهُ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، وصَادِقٌ فِيما يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ لِقَوْمِهِ مِنَ الْيَهُودِ:

(١) ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي: لَمْ آتِكُمْ بِتَشْرِيعَاتٍ جَدِيداتٍ مُخَالِفَاتٍ لِمَا جاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوْرَاةِ، وإنَّمَا جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ فِي السُّلُوك، وفي الأَخْلَاقِ، وَفي الآدَاب، وفي كُلِّيّاتِ الْمَعَارِفِ والمفْهُومَاتِ الدِّينيَّة.

الْحِكْمَةُ تَرْجِعُ إلَىٰ جَذْرَيْن:

الْجَذْرُ الأَوَّلُ: الْحِكْمَةُ فِي الْمَعْرِفَةِ، وتَكُونُ بِمُطَابَقَةِ الْعِلْمِ لِلْوَاقِعِ، أَوْ لأَحْسَنِ وَأَقْوَم صُورَةٍ مُمْكِنَةٍ تَقْتَرِبُ مِنْ مُطَابَقَةِ الْكَمَالِ في الشَّيْءِ.

الجذْرُ الثاني: الْحِكْمَةُ فِي السُّلُوكِ، سواءٌ أَكَانَ خُلُقاً أَمْ عَملاً جَسَدِيّاً، أَمْ تَصَرُّفاً في قَوْلٍ أو حُكْمٍ أو سياسَةٍ أَو إدارَةٍ، أو نحو ذلكَ.

وتَكونُ الْحِكْمَةُ في السُّلُوك باخْتِيَارِ الأحْسَنِ وَالأَفْضَلِ دَواماً، مِمَّا تُوَجِّهُ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي المعرفة، بحَسَب الاسْتِطَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضِمْنَ حُدُودِها.

وَجَاءَ فِي سُورَة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أنَّ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَضَافَ فِكْرَةَ: ﴿.. وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ.. ﴿٥٠﴾﴾

وهُوَ مَا كَانَ قَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ مِنَ الطّيِّبَاتِ عُقُوبَةً لَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمٍ كَانَ مِنْهُمْ.

(٢) ﴿.. وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. ﴿٦٣﴾﴾:

كَانَ الْيَهُودُ قَد اخْتَلَفُوا فِي قَضَايَا كُلِّيَّةٍ كُبْرَىٰ مِنْ قَضَايَا الدِّين، وَاخْتِلَافُهُمْ فِيهَا قَدْ يَكُونُ مِنَ المكَفِّرَاتِ، وقَدْ يَنْشَأُ عَنْهُ اسْتِبَاحَةُ الكَبَائِرِ الكُبْرَىٰ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ وَقَضَايَا دُونَ ذَٰلِكَ، فَاهْتَمَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَيَانِ كُبْرَيَاتِ الْقَضَايا، وَمُجَادَلَةِ رُؤسَاءِ فِرَقِهِمْ فِيمَا انْتَحَلُوهُ مِنْ مَذَاهِبَ، وفِيمَا انْحَرَفُوا فِيهِ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، فَغَضِبُوا مِنْهُ وثارُوا عَلَيْه.

فَدَلَّتْ هـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ اهْتِمَامِهِ عَلَيْهِ السلام بِبَيَانِ كُبْرِيَاتِ الْقَضَايَا الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيها، وابْتَدَعُوا بِهَا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ في دِينِ اللهِ الحقّ، وهـٰذا بَعْضُ الَّذِي كَانُوا فِيه يَخْتَلِفُونَ. أَمَّا الأُمُورُ الصُّغْرَىٰ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيها، فَأَمْرُ تَصْحِيحها سَهْلٌ بَعْدَ تَصْحِيح الكُبْرَيَاتِ، وَقَدْ يَكُونُ الاخْتِلَافُ في بَعْضِها يَعْتَمِدُ عَلَىٰ اجْتِهَادٍ مَأْذُونٍ به شَرْعاً، ولَوْ كانَ الحكْمُ الاجْتِهَادِيُّ فيهَا مُخَالفاً للصَّواب.

(٣) ﴿.. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾: أي: فَاتَّقُوا عُقُوبَاتِ اللهِ علىٰ انْحرافَاتِكُمْ، وعَلَىٰ مُخَالَفَاتِكُمْ لِدِينِ رَبِّكُمْ، وأَطِيعُوني في سُلُوكِ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيم.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾:

وجَدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْيَهُودِيَّ الّذِي نَشَأَ فِيهِ، قَدْ دَخَلَتْهُ انْحِرَافَاتٌ كَثِيراتٌ، شِرْكِيَّاتٌ وَبِدْعِيَّاتٌ فِي دِينِ الله، فَوَجّهَ عِنَايَتَهُ العظْمَىٰ لِدَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِه، فقالَ لَهُمْ: إنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ الرَّبُّ الَّذِي تَجبُ عِبادَتُهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، فاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، واعْمَلُوا بِشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِ دِينِهِ، وَلَا تَفْتَرُوا

علىٰ اللهِ بإصْدَارِ أحْكَامٍ مَا أنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان، وَكَانَ هـٰذا مُوَجَّهاً لِرُؤسَاءِ اليهود الدينيين.

هـٰذا الّذِي أَدْعُوكم إلَيْهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيم، هو صِرَاطُ رَبّكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مُجْتَمَعِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ بَعْدِ الأحْدَاثِ الَّتِي انْتَهَتْ بِرَفْعِهِ إلىٰ السَّماءِ، وادّعَاءِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ عَمِلُوا عَلَىٰ قَتْلِهِ صَلْباً:

• ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فَانْقَسَمَ النَّاسُ إلَىٰ أَحْزَابٍ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَادَاهُ، ومِنْهُمْ مِنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ومِنْهُمْ مِنْ غَلا فيه فَجعَلَهُ إلَهاً عَلَىٰ أَنَّهُ ٱبْنُ اللهِ، أو هو اللهُ بِطَرِيقِ حُلُولِ اللهِ فِيه، أَوْ هُو ثالِثُ ثَلاثَةِ أقَانِيمَ مُتَفَاصِلَة هِيَ بِمَجْمُوعِهَا اللهُ.

• فقالَتِ النِّسْطُورِيّة: عِيسَىٰ ابْن الله.

• وقالَت الْيَعَاقِبة: عِيسَىٰ هُوَ الله، أي: حَلَّتْ بِهِ ذَاتُ اللهِ.

• وقالَت الملْكَانِيَّة، وهُمُ الْكَاثُولِيك: عيسَىٰ ثَالِثُ ثَلاثَةِ أَقَانِيم مُتَفَاصِلَةٍ، هي في مجْمُوعِهَا الله. الأب، والابن، وروح القدس.

• ﴿. فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾: **وَيْلٌ**: كَلِمَةُ عَذَاب.

أي: فعِقَابٌ شَدِيد لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤلَاءِ الأَحْزَابِ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، مِنْ جِنْسِ عَذَابٍ مُؤْلِمٍ لهم يَوْم القيامَة فِي دار العذاب النار.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ التاسِعِ مِنْ دُرُوس سورة (الزُّخرف).

والحَمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وَتوفِيقه، ومِنَّتِهِ وفَتْحِهِ.

(١٤)
التدبّر التّحليلي للدّرس العاشر من دُروس سُورَة (الزّخرف) الآيات من (٦٦ ـ ٧٧)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

القراءات:

(٦٨) • قرأ نافع، وأبُو عمْرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: [**يَا عِبَادِي لَا**] بإثْبَاتِ يَاء المتكلّم سَاكِنَةً في الوصْلِ والْوَقْفِ.

وقرأها شُعْبَةُ بِفَتْحِ يَاءِ الْمُتَكَلِّم وَصْلاً، وَبِإِسْكَانِهَا وَقْفاً.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿**يَا عِبَادِ لَا**﴾ بِحَذْفِ يَاءِ المتكلِّم وصْلاً وَوقْفاً.

(٦٨) • قَرَأ يَعْقُوبُ: [**لَا خَوْفَ**] بِفَتْحِ الفاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**لَا خَوْفٌ**﴾ بِضَمِّ الفاء مَعَ التَّنْوِينِ.

وهُمَا وَجْهَانِ إعرابيَّانِ جائِزَان.

(٧١) • قرأ نَافع، وابْنُ عَامر، وحفْصٌ، وأبو جَعْفر: ﴿**مَا تَشْتَهِيهِ**﴾ بإثباتِ هَاءِ الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مَا تَشْتَهِي**] بِحَذْفِ هَاءِ الضمير.

تمهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا بَعْدُ مِنْ كُفَّارِ مَكَّة، مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغوا مَبْلَغَ الْيَأْسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيق إراداتِهِمُ الْحُرَّة، بأسْلُوب التَّرْغِيب بالثَّوابِ العظيم يَوْم الدِّين، وبالتَّرْهِيبِ مِنَ الْعِقَابِ الْجِسِيمِ في جَهَنَّمَ يَوْم الدِّين.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْيَأْسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ:

• ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

• ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بَتَبَاطُئِهِمْ عَنِ الإيمَانِ والإسْلَام، وَتَأْخِيرِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ؟.

الاستِفْهَامُ في هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ تَلْوِيميٌّ، مَمْزُوجٌ بمَعْنَىٰ الْحَضِّ عَلَىٰ تَرْكِ مَا هُمْ فِيهِ مِن شِرْكٍ وَكُفْرٍ، وَعَلَىٰ الإسْرَاعِ بالإيمان والإسْلَامِ، لحمايَةِ أنْفُسِهِمْ، والْفَوْزِ بالسَّعَادَةِ الأبَدِيَّة.

• ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بِتباطُئِهِمْ إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ الَّتِي تَنْتَهِي بِهَا آجَالُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَنْقَطِعُ بِهَا أَعْمَالُهُمْ، ثُمَّ يَسْتَقْبِلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ سَاعَةَ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، حَيَاةِ الْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء. يدخل في عُمُوم السَّاعَةِ هُنَا سَاعَةُ الموت.

بَغْتَةً: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إِشْعَارٍ سَابق.

• ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: تُبَاغِتُهُمْ سَاعَةُ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وهُمْ لَا يَشْعُرُون، وتُبَاغِتُهُمْ ساعَةُ بَدْءِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ حِينَ يُبْعَثُونَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

الشُّعُورُ: أَدْنَىٰ دَرَجاتِ سُلَّم الإدْرَاكِ بِشَيْءٍ ما، كَإِدْرَاكِ لَمْسِ الشَّعَرِ لَمْساً خَفِيفاً، ونفْيُ الشُّعُور نَفْيٌ لِكُلِّ دَرَجاتِ الإِدْرَاكِ حَتَّىٰ أَدْنَاها.

▪ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً لِلْكَافِرِينَ، أَنَّ الْخُلَّةَ فِي الحياةِ الدُّنْيَا بَيْنَ غَيْرِ المتَّقِين، تَنْقَلِبُ إِلَىٰ عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الدِّين:

• ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾:

الأَخِلَّاء: جَمْعُ «الْخَلِيلِ» وهُوَ الصَّدِيقُ الّذِي تخلَّلَتْ مَوَدَّتُهُ قَلْبَ صَدِيقِهِ، حتّىٰ صَارَ مُدَاخِلاً مُخَالِطاً، يَطَّلِعُ عَلَىٰ بواطِنِه وأَسْرَارِه.

يَوْمَئِذٍ: أي: يَوْم تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ وَيَسْتَمِرُّ يَوْمُ الدِّينِ.

أي: اعْلَمُوا أَيُّهَا الأَخِلَّاءُ المتَعَاوِنُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ بِدِينِ اللهِ الحقِّ الْجَلِيّ، وَمُعَادَاتِهِ وَمُقَاوَمَتِهِ، سَوْفَ تَكُونُونَ يَوْمَ القيامَةِ أَعْدَاءً فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، ولَا يَبْقَىٰ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الأَخِلَّاءِ عَلَىٰ خُلَّتِهِ إِلَّا المؤمِنُونَ المتَّقُونَ، وَذَلِكَ لِيَنْعَمُوا وَيَأْنَسُوا بالصَّدَاقَاتِ الَّتِي كَانَتْ بينَهُمْ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، حينما يَكُونُون مُنَعَّمِينَ في دار النعيم.

وَقَدْ جَاءَ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُ اللهُ بإِدْخَالِهِم في النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، في الآيَةِ (٣٨) من سُورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ .. ۝٣٨﴾ أي: الَّتِي كانَتْ أُخْتَهَا دَاعِيَةً إِلَىٰ الكفر.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِعِبَادِهِ المتَّقِين، بِبَيَانٍ مُسْتَقْطَعٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدّين.

• ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

يُشَرِّفُ اللهُ عزّ وجلّ المؤمنينَ المتَّقِين، فيُنَادِيهِمْ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: يَا عِبادِي، لَا خَوْفٌ مُسَلَّطٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ علىٰ شَيْءٍ فَاتَكُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنيا.

وَأَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ وَصْفَ عِبَادِهِ هؤلاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي الَّذِينَ آمَنُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، بآيَاتِنَا البيانِيَّةِ المنزَّلَة، وآمَنُوا بآياتِنَا الكَوْنِيَّة، وآيَاتِنَا الإعجازِيَّة، وآيَاتِنَا المَذكِّرَةِ، وسَائِرِ آيَاتنا.

وبِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾: أي: وكانُوا مُحَقِّقِينَ إسْلَامَهُمْ لِرَبِّهِمْ.

الْمُسْلِمُ: المنْقَادُ المطِيعُ. يُقَالُ لُغَةً: «أَسْلَمَ يُسْلِمُ إسْلَاماً» أي: انْقَادَ مُطِيعاً.

وَبَعْدَ النِّدَاءِ السَّابِقِ يَدْعُوهُمُ اللهُ إلَىٰ دُخول الجنَّةِ مُكَرَّمِينَ مُحْتَفَىٰ بِهِمْ، فيقولُ لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: أدْخُلُوا الْجَنَّةَ الَّتِي كُنْتُمْ فِي حَياةِ الابْتِلَاءِ وُعِدْتُمْ بِدُخولها خَالِدِينَ مُنَعَّمِينَ، أُدْخُلُوهَا أنْتُمْ وَأَزْواجُكُمُ المؤمِنَاتُ اللَّوَاتِي كُنَّ في الحياة الدُّنْيَا أَزْوَاجَكُمْ، حَالَةَ كَوْنِكُمْ تُحْبَرُونَ سُرُوراً بِمَا تَلْقَوْنَ فيها مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ.

يُقَالُ لِكُلٍّ مِنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ «زَوْج».

تُحْبَرُون: أَيْ: تُسَرُّونَ، وتُنَعَّمُونَ. يُقَالُ لغةً: «حَبَرَهُ، يَحْبُرُهُ، حُبُوراً» أي: سَرَّهُ ونَعَّمَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ بَعْضَ مَظَاهِرِ نَعِيمِهِمُ في الجنَّة:

• ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

• ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾: أي: يَدُورُ عَلَيْهِم الحسْنَاوَاتُ، والوِلْدَانُ المخَلَّدُونَ لِخِدْمَتِهِمْ وَتَقْدِيمِ وَسَائِلِ نَعِيمِهِمْ مِنْ مَطَاعِمَ وَمَشَارِبَ وغَيْرِ ذَلِكَ.

• ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾: أي: بآنِيَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، والذَّهَبُ أَجْمَلُ وأَشْرَفُ المعَادِن.

الصِّحَافُ: جَمْعُ «الصَّحْفَة» وهِي إنَاءٌ مُسْتَدِيرٌ واسِعُ الْفَم، وهي مِنَ القِصَاعِ مَا يُشْبِعُ خَمْسَةَ آكِلِينَ. قَالَ الكِسَائي: أَعْظَمُ القِصَاعِ الْجَفْنَةُ، ثُمَّ الْقَصْعَةُ، وهِيَ تُشْبِعُ عشَرَةً، ثُمَّ الصَّحْفَةُ، وهِي تُشْبِعُ خَمْسَةً، ثُمَّ الْمكيلَة، وهي تُشْبعُ الرَّجُلَيْنِ والثَّلاثَة.

وجاء ذِكرُ «الصِحَاف» كِنَايَةً عَمَّا يُقَدَّمُ فيها مِن طَعَامٍ وفَاكِهَة.

الأكْواب: جَمْعُ «الكُوب» وهو الْقَدَحُ من زُجَاجٍ ونحوه، وهو مُسْتَدِيرُ الرّأس، لَا أُذُنَ لَهُ ولَا عُرْوَة، وهُوَ مِنْ آنِيَةِ الشَّرَاب.

وجاء ذِكْر «الأكْوابِ» كِنَايَةً عَمَّا يُقَدَّمُ فيهَا مِنْ أَشْرِبَةٍ مُتَنَوِّعَة.

• ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: أي: وفي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تُحِبُّهُ الأَنْفُسُ وَتَرْغَبُ فِيهِ، وَكُلَّ مَا تَتَلَذَّذُ بِمُشَاهَدَتِهِ الأَعْيُنُ إذْ تَنْظُرُ إلَيْهِ.

يُقَال لغة: «اشْتَهَى الشَّيْءَ، يَشْتَهِيهِ» أي: اشْتَدَّت رَغْبَتُهُ فِيهِ، وطَلَبُ نَفْسِهِ له.

الشَّهْوَةُ: قُوَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَنْدَفِعُ بِشِدَّةٍ لِنَيْلِ مَا تَرْغَبُ فِيهِ مِنْ تَحْقِيقِ لَذَّاتٍ.

اللَّذَّةُ: إدْرَاكُ الْمُلَائم مِنْ حَيْثُ إنَّهُ مُلَائم، كَطَعْمِ الْحُلْوِ عِنْدَ حَاسَّةِ الذَّوْق. يُقَالُ لُغَةً: «لَذَّهُ الطَّعَامُ مَثَلاً، يَلَذُّهُ، لَذَاذاً، ولَذَاذَة» أيْ: أَحَسَّ بِمُلَائِمٍ سَارٍّ لِمَشَاعِرِهِ، مُثِيرٍ للرَّغْبَةِ في الاسْتِمْرَارِ أَوِ التكرار.

وتَوجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ قَالَ لهم: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ آنِفاً، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وأَنْتُمْ فِي الْجَنَّةِ خَالِدُونَ، بَاقُونَ فِيهَا مُنَعَّمِينَ بَقَاءً أَبَدِيّاً.

■ قَوْلُ الله تَعَالَىٰ يتابعُ بَيانَ تَكْرِيمِهِ لِعِبَادِه المؤمنينَ الْمُسْلِمِينَ وَهمْ فِي أنواع نَعِيمِ الْجَنَّةِ يتقلَّبُون، إِذْ يَقُول لهم:

● ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

أَشَارَ اللهُ عزّ وجلّ إلىٰ الْجَنَّةِ الّتِي يَتَقَلَّبُونَ في نَعِيمِها، باسم الإشارة الموضوعِ في اللُّغَةِ للبَعِيدَةِ، للدَّلالَةِ عَلَىٰ ارْتِفَاعِ قِيمَتِهَا جَوْهراً وَعَطَاءً مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، بِعِبَارَةِ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ وَخاطَبَ بِهَا كُلَّ مُنَعَّمٍ بأسْلُوب الْخِطَابِ الإفرادي، مُتَحَدِّثاً عَنْ كُلِّ المنَعَّمِينَ فِيها.

● ﴿..ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾: أي: الـتـي أُعْطِيتُمُوهَا مِنْ رَبِّكُمْ، عَطَاءً يُشْبِهُ عَطاءَ الْمِيرَاثِ، الَّذِي تَنَالُونَهُ دُونَ بَذْلِ جَهْدٍ مِنْكُمْ. وذلِكَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ تَبْتَغُونَ بِهَا رِضوانَ اللهِ وثَوابَهُ، مَعَ أَنَّ هٰذِهِ الأَعْمَالَ الّتِي كَانَ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَهَا في رِحْلَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيا ابْتغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، لَا تُكَافِئُ بَعْضَ نِعَمِ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِم، فَدُخُولُهُم الْجَنَّةَ، وَنَعِيمُهُمْ فِيهَا خَالِدِينَ، مَحْضُ فَضْلٍ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَثْبَتُوا بِبَعْضِ أَعْمَالِهِمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنَّهُمْ عَبِيدٌ للهِ رَاغِبُونَ فِي طَاعَتِهِ.

● ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

جاء في سورة (مَريم/ ٤٤ نزول) بِشَأْنِ أَهْلِ جَنَّاتِ عَدْن قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿...وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

وَجَاءَ في سُورة (الواقِعَة/ ٤٦ نزول) بِشَأْنِ الْفَاكِهَةِ الَّتِي تُقَدَّمُ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ في الْجَنَّةِ، قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وَنَأْخُذُ مِنْ فَهْم هـٰذِهِ النُّصُوصِ فَهْماً تَكَامُلِيّاً، أَنَّ الرِّزْقَ الغِذَائِيَّ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الإمْدَادِ بالطَّاقَةِ الأَسَاسِيَّة يَأْتِي بُكْرَةً، أي: في وقْتِ الصَّبَاحِ مِنْ أيَّامِ الْجَنَّة، ويأتي عَشِيّاً، أي: فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ مِنْ أيَّامِ الْجَنَّةِ.

أَمَّا الْفَاكِهَةُ فالإمْدَادُ بِهَا دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ، لأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنَعُّمُ الدَّائِمُ بِلَذَّاتِ الأَكْلِ مِنْهَا، علىٰ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَطُعُومِها وَرَوَائِحِها الزَّكِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ لقْطَةً مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمين، بَعْدَ بَيَانِهِ لَقْطَةً مِنْ نَعِيمِ المؤمنِينَ الْمُسْلِمينَ، إتْباعاً للتَّرْغِيبِ بالتَّرْهِيب:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

الْمُجْرِم: هُو في اللُّغَةِ المتَعَدِّي بِذَنْبٍ كبير، وجاء في القرآنِ لفظ «المجرمين» عنواناً مُقَابِلاً للمسْلِمِينَ، وَوَصْفاً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ اللهُ في الدُّنيا، وَوَصْفاً لِلْمُعَذَّبين في النّار، فَيَظْهَرُ أنّ «المجْرِمِينَ» فِي الاصْطِلَاح القرآنيّ هُمْ مُرْتَكِبُو الآثَامِ مِنْ دَرَكَاتِ الكُفْر.

جَهَنَّم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ عزّ وجلّ لِيُعَذِّبَ فِيها الْكَافِرِين والْعُصَاة يَوْمَ الدِّين. ولفظ «جَهَنَّم» مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيث. ويُقَالُ لُغَةً للقَعْرِ الْبَعِيدِ «جَهَنّم».

الْخُلُود: اسْتُعْمِلَ فِي الاصْطِلاحِ القرآني بمَعْنَىٰ الدَّوامِ بلَا نِهَايَة.

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُم: أي: لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ شِدَّتِهِ وَحَرَارَتِهِ المؤلِمة، يُقَالُ لُغَةً: «فَتَّرَ فُلَانٌ الشَّيْءَ الْحَارَّ أَو الْعَذَابَ الْمؤلِمَ، يُفَتِّرُهُ» أي: خَفَّفَهُ، وَجَعَلَهُ فَاتِراً غَيْرَ شَدِيدِ الحرارة.

• ﴿مُبۡلِسُونَ﴾: أي: سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ.

• ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾: رَئِيسُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

• ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾: أي: اسْأَلِ اللهَ رَبَّكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا بالموت.

• ﴿مَّٰكِثُونَ﴾: أي: بَاقُونَ تَنْتَظِرُونَ نِهَايَةً لَنْ تَحْصُلَ لَكُمْ، المكْثُ: الانْتِظَارُ.

المعنىٰ: إنَّ الْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، مُسْتَقِرُّونَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، وهُمْ فِيهَا خَالِدُون أبداً، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِها، وهُمْ فيها سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ.

• ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾: أي: بهٰذا الْخُلُودِ في الْعَذَاب الأَلِيم، بَلْ أَجْرَيْنَا عَلَيْهِم مَا سَبَقَ أَنْ رَتَّبْنَاهُ فِي نِظَامِ كَوْنِنا، وَفِي نِظَامِ الابْتِلَاءِ وَالْجَزَاء.

• ﴿.. وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾: أي: وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ، إِذْ أَعْلَمْنَاهُمْ بِعَاقِبَةِ الكُفْرِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، بوسائِلِ تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِيني، فَكَذَّبُوا بِمَا أَعْلَمْنَاهُمْ به، وآثَرُوا الحياة الدُّنيا علىٰ الآخِرَة، وَعَادَوا الحقَّ الرَّبَّانِيَّ والدُّعَاةَ إِلَيْهِ، وَعَمِلُوا بِكُلِّ وسائِلِهِمْ لِطَمْسِ الحقِّ، والتخلُّصِ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَيْهِ، فَكَانُوا هُمُ المتَسَبِّبِينَ لأَنْفُسِهِمْ بأَنْ يَكُونُوا خالِدِينَ في عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

وَكَانَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَنْ عَلِمَ أَنَّ النَّارَ مُحْرِقَةٌ، وَهُوَ في الحياة الدُّنْيَا، فَقَذَفَ نَفْسَهُ فِيها، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِالْحَرِيقِ بِكَسْبٍ مِنْ إِرادَتِه، وهُوَ الظَّالِمُ لِنَفْسِه.

وكَمَثَلِ مَنِ اشْتَهىٰ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بالطَّيَرانِ الْحُرِّ، فَقَذَفَ نَفْسَهُ مِنَ الطَّائِرَةِ إِلَىٰ الْجَوِّ، دُونَ أَنْ يَقِيَ نَفْسَهُ بِمِظَلَّةٍ أَوْ بأَداةٍ تَحْمِلُهُ بِخِفَّةٍ إِذَا اقْتَرَبَ مِنَ الأَرْضِ، وَتَرَكَ جِسْمَهُ يَصْطَدِمُ بِصُخُورِ الأَرْضِ وأَشْوَاكِهَا، فَهُوَ الَّذِي ظَلَمَ

نَفْسَهُ بِمَا لَاقَىٰ مِنْ عَذَابٍ وآلَامٍ، وكُلُّ ذَلِكَ ضِمْنَ نِظَامِ اللهِ في كَوْنِهِ.

وَمَنِ اخْتَارَ سَبِيلاً مُنْكَراً فَلْيُلَاقِ الْعَاقِبَاتِ المؤلِمَاتِ
إِنَّهُ الظَّالِمُ فِيمَا قَدْ جَنَىٰ مِنْ عِقَابٍ دَسَّهُ في الدَّرَكَاتِ

• ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

مَشْهَدٌ مُسْتَقْطَعٌ مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ مِنْ قِبَلِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِمْ زَمَنٌ مَدِيدٌ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ.

يُحَاوِلُ الْمُجْرِمُونَ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ أَنْ يَتَوَسَّطَ لَهُمْ مَالِكٌ رَئِيسُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ عِنْدَ رَبِّهِ بِأَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ بالْمَوتِ، ويُرِيحَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيه مِنْ عذابٍ.

فَيَقُولُ لَهُمْ «مَالِكٌ»: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ، أي: إِنَّكُمْ بَاقُونَ تَنْتَظِرُونَ نِهَايَةً لَنْ تَحْصُلَ لَكُمْ، لَقَدْ ذُبِحَ الموْتُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ قَبْلَ دُخُولِهِمْ دَارَ العذاب.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ العاشِرِ مِنْ دُرُوس سورة (الزّخرف).

وَالحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونته، وَمَدَدِه، وَتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتْحِهِ.

(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٧٨ ـ ٨٠)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

القراءات:

(٨٠) • قرأ ٱبْنُ عَامر، وعاصِم، وحمزة، وَأبُو جعفر: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ بِفَتْحِ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَحْسِبُونَ] بكَسْرِ السّين.

وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبيّتَان.

(٨٠) • قرأ أبو عمرو: [وَرُسْلُنَا] بإسْكَانِ السّين.

وقَرَأهَا بَاقِي القُرَّاءِ العشرة: ﴿وَرُسُلُنَا﴾ بِضَمّ السّين.

وهُمَا وَجْهَانِ عَربيّان.

(٨٠) • قرأ حمزة، ويَعْقُوب: [لَدَيْهُمْ] بِضَمّ هَاءِ الضّمِير.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿لَدَيْهِمْ﴾ بِكَسْرِ هاءِ الضّمِير.

وهُمَا وَجْهَانِ عَربِّيان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدّرْسِ بَيَانُ وَاقِعِ حَالِ مَجْمُوعِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ مُشْرِكي مَكَّة، مَعَ إعْلَامِهِمْ بأنَّ كُلَّ مَا يُبْرِمُونَهُ مِنْ أَمْرٍ مَعْلُومٌ للهِ عزّ وجلّ، وَأَنَّ الله يُبْرِمُ ضِدَّهُمْ مَا يُعَاقِبُهُمْ بِهِ، إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ وكُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ إليهم.

وفِيها إعْلَامُهُم بأنَّ الله سَمِيعٌ لِكُلِّ مَا يَتَسَارُّونَ بِهِ، وَسَمِيعٌ لكلّ مَا يَتَنَاجَوْنَ به.

التدبّر التحليلي:

■ الْتَفَتَ الخطابُ الرَّبَّانيِّ مِنْ بَيَانَاتٍ تَرْغِيبيَّةٍ وتَرْهِيبيَّة جاءت في الدَّرْسِ السَّابِق، إِلَىٰ مُخَاطَبَةِ الْمُعَالَجِينَ في السُّورة مِنْ مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ بِضَمِيرِ المتكلّمِ العظيم:

● ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾:

أي: لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِمَا بَلَّغَكُمْ إِيَّاهُ رَسُولُنَا فِي القرآن وفي غَيْرِه بالْحَقِّ الثَّابِتِ، مِنْ قَضَايَا الإيمان، وقَضَايَا السُّلُوكِ الْجَسَدِي والنفسيّ والْفِكْرِي، وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ، والتَّمَسُّكِ به، والْتِزَامِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيم، ولَكِنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا بَعْدَ مُعَالَجَةٍ طَوِيلَةٍ عَالَجْنَاكُمْ بِهَا بِالْإِقْنَاعِ وَبِالتَّرْغِيبِ، وَبِالتَّرْهِيبِ وَبِالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، لِمَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ، وَالسَّبَبُ في عَدَمِ اسْتِجَابَتِكُمْ أَنّ أَكْثَرَكُمْ يَكْرَهُونَ الحقَّ الَّذِي جِئْنَاكُمْ بِهِ، ودَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ، وَفِيكُمْ مَنْ لَا يَكْرَهُونَ هٰذا الْحَقَّ، إِلَّا أَنَّهُمْ مُتَأَثِّرُونَ بِقَادَتِهِمْ، وبِغَوْغَائِيَّةِ جَمَاهِيرِ أَتْبَاعِ قَادَةِ مُجْتَمَعِهِمْ.

أَمَّا الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ، فَكَرَاهِيَتُهُمْ لَهُ إِنَّمَا هِي بِسَبَبِ أَنَّ الْتِزَامَ الْحَقِّ يَحْرِمُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْوَائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ ورَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وهُمْ حَرِيصُونَ عَلَيْها، وَهٰذا الْحِرْصُ يُغَشِّي علىٰ بَصَائِرِهم، فَيَجْعَلُهُمْ لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ رُؤْيَةً صَحِيحَةً، ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْ مَوَاقِعِهِ، ثُمَّ يُدْبِرُونَ عَنْهَا ويَتَوَلَّون.

■ ثُمَّ الْتَفَتَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ، وتَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِضَمِير الغائِبِينَ، مُبيِّناً أَنَّهُمْ يُبْرِمُونَ مَكَايِدَ ضِدَّ الرَّسُولِ وضدَّ دَعْوَةِ الحقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْه، وأَنْذَرَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلالُه، بِأَنَّهُ يُبْرِمُ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ، لإِحْبَاطِ مَكَايِدِهم، ونُصْرَةِ دِينِهِ وَرَسُولِهِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فقال الله تعالَىٰ:

● ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾:

«أَمْ» فِي الموضِعَيْنِ للإضْرَابِ الانْتِقَالِيِّ بمعنَىٰ «بَلْ» مع اسْتِفْهام يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ يُبْرِمُونَ أمْراً مَا ضِدَّ دَعْوَةِ الحق وضِدَّ الرَّسُول والمؤمنين، ويُشْعِرُ

بأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللهَ رَبَّهُمْ لَا يَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْواهم، علَىٰ خِلَافِ الحقيقة.

أبْرَمَ الأَمْر: أي: أَحْكَمَهُ، بمَعْنَىٰ: دَبَّرَهُ تَدْبيراً مُحْكماً، لِيُنَفِّذَهُ عَلَىٰ مَا أَبْرَمَهُ فِي الأَعْمَالِ الفِكْرِيّة. وَأَصْلُ الإبْرَام مَأْخُوذٌ مِنْ إبْرَامِ الحبْلِ، بِمَعْنَىٰ فَتْلِهِ وإحْكَامِ تَقْوِيَةِ طَاقَاتِه.

• ﴿سِرَّهُمْ﴾ : أي: أَحَادِيث نُفُوسِهِمْ الَّتِي يَكْتُمُونَها، ويُخْفُونَها، واللهُ عزَّ وجلَّ يَسْمَعُهَا، لأَنَّ أَحَادِيث النُّفُوسِ حَرَكَاتٌ كَلَامِيَّةٌ خَفِية.

• ﴿وَنَجْوَنٰهُمْ﴾ : **النَّجْوَىٰ**: الْمُحَادَثَةُ سِرّاً بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، وتَكُونُ بِصَوْتٍ يَسْمَعَانِهِ.

الْمَعْنَىٰ: بَلْ. أَأَبْرَمُوا كَيْداً ضِدَّ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثْنَا بِهِ رَسُولَنَا محمّداً، وَضِدَّ رَسُولِنا، وضِدّ الَّذِين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّنَا مُبْرِمُونَ كَيْداً أَشَدَّ مِنْ كَيْدِهِمْ، نُحْبِطُ بهِ كَيْدَهُمْ، وَنَرُدُّهُ إِلَىٰ نُحُورِهِمْ، وَنُؤَيِّدُ بِهِ دِينَنَا وَرَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

وبَلْ: أَيَحْسَبُونَ مُتَوَهِّمِينَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ نُفُوسِهِمْ، ولَا نَسْمَعُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ سِرّاً فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ أَحَادِيث؟.

بَلَىٰ نَحْنُ نَسْمَعُ كُلّ ذَلِكَ، ونُتَابِعُهُمْ في كُلّ كَبِيرَةٍ وصَغِيرَةٍ، وَيُضَافُ إِلَىٰ هـٰذا أَنَّ رُسُلَنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ المصَاحِبِينَ لَهُمْ والْمُرَاقِبِينَ لِكُلِّ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ يَكْتُبُونَ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ، مَهْمَا كانَ سِرّاً.

وبهـٰذا تَمَّ تَدبّر الدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الزُّخْرُف).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١٦)
التدبّر التحليليّ للدّرس الثاني عشر مِنْ دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٨١ ـ ٨٩) آخر السورة

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ (٨١) سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

القراءات:

(٨١) ● قرأ حَمْزَة، والكِسَائي: **[وُلْدٌ]** بالْجَمْع.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة: ﴿**وَلَدٌ**﴾ بالإفراد.

ومُؤدَىٰ القراءتَيْنِ وَاحِدٌ.

(٨١) ● قرأ نافع، وأبُو جَعْفَر: ﴿**فَأَنَا أَوَّلُ**﴾ بإثْبَاتِ ألِفِ «أنَا» وصْلاً، ووقفاً.

وقرأها بَاقي القراء الْعَشَرَةِ بِحَذْفِ ألف «أنَا» وصْلاً، وإثْبَاتِها وقْفاً.

(٨٣) ● قَرأ أَبُو جَعْفَر: **[يَلْقَوْا]** مِنْ فِعْل: «لَقِي».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**يُلاقُوا**﴾ مِنْ فعل: «لاقَىٰ». والمؤدّىٰ وَاحد.

(٨٥) ● قرأ ابْنُ كثير، وحمزة، والْكِسَائي، وخَلَفٌ: **[يُرْجَعُونَ]** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، مع ضمير الغائبين.

وَقرأها رُوَيْسٌ: [يَرْجِعُونَ] بالْبِنَاءِ للمعْلُومِ مع ضمير الغائبين.

وقرأَهَا رَوْح: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعْلُوم مع ضمير المخاطبين.

وقرأَهَا بَاقِي القراء الْعَشَرَة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبنَاء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ مع ضمير المخاطَبِين.

(٨٨) • قرأ عَاصم، وحَمْزَة: ﴿وَقِيلِهِ﴾ بالْجَرِّ، وكسْرِ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَقِيلَهُ] بالنّصْب وضمّ هاء الضمير.

الجرُّ والنَّصْبُ وَجْهَانِ عَرَبيانِ عَلَىٰ تَخْرِيجَيْن.

(٨٩) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جعفر: [تَعْلَمُونَ] بضَمِير المخاطَبِين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بضَمِيرِ الغائبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الأَدَاءِ البياني.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْس تَعْلِيمٌ مِن اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِه ﷺ، بَعْضَ مَا يُعَالِجُ به الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجيبوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ إبَّانَ التَّنْزِيل.

وَفي هٰذا التعليم وَعِيدٌ وَإقْنَاعٌ حَكِيمٌ، وَتَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ بِأَنْ يَصْفَحَ عَنْ سَيِّئَاتِ المشْرِكين، وأَنْ يُنْهِيَ الكَلامَ مَعَهُمْ بِكَلِمَة: «سَلام» وَبأَنْ يُنْذِرَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ جَزَاءَهُمْ يَوْمَ الدِّين، وسَوْفَ يَذُوقُونَهُ فِي الْجَحِيم.

التدبُّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ أسْلُوباً مِنْ أسَالِيبِ مُعَالَجَةِ الَّذِينَ افْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ فَجَعَلُوا لَهُ وَلَداً أَوْ أَوْلَاداً.

• ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وُلْدٌ] بالجمع: مِنَ الّذِينَ جَعَلُوا للرَّحْمٰنِ وَلداً النصارىٰ الذين قالُوا: عيسَىٰ ٱبْنُ الله.

ومن الذين جَعَلُوا للرَّحْمٰنِ «وُلْداً» بالجمع الذين قالوا: الملائكَةُ بَنَاتُ الله، وهم بعضُ قبائِلِ العرب.

اسْتِعْمَالُ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ هُنَا للدَّلَالَة علَىٰ أَنَّ الشَّرْط احْتِمَالٌ افْتِرَاضِيٌّ مَرْفُوضٌ عَقلاً.

والمعْنَىٰ: اعْلَمُوا أيُّها الّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّ للهِ وَلَداً أَوْ أَوْلاداً، إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ أَوْ أَوْلَادٌ في الْوَاقِعِ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِوَلَدِ الرَّحْمٰنِ، أَوْ أَوْلَادِه، لأَنَّ وَلَدَ الرّبّ الإلَهِ جُزْءٌ مِنْهُ، فَهُوَ يُشَارِكُهُ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلٰهِيَّتِه، لَكِنَّ الرَّبَّ الرَّحْمٰنَ يَسْتَحِيلُ عَقْلاً أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْ ذَاتِهِ جُزْءٌ، أَوْ يَدْخُلَ في ذَاتِهِ شيءٌ مِنْ غَيْرِه، إِذْ هُوَ صَمَد، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد، وهُوَ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ، فَلَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَلَا النّقص، وما هُو أَزَلِيٌّ مِنْ ذَاتٍ أَوْ صِفَةٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَبَدِيّاً، والتَّغَيُّرُ يُنَاقِضُ الأَزَلِيَّة الأَبَدِيَّة.

هٰذا البيانُ مَوْصُولٌ بِمَا جَاءَ في الدَّرْسِ الثالث من دُروس السُّورة.

الآيات من (١٥ ـ ١٩) مِنْ بيانِ أَنَّ بَعْضَ المشْرِكينَ جَعَلُوا للهِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً، وَبَعْضَ المشركينَ جَعَلُوا الملائكةَ بَنَاتاً للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَلَىٰ مُبَيِّناً تَنَزُّهَ ذَاتِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ أَوْلَادٌ، وَأَنَّ مَا يَزْعُمُهُ الْمُشْرِكُونَ بَاطِلٌ لَا شَكَّ في بُطْلَانِه:

• ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

«سُبْحَانَ» كَلِمَةُ تَنْزِيهٍ، وهِيَ فِي مَوْقِعِ المصْدَر، وليس مِنْها فعل،

والمعْنَىٰ: تَنَزَّهَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْض وَربُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ المشْرِكُونَ، مِنْ أَنَّ لَهُ وَلداً هُو جُزْءٌ مِنْهُ، أَوْ أَنَّ لَهُ أَوْلَاداً هُمْ أجزَاءٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، أَوْ وَلَداً أَوْ أولاداً بالتَّبَنِّي.

كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَوْلَاد والسَّمَاواتُ والأَرْضُ وَالْعَرْشُ وكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقَةٌ لَهُ بأمْرِ التكْوينِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ إنَّ هٰذِهِ الْفِكرة مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطين، وإنَّ قَبُولَهَا مِن سَقَطاتِ الفِكْرِ الإنْسَانِيِّ الشَّنِيعَةِ، المصَادِمَةِ لمنْطِق العقول السّلِيمةِ، ومَقَاييسها الصَّحِيحَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ وَكُلَّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَذَرَ المشْرِكينَ الَّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، يَخُوضُوا ويَلْعَبُوا في الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ يُلَاقُوا مَصِيرَهُمْ مِن الْعَذَابِ الَّذي يُوعَدُونَهُ فِي الْبَلاغَاتِ عَنِ الله، يَوْم القيامة:

• ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

• ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أي: فَدَعْهُمْ، وَلَا تَهْتَمَّ مِنْ أَجْلِ كُفْرِهِم.

• ﴿يَخُوضُوا﴾: أَصْلُ الْخَوْضِ الْمَشْيُ في الْمَاءِ وَتَحْرِيكُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنَىٰ التَّلَبُّسِ في الأَمْرِ، وتَعْكِيرِ صَفْوِ حَقَائِقِ الأُمُور. والْخَوْضُ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ الكَذِبُ وَالْبَاطل. ويَأْتِي الْخَوْضُ فِي آيَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ بِمَعْنَىٰ الطَّعْنِ فيها، والسُّخْرِيَةِ والكُفْرِ والاسْتِهْزَاءِ بها.

• ﴿وَيَلْعَبُوا﴾: **اللَّعِبُ**: ضِدُّ الْجِدّ، ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَملاً لَا يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعاً: إنَّمَا أَنْتَ لَاعِب، فَكَيْفَ إذا كَانَ لَعِبُهُ يَجْنِي عَلَيه، ويَجْلُبُ لَهُ عَذَاباً أليماً.

• ﴿. .حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: حَتَّىٰ يُلَاقُوا حِسَابَهُمْ، وَفَصْل الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَجَزَاءَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، فِي يَوْمِهِم الَّذِي يُوعَدُونَهُ، في آيَاتِ كِتَابِ رَبِّهِمْ، وَفِي بَيَانَاتِ رَسُولِهِ، وبَلاغَاتِ الدُّعَاة إلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ.

«لقِيَ الشَّيْءَ، وَلاَقَاهُ» أي: اسْتَقْبَلَهُ وَوَاجَهَهُ، وحَصَلَ لَهُ مَا يَحْدُثُ بهـٰذِهِ المواجَهَةِ مِمَّا هُوَ مَوْعُودٌ به.

■ قول اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ:

● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

فِي هـٰذِهِ الآياتِ بَيَانُ سَبْعِ صفاتٍ يَصِفُ اللهُ عزّ وجلّ بِهَا نَفْسَه، تَرْسِيخاً وتَعْمِيقاً لِكُلِّيَّاتٍ إيمانيَّةٍ في قُلُوبِ المؤمِنِينَ، وإسْقَاطاً لِنَقَائِضِهَا وَأَضْدَادِهَا المتمركِزَةِ فِي أَوْهَامِ الْكَافِرِين:

الصفة الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾:

أي: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي اجْتَمَعَتْ لَهُ صِفَةُ الإلَـٰهِيَّةِ في السَّمَاءِ، فَمَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ يَعْبُدُونه، وصِفَةُ الإلَـٰهِيَّةِ في الأَرْضِ، فالمؤمِنُون مِنَ الجنِّ والإنْسِ يَعْبُدُونَهُ في الأَرْض، والْمَلائِكَةُ الّذِين لَهُمْ وَجُودٌ فِي الأَرْضِ يَعْبُدُونه فيها.

أَمَّا مَا يُعْبَدُ في الأَرْضِ مِنْ دُونِ الله، فَلَيْسَ لَهُ مَنْ يَعْبُدُهُ في السَّماء، لأَنَّ سَكَانَ السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلائِكَة مُؤمِنون بالطَّبْعِ فلا يعبدون إلّا ربَّهم.

الإلَـٰه: هُوَ في اللُّغَةِ الْمَعْبُود، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَعْبُوداً إلَّا مَنْ كَانَ رَبّاً، وَلَا رَبَّ فِي الوجُودِ كُلِّهِ غَيْرُ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ.

الصّفة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾:

أي: وهُوَ المتَّصِفُ بِكَمَالِ الحِكْمَةِ، فِي اخْتِيَارَاتِهِ من الاحْتِمَالَاتِ الْمُمْكنَاتِ، وَفِي تَصارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ وفي عِبادِه.

الْحِكْمَةُ: اخْتِيَارُ مَا هُوَ الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ مُلاءَمَةً لِمَا اخْتِيرَ لَهُ.

الصفة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ عطفاً علىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: وهُوَ المتَّصِفُ بِكَمَالِ الْعِلْم، فَهُوَ جَلَّ جَلالُهُ قَدْ أحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً، مِنْ أصْغَرِ صَغِيرٍ إلَىٰ أكْبَرِ كبير، لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ولَا أصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ولَا أكْبَرُ.

الصفة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

تَبَارَكَ: أي: تَنَامَىٰ وتزايَدَ وَتَعَاظَمَ بالإطلاق العامّ، فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ بِهِ الواصِفُونَ مِنْ كَمَالَات، وهو علىٰ وزن «تَفَاعَلَ» مِنَ الْبَرَكَة، وهي في اللُّغَة النماء والزيادة في الحِسّيَّاتِ وفي المعنويات من كلِّ خير.

المعنىٰ: تَنَامَىٰ وتَزَايَدَ وتَعَاظَمَ فِي صِفَاتِ كَمَالَاتِه فوْق كُلِّ مَا يَصِفُهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ مِنْ كَمَالَات، الرَّبُّ الَّذِي لَهُ بِمُقْتَضَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ كَوْنِهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَ أفراد السَّمَاوَات، وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، والْمَلَائِكَةُ والْجِنُّ والإنْسُ جميعاً عَبِيدُه، لأَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، ومَمْلُوكُونَ له.

الصِّفَة الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

أي: وعِنْدَه وَحْدَهُ عِلْمُ وَقْتِ قِيَام سَاعَةِ إنْهَاءِ الحياةِ الدُّنيا، وعِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ سَاعَةِ الْبَعْثِ لِلْحَيَاة الأُخْرَىٰ.

هٰذا الْعِلْمُ مِمَّا لَمْ يُطْلِعِ اللهُ عَلَيْهِ أحداً مِنْ خَلْقِه.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ في هٰذِهِ العبارة مِنْ تَقْدِيم الْمُسْنَدِ الَّذِي هُوَ خَبَرٌ، علىٰ المسْنَدِ إلَيْهِ الَّذي هُوَ مُبْتَدأ.

الصِّفَة السَّادِسَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: وإلَىٰ حِسَابِهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزائه، تُرْجَعُونَ يَوْمَ الدِّين، أَيُّهَا الموضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

في هـٰذِهِ العبارة قَصْرٌ اسْتُفِيدَ مِنْ تَقْدِيم المعْمُول «إلَيْهِ» عَلَىٰ عَامِلِهِ: «تُرْجَعُون» فالْحُكْمُ يَوْمَئِذٍ للهِ وَحْدَه.

الصِّفَة السَّابعة: دلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

سبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ شُرُوطِ الشَّفَاعَةِ بوجْهٍ عَام، أمَّا المعْبُودُونَ، ومنْهُمُ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ بَعْضِ الْعَرَبِ، وعيسَىٰ عِنْدَ النَّصارَىٰ، وعزَيْرٌ عِنْدَ بَعْضِ الْيَهُودِ ـ فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَهْمَا كانَ شَأْنُهُ وارْتَفعَتْ مَنْزِلَته ـ شَفَاعَةً مَا لأَحَدٍ مَا إلَّا ضِمْنَ الشُّروط الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها في نُجُومِ التَّنْزِيل، وهي:

(١) أَنْ يَأْذَنَ اللهُ للشَّافِعِ بأنْ يَشْفَعَ للمشْفُوعِ له.

(٢) أَنْ يَرْضَىٰ اللهُ عزّ وجلّ قَوْلَ الشَّافِعِ في المشْفُوعِ له.

(٣) أَنْ يَكُونَ المشْفُوعُ لَهُ مِنَ عُصَاةِ المؤمنين، أمَّا الْكَافِرُونَ فَلَا شَفَاعَةَ لأَحَدٍ فيهم.

وَدَلَّ ما جاء في هٰذِهِ الآية (٨٦) علىٰ أنّ الْمعبُودين مِن دونِ اللهِ لا يَمْلِكُ الشفاعَةَ منْهُمْ إلَّا منَ تَحَقَّقَ فِيهِ شَرْطان:

الشَّرْطُ الأَوَّل: أَنْ يَكُونَ مُؤْمِناً قَدْ شَهِدَ بالْحَقِّ شَهَادَة صَادِقَةً صَحِيحَة، أَعْلَنَ فيها إيمانَهُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بالإيمان بِهِ، في الدِّينِ الّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِه، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾.

الشَّرْطُ الثاني: أَنْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ في أجْهِزَةِ الْمَعْرِفَةِ لَديهِمْ، مَا شَهِدُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ عِلْماً جَلِيّاً، ولَمْ تَكُنْ شَهادَتُهُمْ الإيمانِيَّةُ

تَقْلِيداً غَيْرَ مَصْحُوبٍ بِعِلْمٍ بِحَقَائِقِ أَرْكَانِ الإيمانِ. ويَعْلَمُونَ أَيْضاً حَالَ مَنْ يَشْفَعُونَ لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإيمان، لَكِنَّهُ كان مِنْ مُرْتَكِبي كَبَائِرِ الإثم. دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الشرط: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فالمعنىٰ: وَلَا يَمْلِكُ المعْبُودُونَ مِنْ دونِ اللهِ الشَّفَاعَةَ لأَحدٍ، إلَّا مَنْ تَحقَّقَ فِيهِ مِنْهُمْ شَرْطان:

(١) أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ شَهِدَ بالحقّ شَهَادَةً صَادِقَةً صَحِيحَة.

(٢) أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ عَلِمْ بما شَهِدَ بِهِ، وعلىٰ عِلْمٍ بحالِ مَنْ يَشْفَعُ لَهُ.

وَهـٰذان الشَّرْطَانِ في الشَّافِعِ مُضَافَانِ للشُّروطِ الثَلَاثَةِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها لِعُمُومِ الشَّفَاعَةِ، وَلَدَىٰ التَّأمُّل نُلَاحِظُ أَنَّهُمَا مِنْ لَوازِمِ الشروط الثَّلَاثَةِ العامَّة.

• ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾: أي: يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، ومِنْهُمْ الملائكة وعيسَىٰ والعزير عليهم السلام، فقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُ الدُّعَاءِ في القرآنِ بِمَعْنَىٰ العبادة في عِدَّةِ نُصُوص.

■ قولُ الله تَعالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وإسْمَاعاً لِلْمُشْرِكِينَ، وهُوَ قَوْلٌ مَوْصُولٌ بما جَاءَ في الآية (٩) من السّورة.

• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: أُقْسِمُ لَئِنْ سَأَلْتَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ مُبَاشَرَةً بتلقائيَّة لا تَرَيُّثَ فِيهَا: اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، كما يجيبون علَىٰ سُؤال: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؟ إنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهُ هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَبُّهُمْ، ويَلْزَمُ من هـٰذا الإيمانِ أنْ يُؤْمِنُوا بأنَّ رِزْقَهمُ وَنَصْرَهُمْ وَسَائِرَ تَصارِيفِ حَيَواتِهِمْ خاضِعَةٌ لسُلْطَانِ رُبُوبيَّة اللهِ لَهُمْ، واللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ لِهـٰذا الإيمان أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُو المسْتَحِقُّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَة، وَأَنَّ عِبادَةَ غَيْرِهِ شِرْكٌ بِهِ، وإنْكَارٌ لِحَقِّهِ،

وهٰذا مِنَ الكُفرِ الَّذي يجازي اللهُ عَلَيْهِ بالْخُلودِ فِي عَذَابِ النار يَوْم الدِّين.

• ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟: أي: فَكَيْفَ يُصْرَفُ المشرِكُونَ عَنْ هٰذِهِ الْحَقِيقَةِ فَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهم، وكَيْفَ يُعَرِّضُون أَنْفُسَهُمْ لِلْخُلُودِ في عَذَاب النار؟.

الاستفهام في هٰذِهِ العبارة اسْتِفهَامُ تَعْجِيبٍ مِنْ أَمْرِهم، وتَلْوِيمٍ لَهُمْ دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بالْخِطَاب.

• ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصْرَفُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً عَنْ رَسُولِهِ ﷺ بضَمِير الغائب.

• ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

وفي القراءَة الأخرىٰ: [وَقِيلَهُ] بِالنَّصْبِ، علىٰ اعتبار أَنَّهُ مَصْدَرٌ نُصِبَ علىٰ أنه مفعول مطلقٌ وهو بَدَلٌ من فِعله. ولا أرىٰ مانعاً مِنْ تقدير فعل محذوف: أي: وسَمِعَ اللهُ قِيلَهُ.

الْقِيْلُ: الْقَولُ، أي: وقَوْل الرَّسُول: يَا رَبِّ إنَّ هؤلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ.

وأَحْسَنُ تَخْرِيجٍ لِجَرِّ: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بِحَسَبِ قراءَة الجرِّ، أنَّ اللَّفْظَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ لَفْظِ السَّاعَةِ، والتَّقْدِير: وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَعِلْمُ قِيلِ الرَّسُولِ فِي نَفْسِهِ مُتَلَهِّفاً: يَا رَبِّ إنَّ هؤلاءِ الأئمَّة، الْمُشْرِكينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُون، أي: لَيْسُوا مُسْتَعِدِّين أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً. ولا أرىٰ مانعاً من تقدير: وهو سَامِعُ قِيلِهِ.

وفي عَرْضِ هٰذِهِ الشَّكْوَىٰ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنْهُمْ، فَمِنَ الْخَيْرِ التَّخَلُّصُ مِنْهُمْ، لِتَكُونَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الدِّينِ الحقِّ أَوْسَعَ سَيْراً، وأَكْثَرَ انْتِشَاراً، وأَكْثَرَ اسْتِجَابَةً لَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ المَكِّيّ، فَوُجُودُهُمْ فِي مُجْتَمَعِهِم عَقَبَةٌ كُبْرَىٰ مِنْ الْعَقَبَاتِ الْمُعَوِّقَاتِ لانْتِشَارِ دَعْوَةِ الْحَقِّ.

■ فَأَجَابَ اللهُ رَسُولَهُ بأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي التَّرَيُّثَ، وَقالَ لَهُ:

• ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

الصَّفْح: الإعراضُ عَنِ الذَّنْب وعَدَمُ المؤاخذة عليه. وأصْلُ الصَّفْحِ فِي اللُّغَةِ: **الْجَنْبُ**. وصَفْحُ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبَاهُ، فمعْنَىٰ عَدَم المؤاخَذَةِ عَلَىٰ السَّيِّئَةِ مَأْخُوذٌ من إعْطَاءِ الجانِبِ إعْرَاضاً عَنِ المؤاخَذَة.

• ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾: وَقُلْ لهم: لَكُمْ مَنّي سَلَامُ مُفَارَقَةٍ لَكُمْ، وبُعْدٍ عَنْكُمْ وَعَنْ دَعْوَتِكُمْ، إذْ لَا جَدْوَىٰ مِنْ مُجَاهَدَتِكُمْ ومُجَادَلَتِكُمْ لإقْنَاعِكُمْ بالحقِّ، فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّكُمْ مَيْؤُوسٌ مِن اسْتِجَابَتِكُمْ عَنْ طَرِيق إرادَاتِكُمُ الحرَّة.

• ﴿.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾: أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ يَوْمَ القيامَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا مُبْطِلِينَ جَاحِدِينَ مُعَانِدِينَ، يُصِرُّونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَنَّهم كانُوا يسْتَهِينُونَ بِوَعِيدِ اللهِ وَعَذَابِهِ الشَّدِيد، حِينَ يَرَوْنَ مَقَاعِدَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، وحِينَ يُشَاهِدُونَهَا وَهُمْ علَىٰ أبوابِهَا يُحَاسَبُونَ، وحينَ يَذُوقُونَ عَذَابَهَا وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون، وفي القراءة الأخرىٰ: [**فَسَوْفَ تَعْلَمُون**] بالخطاب.

الفاء في ﴿فَاصْفَحْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ علىٰ مَحْذُوف، تَقْدِيرُهُ: فَلَا تَسْتَعْجِلِ التخلصَّ مِنْ هؤُلاءِ الأَئمَةِ الْمُكَابِرين الْمُعَانِدِينَ، فالْحِكْمَةُ تقتضي إمْهَالَهُمُ الآن، فَاصْبِرْ عَلَىٰ أذاهُمْ، وتَجاوَزْ عَنْ مُقَابَلَةِ سَيِّئَاتِهِمْ بِمِثْلِهَا، وَقُلْ لَهُمْ: هـٰذا سَلَامُ مُفَارَقَةٍ مِنِّي لَكُمْ، وسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ حِينَ تَرَوْنَ عَذَابَكُمْ يَوْمَ الدِّينِ، كما جَاءَ فِي الْقِراءَةِ الأُخرىٰ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأخيرِ مِنْ دُرُوس سُورَة (الزُّخْرُف).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٧)
ملحق: مُسْتَخْرَجات بَلَاغِيَّة من السُّورَة

تشتمل سورة «الزّخرف» علىٰ اختياراتٍ بَلاغِيَّة مُتَعَدِّدَة، وقَدِ اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا بِتَوْفِيقِ اللهِ ومَعُونَتِهِ مَا يلي:

أوّلاً: الإشَارَة إلَىٰ الْقَرِيب باسم الإشارة الموضوع للبعيد للدَّلَالَة علىٰ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِه

ومِنْهُ في هٰذِهِ السّورة ما يلي:

قول اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابِ المؤمِنينَ وهُمْ في الْجَنَّةِ يُنَعَّمُون بنعيمها:

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾.

«تِلْكَ» اسم إشارة مَوْضوعٌ للمشارِ إلَيْها الْبَعِدَةِ، يُخَاطَبُ بِهَا أهْلُ الجنَّةِ وَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ في نَعِيمها، للدَّلَالَة علىٰ ارْتِفَاعِ قِيمَتِها جَوْهراً، وَعَطَاءً مِنَ النَّعِيم المقيمِ الخالد.

ثانياً: القصر

القصر: وَهُوَ تخصيصُ شيءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَة كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ومِنَ الْقَصْرِ في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)﴾.

في هـٰذِهِ الآية ثَلاثَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ أمْثِلَةَ الْقصر:

(١) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

أي: لَهُ وحْدَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما، لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ في مُلْكِها، لأنَّها مَخْلُوقَاتٌ لَهُ، والخالِقُ مَالِكٌ لِمَا خَلَق.

وقد دَلَّ عَلَىٰ الْقَصْر تَقديم المسْنَد الَّذِي هُوَ الخبر، عَلَىٰ المبتدأ الذي هو المسْنَدُ إليه.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيّ، من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

(٢) ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

أي: وعِنْدَهُ وَحْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، الَّتِي يَتمُّ بها إنْهاءُ ظُرُوف الحياة الدنيا كُلّها، والسَّاعَة الَّتِي يَتِمُّ بهَا بَدْءُ ظُرُوف الحياة الأُخرىٰ، فَلَمْ يُطْلِعِ اللهُ أحداً علَىٰ وَقْتِ قيامِ السَّاعة.

دَلَّ علىٰ القصرِ تَقْدِيم المسْنَدِ الذي هو الخبَر: «عِنْدَه» علىٰ المسند إليه المبتدأ: «عِلْمُ السَّاعَة».

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

(٣) ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أي: وإلىٰ حِسَابِهِ، وفَصْلِ قضائِهِ، وتنفيذِ جزائِهِ، تُرْجَعُونَ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ الْبَعْث، فالْحُكْمُ يَوْمَئذٍ للهِ وحْدَه.

دَلّ علىٰ القصر تقديم المعمول «إليه» عَلَىٰ عامِله «تُرْجَعُون».

وهو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

المثال الثاني: قول اللهِ تَعالىٰ:

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أي: ولا يَمْلِكُ الّذين يَعْبُدُهم المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ الله الشَّفَاعَة

لأَحَدٍ، إلَّا مَنْ كانَ مِنْهُمْ مُؤمِناً وَشَهِدَ بالْحَقِّ عَنْ عِلْم، وهُمْ يَعْلَمُونَ حَالَ مَنْ يَشْفَعُونَ لَهُ أنَّهُ كَانَ مُؤْمِناً.

دلَّ علىٰ القصر النفي والاستثناء، وهو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةٍ علَىٰ مَوْصُوف.

ثالثاً: الإيجاز بالحذف

ومن الإيجاز بالحذف في السورة ما يلي:

قول اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله ﷺ يُعَلِّمُهُ مَا يَقُولُهُ للمشركين:

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: [قَال أ] تَسْتَمِرُّونَ مُتَّبِعِينَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ، ومُحَافِظِين عَلَىٰ تَقْلِيدِهِمْ وَالسَّيْرِ عَلَىٰ آثَارِهِمْ [**وَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُم عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ**] مِمَّا يَضْمَنُ لَكُمْ النَّجاةَ وَالسَّعَادَة الأَبَدِيَّة يَوْمَ الدِّين؟.

رابعاً: الالتفات

يُوجَدُ في السُّورَةِ الْتِفَاتَاتٌ كثيرات من الْخِطَابِ إلىٰ الغيبة، والعكس، ومِنَ المفرد إلَىٰ الْجَمَاعَةِ والعكس، وانْتِقَالاتٌ من الحياةِ الدُّنيا، إلىٰ الآخِرَة، وهي فُنُونٌ بَلاغِيَّة جَمِيلَةُ الحركة عِمَادُهَا التَّنوِيع.

خامساً: الاسْتِقْطَاعُ مِنَ الماضي أو المستقبل وَتَقديمُ البيانِ كأَنَّهُ يَجْرِي الآن

ومن هٰذا الفنّ البديع في السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في حِكَايَةِ مَا يُخَاطِبُ بِهِ الْكَافِرِينَ يَوْم الدين:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

هـٰذا بَيانٌ مُسْتَقْطَعٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ يَوْم الدِّينِ للّذِين كانُوا في الدُّنْيَا يَعشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وَقُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِين، دُونَ أَنْ يَشْتَمِلَ النَّصُّ علىٰ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوْفَ يُقَالُ لَهُمْ هـٰذا القول.

المثال الثاني: قول اللهِ عزّ وجلّ مُبَيِّناً مَا يَقُولُهُ الكافِرُونَ بَعْدَ عَذَابٍ طَوِيلٍ في دَار العذاب النارِ:

﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

المثالُ الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ مُبَيِّناً مَا يُخَاطِبُ بِهِ الَّذِينَ كَانُوا في الحياة الدُّنْيَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا مسلمين، دُونَ إشْعَارٍ بأنَّهُ مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، بَلْ جَاءَ مُسْتَقطعاً اسْتِقطاعاً:

﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

سادِساً: من خروج الاستفهام عَنْ أصْلِ دَلاَلَتِهِ وهي طَلَبُ الإفهام إلىٰ مَعَانٍ أخرىٰ

يُوجَدُ فِي السُّورَةِ مِنْ هـٰذا الاختيار البلاغي عِدَّة أمْثِلَة، وَمِنْها مَا يلي:

المثال الأوَّل: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ اعتقادِ بَعْضِ مُشْرِكي العرب أنَّ الملائِكَةَ إِناث، وهـٰذِهِ بَنَاتُ الله:

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

في عِبَارَةِ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ شُهُودِهِمْ خَلْقَ الْمَلَائِكَةِ، مَعَ تَوْبِيخِهِمْ علىٰ ادّعَاءِ أَمْرٍ لَمْ يَشْهَدُوهُ، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ دَلِيلٌ مَا عَلَيْهِ.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ اعْتِقَادِ هؤُلاء المشرِكين بَنَاتٍ للهِ بالتَّبَنِي:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾:

الاسْتِفهام الذي تَضَمَّنَتْه هٰـذِهِ الآيَةُ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَوْبِيخي.

المثال الثالث: قَولُ اللهِ بِشَأْنِ قَوْلِ المشْرِكِينَ: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ، مُتَعَلِّلِينَ بالْجَبْر، وأَنَّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ هٰـذِهِ:

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾:

الاستفهام الّذي دَلَّتْ عَلَيْه «أَمْ» إنْكَارِيٌّ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَمْ نُؤْتِهِمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِ القرآن فيه الإذْنُ لَهُمْ بِعِبَادَة غَيْرِ اللهِ رَبِّهِمْ.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ، يُرْشِدُهُ فِيهِ إلىٰ عَدَمِ إنْفَاقِ وقْتِهِ وَطَاقَاتِ مُجَاهَدَتِهِ في قَوْمٍ بَلَغُوا دَرَكَةَ الميؤوسِ من اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِم الحرَّة:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾:

في الاسْتِفْهَامِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هٰـذِهِ الآيَةُ، مَعْنَىٰ الإرْشادِ إلَىٰ تَوْجِيهِ جِهَادِ الدَّعْوَةِ لِغَيْرِ الميْؤُوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ تَدْبِيرِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ في مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل، كيداً ضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ، ودَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة الَّتِي يَدْعُو الناسَ إلَيْها:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

الاستفْهَامُ الّذي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هـٰذا البيان بمَا تَضَمَّنَتْهُ «أم» الَّتِي هي للإضْرَابِ مَعَ الاسْتِفْهام، يُرَادُ به إعْلَامُ المقْصُودِين مِنْ أئِمَّةِ الشِّرْك، بأنَّ إبْرَامَاتِهِمْ الكَيْدِيَّة مَعْلُومَةٌ للهِ، وأنَّ اللهَ يُبْرِم مَا يُحْبِطُهَا ويَرُدُّ بِهِ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِم، وإعْلَامُهُمْ بأنَّ تَوَهُّمَهُمْ عَدَمَ عِلْمِ اللهِ بِمَا يُسِرُّونَهُ وَمَا يَتَناجَوْن بِهِ بَيْنَهُمْ توهُّمُ بَاطِل، بَلِ اللهُ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهم، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خافِية.

المثال السادس: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

في عبارة: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقّ؟ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ التَعْجيب مِنْ أَمْرِهِمْ، والتَّوْبِيخُ لهم.

سابعاً: تَوكيدُ الْجُمَلِ الخبريَّة لِدَوَاعٍ بَلاغِيَّةٍ تَقْتَضِي التوكيد

توجَدُ في السُّورَةِ جُمَلٌ خَبرِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لأَنَّ حَالَ المقْصُودِينَ بالبيانِ يقتضي التوكيد، ومِنْها الأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً للنَّاسِ وفي مُقَدِّمَتِهِمْ عَرَبُ مَكَّة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

في الجملة الأولىٰ التوكيد بِـ«إنّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة».

وفي الجملة الثانية التوكيد بـ«إنّ ـ والجملَة الاسميَّة ـ واللام المزحْلَقَة».

وقَدِ اقْتَضَىٰ هـٰذا التوكيد هُنَا أنَّ الْمقصُودِين بالْخِطَاب كُفَّارُ قُرَيش.

المثال الثاني: قَوْلُ الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾:

جَاءَ التوكيد في هـٰذا البيان بالْقَسَمِ المنوِيّ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ اللام من [لَئِنْ] الْمُوَطِئَة لِلْقَسَم، واللَّامُ فِي جواب الشَّرْطِ، مَعَ نُونِ التوكيد الثقيلة: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لأَنَّ حَالَ المقصودين بالْخِطاب تَقْتَضِي هـٰذا التوكيد.

ونَظِيرُه مَا جاء في الآية (٨٧) من السورة.

المثالُ الثالث: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ يُعَلِّمُ المؤمنينَ الذِّكْرَ المطْلُوبَ مِنْهُمْ، إذَا رَكِبُوا مَرْكوبَاتِهِمْ المصْنُوعَةِ وَالْمَخْلُوقَةِ مُبَاشَرَةً بِخَلْقِ الله:

﴿... وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

في عبارة ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ التوكيد بـ«إنّ ـ والْجُمْلَةِ الاسمية ـ واللّام المزَحْلَقة» والغرضُ تَعْلِيمُ المؤمنِ أَنْ يُعْلِنَ إيمَانَهُ بالآخِرَة إعْلَاناً مُؤكّداً دَالاً عَلَىٰ رُسُوخِ الإِيمانِ هـٰذا في قَلْبِهِ.

المثالث الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ يَحْكِي مَقَالَةَ المشْرِكِينَ المتَشَبِّثِينَ بتَقْلِيدِ آبائهم:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

وَنَظيرهُ مَا جَاء في الآية (٢٣).

في هـٰذا البيان جُمْلَتَان مُؤَكَّدتَان، بـ«إنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» وهُمَا مِنْ أَقْوَالِ المشْرِكِينَ يُؤَكِّدُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُمْ وارِثُونَ شِرْكَهُمْ عن آبائِهم، وأَنَّهُمْ ثَابِتُونَ علَىٰ التَّمسُّكِ بهـٰذا الشِّرْكِ.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ مُشْرِكي مَكَّةَ إبّانَ التَّنْزِيل:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أَكَّدُوا كُفْرَهُمْ بالْقُرآنِ بـ«إنّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة» وَغَرَضُهُمْ التَّيْئِيسُ مِنْ مُعَالَجَتِهِمْ رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا ويَسْلِمُوا.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَا أَوحَىٰ اللهُ به إلَيْهِ مِنْ قرآنٍ ومَعَهُ غَيْرُه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

جَاءَ تَوْكِيدُ هـٰذا البيان بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ والّلام المزحْلَقة» لِأَنَّ المقْصُودِينَ بالْبَيانِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِ الرَّسُول، ولَوْ كَانَ الْخِطَابُ مَوَجّهاً له.

المثال السَّادِس: قولُ الله تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

جَاءَ التوكيد بـ«لَقَدْ» المشْعِرَةُ بأَنَّ اللّام مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ قَسَمٍ مَنْوِي، لِأَنَّ المقْصُودِين بالتوكِيد المشْرِكُونَ الْكَافِرُون.

وقول مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُؤَكِداً بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» لِأَنَّ حَال فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ تَسْتَدْعِي بَلَاغِيّاً هـٰذا التوكيد.

وأكْتَفِي بِهـٰذِهِ المستخرجات من الاختيارات الْبَلَاغِيَّة في سورة «الزُّخْرف». والحمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحه.

خاتمة المجلّد الثاني عشر

هٰذا ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيَّ مِنْ تَدَبُّر لست سُورٍ من التَّنْزِيلِ المكي، هي: «سبأ/ ٥٨ ـ الزُّمر/ ٥٩ ـ غافر/ ٦٠ ـ فُصِّلَتْ/ ٦١ ـ الشورىٰ/ ٦٢ ـ الزُّخرف/ ٦٣» الَّتِي اشتمل علىٰ تَدَبُّرِهَا هذا المجلّد الثاني عشر، مع المسْتَخْرَجَات الْبَلَاغِيَّة مِنها.

وقد اجْتَهَدْتُ أَنْ أَلْتَزِمَ مَنْهَجِي في كتاب: «قَوَاعِدِ التَّدَبُّر الأَمْثَل لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وكُنْتُ أسْأَلُ اللهَ رَبِّي آناً فآناً أَنْ يُسَدِّدَني فِي فَهْمِ كِتَابِهِ المجيدِ، فَمَا أَصَبْتُ فيه فَهُو مِنْ فَيْضِ عَطَاءِ رَبِّي جَلَّتْ مِنَنُه، ولَيْسَ لِي مِنْهُ شيءٌ، وَمَا أَخْطَأْتُ فِيهِ فَهُوَ مِنِّي وَمِنْ قُصُوري عَنْ بُلُوغِ الآفَاقِ السَّامِيَاتِ، لِدَلَالاتِ كَلِمَاتِ اللهِ المنزَّلَاتِ لِهِدَايَةِ الناسِ إلىٰ صراطِ اللهِ المستقيم، وَلإعْلَامِهِمْ بِحَقَائق الدِّين الكُبْرَىٰ، وبكَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وقَدْ أعَانَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ كِتَابَةِ هٰذا المجلّد، وأنَا أتقَلَّبُ علَىٰ شَيْخُوخَتِي وَمَرَضِي، بَيْنَ مَسْكَنِي في مَكَّة، وبَعْضِ كُبْرَيَاتِ المسْتَشْفَيَاتِ فِي جَدَّة، وَسَكَنِ ابْنَتِي الدُّكْتُورَة «صَفا» مع زَوْجها الدُّكتور «أَيْمَن ابن الدكتور محمّد خير العرقْسُوسِي» في جَدَّة أيضاً، أُعاني الذُّيُولَ الَّتِي خَلَفَتْ عَنْ سَرَطَانِ الْقولُون الَّذِي امْتَدَّ إلىٰ الكبد.

وكُنْتُ وَمَا زِلْتُ علىٰ ثِقَةٍ تَامَّةٍ وَإِيْمَانٍ عَمِيقٍ بِأَنَّهُ لَا شَافِيَ إِلَّا الله، هُو المبْتَلِي، وَهُوَ الشَّافي، ويُجْرِي أفْعَالَهُ الْحَكِيمَةَ مَسْتُورَةً بِقَنَوَاتِ الْأَسْبَابِ غَالباً، وَقَدْ يُجْرِيها بأَمْرِ التّكْوِينِ المباشرِ، دُونَ أَنْ يَسْتُرَهَا بالأَسْبَاب، إِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَخَافَ عليَّ وَلَدِي الدُّكتور الطبيب «محمد حسن» وولدي الدكتور الطبيب «وَائل» وأخِي الدُّكتور الطبيب «محمّد» من إجْرَاء عَمَلِيَّةٍ جراحِيَّةٍ لِمَا خَلَفَ مِنْ سَرَطَان بَقَايا قولُوني وكَبِدي، أنْ يكُونَ ضَرَرُهَا أكْثَرَ مِنْ نَفْعِها، بالنظر إلىٰ شَيْخُوخَتِي، وبالنَّظَرِ إلَىٰ سَوَابِقِ الْعَمَلِيَّاتِ الجراحِيَّة الّتي أُجْرِيَتْ لي، وإلىٰ تجربَةٍ صغيرة أخيرة.

فَصَحَّ عَزْمي مَعْهُمْ عَلَىٰ أَنْ أُفوِّضَ أَمْرِي إلَىٰ اللهِ وحْدَه، وَأَنْ أقْتَصِرَ علىٰ الدُّعَاء، والاسْتِشْفَاءِ بالقرآن، والْعَسَلِ، والحبَّةِ السَّوْدَاءِ، ومَاءِ زَمْزَم، وبَعْضِ الْعِلَاجَاتِ الطَّبِيعِيَّة، سَائلاً الْمَوْلَىٰ الْجَلِيلَ الَّذِي بيده مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، أَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ إِكْمَالِ تَدَبُّرِ كتابِه، علىٰ وفْق المنهج الّذي فَتَحَ بِهِ عليّ.

وكانَ الفراغُ مِنْ كِتَابَةِ هـٰذا المجلّد قُبَيْلَ الظُّهْرِ مِنْ يوم السبت «١١ مِن شهر رَمضان المبارَك ١٤٢٣هـ» الموافق لـ «١٦/ ١١/ ٢٠٠٢م».

وَسَبَقَ وَأنَا أكْتُبُ هَـٰذَا الْمُجلّد أَنْ تُوُفِّيَتْ زَوْجَتِي «عَائِدَة بنت رَاغب الجراح الحلاق» فِي يوم «١٤/ ٥/ ١٤٢٣هـ الموافق لـ ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٢م».

والحمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَا أعْطَىٰ، والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا أَخذَ، والحمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا يَخْتَارُ لِي، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ أهْلِ النَّارِ.

وَآخِرُ دُعَائي أن الحمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين، والصَّلَاة والسَّلَامُ علىٰ خاتم المرسَلِينَ، وَعَلَىٰ سَائِرِ إِخْوَانِهِ المصطَفَيْنَ الأخْيَار.

رَبِّ آتِنِي مِنَ الْخَيْرِ مَا يُصْلِحُ لِي دُنْيَاي وآخِرَتِي، وَيَزِيدُني ارْتِقَاءً في الدَّرَجَاتِ السَّامِيَات، بِمَا تُوَفِّقُنِي لَهُ مِنْ صَالِحات الأعْمَالِ، وَصَادِقِ النِّيَّاتِ الْمُرْضِيَاتِ لَكَ، وَالدَّعَوَاتِ المستجابَاتِ، إنَّكَ أنْتَ الوَهَّابُ.

يوم السبت في (١١ رمضان المبارك ١٤٢٣هـ) و(١٦/ ١١/ ٢٠٠٢م)

عبد الرحمن حسن حبنَّكَة الميداني

الفهرس

الموضوع | الصفحة

(٥٨)
سورة سَبأ
٣٤ مصحف ٥٨ نزول

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

(٥٩)

سورة الزمر

٣٩ مصحف ٥٩ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

(٦٠)
سورَة غافر (المؤمن)
٤٠ مصحف ٦٠ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

(٦١)
سُورة فُصِّلَت
٤١ مصحف ٦١ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

(٦٢)
سورة الشورىٰ
٤٢ مصحف ٦٢ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

(٦٣)
سورَة الزُّخرف
٤٣ مصحف ٦٣ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة